سلام للعالمين

حوارات عقلية علمية حول قضايا الصراع والسلام
وعلاقتها بالأديان السماوية

د. نور الدين أبو لحية

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

تتناول هذه الرواية أعقـد مشـكلة في الواقـع بكـل جوانبـه النفسـية والاجتماعيـة والسياسـية والاقتصـادية وغيرهـا.. وهي مشكلة الصـراع الـذي تنفخ فيـه جميـع شـياطين الإنس والجن، ليعيش الإنسـان محجوبـا عن ربـه، وعن عـوالم الجمـال الـتي خلقها له ربه.

وهي - كما تصف الواقع بمرارته وآلامـه - تحـاول أن تضـع بين يدي القارئ أنوار السلام الجميل التي أنقـذ اللـه بهـا عبـاده عبر رسله الكرام، وأولياءه العظام.

فهي تصف – بحيادية تامة- واقـع الصـراع بآلامـه وهمومـه وأحزانه.. كما تصف واقع السلام بكل آماله وأفراحه وسعادته.

والسلام الذي تصفه هذه الروايـة هـو المنطلـق من الـدين الإلهي الحقيقي.. لا الـــدين البشـــري المزيـــف الـــذي تفننت الشياطين في صناعته، وحاولت أن تخلطه بدين الله..

والعلامة الفارقة بين الدين الإلهي والـدين البشـري – كمـا تصـفه الروايـة – هـو الصـراع.. فحيثمـا يكـون الصـراع تكـون الشـياطين.. وحيثمـا يكـون السـلام والطمأنينـة يكـون الـدين الإلهي، كما قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِـذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: 28]

والروايـة من عشـرة فصـول، ولكـل فصـل منهـا قصـة مستقلة، يحكيها رجـل من الرجـال العشـرة الـذين ألقت عليهم القبض بعض الجماعات الإرهابية التي تمثل التزييف الذي أوقعه الشـيطان في الـدين الإلهي، ليصـبغ مشـروعه المـدمر بصـبغة الله.

وقد كان هؤلاء العشرة ينتظرون تنفيذ حكم الإعدام الصادر بحقهم.. لكنهم في نهاية الرواية ينجون بأعجوبة.. ويكتشفون العلاقة بين الإرهابيين والشياطين التي تدير الصراع في العالم.

ويمكن تقسيم الصراع والسلام في الرواية إلى قسمين:

الأول: الصراع والسلام الداخليان، وهما اللذان ينطلقان من الأنا وجميع القوى التي تشكلها من العقل والقلب والنفس.. وهي ما يتضمنه الجزء الأول من الرواية.

الثاني: الصراع والسلام الخارجيان، وهما اللذان يشملان جميع علاقات الإنسان الخارجية ابتداء من الأسرة، وانتهاء بالله.. وهي ما يتضمنه الجزء الثاني من الرواية.

ونحب أن ننبه هنا إلى ما يلي:

1 ـ أن الشخصيات التي نعتمدها في الرواية، والتي تمثل طوائف مختلفة، لا تعني أننا نقبلها في كل شيء أو نرفضها في كل شيء.. وإنما اخترناها لمناسبة بينها وبين ما نطرحه من رؤى وأفكار.. فنقبلها أو نرفضها من تلك الناحية، لا من غيرها من النواحي.

2 ــ أن مقصودنا بالدين الإلهي أو المشروع الإلهي هو الإسلام المحمدي الأصيل الذي يمثله القرآن الكريم النور الممتد من السماء إلى الأرض.. ويمثله رسول الله ﷺ عبر سنته الصحيحة التي تتوافق مع القيم القرآنية والفطرية.. لا السنة التي عبث بها الوضاعون والمتلاعبون الذين مزج بهم الشيطان مشروعه بدين الله.

3 ـ أننا في ذكرنا للصراع لا نبرئ هذه الأمة من كونها عاشت الصراع، ولا تزال تعيشه بسبب الدخن الذي ألبسه

الشيطان بدينها الأصيل.. وبسبب بعدها عن التمسـك بالصـراط المسـتقيم الـذي أوصـى بـه رسـول اللـه ﷺ أمتـه.. ولهـذا فـإن السلام الإسلامي الذي نشيد به في الروايـة هـو سـلام الإسـلام الإلهي، لا الإسلام التاريخي أو الـتراثي الـذي امـتزج فيـه الإلهي بالشـيطاني، كمـا أخـبر رسـول اللـه ﷺ عن ذلـك في نبوءاتـه الكثيرة.

4 ــ أن المقصـود في الروايـة هـو الأفكـار الـتي تحملهـا، وليس الأحداث، فالأحداث ليست سوى رمـوز تحـاول أن تصـل إلى الحقيقة بطريقة سهلة لينة رقيقة، كما هو عنوان السلسـلة [حقائق ورقائق]

البداية

في صباح ذلك اليـوم، نهضـت على أصـوات ملأتـني بـالرعب.. فقد سمعت ضجة كبيرة في الحـارة الـتي كنت أسـكن فيهـا.. ولم ألبث بعـدها حـتى سـمعت أصـوات الرصـاص ترتفـع.. ثم لم ألبث حتى سمعت أصوات سيارات الشرطة، وهي تملأ الفضـاء بصـوتها المميز.

كانت الحادثة ـ بالنسـبة لي وبالنسـبة لمن يسـكنون معي تلـك الحارة ـ بسيطة عابرة.. فلم تصـر تأخـذ منـا تلـك المسـاحة الـتي كانت تأخذها في بداية عهدنا بمثلها.

لقد كانت ـ في بداية عهدنا بمثلهـا ــ تأخـذ منـا اهتمامـا كبـيرا.. تعقد له المجالس الطويلة.. أو تغلق لأجله الأبواب، وتكمم الأفـواه، ويفر كل امرئ بنفسه عن كل شيء.

هكذا بدأ تعاملنا مع مثل تلـك الحـوادث.. ولكنـا بعـد أن تعودنـا عليهـا.. وبعـد أن تعـودت أسـماعنا على تلـك الأصـوات المزعجـة، واندمجت لها، صارت لنا كأي صوت نسمعه، ولا نبالي به.

لم ألبث بعـد ذلـك حـتى سـمعت جـارا لنـا، كـان شـابا نشـيطا يـدرس في الجامعـة، وكـانت تلـك الأيـام أيـام امتحانـات، فأخـذت أسترق السمع لما يحفظ رغما عني، كما تعـودت أن أسـترق، فلم أسمع منه إلا ما تعودت أن أسمعه.. فقد كان يردد كل حين أسماء حفظها صبياننا كما حفظها شبابنا.. بل حـتى عجائزنـا سـرت إليهن العدوى، فنسين أبـا زيـد الهلالي وعنـترة بن شـداد، ورحن يرددنهـا لنا..

لقد كـان بين الحين والحين يـذكر أوجسـت كـونت، ودوركـايم، وليني بريل، وديفيد هيوم، وآدم سميث، وهويز، وهربـرت سبنسـر، وفرويـد، ومـاركس، وأنجلـز، وبـافلوف، وديـوي، وبرترانـد راسـل، وهارولد لاسكي.. وغيرهم كثير.. وكان كل اسـم من تلـك الأسـماء ينفجر في أذني كما تنفجر أعتى المتفجرات.

حمدت الله، فقـد انخفض صـوته، ثم تلاشـى بعـدها.. لكـني لم

ألبث حتى سمعت من بيت جار آخر صوت فيلم بوليسي لم أسمع من كلماته غير كلمات الرصـاص والتفجـيرات وأصـوات السـيارات المزعجة.

بعدها ذهبت إلى النافذة لأطـل على الشـارع، فشـاهدت صـبية صـغارا، وهم يلعبـون لعبـة الشـرطي واللصـوص، ويسـتعملون مـا أبدعت هذه الحضـارة الشـقية في صـناعته من أنـواع المتفجـرات التي لا تكاد تفرق بينها وبين المتفرجات الحقيقية.

أغلقت النافذة.. فما لبثت حتى سمعت صوت ولدي، وهو يبكي طالبا من أمه أن تشتري له نوعا جديدا من المتفجـرات امتلأت بـه أسواقنا.. وكان يقول لها، وهو يبكي:(لقد اشـترى كـل الأولاد هـذه المتفجرات، ولم نبق إلا نحن)، ثم أخذ يصيح :(صدق الناس عندما يعتبروننا بدوا متخلفين.. فنحن لسنا سوى ما ذكروا)

لم أدر كيف غضبت في ذلك الحين غضبا شديدا، ورحت أصــيح في الولد وأمه بهستيرية، وأنا أقسم بأغلظ الأيمـان بـأن لا أشـتري له أي لعبة..

بكى ولدي بكاء شديدا لم يحرك في سـاكنا.. لكن أمـه نهضـت وأشـغلت التلفـاز.. فمــا إن رأى الولــد فيلمــا من أفلام الرســوم المتحركة المليئ هو الآخر بالقنابـل والمـدافع والـدبابات حـتى راح ينشغل بالتفرج عليها عن المتفجرات التي كان يطلبها.

هكذا بدأ ذلك اليوم الذي سمعت فيه قصة ذلك الشيخ الممتلئ بالسلام، وهـو يحكي رحلتـه إلى رسـول اللـه ﷺ.. والـتي سـأرويها لكم..

ومع أن المشهد لم يكن يختلف كثـيرا عن سـائر الأيـام.. لكـني في ذلك اليوم خصوصا امتلأت بالألم.

لقد رأيت الصراع في صورة شـيطان قـد اسـتوى على عـرش البشرية، فراح يملي عليها من ألوان الصـراع مـا لم يعرفـه البشـر في تاريخهم جميعا.

لكني فجأة.. شعرت بروحانية عميقة، وأنا أسمع صوت الشــيخ

الصالح في زحمة تلك الأصـوات جميعـا، وهـو يـردد بخشـوع قولـه تعالى: سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (يّــس:58).. ثم يكررهـا مـرات كثيرة.. ثم تختلط دموعه بصوته، فلا أكاد أميز صوته عن دموعه.

لســت أدري كيـف دب الأمـل إلى نفســي، وذهب عـني ذلـك الإحباط الذي سببه لي ما رأيته وسمعته.

أســرعت إليـه.. وقلـبي يـردد مـا يـردده من الآيـة الكريمـة.. استأذنت عليه، فأذن لي، ودموعه لا تزال تفيض من آثـار مـا قـرأه من القرآن الكريم.

قلت لــه: ســيدي.. ألم تزعجــك أصــوات المتفجــرات الــتي استيقظنا عليها هذا الصباح؟

قال: نعم.. انـزعجت لهـا كثـيرا.. بـل كـدت أشـتعل من فـرط انزعاجي.. فلذلك رحت أقرأ آيات السلام لأغسل بها أدران الصراع التي أنشأتها في نفسي أصوات المتفجرات.

قلت: اعذرني ــ سـيدي ــ فـأنت تعلم الحـال الـتي صـار إليهـا قـومي.. لقـد اسـتبدلوا بأصـوات القـرآن العذبـة هـذه الأصـوات.. وليتهم استبدلوها بنهيق الحمير، ولم يستبدلوها بهذه الأصوات.

قال: أنا لم أنزعج لأجل الأصوات.. وإنما انزعجت من قومي..

قلت: قومك!؟.. وما علاقة قومك بهذا؟

قال: ألا ترى أن قومك لم يتخلوا عن أصوات القـرآن إلى هـذه الأصوات إلا بعد أن تخلـوا عن التلمـذة على القـرآن الكـريم وعلى نبيهم ﷺ، وراحوا يتتلمذون على قومي؟

قلت: أراك تلصــق بقومــك كــل مثلبــة.. فهــل أنت من الــذين يؤمنون بنظرية المؤامرة(1)؟.. إن من يؤمن بها متخلف عندنا.

قال: ولم تعتبرونه متخلفا؟

(1) ننبه إلى أننا بنينا أحداث هذه الرسالة على ما يسـمى بنظريـة المـؤامرة بأبعادهـا المختلفة.. ونحن ـ كما تعودنا في هذه السلسلة ـ لا نقصد الأحداث، وإنما نقصد المعــاني الرمزية التي تحملها.

قلت: لأنه لا دليل يدل عليها.. هي مجرد خرافات نسـجها بعض الناس ليتهربوا من مسؤوليتهم..

قال: ألم تسمع ذلك الشاب.. وهو يحفظ كل ما لقنه قومنا من دروس؟

قلت: هو شاب جامعي.. وهو شـاب نشـيط.. وقـد تعودنـا على سماع هذا منه.

قـال: فخـيرة شـبابكم يتتلمـذ على أسـاتذة الصـراع الـذين خرجناهم.. ألا تعتبر ذلك الشاب خاضعا لمؤامرة؟

قلت: كيف يكون خاضـعا لمـؤامرة.. هـو لم يفعـل إلا أن راجـع دروسه؟

قال: أرأيت لو أن ذلك الشاب.. وبدل أن يحفظ أسماء أسـاتذة الصراع حفظ أسماء أساتذة السلام.. هل سينجح في دراسته؟

قلت: هو لن ينجح حـتى يعيـد لأسـاتذته بضـاعتهم الـتي بـاعوه إياها.

قال: فهو مكره إذن على أن يتعلم كل ذلك.

قلت: ليس في العلم حرج.

قال: ولكن الحرج في أن يعلم شـيئا واحـدا.. ثم لا يكـون ذلـك الشيء الواحد إلا الصراع.

قلت: على العموم.. ليس ذلـك الشـاب سـوى فـرد من أفـراد المجتمع.. ولا يمكن أن يتغير المجتمع بتغير فرد واحد فيه.

قال: وأولئك الصبية الذين شغلناهم بـاللهث وراء المتفجـرات.. أليسوا ضحايا مؤامراتنا؟

قلت: وما علاقتكم بذلك؟

قـال: ألسـنا الـذين صـدرنا لكم تلـك المتفجـرات.. وكـان في إمكاننا أن نصدر لكم بدلها أناشيد السلام؟

قلت: ولكن قومي هم الذين اختاروا أن يشتروا تلك المتفجرات.. ولو اختاروا أن يشتروا بدلها ورودا لفعلوا.. ولكنهم أبوا إلا أن يشتروا متفجرات..

قال: ومن أملى على قومك أن يشتروا ما اشتروا؟

قلت: نفوسهم.. نفوسهم هي التي أملت عليهم ذلك.. وربما كان لشياطينهم سبب في ذلك.. ولكن السبب الأكبر هو نفوسهم.

قال: النفوس كالشياه لا يتشكل لحمها إلا من العلف الذي تعلفه.

قلت: وما علاقة العلف الذي تعلفه نفوسنا بالمؤامرة؟

قال: ألا ترى قومي كيف وضعوا قومك.. بل البشرية جميعا.. في زريبة واحدة، ثم راحوا يعلفونهم بجميع أنواع السموم كما علفوا البقر الذي جن؟

قلت: لم أر البشرية في زريبة.. ولم أر أي علف يقدم لها.

قال: ألم تر أولئك الراكعين الساجدين أمام ما يصدر قومي من كل ما يسمونه تسلية؟

قلت: بلى.. ولكنها تسلية..

قال: بل هي العلف الذي علفت به نفوس العالم.. إنكم لا تجلسون لتتسلوا، وإنما تجلسون لتعلفوا كل قيم الصراع التي يصدرها قومي.. لتصبحوا حيوانات كحيوانات الغابة يفترس القوي منها الضعيف، ويأكل ذو الناب منها من لا ناب له.

قلت: أهذه أدلتك على نظرية المؤامرة؟

قال: أخطر المؤامرات هي التي لا يقصدها أصحابها.. لأنهم لو قصدوها قد يخطئون في تخطيطاتهم، فينحرفوا عن مقصدهم الذي قصدوه.

قلت: أتقصد أنها مؤامرة قصدوها أو لم يقصدوها؟

قال: أجل.. فلا يمكن لأحد يملأ بستانه ببذور الشـوك أن يجـني عنبا.

قلت: أقومك هم الزارعون؟

قال: عندما ركن قومك إلى الكسل استولى قومي على جميـع حقول العالم، وراحوا يزرعون جميع أنواع الأشواك..

قال ذلك، ثم تنفس الصعداء، وراحت دموع غزيرة تنحدر بقوة، فقلت: هون عليك.

قال: كيـف أهـون علي.. وأنـا أحس بمسـؤوليتي عن كـل هـذه المتفجرات التي تملأ حياتكم ضجيجا؟

قلت: لا تقل ذلك يا ولي الله.. فأنت أرفع من أن تكون سببا.

قال: بلى.. لقد كنت في يوم من الأيام.. كما كان قومي.. سببا من الأسباب.

قلت: ما تقول؟

قال: للأسف.. لقد مدت الكنيسة يدها إلى المصارعين من أول ما ظهر المصارعون.. وراحت تشجعهم على كـل ألـوان الصـراع.. وما تـراه من قومـك هـو ثمـار بـذور كثـيرة غرسـها من تربـوا في كنائسنا، وتعمدوا على أيدينا.

قلت: ولكن المسيح رسول السـلام.. ألسـتم تـروون كـل حين قوله :(طوبى لصانعي السلام، لأنهم يدعون أبناء الله(1))(متى 5/9)؟

قال: بلى.. لقد صلبنا ذلك المسيح الـذي قـال تلـك الكلمـات.. صلبناه بكل حقد، ثم رميناه في جهنم بعد أن صببنا عليه كل ألـوان اللعنات(2).

1() ذكرنا بتفصيل المعنى الصحيح لهذه العبـارة على حسـب الكتـاب المقـدس، وهـو مرادفتها لمعنى (ولي الله) في رسالة (الباحثون عن الله) من هذه السلسلة.

2() انظر (النبي المعصوم) من هذه السلسلة.

قلت: وأي مسيح بقي لكم؟

قال: مسيح لا علاقة له بكم.. إنه مسـيح رومـاني.. يحمـل كـل بذور الصراع التي كانت تصدرها روما للعالم الذي تتهمه بالبربرية.

قلت: ما تقول؟.. إن ما تقوله خطير.

قال: ولكنه حقيقة.. حقيقة عشتها ورأيتهـا.. بـل عاشـتها جميـع الأجيال التي تقلبت في أصلابها.

قلت: لم أفهم ما الذي تقصد.

قال: لقد رحت أبحث فينا.. في جذورنا.. فلم أجد إلا الصراع..

في البدء.. كان هناك شعبان.. الرومان واليونان.. وكـان هـذان الشعبان هما الهواء الذي تنفسناه، والماء الذي شربناه..

وقد شربنا مـع ميـاه الرومـان واليونـان جميـع أنـواع الصـراع.. ولبسنا جميع أثواب الصراع.

لقد كان هذان الشعبان يوحيـان إلينـا كـل حين أن هنـاك عـدوا يهـدد وجودنـا.. فنصـيح من حيث لا نشـعر بـإعلان الحـرب بكافـة صورها.. ثم نغرق البشرية بعدها في حمامات من الدماء.

ألا تعلم أن أهم أسباب الحروب الصليبية ـ كما يذكر مؤرخونـا ـ هو إعادة توجيه طاقة البارونات الأوروبـيين من النزاعـات الدمويـة المحلية إلى غاية نبيلة تتمثـل في اسـتعادة الأرض المقدسـة وقـبر المسيح من أيدي المسلمين؟

وإمعانا من الكنيسة في تحميس الصليبين الـذين وهنت دواعي النصر فيهم لكثرة ما سفكوا من دماء بعضـهم البعض أصـدر البابـا (أوربان) صكّه للغفران، والذي عرض فيـه إسـقاط ذنـوب وخطايـا الـذين يقـاتلون المسـلمين.. فـدبَّت اليقظـة في أوصـال الجنـدي المرتبك أخلاقيـا، واشـتعل حماسـا كأنمـا هـو يسـتيقظ من سـبات عميق.

وهكذا كنا دائما..

حتى نظام الفروسة الـذي يفخـر بـه قومنـا لم يكن إلا مثلا من أمثلة هذا التكريس الديني للنزعات الحربية التي حـاولت الكنيسـة حتى ذلك الحين قمعها لأغراض مثاليـة ورغبـات نبيلـة.. فـالحروب الصليبية من هذه الناحية كانت تعتبر المظهر الهجومي للفروســية، والفروسة تعتبر بذرة الحروب الصليبية كما تعتبر ربيبته.. والفارس الذي يشترك في الحروب الصليبية، إنما يشبع بذلك النزعة الحربية الكامنة فيه تحت إشراف الكنيسـة وبأمرهـا، وينـال بـذلك الخلاص التام والتطهر من الذنوب وهو ما يسعى إليـه بشـدة.. وربمـا أمعن الفارس طوال يومه في القتل والتذبيح، فإذا جاء الليـل ركـع أمـام مذبح كنيسة القيامة، يهلل من فرط فرحه آملا أن يكون ما تخضب به من الدماء إنما جرى من أجل السيد المسيح.

قلت: ولكن أوربا طلقت الكنيسة من زمان..

قـال: طلقتهـا.. ولكنهـا لم تطلـق الصـراع.. لقـد ظلت نزعـة الصراع تضرب على أوتار قلوبنا كما كانت تضرب في جميع فترات تاريخنا.

لقد ظهر الفكر الشيوعي.. ظهر كارل مـاركس ثم لينن وظهـر معهما الصراع الطبقي وكفـاح العمـال والفلاحين ضـد الإقطاعيـة.. وظهر بعدهم جميـع حملـة فكـر الصـراع.. مكسـيم جـوركي ومايـا كوفسكي وبوشكين وغيرهم في أدبهم الذي صار ترجمانا لإملاءات الشيوعية وشعاراتها المتطرفة.

ثم جاءت الوجودية التي قامت أساسا على إثبات حـق الوجـود ورأت أن قضيتها الأولى هي الصراع الـذي بتحـدي القـوي الغيبيـة، وما لازمه من الشعور بالعبثية وفقدان الحكمة في الخلق.

وكانت مع هاتين الفلسفتين والنظـامين (الرأسـمالية) بمبادئهـا المتطرفـة، تنهش عقولنـا وحياتنـا وتملأنـا بالصـراع.. لقـد عمقت الرأسمالية فينا الأنانية.. لقد أعطت المال لطبقة رأسمالية تمسـك بزمام المال والأعمال وتسوس الفكر مـع وجـود طبقـة تعـاني من الحرمان مما زاد من معدلات الجرائم واتسـاع الهـوّة في المجتمـع الواحد..

رأيت الألم باديــا على وجهالشــيخ الصــالح، فــأردت أن أغــير

الموضوع، فقلت: هون عليك.. فالله الرحمن الرحيم العدل الخبـير لا يحاسب الأمم وهي أمم، بل يحاسبها أفرادا.. فلكل فرد مـا جنت يداه، ولا يهم من أي أمة كان.

قال: صدقت.. وجزاك الله خيرا على هذه السلوى.. لقد قرأتها في قوله تعالى : لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَـانِيِّ أَهْـلِ الْكِتَـابِ مَنْ يَعْمَـلْ سُوءًا يُجْـزَ بِـهِ وَلَا يَجِـدْ لَـهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِـيرًا (123) وَمَنْ يَعْمَـلْ مِنَ الصَّـالِحَاتِ مِنْ ذَكَـرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُـوَ مُـؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَـدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (124) (النساء)

قلت: فأبشر إذن.. فأحسب أنك على خير كثير.

قال: بشرك الله بكل خير..

ثم عقب يقول: أنا لا أريد البشارة لنفسي وحـدها.. بـل أريـدها لجميع أمم الأرض، وأفرادها، فلا يمكن أن تستظل بظل السـلام إلا في ظل الإسلام.

قلت: ذكرتني بالسـلام.. لقـد وعـدتني أن تحـدثني عن رحلتـك لسلام الإسلام.

قال: أجل.. فلا يمسح أحزان الصراع إلا تلك الأحاديث الجميلــة التي امتلأت بها في رحلتي إلى سلام الإسلام.

***

اعتدل الشيخ الصالح في جلسته، وحمد الله وصلى وسلم على نبيه ﷺ مستغرقا في كل ذلـك، ثم قـال: اسـتدعاني أخي وتـوأمي رجل الدين إلى مكتبه الضخم في الفاتيكان، وقال لي: لقد وردتني أنباء لم تصل بعد إلى وكالات الأنبـاء بـأن طـائفتين من المسـلمين عظيمتين يهم بعضـهما ببعض.. ولعـل بعضـهما يقضـى على بعض، فنستريح منهما جميعا.

قلت: لم أسمع هذا في الأخبار.

قال: هناك أخبار يسمعها الناس جميعا.. وهناك أخبار لا يسمعها إلا نحن.

قلت: وكيف نسمعها من دون الناس؟

قال: لاشك أن الكاتب هو أول من يقرأ كتابـه.. ولا يمكن لأحـد في الدنيا أن يسبقه إلى قراءته.

قلت: الكاتب يحصل له ذلك لأنه هو الذي كتب الكتاب.

قال: ونحن حصل لنا ذلك.. لأنا بسلطان المسيح الذي وهبه لنـا صـرنا نحن الكتبـة.. فنحن نملي على غيرنـا.. وغيرنـا لا يجـد إلا أن يكتب ما نمليه عليهم.

قلت: فلم لا نملي عليهم الهدايـــة الـــتي حثنـــا المســـيح على تعليمها؟

قال: إن هؤلاء الحمقى يقبلون منا كـل شـيء إلا الهدايـة الـتي جاء بها المسـيح.. إنهم يزعمـون أن الهدايـة الـتي جـاء بهـا محمـد أكمل وأشمل وأعلم وأوثق من التي جاءنا بها المسيح.

قال لي أخي ذلك، ثم طلب مني أن أسير معـه إلى غرفـة في بيتنا الجديد بالفاتيكان، وكانت غرفة أشبه ما تكون بغرف الأسرار.. وهناك دلني على تفاصيل السيناريو الذي سيمثله المسلمون بإملاء منا ومن كـل المؤسسـات العالميـة الـتي اجتمعت على استئصـال المسلمين من الوجود.

***

بعـد أن امتلأت همـا بمـا ذكـره أخي.. وبعـد أن أيقنت بـالخطر الذي يحدق بالمسلمين.. لم يخطر على بالي شيء كما خطر على بالي أن أسرع إلى بلاد الإسلام لأتدارك الأمر قبل حصوله.

لكني.. وبعد أن فكرت طويلا.. وجدت أنـه لا جـدوى من ذلـك.. فأولئك الذين يتربعون على عروش المسـلمين الدينيـة أو الدنيويـة لن يقبلوا مني ما أقول.. لأنهم تعودوا أن لا يقبلـوا إلا لمن يملـؤهم بالصراع والحقد والضغينة.

في ذلـك المسـاء.. سـرت إلى غابـة قريبـة من محـل سـكني لأنفس عن نفسي بعض ما تعانيه من صراع.. ومـا إن سـرت على

ثراهـا قليلا حـتى رأيت رجلا كصـفحة المـاء الـتي لم تعبث بهـا التيارات، بل لو أن أعاصير الدنيا اجتمعت ما حركت منه ساكنا.

رأيته قد خط دائرة صـغيرة كتب في وسـطها (الأنـا).. ثم خـط بعدها دائرة أخرى مركزها هو نفس مركز الدائرة السـابقة سـماها (العقل).. ثم تلاها بدائرة أخرى سماها (القلب).. ثم بـدائرة أخـرى سماها (النفس).. ثم بأخرى سماها (الأسـرة).. ثم بـأخرى سـماها (المجتمـع).. ثم بـأخرى سـماها (الدولـة).. ثم بـأخرى سـماها (العالم).. ثم بأخرى سماها (الكون).. ثم بأخرى سماها (الله)

كان يرسم الدوائر، ويكتب الأسماء المرتبطة بها بتركـيز عجيب لا يشـبه إلا تركـيز القـادة الـذين يخططـون لأعـتى المعـارك، وقـد دعاني ذلك لأن أقول له ساخرا: مرحبا بحضرة القائـد العظيم.. أي معركة هذه التي تريد أن تخوضها اليوم؟

قال: معركة السلام.

قلت: أللسلام معركة؟

قال: لا يمكن للسلام أن يتحقق بغير المعارك.

قلت: أرى أن مظهرك لا يوحي إلا بالسلام.. بكيف تتحـدث عن الحرب؟

قال: عن حرب أهل السلام، لا حرب أهل الصراع.

قلت: ألأهل السلام حرب؟

قال: أجل.. وهي تنطلق من هذه الدائرة..

أشار إلى الدائرة الأولى التي سماها (الأنـا)، ثم قـال: من هـذه الدائرة يبدأ السلام.. ومن هذه الدائرة يبدأ الصراع.

قلت: كيف.. ألهذه الدائرة من السلطان ما يتيح لها أن تتصرف في كل شيء؟

قـال: أجـل.. هـذه الـدائرة هي المركـز.. ولا دائـرة إن خـرب المركز.

قلت: فأي معركة هذه التي تريد أن تخوضها مع (الأنا)؟

قال: معركة التصحيح والتثبيت..

قلت: لم أفهم.

قـال: تصـحيح الأنـا وتثبتهـا.. فلا يمكن للجنـدي الـذي لم تصـح نسبته للجندية، ولم يتثبت فيها أن ينتصر في أي معركة.

قلت: فبم تصحح الأنا، وبم تثبتها؟

قال: أنا الآن أبحث عن أقوم السبل لذلك..

قلت: فهل اهتديت لشيء؟

قال: أجل.. لقـد عـرفت أنـه لا يمكن لعقلي أن يعـرف منـاهج التصحيح والتثبيت.. لابد من جهة عليـا.. عليـا بالقـدر الـذي لا يمكن تصوره.. فهي الوحيدة العالمة بي.. وهي الوحيدة التي تستطيع أن تصححني وتثبتني.

قلت: ولم لا تثبت نفسك بنفسك؟

قال: وهل يستطيع الوتد أن يتثبت نفسه بنفسه؟

قلت: لابد للوتد من مطرقة ومن طارق.

قال: ولابد للأنا من النور الذي يملؤها بالهدايـة، فترسـخ قـدمها في السلام الجميل الذي لا تهزه الأعاصير.

قلت: أحسبني وعيبت بعض هـذا.. فمـا الـدوائر التاليـة لـدائرة الأنا؟

قال: علاقات الأنا.. وقد وجدت أن الأنا إن كـانت ثابتـة راسـخة صحيحة سيكون ما حولها من الدوائر ثابتا راسخا صحيحا.

قلت: وإن لم تكن كذلك؟

قال: ستهزها الأعاصير.. وستمتلئ بجميع أنـواع الحـروب الـتي تستخدم فيها جميع أنواع الأسلحة.

قلت: لكأني بك تتحدث عن سفينة شراعية.

قال: الإنسان سفينة شراعية.

قلت: السفن الشراعية قد تغرق عند الأعاصير.

قال: ذلك عندما تكون أشرعتها ضعيفة.

قلت: فكيف تكون قوية؟

قال: هذا ما أبحث عنه.. وهـذا مـا ينبغي لكـل عاقـل أن يبحث عنه.. فكل من لم يبحث عنه سيغرق لا محالة.

قلت ـ مشيرا إلى دائرة العقل ـ : لقـد جعلت العقـل بعـد أول دائرة من دوائر الأنا؟

قـال: لا يمكن للأنـا أن تمتلئ بالسـلام، وهي تصـحب عقلا مشوشا متناقضا مضطربا غافلا ممتلئا بالجهل والخرافة.

قلت ـ مشيرا إلى دائرة القلب ـ : لقد جعلت القلب هو الدائرة الثالثة؟

قال: لا يمكن للأنا أن تمتلئ بالسلام، وهي تصحب قلبـا مريضـا سكرانا ضعيفا تهوي به الأهواء في كل المهالك.

قلت ـ مشـيرا إلى دائـرة النفس ـ : لقـد جعلت النفس هي الدائرة الرابعة؟

قـال: لا يمكن للأنـا أن تمتلئ بالسـلام، وهي تصـحب نفسـا طماعة حريصة جشعة متكـبرة ممتلئـة بالشـهوات، مسـتغرقة في الملذات، مدمنة على الغفلات.

قلت ـ مشـيرا إلى دائـرة الأسـرة ـ : لقـد جعلت الأسـرة هـو الدائرة الخامسة؟

قـال: لا يمكن للأنـا أن تمتلئ بالسـلام، وهي تعيش في أسـرة مفككة يحارب بعضها بعضا، ويعتدي بعضها على بعض.

قلت ـ مشيرا إلى دائرة المجتمـع ـ : لقـد جعلت المجتمـع هـو

الدائرة السادسة؟

قال: لا يمكن للأنـا أن تمتلئ بالسـلام، وهي تعيش في مجتمـع تملؤه النزعات الخسيسة، والأهواء الخبيثة.

قلت ـــ مشـيرا إلى دائـرة الدولـة ـــ : لقـد جعلت الدولـة هي الدائرة السابعة؟

قـال: لا يمكن للأنــا أن تمتلئ بالســلام، وهي تعيش في دولــة يحكمها الاستبداد والجور والظلم والطغيان والحريات الكاذبة.

قلت ـ مشيرا إلى دائرة العالم ـ : لقد جعلت العالم هو الـدائرة الثامنة؟

قــال: لا يمكن للأنــا أن تمتلئ بالســلام، وهي تعيش في عــالم قلق مضطرب متنازع.. القوي فيه يأكـل الضـعيف.. والمتكـبر فيـه يتسلط على المستضعف.

قلت ـ مشيرا إلى دائرة الكون ـ : لقد جعلت الكون هو الدائرة التاسعة؟

قال: لا يمكن للأنا أن تمتلئ بالسلام، وهي تعيش في كـون قـد أغارت عليه جنود الإفساد، فحولته عن فطرته السليمة.

قلت ـ مشيرا إلى دائرة الله ـ : لقـد جعلت (اللـه) هـو الـدائرة العاشرة؟

قال: لا يمكن للأنا أن تمتلئ بالسلام، وهي تجحد الله، أو تحمل صورة مشوهة عنه، أو تحتقره، أو تعزله عن التصـرف في وجـوده الذي خلقه وأبدعه وصممه.

قـال ذلـك، ثم راح إلى دوائـره مسـتغرقا فيهـا، وكأنـه لم يكن يحدثني، ولم أكن أحدثه.

***

في تلـك الأيـام.. وبعـد ذلـك الحـديث الـذي حـدثني بـه معلم السـلام.. قـررت أن أسـير إلى تلـك البلاد الـتي تعـتزم الفتنـة أن

تستأصلها، ثم تستأصل بعدها سائر بلاد الإسـلام، فاسـتأذنت أخي.. ففرح كثيرا.. وقال: إن ما تفعله سيرسـخ قـدمنا في الكنيسـة إلى آخر الدهر.

قلت: كيف؟

قال: إن الكل يفر من تلك البلاد.. رجال الـدين ورجـال الـدنيا.. وذهابك أنت تضحية لا تعدلها إلا تضحيات القديسـين.. إنـك سـتعود إلينا إن عدت قديسا يتمسح الكل بك.

قلت: لم؟

قال: أنت هناك معرض للخطف في كـل لحظـة.. فليس هنـاك إلا من ملأناهم بالصراع.

قلت: ألا تخاف علي؟

قال: ما دمت قـد أمنت عليـك من أشـعة محمـد، فلن تضـرك بعدها أي أشعة.

قلت: ولكن الذين سأذهب إليهم لهم حظ من أشعة محمد.

قال: إن الأشعة التي نالوها من محمد لن تزيدك إلا فرارا منه.. وهذا ما دعاني إلى السرور بقـرارك، فـإن الرحلـة الـتي سـترحلها هذه المرة ستغسل عنك كل تلك الشبهات التي علقت بقلبــك من رحلاتك السابقة.

قلت: لم؟

قال: سترى من أولئك المصارعين الصورة الحقيقيــة لمحمــد.. تلك الصورة التي ظلت تتزين لك لتملأك بالغواية.

***

كان أخي يدرك المخـاطر الـتي يمكن أن أتعـرض لهـا في كـل لحظة في تلك البلاد التي قررت الذهاب إليها.. لذلك ودعني ـ كغير عهده ـ وداعا حارا، وكأنه قد تيقن أني لن أعود إليه من جديد.

امتطيت الطـائرة.. وسـرت إلى البلاد الـتي تمـوج بكـل أنـواع الصراع.

عنـدما دخلتهـا لم أشـم إلا روائح المـوت.. كـان المـوت في الطرقـات والأزقـة والـبيوت كـالهواء الـذي نتنفسـه، والمـاء الـذي نشربه.

في المطـار رأيت عشـرة من الرجـال.. فيهم الكهـل، وفيهم الشـاب، وفيهم الشـيخ.. كلهم وقفـوا في انتظـار الحافلـة الـتي سننتقل بها إلى المدينة التي لا يولد فيها إلا الموتى.

كان أهل المطار ينظرون إلينا بشفقة وحـزن، وكـأنهم يعلمـون ما ينتظرنا من دواه.

لم نلبث إلا قليلا حتى جاءت حافلة خربة عضتها السنون بنابها.. وقـد كـان إطارهـا مخترقـا برصاصـات كثـيرة تـدل على المخـاطر الكثيرة التي نريد أن نسير إليها.

ركبنا الحافلة.. ولم نسر إلا أميـالا حـتى اسـتقبلنا من يسـميهم الناس (صناع الموت).. أخذونا وكأننـا معهم على ميعـاد، ووضـعونا في مغارة لا تختلف كثيرا عن القبور.

بعدها عرضونا على محكمة صورية كان الكل فيهـا ملثمـا، فلم نميز أحدا منهم، وفيها حكم علينا بالإعدام.. وقد منوا علينا فوهبونـا عشرة أيام من الحياة، لنودع فيها الحياة، ونودع فيها ما استودعناه ذاكرتنا من ذكريات.

في المغارة.. جلسنا جميعـا، لا نـدري مـا نفعـل.. تفرسـت في وجوه الجالسين معي، فلم أجد فيها من الحزن مـا كنت أتصـور أن يوجد، فقلت من دون أن أشعر: أراكم مطمئـنين إلى الحكم الـذي حكم علينا.. فهل ترونه حكما عادلا؟

قال أحدهم: لقد كنت نفذت في يوم من الأيام هذا الحكم على نفسي.. ولكني لم أنجح.. لقـد وقـف بعض المسـلمين حـائلا بيـني وبين تحقيقه.. ومن عجائب الأقـدار أن المسـلمين الـذين بسـببهم مدت حياتي مدة طويلة هم أنفسهم الذين يريدون أن يضـعوا حـدا

لحياتي.

قال آخر: إن ما حصل لك هو ما حصل لي.. لقد قدمت نفسي ذات يوم لمقصلة الموت.. فوقف مسلم دون ذلك.. وها هو أخوه ينفذ ما عجزت عنه.

قال آخر: لكأنكما تتحدثان عن نفسي.. أنا نفسي حصل لي ما حصل لكما.

قال آخر: وأنا كذلك.

نطقوا جميعا: إن هذا من العجائب.. كلنا حصل لنا ما تذكرون.

امتلأت عجبا بما سمعت.. فقلت لهم: إن ما تذكرونه عجيب.. فحدثونا بأحاديثكم، فلا أرى هؤلاء أخرونا هذه الأيام العشرة إلا ليسمع بعضنا حديث بعض.

***

التفت إلي الشيخ الصالح، وقال: في هذه الرحلة لن أحدثك إلا بأحاديث هؤلاء العشرة الذين تعلمت منهم من سلام الإسلام ما لم أتعلمه في حياتي جميعا.

لقد وصلت إلى قناعة كبيرة في هذه الرحلة بأنه لا سلام إلا في الإسلام.. وأن الإسلام هو الدين الوحيد الذي جعله الله سلاما لكل العوالم.. العوالم التي هيئ لحواسنا أن تراها، والعوالم التي لم يهيأ لها أن تراها.

أولا ـ الأنا

في اليـوم الأول من تلـك الأيـام العشـرة، نهض أحـدنا، وكـان أكبرنا سنا، وقال: سأبدأ أنا بالحديث.. فأنا ـ على حسب مـا يبـدو ـ أكبركم سنا، ولعلي كنت أقربكم للموت، لولا أن القدر طرحنـا في هذا المحل لنستوي جميعا في التهامنا للموت، أو التهام الموت لنا.

ليس هذا فقط ما يجعل لي الحق في التفرد بالبداية.. بل هناك أسباب أخـرى سـتعرفونها من خلال إيـرادي لحكـايتي.. فأنـا الـذي كتب له أن يتعلم على جمع من الأساتذة كانوا هم السبب في كـل صراع عانيناه، وعانته الأجيال الطويلة من هذه البشرية..

قلنا: من أنت أولا؟

قال: لقد سماني أهلي أسـماء كثـيرة.. ولكـني بعـد أن التقيت النور طلقتهـا جميعـا، ورحت أبحث عن اسـم لي.. ولم أظفـر بعـد بذلك الاسم.. وإن شئتم الحقيقة، فقـد جئت إلى هـذه البلاد لأبحث عن اسـم لي.. لكن القـدر شـاء أن أمـوت من غـير اسـم.. ولكن حسبي أني طلقت جميع الأسماء التي فرضت علي.

قلنا: من أي البلاد أنت؟

قال: أنا من كل تلك البلاد التي كان يسـكنها الرومـان واليونـان وغـيرهم من الشـعوب.. أنـا ابن لهـا جميعـا، وعشـت على ثراهـا جميعـا، وتقلبت في أحضـانها جميعـا.. ولـذلك أتيح لي أن أتتلمـذ تلمذة مباشرة على أولئك الذين يسميهم الناس عباقرة.. فينصبون لهم التماثيل، ويجثون على ركبهم بين أيديهم يتتلمذون عليهم.

قلنا: نراك تحتقر أساتذتك.

قال: لقـد أتيح لي بعـد تلـك الفـترة الطويلـة من التلمـذة على أولئك الذين يتوهم قومنا أنهم عبـاقرة، أن ألتقي برجـل واحـد نـال من أشعة شمس محمد ﷺ ما جعلني أحتقر جميع أسـاتذتي.. لقـد كان رجلا عاميا بسيطا في مظهره.. لكن الأشعة الـتي تعـرض لهـا من تلك الشمس جعلتـه أسـتاذا يحمـل من الحقـائق مـا لا يحملـه أعظم أساتذتنا وأكبرهم شأنا.

قلنا: فحدثنا عن هذا الرجل.

قال: لن تعرفوا قيمة حديثه حـتى تعرفـوا أسـاتذتي.. فلا يمكن للشمس أن يعرف قيمتها من لم يلهب عينيه سياط الظلام.

قلنا: فحدثنا عن أساتذتك(1).

الصراع

غرق صاحبنا الأول في صمت عميـق.. وكأنـه يسـترجع ماضـيه البعيد، السحيق في بعده..

الرهبانية:

وبعد فترة انتظـار طويلـة لم نشـأ أن نحرجـه فيهـا، قـال: أول حكايتي تبدأ من الكنيسة.. لقد كنت سليل أسرة لها ارتباط مقدس بالكنيسة، كانت تخدمها بجوارحها ومشاعرها.. وكانت تعتـبر رجـال الدين هم المقدسون الذين لا ينطقـون إلا بـالحق، ولا يسـلكون إلا سبل الحق.

وقــد ســرى إلي من إرث عـائلتي مـا جعلـني تابعـا ذليلا لكـل المواعظ الـتي ينطـق بهـا رجـال الـدين، لا أناقشـها، ولا أفكـر في مناقشتها.

وقد قــدر لي أن يكـون أول أسـاتذتي رجـل لم يكن يـدعو في ظاهره إلا للزهد.. كان اسمه (**سان بونـافنتور**)(2).. لقـد كـان يردد على مسامعي كل حين ما ورد في الإنجيل من أنـه (لا يـدخل غني ملكوت السموات، حتى يدخل الجمـل في سـم الخيـاط..).. ويردد قول المسيح لشـاب آمن بـه ودخـل في دينـه:(ذا أردت أن

1() استفدنا الكثير من المادة العلمية المرتبطة بالمذاهب النفسية الغربيـة من مقـال طويـل بعنـوان (العقـل المسـتعار: بحث في إشـكالية المنهج في النقـد الأدبي العـربي الحديث ـ المنهج النفسي أنموذجاً) د. صـالح بن سـعيد الزهـراني، الأسـتاذ المشـارك في كلية اللغة العربية - جامعة أم القرى، من مجلة جامعة أم القرى.

2() أحد رجال الكنيسة، وقد اخترنـاه لقولـه الـذي سـنورده هنـا:(إذا رأيتم امـرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائنا بشرياً، بل ولا كائنا حياً وحشياً، وإنمـا الـذى تـرون هـو الشـيطان بذاته والذى تسمعون هو صفير الثعبان)

تكـون كـاملا، فـاذهب وبـع مـا تملـك واعطـه للفقـراء، ثم تعـال واتبعـني)، وقولـه لتلاميـذه:(وأنتم فلا تبحثـوا عمـا تـأكلون ومـا تشربون ولا تهتموا لـذلك، لأن هـذه الأشـياء إنمـا يبحث عنهـا غـير المؤمنين)

وكان يردد لي أقوال القديس أمبروز ـ أسقف ميلانو فى القرن الرابع ـ الذي كان يعظ تلاميذه وغيرهم فى أمر الـروح معتـبرا أنهـا نقيض للجسد الذى هو شر.. وقد كانت تلـك الفكـرة مصـدر إلهـامٍ لتلميذه الكبير القـديس أوغسـطين الـذى أصـبح فيمـا بعـد أسـقفاً لمدينة هبو فى شمال إفريقيا..

لا أزال أذكر من أقوال أمبروز قولـه: (فكـر فى الـروح بعـد أن تكون قد تحررت من الجسد، ونبذت الانغماس فى الشهوات ومتع اللذات الجسدية، وتخلصت من اهتمامها بهذه الحياة الدنيوية)

وكان يذكر لي صلاة القديس أوغسطين التي يقـول فيهـا: (آه! خذ منى هذا الجسد، وعندئذ أبارك الرب)

وكان يذكر لي ما اعتاد فرانسيس الأسيزى أن ينادى به جسده من قوله: (أخى الحمار)! كما لـو كـان الجسـد مجـرد بهيمـة غبيـة شهوانية، تستخدم لحمل الأثقال.

وكان يذكر لي ما كـان القديسـون يتعهـدون بـه أجسـادهم من اعتداء يومى من أجل إماتتها بالتعـذيب الـذاتى بطـرق تقشـعر من هولها الأبدان.

وقد سرى لي من تأثير هذه التعاليم ما جعلـني أحتقـر جسـدي احتقارا شديدا.. لقد كنت أنظر إليـه كمـا ينظـر العـدو إلى عـدوه.. لذلك كان الصراع بين روحي وجسدي لا يكاد ينتهي حتى يبدأ.

لقد علمني أستاذي ـ الذي بدأت بالتعلم على يديه حيـاتي ــ أن نظام الرهبنة الذي ينتظرني يتطلب مني أربعـة شـروط لا يمكنـني أن أكون راهبا مقدسا من دونها.

قلنا: فما أولها؟

قـال: العزوبـة.. فلا يمكن للـراهب ولا لرجـل الـدين.. بـل ولا

للمسيحي المخلص.. أن يكون متزوجا.. ولهذا، فإن هذا الأستاذ ملأ مشاعري نفورا من المرأة حتى لو كانت زوجة، فقد كان يقول لي كل حين:(إذا رأيت امرأة فلا تحسب أنك ترى كائنا بشرياً، بل ولا كائنا حياً وحشياً، وإنما الذى ترى هو الشيطان بذاته والذى تسمع هو صفير الثعبان)(1)

وكان يردد علي كل حين قوله :(من المشاكل المستعصية على الكنيسة مشكلة زواج رجال الدين غير الرهبان أو تسريهم.. لقد كانت الكنيسة منذ زمن بعيد تعارض زواج رجال الدين، لأن القس المتزوج يضع ولاءه لزوجه وأبنائه في منزلة أعلى من إخلاصه للكنيسة)..

وكان يقول لي: (إن القس المتزوج سيحاول أن ينقل كرسيه أو مرتبته لأحد أبنائه.. يضاف إلى هذا أن القس يجب أن يكرس حياته لله وبنى الإنسان، وأن مستواه الأخلاقي يجب أن يعلو على مستوى أخلاق الشعب وأن يضفي على مستواه هذه المكانة التي لا بد منها لاكتساب ثقة الناس وإجلالهم إياه)(2)

قلنا: هذا الشرط الأول للرهبانية، فما **الشرط الثاني**؟

قال: التجرد الكامل عن الدنيا.. فقد أقنعني هذا الأستاذ أن على الراهب ــ حتى يصير راهبا ــ أن يعتزل عزلة نهائية عن المجتمع، ويقطع النظر عن كل أمل في الحياة.

قلنا: فما الشرط الثالث؟

قال: عدم الاهتمام بالجسد.. بل تعذيب الجسد.. ألم أقل لكم: إنه كان يصور لي جسدي رماحا تحارب روحي وسيوفا تنهش حقيقتي؟

لقد حدثني عن الراهب ماكاريوس، وكيف أنه نام ستة أشهر في مستنقع ليقرض جسمه العاري ذباب سام، وكان يحمل دائما نحو قنطار من حديد.

1() أشعة خاصة بنور الإسلام: 29.

2() قصة الحضارة 14: 382.

وحدثني عن الراهب يوسيبيس، وكيف كان يحمل نحو قنطارين من حديد.. وقد أقام ثلاثة أعوام في بئر نزح...

وحدثني عن الراهب يوحنا الذي تعبد ثلاث سنوات قائما على رجل واحدة، ولم ينم ولم يقعد طوال هذه المدة، فإذا تعب جداً أسند ظهره إلى صخرة.

وحدثني عن القديس كولمبان الذي كانت السناجب تجثم على كتفيه فتدخل في قلنسوته وتخرج منها، وهو ساكن.

وحدثني عن راهب اخترع درجة جديدة من الورع، بحيث يربط نفسه بسلسلة إلى صخرة في غار ضيق(1).

وحدثني عن بعض الرهبان.. نسيت أسماءهم.. كانوا لا يكتسون دائما، وإنما يتسترون بشعرهم الطويل ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام.. وكان أكثرهم يسكنون في مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر، ويأكل كثير منهم الكلأ والحشيش.

وكان يحدثني ـ بشوق عظيم ـ عن الرهبان الذين كانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح، ويتأثمون من غسل الأعضاء، وأزهد الناس عندهم وأنقاهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم في النجاسات والدنس.

لقد حدثني عما قاله الراهب اتهينس من أن الراهب أنتونى لم يقترف إثم غسل الرجلين طوال عمره.. وعن الراهب أبراهام أنه لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين عاماً.. وعن الراهب الإسكندري الذي قال بعد زمان متلهفاً: و أسفاه، لقد كنا في زمن نعد غسل الوجه حراماً، فإذا بنا الآن ندخل الحمامات(2).

قلنا: فما **الشرط الرابع**؟

قال: تحمل العقوبات الشديدة في حال التفريط في الطقوس الكثيرة التي يتطلبها نظام الرهبانية.. لقد كان أستاذي يعلمي كل

1() معالم تاريخ الإنسانية: 732.

2() ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: 168.

حين تعاليم القديس (كولمبان) الذي أسس الأديرة في جبال الفوج بفرنسا:

ومن العقوبات التي لا أزال أذكرها: ستة سياط إذا سـعل وهـو يبدأ ترنيمة أو نسى أن يدرم أظافره قبل تلاوة القـداس، أو تبسـم أثناء الصلاة، أو قرع القدح بأسنانه أثناء العشاء الربانى.. وكانت اثنا عشر سوطاً عقاب الراهب إذا نسـى أن يـدعو اللـه قبـل الطعـام وخمسون عقاب المتأخر عن الصلاة، ومائة لمن يشترك في نــزاع ومئتان لمن يتحدث من غير احتشام مع امرأة.

وأقام (كولمبان) نظـام الحمـد الـذى لا ينقطـع، فكـانت الأوراد يتلوها بلا انقطاع ليلاً ونهاراً طائفة بعد طائفة من الرهبان يوجهونها إلى عيسى ومريم والقديسين(1).

قلنا: فهل مارست كل هذه الشروط التي علمك إياها أستاذك؟

قال: أجل.. لقـد مارسـتها بـإخلاص وصـدق إلى أن جـاء اليـوم الذي طلقتها فيه طلاقا بائنا، وطلقت معها أسـتاذي، وتخلصـت من الاسم الذي سماني به.. ولم أندم على ذلـك التطليـق في أي يـوم من أيام حياتي.

قلنا: كيف كان ذلك؟

قال: لقد رأيت بعيني في الدير الذي كنت راهبـا فيـه مـا ذكـره رئيس دير كلونى من قوله:(إن بعض رجال الدين في الأديرة وفي خارجها يستهترون بابن العذراء اسـتهتاراً يسـتبيحون معـه ارتكـاب الفحشـاء في سـاحاته نفسـها، بـل في تلـك الـبيوت الـتى أنشـأها المؤمنين الخاشعون لكى تكون ملاذاً للعفـة والطهـارة في حرمهـا المسور، لقد فاضـت هـذه الـبيوت بالـدعارة حـتى أصـبحت مـريم العذراء لا تجد مكاناً تضع فيه الطفل عيسى)(2)

قلنا: فقد انحرفوا عن المنهج الذي كانوا يدعون إليه؟

1() قصة الحضارة 14: 365.

2() قصة الحضارة: 145: 372.

قال: ليتهم انحرفوا إلى الفطـرة.. لقـد انحرفـوا إلى الشـذوذ.. واستبدلوا الصراع بالصراع.

قلنا: كيف كان ذلك؟

قال: لقد أدى كل ذلك التزمت والغلـو ومغالبـة الطبـع السـوي والفطرة السليمة إلى نتيجة عكسية تمامـاً.. لقـد أصـبحت الأديـرة مباءات للفجور والفسق، تضرب بها الأمثلة في ذلك.

لن أحدثكم عن ذلك.. ولكني رأيت بعيني من الفضائح ما ملأني بــالنفور التــام من الــدير ومن الرهبانيــة.. بــل ومن الكنيســة نفسها(1).

الحيوانية:

قلنا: فإلي أين التجأت؟

قـال: بعـد أن صـارعت روحي جسـدي زمنـا طـويلا.. وبعـد أن اكتشفت السراب الذي أوقعتـني فيـه روحي.. عـدت إلى جسـدي أقبله وألتزمه ولا أرى في الوجود غيره.

قلنا: فهل وجدت من الأساتذة من أعانك على ذلك؟

قال: كثيرون هم.. كانوا يتبوأون أشـرف المـراتب.. ويسـكنون أحسن القصور.. وينالون أعلى المرتبات..

قلنا: فحدثنا عنهم.

قال: أولهم رجل كان يدعوه النـاس **داروين** (2).. لقـد لقيتـه

1() انظر (ثمار من شجرة النبوة) من هذه السلسلة.

2() أشـير بـه إلى تشـارلز روبـرت داروين (1809 ـ 1882م)، وهـو بـاحث وعـالم بريطاني عكف على دراسة علوم الطبيعة، واقترن اسمه بنظريـة النشـوء والارتقـاء وبهـا اشتهر، وكان يقول:(إن كل الأنواع الحية من نباتات وحيوانـات قـد تطـورت تـدريجيًا من أصول مشتركة خلال الملايين من السنين التي مرت عليها)

ألف داروين عدة كتب كـانت تزيـد من حـدّة مناقشـة نظرياتـه عن التطـور.. ومن بين هذه الكتب أصل الإنسان والانتخاب فيما يتعلق بالجنس (1871م)؛ تعبـير عن الانفعـالات عند الرجل والحيوان (1872م)، وأهم كتبه على الإطلاق (أصـل الأنـواع) (1859م)، وهـو

بعد أن عانيت الأمرين في دير الرهبان.. وقـد كنت حينهـا مسـتعدا لاعتناق أي فكرة بشرط ألا يكون فيها رائحة للرهبانية.

في ذلك الوقت الذي كنت فيه مسـتعدا لأي شـيء لقيتـه وهـو يحمل جمجمة لسـت أدري لمن كـانت.. هبتـه في البدايـة.. لكـني سرعان ما انبهرت به.. ثم سرت تابعا له تبعية الظل لصاحبه.

ولم أكن لأتبعه لولا أنه.. وفي بدايـة لقـائي بـه.. طلب مـني أن أرمي الكتاب المقدس الذي كنت أحمله، وأعطاني بدله كتابـا كـان اسمه (أصل الأنواع)(1)

وقد أعجبت كثيرا بهذا الكتاب.. فهو كتـاب لم يكن يتحـدث عن ذلك الشعب المدلل المسـمى (شـعب إسـرائيل).. وهـو كتـاب لم يكن يميز بين جنس وجنس.. فهو كتاب تستوي فيه البشرية جميعا العرق الإسرائيلي وغيره من الأعراق.. بـل إنـه فـوق ذلـك كلـه لم يكن يميز بين الإنسان والحيوان.. مهما كان ذلك الحيوان.

في أول لقاء لي به، قـال لي: خـذ هـذا الكتـاب.. فسـتجد فيـه الحقيقة التي لا حقيقة فوقها..

قلت: أي حقيقة؟

قال: حقيقتك.. أنت.. الإنسان.

قلت: لقد دلني الكتاب المقدس على حقيقتي..

الكتاب الذي ذكر فيه نظريته عن الانتخاب الطبيعي. (انظر: الموسوعة العربية العالميـة، بتصرف)

وقد ذكرنا هذه النظرية والرد العلمي عليها في رسالة (معجزات علمية)، وذكرنا آثارها الخطيرة على المجتمعات البشرية في رسالة (ثمار من شـجرة)، وسـنذكر هنـا باختصـار بعض آثارها في تحديد حقيقة الإنسان.

1() هو كتاب من تأليف داروين صدر عام 1859 يعتبر أحد الأعمال المؤثرة في العلم الحديث وإحدى ركائز علم الأحياء التطوري. عنوان الكتاب الكامل: (أصـل الأنـواع/ نشـأة الانـواع الحيّـة عن طريـق الانتقـاء الطـبيعي - أو الاحتفـاظ بـالاعراق المفضـلة في أثنـاء الكفاح من أجل الحياة).. قدم فيـه داروين نظريتـه القائلـة أن الكائنـات تتطـور على مـر الأجيال.. وقد أثار الكتاب جدلا بسبب مناقضـته الاعتقـادات الدينيـة الـتي شـكلت أساسـا للنظريات البيولوجية حينئذ. شكل كتاب داروين هذا عرضا لنظريته التي اعتمد فيهـا على ما جمعه في رحلته البحرية في ثلاثينات القرن التاسع عشر وبحوثه وتجاربـه منـذ عودتـه من الرحلة..

قال: ليس في الدنيا كتـاب مقـدس.. الكـل يمكن أن يقـدس.. والكـل يمكن أن يـدنس.. انظـر إلى كتـابي هـذا.. إني أراه أقـدس كتاب في الدنيا.

قلت: فما الذي جعله مقدسا.. هل تراه أوحي إليـك كمـا أوحي للأنبياء تلك الأسفار المقدسة.

قهقه قهقهة عالية، وقال: أي أنبياء؟ وأي أسفار؟.. هل ترى أن الله ـ إن كان هناك شيء اسمه الله ـ ينزل من كبريائه ليقـول لنـا: (سلم على برسكا وأكيلا، وعائلـة أونيسـيفورس. أراسـتس مـازال في مدينـة كورنثـوس. أمـا تروفيمـوس، فقـد تركتـه في ميليتس مريضـا. اجتهـد أن تجيء إلي قبـل حلـول الشـتاء.يسـلم عليـك إيوبـولس، وبـوديس، ولينـوس، وكلوديـا، والإخـوة جميعـا ﴾ (تيموثاوس: 4: 19)

أو ترى الله ينزل من علياء عظمته ليقول لنا: (وكـان في سـنة الاربع مئة والثمانين لخروج بني اسرائيل من ارض مصر في السنة الرابعة لملـك سـليمان على اسـرائيل في شـهر زيـو وهـو الشـهر الثاني انه بنى البيت للرب. والبيت الذي بناه الملك سليمان للـرب طوله ستون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا وسـمكه ثلاثـون ذراعـا. والرواق قدام هيكـل الـبيت طولـه عشـرون ذراعـا حسـب عـرض البيت وعرضه عشر اذرع قدام البيت. وعمل للبيت كوى مسـقوفة مشبّكة. وبنى مع حائط البيت طباقا حواليه مع حيطان البيت حـول الهيكل والمحراب وعمل غرفات في مستديرها. فالطبقة السـفلى عرضها خمس اذرع والوسطى عرضها ست اذرع والثالثـة عرضـها سبع اذرع لانـه جعـل للـبيت حواليـه من خـارج اخصـاما لئلا تتمكن الجوائز في حيطان البيت. والبيت في بنائـه بـني بحجـارة صـحيحة مقتلعة ولم يسمع في البيت عند بنائه منحت ولا معول ولا اداة من حديد. وكان باب الغرفة الوسطى في جـانب الـبيت الايمن وكـانوا يصعدون بدرج معطّـف الى الوسـطى ومن الوسـطى الى الثالثـة. فبنى البيت واكمله وسـقف الـبيت بـألواح وجـوائز من الارز. وبـنى الغرفات على الـبيت كلـه سـمكها خمس اذرع وتمكنت في الـبيت بخشب أرز)(ملـوك 6:ـ 1-10).. إلى آخـر هـذا الوصـف الطويـل الذي لا ينتهي حتى يبدأ غيره.

قلت: فما الذي جعل كتابك مقدسا؟

قال: العلم.. كتـابي يعتمـد على العلم والحقـائق.. أمـا الكتـاب الذي يسمونه مقدسا، فيعتمـد على حكايـات العجـائز.. وأنـا أتمتـع بحكايات العجائز.. ولكني لا أتعلم على أيديهم.

قلت: فما دلك العلم والحقائق على حقيقة الإنسان؟

قـال: لقـد صـورت فيلمـا رائعـا عن ذلـك.. فيلمـا يعتمـد على الحقيقة وحدها..

قلت: فيلم واقعي، أم فيلم خيالي؟

قال: بل فيلم علمي واقعي.. فأنا أتمتع بالخيال، ولكـني لا أثـق فيه، ولا أعتمد عليه.

قلت: إن هذا لعجيب.. هل وجدت مركبة الزمن التي رحلت بك إلى بداية البشرية؟

أشار إلى الجمجمة التي كـان يحملهـا، وقـال: أجـل.. هـذه هي مركبتي.. في هذه الجمجة يخزن تاريخ الإنسان..

قلت: فحدثني عن هذه الجمجمة العجيبة.

قال: سأحدثك عما حصل قبلها.. فلن تفهم تاريخ هذه الجمجمة حتى تفهم ما حصل قبلها..

في البــدء.. وبعــدما بــردت الارض وتكــونت بحارهــا وجبالهــا وسهولها وغلافها الجوى واستعدت لاسـتقبال الحيـاة عليهـا، وذلـك بعد تعرضها خلال ملايين السنين للتطور من حال إلى حال(1).

وكــان أول ظهــور للحيــاة على الأرض فــوق ســطح المــاء والمحيطـات والمسـتنقعات وعلى شـواطئ المسـطحات المائيـة التى تكونت عندها مادة الطين، حيث اختلط الماء بالتراب.

ومن عفن الطين المنتن نشأت أبسط وأصغر أنواع الحياة التى

1() انظر التفاصـيل المرتبطـة بهـذا وبهـذه النظريـة في (معجـزات علميـة) من هـذه السلسلة، وقد نقلنا بعض الحوار الوارد فيها إلى هذه الرسالة لاقتضاء المقام لذلك.

نراها ممثلة في بعض أنواع البكتيريا وبعض الكائنات وحيدة الخليــة التى لم تتميز بعد على أنها نبات أو حيوان.

ومن هـذا الأصـل المشـترك لجميـع الكائنـات نبت فرعـان من الخلايا المجهرية ـ أى التى لا ترى إلا بواسـطة المجـاهر المكـبرة ـ تولد من أحدهما النبات، ومن الآخر الحيوان.

أما فرع الحلايا المكونة للنباتات، فسرعان ما استحدثت طريقة عجيبة لتركيب مادة الكلوروفيل الخضراء في هيكلهـا لتكسـب بهـا الطاقة من ضوء الشمس، وتستعين بهـا على اسـتخلاص الكربـون من غاز ثانى أكسـيد الكربـون الموجـود في الجـو، ثم تحويلـه إلى مـواد سـكرية ونشـوية، وكـان هـذا بـدء ممارسـة عمليـة التمثيـل الضوئى لنمو النبات.

ثم إن الخلايا أخذت تحيط أجسامها الدقيقـة بجـدران من هـذه المواد الكربونية في هيئة السليولوز، وكانت تستعمل الطاقة الـتى تنبعث في أجسامها نتيجه التمثيل الضوئى داخل هذه الجـدران في التحرك.

ثم إن هذه الخلايا كـانت كائنـات متناهيـة في الدقـة تعيش في غير جلبة أو ضوضـاء، ويأتيهـا رزقهـا رغـدا من الهـواء ومـاء البحـر وأملاحه.

وبعد زمن طويل مضـى على هـذه الخلايـا، وهى تنمـو وتتطـور نشأت في البحار كائنات كثيرة لا عدد لها.

وكـانت هـذه العضـويات الأولى هي الأصـل في جميـع أعضـاء مملكـة النبـات الـتى تكـاثرت وغطت الارض بأعشـابها وأشـجارها وغاباتها الضخمة الكثيفة.

ومثـل ذلـك حصـل لعـالم الحيـوان، فقـد انقسـمت الخلايـا الحيوانيـة، وكـونت الحيوانـات الـتى عاشـت على النبـات وغـيره، وصارت أنواعا مختلفة من الأحياء على الأرض.

قلت: هـذا تفسـيرك للحيـاة.. فمـا تفسـيرك لهـذه السـلوكات العجيبة التي تبديها الحيوانات.. بل حتى النباتات؟

قــال: إنهــا الغريــزة.. فــالغريزة هي التفســير العلمي لتلــك السلوكيات.. إنها التفسير الصحيح لقابلية الحيـوان للقيـام بسـلوك معين منذ الولادة.

قلت: فكيف اكتسبت الحيوانـات هـذه الغريـزة؟.. وكيـف كـان ظهور أول سلوك غريزي لديها؟.. وكيـف تم انتقـال هـذه الغريـزة كابراً عن كابر؟

سكت قليلا، وكأنه يتأمل سؤالي، ثم قال: إن شـئت الحقيقـة.. هناك أجوبة كثيرة عن هذا.. ولكنها تكاد تكون أسئلة هي الأخرى، لا أجوبة.. فكل سؤال منها سيستدعي منك أسئلة أخـرى.. ولـو بقينـا هنا إلى آخر الدهر مع مثل هذه الأسئلة، فلن نخرج أبدا.

ثم أضـاف: ربمـا تكـون الغرائـز مجـرد جينـات موجـودة لـدى الحيوانات، تظهر على شكل أنماط سلوكية.

قلت: وهل تؤمن بهذا؟

قال: لقد ذكرت لك أن هذا نفسه سـيحتاج إلى أسـئلة جديـدة، بل أسئلة كثيرة.

أولها سـتقول لي: لـو كـانت الكائنـات الحيـة مبرمجـة على أن تسلك هذا السلوك المعين فمن الذي برمج هذا السلوك؟

أنا أعلم أنه لا يوجد أي برنامج مبرمج من تلقاء نفسـه.. وأنـه لا بد لكل برنامج من مبرمج.

قلت: نعم.. كنت سأسـألك هـذه الأسـئلة.. فمـا الإجابـة الـتي أعددتها لها؟

قال: لقد وفر أصحابنا العناء على أنفسهم.. فذكروا إجابة ربمــا ستستدعي منك أسئلة أخرى.

قلت: فما قالوا؟

قال: هم يقولـون.. أو بـالأحرى نحن نقـول بـأن الطبيعـة الأم ـ التي تتشكل من البحيرات والجبال والأشجار والظواهر المختلفـة ـ لها القدرة على الخلق، إنها بديل علمي منطقي عن الخالق..

قلت: إن الطبيعة كيان متعدد الأنواع.. فأي نوع منها لديه القدرة على إكساب الحيوانات المختلفة أنماطها السلوكية المختلفة؟

قال: كنت أعلم أنك ستسأل هذا السؤال.

قلت: لست أنا وحدي الذي يسأله.. بل عقلك أيضا يسأله، أنا أشعر أن عقلك يحتاج إلى إجابة منطقية على هذا السؤال.

إن الطبيعة تتألف من الحجر والتراب والأشجار والنباتات..

من من هذه العناصر تكون له القدرة على إكساب الكائنات الحية هذا السلوك المبرمج؟

أي جزء من الطبيعة لديه القدرة والعقل على فعل ذلك؟

هل ترى أنه يمكن للإنسان العاقل أن يقول، وهو يرى لوحة زيتية جميلة:(ما أحلى الأصباغ التي رسمت هذه اللوحة)؟.. بلا شك فإن كلامه لن يكون منطقيا.

إذن فإن ادعاء كون المخلوق خالقاً للأشياء هو بلا شك ادعاء غير منطقي..

قال: أنت تريد إذن أن تعود إلى الدير.. لاشك في ذلك.. أنت بين أمرين: إما الدير، وإما الحقائق التي ذكرتها لك.. والتي ستجد تفاصيلها في هذا الكتاب.

امتلأت رعبا بعد أن ذكر لي الدير.. فلذلك ألزمت عقلي بأن يقتنع بما قال.. بل رحت أقرأ كتابه الذي أهداه لي.. بل رحت أحفظه عن ظهر قلب، وأردده في كل المجالس.

وقد وجدتني بعد حين أقتنع بما يقول.. بل وجدتني أنقلب إنسانا آخر.. بل وجدت نفسي قد انسلخت من إنسانيتي، لأرتدي كل مرة حلة من حلل البهائم والسباع.. فمرة أصير خنزيرا أرتع من لذات الدنيا ما كانت الرهبانية قد حرمتني منه.. ومرة كنت أسير في الشوارع كما تسير الأسود مكشرة عن أنيابها.. ومرة كنت ــ وتحت الضغوط الشديدة ــ أتحول إلى فرد من عائلة

الخنافس والجعلان..

وهكذا انتقلت من حيوان إلى حيوان.. وقد وجدت الكثير من الأساتذة يستغلون حالي في ذلك أبشع استغلال..

لقد عبر عن ذلك أحد أساتذتي الذين نبهوني إلى خطر هذه النظرية.. كان اسمه (ألكسس كاريل).. لقد قال لي ناصحا:(إن نظريات النشوء والارتقاء هي مصدر كل الهموم الإنسانية، وإنها ليست إلا حكايات خرافية وجدت من يحميها ومن يقدمها للجماهير بحلة خادعة لا يعرفها كثير من الناس)(1)

ورأيت بعد ذلك أن كل المخربين جعلوا من هذه النظريات فأسا يهدمون به كل القيم البشرية:

لقد قارن كارل ماركس الكفاح من أجل البقاء بين الكائنات العضوية مع الكفاح من أجل السيطرة السياسية بين الطبقات الاجتماعية.

واعتمد كُتّاب وباحثون آخرون على فكرة الانتخاب الطبيعي لكي يبرروا مفهوم تطور العنصر الإنساني الراقي للجنس البشري.

واستخدم بعض الدارسين الذين عرفوا باسم الداروينيين الاجتماعيين أفكارداروين لتأييد الفكرة التي تقول بأن على الناس في أي مجتمع، وعلى الجماعات أن تتنافس على البقاء حيثما كانت.

بل إن الاستعمار ـ وبدلاً من أن يشعر بتأنيب الضمير ــ صار يشعر، بل يعتقد من خلال هذه النظرية أنه يقوم برسالة حضارية عندما يزيل مواريث الأمم والبنى التحتية لها ومجتمعها المدني القائم بها والحرف والصناعات الخاصة بها، ويعتبر نفسه أنه يمدنها.. حتى أن ماركس اعتبر غزو فرنسا للجزائر من التمدن وإزالة الرجعية والتخلف وتحدث بنفس هذا المنطق عن الهند..

وفي الأخير.. وبعد معاناة طويلة، وصراع مرير.. لم أجد في

1() الإنسان ذلك المجهول.

هذا الأستاذ ما كنت أحلم به عن الإنسان.. فرحت أبحث عن أستاذ آخر.

الغرائزية:

قلنا: فأي أستاذ هذا الذي أنقذك من داروين؟

قال: هو لم ينقذني من داروين، وإنما أضاف إلى الركـام الـذي أنشـأه داروين ركامـا عجيبـا جعلـني أرى الحيـاة مرقصـا للاشـعور يتلاعب به كما يشاء.

قلنا: نراك تومئ إلى **فرويد**(1)؟

قال: أجل.. لقد كان فرويد هو أستاذي الثالث الذي انحـرف بي عن إنسانيتي انحرافا خطـيرا، ظللت تحت أسـره دهـرا طـويلا من الزمان.

قلنا: فكيف تعرفت عليه؟

قال: لقد كان أول ما دلني عليه اللاشعور نفسه.

قلنا: فقد آمنت بتأثير اللاشعور قبل أن تراه؟

قال: أجل.. ولا أرى أن أحدا من الناس يخالف في ذلك.. فكلنا يعـرف تـأثير بـاطن الإنسـان ومـا يحملـه من مشـاعر وأفكـار في حياته.. حتى الإسلام لا ينكر ذلك.. لقد ورد في القرآن الإشارة إلى هذا اللاشعور الذي لا يكاد صاحبه يعلمه.. ففي القرآن : وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (طــه:7).. فـالخفي ليس إلا تلـك المعاني الخفية التي يمتلئ بها باطن الإنسان.

قلنا: فقد تأثر فرويد بما جاء به من علم بالقرآن؟

---

(1) هـو سـيجموند فرويـد (1856 ـ 1939م)، طـبيب نمسـاوي، ولـد في فريـبرج، مورافيا ـ بتشيكوسلوفكيا (السابقة) تخـرج في كليـة الطب، بجامعـة فيينـا عـام 1881م. وفيما بعد قرر التخصص في علم الأعصاب لدراسة وعلاج اضطرابات الجهاز العصبي.

كتب عـدة أعمـال أهمهـا تفسـير الأحلام (1900م)؛ مقدمـة في التحليـل النفسـي (1920م). وتعتـبر نظرياتـه في السـلوك والعقـل ومنهجـه في العلاج أسـاس علم النفس الحديث.

قال: ليته فعل ذلك.. إذن لوقى نفسه، ووقى البشرية من مهالك تلك النظريات التي جاء بها، والتي لبست لباس العلم لترمي البشرية في أتون الرذيلة.

قلنا: فحدثنا عما لقنك هذا الأستاذ من علوم.

قال: لقد بدأ هذا الأستاذ، فعمق في نفسي الهوة التي كانت قد بدأت تتوسع بيني وبين الدين.. فقد كان أول لقاء لي به سنة 1927م، وكنت حينها صحفيا.. وقد كلفتني الجريدة التي أعمل فيها بإجراء حوار معه.. وقد كان في ذلك اللقاء يستخف بالدين، ويحتقره احتقارا شديدا(1)..

أذكر أنه بعد نشر المقابلة كتب له أحد الأطباء الأمريكيين الشبان خطابا لامه فيه على عدم إيمانه هذا، وسرد له في خطابه قصة مؤثرة عن كيفية رجوعه للإيمان بعد شك في وجود الله جاء نتيجة لتأثره بوفاة مريضة عجوز بريئة ملامح الوجه؛ كما ذكر هذا الطبيب الشاب في خطابه لفرويد أنه بعد شكه في الله دخل في أزمة نفسية انتهت بسماع صوت من داخل نفسه مازال يحثه على الرجوع لإيمانه حتى رجع له يقينه بوجود الله.

لقد ضحك فرويد حينها كما لم يضحك في حياته جميعا، ثم رد عليه يقول :(إن الله لم يسمعني صوتا داخليا كالذي أسمعك إياه.. وإذا تباطأ الله في هذا الأمر رغم علمه بكبر سني، فإنه سوف لا يكون الخطأ خطئي لو بقيت إلى نهاية حياتي على اعتقادي الحالي.. يهوديا كافرا..)

ولم يكتف بذلك، بل راح يحلل خطاب الطبيب نفسيا وينشر ذلك كله في مقال بعنوان : A religious Experience.. في ذلك المقال

---

(1) وهذا لا ينفي كونه يهوديا متعصبا.. فاليهودية ـ كما هي في الواقع والتاريخ ـــ دين قومي لا يهمه التوجه الديني بقدر ما يهمه الارتباط العنصري.. وقد ذكر المسيري الكثير من الأمثلة على علاقة فرويد باليهودية، ومن ذلك أن فرويد كان كثيراً ما يتباهى باليهودية وبانتمائه اليهودي، فكان يرى أن الشعب اليهودي قَدَّم التوراة للعالم، وأن اليهودية مصدر طاقة لكثير مما كتب.

وقد أكد أكثر من مرة أنه كان دائماً مخلصاً لشعبه « ولم أتظاهر بأنني شيء آخر: يهودي من مورافيا جاء أبواه من جاليشيا)، (انظر: الموسوعة اليهودية للمسيري)، وقد أشرنا إلى هذا بتفصيل في (ثمار من شجرة النبوة) من هذه السلسلة.

يهوي فرويد بأحاسيس الرجل الإنسانية التي تجلت في ألمه لرؤية وجه السيدة الوقورة الميتة إلى حضيض التفسير الجنسي والعقدة الأوديبية بأسلوب متهافت ومنطق غريب.

ومما جاء في ذلك المقال :(إن رؤية جسد المرأة الميتة الذي ربما كان عاريا أو كان في طريقه لأن يتعرى من الملابس قد ذكّر هذا الشاب الطبيب بأمه (لا شعوريا) وقد أثارت فيه هذه الذكرى شوقا لوالدته نبع من عقدته الأوديبية، وهذا الشعور سرعان ما أثار فيه البغض والغضب على والده، وبما أن أفكاره عن والده وعن الله لم تنفصل بعد بما فيه الكفاية فإن رغبته في تحطيم والده على المستوى اللاشعوري قد ظهر شعوريا في شكل شكه في وجود الله، وإنه لمن المعلوم لدينا أن الطفل يعتبر ما يفعل والده لأمه في صلته الجنسية بها نوعا من سوء المعاملة والقسوة)

سألته حينها متعجبا من هذا الموقف، وقلت: أهذا هو مصدر العقيدة في الله؟

رد علي بثقة عظيمة: أجل لقد وقفنا من خلال التحليل النفسي على هذا الرباط الوثيق بين عقدة الوالدية Complexe Parental - عقدة أوديب(1) - وبين نشوة الإيمان بالله لدى الأفراد بما لا يدع مجالا للشك في أن الإله ما هو إلا صورة بديلة عن الأب Pere transfigure...

ثم أضاف معقبا بطريقته التمثيلية التي كانت تجذبني بشدة في ذلك الوقت: إنه الصورة المكبرة عن تلك التي يكونها الطفل عن أبيه في طفولته كمصدر للحب والحماية والرعاية، فالتدين وثيق الصلة بالحاجة الدائمة للإنسان الطفل للحماية والمساعدة.

وكان يقول لي بعدها كل حين :(إن التحليل النفسي يمثل المرحلة الأخيرة من الثورة العلمية التي مازالت تعري للبشرية هذاءاتها المتمثلة في الدين)

1() عُقْدَةُ أودِيب: من أهم المصطلحات في التحليل النفسي، ويريدون به رغبة الطفل غير الواعية في الاستئثار بحب الطرف المضاد لجنسه من والديه (الولد للأم والبنت للأب). وتشتمل هذه الرغبة على الغيرة من الولد تجاه الأب أو البنت تجاه الأم والرغبة غير الواعية في موت الأم أو الأب.

وكان يقول لي ـ وهو يفسر نزعة التدين ـ:(إن هذه الاعتقادات الـتي تعـرض في الـدروس الدينيـة لا تنبـع من الخـبرات البشـرية المتراكمة، وليست هي نتاج للتفكـير المسـتقيم إنمـا هي نـوع من الهـذاءات ؛ بـل هي إشـباع لأقـدم وأقـوى وأشـد رغبـات الجنس البشري إلحاحـا..إن الإحسـاس بالتهديـد والخـوف والشـعور بعـدم الأمان لدى طفل لا يقدر على مواجهة ظروف الحياة أيقظ لديـــه الحاجـة إلى الحمايـة والحب في الـوقت نفسـه، وهـو الأمـر الـذي يتولاه الأب عادة ... ثم إن عجز الإنسان البدائي على مواجهـة قـوى الطبيعة وقلة حيلتـة جعلتـه في حاجـة إلى حمايـة دائمـة من هـذه الأخطار التي تتهدد حياته فتعلق بـ (أب) أكبر في هـذه المـرة، إنـه الله.. لقد وجدت مشاعر القلق الـتي تنتـاب الإنسـان أمـام عجـزه على مواجهة أخطار الحياة هذه حلهـا في الـدين في ظـل الحمايـة الإلهية والتعاليم السماوية التي سنت القوانين الأخلاقية التي تنتظم العالم وتلبي حاجة الإنسان إلى العدل الأخروي الـذي قلمـا تحقـق في عالم الناس، وما يتبع ذلك من الإيمان بالحساب والإيمان بحياة أخرى هي في الحقيقة امتداد لحياة قلما استطاع الإنسان أن يشبع فيها كل رغباته)

قلنا: لقد كان الإلحاد واللاتدين منتشرا قبل فرويد، بـل إنــه في العصر الذي جاء فيه فرويد كان التدين غريبا بين رجال العلم.. فما الجديد الذي لقنك إياه؟

قال: لقد ذكرت لكم أني لم يكن يعنيني في الوجـود إلا البحث عن أسرار الأنا.. فأنا لم يكن يهمني في هـذا العـالم إلا البحث عن أنا.

قلنا: فما الذي علمك فرويد عن الأنا؟

قال: لقد قال لي في أول لقاءاتي بـه :(الشخصـية الإنسـانية مثل كتلة الجليد العائمة في البحار القريبة من القطب لا يعلو منهـا فوق سطح البحر إلا جزء ضـئيل، ويبقى معظمهـا مغمـوراً بالمـاء، وكذلك الشعور يؤلف جزءاً ضئيلاً من العقـل، أمـا البـاقي وهـو مـا يُعرف باللاشعور أو العقل الباطن فهو الجـزء الأعظم، وليس ذلـك فحسب بل إنه الجزء المهم من العقل)

قلنـا: مـا ذكـره يحمـل الكثـير من المعـاني الصـحيحة، فمـا المستغرب فيه؟

قال: المستغرب فيه أنه ادعى أن له المقدرة على الغوص في أعماق تلك البحـار لاكتشـاف تلـك المنـاطق المغمـورة في البحـار الجليدية.. لم يدع ذلك فقط على سـبيل الإجمـال، بـل ادعـاه على سـبيل التفصـيل، فعمم مـا توهمـه على جميـع جبـال الجليـد في العالم، بل في الكون جميعا.

قلنا: دعك من التهكم، وحدثنا بما لقنك.

قـال: لقـد علمـني (سـيدي المبجـل فرويـد !!) أن اللاشـعور الشخصـي هـو محـور السـلوك الإنسـاني.. ثم علمـني أن هـذا اللاشـعور هـو مجموعـة العوامـل النفسـية والفسـيولوجية غـير المحسوسة التي توثر في السلوك الإنساني..

وعنـدما سـألته عن التفسـير، قـال: في النفس الإنسـانية ثلاث قوى.. لن تستطيع أن تفهم النفس إلا من خلالها: الهو، والأنا، والأنا الأعلى.

سألته عن (الهو)، فقال: هو كل موروث.. أو كل ما يظهـر عنـد الميلاد.. أو كل ما هو مثبت في الجبلّة.

سألته عن (الأنا)، فذكر لي أنه المسيطر على الحركة الإراديـة، والمكلف بحفظ الذات.

سألته عن (الأنا الأعلى)، فذكر لي أنه راسب من رواسب فترة الطفولة الطويلة التي يعيش فيهـا الإنسـان الناشـيء معتمـداً على والديه.. ففي تلك الفترة تتكون في الأنا منظمة خاصـة يمتـد فيهـا تأثير الوالدين.

سألته عن الطاقة التي يتصرف من خلالها (الهو)، والـتي كـانت مخزنـة في الأصـل في جبلتـه، والـتي على أساسـها يمكن تفسـير جميع حركاته.. لم يمهلني حتى أنتهي من سؤالي، بـل أجـاب على الفور: الجنس.. الطاقة الجنسـية هي الطاقـة الكـبرى الـتي يمكن من خلالها تفسير جميع سلوكيات الإنسان..

قلت: ولكن هذه الطاقة تبـدأ في مرحلـة متقدمـة من السـن.. فكيف يفسر بها السلوك الإنساني، والإنسان لا يبدأ شـابا، بـل يبـدأ طفلا صغيرا ممتلئا بالبراءة؟

أجانبي، وهو يبتسم بسخرية: ألا ترى الطفـل، وهـو يمص ثـدي أمه بتلك اللهفة، وذلك الشوق؟

قلت: هو يتغذى بذلك..

قال: لا.. الأمر أخطر من أن يكون مرتبطا بالغـذاء وحـده.. إن الطفل في ذلك الحين يمر بمرحلة جنسية هي المرحلة الفمية..

ثم أضاف يقـول: إن إلحـاح الطفـل في المص وتشـبثه بـه في مرحلة مبكرة ينم بوضوح عن حاجة إلى الإشـباع، على الـرغم من أنهـا حاجـة تنبعث عن تنـاول الغـذاء وتتـأثر بـه إلا أنهـا تسـعى إلى الحصول على لذة مسـتقلة عن التغذيـة، وبالتـالي يمكن ويجب أن توصف بأنها جنسية.

ثم أضاف يقول، وكأنه مجنون يخاطب نفسه: ثم تتطور طاقــة (اللّبيدو)(1) مع الطفل إلى المرحلة السـادية الشـرجية والمرحلـة القضيبية التي يتجلى فيها الشكل النهائي للحياة الجنسية.

ثم بعد ذلك يأتي دور الأنا.. تلـك الـذات الواعيـة.. الـتي تحـاول الموازنة بين الرغبات الخاصة، والواقع الخـارجي بكـل مـا فيـه من سلطة وقيم اجتماعية.

قلت: فكيف يتشكل الأنا الأعلى؟

قال: يتشكل من تلبس الطفل بشخصية والده.. وحينئـذ تنشـأ (عقدة أوديب) كنتيجـة طبيعيـة لحب الولـد لأمـه جنسـياً.. وبمـا أن الأب يحول دون تحقيق مقتضيات هذا الحب فإنه يتكـون في نفس الطفل نحـو أبيـه شـعور مـزدوج، طرفـاه الحب والكراهيـة في آن واحد، ثم يتخلص الطفل من هذا الصراع.

قلت: هذا الولد.. والبنت!؟

1() اللِّـبيدو مصطلح في التحليل النفسي، يتعلَّق بطاقـة الغرائـز الطبيعيـة، أو بإثـارة ذلك السلوك الممتع. وكان فرويد أول من استعمل المصطلح.

قـال: تتخلص من العقـدة (عقـدة أليكـترا)(2) بزيـادة تلبسـها بشخصية أمها.. وعنـد ذلـك ينشـأ الضـمير.. وتكـون مهمتـه الكبت والقمع للشهوات الجنسية غير المرغوب فيها، وذلك لحماية الـذات من عسف ذوي السلطان في الخارج الأب أو المجتمع أو الـدين أو التقاليد.

قلت: فغريزة الجنس هي عاصمة الغرائز إذن؟

قال: أجل.. فالإنسان ينشأ حاملاً في أعماقه هذه البـذرة الـتي تصبح المحرك الرئيس لطاقاته في الحياة، ويغدو همـه الوحيـد في حياتـه هـو إفـراغ هـذه الطاقـة، إلا أن ذلـك لا يتحقـق على الوجـه الأكمل حفاظاً على قيم المجتمع، وخوفاً من تعاليم السـلطة، وهنـا يـأتي الحلم الـذي تتحقـق فيـه الرغبـة حين يخلـد الأنـا الأعلى في سباته العميق.

قلت: الحلم!؟

قال: أجل.. وقد يكون الحلم صـريحاً وواضـحاً وربمـا لا يكـون.. وإذ ذاك تصبح لصور الحلم دلالة رمزيـة، فالصـور الـتي تظهـر في الحلم رموز الحقائق في اللاشعور: فالطائر ليس طائراً حقيقة بـل رمزاً لشيء آخـر قـد يكـون أمـا أو أبـاً، والطـيران شـبق جنسـي، والسير إلى الشمال رغبة في الزنا بالمحارم.. وهكذا.. فإن كل مـا تتصور البشرية أنه أبدعته أو وصلت إليه هـو في الحقيقـة نـوع من الشبق الجنسي.

قلت: والدين والأخلاق والفن !؟

ابتسم، وقال: كل هذه الأشـياء ليسـت إلا تعويضـاً عن الـدوافع

2() مصطلح في التحليل النفسي لوصف الشعور غير الـواعي للبنت نحـو أمهـا، وهـو مستمد ـ كذلك ـ من أسطورة إغريقية.. فإلكترا شخصية أسطورية عُرفت في الأسـاطير الإغريقية بولائها التام لوالدها الزعيم الإغـريقي أجـاممنون، قـامت كليتمنسـترا أم إلكـترا وعشيقها إجستوس بقتل أجاممنون. فأرسلت إلكترا شقيقها الأصغر أوريستيس بعيدًا عن القصر الملكي لتحميه من أمها. كرهت إلكترا أمها وعشيقها ولكنها عاشت معها، حتى بلغ أوريسـتيس الحلم. وحينئـذ عـاد أوريسـتيس من منفـاه، لينتقم لمقتـل والـده بقتـل أمـه وعشيقها بمساعدة إلكترا. تزوجت إلكترا فيما بعد صديق شقيقها بيلاديس.

وقد ابتدع العالم النفسي السويسري كارل يـونج مصـطلح (عقـدة إلكـترا) ليصـف بـه تعلق البنت الشديد بأبيها، وعداءها في نفس الوقت لأمها.

الغريزيّة لدى الإنسان.. فالدين يستقي أصوله من رغبتنا إلى الرعاية السماوية التي نتصورها في صورة الأب الحنون الذي يحل محل الأب الحقيقي، لأن هذا لا يلبث أن يخيب آمالنا كلما شببنا عن الطوق، وبلغنا مبلغ الرجولة.

والأخلاق ما هي إلا قواعد أوجدها الإنسان لتكون كالحاجز تصد غرائزه التي لو انطلقت من زمامها لجعلت النظام الاجتماعي أمراً مستحيلاً.

أما الفن فقيمته إنما تنبثق من حاجة الإنسان إلى أن يبتدع أنواعاً من الوهم تقيه من النظر إلى الأشياء كما هي في حقيقتها مما لا يسهل على الإنسان أن يحتمله.

سكت قليلا، ثم قال، وهو يرفع يديه إلى السماء، وكأنه يخاطب نفسه: هذا هو التسامي.. فالأنا ـ التي هي المسيطر على الحركات الإرادية ـ تتقبل الدافع الغريزي وتتسامى به، وذلك بأن تحيله من صورته التي هو عليها أو من وضعه إلى وضع آخر ذي قيمة.

ثم أضاف يقول بقوة: إن المنبهات القوية الصادرة عن المصادر الجنسية المختلفة تنصرف وتستخدم في ميادين أخرى بحيث تؤدي الميول التي كانت خطرة في البداية إلى زيادة القدرات والنشاط النفسي زيادة ملحوظة.. تلك إحدى مصادر الإنتاج الفني، وإن تحليل شخصية الأفراد ذوي المواهب الفنية ليدلنا على العلاقات المتغيرة القائمة بين الخلق الفني والانحراف والعصاب، بقدر ما كان التسامي كاملاً أم ناقصاً.. وإن الجانب الأكبر لما نسميه الطبع مركب من مادة المنبهات الجنسية ومؤلف من ميول ثبتت منذ الطفولة أو اكتسبت عن طريق التسامي أبنية الغاية منها كبت الاتجاهات المنحرفة التي استحال استخدامها.

كان في القاعة التي نجلس فيها لوحة كبيرة من رسم (ليوناردو دافنشي)(1)، أشار إليها، وقال: هذه اللوحة دليل لما

---

(1) ليوناردو دافينشي (1452 ـ 1519 م)، يعد من أشهر فناني النهضة الإيطاليين على الإطلاق وهو مشهور كرسام، نحات، معماري، وعالم.. كانت مكتشفاته وفنونه نتيجة شغفه الدائم للمعرفة والبحث العملي، له آثار عديدة على مدراس الفن بإيطاليا امتد لأكثر من قرن بعد وفاته وإن أبحاثه العلمية خاصة في مجال علم التشريح البصريات وعلم الحركة والماء حاضرة ضمن العديد من اختراعات عصرنا الحالي..

أقول.. لقد درست هذه اللوحة دراسة متمعنة.. بل درست جميع الجبل الذي كان سطحه (ليوناردو دافنشي)، وسميت تلك الدراسة (ليوناردو دافنشي دراسة نفسية جنسية لذكريات طفولية)

لقد قمت في ذلك البحث العميق بتحليل شخصية دافنشي تحليلاً نفسياً متكئاً على ملاحظة وجدتها في إحدى أوراق الرسام العظيم.. وهي رؤيا طفولية، فقد روى أنه يذكر عندما كان في المهد أنه رأى نسراً ينزل عليه ويفتح له فمه ويضربه بذيله على شفتيه عدة مرات.

وفي ضوء هذه الرؤيا اكتشفت سر ذلك البطء الذي اشتهر به دافنشي، وهو ينجز أعماله العظيمة، واكتشفت سر تنقلاته الكثيرة، وسر غموض ابتسامة (الجوكندا)(1).. لقد اكتشفت أنه كان ضحية انحراف جنسي على مستوى اللاوعي، تأثرت به حياته، وتأثر به فنه.

أخرج من محفظته (رواية الإخوة كرامازوف)(2) للروائي الروسي (دستوفيسكي)(3).. ثم قال: لقد درست هذه الرواية

1() الجيوكاندا: هي لوحة رسمها الإيطالي ليوناردو دا فنشي، وقد بدأ برسم اللوحة في عام 1503 م، وانتهى منها بعد ذلك بثلاث أو أربع أعوام. ويقال أنها لسيدة إيطالية تدعى ليزا كانت زوجة للتاجر الفلورنسي فرانسيسكو جيوكوندو صديق دافنشى والذي طلب منه رسم اللوحة لزوجته.

2() هي رواية للكاتب الروسي فيودور دوستويفسكي وعموما، وتعتبر تتويجا لعمل حياته.. وقد نشرت في فصول في مجلة (الرسول الروسي) عام 1880.. وقد عالجت كثيراً من القضايا التي تتعلق بالبشر، كالروابط العائلية وتربية الأطفال والعلاقة بين الدولة والكنيسة وفوق كل ذلك مسؤولية كل شخص تجاه الآخرين.. ومنذ إصدارها، هلل جميع أنحاء العالم من قبل المفكرين متنوعة مثل سيغموند فرويد، وأينشتاين، وبينيدكت السادس عشر باعتبار الأخوة كارامازوف واحده من الانجازات العليا في الأدب العالمي.. وهي تدور حول جريمة قتل يقترفها ولد (غير شرعي) في حق أبيه، ويستغرق الأمر فصولاً طويلة قبل أن يصل التحقيق إلى القاتل الحقيقي، بعدما كان هذا التحقيق قد وجه شكوكه في نواح أخرى عدة، ولا سيما في اتجاه الأبناء الآخرين (الشرعيين) للرجل القتيل.. و كان موقف دوستويفسكي من الجاني يبدو واضحا باتجاه المطالبة بالقصاص.

3() هو (يودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي) (1821 ـ 1881) ولد في موسكو وتوفي في سان بطرسبرج، روسيا.. وهو واحد من أكبر الكتاب الروس، وأعماله كان لها أثر عميق ودائم على أدب القرن العشرين.. شخصياته دائماً في أقصى حالات اليأس وعلى حافة الهاوية، ورواياته تحوي فهماً عميقاً للنفس البشرية كما تقدم تحليلاً ثاقباً للحالة السياسية والاجتماعية والروحية لروسيا في ذلك الوقت..

دراسة تحليلية.. ووجدت في شخصية هذا الكاتب الروائي فناناً وأخلاقياً وعصابياً وآثماً، وبقدر ما يستحقه من مجد وخلود، فإنه سجان من سجاني الإنسانية، وهو سادي يعذب نفسه، ويعذب الآخرين، ومجرم يتعاطف مع الآثمين.

أخرج كتبا كثيرة.. وراح يحللها جميعا بمقاييسه التي وضعها، ثم قال: هكذا وجدت جميع المبدعين.. هم جميعا عصابيون، كثيرو الانطواء، على صدام دائم مع الواقع الذي لا يسمح لهم بإظهار دوافعهم الغريزية.. ولذلك يلجؤون لإشباعها إلى عالم الوهم حيث يجدون بديلاً عن الإرضاء المباشر لرغباتهم، ويستعينون للوصول إلى تحويل مطالبهم اللاواقعية إلى غايات قابلة للتحقيق من الوجهة الروحية على الأقل بما يمكن تسميته بالقدرة على التسامي.. وهذه إحدى آليات الدفاع التي تعفيهم من القصاص أو المرض، لكنها ـ مع ذلك ــ تجعلهم رهائن عالم وهمي لن يطول الأمد به حتى يصبح مرضاً عصابيا.

قلنا: أهكذا اختصر لك سيدك فرويد الإنسان؟

قال: أجل.. للأسف بهذه الصورة الباهتة الحقيرة اختصر الإنسان.. فكل سلوك يسلكه الإنسان ناتج عن تلك الدوافع الغريزية التي يمتلئ بها اللاشعور..

ومهمة المحلل النفسي ــ التي تدربت على يديه عليها ـ منحصره في أن يكشف دلالات هذه الرموز الجنسية التي يستحيل فيها الإبداع إلى استراتيجية من الدعارة المقنعة، والهوس الجنسي المراوغ ؛ لأن كل قائم في صورة إنما يرمز إلى عضو الذكورة، وأن كل تجويف يعني أعضاء المرأة التناسلية، وأن العمود أو التمثال المنحوت لجسم إنسان منتصب لم يكن في الأصل غير رمز لعضو التناسل، وأن الجزء الداخلي من المبني يرمز إلى رحم المرأة.. وهكذا.

قلنا: فكيف ظهر لك أن تتركه، هل هناك أستاذ آخر حذرك منه، أو نقد لك توجهه؟

قال: إن كان هناك أستاذ يمكن أن يكون سببا في تحذيري من فرويد.. فهو فرويد نفسه.

قلنا: هل بلغ به الورع أن حذرك من نفسه؟

قال: مثله لا يعرف الورع.. لقد كان سلوكه هو الذي جعلني أنفر منه.. لقد كان أنموذجا مشوها عن الإنسان، فلذلك لم أتصور أن في مقدرة رجل مثله أن يدعي كل تلك الدعاوى العريضة.

لقد رأيت فيه ـ بعد أن ذهبت تلك الهالة التي رسمت حوله ـ شخصية مضطربة مريضة جديرة بأن تبحث عمن يعالجها، لا أن تكون مصدرًا لرسم أسس لدراسة النفس البشرية.

لقد كان (فرويد) مجموعة من العقد النفسية والعادات الغريبة، ولم يستطع أن يشفي عقله الباطن من هذه العقد النفسية إلى آخر حياته.. كان يتبع أوراقه التي تدخل في ترجمة حياته فيحرقها.. وكان يؤمن بأنه سيموت في نهاية الحرب العالمية الأولى، فمات في بداية الحرب العالمية الثانية.. وكان يدخن عشرين سيجارًا في النهار ليهدئ من ثوراته العصبية(1).. وكان عرضة للإغماء على أثر المفاجآت.. وكانت مرارة الطبع خلة ملازمة له في علاقاته بغيره.. وكانت لأحلامه وجوه خفية ترمز إلى دلائلها في سريرته الباطنة.. وكانت له ضروب من القلق، تنم على باعث من بواعث الحيرة المكتومة.. وكان في أطهر أحواله يحارب التشبث بالعقائد الدينية والعادات الخلقية، ويتشبث بالتفسير الجنسي للعقائد والعادات تشبثًا يربو في إصراره وشدته على تعصب المتعصب اللدود لمذهبه ودينه.

وكان في طفولته ـ كما ذكر لي ـ ينسى نفسه ليلا في فراشه، وكان يخشى من السفر بالقطار، ويحضر إلى المحطة قبل موعد قيامه بنحو ساعة، وكان دائم العزلة، لا يسمح لأحد أن يصاحبه طويلا.

وفوق ذلك، فقد ذكر لي صديقي (أرنست جونس).. وقد ذكر ذلك في كتابه (حياة وأعمال فرويد) خطابه إلى صديق له يقول: (لست في الحقيقة رجلا من رجال العلم، ولا من رجال الملاحظة

---

(1) عُرِفَ فرويد بإدمانه للسيجار، ومن العجيب أنه لم يتخلَّص من إدمانه هذا إلى أن أُصيب بسرطان الحَلْق عام 1923، وأجرى عدة عمليات لاستئصاله، إلا أن الألم وعدم الراحة لازماه إلى أن طلب من الطبيب إعطاءه جرعة مميتة من المورفين عام 1939 للتخلص من أوجاعه ومن حياته منتحراً.

ولا التجربة، لست مفكرًا، أنا لست إلا مغامرًا بطبيعة مزاجي وتكويني، ولديَّ كل ما عند المغامر من فضول ومثابرة وجسارة)

قلنا: لا يمكن أن نحكم على أفكار الشخص من خلال سلوكه.. فالسلوك ـ مهما كان منحرفا ـ لا يدل بالضرورة على انحراف صاحبه.

قال: صدقتم.. فلذلك طالت صحبتي له مع ما أراه من سلوكه.. لقد كنت أقول لنفسي :(خذي الحكمة.. ولا يهمك من أي وعاء خرجت)

قلنا: فما الذي صرفك عنه بعد هذا؟

قال: الفطرة.. الفطرة وحدها دلتني على الأوهام التي وقع فيها فرويد عن قصد(1) أو عن غير قصد..

أولا.. لقد رأيت الخطر العظيم الذي تحمله أفكار فرويد عن الإنسان في السلوك الإنساني.. لقد ساهم ما طرحه من فكر في تحويل البشرية إلى غابة من الحيوانات لا هم لها إلا إرواء غرائزها..

ثم تأملت في الواقع، فرأيت أنه لا تكاد توجد نظرية واحدة قد أحدثت ما أحدثته من الانقلاب في سير المجتمعات إلا نظرية دارون من قبل، ونظرية كارل ماركس التي سبقت فرويد في الزمن ولكنها لحقته في التنفيذ.. لقد اعتنقت آراءه الجماهير، يظاهرها في ذلك كثير من العلماء، ولم يكتفوا بنصوص نظرياته، بل توسعوا في تفسيرها على هواهم، وآمنوا جميعاً بأن الأمر الطبيعي هو أن تنطلق الغرائز من معقلها، ولا تقف عند حد إلا حد الاكتفاء.

وقد بحثت في أسباب هذا الإقبال الجماهيري.. فوجدت أنه

1() قلنا هذا، ونحن نشك في مدى صدقه بناء على ما ورد فيما يسمى (بروتوكولات حكماء صهيون) من قوله :(يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا.. إن فرويد منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه)

وشكنا في هذا لا ينفي اعتقادنا الجازم بأن أصل ما جاء به فرويد مستنبط من المعتقدات اليهودية، وقد ذكرنا ذلك بالتفصيل في رسالة (ثمار من شجرة النبوة)

ليس نابعا من دواعي البحث والمعرفة والعقل.. وإنما هـو نـابع من دوافع نفسية لا علاقة لها بالعقل أو بالعلم:

لقد رأيت أن من أهم الأسباب هو تلك الثورة التي ظهـرت بين قومنا على تعاليم الكنيسـة الـتي رأينـا فيهـا حجـراً على الحريـات، وسبباً للعقد والانحرافات الخلقية.

ثم ذلك الانبهار غير الواعي بالعلم وبمنجزات العلم..

ثم جاءت الحـرب العالميـة الأولى، ومـا نتج عن ذلـك الشـباب المسجون في متاريس الحرب، والذي قضى شـبابه في السـجون والخنـادق والمعتقلات، وتعـرض لحـروب الميكروبـات، والغـازات السامة، فخرج لا يفتش إلا على إشـباع غرائـزه الحيوانيـة، فكـان فرويد هو الهادي، والداعي إلى هذه السنة، فلذلك كان في نظرهم أحد صناع الحضارة الحديثة في القرن العشرين.

قلنا: أنت لم تنـاقش أفكـاره من الـداخل.. بـل اكتفيت بـالنظر إلى آثارها؟

قال: لا.. لم أكتف بآثارها.. لقـد تعمقت في المنهج الـذي كـان فرويد يفكر به.. فوجدت أنه منهج بعيد عن العلم والعقلانيـة.. فقـد اعتمد فرويد في آرائه على الحـالات المرضـية الشـاذة الـتي كـان يعالجها، والتي من خلالها أخذ يفسر السلوك المـتزن العـادي لـدى الأسوياء في ضوء ما عاينه من السلوك الشاذ عند المصابين.

لقـد رأيتـه يسـتخلص نظريتـه من معالجـة أفـراد من الطبقـة المتوسطة في مدينـة فيينـا، كـانت هـذه الطبقـة تتعـرض لعوامـل الكبت الجنسي وأنواع المحرمات الاجتماعيـة بالنسـبة للعلاقـة بين الجنسـين، فهم ليسـوا بأسـوياء، وفيهم مـا فيهم من عُقـد نفسـية جعلت همهم الأكبر والدافع الأول لسلوكياتهم هو الدافع الجنسي.

ثم رأيت أنه يشكك في العقل.. بل يعتبره مجرد خادم للغريزة، وليس هاديـاً إلى الحقيقـة، ووظيفتـه ليس الحـدس بالحقيقـة، بـل الإقناع بما نعتقده غريزياً، ولهذا فنتائجـه لا يمكن الوثـوق بهـا لأنهـا تبرير لمتعقداتنا فهو أداة ضعيفة في مجال المعرفة.

ثم رأيت أن الإرادة في التحليل النفسي ليست ملكة تُمارس بحرية، إذ ليس بمقدور الإنسان أن يضبط نفسه، فأساليب الإنسان في الحياة نتاج رغبات لاشعورية في أعماق نفسه، وعلى هذا ليس هناك ما يسمى بحرية الإرادة، ولم ينتج عن هذا التصور سوى الانزلاق في الشهوات، والاستغراق في الملذات.. بل إن فرويد كان يصيح بملء فيه:(إن كبح الدافع الغريزي مضر بالشخصية، ويورث الاضطرابات العصبية، والسخط من الحياة)

وفوق ذلك كله، فقد أثبتت الأبحاث التجريبية خطأ ما ذهب إليه فرويد حول الطفولة، وما يدور حولها، فقد أعلن فرويد بأن معارضة رغبات الطفل في صغره ومحاولة الأهل في أن يروضوه على النظام وأصول السلوك تؤثر في تصرفاته إذا كبر، ولذلك كان يرى أنه يجب أن يترك الطفل حرًا بدون توجيه حتى لا يكون ذلك مصدر عقد في حياته.

وقد روج علماء النفس والتربية لهذه النظرية على نحو اتخذ منها وسيلة لهدم أصول التربية وبناء الشباب تحت تهديد وهمي، غير أن العلماء الذين قاموا بإحصائيات وتجارب في البيئة نفسها، تبين لهم فساد هذه النظرية وعدم جدواها، وأن بعض العلماء الأمريكيين أعلن بعد دراسات طويلة بضرورة استخدام الضرب كوسيلة لتقويم الطفل، وقيد الضرب(1)، وقال: (إن مسلك الطفل لا يتأثر بعامل واحد كما ذكر فرويد، ولكنه يتأثر بعدد كبير من العوامل، منها: البيئة والوسط والحالة الاجتماعية، فلا سبيل لإخضاع الطفل إلى نسق واحد)

وقد أجرى الدكتور اسكندر توماس عددًا من البحوث بمعرفة فريق من الأطباء النفسيين، انتهى منها إلى أن نظرية فرويد لم تكن مطلقة، وأنهم درسوا في تجربتهم أحوال 158 طفلا غير منحرفين، منهم الفقراء والأغنياء، وقد نشأ الأولاد أصحاء مستقيمين بالرغم من القيود القاسية في تربيتهم، ودل ذلك على أن مسلك الطفل لا يتأثر بالتوجيه الأبوي، ولا بالزجر أو بالضرب.

1() ليس المراد هنا تأييد هذا الرأي، وإنما القصد هو الرد على ما ذهب إليه فرويد.. أما الضرب في حد ذاته، فهو وسيلة من الوسائل التي يلجأ إليها بعد نفاذ كل الوسائل.. انظر (الأساليب الشرعية في تربية الأولاد) من سلسلة (فقه الأسرة برؤية مقاصدية)

كذلك أثبتت الدراسات العلمية بما لا يقبل الجدل أن الدافع الجنسي يأتي في مرتبة أدنى من كثير من الدوافع الأخرى كالدافع إلى الهواء أو الشراب أو المال(1)، ثم إن هذا الدافع الجنسي يخضع للتربية والتوجيه، بمعنى أننا نستطيع تربية الإنسان على العفة بحيث يضبط دافعه الجنسي، ويتحكم فيه.

وبذلك تكون العفة أمرًا ليس ممكنًا فحسب، بل ضروريًا، كذلك أثبتت الأبحاث أن هناك تنظيمًا طبيعيًا للشهوة في الإنسان بحيث يستطيع كثير من الوسائل كالرياضة الجسدية أو الروحية أو الشعر أو الموسيقى أن تستوعبه.

كذلك قال الباحثون: إن دعوى فرويد الأساسية هي أن المرض العصبي (العصاب) ينشأ عن أمور جنسية طفولية مكبوتة، ولكن البحث أثبت أن الأمور الجنسية الطفولية المكبوتة ليست وقفًا على الذين أصيبوا بعصاب في وقت ما في حياتهم، ولكنها موجودة عند كل إنسان، وتشكل عاملا هامًا في حياته.

وهكذا وجدت أن ما دعا إليه فرويد من أن الطفل يعاني مما أسماه كبت الميول الجنسية، ليس إلا أكذوبة، أراد بها تبرير الإباحة، وأثار بها الخوف في النفوس حتى يحول بين إعداد الشباب وتربيتهم وإعدادهم إعدادًا خلقيًا، وأن ما يرمي إليه من ترك الميول حرة تسلك سبيلها إلى ما تشاء، وأن ييسر لها هذا السبيل ليس إلا دعوة صريحة إلى الإباحية(2).

الشيطانية:

قلنا: فعلى من تتملذت بعد فرويد؟

قال: على تلميذ من تلاميذ فرويد..

1() أثبتت التجارب أن الدافع الجنسي يأتي في المرتبة الرابعة بالنسبة للحيوان، يتقدمها دافع الأمومة بنسبة 22.8%، ثم العطش بنسبة 20.4، ثم الجوع بنسبة 18.2%، وأخيراً الدافع الجنسي بنسبة 13.8% !.

2() انظر: سلسلة دراسات إسلامية معاصرة، الفرويدّية، أنور الجندي، منشورات المكتبة العصرية.

قلنا: عجبا.. أتترك الإسناد العالي وتنزل للنازل(3)؟

قال: لقد كنت مقتنعا ذلك الحين اقتناعا تاما بتأثير اللاشعور في حياة الإنسان.. ولكني لم أقتنع بما طرحه فرويد من طروحات حول نوع اللاشعور المسيطر على الإنسان..

قلنا: فهل وجدت في هذا التلميذ ما دلك عليه؟

قال: أجل..

قلنا: من هو؟

قال: هم كثيرون.. كان أولهم رجل يقال له (**إدلر**)(2).. لقد جاءني في اللحظات التي بدأ الشك فيها يتسرب إلي من رؤى فرويد، وقال لي، وهو يهمس في أذني: أتدري.. لقد كان سيدنا فرويد مخطئا خطأ شديدا في إرجاعه السلوك الإنساني إلى الجنس(3).. لا.. ليس الأمر كما يقول.. لقد بحثت وحللت.. فوجدت أن الموجه للسلوك الإنساني أمر أخطر بكثير من تلك

3() يراد بالإسناد العالي ـ عند المحدثين ـ ما قَلَّ عدد رجاله بالنسبة إلى سند آخر يَردُ به ذلك الحديث بعدد أكثر.. وعكسه (الإسناد النازل)ـ هو الذي كثر عدد رجاله بالنسبة إلى سند آخر يَرِدُ به ذلك الحديث بعدد أقل.

2() هو ألفرد أَدلَر (1870 ـ 1937م)، وُلد أدلر في مدينة فيينا بالنمسا، وقد كان اختصاصيًا في العيون وطبيبًا للأعصاب قبل أن يُصبح طبيبًا نفسانيًّا.. عمل أدلر مع سيجموند فرويد في الفترة من عامي 1902 و1911م. وفي الفترة ما بين عامي 1919 و1934م، ثم أسّس مستوصفات توجيه الطفولة في فييّنا كما قام بتدريب المعلّمين، وعمل مع الآباء وأشرف على نشاطات المعلّمين الخاصّة بتعلم كيفيّة تمريض الأطفال الّذين يعانون الاضطرابات، وفي عام 1934م انتقل أدلر إلى نيويورك.

وهو يرى أن القوة الرئيسية للنشاط البشري بوجه عام ما هي إلا نضال لتحقيق الرّفعة والكمال، وقد أشار أدلر في البداية إلى هذه القوة بوصفها دافعًا نحو الوصول إلى السلطة، ولكنه سمّاها مؤخرًا النّضال نحو الرفعة. وسمى مدرسته الفكريّة (علم النفس الفردي)، ويشار إلى هذه المدرسة في وقتنا الحاضر، أحيانًا، بـ (علم النفس الأدلري)

3() لقد قدر الله أن يرى فرويد في حياته بداية انهيار نظرياته.. والذي استمر إلى اليوم.. فمع الجهود الكبيرة التي حاول بها أتباع فرويد السيطرة على مناهج التعليم والتربية والدوائر العلمية، غير أنها في سنوات تالية قليلة، انكشف عوارها، حتى إن الأطباء النفسانيين الذين اجتمعوا لإحياء ذكرى فرويد في مدينة شيكاغو عام 1956، وعدتهم نحو أربعة آلاف، فوجئوا بحملة عنيفة على فرويد ومذهبه، يتولاها رجل مسؤول عن مركزه العلمي هو الدكتور برسيفال بيلي مدير معهد النفسيات بولاية ألنيواز.

النزوات الحقيرة الموقوتة..

نظرت إليه، والفرحة تملأ أسارير وجهي، وقلت: فما الذي اكتشفت؟

قال: الشعور بالنقص..

قلت: الشعور بالنقص !؟.. ما تقصد؟

قال: لقد رأيت أن كل نشاط يمكن تفسيره بهذه القوة الدافعة.. قوة الشعور بالنقص.. لقد رأيت أنه قوة الدفع الأولى للسلوك.. لقد كتبت في ذلك كتابا أثبت فيه هذا.

ناولني كتابا كان بيده، وقال: هذا هو الكتاب.. لقد سميته..

وخلاصة حملته: أن البقية الباقية من طب فرويد قليلة لا يؤبه بها، وأن آراءه لا تضيف شيئًا إلى القيم الإنسانية لأنه يرتد بالإنسان إلى أغوار الباطن، ويهمل جانبه المنطقي الشاعر، وأنه لم يكن يفهم المرأة، ولم يكن يتذوق الموسيقى، ولا يحس جلال العقيدة.

وقال باحث آخر: إن نظرية فرويد عن العقل الإنساني لا تقوم على أكثر من افتراضات خيالية، انتزعت مادتها من الأساطير والتخمينات التي سبق رفضها في مجال الدراسات المتعلقة بتاريخ الإنسان.

وقد كشفت الأبحاث التي نشرها الكتاب اليهود في السنوات الأخيرة عن علاقة جذرية وعميقة بين نظريات فرويد وبين نصوص التلمود، وقد ظلت هذه النظرية تخدع مئات العلماء ببريقها الزائف سنوات طويلة حتى أعلنت هذه الحقائق، ومن بين الذين كشفوا هذا السر الدكتور صبري جرجس في كتابه (التراث اليهودي الصهيوني في علم النفس ونظرية فرويد) حيث أشار إلى التركيز الخطير الذي قامت به القوى المسيطرة على الإعلام والآداب والفنون والجامعات في الغرب على نظرية فرويد واحتضانها على هذا النحو المريب، بالرغم من أنها لم تكن صحيحة علميًا، بينما أخفتت أصوات النظريات الأخرى الأكثر قربًا من الحقائق العلمية.

يقول الدكتور صبري جرجس: (لفت انتباهي حقيقة كبرى، تلك العلاقة الوثيقة بين فرويد رجل العلم والتحليل النفسي والفكر العالمي من ناحية، وبين التراث اليهودي الصهيوني والصهيونية، والعمل السياسي الديني العنصري من ناحية أخرى، وكما تبدي لي ليست علاقة مصادفة، ولكنها علاقة أصل ومسار وهدف، وأشار إلى أن فرويد وأصحابه الذين حملوا لواء فكرته من بعده كانوا جميعًا من الصهيونية (ساخس، رايك، سالزمان، زيلبورج، شويزي، وتيلز، فرانكل، كاتز، فينكل)

وأشار إلى عدة عبارات وردت في كتابات يهودية لفتت نظره إلى ما يراه الآن من علاقة بين الصهيونية وبين نظرية فرويد، وليس ذلك إلى ما أشار إليه باكان في بعض خفايا التراث اليهودي الصهيوني التي لها علاقة بالتحليل النفسي، بل إلى ما ذكرته صراحة الكتابة (ترود، وايز، مارين) عن: كيف تحتقر اليهودية العقل الغربي مزيفة في سبيل ذلك وقائع الماضي وأحداث الحاضر، آمنة بعد ذلك من الافتضاح، ومطمئنة آخر الأمر إلى التصديق. (انظر: سلسلة دراسات إسلامية معاصرة، الفرويدّية، أنور الجندي)

(فهم الطبيعة البشرية).. اسمع ما أقول فيـه:(إن كـل طفـل وهـو يقف بمفرده أعزل عن معونة الآخرين لا يلبث أن يشعر إن عـاجلاً، أو آجلاً بعجزه عن معالجة شـؤون العـالم الـواقعي، وهـذا الشـعور بالعجز هو القوة الدافعة ونقطة الارتكاز الأولى التي يبدأ منها جهـاد الإنسان، وهو يقرر الهدف الأقصى لوجوده)

أغلـق الكتـاب، ثم نظـر إلي، وقـال: الطفـل حين يولـد، يكـون بحاجـة إلى نـوع من الرعايـة والاهتمـام، وهي رعايـة سـرعان مـا تستحيل في نظر الطفل إلى نوع من التسلط على نفسيته ؛ لأنهـا تشعره بعجزه، الأمر الذي يولّد لديه شعوراً بالنقص، مما يفضي به إلى أن يبـني لنفسـه عالمـاً من الخيـال يكـون فيـه سـيداً مطاعـاً، ويسعى إلى تقديم نفسـه للآخـرين على أنـه مركـز القـوة، وسـيد القرار.

قلت: أنت تقلد سيدنا فرويـد في تركـيزه في تحليلـه للسـلوك الإنساني على سنوات الطفولة الأولى؟

قال: نعم.. لقد اكتشفت أنها الموجّه للسـلوك في المسـتقبل، لأن الأساليب التي يتخـذها الطفـل للتعـويض عن شـعوره بـالنقص تقرر طبيعة الهدف الذي يوجه نشاطه خلال حياته كلها.

قلت: ولكن.. هل أمكنـك تفسـير كـل النشـاط الإنسـاني بهـذا الدافع؟

قال: أجل.. لقد وجدت أن كل النشاط الإنساني تعبير عن هذا الشعور.. فقط الناس يختلفون في طبيعة النقص، وطريقة التعبـير عنه وتعويضه..

وقد وجدت أن هذا التعويض لا يتم إلا على أنقاض الآخـرين من خلال قوة الإرادة، وفرضها على الجماعة، والتسلط على المجتمـع، فلا يمكن أن تتحقق الأهداف من دون الكفاح، والاقتحام..

قلت: ألا يمكن تحقيق الأهداف عن طريق الألفة والتعـاون مـع المجتمع..

ضـحك ضـحكة عاليـة، وقـال: لا.. لا يمكن للفـرد النجـاح في

مساعيه، وهو يحمل هذه القيم.. إن النجاح لا يعني عنـدي إلا شـيئا واحدا.. هو الحيلولة بين الآخرين وبين تحقيق أهدافهم.

قلت: إن هذا يجر إلى الصراع؟

قال: لا يمكن للحيـاة أن تسـتقيم بلا صـراع.. أليسـت الماديـة الجدلية عنـد ليـنين، والماديـة التاريخيـة عنـد مـاركس صـراع على مطالب الإنسان في هذه الحياة؟

قلت: بلى..

قـال: لا يمكن لنظريـة من النظريـات أن تنجح، وهي تسـتظل بظل السلام.

قلنا: فهل صحبت هذا المصارع؟

قال: أجل.. وتعلمت على يديه.. ولا أنكر أني اسـتفدت الكثـير من أفكاره.. لكني في الأخير تركته.

قلنا: لم؟

قال: لقـد علمت بصـحبتي لـه علم اليقين صـدق مـا قالـه لي صديقي الفيلسوف الإنجليزي جـود.. لقـد قـال لي:(بينمـا يـذهب فرويـد إلى الكشـف عن جـانب الـوحش في الإنسـان، فـإن إدلـر يذهب إلى الكشف عن جانب الشيطان المتمرد فيه)

الأسطورية:

قلنا: فمن صحبت بعده؟

قال: لقد جاءني رجل يسمى (**يونج**)(1) بعـد أن علم عـزمي

1() هو كارل جوستاف يونج (1875-1961م)، وهو عالم سويسـري مختص في علم النفس والطبّ النفسي، قـام بتطـوير مجـال علم النفس التحليلي، ولـد في مدينـة بـازل لأب كـان يعمـل قسيسًـا، ومنـذ صـغره كـان لديـه اهتمـام دائم بالخرافـات والأسـاطير والسحر.. استخدم يونج في وقت مبكر من حياته العملية نظريات التحليل النفسـي الـتي استحدثها فرويد. وتقابـل الاثنـان في عـام 1907م، وتـوثقت صـلتهما، وشـارك يـونج في حركة التحليل النفسي. وفي وقت لاحق بـدأ يـونج يعتقـد أن فرويـد اهتم أكـثر من اللازم بالغرائز الجنسية في سلوك الإنسان. وقد أدى عدم تركـيز يـونج على الجنس إلى تخليـه عن فرويد وانتهاء صداقتهما في عام 1913م. وأصبح أستاذًا في علم النفس الطـبي في

على ترك صداقة (إدلر)، وقال لي: هلم إلي؟

قلت: من أنت؟

قال: أنا الذي تجد عنده الحقيقة التي تهت في البحث عنها.

قلت: ما اسمك؟

قال: لا يهمك اسمي.. فاسمي هو اسم الجماعة.. فليس هناك اسم خاص لي.. كما أنه ليس هناك اسم خاص لكل من تراهم من الناس.

قلت: فما ترى في الإنسان.. أو ما ترى في الأعماق التي ينبني عليها سطح الإنسان؟

قال: أنا بسيط جدا.. وواقعي جدا.. فلذلك لن أسلك بك تلك المتاهات التي سلكها بك صديقي فرويد..

قلت: فأنت تنكر اللاشعور إذن؟

قال: لا.. أنا لا أنكره.. ولكني اكتشفت بديلا للاشعور الذي وضعه فرويد.. فإن كان اللاشعور الشخصي هو محور نظرية فرويد في بناء الشخصية ونموها، فإن **اللاشعور الجمعي** هو جوهرها عندي.. أنا يونج.. وهو عندي صور ابتدائية لا شعورية، أو رواسب نفسية لتجارب ابتدائية لا شعورية، لا تحصى، شارك فيها الأسلاف في عصور بدائية، وقد ورثت في أنسجة الدماغ، بطريقة ما، فهي - إذن - نماذج أساسية قديمة لتجربة إنسانية مركزية.

قلت: الوعي الإنساني عندك إذن ليس مقصوراً على علاقة الطفل بوالديه كما ذكر فرويد؟

قال: أجل.. الوعي الإنساني عندي.. أنا يونج.. إنما يتشكل في ظلال مخزون ثقافي موروث يمتد حتى تجربة الإنسان البدائي مع الكائنات والأشياء، وقوام هذا المخزون هو ما أسميه بـ (اللاشعور الجمعي) أو (الأنماط العُليا)

جامعة بازل عام 1943م.

قلت: الأنماط العليا!؟

قال: أجل.. وهي تتشكل من تلك الأساطير التي يحركها نـداء اللاوعي، فتبدو في أحلام الأفراد ورؤى الفنانين العرافين، كي تعيـد التوازن النفسي للعصر.

قلت: فمحور نظريتك ينطلق من الأنماط العليا إذن؟

قال: أجل.. ولها عندي.. أنا يونج.. مرتبتان:

أما المرتبـة الأولى، فقـد أسـميتها (الأنمـاط العليـا الشخصـية) كنمط الظـل، والقِـران المقـدس والأنيمـا، وهـذه تـبرز في شـكل شخصي فترى مباشرة.. فالإنسان يلتقي أولاً مع ظله أو مع وجهــه الذي يخفيه بواسطة الشخصية، ويلتقي بوالديه اللذين يشـكلان لـه نمط القِـران المقـدس، ويواجـه أحـوال اللاشـعور، وهي الأنيمـا أو النفس.

أما المرتبة الثانية، فقد أسميتها (أنمـاط التحـول)، كنمـط الأم، ونمــط الطفــل، ونمــط البنت.. فنمــط الأم يحمــل صــورة الأم الطبيعية، والأم الأرض، والأم الروح، ونمـط الطفـل يحمـل صـورة الطفل الإله أو الطفل البطل، ونمط البنت يحمل صـورة العـذراء، والأنثى المجهولة، والأنثى الخرافية، والأنثى الأضحية.

وعلى هذا تكون هذه الأنماط الشخصية، وأنماط التحول ميراثاً إنسانياً انبثق من تصور الإنسـان البـدائي للكـون، وهـو مـا يسـمى بالأساطير.

قلت: أراك تعطي مصـداقية كـبرى للأسـاطير مـع أنـه لا دليـل عليها.

لســت أدري كيـف غضــب غضـبا شـديدا، وقــال: لا.. ليســت الأساطير كما تزعم.. إن الأساطير هي تاريخ البشـرية الأولى.. نعم تنوسـيت ملامحـه الدقيقـة، وأضـفى الخيـال الإنسـاني عليـه جـواً فضفاضاً.. لكنه يظل مع ذلك هو تاريخ الإنسانية الأول.

قلت: وما تقول في الأساطير التي تؤرخ للآلهة؟

قال: لقـد ذكـرت لـك أن العقـل الإنسـاني أضـفى خيـالا على الحقائق التاريخية التي تحملهـا الأسـاطير، فلـذلك، فـإن الأسـاطير المرتبطة بالآلهة ليست في الحقيقة إلا تأريخا لعصر الأبطـال، حين كان الإنسان يعجب بالقوة والجبروت، والبطولـة في شـتى ألوانهـا المادية والمعنوية، ويتطور هذا الإعجاب عند الأجيال إلى نزعــة من التقديس تتلاشى معها حيناً بعد حين الحدود الفاصـلة بين المحـدود المطلـق، وبين حقـائق الواقـع الإنسـاني، وخفايـا الوجـود الغيـبي، فتصـل إلى حـد عبـادة الآبـاء، ثم تصـل إلى تناسـي هـذه الأبـوة، ودخولها في مرحلة تالية.

قلت: سلمت لك بهذا.. فما تقول في عبقريـة الإبـداع الفـني.. هل تراها كامنة في هذه الصور الأسطورية؟

قـال: أجـل.. فالصـور الأسـطورية هي الـتي تشـكل قاسـماً مشتركاً بين الناس.. إنها هي الـتي تطلـق قـوى المخيلـة للمبـدع.. ومن هنا كانت الروائع في الأعمال الفنية خالدة ولا وطن لها.. ذلك لأنها إنما تنبع من اللاشـعور الجمعي، حيث ينبسـط التـاريخ وتلتقي الأجيال، فإذا غاص الفنان إلى هذه الأعماق فقد بلغ قلب الإنسانية، وإذا عرض على النـاس قبسـاً من هـذا المنبـع العظيم عرفـوا أنـه منهم ولهم.

قلت: لقد ذكر لي فرويد أن الإبداع يعتمد على التسامي..

قاطعني، وقال: أخطأ فرويد.. الإبداع لا يعتمـد على التسـامي.. بل يعتمد على الإسقاط.

قلت: ما الإسقاط؟

قال: هو العملية النفسية التي يحول بها الفنان تلـك المشـاهد الغريبة التي تطلـع عليـه من أعماقـه اللاشـعورية إلى موضـوعات خارجية يمكن أن يتأملها الأغيار.

قلت: كيف يتم هذا الإسقاط؟

قال: هذا الإسقاط لا يتم إلا من خلال الرمـز النـاتج عن إطلاع المبـدع حدسـياً على اللاشـعور الجمعي، ولهـذا كـان إبـداع الرمـز

أعظم وظـائف اللاشـعور؛ لأنــه أفضـل صـيغة ممكنـة للتعبـير عن حقيقة مجهولة نسبياً.

السلوكية:

بعد أن حدثني أستاذي (يونج) بتلك الأحاديث، بل أقنعني بها، لم يعــد لي من هم في حيــاتي إلا البحث في الأســاطير والخرافــات القديمة لأحاول أن أجد من خلالها حقيقتي..

كان البحث مضنيا.. وكان فك الرموز أكثر صعوبة.. وفوق ذلــك لم يكن لي من الدلائل ما يقنعني بصـحة أي من التحليلات الكثـيرة المتناقضة.

في غمــرة تلــك الجهــود الشــاقة جــاءني أســتاذي الســادس، ليخرجني من تلك المتاهة، ويدخلني متاهة أخرى.

قلنا: من أستاذك السادس؟

قـال: رجـل يقـال لـه (**واطسـون**)(1).. شـيخ (**المدرسـة السلوكية**)(2).. كان يحمل بعض الآلات التي تعود علماء الطبيعة أن يحملوها.. وقد بدأني بقوله: دع عنـك أحـاديث العجـائز، وتعـال إلي، فلن تعرف (أنا) من دوني.

قلت: ولكني أرى عليك ملامح نيوتن(3) لا ملامح فرويد.

1() هو جون برودس واطسون، (1878 ـ 1958م). عالم نفسي أمـريكي هـو زعيم المدرسة السلوكية في علم النفس، وكان عمله الأول في مجال بيولوجيا وطب وسـلوك الكائنات الحية الدنيا، قد دفعه هـذا إلى الشـك في وجـود العمليـات العقليـة الـتي يـدعي علماء النفس دراسـتها، وأخـذ على عاتقـه مهمـة تقـديم تفسـير لسـلوك كـل من البشـر والحيوانات في إطار بدني وفسـيولوجي خـالص وذلـك في كتابـه (علم النفس من وجهـة نظر عالم سلوكيات)

2() المدرسة السلوكية عبارة عن مجموعة من النظريات الفرعيـة الـتي ترتكـز على أساس مسلمات و مبـادئ واحـدة ومن النظريـات السـلوكية الرئيسـية نظريـة الاشـراط الكلاسـيكي بريـادة بـافلوف ونظريـة الاشـراط الإجـرائي بزعامـة سـكنر ونظريـة التعلم الاجتماعي بريادة باندورا ونظرية العلاج العقلاني الانفعـالي لاليس ونظريـة العلاج متعـدد الوسائل لازورس.

3()النظرية السلوكية متأثرة أساسا بنظرية نيوتن، مما أدى الى تسميتها بــ (النظريـة الذريـة) وهي قريبـة، في تحليلهـا السـلوك بالفعـل ورد الفعـل، من الشـكل الميكـانيكي،

ضحك، وقال: ومتى استطاع ذلك الأبله المتعلق بأحاديث العجائز أن يفهم الإنسان؟

قلت: وهل استطاع نيوتن أن يفهم الإنسان؟

قال: أجل.. نيوتن الذي استطاع أن يفسر الكون هو الوحيد المخول بأن يفسر الإنسان، لأنه الوحيد الذي يمكن أن يفهم الإنسان.

قلت: نيوتن يفهم الآلة.. لا الإنسان؟

قال: ليس الإنسان سوى آلة.. لا تختلف عن أي آلة..

قلت: والعقل!؟

ضحك ضحكة هستيرية، وقال: العقل.. ما العقل!؟.. هل رأيته؟

قلت: الكل يذكر العقل.. ويذكر الشعور.. بل ويذكر اللاشعور..

قال: ما الإنسان إلا ما تراه من جسمه.. أما ما تسميه الشعور فلا يعدو أن يكون حصيلة ثانوية لعمليات جسمية، يصاحبها أحياناً، وإن كان ذلك يحدث بصورة عرضية.

سكت قليلا، ثم استأنف يقول: لست وحدي الذي يقول هذا.. حتى ماركس.. ذلك الأحمق الشيوعي كان يقول:(في الإنتاج الاجتماعي الذي يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محددة لا غنى عنها، وهي مستقلة عن إرادتهم، وعلاقات الإنتاج تطابق مرحلة محدودة من تطور قواهم المادية في الإنتاج، والمجموع الكلي لهذه العلاقات يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع، وهو الأساس الحقيقي الذي تقوم عليه النظم القانونية والسياسية والتي تطابقها أشكال محدودة من الوعي الاجتماعي. فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو الذي يعين الصفة العامة للعمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية في الحياة. ليس شعور الناس هو الذي يعين

فلكل فعل رد فعل مساو له في المقدار، ومختلف عنه في الاتجاه.

ولهذا انتقدت النظرية السلوكية من منطلق المقارنة بالنظرية الميكانيكية نفسه (نيوتن)، فهي تنطلق، في تحليل السلوك، من المثيرات والاستجابات من دون الاهتمام بجانب الادراك في تفسير السلوك.

وجودهم، بل إن وجودهم هو الذي يعين مشاعرهم)

قلت: ولكنك بنزع العقل من الإنسان لن تبقي له أي شيء؟

قال: بل أعيده إلى ذاته.. فمن الخطر ومن الخطأ أن يظل الإنسان يبحث في الأساطير عن ذاته.. بينما ذاته أمامه يستطيع أن يشرحها كما يشاء.

قال ذلك، ثم نظر إلي ليتأمل تأثير كلامه علي، ثم قال: لقد ظلت المادية تعاني ضعفاً منذ أن كانت تفتقد هذه الحلقة أي منذ كان الميكانزم العصبي مجهولاً، واستغل المثاليون هذا الضعف، واستفاد منه الرجعيون لنشر الجهل وتشويش الفكر وخلق أساطير عن الطبيعة البشرية..

قال ذلك، ثم نظر إلي، فوجدني لا أزال لا أنبس ببنت شفة، فقال: تعال معي.. لا يمكن أن تقتنع قبل أن ترى بعينك.. فليس الخبر كالعيان.

قلت: إلى أين تريد أن تأخذني؟

قال: ألست تبحث عن الإنسان؟.. تعال أريك الإنسان.

سرت معه في كثير من المتاهات إلى أن وصلنا حجرة سمعنا فيها صياح كلب.. فالتصقت به، وقلت: أنا أخاف من الكلاب.. هيا بنا نبتعد عنها.

قال: لن تفهم الإنسان حتى تفهم الكلاب.. تعال معي.

دخلنا حجرة استقبلنا فيها رجل اسمه (**بافلوف**)(1).. لم

1() هو بافلوف، إيفان بتروفيتش (1849-ـ 1936م) عالم روسي من علماء علم وظائف الأعضاء، نال جائزة نوبل في علم وظائف الأعضاء عام 1904م، عن بحثه في الهضم. فقد أوضح كيف أن العصب المعدي يتحكم في انسياب العصارات الهضمية للبطن وللبنكرياس.

ظل بافلوف ـ خلال الثلاثين سنة التي تلت تلك الفترة ــ يدرس عمل الدماغ، وقد اكتشف أنه يمكن لتكرار ترابط مثير صناعي، مثل الجرس، أن يقوم مقام المثير الطبيعي مثل الطعام في إحداث رد فعل فسيولوجي متمثل في سيلان اللّعاب. وأطلق على هذا اسم المنعكس الشرطي. وكان بافلوف يؤمن بأن كل العادات المكتسبة، بل حتى الأنشطة العقلية العليا للإنسان تعتمد على سلسلة من الانعكاسات المشروطة.

يطل به ترحيبه لنا.. بل قادنا إلى حيث يوجد الكلب الـذي أفزعـني نباحه.. ثم قرع جرسا، فـإذا بـالكلب يسـيل لعابـه بقـوة.. قـال لنـا بـافلوف: انظـروا.. لقـد عـودت هـذا الكلب على أن لا أقـدم لـه الطعام إلا بعد أن أقرع الجـرس.. انظـروا تـأثير ذلـك عليـه.. صـار الجرس عنـده مثـيرا.. لقـد اسـتطعت أن أسـتبدل رائحـة الطعـام بصوت الجرس.

التفت إلى صـاحبي، وقلت: لقـد أخبرتـني أنـك سـتدلني على الإنسان.. فأين هو الإنسان؟

أشار إلى الكلب، وقال: هذا هو الإنسان.

قلت: هذا كلب.. وليس إنسانا.

ضحك مع صاحبه بافلوف ضـحكة عاليـة، ثم قـال: نعم.. هنـاك فروق بينهما.. لكن مع ذلك نسـتطيع أن نـدرس الإنسـان من خلال دراستنا للكلب.. بل للحشرات..

قلت: ما الجامع بينهما؟

قال: ألم يفسر نيوتن جميع حركات الكون من خلال تفاحـة؟.. فكذلك نحن يمكننا أن نفسر كل الظـواهر السـلوكية للإنسـان من خلال الظواهر السلوكية للكلاب.

قالا لي هذا.. ثم سارا بي في متاهات كثيرة.. ومدة طويلـة من الزمان صرت أرى فيها نفسي كما أرى أي آلة.. وقد عـذبتني هـذه الرؤية كثيرا..

قلنا: فكيف استطعت أن تتخلص منهـا؟.. وكيـف اسـتطعت أن تتخلص من تأثير هذا الأستاذ، وهو يحمل معه ذلك السلاح الخطير.. سلاح العلم؟

قال: بالعلم استطعت أن أتخلص من ذلك الهـذيان الـذي كـان يملأ رأسي به.

قلنا: العلم!؟

قال: أجل.. وقد بدأت بالفيزياء، ذلـك العلم الـذي اسـتند إليـه

أستاذي في اختصار الإنسان في آلات الإنسان..

لقــد وجــدت أن التطــور العلمي في الفيزيــاء أطــاح بتلــك النظريات الآلية التي كانت تفسر الكـون، فلم تعـد المـادة واضـحة متماسكة تشكّل حيّزاً من الفـراغ، كمـا كـان يُعتقـد، لقـد أصـبحت عالمــاً من الطلاســم والألغــاز، وصــارت شــبكة من الشــحنات الكهربائية، وسلسلة من الأحـداث المحتملـة ترتفـع وتنخفض حـتى تتلاشى في العدم.. بل إنه لا يمكن مشاهدتها.

لقد أصبحت تلك الـذرة الصـغيرة في فيزيـاء القـرن العشـرين كأنهـا نمـوذج مصـغر لمنظومـة شمسـية.. في مركزهـا عـدد من الشـحنات الكهربائيـة الموجبـة تعـرف بالبروتونـات، وهـذه تؤلـف النواة، ويدور حول النواة على مسافات مختلفة، وفي مدارات غير منتظمة عدد من الشحنات السالبة تسمى الالكترونـات. والشـحنة الموجبة في كل بروتـون تسـاوي تمامـاً الشـحنة السـالبة من كـل اليكترون غير أن عدد البروتونات التي تتألف منها النواة أكبر كثـيراً في العــادة من عــدد الالكترونــات، وإنمــا تحصــل الموازنــة بين الشـحنات الموجبـة للبروتونـات، والشـحنات السـالبة للالكترونـات التي تدور حول النـواة، بوجـود شـحنات سـالبة، الكترونـات أخـرى موجودة في النواة.

والذرة التي كانت صلبة في وضع مـادي ثـابت أصـبحت بخلاف ذلـك، فقـد أخـذ الفيزيـائيون المحـدثون يطاردونهـا - كمـا يقـول أدنجتــون - من الســائل المتصــل إلى الــذرة، ومن الــذرة إلى الالكترون، حتى أضاعوها في النهاية.

والذرة التي كان يُظن أن معرفتها لا يمكن الشك فيها أصـبحت تلك المعرفة خادعة، لأنه ثبت حـديثاً أنـه إنمـا يسـتنتج وجودهـا من أحداث تقع خارجها، يظن أنها تُسببّها وتأتي عنها.

ونتيجة لهذا، فإن الإدراك الحسي في الفيزياء الحديثـة، لم يعـد في الوجود العيـني للمـادة، وإنمـا في الحـادث النفسـي الـداخلي، فحقيقة الأشياء عقلية وليسـت ماديـة، فالظـاهرة الماديـة ليس إلاّ أثراً للكيفية التي تتجلى فيها الحقيقة الروحية.

وهكذا.. لقد كانت الفيزياء القديمة تقـول بالتمّـاس بين مـاديين

عنـدما أضـغط بأصـبعي على طـرف المنضـدة مثلاً، أمـا الفيزيـاء الحديثـة فتقـول : إن الـدفع ناشـيء عن ذرات الأصـبع وذرات المنضدة، وذلك الدفع يولد تياراً عصبياً يصـل إلى الـدماغ ينتج عنـه شعور باللمس، فليس هناك علم بشيء يقع خارج الجسم، لأنه قـد يحصل تنبيه للجهاز العصبي دون وجود منضدة.

فيزياء القرن العشرين بكشوفاتها الجديدة لم تكمل ما قام بـه (نيوتن) بل حطمت بنيانـه، حيث هـدم إنشـتاين بنظريـة النسـبية فكـرتي الزمـان والمكـان المطلقين، وأثبت أن علاقـات المكـان والزمان وقوانين الحركة لا يمكن تعريفهـا إلا بـالمواقف الشخصـية للمراقب، وليس بالحياد كما ذهب إلى ذلك (نيوتن)

وجاءت ثورة فيزيـاء الجسـيمات على يـد (إيرنسـت رذرفـورد) حيث أثبت أن الذرة عبارة عن نواة متناهيـة الصـغر يحيـط بهـا كم هائـل من الإلكترونـات أصـبحت تفسـيرات نيـوتن لهـا تبعث على الإحباط، فانهارت إمبراطورية نيوتن وتطـورت ميكانيكـا الكم على يدي (نيلزبور) و(فيرنرها يزنبي)

وقد أدت كل هذه التطورات في الفيزياء إلى تطـورات مماثلـة في تصور علم الأحياء للحيـاة، فقـد كـانت النظريـة الآليـة تـرى أن الحياة نتيجة عرضية لعمليات مادية، وأن العقـل نشـاط متولـد من الدماغ.. لكن العلم الحديث أثبت ــ بمـا لا يـدع مجـالا للشـك ــ أن أسـلوب الكـائن الحي ليس آليـاً ولا يمكن تفسـيره آليـاً، فالحيـاة ظاهرة من صفتها التجـدد والإبـداع، واسـتحداث صـور جديـدة في الكائنات، ومنها ظهرت نظريات التطور المبدع، والتطور الناشيء، ونظرية الكائن الحي، والنظرية العضوية.

فالماء يتكون من الأوكسجين والهيدروجين بنسـبة معينـة، لكن في المـاء خصـائص ليسـت هي خصـائص كـل من الأوكسـجين والهيـدروجين.. وكـذلك جسـم الإنسـان فهـو دمـاغ ولحم وعظـام وأعصاب، ولكل منها خاصية معينة، لكن له من اجتماع هذه الأجزاء خصائص ليست موجودة في تلك الأجزاء.

وبنـاءً على هـذا فلم يعـد كـل مـادي حقيقيـاً، وأصـبح المعنـوي كالدين، وقيم الحق والخير والجمال مما صـح ثبوتـه، وعـدّ بابـاً من

أبـواب الحقيقـة، وبهـذا تقـوّض الأسـاس العلمي لهـذه المدرسـة، فالإنسان لم يعد شـبيهاً بالآلـة لا دخـل للعقـل في سـلوكياته، فلـه عقل، وله غاية يسعى إلى تحقيقها، ومطالب يهدف إلى بلوغها هي أسمى من مطالب الجنس والغذاء والكساء.

فلم يعد التفسـير الآلي أو الحيـواني للسـلوك الإنسـاني واعيـاً بأبعاد الإنسان، إن الإنسان يسـتجيب للمنبـه، كمـا تسـتجيب الآلـة، لكنه لا يعمل كما تعمل، فاستجابتها آلية أما استجابته فهي استجابة فعالة ونشيطة، فهو يدرك الموقف الخارجي، ولـذلك فاسـتجابته لا تعتمد على قوة ذلك المنبه بقـدر مـا تعتمـد على الـدافع الـنزوعي الذي لديه، وهو مؤثر بالغ في الاستجابة، وهـذه الاسـتجابة موجهـة إلى غاية يمكن استمرارها بعد زوال المثير بخلاف الآلة(1).

الربوبية:

قلنا: إلى من لجأت بعد أن يئست من هذا الأستاذ؟

قـال: أنـا لم ألجـأ.. لكن في ذلـك اليـوم هبت عاصـفة هوجـاء كـادت تقتلعـني من الأرض.. فلم أجـد إلا أن ألجـأ إلى بيت من البيوت أفر إليه من العاصـفة.. فلقيت رجلا صـلبا شـديدا، قـال لي بكل قوة: أنت الذي تبحث عن الإنسان؟

قلت: أجل..

قال: فادخل.. أنا (فريدرك نيتشة)(2)

قلت: ومن فريدرك نيتشة؟

1() انظر التفاصيل العلمية الكثيرة المرتبطة بهـذا في (البـاحثون عن اللـه) من هـذه السلسلة.

2() هو فريدريك نيتشه (1844 ـ 1900م)، وهو فيلسوف ألماني، عالم نفس، وعـالم لغويات، تميز بشخصـية عدوانيـة جـداً، و كونـه ناقـدا حـادّا للمبـادئ الأخلاقيـة،و النفعيـة، والفلسفة المعاصرة، المادية، المثالية الألمانية، الرومانسية الألمانية، والحداثة عُموماً..

وفي مجال الفلسفة والأدب، يعتبر نيتشه في أغلب الأحيان إلهام للمـدارس الوجوديـة وما بعد الحداثة. روج لأفكار اللاعقلانية والعدمية، واسـتخدمت بعض آرائـه فيمـا بعـد من قبل إيديولوجيي الفاشية.

قال: أنا العاصفة الهوجاء التي أطاحت بكل ما قيل حول الإنسان.. أنا الذي أحدث أكبر قطيعة مع كل الاتجاهات الفكرية والفلسفية سواء في الشكل أو المضمون أو اللغة.. أنا الذي اتهمت سقراط بأنه وراء الكارثة التي حلّت بالحضارة الإنسانية، لاحتكامه إلى العقل وحده.. وأنا الذي اعتبرت التراجيديا الموسيقية وراء فقدان الإنسان سيادته على ذاته برضوخه واستسلامه لقيم وأخلاق وعقائد كبلته وأفقدته حريته.. وأنا العدو اللدود للمسيحية على الرغم من أنني ابن قس بروتستانتي.. أنا الذي قلت بأن المسيحية عبارة عن مجموعة أساطير الشعب اليهودي.. بل قلت بأن المسيحية أذلت الإنسان بعد ما أقامت عقائدها على بقايا تصورات بالية ومتناقضة حول العالم.. وأنا الذي قلت في (هكذا تكلم زرادشت) :(لقد مات الإله و نحن الذين قتلناه).. وأنا الذي قلت :(كل الأشياء خاضعة للتأويل، وأيا كان التأويل فهو عمل القوة لا الحقيقة).. وأنا الذي قلت :(كل المصداقية وكل الضمير وكل أدلة الحقيقة تأتي من الحواس فقط).. وأنا الذي قلت مخاطبا أختي: (إذا ما مت يا أختاه لا تجعلي أحد القساوسة يتلو علي بعض الترهات في لحظة لا أستطيع في الدفاع عن نفسي) (3).. وأنا الذي قلت :(أشعر أن علي أن أغسل يدي كلما سلمت على إنسان متدين)..

قلت له، وقد ملأني بالرعب: إلى أي عقل تحتكم في كل هذه الدعاوى.

ضحك ضحكة مدوية، ثم قال:عن أي عقل تتحدث.. العقل أعجز من أن يدرك حقيقة الوجود.

قلت: لا أقصد ما فهمت.. بل أقصد المنطق العقلي.. ومبادئ الفكر التي تتيح لنا أن نرسل بأحكامنا.

قال: لا وجود لشيء اسمه (مبادئ الفكر).. إنها ليست سوى سراب من الأوهام.. نعم هي قد تكون ضرورية لحياة الناس، ولكنّها لا تستطيع بحال من الأحوال أن تعبّر عن الحقيقة، ولا أن تعبر إليها.

---

(3) لكن أمنيته لم تتحقق، اذ تلى عليه القساوسة في ساعة دفنه.

قلت: إذا لم نسلم لمبادئ الفكر.. فهذا يغني إلغاء العقل.

قال: العقل في حياة الإنسان لا حاجة إليه.. بل هو خطر.. والذي يمكن تصوّره عقلياً لا بد أن يكون وهماً لا حقيقة له.

قلت: هل ترى أن الحياة تسير من دون عقل؟

قال: لاشك في ذلك..

قلت: فلا وجود لعالم الحقائق إذن في هذا الوجود؟

قال: كما لا وجود لعالم الظواهر.. كلاهما عوالم وهمية.

قلت: فما هو الوجود إذن؟

قال: الوجود الحقيقي كلّه ينحصر في (الصيرورة).. كله بتفاصيله ينحصر في (التغيّر الدائم).. التغير الدائم هو الحياة.. وهو الطبيعة.. الثلاثة واحد.. والواحد ثلاثة.

قلت: فما هذا التغير الدائم.. وما هذه الصيرورة؟

قال: (الصيرورة) هي الوجود.. وهي الواقع الآني الراهن.. وليس لها غاية تنتهي إليها.. بل هي في نفسها غاية.. وهي كلّ شيء..ولا شيء وراءها.

قلت: فالمعرفة والوجود الحقيقي إذن يتنافيان ويتناقضان.

قال: لقد بدأت تفهمني.. فلا يمكن أن تكون المعرفة الإنسانية مطابقة للحقيقة بحال من الأحوال، إذ هما دائماً متنافيان متناقضان.

قلت: فما الفضيلة العظمى التي تحكم الوجود إذن؟

قال: هي القوة.. القوة هي الفضيلة العظمى التي تحكم الوجود.. بل هي الفضيلة الوحيدة.. ولذلك تراني لا أدعو إلا إلى القوة.. القوة وحدها دون الرحمة والشفقة هي محور الأخلاق.. ولذلك فأنا (فيلسوف القوة)

أقول دائما : (الخير هو كل ما يزيد الشعور بالقوة، هو إرادة

القوة، هو القوة نفسها.. والشر هو كل مـا ينشـأ عن الضـعف، هـو الضعف)

قلت: فأنت تنطلق من مذهب التطوّر إذن؟

قال: أجل.. ولكني لا أنظر إليـه كمـا ينظـر داروين المسـكين.. فإن كان مذهب النشوء والارتقاء يذكر أن كل صـنف يخلـق صـنفاً أرقى منه.. فأنا أدعو الإنسان لأن لا يتوقف عند الإنسان.. أنا أدعوه ليضحي بالإنسان..

قلت: ليصل إلى ماذا؟

قال: ليصل إلى (السوبرمان).. ذلك الإنسان الأعلى والأرقى.. والـذي يضـحي بالإنسـان البسـيط كمـا نضـحي بـالغنم والمـاعز والخنازير.

قال ذلك، ثم التفت إلى العاصفة وراح يصيح فيها بقـوة، وكأنـه يخاطب جمعا لا أراه: إنني أدعوكم ـ يامن تسميتم باسم الإنسـان ـ إلى أن تخلعوا الإنسان.. وتلبسـوا الإنسـان الأعلى.. فـإن الإنسـان شيء يجب أن يُعلى عليه.. فماذا عملتم من أجل العلاء عليه؟

إن كـل الكائنـات حـتى الآن قـد خلقت شـيئاً أعلى منهـا، فهـل تريدون أنتم أن تكونوا جزراً لهـذا المـد العظيم، وتفضـلوا الرجـوع إلى الحيوانية على العلاء على الإنسانية؟!

إن الغاية من الإنسانية عندي هي خلق هذا الإنسان الأعلى..

قلت: إن ما تدعو إليه ممتـاز ورائـع.. فمـا أجمـل القـوة.. فمـا الذي أعددته من نظم لتحصيلها؟

قال: ذلك لا يتم إلا بطرائق التربية التي ترفع الفرد وتسمو به.. وبتحسين النسل البشري.. وباختيار الممتازين من الرجال والنسـاء للـتزواج.. وأن يكـون الـزواج أساسـه اختيـار الأرقى من النسـاء بشرياً، للأرقى من الرجال بشرياً، حـتى يخلـق الزوجـان بإرادتيهمـا إنساناً أرقى منهما، وهكذا.

قلت: لكن الحب هو الذي يتصرف في الزواج؟

قال: فلنضح به.. فخير الرجال لخير النساء.. أما الحب فنتركه لحثالة البشر، إذ ليس الغرض من الزواج مجرّد النسل، بل يجب أن يكون وسيلة للتسامي والرقي.

إن غرض التزاوج هو إرادة اثنين ليخلقا إنساناً يسمو على خالقيه.

قلت: لقد ذكرت طرائق التربية التي ترفع الإنسان.. فما هي القيم التي تحكمها؟

قال: إنها تتلخص في أن يكون الإنسان حراً.. يحطم كل القيود.. ويبدد الأوهام الثقيلة الخطيرة التي أتت بها المذاهب الأخلاقية، والدينية، والفلسفية... فالإنسان الأعلى فوق الناس.. وفوق الأخلاق.. وفوق القوانين.. وفوق التقويم التقليدي للأشياء.

قلت: إن هذا يقطع الإنسان عن كل شيء؟

قال: ذلك صحيح.. فالسوبرمان لا علاقة له بأي شخص.. ولا بأي وطن.. ولا بأي نوع من أنواع الشفقة والعطف.. هو فوق كل قيمة.. وفوق كل قانون.. وفوق كل ما يعتقده عامة الناس.. ولا يعنيه قال الناس عن هذا الشيء: إنه خير، أو قالوا عن الآخر : إنه شر.. لأن مهمته أن يكون هو خالقاً للقيم، يضع للأشياء من القيم ما يريد، مما يؤدي إلى تحقيق الغاية من الإنسانية.. فهو حرٌّ في أن يضع شرعة القيم التي يرتئيها في الأخلاق، والسياسة، والفلسفة، وغير ذلك.

ليس ذلك فقط.. بل إن هذا الإنسان الأعلى هو الذي يحدد معتقدات العصر بأكمله.. وهو الذي يعطي للحضارة صورتها.. وهو الذي يخلق القيم في حرية تامة، غير آبه لما يسمى بالخير والشر، أو الحق والباطل.. فهو كل شيء، يخلُق الأخلاق، ويحدّد الحق بإرادته، ويفرض على الناس ما يضع لهم من قيم فرضاً، وليس عليهم هم إلا أن يطيعوه، فالطاعة أولى فضائل الذين ليسوا هم من طبقة الإنسان الأعلى.

قلت: ألهذا أعلنت موت الإله؟

قال: أجل.. لقد وجدت أن الإلـه هـو الوحيـد الـذي يحـول بيننـا وبين هذا الترقي.. ولذلك أردت أن أجعل من السوبرمان هو الإله.. لقـد قلت على لسـان (زرادشـت): (إذا كـان هنالـك آلهـة، فكيـف أطيق أن لا أكون إلهاً؟ وإذن فلا آلهة هناك).. وقلت : (لقـد مـاتت الآلهـة جميعـاً، ونريـد الآن أن يعيش السـوبرمان).. وقلت : (إني أهيب بكم يا إخواني أن تخلصوا عهدكم للأرض، وأن لا تصدّقوا من يحدثونكم عن أملٍ سماوي، إنهم ينفثون فيكم السم بـذلك، سـواءٌ أعلموا بذلك أم لم يعلموا)

قلت: عرفت تصـورك للوجـود.. وللإنسـان.. فمـا تصـورك عن مصير الوجود والإنسان؟

قال: أما الوجود.. فإنه يسير في دورات متطابقـة.. فهـو يكـرّر نفسه باسـتمرار.. والإنسـان الأعلى (السـوبرمان) هـو نهايـة دورة الوجـود، ليعـود بعـد ذلـك إلى نقطـة البدايـة.. (إن التكـرار الأبـدي موعده بعد وجود الإنسـان الأعلى، فسـيعود كـل شـيء بالتفصـيل الدقيق مرة ومرة، إلى ما لا نهاية له، حتى (نيتشه) سـيعود، وهـذه الأمة الألمانية التي يعيش بين ظهرانيها، والتي تمجّد الـدم والحديـد ستعود)

قلت: فأنت تقول بالوجود بعد الموت؟

ضحك بهسـتيرية، وقـال: (ليس بعـد المـوت شـيء.. ومـا بعـد الموت لا يعنينا بعد)

إن القوة هي كل شيء.. ولذلك فإنا أدعو إلى الموت الإرادي.. وأنا من الداعين إلى الانتحـار حينمـا يكـون الـوقت مناسـباً لاختيـار الموت.. فمـتى وجـد الإنسـان أن الحيـاة لم يَعُـد لهـا هـدف لديـه، فأحسن خيار له هو أن يسلم نفسه لرحى الموت..

لقــد قلت على على لســان (زرادشــت) : (كثــير من النــاس يموتون في وقت متأخر جداً، وبعضهم يموتون في وقت مبكر جداً، ولا زال هذا القول : (مت في الوقت المناسب) يبدو غريباً)

***

لست أدري كيـف ظللت في صـحبة هـذا الأسـتاذ الأرعن مـدة طويلـة من الـزمن.. ربمـا كنت أنفس بهـا عن ذلـك النقص الـذي زرعه في نفسي الدير.. لقد كنت بقوة نيتشـة أغطي النقص الـذي زرعه في نفسي أول أستاذ لي (سان بونافنتور)

قلنا: فكيف بدا لك أن تتركه؟

قال: أنا لم أتركه.. ولكن عقله الذي كان يتيه به هو الذي تركه.

قلنا: ما تقصد؟

قال: لقد ظهر جنونـه بعـد أن كـان خفيـا.. فلـذلك لم أجـد في صحبته إلا مـا يحولـني كمـا يحـول البشـرية جميعـا إلى قطيـع من المجانين.. ويحول الأرض إلى مارستان كبير لا يحوي إلا المجانين.

قلنا: فكيف تخلصت من تأثير أفكاره؟

قال: لقد بدأ ذلك أولا بتخلصي من الإدمـان على تلـك الخمـرة التي سقاني منها.

قلت: أي خمرة؟

قال: خمرة الغرور الذي يسميه قوة..

قلت: اكتشفت إذن بأن القوة التي يتحدث عنهـا ليسـت سـوى غرور؟

قال: أجل.. ففرق كبير بين أن يسعى الإنسان لتحصيل القوة.. وبين أن يتيه بها.. ويمحو بها غيره.. إن القـوة تسـتدعي الاسـتفادة من كل الطاقات والأفكار واحترامها..

وقد رأيت أن أول ما بدأ به أستاذي المجنون هو أنه رفـع عـني الثقة في كل الأفكار التي تطرح على الأرض..

قلت: فهل ناقشت أفكاره مناقشة عقلية؟

ابتسم، وقال: أجل.. لقد طبقت على الأفكار الـتي لقنـني إيـاه المنهج الذي علمني إياه.. فمحوتها من ذاكرتي ومن التأثير في.

قلنا: كيف؟

قال: هو لا يثق في العقل.. ولا في الحقائق.. ولا في الظواهر.. هو يعتبرها كلها من الأوهام.. وبما أنه طرح آراءه كحقائق عقلية.. فقد اعتبرتها على حسب منهجه مجرد سراب من الأوهام.

السلام

قال ذلك، ثم غرق في صمت عميق.. انتظرناه برهة.. فلما طال، سألناه: أهؤلاء فقط هم أساتذتك؟

قال: لا.. هناك أساتذة كثيرون.. أستحيي من ذكرهم.. أو ينعقد لساني دون ذكرهم.. لأني بعد أن لقيت النور والصفاء والسلام.. بعد أن لقيت الإنسان.. صرت أنظر إليهم باحتقار، وأخجل من تلك الأيام التي كنت أجثو بين أيديهم فيها كما يجثو الصبي أمام معلمه.

قلنا: فحدثنا عن النور والصفاء والسلام.. حدثنا عن الإنسان.. حدثنا عن الأستاذ الذي نسخ جميع ما لقنه لك أساتذتك.

قال: لم يكن أستاذي هذا خريج أي جامعة.. ولا أستاذا بأي كلية.. ولم ينل أي جائزة من تلك الجوائز الضخمة التي تعود قومنا أن يسلموها للمتفوقين..

قلنا: أي أستاذ هذا!؟

قال: لقد كان بسيطا غاية البساطة.. وكان لذلك يمثل الفطرة في قمة قممها.

قلنا: من هو؟

قال: لا يمكن أن يعرف أحد من الناس من هو.. فقد كان له من القداسة والجمال والصفاء والنور ما تستحيي منه الأسماء والمسميات.. لكني سمعت بعضهم يناديه محمدا.. وحق له هذا الاسم فقد اجتمعت فيه أصناف المحامد، فلا يراه أحد من الناس إلا حمده.. وسمعت بعضهم يناديه الراعي.

قلنا: الراعي!؟

قال: أجل.. لقد كان هذا الأستاذ راعيا.. ولم ألقه إلا في مرعاه.. أمام جبل من الجبال..

قلنا: وما الذي حملك إلى الجبال.. ألم تكن ابن المدينة؟

قال: بعد أن لقنني أساتذتي كل تلك المعارف.. وبعد أن رأيت آثارها على نفسي وعلى الناس من حولي احتقرت الحياة.. واحتقرت الإنسان.. فلذلك لجأت إلى تلك الجبال ألتمس الخلاص.

قلنا: عند الراعي؟

قال: لا.. لقد ذهبت إلى تلك الجبال لأطعم جثتي للجوارح.. فلم أرض لجسدي أن يلطخ بنفايات تلك المدينة الملعونة..

لقد ذهبت إلى الجبال لأسلم جسدي للموت..

قلنا: تنتحر!؟

قال: لقد صارت الحياة ـ على ضوء تلك التعاليم القاسية التي تعلمتها ـ لا تساوي أن أعيش من أجلها.. فلذلك رأيت الانتحار هو الوسيلة الوحيدة التي أتخلص بها من الحياة التي لا معنى لها.

قلنا: فكيف لم تمت.. ها أنت بيننا؟

قال: لقد أنقذني ذلك الراعي.. ثم لقنني من التعاليم ما حبب إلي الحياة.. بل ما جعلني بعد ذلك أرحل إلى هذه البلاد لأبحث عنه.

قلنا: هل رحل هو الآخر إلى هذه البلاد؟

قال: أجل.. بعد أن بلغته أخبار تلك الفتنة العظيمة التي تريد أن تجتث أمة محمد ترك غنيماته، ثم سار إلى هذه البلاد ليطفئ نيران الفتنة.. ومنذ رحل، وقلبي مشتعل شوقا إليه.. وسأموت بحسرتي، لأني أموت، ولم أره، ولم أزدد من معرفته.

قلنا: فحدثنا عن التعاليم التي غيرتك كل هذا التغير.

قال: بعد أن لقنت كل تلك التناقضات عن الإنسان.. وبعد أن

كاد يصيبني الجنون الذي أصاب أستاذي السابع قررت قرارا جازما بأنه لا خلاص لي إلا بالموت..

ومع أني أذعت نبأ هذا العزم في تلك المدينة الممتلئة بالصراع إلا أنه لم يـأتني أحـد ليثنيـني عن عـزمي.. بـل رأيت الكـل.. حـتى أساتذتي.. يأتون إلي، ويباركون هذا القـرار، بـل ويعتبرونـه أصـوب قرار أتخذه في حياتي.. بـل إن بعضـهم أحضـر وسـائل التصـوير.. وطلب مني ـ مقابل مبلغ من المال أغراني به ـ أن يأخذ لي صورة وأنا أنتحر على شرط أن أرمي نفسي من شاهق ناطحة سـحاب.. لكـني رفضـت.. فلم أرد لجسـدي أن يتلطخ بـتراب تلـك المدينـة المتعفن.

قلنا: فكيف ظهر لك أن تختار الجبال والمراعي؟

قال: في ذلك الحين الذي كنت أبحث فيه عن الموتـة الراضـية بعد أن يئست من الحياة الراضية رأيت صورة جميلـة لطبيعـة بكـر لم تغر عليها جحافل الإنسـان.. فقلت في نفسـي: لن يصـلح قـبرا لك إلا هذه الأرض.. وتلك المراعي.. وتلك السـماء الـتي لم تتلطخ بعد بمزابل المصانع.

فسرت.. وبقلبي من السرور بـالموت مـا لم أجـده في لحظـة من لحظات حياتي..

لا أنكر أن بعض التردد أصابني في تلـك اللحظـة الصـعبة الـتي وقفت فيهـا بين الحيـاة والمـوت.. لكـني قهـرت ذلـك الـتردد.. وصممت.. ولم يبق بيني وبين الموت إلا نصف خطوة.. لكن يدا لم أكن أنتبه لها أمسكتني بقوة.. التفت فرأيت ما كنت أبحث عنه..

قلنا: ما رأيت؟

قال: لقد رأيت الإنسان.. لقد كان ذلك الراعي يمثـل الإنسـان خير تمثيل.. فلذلك شعرت بانشراح عظيم في صـدري.. وشـعرت من حيث لا أدري بـأن في الحيـاة من الجمـال والسـلام والنـور والصفاء ما تستحق من أجله أن نعيشها.. بـل أن نضـحي من أجـل أن نعيشها.

قلنا: فكيف ظهر لك أن تجلس بين يديه مجلس التلمذة، وأنت الأستاذ الذي تلقى من كبار أساتذة البشرية؟

قال: لقد رأيت من سمته وتواضعه وأدبه وسلامه وعلمه ما جعلني ـ رغما عني ــ أجلس معه ذلك المجلس الذي لم أجلس مثله في حياتي.

قلنا: لقد شوقتنا إليه، فحدثنا عنه.

قال: لقد كانت أول كلمة قالها لي، وهو يربت على كتفي بحنان وقوة :(لا تهدم بنيان الله)(1)

التفت إليه، وقلت: أي بنيان لله؟

قال: أنت.

قلت: من أنا؟

قال: الذي تبحث عنه.. أنت.. أنت هو الإنسان..

قلت: لكني لم أجد الإنسان.

قال: لأنك كنت تسأل الشياطين عن الإنسان، والشياطين لن يدلوك إلا على الشياطين.

قلت: فهل عندك من علم الإنسان ما يدلني عليه؟

قال بقوة وثقة: أجل.. فمن لم يعرف نفسه لم يعرف ربه؟

قلت: لكني أراك بسيطا.. وفوق ذلك لا أرى معك أي آلة من آلات العلم التي كان يحملها أساتذتي.

قال: أنا أحمل النور.. والنور هو الآلة الوحيدة التي تحميك من ظلمات الجهل.

قلت: أي نور؟

1() ورد في الحديث : (إن هذا الإنسان بنيان الله فملعون من هدم بنيانه)، قال فيه الزيلعي : (غريب جدا)، (تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري: 1/346)

قال: رسالة ربي..

قلت: رسالة ربك!؟

قال: أجل.. لقد بحثت عن الإنسان مثلما بحثت أنت.. ووجدت من الشياطين من وجدت.. ولكني لم أستسـلم كمـا استسـلمت.. بل سارعت إلى ربي.. وصحت على هذا الجبل.. وفي المحل الذي أردت أن تسلم نفسك فيه للموت، وقلت بمنتهى العجز والضراعة والفقـر: يـا رب.. أنـا عـاجز أن أعلم حقيقـتي وأعلم وظيفـتي.. فدلني.

قلت: فهل نزل عليك الملاك الذي نزل على الأنبياء يدلك؟

قال: لا.. لقـد وجـدت راعيـا في هـذه المـراعي.. كـان اسـمه محمدا.. وكان أشبه الناس بتلك الشـمس العظيمـة الـتي أضـاءت الوجـود، ولا تـزال تضـيئة، لـولا تلـك الغيـوم الـتي يرسـلها قـومي وقومك.. ومن ذلك اليوم طلقت جميـع أسـمائي، وتسـميت باسـم محمد.

قلت: فهل دلك محمد على الإنسان.. وحقيقة الإنسان؟

قال: أجل.. وقد شعرت في كلامـه من الصـدق والحقيقـة مـا ملأني بالأمل والبشارة والسلام.. لقـد شـعرت بالكرامـة العظيمـة التي يحملها هذا الإنسان.. وتذوقت قوله تعالى : وَلَقَـدْ كَرَّمْنَـا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (الإسراء : 70)

لقد شعرت أني مخلوق مفضل.. له كرامة.. وله قـرب وعنايـة عند بارئه.. وفوق ذلك شعرت أني أنتمي إلى الله، فأنا عبده، وهـو ربي الذي يكلؤني ويحفظني ويعتني بي ويربيني..

ثم قرأ علي محمد قوله تعالى وهو يصف القـرار الإلهي بخلـق الإنسان وبداية خلقه وما حصل في تلك البداية من أنواع التكريم: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَـلُ فِيهَـا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَـدِّسُ لَـكَ قَـالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى

الْمَلَائِكَـةِ فَقَـالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْـمَاءِ هَـؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَـادِقِينَ (31) قَـالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَـالَ يَـا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُـونَ (33) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَـانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34) وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَــدًا حَيْثُ شِــئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَــا هَــذِهِ الشَّــجَرَةَ فَتَكُونَــا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَـا اهْبِطُـوا بَعْضُـكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37)﴾ (البقرة)

لقـد شـعرت.. وهـو يقـرأ هـذه الآيـات بخشـوع ورقـة.. ببدايـة تاريخي.. فأنا لم أكن في يوم من الأيام حيوانا ولا خلية عصفت بها الرياح لتتحول بعد ذلك إلى هذا الخلق المستقيم.. بل شعرت بأني إنسان خلق قصدا.. ولغايـة.. وأني لن يهنـأ بي عيش حـتى أتحقـق بغايتي ووظيفتي التي أناطها الله بفطرتي.

قلت: إن مـا تقولـه يريـد أن يعصـف بكـل تلـك الأكـوام من المعارف العلمية التي حصلتها..

قال: لم تكن تلك الأكوام معـارف.. بـل كـانت ركامـا اختلطت فيه الحقـائق بالأوهـام.. وتشـكل من ذلـك الاختلاط مـا عشـته من صراع..

قلت: أكان في تلك الأكوام أوهاما؟

قال: لو كانت أوهاما وحدها لسهل التمييز ولاستطاع أي عاقل أن يردهـا بسـهولة.. ولكن مصـدر خطورتهـا أنهـا كـانت ركامـا من الأوهام زين ببعض مساحيق الحقائق.. فصار الناس يرون الصــورة ولا يـرون مـا بـداخلها، فيصـيبهم من الغـرر في ذلـك مـا يملـؤهم بالصراع.

قلت: فهل في إمكانك أن تميز بين الأوهام والحقائق؟

قال: أجل.. لقد ذكرت لك أن معي النور.. والنور هـو الوسـيلة الوحيدة التي نميز بها الحقيقة من الوهم.

قلت: كيف؟

قال: أرأيت لو أنا كنا في ظلمة، ووضع أحدنا يده على شـيء، فوصفه بوصف، أو سماه باسم، ووصفه الآخر بوصف مختلف، وأعطاه اسما مختلفا.. وهكذا.. ما هو المنهج السليم الذي تراه للخروج من مأزق الخلاف مع أن الكل وصف ما رأى؟

قلت: ذلك بسيط.. نأتي بمصباح نسلطه على ذلك الذي اختلفنا فيه، فنتعرف عليه من غير عناء.

قال: فإن معي مثل هذا المصباح.

قلت: من وهبه لك؟

قال: الله.. ربي.. هل تتصور أن الذي خلق كل هذا الكون.. بهذه الدقة العجيبة.. وبهذه الحكمة الراقية.. وبهذه الرحمة التي لا نظير لها.. يغفل عن مثل هذا؟

سكت، فقال: لقد أرسل الله لنا محمدا ﷺ، فعرفنا بحقيقتنا.. وبالفطرة السليمة التي خلقنا عليه.. حتى إذا ما تاهت بنا السبل عدنا إليها لنصحح ما وقعنا فيه من أخطاء.

قلت: لقد صحبت قوما يعزلون الله عن التدخل في مثل هذا؟

ابتسم، وقال: هل يمكن لمثقفيكم وباحثيكم أن يقولوا لأديسون[1] لا تتحدث عن المصباح الكهربائي، أو عن مُشَغِّل الأسطوانات.. أو عن كل تلك الاختراعات التي خدم بها البشرية؟

قلت: لا.. ولو قالوا ذلك لكانوا مجانين.. فأولى الناس بالحديث عن هذه المخترعات من اخترعها.

قال: ولهذا لا يصح لأحد أن يتحدث عنا سوى خالقنا ومخترعنا.. فالله الخالق هو الذي يعرف الإنسان وطبيعة الإنسان وأصل

---

[1] هو تُومَاس أَلْفَا أَدِيسُون (1847 - 1931م) أشهر مخترع أمريكي، من اختراعاته: المصباح الكهربائي ومُشَغِّل الأسطوانات. وسجل ما مجموعه 1093 اختراعًا، وأجرى تجارب في حقل الطب، وكاد يخترع المذياع، وتنبأ باستعمال الطاقة الذرية.. إضافة إلى ذلك حَسَّنَ اختراعات الآخرين، ومنها الهاتف، والآلة الكاتبة، والمولِّد الكهربائي، والقطار الكهربائي.

الإنسان ومركبات الإنسان.. والبداية التي بـدأ بهـا تـاريخ الإنسـان.. لقد ذكـر القـرآن الكـريم هـذا، فقـال تعـالى :﴿ وَأَسِـرُّوا قَـوْلَكُمْ أَوِ اجْهَـرُوا بِـهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِـذَاتِ الصُّـدُورِ (13) أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَـقَ وَهُـوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14)﴾ (الملك)، وقـال تعـالى :﴿ يَعْلَمُ خَائِنَـةَ الْأَعْيُنِ وَمَـا تُخْفِي الصُّـدُورُ﴾ (غـافر:19)، وقـال تعـالى :﴿ يَعْلَمُ مَـا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَـا تُسِـرُّونَ وَمَـا تُعْلِنُـونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِـذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (التغابن:4)

قلت، وقد شعرت بالبشارة تغمر قلبي: هل يمكنـك أن تسـلط هذا المصباح الذي ذكرته على ما لقنـه لي أسـاتذتي لتخلصـني من الصراع؟

قال: أجل.. لقد ذكر القرآن الكريم هـذا.. فـالقرآن شـفاء لمـا في الصدور.. يخلصها من الصراع، ويملؤها بالسلام.. لقد قال اللـه تعالى يذكر هذا :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس:57)

قلت: أأحـدثك عمـا ذكـر أسـاتذتي لتمـيز لي بين حقـائقهم وأوهامهم؟

قال: لا داعي لـذلك.. فمـا سـأذكره لـك يكفيـك لأن تمـيز بين الحقيقة والوهم.. سأذكر لك الصورة التي ذكرهـا المصـباح الهـادي والنور المبين الذي أرسله اللـه لنـا، وأنزلـه علينـا لتقتبس الحقيقـة من مصدرها.. ولا عليك بعـدها أن تعـرض منهـا مـا تشـاء على مـا تشاء.

قلت: ما أول الإنسان؟

الجسد:

قال: هذه الطين التي يتكون منها قالبه الأرضي.. لقد ذكر الله ذلـك، فقـال:﴿ وَمِنْ آيَاتِـهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُـرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَـرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ (الروم:20)، وقال :﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران:59)

قلت: أرى أن كتابكم يولي اهتماما كبيرا بالتراب[1] الذي خلق منه الإنسان؟

قال: أنت تعلم أن الصانع الحكيم إذا صنع آلة لا يضع فيها شيئا إلا لحكمة تقتضيها الصنعة.. ولذلك، فقد ذكر الله أصل هذه الخلقة الترابية للإنسان لنحترمها ونراعيها ونراعي مقتضياتها حتى لا نصطدم معها، فيحصل باصطدامنا بها الصراع.

ألا ترى كيف يوضع في صناديق السلع التحذيرات المختلفة؟

قلت: أجل.. وقد أبدع قومنا في النصح في ذلك إبداعا.

قال: أترى قومك أكثر نصحا من الله؟

سكت، فقال: إذا كان الصانع البسيط الضعيف الحقير يذكر لنا مركبات صنعته لنعرف كيف نستفيد منها، ونعرف في نفس الوقت

---

[1] () كون الإنسان من تراب لا شك فيه من الناحية العلمية، فلو أرجعنا الإنسان إلى عناصره الأولية، لوجدناه أشبه بمنجم صغير، يشترك في تركيبه حوالي (21) عنصراً، تتوزع بشكل رئيسي على:

1ــ أكسجين ــ هيدروجين على شكل ماء بنسبة 65 بالمائة ـ 70بالمائة من وزن الجسم

2 ـ كربون، وهيدروجين (H) وأكسجين (O) وتشكل أساس المركبات العضوية من سكريات ودسم،و بروتينات وفيتامينات، وهرمونات أو خمائر.

3 ـ مواد جافة يمكن تقسيمها إلى:

آ ــ ست مواد هي: الكلور (CL)، الكبريت (S)، الفسفور (P)، والمنغنزيوم (MG) والبوتسيوم (K)، والصوديوم (Na)، وهي تشكل 60 ـ 80 بالمائة من المواد الجافة.

ب. ست مواد بنسبة أقل هي: الحديد (Fe)، والنحاس (Cu) واليود (I) والمنغنزيوم (MN) والكوبالت (Co)، والتوتياء (Zn) والموليبديوم (Mo).

جــ ــ ستة عناصر بشكل زهيد هي: الفلور (F)، والألمنيوم (AL)، والبور (B)، والسيلينيوم (Se)، الكادميوم (Cd) والكروم (Cr).

وكل هذه العناصر موجودة في تراب الأرض، ولا يشترط أن تكون كل مكونات التراب داخلة في تركيب جسم الإنسان، فهناك أكثر من مئة عنصر في الأرض بينما لم يكتشف سوى (22) عنصراً في تركيب جسم الإنسان، و ذلك كله يوافق ما جاء به القرآن تمام الموافقة. (مع الطب في القرآن الكريم تأليف الدكتور عبد الحميد دياب الدكتور أحمد قرقوز مؤسسة علوم القرآن)

كيف نجنبها المضار ونقيها المهلكات، فإن الله الحكيم اللطيف الخبير أولى بذلك، وأجدر.

قلت: ما تقوله صحيح.. ولكن ألا ترى أن الاهتمام بالتراب الإنساني سيوقعكم في المتاهات التي أوقعني فيها أستاذي (واطسون).. شيخ (المدرسة السلوكية)؟

قال: لا.. لقد أبصر واطسون بعض الحق.. فراح يبشر به بعد أن مزج به باطلا كثيرا..

قلت: أي حق أبصره ؟.. وأي باطل مزجه بالحق؟

قال: لقد أبصر أستاذك عظم الآلة البشرية التي خلقها الله للإنسان ليمتطيها، ويستغلها، ويسخرها لأداء وظيفته، فتصور أن الإنسان ليس إلا الآلة.. ولو أنه دقق بصره جيدا لرأى في أعماق أعماق تلك الآلة اللطائف التي حجبته عنها مجاهره ومباضعه.

خطأ صاحبك ليس في رؤيته للآلة أو اكتشافه لما فيها من عجائب الصنعة.. وإنما في اختصاره الإنسان فيما رآه..

ومثل ذلك الخطأ وقع فيه قبله من رأوا الظواهر الكونية، ودقتها، فتصوروا الكون حركة من غير محرك، وصاحوا مع جاليلو ونيوتن قائلين، وقد استفزهم الغرور لما اكتشفوه :(الكون آلة ضخمة).. أو (من الممكن تفسير ظواهر الطبيعة بربط بعضها ببعض دون حاجة إلى تدخل قوى خارجية عنها)

أو صاحوا بما صاح به من بعدهم ومن تتلمذ عليهم حين عرفوا المادة التي هي هيولى الكون بأنها (ما شغلت حيزاً من الفراغ، وهي صلبة وبسيطة وواضحة للعيان.. وأن حركتها محكومة بنظام آلي لا يختل، فتركيب المادة، وترتيب أجزائها المكونة لها هما مصدر فهم الحركة وتفسيرها.. فما نحس به، وما يفوح عن الزهر من العطر، أو ينبثق عن الشمس الغاربة من اللون، أو ما نشعر به من المخاوف والآمال.. جميع هذه الظواهر مردها إلى حركات أجزاء صغيرة من المادة، تنطلق في الفضاء طبقاً لقوانين حتمية حاسمة، هذه الأجزاء الصغيرة هي التي يتولد عنها علمنا بها، فليس العقل بعبارة أخرى إلا شعور هذه الأجزاء الصغيرة بذاتها)

بهذا صاح الكـل.. كـل من بهـرهم عظم الآلات الربانيـة.. لقـد اكتفوا بالانبهار بها عن النظر إلى الحقائق التي تحيط بها.. والـتي لا يمكن أن تتحرك الآلة من دونها..

وقـد أدى هـذا الانبهـار إلى تلـك الأوهـام الكثـيرة حـول الكـون وحول الحياة وحول الإنسان..

وأخطر ما نتج عن ذلك ما كانوا يرددونـه كـل حين من قـولهم: (مـا من شـيء يمكن أن يكـون حقيقيـاً إلا وهـو قابـل من الناحيـة النظريـة ؛ لأن يـدرك بـالحواس، ومن هنـا فـإن البحث في طبيعـة الأشياء المحسوسة وتحليلها إلى عناصرها وذراتها ؛ إنما هو معالجة للحقيقة بصورة مباشرة، أما تصور القيم الأخلاقية، وتأمل الخبرات الدينيـة والاسـتمتاع بهـا مثلاً، فليس إلا خبـط عشـواء وجريـاً وراء السراب)

وأخطر ما نتج عن ذلك كله هو سـلب الإرادة من الإنسـان بعـد أن سلب عقله.. فلا يمكن للعقل أن يمارس وظيفته إن لم تكن له إرادة..

قلت: ذكرت الحق الـذي ذهب إليـه واطسـون.. والـوهم الـذي تسرب إليه.. فهل ترى أن لداروين بعض الحق فيما ذكره من خلق الإنسان؟

قال: داروين مختلف تماما.. داروين لم يدرس الإنسان كشيء موجود أمامه.. وإنما راح يبحث في الجمـاجم عن تـاريخ الإنسـان.. فلم تهده الجماجم إلى شيء(1).. فراح يتكهن ويرجم بالغيب.. إنه مثل مـؤرخ أراد أن يخـرج للعـالم بتـاريخ حضـارة من الحضـارات، فبحث في آثارها، فلم يجـد.. وبحث في المخطوطـات، فلم يجـد.. فراح يتكهن.. ويطلق لخياله العنان.

قلت: ألا يمكن أن يكون آدم الذي ذكر القـرآن أنـه أول البشـر كان في أصله سلالة من السلالات التي ذكرها داروين؟

قال: لا.. لقد أكد القرآن الكريم أن الله خلـق آدم ابتـداء(2).. وفوق ذلك أخبرنا أن الإنسان صور بهذه الصـورة ابتـداءا.. بـل هـو

(1) ذكرنا الرد العلمي على نظرية التطور في (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

يمن علينا بذلك، ويعتبره من فضل الله علنيا.. قال تعالى : لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين:4) وقال: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (الانفطار:8)، وقال: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (غافر:64)، وقال: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾

2() للأسف.. فإن بعض المسلمين ممن توهموا أن لنظرية التطور مصداقية علمية راح يحاول التوفيق بينها وبين ما جاء في القرآن.. ومن ذلك الدكتور عبد الصبور شاهين في كتابه (أبي آدم: قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة)، فقد حاول في دراسته التوفيقية هذه أن يميز بين كلمتي (البشر)، و(الإنسان).. حيث افترض أن كلمة (بشر) تطلق على الأطوار القديمة التي كان عليها الإنسان قبل استصفاء الله لآدم من بين بقية المخلوقات التي يطلق عليها (بشر)، والبشر بذلك هو اسم ذلك المخلوق الذي أبدعه الله من الطين.

فبين (البشر والإنسان) عموما وخصوصا مطلقا، فـ (البشر) لفظ عام في كل مخلوق ظهر على سطح الأرض، يسير على قدمين، منتصب القامة، و(الإنسان) لفظ خاص بكل من كان من البشر مكلفا بمعرفة الله وعبادته، فكل إنسان بشر، وليس كل بشر إنسانا.

ومن الردود التي رد بها الباحثون على هذا أن كلمة (بشر) في القرآن الكريم ــ الذي انطلق منه ـ مرادفة لكلمة (إنسان) بشكل لا لبس فيه، ويدل لذلك أن كلمة (بشر) في القرآن الكريم أطلقت على المعاني التالية:

على الرجال: ومن الشواهد على هذا المعنى ما ورد في قوله تعالى : قالت رب أنَّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر (آل عمران: 47)، وهو المعنى الذي نجده في قوله تعالى : وقلن حاشا لله ما هذا بشرا (يوسف:31) وقوله تعالى : ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلِّمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين (النحل103)، وقوله تعالى : فتمثل لها بشرا سويا (مريم17) وغيرها.

على الإنسان: ومن ذلك قوله تعالى : فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً (مريم:26) فقد وردت هذه الكلمة هنا مرادفة للإنسان.

على الأنبياء.. كما قال تعالى : ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكمة والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلِّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون (آل عمران: 79)، وهذا هو المعنى الذي نجده كذلك في قوله تعالى : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) (الأنعام:91)، وقوله تعالى : قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) (ابراهيم:10)، وقوله تعالى : قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا

(التغابن:3)

قلت: لقد بـدأت في تلمـذتي على أسـاتذة يحتقـرون الـتراب.. فما الحق الذي أبصروه في ذلك؟.. وما الوهم الذي تسرب إليهم؟

قال: أما الحق الذي أبصروه فهو أن أنـوار الـروح الـتي نفخهـا اللـه في جسـد الإنسـان شـغلتهم عن الجسـد والطين.. فتصـوروا الصراع بين الروح والجسد.. وهو موضع الوهم.. فالنور الـذي نـرى به الأشياء لا يزاحم الأشياء وجودها.. بل إنه يزيدها جمـالا.. ألا تـرى الشمس كيف تشرق، فتشرق الألوان بإشراقها؟

فهكـذا الـروح عنـدما أشـرقت على جسـد الإنسـان زينتـه ولم تزاحمه.. فلذلك أولى القرآن الكريم للجسد قيمة لا تقل عن قيمة الروح.. فهو يعتبره من نعم الله على عباده.. قال تعالى: قَـالَ لَـهُ صاحِبهُ وَهوَ يُحاورهُ أكفرتَ بالَّذي خَلَقَكَ مِنْ تُـراب ثُمَّ مِنْ نُطفَـة ثُمَّ سَـوّاكَ رَجُلاً (الكهـف: 37)، وقـال: هُـوَ الَّذي جَعَـلَ لَكُمُ الأَرضَ ذلولاً فامشُوا فِي مناكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِـهِ وَإِلَيـهِ النُّشُـورُ (الملـك: 15)، وقال: كُلُـوا مِنْ طَيِّبـاتِ مـا رَزَقنـاكُمْ وَلا تَطْغَـوا فِيـهِ فَيُحِـلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي (طه:81)

فهذه الآيات القرآنية تحمل بين طيّاتهـا معـاني تشـريعية كثـيرة تـبين قيمـة الجسـد وأهميـة المحافظـة عليه(1).. فهي تـبين أن الإنسـان بتكوينـه الجسـماني، وبطبيعتـه البدنيـة، جـزء من عـالم

يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) (الكهف:110)

أما تفسيره لكلمـة (سـلالة) في قولـه تعـالى : وَلَقَـدْ خَلَقْنَـا الْأِنْسَـانَ مِنْ سُـلالَةٍ مِنْ طِينٍ) (المؤمنون:12)، والتي تصور أن المراد منها (سلسلة آباء خلقـوا من طين.. وكـأن الآية تدفع عن العقل احتمال إدماج العمليـتين (خلـق البشـر وخلـق الإنسـان) في عمليـة واحـدة، فالإنسـان خلـق من (سـلالة) نسـلت من(طين)، أي: إنـه لم يخلـق مباشـرة من الطين، فأما ابن الطين مباشرة فهو (أول البشر)، وكان ذلك منذ ملايين السنين) (ص90 من كتابه) ويقـول: (فخلـق الإنسـان (بـدأ من طين)، أي: في شـكل مشـروع بشـري، ثم استخرج الله منه نسلا (من سلالة من ماء مهين)، ثم كانت التسـوية ونفخ الـروح، فكـان (الإنسان) هو الثمرة في نهاية المطـاف عـبر تلكم الأطـوار التاريخيـة السـحيقة العتيقـة) (ص91 منه)

فقد رد عليه الباحثون بـأن السـلالة في اللغـة(انظـر المعجم الوسـيط، ومعجم ألفـاظ القران) تعني (ما استُل من الشيء وانتُزع.. كما تعني خلاصة الشيء.. ومعنى الآيـة بهـذا هو : (ولقد خلقنا الإنسان من خلاصة من الطين) (انظر: غزو معاقل الداروينية، ونسـف نظرية التطور، تأليف:أبو صلاح)

الطبيعة، وأنّ الأرض هي مصدر نشوئه وتكوينـه.. فهـو ابن الأرض، ونتاجهـا الحي المـترقي في تكوينـه وأجهزتـه الجسـمية المختلفـة: أكفرتَ بالّذي خلقكَ مِن تُراب

وهي تـبين أن هـذا الجسـد الـذي نشـأ من الأرض لا يسـتغني بطبيعته عن إمداد الأرض لوجوده، من الطعام والشـراب واللبـاس والسكن.. وَما جَعَلناهُمْ جَسداً لا يأكُلون الطَّعامَ (الأنبياء: 8).

وهي تــبين أن التوافــق في التكــوين الطــبيعي بين الإنســان والطبيعة تام ومتناسق، فكلّ ما يحتاجه الإنسـان لاسـتمرار الحيـاة متوفر في عالم الطبيعـة ومتنـام فيهـا.. وَبـاركَ فيهـا وقـدّرَ فيهـا أقواتَها في أربعةِ أيّام سـواءً للسّـائلينَ (فصّـلت: 10)..ـ جَعَـلَ لَكُمُ الأَرضَ ذَلولاً (الملك: 15)

وهي تـبين أن كـلّ مـا في الأرض، من خـيرات وطيّبـات، حلال طيّب ومباح لكافة بني الإنسان، دون تفريق أو تمييز، فحكمة اللـه، وعدله تقضيان بأن تتوفر لكلّ إنسان حاجته وحقّـه المقـرر لـه في الحياة: يا أيُّها النّـاس كُلُـوا مِمّـا فِي الأَرضِ حَلالاً طَيِّبـاً (البقـرة: 168)

وقد استنكر القرآن الكريم على هؤلاء المنحرفين موقفهم هـذا من المتع الجسديّة، والطيّبات التي أنعم الله بها على عباده، فقال: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينةَ اللهِ الّتي أخرَجَ لِعِبـادِهِ وَالطَّيِّبـاتِ مِنَ الـرِّزق (الأعراف: 32)

واعتبر الرهبانية بدعة خطيرة في الـدين، ففي القـرآن الكـريم عند ذكر التحريف الـذي حصـل للمسـيحية: ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَـى ابْنِ مَـرْيَمَ وَآتَيْنَـاهُ الْأِنْجِيـلَ وَجَعَلْنَـا فِي قُلُـوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَـاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَـا فَآتَيْنَـا الَّذِينَ آمَنُـوا مِنْهُمْ أَجْـرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (الحديد:27)

الروح:

1() انظر مقالا بعنوان: كيف تعامل الإسلام مع الجسد؟ من موقع (البلاغ) الموسوعة الإسلامية.

قلت: لا أرى أن الطين وحـدها كافيـة لأن تحـول من الإنسـان إنسانا؟

قال: صدقت.. فالفطرة تـدل على أن الإنسـان أعمـق من أن ينحصر في هذا القالب الطيني مع احترامنا العظيم له.. وقد أخبرنا القـرآن الكـريم بهـذه الحقيقـة الفطريـة، وأكـدها لنـا، بـل بين لنـا منشأها وأصلها، فقال تعالى ـ مبينا أن لها من السمو والرفعة ما لا يمكن تصوره.. ولذلك نسبها إليه ـ :﴿ فَـإِذَا سَـوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيـهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر:29)

قلت: فهل ذكر القرآن حقيقة هذه الروح وماهيتها؟

قـال: لقـد ظلت البشـرية في دهورهـا جميعـا تأكـل الفواكـه والخضر واللحـوم، وهي لا تعـرف عناصـرها ومركباتهـا، ومـع ذلـك ظلت تستفيد منها، بل لا تستطيع أن تعيش من دونها.

وظلت البشرية منذ سالف الدهور متثاقلـة إلى الأرض منجذبـة إليها مع أنها لا تعلم قوانين الجاذبية.

وظلت البشرية منذ سالف الدهور والأحقاب تستفيد من الآلات التي جهزت بها من القلب والمعدة والرئتين وغيرهـا.. من غـير أن تعلم من تفاصيل ذلك شيئا.

قلت: ما تقصد بكل هذا؟

قال: أقصد أن الإنسان عندما لا تكون له الوسائل الكافية التي يبحث بهـــا عن الحقـــائق والماهيـــات يكتفي بالاســـتفادة منهـــا وبالاعتراف بها دون أن يحاول بعقله المحدود أو بوسائله المحدودة تخيلها.

قلت: وما المانع من ذلك؟

قـال: حـتى لا يقـع في الـوهم.. فـالوهم يحـول من الحقـائق أساطير.. ومن العلوم خرافات.

قلت: ولكن ما المانع من معرفتها؟

قال: نحن لا نـرى إلا الألـوان والأحجـام والأشـكال.. فلـذلك لا

نستطيع أن نرى ما لم تكن له من هذه الجسوم ما تستطيع مداركنا البسيطة أن تدركه.. ولذلك من العبث أن نبحث فيه.. ولهذا قطع الله عنا الجدل الذي يمكن أن نقع فيه إذا ما أردنا أن نبحث عن حقيقة الروح[1]، فقال:﴿ وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (الاسراء:85)

ولذلك أمرنا بدل البحث عن الماهية أن نستثمر الطاقات الكبرى التي تتمتع بها أرواحنا في أداء الأمانة التي كلفنا بها، قال تعالى:﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْأِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ (الأحزاب:72)

لم أدر بما أجيبه، فقال: لعلك في رحلتك في البحث عن الإنسان مررت بذلك الركام من التيه في التعرف على روح الإنسان..

قلت: لقد مررت على الماديين.. فرأيت أنهم فقد قطعوا عن أنفسهم هذا الجدل حين اعتقدوا أن الإنسان مجرد كيان مادي مكوَّن من مجموعة من الأجهزة والفعاليات المادية، وعندما يفقد الحياة سينحل ويستهلك في تراب الأرض وتنتهي دورة وجوده في عالم الطبيعة إلى الأبد.

وقد ذكر هؤلاء أن الروح ـ إن صح أن يكون هناك روح ـ ما هي

---

[1]() هذا هو السر الذي عزا إليه المحققون من العارفين سر عدم إمكان معرفة الجماهير للروح، وقد تحدث الغزالي عن ذلك عند ذكره للأسرار التي يختص بها المقربون ولا يشاركهم الأكثرون في علمها ويمتنعون عن إفشائها إليهم، فقال القسم الأول: أن يكون الشيء في نفسه دقيقاً تكل أكثر الأفهام عن دركه فيختص بدركه الخواص وعليهم أن لا يفشوه إلى غير أهله فيصير ذلك فتنة عليهم حيث تقصر أفهامهم عن الدرك. وإخفاء سر الروح وكف رسول الله ﷺ عن بيانه من هذا القسم فإن حقيقته بما تكل الأفهام عن دركه وتقصر الأوهام عن تصور كنهه. ولا تظنن أن ذلك لم يكن مكشوفاً لرسول الله ﷺ فإن من لم يعرف الروح فكأنه لم يعرف نفسه ومن لم يعرف نفسه فكيف يعرف ربه سبحانه؟ ولا يبعد أن يكون ذلك مكشوفاً لبعض الأولياء والعلماء وإن لم يكونوا أنبياء ولكنهم يتأدبون بآداب الشرع فيسكتون عما سكت عنه بل في صفات الله عز وجل من الخفايا ما تقصر أفهام الجماهير عن دركه ولم يذكر رسول الله ﷺ منها إلا الظواهر للأفهام من العلم والقدرة وغيرهما حتى فهمها الخلق بنوع مناسبة توهموها إلى علمهم وقدرتهم إذ كان لهم من الأوصاف ما يسمى علماً وقدرة فيتوهمون ذلك بنوع مقايسة. ولو ذكر من صفاته ما ليس للخلق مما يناسبه بعض المناسبة شيء لم يفهموه)(انظر: الإحياء: 1/100)

إلا خواص الجسد، فهي لذلك تخضع لجميع القوانين التي تحكمه.

وذكروا أن مجموع ظواهر الشعور والعقل والارادة والفكر، ما هي إلاّ وظائف عضوية مثلها كمثل جميع الوظائف البدنية الأُخرى، وكذا الآثار الفكرية والمعرفية عندهم ماهي إلاّ نتائج وآثار فيزيائية وكيميائية للخلايا العصبية والعقلية، وجميع تلك الآثار والنشاطات الروحة تظهر بعد ظهور العقل والجهاز العصبي، وتموت بموت الجسد، فإذا مات الانسان بطلت شخصيته، واندثر بدنه، وزال معه كلّ ما بلغه من محصول عقلي وارتقاء نفسي وكمال روحي.

قال: لقد ذكر الله تعالى هذا الصنف، فقال: ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (الأنعام:29)، وقال: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (المؤمنون:37)

قلت: فكيف يرد على هؤلاء؟

قال: إن أول ما يرد به على هؤلاء هو الفطرة.. فالفطرة البشرية تقول بوجود الروح.. والدليل على ذلك اتفاق جميع أمم الأرض على ذلك، ولا يمكن لجميع أهل الأرض أن يتفقوا على شيء واحد في مثل هذه الخطورة(1).

1() فقد كان سقراط وأفلاطون يعتقدان أنّ الروح جوهر خالد موجود منذ الأزل، وعندما يكتمل الجنين في بطن أُمّه تتعلق به الروح، ثمّ تعود بعد الموت إلى محلّها الأول، ويرى إفلاطون أن هناك روحين: إحداهما الروح العاقلة وهي الخالدة ومحلها الدماغ، والأخرى غير خالدة ولا عاقلة، وهي قسمان: غضبية ومستقرها الصدر، وشهوية ومكانها البطن.

وذهب أرسطو إلى الاعتقاد بحدوث الروح مع حدوث البدن، فعندما يتكامل البدن توجد الروح دون أن تكون لها سابقة حياة قبل حدوثها، وعدّ ثلاثة صنوف من الأرواح منبثّة في مجموع البدن، وهي: الروح العاقلة ــ أو النفس الناطقة ــ وهو يقول بتجردها، والروح الحاسة أو الحيوانية، والروح الغاذية، ولا يقول بتجرد الأخيرتين.

واهتم ديكارت (ت1560) بتمييز الروح عن الجسم، وتحديد خصائص كلّ منهما، فاعتبر الروح جوهراً أخصّ صفاته الفكر، ولا يتصوّر فيه إمكان التجزّي والانقسام وعدم التجانس في أجزائه، واعتبر الجسم جوهراً أخص صفاته الامتداد، ومن أحواله الصورة والحركة، ويقبل الانقسام والتجزّي والتغير بطبيعته.

وغيرهم من الهنود والصينيون.. اتفقوا على أن حقيقة الإنسان هو كيان روحي مجرَّد عن صفات المادة وخصائصها، وهو غير البدن العضوي والجهاز المادي الذي يؤدي الفعاليات والنشاطات المادية. وهو الذي ينطق عنها الإنسان فيقول (أنا)، فليس (الأنا) الذات الإنسانية هي ذلك الكيان الجسدي، بل هي ذلك الكيان الروحي المستقل.

قلت: إن قومنا لا يؤمنون إلا بالمخابر.

قال: فليبحثوا في المخابر.. فسيجدون كل الأدلة الـتي تـبرهن لهم على أنه لا يمكن للإنسان أن يكون إنسـانا حـتى ينفخ فيـه من الروح السامية ما يتحول به إلى إنسان(1).

قلت: دعنا من قومنا.. فقد يئست منهم.. ولا يهمـني أن يقبلـوا أو يرفضوا.. فقد تعودوا أن يقبلوا ما يشاءون قبولـه، ويرفضـوا مـا يشاءون رفضه سواء قبلته المخابر أو رفضته.

قال: فما تريد مني أن أحدثك؟

قلت: عن سر الروح..

قـال: الـروح هي السـر الربـاني الـذي تحـول بـه الطين إلى إنسان.. وبها تحمل الأمانـة العظيمـة الـتي أبت السـموات والأرض أن تحملها.. وبها تحمل الخلافة.. وبها استطاع أن يعبد الله عبوديــة التكليف.. وبها يحب.. وبها يبغض.. وبها يسعد.. وبهـا يشـقى.. وبهـا يــرى مــا وراء الحجب.. وبهــا تتجلى لــه حقــائق الأشــياء.. وهي (فهرس الغرائب التي تخص الاسماء الإلهيـة الحسـنى.. ومقيـاس مصغر لمعرفة الشؤون الالهية وصفاتها الجليلـة.. ومـيزان للعـوالم التي في الكون.. ولائحة لمنـدرجات هـذا العـالم الكبـير.. وخريطـة لهـذا الكـون الواسـع.. وفذلكـة لكتـاب الكـون الكبـير.. ومجموعـة مفاتيح تفتح كنوز القدرة الإلهية الخفية.. وأحسن تقــويمٍ للكمــالات المبثوثة في الموجودات، والمنشورة على الأوقات والأزمان)(2)

قلت: لو كان الأمر كذلك.. لكـان النـاس كلهم نسـخة واحـدة..

والكيان الإنساني (الروح) هو القـوة المدركـة، وهـو القـوة الـتي تشـعر بـالألم واللـذّة والخوف والسرور والحزن، وهو القوة الناطقة، وما الجسم إلاّ آلـة لتنفيـذ مـآرب النفس، وليست الأجهزة الحسّـية والـدماغ إلاّ أدوات يسـتخدمها الإنسـان (الكيـان الـروحي) لفهم العالم المادي والتعامل معه.

(1) ذكرنا الكثير من الأدلة العلمية المرتبطة بإثبات وجود الروح في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة، وسنرى تفاصيل أخرى لهـا علاقـة بهـذا في رسـالة (البـاحثون عن الله)

(2) ما بين قوسين من كلام الإمام النورسي، وسنرى شرح هذه المعـاني الجليلـة في رسالة (أسرار الإنسان) من هذه السلسلة.

لكانوا كلهم علماء قديسين.

قال: هناك سر في الروح يجعل الناس مختلفين.

قلت: ما هو؟

قال: الإرادة.. والكسب.. والاختيار.. سأقرأ عليك شيئا من القرآن الكريم ربما يجيبك عن سؤالك.. فلا طاقة لعباراتي أن تضاهي عبارات القرآن.. لقد قال الله تعالى يحلل الإنسان ويذكر أسراره : لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (4) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (6) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (16) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (18) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (19) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (20) (البلد)

قرأ محمد هذه الآيات بخشوع عظيم، ثم نظر إلي، وقال: إن هذه الآيات تخبرك عن سر الإنسان.. ومن خلاله تعرف سر الروح.

لقد خلق الله الإنسان في وضع يكابد فيه البحث عن الحياة التي يختارها.. الحياة المادية والحياة المعنوية..

وهو في هذه الحياة وضعت أمامه جميع الأشكال والقوالب ليختار منها ما يتناسب مع هواه وإرادته..

ثم كان من رحمة الله أن بين له النجدين.. نجدي الخير والشر.. ونجدي الحق والباطل.. ليختار من كل ذلك ما يتناسب مع رضاه وإرادته وكسبه.. من غير أن يجبر في ذلك على شيء.

ثم كان من رحمة الله أن هداه إلى السلوك الصحيح الذي ينجيه ويسعده في هذه المحال الصعبة من الاختيار.

قلت: لم كان الأمر كذلك؟

قال: لقد ذكر الله ذلك، فبين أن البشر سيتميزون.. وسيكون

هناك أهل يمين، وسيكون في مقابلهم أهل شمال..

قلت: لم كان الأمر كذلك[1]؟

قال: لقد ذكر الله ذلك، فقال : ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (37)﴾ (الأنفال)

قلت: لكن الناس لو تركوا لأنفسهم فسينحازون لا محالة لأهل الشمال؟

قال: لا.. لقد كان من رحمة الله.. أن عرف الإنسان به قبل أن يعرفه بالأشياء.. لقد قال الله تعالى يذكر ذلك :﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (173) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (174)﴾ (الأعراف)

ولذلك أخبرنا نبينا ﷺ أن دور الدين الذي يتدارك الله به عباده عن طريق رسله وكلماته هو إعادة البشر إلى الفطرة الأصلية التي فطروا عليها.. لقد قال الله تعالى يذكر ذلك :﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم:30)

ففي الآية الكريمة إشارة إلى أن الفطرة الأصلية مستعدة للخير استعدادا جبليا، وأن التغيير الطارئ عليها ليس ناشئا من طبيعتها الخلقية، وإنما نشأ من مؤثرات خارجية اقتضاها التكليف.

وفطرة الإنسان في ذلك تشبه فطر الأشياء المختلفة، فالله تعالى خلق الماء طاهراً مطهراً، فلو ترك على حالته التي خلقه الله عليها ولم يخالطه ما يزيل طهارته لم يزل طاهراً، ولكنه بمخالطة المؤثرات الخارجية من الأنجاس والأقذار تتغير أوصافه ويخرج عن الخلقة التى خلق عليها.

1() ذكرنا التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في رسالة (أسرار الأقدار) من سلسلة (عيون الحقائق)

وقد بينت لنا كلمات الله التي أنزلها على خاتم رسله هذه المؤثرات الخارجية لتفاديها، أو لإصلاح ما أفسدته هذه المؤثرات من الفطرة الأصلة.

وأول هذه المؤثرات كما يخبر رسول الله ﷺ هي المهد الذي ربي فيه الإنسان، كما قال ﷺ:(كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تجدون بها من جدعاء؟)(1)

ومن هذه المؤثرات الشياطين، وهي أخطر المؤثرات، ولذلك اشتد التحذير منه في القرآن الكريم، وإلى هذا المؤثر يشير قوله تعالى حكاية لقول الشيطان: لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ (النساء: من الآية118 ـ 119)

فالشيطان في هاتين الآيتين يتوعد بتغيير الفطرة الأصلية التي فطر عليها البشر، والتي تشمل كل شيء حتى ما يتعلق منها بالجانب الخلقي.

وإلى هذا المؤثر ـ أيضا ـ يشير قوله ﷺ في الحديث القدسي: (قال اللّه عزّ وجلّ: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم)(2)

وليس من المؤثرات الخارجية ـ كما قد يتوهم ـ أن الله تعالى يملي عليه الشر، ويزينه له، فذلك محال على الله تعالى.. فالرحمن الرحيم أرحم بعباده من أن يملي عليهم الشر، أو يدعوهم إليه.

النفس:

قلت: لقد ذكر أساتذتي الدوافع الغريزية التي تسيطر على الإنسان شعر أو لم يشعر؟

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) رواه الطبراني في الكبير.

قال: نحن نسمي ذلك نفسا.

قلت: فما النفس؟

قال: لقد ذكرت لك أن في الإنسان ركنين أساسين: أما أولهما.. فذلك الطين البسيط المتواضع الذي لا يقدر على شيء.. وأما الثاني، فتلك الروح العلوية الطاهرة.. وقد شاء الله أن تنزل تلك الروح العلوية إلى هذه الأرض.. وأن تمتطي هذا الجسد الترابي.. والتراب ـ بحسب سنن الله ـ يحتاج إلى المدد الغذائي الذي يحفظ توازنه.. ولأجل هذه الحاجة ولدت النفس..

قلت: فالنفس هي الجهاز الذي يخدم وجود الإنسان على الأرض إذن؟

قال: أجل..

قلت: قرب لي ذلك لأفهمه.

قال: هل يمكن للسيارة أن تسير بلا وقود؟

قلت: لا.. لا يمكن ذلك.

قال: فالنفس هي التي تخبرك عن حاجتك للوقود، وتدلك عليها.. وهي التي تملأ فمك منها.

قلت: لم أفهم هذا.

قال: لقد خلق الله لجسدك حاجات كثيرة، ولا يتولى هذه الحاجات إلا النفس.

قلت: فكيف تتولاها؟

قال: بأخلاق جبلت عليها تسمونها الغرائز.

قلت: فأنت تتفق إذن مع من يقول بتأثير الدوافع الغريزية..

قال: لقد ذكرت لك أنهم جميعا أبصروا حقائق.. ولكنهم لم يكتفوا بها، بل راحوا يخلطونها بالأوهام والخرافات حتى ملأوها تحريفا.. لعلك تعرف ما يقوله فرويد عن غريزة الجنس؟

قلت: لقد تتلمذت عليه زمنا.. وهو يعتبر غريزة الجنس عاصمة الغرائز..

قال: لا حرج عليه في أن يعتبرها عاصمة الغرائز أو مدينـة من مـدنها.. ولكن الحـرج في أن يفسـر كـل الـدوافع الإنسـانية على أساسها.. ألم يبلغ به الشطط أن فسر الدوافع الداعيـة إلى البحث عن الدين بهذا التفسير؟

قلت: بلى..

قال: فهذه هي المتاهة التي وقع فيهـا.. لقـد خلـط بين الـروح والنفس..

قلت: لقد ذكـرت لي أن الـروح عنـدما تمتطي الجسـد تتحـول إلى نفس؟

قال: لا.. لم أقل إنها تتحول.. وإنمـا قلت لـك: إنهـا تحتـاج إلى جهاز اسمه النفس لتمارس به حياتها على هذه الأرض.. إن حاجتها إلى النفس تعدل حاجتنا إلى اسـتعمال أجهـزة خاصـة إذا أردنـا أن نصعد في الفضاء أو نغوص في أعماق الماء.

قلت: والروح؟

قـال: الـروح هي الإنسـان.. وليس لهـا في الأصـل إلا وجهـة واحده هي الوجهة التي صدرت منها.. فهي لا تزال تحن إليها.

قلت: فكيف تستعمل النفس الغرائز لتحفظ به وجودها؟

قـال: يمكن للعقـل المجـرد المتخلي عن الهـوى أن يكتشـف هذا.. فـالنفس ليسـت بعيـدة عنـا.. ولـذلك يمكن تحليلهـا لمعرفـة الغرائز المرتبطة بها.

سأذكر لك ما قاله علماء المسلمين في هذا.. ولعلهم استفادوا الكثير منه من حكماء الأمم المختلفة:

لقد ذكروا أن الوجود الـدنيوي للإنسـان يتطلب وسـائل خاصـة يتمكن بها الإنسان من السكن على هذه الأرض، كمـا يتطلب رائـد الفضـاء لبـاس خاصـا يتناسـب مـع جـو القمـر، أو أي جـو يريـد أن

يتعامل معه.

واللباس الذي يتناسب مع هذه الأرض، هو هذا الجسد الـترابي، وخصائصه هي نفس خصائص المكونات الحية الموجودة على هذه الأرض، فلذلك صار يفتقر إلى ما يحفظه، وما يدفع عنه الهلاك.

وهـذا الحفـظ والتعهـد يتطلب أعضـاء تجلب الغـذاء وغـيره، وأعضاء تدفع عن النفس الهلاك.

وكل هذه الأعضاء الـتي سـلح بهـا بـدن الإنسـان هي الوسـائل الأساسية لتحقيق متطلبات الوجـود من الغـذاء والـدفاع، بـل ليس هناك جزء من جسد الإنسان لا يقوم بهذا الأمر.

ومع أن أكثر هذه الأعضـاء يقـوم بهـذه الوظـائف تلقائيـا إلا أن أصل الغذاء والدفاع ركب في الجهاز الإرادي للإنسان فتنة وابتلاء.

فركب في الإنسان جهاز الشـهوة الـدافع إلى الغـذاء والحفـاظ على النسل.

كما ركب فيه جهاز الغضب الـدافع إلى الحميـة والحفـاظ على الوجود.

وهذان الجهازان ينتظم تحتهما كل ما تتطلبه النفس من غرائــز الوجود، وهما المستعملان لأعضاء البدن في تحقيق متطلبات هـذه الغرائز.

قال الغزالي يشرح ضرورة هذه الغرائز :(فافتقر لأجــل جلب الغذاء إلى جندين: باطن، وهو الشهوة. وظاهر، وهو اليد والأعضـاء الجالبـة للغـذاء، فخلـق في القلب من الشـهوات مـا احتـاج إليـه، وخلقت الأعضــاء الــتي هي آلات الشــهوات فــافتقر لأجــل دفــع المهلكات إلى جندين: باطن، وهو الغضب الذي به يدفع المهلكـات وينتقم من الأعداء. وظاهر، وهـو اليـد والرجـل اللـتين بهمـا يعمـل بمقتضى الغضب، وكـل ذلـك بـأمور خارجـة؛ فـالجوارح من البـدن كالأسلحة وغيرها)(1)

---

(1) الإحياء:3/5.

والأمر إلى هذا المحل تتفق فيه النفس البشرية مع النفس الحيوانية، وليس هناك أي خصوصية للإنسان في هذه الجوانب، وليس هناك أي مجال للمدح أو الذم لما يتعلق بمتطلبات هذه الغرائز.

وإنما يبدأ التكليف، وينشأ المدح والذم من غريزة أخرى لها علاقة بهذه الغرائز من جهة، ولها علاقة بسر وجود الإنسان من جهة أخرى، فهي بين بين، وعلى أساس هذه الغريزة تتحدد علاقة الإنسان بنفسه.

وهذه الغريزة هي غريزة الإدراك المزودة بأدوات التعرف على العالم الذي نزلت روح الإنسان إليه.

قال الغزالي مبينا وجه الحاجة إلى هذه الغريزة وعلاقتها بما سبقها من غرائز :(ثم المحتاج إلى الغذاء ما لم يعرف الغذاء لم تنفعه شهوة الغذاء وإلفه، فافتقر للمعرفة إلى جندين: باطن، وهو إدراك السمع والبصر والشم واللمس والذوق، وظاهر، وهو العين والأذن والأنف وغيرها)

وزود بالإضافة إلى هذه الحواس بوسائل التعامل مع المعلومات والمدركات، ويمكن إدراكها بسهوله (فإنّ الإنسان بعد رؤية الشيء يغمض عينه فيدرك صورته في نفسه وهو الخيال، ثم تبقى تلك الصورة معه بسبب شيء يحفظه وهو الجند الحافظ، ثم يتفكر فيما حفظه فيركب بعض ذلك إلى البعض، ثم يتذكر ما قد نسيه ويعود إليه، ثم يجمع جملة معاني المحسوسات في خياله بالحس المشترك بين المحسوسات؛ ففي الباطن حس مشترك وتخيل وتفكر وتذكر وحفظ)

فهذه هي الغرائز التي يحفظ بها الإنسان وجوده على هذه الأرض ـ والتي ذكرها علماء المسلمين بناء على دراستهم التحليلية للإنسان ـ وربما استفادوا في ذلك من غيرهم.. ولا حرج عليهم في ذلك.

قلت: ما دام الأمر مفتوحا.. فلم ينكر على العلماء الذين

حاولوا البحث في هذه الغرائز(1) ؟

قال: لأن هذه الغرائز قد تشتط وتنحرف، ويتولـد عن انحرافهـا غرائز شاذة تنحرف بحقيقة الإنسان.. فيأتي هـؤلاء، فيتصـورون أن الشذوذ أصل، وأن الانحراف استقامة..

قلت: فالإنسان مطالب بكبت غرائزه إذن؟

قال: لا.. الإنسان مطالب بالحفاظ على استقامة غرائزه حـتى لا تخرج به عن الفطرة التي فطر عليها..

لقد ذكر الغزالي أمثلة ربما تقرب لك هذا..

لقد ضرب مثـالا عن حقيقـة الإنسـان ــ الـتي هي روحـه وسـر وجوده ـ في بدنه كمثل ملك في مدينته ومملكتـه، فالبـدن مملكـة النفس وعالمهـا ومسـتقرها ومـدينتها، والجـوارح وقواهـا بمنزلـة الصناع والعملة، والقوة العقلية المفكرة كالمشير الناصـح والـوزير العاقـل، والشـهوة كالعبـد يجلب الطعـام إلى المدينـة، والغضـب والحمية كالحرس والشرطة.

أما العبد الجالب للطعام، والذي يمثل الشهوة، فهو كذاب ماكر مخادع، يتمثل بصورة الناصح، وهو في علاقة عداء تـام مـع الـوزير الناصح حتى لا يخلو من منازعته ومعارضته ساعة.

فـإذا كـان الـوالي في مملكتـه مسـتغنياً في تدبــيراته بـوزيره

1() وضع مكدوغل 14 غريزة، أضاف إليها غرائز أخرى، ومن أهمهـا غريـزة المقاتلـة، البحث عن الطعام، التملك، الجنس، الابوة، الراحة، النـوم، وقـد كـان مكـدوغل يعـبر عن هذه الغرائز بالغرائز الفطرية. إلا أن آراءه هذه لقيت بعض النقد، ومن أهم ما وجـه اليهـا من نقد:

1. تنافي اتجاه الغرائز الفطرية مـع الاتجـاه العلمي للبحث، وكونهـا خارجـة عن إطـار السيطرة والتحكم، اذ أن الغريزة من الأمور الانفعالية.

2. التشكيك في عـدد الغرائـز المطروحـة (بين 14 و36) ويصـل العـدد، في رأي وليم جيمس، الى مئة غريزة.

3. يرى علماء الانثروبولوجيـا وعلم الاجتمـاع أن الاختلاف، في سـلوك الإنسـان، يعـود إلى الاختلاف في الثقافة بين مجتمع وآخر، فتنتفي بعض الغرائـز عنـد بعض المجتمعـات، كغريزة المقاتلـة، مثلا، إذ أن بعض المجتمعـات، كـالهنود الحمـر، في كنـدا، يتنـازلون عن الممتلكات تعبيرا عن الفوز بالمعركة، كان تحدي الانسان لدافع التملك دليل على الفوز.

معرضاً عن إشارة هذا العبد الخبيث، أدبه صاحب شرطته، وساسه لوزيره وجعله مؤتمراً له مسلطاً من جهته على هذا العبد الخبيث وأتباعه وأنصاره، حتى يصير العبد مسوساً لا سائساً، ومأموراً مدبَراً لا أميراً مدبِراً.

وفي هذه الحالة يستقيم أمر البلد، وينتظم العدل بسببه.

وهكذا النفس متى استعانت بالعقل، وأدبت بحمية الغضب، وسلطتها على الشهوة، واستعانت بإحداهما على الأخرى تارة بأن تقلل مرتبة الغضب وغلوائه بمخالفة الشهوة واستدراجها، وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها وتقبيح مقتضياتها، اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها.

وينطبق عل من هذا حاله مع نفسه قوله تعالى فيمن لم يخضع لغرائزه : وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41) (النازعات)

أما إن كان خلاف ذلك، وأصبح الحكم في الإنسان هواه وغرائزه، فإنه ينطبق عليه حينها قوله تعالى: أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23)(الجاثية)

إن هذا المثل ينطبق تماما على هذا المثل القرآني الجليل، قال تعالى : وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آَتَيْنَاهُ آَيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (177) (الأعراف).. فقد اعتبر الله من خضع لغرائزه لتسيره كما تشاء كلبا.. أو لا يختلف عن الكلب..

وكذلك هؤلاء الذين يقولون للناس: (إن هذه هي غرائزكم.. فلا تكبتوها..) هم في الحقيقة يرمونهم كل مرة في هاوية من البهيمية يصعب عليهم الخروج منها.

قلت: لم؟

قال: لأن النفس إذا تعودت شيئا أدمنت عليه.. فإذا أدمنت بان لهـا أنـه الأصـل.. ثم يـأتي هـؤلاء المحللـون ليضـموه إلى غرائـز الإنسان.

سكت قليلا، ثم قال: ألا تـرى المـدمنين على المخـدرات كيـف يشق عليهم تركها.. ولو خيرتهم بين تلبيـة غريـزة الطعـام وغريـزة الأفيـون لاختـاروا الأفيـون.. فهـل نـترك لهـؤلاء المحللين المجـال ليفرضوا على الإنسان صاحب الفطرة الأصلية ما يقـع فيـه ضـحايا الغرائز الشاذة؟

سكت، فقال: إن هذه النظرة من الأصول التي تجعل المســلم يشعر بأنه صاحب إرادة.. فلذلك لا يستسلم لغرائزه.. وإنما يهـذبها لتستقيم مع الفطرة السليمة..

لقد ذكر القرآن الكريم أصناف الناس، وتعاملهم مع غرائـزهم.. فذكر الغافلين عن أنفسـهم الـذين توحـد الأنـا فيهم بـالنفس، فلم يدركوا من وظائف وجودهم غـير إرضـاء الشـهوات والغرائـز الـتي وضعت في الأصل لخدمة المطية التي تحملهم، قـال تعـالى : وَلا تَكُونُـوا كَالَّذِينَ نَسُـوا اللَّهَ فَأَنْسَـاهُمْ أَنْفُسَـهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِـقُونَ﴾ (الحشر:19)

والفاسق هو الخارج عن حقيقته المستغرق في شهواته الغافل عن وظيفـة وجـوده، والآيـة تنبـه إلى أن سـر فسـوقه هـو نسـيانه وغفلته عن الله، وفي ذلك إشارة إلى أن معرفة الله هي الأسـاس والمنطلق الذي ينطلق منه من يريد أن يترقى عن حجاب النفس.

وقد سمى القرآن الكريم هذه النفس بالنفس الأمارة بالســوء، قال تعالى : إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)(يوسف: من الآية53)

وهي نفس مطمئنة من جهة اطمئنان صاحبها لما هـو فيـه، فلا تحدثـه نفســه بملامــة أو عتـاب، فهــو راض عن حالــه، قــد كفى الشـيطان هم الوسوســة، وكفى نفســه همــوم الصــراع، فنفســه مستقرة مطمئنة، والقلب مغلف مطبوع.

وفي مقابــل هـــذه النفس نفس أخـــرى، وهي كـــذلك نفس مطمئنــة، لأنهــا استســلمت بعــد جموحهــا، وذلت بعــد كبريائهــا،

فصاحبها في راحة منها، والشيطان لا يجد مجالا ليدخل إليهـا، وقـد عبر القرآن الكريم عنها بالنفس المطمئنة، فقال تعالى : يَا أَيَّتُهَـا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَـادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ (الفجر:29 ـ 30)

وهذه هي نفوس الخلاصـة من عبـاد اللـه من الأنبيـاء والأوليـاء والصالحين، وهي المرحلـة الأخـيرة الـتي تنتهي إليهـا المجاهـدات، وهي المرحلة الأولى التي تبدأ منها المواهب.

ومثــل هــذه النفس كالتربــة الطيبــة الــتي هــذبت وصــفيت وأصـلحت، ثم بـذرت فيهـا البـذور الطيبـة، ولا يبقى لهـا إلا المطـر الذي ينزل عليها، فتبسق أشجارها وتطيب ثمارها.

وبين هاتين النفسين ما يسميه القرآن الكريم بالنفس اللوامـة، قال تعالى : وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة:2)

وهـذه النفس هي الـتي تتعامـل مـع صـاحبها، أو يتعامـل معهـا صاحبها كما يتعامل مع شـخص أجنـبي، فهـو يلومهـا ويعاتبهـا، وقـد يضطر لمعاقبتها ومجاهدتها.

لقد ذكر الإمام بديع الزمان النورسي مثالا مقربا لهذا، فذكر أنه كان في الحرب العالمية الأولى، جنديان اثنان: أحدهما مدرَّب على مهمته مجدّ في واجبه، والآخر جاهل بوظيفته متّبعٌ هواه.

فكان الأول يهتم الاهتمام كله باوامر التدريب وشـؤون الجهـاد، ولم يكن يفكـر قـط بلـوازم معاشـه وأرزاقـه، لإدراكـه أن رعايـة شؤونه وتزويده بالعتاد، بـل حـتى مداواتـه اذا مـرض إنمـا هـو من واجب الدولة، وأما واجبه هو فالتدّرب على امور الجهاد ليس إلاّ.

وهـو مـع هـذا لا يمتنـع من ان يقـوم بشـؤون التجهـيز وبعض الأعمال التي تتطلبها حياته وفي هذه الاثناء لو سُـئل: مـاذا تفعـل؟ لقـال: إنمـا اقـوم ببعض واجبـات الدولـة تطوّعـاً، ولا يجيب: انـني اسعى لأجل كسب لوازم العيش.

أمــا الجنــدي الآخــر، وهــو الجاهــل بواجباتــه فلم يكن يبــالي بالتدريب ولا يهتم بالحرب، بل كان يقول: ذلـك من واجب الدولـة،

وما لي أنا؟! فيشغل نفسه بـامور معيشـته ويلهث وراء الاسـتزادة منها.

قال النورسي معقبا على هذا المثال شارحا له:(أمّـا الجنـديان الاثنان؛ فأحدهما هـو العـارف بالله والعامـل بـالفرائض والمجتنب الكبائر، وهـو ذلـك المسـلم التقي الـذي يجاهـد نفسـه والشـيطان خشية الوقـوع في الخطايـا والـذنوب.. وأمـا الآخـر: فهـو الفاسـق الخاسر الذي يلهث وراء هموم العيش لحد إتهام الـرزاق الحقيقي، ولا يبالي في سبيل الحصول على لقمة العيش أن تفوته الفــرائض وتتعـرض لـه المعاصـي.. وأمـا تلـك التـدريبات والتعليمـات، فهي العبـادة وفي مقـدمتها الصـلاة.. وأمـا تلـك الحـرب فهي مجاهـدة الانسان نفسه وهـواه، واجتنابـه الخطايـا ودنايـا الأخلاق، ومقاومتـه شياطين الجن والأنس، إنقاذاً لقلبه وروحـه معـاً من الهلاك الأبـدي والخسران المبين)

العقل:

قلت: عرفت الـروح والجسـد.. ومـا يتولـد عنهمـا من النفس.. فما العقل(1)؟

قال: هو النافذة التي تطل بها على حقائق الوجود.. وهو النـور الذي تتعرف به على واهب النور.. وهو العقال الـذي ينظم نفسـك لتنسجم مع الكون وتتخلق بأخلاق حقيقتها؟

قلت: هل تقصد ذلك الذي يسكن الجمجمة؟

قال: الجمجمة يسكنها الدماغ.. لا العقـل.. العقـل أشـرف من أن ينحصر في قفص الجمجمة(2).

1() سنتحدث بتفصيل عن العقل في الفصل الخاص به.. وإنما نذكر هنا علاقته بأركان الإنسان.

2() من أحسن الأبحاث العلمية الحديثة الدالة على هذا ما ذكـره أصـحاب (العلم في منظوره الجديد) من أن (ويلدر بنفيلد) (1891-1976م)، وخلال عمليات جراحيـة أجراهـا على أدمغة ما يربـو على ألـف مـريض فى حالـة الـوعى، لاحـظ ملاحظـات مهمـة حـول وظيفة الدماغ تفوق فى حجيتها وكمالها جميع الأدلة غير المباشرة المستفادة من بحـوث أجريت على حيوانات، ومن عمليات جراحية أجريت على أدمغة أشخاص مبنجين.

قلت: فما علاقته بالدماغ؟

قال: العقل يستخدم الدماغ كما يستخدم جميع وسائل الإدراك.. أما هو في ذاته فهو الروح نفسها.. ولا يعرفه إلا من يعرف سر الروح.

قلت: هل تستطيع أن تقرب لي علاقة الروح بالعقل.. وعلاقتهما جميعا بالجسد؟

لقد كان بنفيلد، والذى يعود له الفضل الأول فى إدماج مباحث الأعصاب وفسيولوجيا الأعصاب وجراحة الأعصاب، قد شرع فى بحوثه الرائدة فى الثلاثينات من هذا القرن غير أن الآثار الكاملة المترتبة على اكتشافه لم تتضح إلا حين نشر كتابه المسمى (لغز العقل (the mystery of the mind))

لقد اكتشف بنفيلد عام 1993 بمحض الصدفة أن تنبيه مناطق معينه فى الدماغ بالكهرباء تنبيها خفيفا يحدث استرجاعا فجائيا للذاكرة عند المريض الواعى.

لقد ساورت بنفيلد الشكوك أول الأمر، ثم أخذته الدهشة، فعندما لامس القطب الكهربائى قشرة مخ شاب تذكر هذا الشاب أنه كان جالسا يشاهد لعبة (بيسبول) فى مدينة صغيرة، ويراقب ولدا صغير يزحف تحت السياج، ليلحق بجمهور المتفرجين، وهناك مريضة أخرى سمعت آلات موسيقية تعزف لحنا من الألحان.. قال بنفليد:(أعدت تنبيه الموضع نفسه ثلاثين مرة محاولا تضليلها، وأمليت كل استجابة على كاتبه الاختزال، وكلما أعدت تنبيه الموضع كانت المريضة تسمع اللحن من جديد، وكان اللحن يبدأ فى المكان نفسه، ويستمر من اللازمة إلى مقطع الأغنية، وعندما دندنت، مصاحبة الموسيقا، كان إيقاعها يسير بالسرعة المتوقعة له)

لقد كان المرضى يحسون دائما بالدهشة لتذكر الماضى بمثل هذه التفاصيل الحية، ويفترضون على الفور أن الجراح هو المسؤول عن تنبيه الذاكرة التى ما كانت تتاح لولاه، وكان كل مريض يدرك أن التفاصيل هى من واقع تجاربه الماضية، وكان من الواضح أن الأشياء التى كان قد أولاها عنايته هى وحدها التى أودعها فى محفوظات دماغه.

وكان بنفيلد من وقت لآخر يحذر المريض أنه سينبه دماغه، ولكنه لا يفعل ذلك، وفى مثل هذه الحالات لم يكن المريض يذكر أى ردود فعل إطلاقا.

ثم إن ملامسة المنطقة الخاصة بالنطق فى الدماغ تؤدى إلى فقدان مؤقت للقدرة على الكلام عند المريض، ونظرا لانعدام الإحساس فى الدماغ، فالمريض لا يدرك أنه مصاب بالحبسة إلا عندما يحاول أن يتكلم أو يفهم الكلام، فيعجز عن ذلك، وقد روى بنفيلد ما حدث، فقال : (أخذ أحد مساعدى يعرض على المريض صورة فراشة وضعت القطب الكهربائى حيث كنت أفترض وجود قشرة المخ الخاصة بالنطق، فظل المريض صامتا للحظات، ثم طقطق بأصابعه كما لو كان غاضبا، ثم سحبت القطب، فتكلم فى الحال، وقال : الآن أقدر على الكلام، إنها فراشة لم أكن قادرا على النطق بكلمة (فراشة) فحاولت أن أنطق بكلمة (عثة)

لقد فهم الرجل بعقله الصورة المعروضة على الشاشة،وطلب عقله من مركز الكلام فى دماغه أن ينطق بالكلمة التى تقابل المفهوم المائل فى ذهنه، وهذا يعنى أن آلية

قال: لن تفهم هذا إلا إذا فهمت أدوار العقل.

قلت: فما أدوار العقل؟

قال: دوران.. أما **أولهما**، فهو خدمة الإنسان في هذا الوجـود المؤقت الذي يعيشه.. ودور العقل في هذا أن يستنبط من صنوف الحيل ما تيسر به الحياة.. وهو في ذلك يشبه دور النفس.

وأما **الثاني**، فأن يطـل على الوجـود ليتعـرف من خلالـه على

الكلام ليست متماثلة مع العقل، وإن كانت موجهة منـه، فالكلمـات هى أدوات تعبـير عن الأفكار، ولكنها ليسـت الأفكـار ذاتهـا، وحين عجـز المـريض عن التفـوه بالكلمـة لانسـداد الكلام عنده استغرب، وأمر بالبحث عن اسم شىء مشابه هو (العثه) وعندما فشـل في ذلك أيضـا طقطـق بأصـابعه غضـبا (إذ إن هـذا العمـل الحـركى لا يخضـع لمركـز الكلام)، وأخيرا عندما انفتح مركز الكلام عنـد المـريض شـرح تجربتـه الكاملـة مسـتخدما كلمـات تناسب أفكاره، وقد استنتج بنفيلد أن المريض حصل على كلمـات من آليـة الكلام عنـدما عرض مفاهيم، ونحن نستطيع الاستعاضة عن ضمير الغـائب فى عمليـة الاسـتبطان هـذه بكلمة عقل فعمل العقل ليس عملا آليا)

وهكذا توصل بنفيلد إلى نتائج مماثلة فى مناطق الدماغ الـتى تضـبط الحركـات، قـال: (عندما جعلت أحد المرضـى يحـرك يـده بوضـع القطب على القشـرة الحركيـة فى أحـد نصفى كرة دماغه كنت أسأله مرارا عن ذلك، وكان جوابه على الدوام (أنا لم أحرك يـدى ولكنك أنت الذى حركتها) وعندما أنطقته قال: (أنا لم أخرج هذا الصوت أنت سحبته منى)

لقد لخص بنفيلـد ذلـك بقولـه : (إن القطب الكهربـائي يمكن أن يخلـق عنـد المـريض أحاسيس بسيطة متنوعة، كـأن يجعلـه يـدير رأسـه أو عينيـه أو يحـرك أعضـاءه أو يخـرج أصـواتا، وقـد يعيـد إلى الـذاكرة إحساسـا حيـا بتجـارب ماضـية، أو يوهمـه بـأن التجربـة الحاضرة هى تجربة مألوفة، أو أن الأشياء التى يراها تكبر وتدنو منه، ولكن المريض يظل بمعزل عن كل ذلك، وهو يصدر أحكاما على كل هذه الأمور وربما قال : إن الأشياء تكبر) ولكنه يستطيع مع ذلك أن يمد يده اليسرى، ويقاوم هذه الحركة.

ونتيجة مراقبة مئات المرضى بهذه الطريقة انتهى بنفيلد إلى أن عقـل المـريض الـذي يراقب الموقف بمثل هذه العزلة والطريقة النقدية لا بد من أن يكـون شـيئا آخـر يختلـف كليـا عن فعـل الأعصـاب اللاإرادي، ومـع أن مضـمون الـوعي يتوقـف إلى حـد كبـير على النشاط، فالإدراك نفسه لا يتوقف على ذلك.

وباسـتخدام هـذه الأسـاليب المراقبـة اسـتطاع بنفيلـد أن يرسـم خريطـة كاملـة تـبين مناطق الدماغ المسئولية عن النطق والحركة وجميع الحواس الداخلية والخارجية غير أنه لم يكن في المستطاع تحديد موقع العقل أو الإرادة في أي جزء من الدماغ، فالدماغ هـو مقر الإحساس والـذاكرة والعواطـف والقـدرة على الحركـة، ولكنـه ليس مقـر العقـل أو الإرادة.

لقد أعلن بنفيلد عن نتائج أبحاثه قـائلا : (ليس في قشـرة الـدماغ أي مكـان يسـتطيع التنبيه الكهربائي فيه أن يجعل المريض يعتقد أو يقرر شيئا، والقطب الكهربـائي يسـتطيع أن يثـير الأحاسـيس والـذكريات غـير أنـه لا يقـدر أن يجعـل المـريض يصـطنع القيـاس

رب الوجود.. وحقـائق الوجـود.. وهـذا هـو الـدور الأصـلي للعقـل.. ولهذا ينفي القرآن الكريم العقل على الـذي لم يسـتعمله في هـذا الدور الخطير.. قال تعالى :﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَـرُوا كَمَثَـلِ الَّذِي يَنْعِـقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُـونَ﴾ (البقـرة: 171)، وقال :﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِـأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾ (المائـدة:58)، وقـال :﴿ إِنَّ شَـرَّ الـدَّوَابِّ عِنْـدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ (لأنفـال:22)، وقـال :﴿ أَفَلَمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج:46)

وفي المقابـل يثـني على من اسـتعملوا عقـولهم في رحلـة التعـرف على ربهم.. فيسـميهم ذوي الألبـاب.. فيقـول :﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَـابِ﴾ (آل عمران:190)، وقـال :﴿ أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْـزَلَ مِنَ السَّـمَاءِ مَـاءً فَسَـلَكَهُ يَنَـابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْـرِجُ بِـهِ زَرْعـاً مُخْتَلِفـاً أَلْوَانُـهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامـاً إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَـذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَـابِ﴾ (الزمر:21)، وقال :﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَـابِ مَـا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَـرَى وَلَكِنْ تَصْـدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْـهِ وَتَفْصِـيلَ كُـلِّ شَـيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُـونَ﴾ (يوسـف:111)، وقـال :﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الرعد:19)، وقال :﴿ هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُـوا أَنَّمَـا هُـوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ابراهيم:52)، وقال :﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْـلِ سَـاجِداً وَقَائِمـاً يَحْـذَرُ الْآخِـرَةَ وَيَرْجُـو رَحْمَـةَ رَبِّهِ قُـلْ هَـلْ يَسْـتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُـونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُـونَ إِنَّمَـا يَتَـذَكَّرُ أُولُـو الْأَلْبَـابِ﴾ (الزمر:9)

قلت: وعيت هـذا.. فمـا علاقـة العقـل بـالروح.. ومـا علاقتهمـا بالجسد؟

قال: أما الدور الأول.. فلـه علاقـة كـبرى بالجسـد.. لأنـه مثـل

المنطقى، أو يحـل مسـائل فى الجـبر، بـل إنـه لا يسـتطيع أن يحـدث فى الـذهن أبسـط عناصر الفكر المنطقي، والقطب الكهربائي يستطيع أن يجعـل جسـم المـريض يتحـرك، ولكنه لا يستطيع أن يجعله يريد تحريكه، إنـه لا يسـتطيع أن يكـره الإرادة، فواضـح أذا أن العقـل البشـرى والإرادة البشـرية ليس لهـا أعضـاء جسـدية) (انظـر: العلم في منظـوره الجديد)

النفس لا يستخدم إلا طاقات الجسد.

وأما الثاني، فله علاقة كبرى بالروح السامية.. فلذلك تجده يشف.. فيرى من الحقائق ما لا يستطيع العقل النفساني أن يفهمه.

قلت: والدماغ؟

قال: الدماغ وجميع وسائل الإدراك وسائل للعقل يستخدمها كما تستخدم النفس المعدة في هضم الطعام.. والفم لأكله..

القلب:

قلت: عرفت أن النفس هي البرامج التي تضعها الروح لحفظ البدن.. وأن العقل هو الوسيلة التي تدرك بها الروح العالم.. فما **القلب**؟

قال: هو الوسيلة التي تتفاعل بها الروح مع العالم تفاعلا وجدانيا.

قلت: لم أفهم.

قال: للإنسان مجموعة علاقات بالعالم.. ولكل علاقة اللطائف الخاصة بها.. فعلاقة العقل مع جميع وسائل الإدراك هي التعرف على هذا العالم.. ثم إن هذا التعرف يحدث آثارا من القبول أو الرفض، ومن الحب والبغض، ومن الإذعان ومن الإباق.. والمحل الذي خص بهذا هو ما يسمى (القلب)

قلت: لا نعرف القلب إلا تلك الجارحة التي تضخ الدم إلى الجسم.

قال: لعلها تضخ مع الدم تلك المشاعر.. وليس لعقولنا ولا لأجهزتنا الآن القدرة على إنكار شيء من هذا.. فلا يمكن للعقل أن ينكر ما لم يستطع أن يعرفه (1)..

1() نرى أن العلم بدأ يقترب نحو إثبات علاقة الوعي والمشاعر بالقلب.. ومن أجمل ما قرأنا في هذا البحث مقالا علميا في مجلة اليمامة (العدد 1607).. وهو عبارة عن تحقيق طبي عن آخر اكتشافات العلم الحديث حول وجود عقل في القلب كتبه الدكتور

أما نحن.. فموقنون تماما بما قال لنا ربنا.. لقد قال لنـا : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّـدُورِ﴾ (الحج: 46)، وبما قال رسـول اللـه ﷺ : (ألا وإن في الجســد مضـغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسـد الجسـد كلـه، ألا وهي القلب)(2)

قلت: فما العملية التي يتم بها هذا التفاعل؟

قال: العقل ـ بوسائل إدراكه ــ يعطي معلوماتـه للقلب لينظـر فيها ويتأملها من زاوية نوع التفاعل الـذي يقابلهـا بـه.. والقلب هـو الذي يتفاعل مع المعلومات بحسب توجه صاحبه.

قلت: أليست هذه عملية آلية حتمية؟

قال: لا.. لتوجه صاحبه الذي اختـاره دور كبـير في تحديـد نـوع الأثر الذي يحصل للقلب.. إنه مثل المـاء الـذي يجمعـه صـاحبه من محال مختلفة.. ثم يفكر في السبيل لصـرفه.. فلكـل طريقتـه في ذلك الصرف.

لقــد أشــار القــرآن الكــريم إلى هــذا، فقــال : ﴿ وَجَحَـدُوا بِهَـا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَـةُ الْمُفْسِـدِينَ﴾ (النمل:14).. ففي هذه الآية الإشارة إلى أن هناك ما يمكن إدراكه

فهد العريفي..

قال الدكتور: (تشير بعض البحوث الرائدة التي أجراها بعض العلماء إلى أنه يوجـد (مخ آخر) داخل الأمعاء والقلب يعرف بالجهاز العصبي الداخلي وهو مستقل عن المخ بيـد أنـه يتصل به في الجمجمة وذلك حسب رأي (مايكـل فيرشـون) رئيس قسـم التشـريح وعلم الأحياء الخلوية بكولمبيا.

إن المكـان الـذي تـذهب إليـه كـل تجربـة أو خـبرة هـو القلب لا المخ. في التسـعينات اكتشف علماء (علم القلب العصبي) الحقل الجديد الآخذ في الظهـور، اكتشـفوا عقلاً في القلب يتكون من 400.000 خلية عصبية من مختلف الأنواع إضافة إلى شبكة معقدة من المرسلات العصـبية، البروتينـات، الخلايـا المسـاعدة وتـؤدي عملاً مسـتقلاً عن الـدماغ أو العقل.

وهذا (المخ القلبي) كبير ومتسع تمامـاً كاتسـاع المنـاطق الرئيسـية في المخ (الـدماغ المفكر) ومعقد بالقدر الذي يجعله كالمخ تماماً) إلى آخر المقال.

(2) رواه البخاري ومسلم.

إدراكا تاما ومع ذلك يقابل بالجحود.

قلت: كيف تسمي آلة هذه العملية قلبا.. مـع أن القـرآن ــ من خلال ما قرأت علي من آيات ـ لا يسميه كذلك.

قال: هذه مصطلحات دلت عليها الحقـائق القرآنيـة.. ولا حـرج في المصطلحات.. فنحن نقول في تعابيرنا: (رأيت).. ونقول (رأت عيناي).. فنعبر عن الرؤية بمحلها.. ونعبر عنها بالمجموع.. فالمحـل ليس إلا خادما للمجموع.

قلت: أللقلب كذلك توجهان؟

قال: أجل.. وجهة دنيا.. وهي تشبه دور النفس.. ووجهة عليـا.. وهي تمثل دور الروح من جهة تعاملة مع حقائق الوجود.

فالذي يمتلئ قلبه عشقا للـدنيا ومـا في الـدنيا في الحقيقـة لم يستعمل إلا الجزء الأدنى من قلبه.. أمـا الـذي اسـتغرقته الحقـائق فمال إليها بقلبه ميلا كليا فإنه قد استعمل جهته العليا.

قلت: هـل يمكن الجمـع بينهمـا، بحيث يسـتعمل الإنسـان كلا الوجهتين من غير تناقض ولا صراع؟

قال: أجل.. وذلك هو الكمال.. وقد كان من أدعية رسول الله ﷺ:(اللهم انى أسالك حبك وحب من يحبك والعمـل الـذى يبلغـني حبك، اللهم اجعل حبك أحب الي من نفسي وأهلي والمـاء البـارد) (1)

قلت: لم قال ذلك؟

قال: حتى لا يسيطر الحب الأدنى على الإنسـان، فيشـغله عن الحب الأعلى.

الخلافة:

قلت: أهناك لطائف أخرى للإنسان؟

---

(1) رواه أبو نعيم في الحلية.

قال: أجل.. هناك لطائف كثيرة.. وهي تبرز كـل حين.. إن روح الإنسان منجم ضخم.. ولكنه لا يـبرز لآلئـه وأصـدافه إلا لمن صـدق في البحث عنها.

قلت: فما البحر الذي يغوصه الإنسان حتى يخرج لآلئ روحه؟

قال: الخلافة.

قلت: ما الخلافة؟.. وما علاقتها بإبراز القدرات؟

قال: روح الإنسان بطاقاتها جميعا مثل البـذرة الـتي توضـع في التربة.. فهل يكفيها أن توضع، ثم لا تتعهد بالسقي؟

قلت: إنها بذلك لن تنتج شيئا.. ستبقى بذرة وتموت بذرة.

قال: فالسقي هو الذي يخرج ما تختزنه من الطاقات؟

قلت: أجل.. بالسقي والتعهد تصنع تلك البـذرة جـذورا راسـخة في الأرض.. وهامة عالية في السماء.. وفوق ذلـك قـد تعطينـا من الثمار ما نظل ننعم به.

قال: فهكذا روح الإنسان.. هي بذرة.. وتبقى بذرة إن لم تتعهد بالسقي.

قلت: فما السقي الذي يؤهلها للبروز؟

قال: أصناف الاختبارات والابتلاءات الـتي يواجـه بهـا الإنسـان.. فتبرز من طاقاته في مواجهتها ما يبين أصل بذرته.. هل هي بـــذرة طيبة أم بذرة خبيثة..

قلت: فما الخلافة؟

قال: هذه هي الخلافة.. إنهـا السـلوك الـذي يمارسـه الإنسـان تجاه ما يواجه به من أنواع الابتلاءات والمسؤوليات(1)، ولهـذا لمـا قال الله تعالى للملائكة ـ عليهم السلام ــ: ﴿ وَإِذْ قَـالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَـةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾(البقرة:30) قالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ

(1) سنرى التفاصـيل الكثـيرة المرتبطـة بـأنواع الابتلاء وكيفيـة مواجهتهـا في رسـالة (أسرار الإنسان) من هذه السلسلة.

يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ)(البقرة: من الآية30)

قلت: لم قالوا ذلك؟

قال: لأن الإنسان وضع في موضع حـرج يمكنـه من أن يصـعد إلى أعلى الدرجات.. ويمكنه في نفس الوقت أن ينحط إلى أسفل الدركات.

قلت: لا أزال حـائرا في معـنى الخلافـة.. وفي علاقـة حقيقـة الإنسان بها.

قال: الإنسان مخلـوق كـريم لغايـة رفيعـة.. هـو لم يخلـق كمـا تتوهم الفلسـفات ليأكـل ويشـرب ويسـيطر.. ويمـارس من أنـواع المتع ما يغذي الفراغ الذي تعـاني منـه روحـه، وإنمـا خلـق ليكـون خليفة.. يتولى إدارة الأرض وعمارتها وتطويرها.. وبمـا أنـه خليفـة، فإن ذلك يقتضي أمورا(1):

أولها.. انتماء الجماعة البشرية إلى محور واحـد هـو اللـه، بـدلاً من كل الانتماءات الأخرى، والايمان بسيد واحد للكـون.. وهـذا هـو التوحيد الخالص الذي قام عليه الإسلام.

والثـاني.. إقامـة العلاقـة الاجتماعيـة على أسـاس العبوديـة المخلصة لله، وتحرير الإنسـان من عبوديـات الأسـماء الـتي تمثـل ألوان الاستغلال والجهل والطاغوت.

والثـالث.. تجسـيد روح الأخـوة العامـة في كـل العلاقـات الاجتماعية بعد محو ألوان الاستغلال والتسلط، فما دام الله تعـالى واحداً ولا سيادة إلاّ له، والنـاس جميعـاً عبـاده ومتسـاوون بالنسـبة إليه، فمن الطبيعي أن يكونوا إخوة متكافئين في الكرامة الإنسانيّة والحقوق.

والرابـع.. الخلافـة اسـتئمان، والأمانـة تفـترض المسـؤولية والإحساس بالواجب، اذ بدون ادراك الكـائن أنّـه مسـؤول لا يمكن أن ينهض بأعباء الامانة أو يختار لممارسة دور الخلافة.

---

(1) انظر: خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء، الشهيد آية الله الصدر، ص 11 ـ 12.

والإنسان بهذا المفهوم الذي جاء به الإسلام للخلافة خارج عن أي نوع من أنواع التبعية لأي قوّة اجتماعية أياً كانت، بل هو خاضع لله وحده.. فلا قمية لنسب ولا لون ولا وطن ولا قومية.. ولا أي شيء من هذه الأشياء التي قام عليها التناحر بها بين البشر.

والخلافة بهذا الشكل حركة دائبة نحو قيم الخير والعدل والقوّة.. حركة لا توقف فيها لأنها متجهة نحو المطلق، وأي هدف آخر للحركة سوى المطلق سوف يكون هدفاً محدوداً، وبالتالي سوف يجمد الحركة ويوقف عملية النمو.

قلت: فما الفرق بين هذا الفهم الذي جاء به الإسلام.. وبين سائر المذاهب والأفكار؟

قال: الفروق عظيمة لا يمكن حصرها.. سأضرب لك أمثلة عنها لتدرك سمو التصور الإسلامي، وانحطاط سائر التصورات.

الإسلام يعتبر الإنسان.. كل إنسان.. خليفة لله.. أي انتماء الإنسان الأول لله، فهو الذي خلقه.. ومنه يستمد وجوده، ورزقه، وإليه يتوجه بالعبادة والدعاء.

وهذا الانتماء يجعله يمحو من خاطره وسلوكه كل تلك الانتماءات الضيقة التي تمليها عليها حدود المكان والزمان والمصالح.

ولهذا.. فهو يشعر بأخوة تنتظم جميع الكون.. ولا تنحصر في البقع الضيقة التي ولد فيها، أو انتسب إليها.

قارن هذا المفهوم الذي ينطلق من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13) ﴾(الحجرات) بجميع المفاهيم العنصرية التي تفوح من الأديان والمذاهب والحضارات..

إن القوميات والشعوب والقبائل والآباء والأنساب التي ابتعد بها الإنسان عن الانتماء لله.. كما يعنيه مفهوم الخلافة.. هو الذي صدر مع صداه الضارب في أحقاب التاريخ أكثر الحروب، وأبشع العصبيات، وأرذل الجرائم الإنسانية.

قلت: أللخلافة كذلك جهتان؟

قال: أجل.. جهة إلى الله تستدعي التسليم له ومحبته وطاعته المطلقة، وجهة إلى الخق تستدعي التعامل معهم وفق ما يقتضيه العدل والرحمة، وقد ذكر القرآن الجهة الثانية، فقال عن داود: ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ (صّ:26)

قلت: لقد كان داود حاكما، وليس كل الناس كذلك؟

قال: كل إنسان له حكم يرتبط به.. لقد ذكر رسول الله ﷺ ذلك فقال:« كلكم مسئول عن رعيته، فالامام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته، وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته »[1]

العبودية:

قلت: وعيت كل هذا.. وأدركت مدى تناسقه.. لكني لم أفهم إلى الآن الغاية العليا للإنسان.

قال: لقد عبر القرآن الكريم عن هذه الغاية، فقال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذريات:56)

قلت: فما العبودية؟

قال: هي استعمال كل اللطائف في التوجه إلى الله ومعرفته ومحبته..

قلت: لم أفهم.

قال: لكل ما عرفنا من لطائف الإنسان عبوديته الخاصة به.. فللجسد عبوديته.. وللنفس كذلك.. وهكذا.. ولهذا تجد عبادات

---

[1] () البخاري ومسلم.

المسلمين عبادات تجمـع كـل ذلـك.. فهي جسـدية نفسـية عقليـة قلبية روحية..

قلت: أهـذه هي الغايـة عنـدكم.. أن يصـير الإنسـان عبـدا.. إن الغايـة الـتي وصـل إليهـا قـومي هي أن يتحـرر الإنسـان من كـل القيود.. ابتداء من قيود الإله.. ألم تسمع بما صاح به نيتشة؟

ابتسم، وقال: لقد أوقعهم غرورهم هذا في عبودية كل شيء.. عبدوا بطونهم.. وعبدوا جاههم.. وعبدوا سلطانهم وشهواتهم.. لقـد صاروا عبيد لكل شيء.

قلت: وعابد الله؟

قـال: عبـادة اللـه هي العبـادة الـتي تحـررك من كـل الأشـياء لتجعلــك متنعمــا بالتوجــه إلى ربــك، والاســتغراق في مشــاهدته والتعرف عليه.

قلت: كلامك جميل.. لكنه يصـعب علي إدراكـه.. ولسـت أدري ما سبب ذلك؟

قـال: هـذه المعـاني الجليلـة تحتـاج نوعـا من الرياضـة.. ولن يفهمها إلا من مارس تلك الرياضة..

قلت: فهل تأذن لي بصحبتك لتعلمني كيف أمارس هذه الأنـواع من الرياضة(1)؟

قال: ليتني كنت أستطيع ذلك.

قلت: ولم لا تسـتطيع.. هــا أنت بين غنيماتــك.. لا تخــف.. لن أشغلك كثيرا عنها؟

قال: أنا لا أخاف على هذه الغنيمات.. بل أخـاف على غنيمـات أخرى تريد نيران الفتنة أن تستأصلها.. فأنا أفكر فيها صباح مساء.

قلت: هل تريد أن ترحل إليها؟

---

(1) ذكرنا تفاصيل الرياضات السـلوكية وأنواعهـا والتوفيـق بينهـا في رسـالة (أسـرار الإنسان).. وسنرى بعض ذلك في هذه الرسالة في فصل (النفس)

قـال: لسـت أدري.. لكن إذا أتيت إلى هنـا مـرة أخـرى، ولم تجدني فهذا يعني أني قد ذهبت إلى تلك الغنيمات.

قلت: وهذه الغنيمات لمن تتركها؟

قـال: لا تخـف على هـذه الغنيمـات.. فمـا أسـهل أن تجـد لهـا راعيا.

***

قال ذلك، ثم اسـتغرق في صـمت عميـق، فسـألناه: مـا الـذي حصل بعد ذلك.. هل عدت فزرته في اليوم الثاني؟

قال: في تلك الليلة بت ممتلئا بالأشواق لتلـك الرياضـات الـتي تصفي لطائفي ممـا علـق بهـا من أدران.. وفي الصـباح البـاكر لم يكن لي هم إلا أن أصـعد للجبـل لأبحث عن ذلـك الـراعي الـذي كشف لي من حقائق ذاتي ما عجز عنه جميع أساتذة العالم.

قلنا: فهل وجدته؟

قال: لا.. ولو وجدته ما كنت الآن بينكم.

قلنا: فأين ذهب؟

قال: بعد أن سألت الكل.. ويئست من أن يدلني أحد.. تذكرت ما قال لي عن شأن الغنيمات، والفتنـة الـتي تريـد أن تستأصـلها.. فرحت أبحث في المحـال المختلفـة عن هـذا، فـأطبق الكـل على دلالتي على هذه البلاد، فجئت إليها، وهـا أنـا الآن بينكم.. وقـد قـدر الله أن يكـون سـبب نجـاتي هم أنفسـهم سـبب هلاكي.. وهـذا مـا ملأني بالحيرة والعجب.

الثاني ـ القلب

في اليوم الثاني، قام رجل منا، وقال: سأحدثكم اليـوم أنـا عن حديثي.. اعذروني، لقد كنت مثل من سبقني أحمـل أسـماء كثـيرة مستعارة، كنت أحاول بها أن أغطي حقيقتي التي كانت تعذبني كل حين.. لكن حقيقـتي أبت إلا أن تتمـرد علي، وتـذيقني في تمردهـا من الهوان ما لم أكن أحسب له أي حساب.

ليست بهذه المأسـاوية تنتهي قصـتي.. هنـاك جـوانت مشـرقة ممتلئـة بـالنور والسـلام والصـفاء، لعـل حيـاتي كلهـا كـانت تسـير نحوها.. ولعلي لم أسر نحو هذه البلاد إلا بحثا عنها.

قلنا: من أي البلاد أنت؟

قال: أنا من بلاد العرب.. ومن قبيلة فيها يقال لها (بنو عـذرة).. وهم قوم لم يعيشوا إلا بقلـوبهم ولقلـوبهم.. ولكـني لم يسـتقر بي المقام بها إلا قليلا، فقد جبت المشرق والمغرب.

قلنا: لم؟

قــال: ألم أقــل لكم إني من قــوم لا يعيشــون إلا بقلــوبهم ولقلوبهم؟

قلنـا: كلنـا كـذلك.. بـل كـل البشـر كـذلك.. فلا يمكن لأحـد أن يعيش بدون قلب.

قال: ما أكثر من يهيل على قلبه التراب.. وما أكـثر من يسـجن قلبه.. وما أكثر من يضيع قلبه، فيصير عضوا ضـامرا.. حيـا كميت.. أو ميتا كحي.

قلنا: وأنتم؟

قال: أما نحن، فقد اعتبرنا قلوبنـا، والـتي هي محـل عواطفنـا، أساس وجودنا، فلذلك لم ننشغل عنها بأي شاغل.

قلنا: فحدثنا حديثك.

الصراع

نظر إلى الأفق البعيد، وهو مشدوه، وراح يقول: في تلك الأيـام التي ولدت فيها ببني عذرة لم أكن أسمع إلا أحاديث الحب.. كـانت المجالس تردد كل حين:

هل العيش إلا أن تروح وتغتدي ... وأنت بكأس العشق في الناس نشوان

وكان أساتذتنا الذين تربينا على أيديهم يحفظوننا قول الشاعر:

وما طابت الدنيا بغير محبة ... وأي نعيم لامرئ غير عاشق

بل كانوا يقولون لمن رأوه مجادلا في هذا:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى ... فأنت وعير في الفلاة سواء

ويقولون له:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى ... فكن حجرا من يابس الصخر جلمدا

بل كان الأمر يصل أحيانا إلى سبه ببذيء الكلام، فيقولون:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى ... فقم فاعتلف تبنا فأنت حمار

بل كانوا فوق ذلك كله يعتبرون الحب هو الدين الذي يغني عن كل دين، ولا يغني عنه أي دين، ويقولون في ذلك متغنين:

ما دنت بالحب إلا   والحب دين الكرام

ولذلك، فإن الأخلاق عندهم تنطلق من الحب، وقد قال في ذلك شاعرهم:

وما أحببتها فحشا ولكن   رأيت الحب أخلاق الكرام

وهم يعتبرونه مع ذلك الدنيا التي لا تغني عنها أي دنيا، ويقولون:

إن الغواني جنة ريحانها   نضر الحياة فأين عنها نعزف

لولا ملاحتهن ما كانت لنا   دنيا نلذ بها ولا نتصرف

أما علماء النفس والاجتماع، فكانوا يصفون لنا في محاضراتهم العلمية المملوءة بالأرقام والمصطلحات الحب على أنه (فضيلة تنتج الحيلة، وتشجع الجبان، وتسخي كف البخيل، وتصفي ذهن الغبي، وتطلق بالشعر لسان العجم، وتبعث حزم العاجز وهو عزيز يدل له عز الملوك، وتضرع له صولة الشجاع، وهو داعية الأدب وأول باب تفتق به الأذهان والفطن، وتستخرج به دقائق المكايد والحيل، وإليه تستريح الهمم وتسكن نوافر الأخلاق والشيم، يمتع جليسه ويؤنس أليفه وله سرور يجول في النفوس وفرح يسكن في القلوب)(1)

ويذكرون لنا أن (أرواح العشاق عطرة لطيفة، وأبدانهم ضعيفة، وأرواحهم بطيئة الانقياد لمن قادها، حاشي سكنها الذي سكنت إليه، وعقدت حبها عليه.. وكلام العشاق ومنادمتهم تزيد في العقول، وتحرك النفوس، وتطرب الأرواح، وتجلب الأفراح، وتشوق إلى مسامع أخبارهم الملوك فمن دونهم.. ويكفي العاشق المسكين الذي لم يذكر مع الملوك ومع الشجعان الأبطال أنه يعشق ويشتهر بالعشق فيذكر في مجالس الملوك والخلفاء فمن

(1) هذه النصوص منقولة من ديوان الصبابة، لابن أبي حجلة.

دونهم، تدور أخباره، وتروى أشعاره، ويبقى له العشق ذكراً مخلداً، ولولا العشق لم يذكر له اسم، ولا جرى له رسم، ولا رفع له رأس، ولا ذكر مع الناس)

ويذكرون أن أبا نوفل سئل: هل سلم أحد من العشق؟ فقال: (نعم.. الجلف الجافي الذي ليس له فضل، ولا عنده فهم، فأما من في طبعه أدنى ظرف، أو معه دمائة أهل الحجاز، وظرف أهل العراق، فلا يسلم منه)

ويذكرون عن بعضهم قوله:(لا يخلو أحد من صبوة إلا أن يكون جافي الخلقة، ناقصاً، أو منقوص البنية، أو على خلاف تركيب الاعتدال)

ويذكرون عن بعض العلماء أنه قيل له: إن ابنك قد عشق، فقال:(الحمد لله، الآن وقت حواشيه، ولطفت معانيه، وملحت إشاراته، وظرفت حركاته، وحسنت عباراته، وجادت رسائله، وجلت شمائله، فواظب على المليح، واجتنب القبيح)

أما رواتهم وقصاصوهم، فكانوا يذكرون لنا القصص والأساطير التي تؤيد هذه الرؤى، وتعمق هذه الأفكار، فيحكون لنا عن شيخ بخراسان له أدب وحسن معرفة بالأمور، أنه قال لسليمان بن عمرو ومن معه: أنتم أدباء، وقد سمعتم الحكمة ولكم حداء ونغم فهل فيكم عاشق؟ قال: لا قال: اعشقوا.. فإن العشق يطلق اللسان، ويفتح جبلة البليد والبخيل، ويبعث على التلطف وتحسين اللباس وتطييب المطعم ويدعو إلى الحركة والذكاء وتشريف الهمة.

ويروون لنا من كرامات المحبين أن ليلى الأخيلية مرت مع زوجها بقبر توبة بن الحمير، فقال لها: هذا قبر الكذاب الذي قال:

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت   علي ودوني جندل وصفائح

لسلمت تسليم البشاشة أو زقا إليها صدى من جانب القبر صائح

فقالت: دعه، فقال: أقسمت عليك إلا ما دنوت منه، فسلمت عليه، فأبت فكرر عليها ذلك، فلما تقدمت إلى القبر، وقالت: السلام عليك يا توبة.. فطار من جانب القبر طائر كان هناك، وزقا، ونفر منه جمل ليلى، فوقعت من أعلاه، فاندقت عنقها، وماتت من وقتها، ودفنت إلى جانب توبة.

ويحكون لنا من أمر بهرام جور ما جعله نبينا الذي نتلقى منه كل الحقائق.

قلنا: من بهرام جور؟

قال: رجل كان له ابن قد رشحه للأمر من بعده، فنشأ الفتى ناقص الهمة ساقط المروءة خامل النفس مسيء الأدب، فغم ذلك أباه فوكل به من المؤدبين والمنجمين والحكماء من يلازمه ويعلمه، وكان يسألهم عنه فيحكون له ما يغمه من سوء فهمه وقلة أدبه إلى أن سأل بعض مؤدبيه يوما، فقال له المؤدب: قد كنا نخاف سوء أدبه، فحدث من أمره ما صيرنا إلى الرجاء في فلاحه، قال: وما ذاك الذي حدث؟ قال: رأى ابنة فلان المرزبان، فعشقها، فغلبت عليه فهو لا يهدأ إلا بها ولا يتشاغل إلا بها. فقال بهرام: الآن رجوت فلاحه، ثم دعا بأبي الجارية، فقال له: إني مسر إليك سرا، فلا يعدوك فضمن له ستره، فأعلمه ان ابنه قد عشق ابنته، وأنه يريد أن ينكحها إياه، وأمره أن يأمرها بإطماعه في نفسها ومراسلته من غير أن يراها وتقع عينه عليها، فإذا استحكم طمعه فيها تجتنبه وهجرته، فإن استعلمها علمته أنها لا تصلح إلا لملك، ثم لتعلمني خبرها وخبره ولا تطلعهما على ما أسره إليك، فقبل أبوها ذلك منه، ثم قال للمؤدب والموكل بأدبه حضه وشجعه على مراسلة المرأة، ففعل ذلك وفعلت المرأة كما أمرها أبوها، فلما

انتهت إلى التجني عليه، وعلم الفتى السبب الذي كرهته لأجله أخذ في الأدب وطلب الحكمة والعلم والفروسية والرماية وضرب الصولجان حتى مهر في ذلك، ثم رفع إلى أبيه أنه محتاج إلى الدواب والآلات والمطاعم والملابس والندماء وما أشبه ذلك، فسر الملك بذلك وأمر له بما طلب، ثم دعا مؤدبه فقال له: إن الموضع الذي وضع به ابني نفسه من خبر هذه المرأة لا يدري به فتقدم إليه وأمره أن يرفع أمرها إلي ويسألني أن أزوجه إياها، ففعل المؤدب ذلك، فرفع الفتى ذلك لأبيه فدعا بأبيها وزوجه إياها، وأمر بتعجيلها إليه، وقال: إذا اجتمعت أنت وهي فلا تحدث شيئا حتى أصير إليك، فلما اجتمعا صار إليه فقال: يا بني لا يضعن قدرها عندك مراسلتها إياك وليست في خبائك فإني أمرتها بذلك، وهي أعظم الناس منة عليك بما دعتك إليه من طلب الحكمة والتخلق بأخلاق الملوك حتى بلغت الحد الذي تصلح معه للملك من بعدي، فزدها من التشريف والإكرام بقدر ما تستحق منك، ففعل الفتى وعاش مسرورا بالجارية وعاش أبوه مسرورا به وأحسن ثواب أبيها ورفع منزلته لصيانه سره وأحسن جائزة المؤدب لامتثال ما أمر به.

قلنا: فما كان تأثير هذه التوجيهات عليكم؟

قال: لقد صار كل من في تلك القبيلة يصيح بقول الشاعر:

تشكى المحبون الصبابة ليتني ... تحملت ما يلقون من بينهم وحدي

فكانت لقلبي لذة الحب كلها ... فلم يلقها قبلي محب ولا بعدي

وبقول الآخر:

وددت بأن الحب يجمع كله ... فيقذف في قلبي وينفلق الصدر

لا ينقضـي مـا في فـؤادي من الهـــــــــــــــوى ومن فـــــرحي بــــالحب أو ينقضـــــــــــــــي العمر

وبقول الآخر:

ومــا ســرني أني خلى من الهـــــــــــــــوى ولــو أن لي مــا بين شــرق ومغـــــــــــــــرب

قلنا: نرى أن كل ما ذكرته يكاد يكون سليما لا حـرج فيـه.. فلم نر مثل الحب عاطفة نبيلة؟

قـال: صـدقتم.. ولكن القبلـة الـتي وجهنـا إليهـا قومنـا ملأتنـا بالصراع.. فلم نكن نشعر في لحظة من حياتنا بالسلام الـذي عمـر الله به كونه.. لقد كانت حياة كل منا في يد محبوبه الذي سلم إليه أمره يجرعه من الهوان ما لا يذيقه أعتى الطغاة لأعتى المجرمين.

قلنا: أكنتم تتألمون؟

قال: كلنا كان يتـألم.. ومنـا من مـات بسـبب ألمـه.. لقـد قـال المتنبي يذكر ذلك:

وعذلت أهـل العشـق حـتى ذقته فعجبت كيـف يمـوت من لا يعشق

ليس الموت وحده ما يلقاه العاشـقون.. فـالموت يسـتوي فيـه كل الناس.. إن الأمر أخطر من ذلك بكثير.

لقد قال لي بعض من بلي بهذه البلية منشدا:

ومـا عاقـل في النـاس يحمـد أمـــــــــره ويــــــــــذكر إلا وهــــــــو في الحب أحمق

ومـــا من فـــتى ذاق بـــؤس من الناس إلا ذاقها حين يعشق

معيشة

وسمعت بعضهم ينشد بلوعة دونها كل لوعة:

فيبكي إن نـأوا شـوقا إليهم ويبكي إن دنوا حذر الفـراق

ومـا في الأرض أشـقى من محب وإن وجد الهوى حلو المذاق

تــراه باكيــا في كــل حين مخافــة فرقــة أو لاشــتياق

وسمعت آخر ينشد، وأنا في أول رحلتي للبحث عن حـبيب يملأ قلبي:

شـكوتُ فقـالتْ: كـل هـذا تبرمـاً بحــبي أراحَ اللّــه قلبــكَ من حــبي

فلمـــا كَتَمْتُ الحبَّ قـــالَتْ لشَـــدَّ ما ضرتَ وما هـذا بفعـلِ شَـجَى القَلْبِ

فأدنو فتقصيني فأُبعد طالباً رضاها فتَعْتَدُّ التباعدَ من ذنبي

فشَــكْوايَ تُؤْذيهــا وصَــبْري يســوؤها وتجـزعُ من بُعـدي وتنفـرُ من قـــربي

فيـا قـومي هـل من حيلـةٍ تعرفونها أشيروا بها واستوجِبوا الشكرَ من ربي

وسمعت آخر ينشد، وهو يتمرغ في التراب والقمامات:

قـــالوا جننت بمن تهـــوى فقلت لهم العشـــق أعظم ممـــا بالمجـــانين

العشـق لا يسـتفيق الـدهر وإنمـا يصـرع المجنـون في

صـــــــــــــــــاحبه الحين

وسمعت آخر ينشد، وهو كالذي أعماه السـكر، فصـار لا يفـرق بين السماء والأرض:

ويح المحــبين مــا أشــقى نفوســــــــــــــهم
إن كــان مثـــل الـــذي بي بالمحبينا

يشـــقون في هـــذه الـــدنيا بعشـــــــــــــقهم
لا يرزقــون بــه دنيــا ولا دينا

وسمعت آخر ينشد:

قرين الحب يأنس بــالهموم
ويكثر فكرة القلب السـقيم

وأعظم ما يكون به اغتباطا
على خطــر ومطلــع عظيم

وسمعت آخر ينشد:

أما الهوى فهو العذاب فــإن جـــــــــــــــرت
فيه النوى فأليم كل عــذاب

قلنا: فهل صرفك هذا عن رحلة القلب التي أردت القيام بها؟

قال: لا.. لقد جاء من ينسخ لي كل هذا.. لقد وجـدت رجلا كـان صديقا لي، وكان اسمه (جميل)، وقد قال لي يرد على من يريد أن يصرفني عن رحلتي:

وقــالَ أنــاسٌ إِن في الحبِّ ذلـــــــــــــــــةً
تنقِّصُ من قَــــدْرِ الفــــتى وتخفضُ

فقلتُ صدقتمْ غــير أن أخــا الهــــــــــــــوى
لذلِ الهوى مســتعذبٌ ليس يبغضُ

لكن رجلا كان ممتلئا بالحكمة ناداني، وقال لي:(يـا بـني.. أنت تريـد أن تقـوم برحلـة لن تورثـك إلا الهم الـدائم، والفكـر اللازم، والوسواس والأرق، وقلة المطعم، وكثرة السـهر، ثم تتسـلط على جوارحـك فتنشـأ الصـفرة في البـدن، والرعـدة في الأطـراف، واللجلجة في اللسان، والنحول في الجسد، فالرأي عاطل، والقلب غـائب عن تـدبير مصـلحته، والـدموع هواطـل، والحسـرات تتـابع، والزفرت تتوالى، والأنفاس لا تمتد، والأحشاء تضطرم، فإذا غشـى على القلب إغشاء تاما، أخرجت إلى الجنون، وما أقربـه حينئـذ من التلف)

قلنا: فهل انتصحت لنصيحته؟

قال: لو انتصحت لنصـيحته لانتهت قصـتي هنـا.. ولمـا ذقت مـا ذقت من الذلة والهوان والجنون وكل أصناف الصراع..

قلنا: فحدثنا عن رحلتك.

قال: لقد كـان أول من مـررت بـه في رحلـتي رجـل يقـال لـه عروة بن حزام.. كان معي حينها رفيق يقال له ابن مكحول، وكـان عراف اليمامة، فرأينا عروة.. وهو أحد زملائي الذين تلقوا ما تلقينا من تربية وتوجيه.. جلسنا عنده؛ وسألناه عما به؛ وهل هـو خبـل أو جنون؟ فقال لابن مكحول: ألك علم بالأوجـاع؟. قـال: نعم؛ فأنشـأ يقول:

وما بي من خبل ولا بي جنة	ولكن عمي يـا أخي كـذوب
أقول لعراف اليمامة داوني	فإنـك إن داويتـني لطـبيب
فوا كبدا أمست رفاتـاً كأنما	يلـذعها بالموقـدات طـبيب
عشية لا عفراء منك بعيـدة	فتسـلو ولا عفـراء منـك قـريب

عشـــية لا خلفي مكـــر ولا الهـــــــــــــــوى ... أمـــامي ولا يهـــوى هـــواي غـــــــــــــــريب

فواللــه لا أنســاك مــا هبت الصـــــــــــــــبا ... ومـــا عقبتهـــا في الريـــاح جنـــــــــــــــوب

وإني لتغشاني لذكراك هزة ... لهـــا بين جلـــدي والعظـــام دبيب

ثم أخـذ يهيـل الـتراب على جسـده، وهـو ينشـد، والـدموع تملأ مقلته:

خليلي من عليـــــا هلال بن عـــــــــــــــامر ... بصـــــنعاء عوجـــــاء اليــــوم واتنظـــــــــــــــراني

ولا تزهدا في الذخر عنـــدي وأجملا ... فإنكمـــا بي اليـــوم مبتليـــان

ألما على عفراء إنكما غـــداً ... بوشــــك النـــــوى والــــبين معترفـــــــــــــــان

فيـا واشـيا عفـراء ويحكمـا بمن ... وما وإلى من جئتما تشـــيان

بمن لـــو أراه عانيـــاً لفديته ... ومن لو رآني عانيـاً لفـداني

مـــتى تكشـــفان عـــني القميص تبينا ... بي الضـــر من عفـــراء يـــا فتيـــــــــــــــان

إذن تريا لحماً قليلاً وأعظماً ... بلين وقلبـــاً دائم الخفقـــان

وقد تركتني لا أعي لمحدث ... حـــديثاً وإن ناجيتـــه ونجـــاني

جعلت لعراف اليمامة حكمه ... وعراف حجر إن هما شفياني

فما تركا من حيلة يعرفانها ... ولا شربة إلا وقد سقياني

ورشا على وجهي من الماء ساعة ... وقاما مع الواد يبتدران

وقالا: شفاك الله والله مالنا ... بما ضمنت منك الضلوع يدان

فويلي على عفراء ويلاً كأنه ... على الصدر والأحشاء حد سنان

أحب ابنة العذري حباً وإن نأت ... ودانيت فيها غير ما متداني

إذا رام قلبي هجرها حال دونه ... شفيعان من قلبي لها جدلان

إذا قلت: لا، قالا: بلى، ثم أصبحا ... جميعاً على الرأي الذي يريان

تحملت من عفراء ما ليس لي به ... ولا للجبال الراسيات يدان

فيا رب أنت المستعان على الذي ... تحملت من عفراء منذ زمان

كأن قطاة علقت بجناحها ... على كبدي من شدة الخفقان

قال ذلك.. ثم انخفض صوته بعدها بأبيات لم نتبينها، ثم مات

بعدها، وفي قلبه من الغصص ما لا يعلمه إلا الله..

وقد مكثنا مدة في ذلك المحل نرقب ما يحصل.. ثم سرنا، وبينما نحن في بعض الطريق إذ رأينا عفراء تسرع إلينا، وهي تردد:

ألا أيها الركب المخبون ويحكم — بحق نعيتم عروة بن حزام

فلا تهنأ الفتيان بعدك لذة — ولا رجعوا من غيبة بسلام

وقل للحبالى: لا ترجين غائباً — ولا فرحات بعده بغلام

ولم تزل تردد هذه الأبيات وتندبه بها، حتى ماتت.. فدفناها، وسرنا..

ما سرنا إلا قليلا حتى رأينا رجلا على فراش الموت، وهو ينشد:

عند قيس من حب لبنى ولبنى — داء قيس والحب صعب شديد

فإذا عادني العوائد يوماً — قالت العين لا أرى من أريد

ليت لبنى تعودني ثم أقضي — أنها لا تعود فيمن يعود

ويح قيس لقد تضمن منها — داء خبل فالقلب منه عميد

فقال له صاحبي الطبيب: منذ كم هذه العلة بك؟ ومنذ كم وجدت بهذه المرأة؟ ما وجدت؟ فقال منشدا بصوت تنفطر له القلوب:

تعلق روحي روحها قبل خلقنا — وليس إذا متنا بمنفصم العقد

فزاد كما زدنا وأصـبح ناميـاً وليس إذا متنا بمنصم المهد

ولكنه باق على كـل حـادث وزائـرتي في ظلمـة القـبر واللحد

فقال له صاحبي: إنما يسليك عنها تذكر ما فيهـا من المسـاوي والمعايب وما تعافـه النفس، فنظـر إليـه نظـرة اللائم المـؤنب، ثم أعرض عنه، وهو ينشد:

إذا عبتهـا شـبهتها البـدر طالعـاً وحسبك من عيب لها شـبه البـدر

لقـد فضـلت لبـنى على النـاس مثـل ما على ألف شهر فضلت ليلة القـدر

إذا مـا شـئت شـبراً من الأرض أرجفت من البهر حتى ما تزيد على شـبر

وبقي هكذا يردد الأشعار، ويبكي إلى أن فاضت روحه، فواريناه التراب..

***

ثم سرنا في تلك البرية الممتلئة بضحايا الحب المـدنس.. وفي الطريق رأينا مجنونا يهيل التراب على رأسـه، والصـبية مجتمعـون حوله يضحكون، وهو يردد:

قـالت جننت على أيش فقلت لها الحب أعظم مما بالمجانين

الحب ليس يفيـق الـدهر صـاحبه وإنمـا يصـرع المجنـون في الحين

ثم يردد، وهو يبكي:

وبي من هـوى ليلى الـذي لـو أبثه | جماعـــة أعـــدائي بكت لي عيونها
أرى النفس عن ليلى أبت أن تطيعـــــــــــــــــــــني | فقـد جن من وجـدي بليلى جنونها

ثم يردد، وهو يضحك:

يقــول أنــاسٌ عــل مجنــون عـــــــــــــــــــــــامرٍ يروم سلواً قلت أنى لما بيا

وقــد لامــني في حب ليلى أقــــــــــــــــــــاربي أخي وابن عمي وابن خالي وخاليا

يقولـــون ليلى أهـــل بيت عـــــــــــــــــــــــداوةٍ بنفســـي ليلى من عـــدو وماليا

ولو كان في ليلى شــذاً من خصــــــــــــــــــومةٍ   للـــــويت أعنـــــاق المطي الملاويا

بينمـا نحن كـذلك إذ جـاء رجـل، وصـاح بقـوة (ليلى)، فرأينـا المجنون يفطن، ويعود إليه من عقله مـا زال عنـه، فسـألنا الرجـل عن سـر ذلـك، فقـال: هكـذا المحبـون.. لا يـرون من الـدنيا إلا من سلموا قلوبهم له.. فإذا غاب عنهم، ذهبت عقولهم(1).

قلنا: أين؟

---

(1) ربما يتوهم أن هذه حوداث نـادرة، وأنهـا كـانت مرتبطـة بـذلك الزمـان دون هـذا الزمان، وهذا خطأ كبير، وقد سئل أحد الأطبـاء النفسـانيين – ضـمن تحقيـق أجـراه بعض الصحفيين - : هل من الممكن أن للحبّ مجانين في نهاية القرن العشرين؟

فأجـاب : هـذا سـؤال طريـف، ولكنـه على طرافتـه – سـؤال مطـروح في كـل زمـان ومكـان، ففي عصـرنا الحـالي، الموصـوف بأنـه عصـر الماديـة، يمكن أن تـؤدي الصـدمة العاطفية إلي العيادة النفسية، ولقد عُرِضتْ علي حـالات مرضـية كثـيرة، كـان الحبّ هـو السبب الرئيس لها، والعامل الأكثر تأثيراً فيها)

وقد قام بعض الصحفيين بزيارة لإحدى المصحات النفسية، ووقفوا على بعض الحالات من ضحايا الحبّ الموهوم، منها حالة شاب كانت ابنة عمه هي السبب في تـدهور عقلـه، ووصوله إلى حافة الجنون، ولما سُئل طبيبه المعالج عن سـبب وصـوله إلى تلـك الحالـة، أجاب بأنها قصة طويلة ومعقدة، خلاصتها أن هذا الشاب (أحبّ) ابنة عمه الذي كان على خلاف مع أخيه والد هذا الشاب، وكـانت الفتـاة على علم بهـذا الخلاف، فـأرادت الانتقـام لأبيها في شخص ابن عمها، فأوهمته بحبها له، حـتى إذا مـا جـاء اليـوم الموعـود للـزواج، رفضته، وتزوجت بغيره، فصُدم هذا الشاب، ووقع فيما يشبه الفصام العصبي.

ومثل ذلك ما حدثت به بعضهن قالت:(في يـوم من الأيـام جـاءني اتصـال من صـديقة لي، تخبرني فيه بأن صديقة لنا في العنايـة المركـزة بالمستشـفي، فهـرعتُ إليهـا وأنـا لا أعلم السبب، وحينما وصلت إليها، وجدتها ممددة على السرير دون حـراك، وقـد أصـابتها حالة تشنج عنيفة، تركتْ بصمات زرقاء وسوداء حـول عينيهـا، وفي جميـع أجـزاء وجههـا، وعندما سألت شقيقتها عن السبب، أخذتني بعيداً عن والدتها المنهـارة، وقـالت لي : لقـد اكتشفتْ أن خالداً متزوج، ولديه ولد!، أما عن خالد هذا، فهو شـاب قـد تعـرفتْ عليـه عن طريق الهاتف ! وبعد عدة لقاءات وعدها بالزواج !، وها هي تدخل المستشفى من أجلـه، ولو علم هذان الأبوان المنهاران أمام غرفة ابنتهما سبب دخولها المستشفى لقتلاها بــدلاً من أن يبكيا عليها!)

وأغـرب من ذلـك، مـا نُشـر في بعض الصـحف من قصّـة تلـك المـرأة المصـرية الـتي فوجئت وهي تفتح دولاب ملابسها بعد أن عادت إلى بيتها، بشاب يخرج من ذلك الدولاب، فتعالت صرخاتها مستغيثة بالجيران، وقد حاول الشاب إقناعها بأنه إنما جاء لخطبة ابنتهـا الـتي تربطـه بهـا علاقـة حب ! ولكن المـرأة أصـرت على اسـتدعاء الشـرطة، وكـانت المفاجأة، أن سقط ميتاً بالسـكتة القلبيـة قبـل أن ينقـل إلى قسـم الشـرطة في أغـرب حادث حبّ غرامي مجنون)

قال: إلى حيث ذهبت قلوبهم..

بينما نحن كذلك إذ سمعنا المجنون يردد:

أيـا ويح من أمسـى تخلس عقله	فأصـبح مـذهوباً بـه كـل مـذهب
خليعاً من الخلان إلا مجـاملا	يسـاعدني من كـان يهـوى تجنـبي
إذا ذكـرت ليلى عقلت وراجعت	عـوزاب قلـبي من هـوىً متشـعب

ثم ينشد:

وشـغلت عن فهم الحـديث سـوى	مـا كـان فيـك فإنـه شـغلي
وأديم لحـظ محـدثي لـيرى	أن قـد فهمت وعنـدكم عقلي

***

ثم سـرنا في تلـك البريـة.. فرأينـا قومـا يحملـون خيـامهم، ويرحلون بها، ثم ما فتئنا حتى رأينا رجلا عليه سيما الحب المـدنس يصيح في الآثار، وبقلبه من الأحزان لا تطيق أشعاره التعبير عنه:

أيـا حرجـات الحي حيث	بـذي سـلمٍ لا جـادكن ربيع

وقد سئل الأستاذ الدكتور مصطفى محمود عن الحبّ قبل الزواج فأجاب:(الحبّ هـو اتحاد شديد العمـق، يـؤدي التفريـق فيـه إلى سلسـلة من انفجـارات العـذاب والألم، قـد تستمر حتى الموت، وقد تنتهي بتغير الشخصية تماماً، وتحولها كمـا يتحـول الراديـوم بعـد تفجر الإشعاع إلى رصاص، أما الحبّ بعد الزواج، فهو الحبّ الحقيقي الذي ينمـو ويعيش، ويتحـدى النسـيان، ويضـفي النبـل والإخلاص والجلال على أبطالـه) (انظـر: وهم الحب، للمسند).

تحملـــــــــــــــوا

وخيماتـــك اللاتي بمنعـــرج اللـــــــــــــــوى | بلين بلىً لم تبلن ربـــــــوع
نـدمت على مـا كـان مـني ندامـــــــــــــــــةً | كما يندم المغبون حين يبيع
فقـــدتك من نفسٍ شـــعاعٍ فـــــــــــــــإنني | نهيتـك عن هـذا وأنت جميع
فقــربت لي غــير القــريب وأشـــــــــــــرفت | إليــك ثنايــا مــا لهن طلــوع

ثم رأينـاه يحفـر حفـرة في تلـك الآثـار، ثم يـنزل فيهـا ويرقـد، فأسرعنا إليه، فوجـدناه قـد سـلم نفسـه للمـوت.. فلم نجـد إلا أن نهيل التراب عليه، ثم نستأنف رحلتنا.

ما سرنا إلا قليلا حتى وجدنا رجالا اشتعلت رؤوسهم شـيبا، لكن عقولهم لم تزل تترنح في متاهات الصبا:

قال أحدهم، والحزن قد خـط على وجهـه علامـات سـوداء زاد في سوادها ذلك الشحوب الذي امتلأت به قسمات وجهه:

وكنت حبيبـــا إلى الغانيـــات | فألبســـني الشـــيب هجـــر الشـــــــــــــــبيب
وكنت سراجا بليل الشـباب | فأطفأ نوري نهـار المشـيب

قال له صاحبه، وهو يحاوره:

فإن تسألوني بالنساء فإنني | خـيرٌ بـأدواء النسـاء طـبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل | فليس له في ودهن نصـيب

ماله

يـــردن ثـــراء المـــال حيث علمنه　　وشـــرخ الشـــباب عنـــدهن عجيب

قال آخر، وهو لا يقل عن إخوانه حزنا:

أَراهنَّ لا يُحْببْنَ من قَلَّ مالُه　　ولا من رأينَ الشَـيْبَ فيـه وقوَّسا

قال آخر، وكأنه يخاطب من لا يراه أصحابه:

لاتحســــبي أن الشــــبابَ وشـــــــــــــــــرَخهُ　　يبقى ولا أن الجمـالُ يخلـدُ

عِشرٌ ويخلقُ شـطرُ حسـنِكَ كُلَّه　　ويذمُّ ما قد كان منـهُ يحمـدُ

قال آخر:

ومـــا يَرْجُـــو الكبـــيرُ من الغـــــــــــــواني　　إِذا ذهبَتْ شـــبيبتُهُ وشـــابا

ما سرنا قليلا حتى رأينا شابا ممتلئا شبابا، لكنه كان يصيح بغناء أقرب إلى النواح منه إلى الطرب:

جننا بليلى وهيَ جُنتْ بغيرِنا　　وأخرى بنا مجنونةٌ لا نريـدُها

وكان بجانبه شيخ حكيم يبدو أنه ذاق مـا ذاق إخوانـه من كـأس الحب المسمومة، كان يقول له:

لا تـأمنِ الأنـثى زمانَـك كلَّه　　يوماً ولو حلفَتْ يميناً تكـذبُ

تغـــري بطيبِ حـــد يثِهـــا　　وإِذا سَـــطَتْ فهي الثقيـــلُ

وكلامِها الأشـــــــــــــــطبُ

وتوقَّ من غدرِ النساءِ خيانةً فجميعُهن مكائدٌ لـكَ تنصـبُ

***

ما سرنا إلا قليلا حتى رأينا نفرا من الناس قد عقدوا حلقة كحلقات الذكر في تلك الفلاة.. وعلى كل منهم سيما الجنون التي يسمها الحب بأهله:

قال أحدهم:

ذكرتك والخطى يخطر بيننا وقــد نهلت مــني المثقفــة الســــــــــــــمر

فواللــــــه مــــا أدري وإني لصـــــــــــــــادق أداء عــراني من خيالــك أم ســــــــــــــحر

وقال الآخر:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي

فــوددت تقبيــل الســيوف لأنهــا لمعت كبــارق ثغــرك المتبسم

وقال آخر:

ذكــرت ســلمى وحــر الوغا كقلـــــبي ســــاعة فارقتها

فشـبهت سـمر القنـا قـدها وقـــد ملن نحـــوي فعانقتها

وقال الآخر:

ولقد ذكرتك والصوارم لمع من حولنا والسمهرية شـرع

وعلى مكافحة العدو ففي الحشا	شوق إليك تضيق عنه الأضلع
ومن الصبا وهلم جرا شيمتي	حفظ الوداد وكيف عنه أرجع

وقال الآخر:

ولقد ذكرتك والطبيب معبس	والجرح منغمس به المسبار
وأديم وجهي قد فراه حديده	ويمينه حذراً على يسار
فشغلتني عما لقيت وأنه	لتضيق منه برحبها الأقطار

وقال الآخر:

ولقد ذكرتك في الشفينة والردى	متلاطم متوقع الأمواج
والجو يهطل ةالرياح عواصف	و الليل مسود الذوائب داجي
وعلى السواحل للأعادي عسكر	يتوقعون لغارة وهياج
وعلت لأصحاب السفينة ضجة	وأنا وذكرك في ألذ تناجي

وقال آخر:

ولقد ذكرتك والسيوف	والموت يرقب تحت حصن

لوامع المـــــــــــــــــرقب

والحسن في شفق الـدروع تخاله حســـناء ترفـــل في رداء مـــــــــــــــــذهب

والمــوت يلعب بــالنفوس وخـــــــــــــــــاطري يلهــــو بطيب ذكـــــرك المســـــــــــــتعذب

وقال آخر:

ولقـد ذكرتـك والعجـاج كأنه مطـل الغـنى وسـوء عيش المعسر

والســوس بين مجتـدل في جنـــــــــــــــــدل منــا وبين مغفــر في مغفر

ظننت أني في صباح مسفر بضــياء وجهــك أو مســاء مقمر

تعطرت أرض الكفــاح كأنها فتقت لنا أرض الجلاد بعنبر

وقال آخر:

لقد ذكرتـك والجمـاجم وقع تحت السنابك والأكف تطير

الهــام في أفــق العجاجــة حـــــــــــــــوم فكأنها فـوق النسـور نسـور

فاعتـادني من طيب ذكـرك نشـــــــــــــــوة وبدت علي بشاشة وسرور

فظننت أني في مجـــالس لــــــــــــــذتي والـــراح تجلى والكـــؤوس تـــــــــــــــدور

وقال آخر:

ولقـــد ذكرتـــك والرمـــاح تنوشـــــــــــــني ... عند الإمام وساعدي مغلول

ولقد ذكرتك والذي أنا عبده ... والســـيف فـــوق ذؤابـــتي مســـــــــــــلول

وقال آخر:

ولقـد ذكرتـك والبحـر الخضـم طغت ... أمواجــه والــورى منــه على ســـــــــــــــفر

في ليلـــة أســـدلت جلبابـــة ظلمتها ... وغار كوكبها عن أعين البشر

والفلــك في وســط الأمــواج يحســــــــــــــبها ... عيناً وقد أطبقت شفراً على شـــــــــــــــفر

والروح من حـزن راحت وقـد وردت ... صـدري فيـا لـك من ورد بلا صـــــــــــــــدر

هــذا وشخصــك لا ينفــك في خلـــــــــــــدي ... وفي فــؤادي وفي ســمعي وفي بصـــــــــــــري

وقال آخر:

ولقـد ذكـرتكم برمـل روعه ... في قلب كـــــل مشــــرق ومغـــــــــــــــرب

وبنــو بياضـــة كالــدبي من حولنا ... بســـوأدهم ســـدوا فســـيح الســـــــــــــبب

والقضـيب تـبري هـام كـل ... من كف أشـوس بـالحروب

مـــــــــــــــــــــدجج مهـــــــــــــــــــذب

وأســنة الرمــاح تلمــع في الـــــــــــــــــــــدجى كــوميض بــرق في الــدجى متلهب

وعلى العــوالي كــل نســر واقع يفـــري أديم الليث منـــه بمخلب

والرعد للأرماج رعد قاصف والبحر يهدر كالهزبر الأغلب

والبر بحر بالـدما والبحـر بر بـالفرنج وكـل كلب أجـرب

وعلى الســـواحل غـــارة شـــــــــــــعواء ما فيهـا لمن يرجـو النجـا من مهـــــــــــــــــــــرب

وأنـا باوتـار القسـى كـأنني فيـه أغـني بالربـاب وزينب

وأقـول ليت أحبـتي يـدرون ما أنـــا فيـــه من لهـــو وعيش طيب

وقال آخر:

ذكرتك والحجيج لـه ضـجيج بمكـة والقلـوب لهـا وجيب

فقلت ونحن في بلـد حـرام بــه للــه أخلصــت القلــوب

أتــوب إليــك يــا رحمن مما جنيت فقد تكاثرت الــذنوب

فأما عن هوى ليلى وتـركي زيارتهـــا فـــإني لا أتـــوب

وقال آخر:

ولقـد ذكرتـك والظلام معبس وأنـــا قعيـــد في الـــبيوت وحيـــــــــــــــــــدتي

والجو يصفر من قعودي في الهوا … ما فيه خل يكون عنيدتي

والبق والناموس حولي عسكر … يتفاتلون على شريب دميمتي

والفار يلعب في الزوايا دائماً … وينط كالقعقاع فوق كويرتي

والعنكبوت يحوك حلة خيمة … يصطاد ذبابا تجوز كويتي

والأكل خبز مثل رأسي يابس … والشرب مر من دخيل بليدتي

وسماع نغماتي طنين بعوضة … وصرير صرصرة وصفر بويمة

فوددت تعنيق الفويرة كلما … نطت لأنك مثلها في الخفة

وحسدت أيدي لعنكبوت لشبهها … بأصابع لك شبهها في الرقة

وطربت من صوت الصراصر نغمة … إذ اشبهت نغمات صوت حبيبتي

فبكيت شوقاً حيث لا أنت معي … تتنعمين تنعمي في غرفتي

وقال آخر:

أرى كل معشوقين غيري وغيرها … يلدان في الدنيا ويغتبطان

وأمشي وتمشــي في البلاد كأننا أســيران للأعــداء مرتهنــان

أصــلي فــأبكي في الصــلاة لــــــــــــــــذكرها لي الويــــــل ممــــــا يكتب الملكـــــــــــــــــان

ضـــــمنت لهـــــا أن لا أهيم بغيرها وقد وثقت مني بغير ضمان

ألا يـــا عبـــاد اللّـــه قومـــوا لتســـــــــــــــمعوا خصـــــــومة معشـــــــوقين يختصـــــــــــــــمان

وفي كــل عــام يســتجدان مـــــــــــــــــــرة عتاباً وهجــراً ثم يصــطلحان

يعيشــان في الــدنيا غريــبين أينما أقاما وفي الأعــوام يلتقيــان

نهض رجل، وقام في وسط الحلقة يصيح بتواجد (1) :ظظظ

ملك أنا.. لو تصبحين حبيبتي

لا تخجلي مني.. فهذي فرصتي

أغزو الشموس مراكباً وخيولا

لأكون رباً، أو أكون رسولا.

كان هؤلاء العاشقون منشغلين تماما عن كل ما حولهم، فلذلك لم يلتفتوا إلينا، ولم يلتفتوا إلى ما حولهم من مراعي مجذبة، وحيوانات هالكة، وديار قد تحولت قفرا ليس فيها سكن لأحد.

1() هذه الأبيات لنزار قباني.

***

بعد أن يئست أن أجد قلبا منسجما مـع العقـل ومتصـالحا معـه في تلك البوادي سرت نحـو بلاد أكـثر تحضـرا.. وقلت لنفسـي: إن هؤلاء البدو الذين مرغوا قلوبهم في رمال الصحراء أقـل شـأنا من أن أسلم قلبي لما سلموا له قلوبهم.

وقلت لنفسي: ما أحقر أن تعيشي أمة عند من يسـومك سـوء العذاب، ثم لا تنالين بعد ذلك إلا الجنون.

كـان أول من التقيت بـه في تلـك البلاد المتحضـرة امـرأة بين الشـباب والكهولـة، رأيتهـا تبكي بحرقـة لا تقـل عن حرقـة عـروة وقيس وكل من مررت بهم من أهل الهوى.. اقتربت منها، وسألتها عن عدوها الذي أجرى دموعها، فقالت: ومن غيره.. إنـه الحب.. أو هو الوهم الذي سكن قلبي، فدمره، ودمر معه كل حياتي.

قلت: لقـد مـررت بقـوم من النـاس يسـتلذون الحب، فكيـف نفرت منه؟

قالت: وكيف لا أنفر من السراب الذي يحسبه ظمآن ماء، فـإذا جاءه لم يجده شيئا؟

قلت: حدثيني عن شأنك.. فإن لي قلبا خاويـا، وأنـا أبحث عمن يملؤه.

قالت(1): أنا ـ كما تـراني ــ فتـاة في التاسـعة والعشـرين من عمـري، تعـرفت على شـاب أثنـاء دراسـتي الجامعيـة.. وكـانت الظـروف كلهـا تـدعونا لكي نكـون معـاً رغم أنّـه ليس من بلـدي.. تفاهمنا منذ الوهلة الأولى.. ومع مرور الأيام توطدت العلاقة بحيث أصبحنا لا نطيق فراقاً.

قلت: هو الحب إذن؟

قالت: بل هو الوهم..

1() ما سنذكره هنـا من حكايـات (بتصـرف) من كتـاب (وهم الحب)، لمحمـد بن عبـد العزيز المسند.

قلت: كيف ذلك؟

قالت: بعد انتهاء الدراسة عـاد إلى بلـده، وعـدت إلى أسـرتي، واستمر اتصالنا عبر الهاتف والرسائل، ووعدني بأنه سـيأتي لطلب يدي عندما يحصل على عمل، وبالطبع وعدتـه بالانتظـار.. لم أفكـر أبداً بالتخلي عنه رغم توفر فرص كثيرة لبدء حياة جديدة مع آخر.

عندما حصل على عمل اتصل بي ليخبرني أنه آت لطلب يـدي، وفـاتحت أهلي بالموضـوع، وأنـا خائفـة من رفضـهم، ولكنهم لم يرفضوا.. سألني أبي فقط إن كان أحد من أهله سيأتي معه، ولمّـا سألته عن ذلك تغير صـوته، وقـال : إنـه قـادم في زيـارة مبدئيـة.. شيء ما بداخلي أقنعني بأنه لم يكن صـادقاً.. وأتي بالفعـل، وليتـه لم يأت، لأنه عـاد إلى بلـده وانقطعت اتصـالاته، وكلّمـا اتصـلت بـه تهرب منّي، إلى أن كتبت له خطاباً، وطلبت منه تفسـيراً، وجـاءني الـردّ الـذي صـدمني، قـال:(لم أعـد أحبـك، ولا أعـرف كيـف تغيّـر شعوري نحوك، ولذلك أريد إنهاء العلاقة)

أدركت كم كنت مغفلـة وسـاذجة لأنـني تعلقت بـالوهم سـتّ سنوات.. ماذا أقول لأهلي؟ أشعر بوحدة قاتلة، وليست لدي رغبـة في عمل أي شيء.

قالت ذلك، ثم انصرفت إلى دموعهـا.. وكـأنني لم أحـدثها، ولم تحدثني..

***

لم أسر إلا قليلا حتى رأيت أختـا لهـا، ولكنهـا أقـل منهـا عمـرا، سألتها عن نفسها، فقالت: أنـا فتـاة في العشـرين من عمـري، لم أكن أؤمن بشيء اسـمه الحبّ – ومـا زلت – ولا أثـق مطلقـاً بـأي شاب، بل كثيراً ما كنت أنصح صديقاتي وأحذرهن من فخـاخ الحبّ الزائـف الـذي لم أسـتطع أن أمنـع نفسـي من الوقـوع فيـه.. نعم، وقعت فيه..

كان ذلك في مكان عام.. شاب يلاحقـني بنظراتـه، ويحـاول أن يعطيني رقم هاتفه، فخفق قلبي له بشدة، وشعرت بانجذاب إليـه، وأنه الفارس الذي ارتسمت صورته في خيالي ورأيته في أحلامي..

وكأنه قد لاحظ مدى خجلي وتردّدي، فأعطى الرقم لصديقتي، وأخذته منها والدنيا لا تكاد تسعني، واتصلت به، وتعارفنا، وتحدثنا طويلاً.. فكان مهذّباً جداً، وكنت صريحة وصادقة معه.

وشيئاً فشيئاً صارحني بحبه، وطلب مني الخروج معه.. رفضت في البداية، وأفهمته أني لست مستعدة لفقد ثقة أهلي، والتنازل عن مبادئي وأخلاقي التي تمنعني من تجاوز الحدود التي رسمتها لنفسي.. لكنه استطاع إقناعي، ويبدو أن الحبّ أعماني فلم أميّز الصحّ من الخطأ.. وخرجت معه، فكانت المرّة الأولى في حياتي، وصارحته برأيي فيه وفي أمثاله من الشباب، فلم يعجبه كلامي، وسخر مني، بل اتهمني بتمثيل دور الفتاة الشريفة، وأشبعني تجريحاً، وكان اللقاء الأول والأخير، فقد قررت التضحية بحبّي من أجل كرامتي، ولكنه احتفظ بكتاب يتضمن أشعاراً ومذكرات لي كتبتها بخطي، ووقعتها باسمي، وقد رفض إعادتها لي..

قالت ذلك، ثم انصرفت إلى بكائها..

***

تركتها، وسرت حتى التقيت ثالثة سمعتها تحدث نفسها، وتقول: (الأحلام تبقى أمامي، والأوهام تنبت في قلبي، والكلمات التي اخترتها لا تُكتب، لكنها توجد في فكري وأحاسيسي، حكاية فيها كل المعاناة التي أعيشها اليوم، منذ أن افتقدت الثقة، ومنذ أن أصبح الحبّ وهماً ومأساة أهرب منها أو أتجاهلها.. الحبّ لا يعترف بالحذر أو الخوف منه، فإما أن تطرق أبواب الحبّ وتوهم نفسك أنك تحبّ، وإما أن تهرب منه أو تتجاهله)

***

تركتها، وسرت حتى التقيت رابعة، سمعتها تقول لصاحبتها بلوعة وحزن: إياك أن تغتري بهذا الوهم، فهو لم يجلب للقلوب إلا الدمار، ولم يجلب للبيوت إلا الخراب.

قالت صاحبتها: أراك تذمين ما أجمع الكل على حمده.

قالت: كلهم يحمده في البداية، ولكنه سرعان ما يبدو لهم

عواره.. اسأليني أنا.. لقد كتب لقلبي أن يقع أسيرا في شباكه، وكتب أن ينال في ذلك الأسر من الألم ما لم يذقه أعتى عدو لعدوه.

سأقص عليك قصتي لتكون عبرة لك.. في ذلك اليوم المشأوم اتصلت بالهاتف بإحدى صديقاتي، ورد علي أخوها، وجذبني إليه رقّة حديثه، بعدها وجدتُ نفسي مشدودة للتفكير فيه، والتعلق به.. وتكرر الاتصال، وتعمدت اختيار الأوقات التي لا تكون صديقتي موجودة فيها.. وتواعدنا على الزواج.

وفجأة.. لاحظت تهربه من الحديث معي، وانقطعت اتصالاته بي.. حاولت بأسلوب غير مباشر التعرف على أسباب هذا التحول، دون فائدة.. وأخيراً وبطريق الصدفة أخبرتني صديقتي أن أخاها قد وقع اختياره على إحدى القريبات، وسيتم زفافهما قريباً..

أصابتني دهشة أفقدتني توازني وقدرتي على الرد عليه.. وفقدت بعدها الثقة في نفسي وفي كل من حولي.. تقدم لي الكثيرون ولكنني رفضتهم جميعاً دون أي مبرر..

العمر يتقدم بي، لكني عاجزة عن نسيان هذا الجرح القديم، الذي تمكن مني لدرجة كبيرة بدأت تثير شكوك أهلي تجاهي، ولا أدري كيف أتخلص مما أنا فيه.

***

لم أسر إلا قليلا حتى وجدت رجلا يحادث آخر، يشكو إليه بمرارة، ويقول في شكواه:(.. بسبب ظروف عملي سكنت بعيداً عن زوجتي وأولادي، وكنت أسافر إلى بيتي يومين في الأسبوع، وأحياناً يوماً واحداً.. كنت أحبّ زوجتي كثيراً، وكانت هي كذلك، إلا أن ضعف مرتبي حال بيني وبين إحضارها للإقامة عندي..

وفي ليلة من الليالي اتصلت فتاة تريد التعرف بي، فرفضت ذلك، وأفهمتها بأني متزوج ولدي أطفال، وقمت بإقفال السماعة في وجهها، وما كان منها إلا أن أصرت على محادثتي والتعرف علي، ومن تلك اللحظة أصابني صداع لم يفارقني تلك الليلة، وفي اليوم التالي اتصلت بي، فرد عليها أحد زملائي فلم تكلمه، ثم ردّ

عليها الثاني والثالث، فلم ترد إلا أنا، وفي ساعة متـأخرة من الليـل اتصــلت، ولم يكن غــيري، فــرفعتُ ســماعة الهــاتف، وزيّن لي الشيطان محادثتها، وتعرفت عليها، ويا ليتني لم أفعل، فلقد زلزلت كيـاني، وزرعت طـريقي أشـواكاً، بـل لقـد فرقتـني عن زوجـتي وأولادي، فلم يعد لهم في قلبي من الحبّ مثل ما كـان قبـل ذلـك، كـان فكـري في ذلـك الشـيطان الـذي تمثـل لي في صـورة تلـك الفتـاة، فقـدت أعصـابي مـع زوجـتي وأولادي، أثـور عليهم لأدنى سـبب، بسـبب تلـك الفتـاة الـتي زرعت المـرض والخـوف في أعمـاقي.. حـاولت أن أقاطعهـا فلم أقـدر.. كـانت تلعب بأعصـابي كثـيراً.. نسـيتُ حـتى عملي من كـثرة السـهر، ومـع ذلـك أصـابني الاكتئاب النفسي، وذهبت إلى عيادة الأمراض النفسـية، وأعطـوني أقراصاً فلم ينفع معي أي علاج)

***

تركتـه، فلم أسـر إلا قليلا حـتى سـمعت شـابة صـغيرة تقـول لصــاحبتها:(لقــد كنت متفوقــة في دراســتي، لكــني أحببت أحــد المشاهير بشكل جنوني، فملأت بصوره الكبيرة حجرتي، ودسست صوره الصغيرة في كل كتـبي، وكنت أحلم دائمـاً بلقائـه، وأثـور إذا تحدثت عنه زميلاتي.. بدأ مسـتواي الدراسـي في الانحـدار بسـبب هذا الحبّ الجنوني، لدرجة أني أخشى من الاستمرار في الانحـدار، وفي نفس الوقت لا أستطيع التغلب على مشاعري، وأشعر بــأنني وحدي في مشكلة تهدد مستقبلي، ولا أستطيع مصارحة أحد بها..

***

تركتها تهذي بهذا الهذيان، وسرت نحو بلاد أخرى أكـثر تحضـرا، بحثا عن القلب الذي ينسجم مـع العقـل ومـع كـل اللطـائف الـتي أودعها الله في.. وهناك فرحت كثيرا.. لقد تصورت أني قد وجـدت غايتي، فقد وصلت في يوم يقـال لـه (يـوم الحب)(1)، وقـد رأيت فيه الورود المتناثرة، والقلوب المتضـامة، ولم أر فيـه قطـرة دمـع

1()أو (عيد الحب)، أو (عيد العشاق)، أو (الفالنتاين)، وقد تعود الغـرب على الاحتفـال به في في الرابع عشر من شهر فبراير (شباط) من كل عام.. وفي هذا اليوم عـادة مـا يتبادلون التهاني والورود الحمراء ويرتـدون الملابس ذات اللـون الأحمـر، وتقـام الحفلات الراقصة الماجنة..

واحدة، ولا مجنونا واحدا، فقلت لقلبي: في هذه البلاد سوف تقيم.. وفي هذه البلاد ـ التي لا تمتلئ بغير الورود ـ سـوف تمتلئ بـالهوى الممتلئ بالسلام والسكينة والسعادة.

لقد بقيت أحمل هـذه الفكـرة الجميلـة إلى المسـاء.. لم تعش معي هذه الفكرة إلا تلك السـويعات من الصـباح إلى المسـاء.. ثم عدت بعدها إلى آلامي.

قلنا: كيف كان ذلك؟ ولم كان ذلك؟

ويرجع أصل هذا العيد إلى الرومان الوثنيين، فقد كان الرومان يحتفلون بهـذه الحادثـة في منتصف شهر فبراير من كل عام احتفالا كبيرا، وكان من مراسيمه أن يذبح فيـه كلب وعنزة، ويدهن شابان مفتولا العضلات جسـميهما بـدم الكلب والعـنزة، ثم يغسـلان الـدم باللبن، وبعد ذلك يسير موكب عظيم يكون الشابان في مقدمته يطـوف الطرقـات، ومـع الشـابين قطعتـان من الجلـد يلطخـان بهمـا كـل من صـادفهما، وكـان النسـاء الروميـات يتعرضن لتلك اللطمات مرحبات، لاعتقادهن بأنها تمنع العقم وتشفيه.

بالإضافة إلى هذا، فقد ارتبط عيد الحب بالقديس فالنتين، والذي تـوفي في رومـا إثـر تعذيب القائد القوطي (كلوديـوس) لـه حـوالي عـام 296م، وبـنيت كنيسـة في رومـا في المكان الذي توفي فيه عام 350م تخليدا لذكره.

ولما اعتنق الرومـان المسـيحية أبقـوا على الاحتفـال بعيـد الحب السـابق ذكـره، لكن نقلوه من مفهومه الوثني (الحب الإلهي) إلى مفهوم آخر يعبر عنـه بشـهداء الحب، ممثلا في القديس فالنتين الداعية إلى الحب والسـلام الـذي استشـهد في سـبيل ذلـك حسـب زعمهم. وسمي أيضا (عيد العشاق) واعتبر (القديس فالنتين) شفيع العشاق وراعيهم.

وكان من اعتقاداتهم في هذا العيد أن تكتب أسماء الفتيات اللاتي في سن الـزواج في لفافات صغيرة من الورق، وتوضع في طبق على منضدة، ويدعى الشبان الـذين يرغبـون في الزواج ليخرج كل منهم ورقة، فيضع نفسه في خدمة صـاحبة الاسـم المكتـوب لمـدة عام يختبر كل منهما خلق الآخر، ثم يتزوجان، أو يعيدان الكرة في العام التالي يوم العيـد أيضا

وقد ثار رجال الدين المسـيحيين على هـذا التقليـد، واعتـبروه مفسـدا لأخلاق الشـباب والشابات فتم إبطاله في إيطاليا التي كان مشهورا فيها، لأنها مدينة الرومـان المقدسـة، ولا يعلم على وجـه التحديـد مـتى تم إحيـاؤه من جديـد. فالروايـات النصـرانية في ذلـك مختلفة، لكن تذكر بعض المصادر أن الإنجليز كانوا يحتفلون به منذ القرن الخامس عشـر الميلادي. وفي القرنين الثـامن عشـر والتاسـع عشـر الميلاديين انتشـرت في بعض البلاد الغربية محلات تبيع كتبا صغيرة تسمى(كتاب الفالنتين) فيها بعض الأشعار الغرامية ليختار منهـا من أراد أن يرسـل إلى محبوبتـه بطاقـة تهنئـة وفيهـا مقترحـات حـول كيفيـة كتابـة الرسائل الغرامية والعاطفية. (انظر: الموسوعة الحرة، وغيرها)

وللأسف، فقد غزا هذا العيد ديار المسلمين ليصدق ما ورد في الحديث من قوله ﷺ :(لتتبعن سنن من قبلكم، شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسـلكتموه، قلنا : يا رسول الله، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن؟) (رواه البخاري ومسلم)

قـال: في المسـاء.. وعنـدما ذبلت تلـك الـورود، وذهب عنهـا عطرها الذي كانت تختال به، وذهب عنها بريق جمالها الـذي كـانت تحل بسببه أشرف المواقـع.. وبعـدما رميت تلـك الـورود وديسـت بالأقـدام رأيت من دلـني على مـا كـان يحملـه ذلـك الحب أو ذلـك السراب من قنابل الصراع.

كان أول من التقيت امرأة، لا تبكي بدموعها، ولكن قلبهـا يكـاد يحترق.. عندما رأيتها رحمتها، فقد رأيت جميع أحزان العالم تختزن في مقلتيهـا اللـتين شـحتا بالـدموع، فـاقتربت منهـا، وسـألتها عن سرها، فقالت: إنني فتاة لا تستحق الرحمة أو الشفقة.. لقد أسأت إلى والـــــدتي وأخـــــواتي، وجعلت أعينهم دومـــــاً إلى الأرض، لا يستطيعون رفعها خجلاً من نظرات الآخرين.

كل ذلـك كـان بسـببي.. لقـد خنت الثقـة الـتي أعطـوني إياهـا بسبب ذلك الحب اللعين.

بسبب ذلك الإنسان المجرد من الضمير، الـذي أغـراني بكلامـه المعسـول، فلعب بعـواطفي وأحاسيسـي حـتى أسـير معـه في الطريق السيء..

وبالتدريج جعلني أتمادى في علاقتي معه إلى أسوأ منحدر.. كل ذلك بسبب الحب الـوهمي الـذي أعمى عيـني عن الحقيقـة، وأدى بي في النهاية إلى فقدان أعز ما تفخر به الفتاة، ويفخر بـه أبواهـا، عندما يزفانها إلى الشاب الذي يأتي إلى منزلها بالطريق الحلال..

لقد أضعت هذا الشرف مع إنسان عديم الشـرف، إنسـان بـاع ضـميره وإنسـانيته بعـد أن أخـذ مـني كـل شـيء، فتركـني أعـاني وأقاسي بعد لحظات قصيرة قضيتها معه..

لقد تركني في محنة كبيرة بعد أن أصـبحت حـاملاً.. وآنـذاك لم يكن أحد يعلم بمصيبتي سـوى اللـه.. وعنـدما حـاولت البحث عنـه كان يتهرب مني، على عكس ما كان يفعله معي من قبل أن يأخــذ ما يريد.. لقد مكثت في نار وعذاب طوال أربعة أشهر، ولا يعلم إلا

الله ما قاسيته من آلام نفسية بسبب عصياني لربي، واقترافي لهذا الذنب.. ولأن الحمل أثقل نفسيتي وأتعبها.. كنت أفكر كيف أقابل أهلي بهذه المصيبة التي تتحرك في أحشائي؟.. فوالدي رجل ضعيف، يشقى ويكد من أجلنا، ولا يكاد الراتب يكفيه.. ووالدتي امرأة عفيفة، وفرت كل شيء لي من أجل أن أتم دراستي لأصل إلى أعلى المراتب.

لقد خيبت ظنها، وأسأت إليها إساءة كبيرة لا تغتفر، لا زلت أتجرع مرارتها حتى الآن..

إن قلب ذلك الوحش رقّ لي أخيراً حيث ردّ على مكالمتي الهاتفية بعد أن طاردته.. وعندما علم بحملي، عرض على مساعدتي في الإجهاض وإسقاط الجنين الذي يتحرك داخل أحشائي.. كدت أجنّ.. لم يفكر أن يتقدم للزواج مني لإصلاح ما أفسده(1).. بل وضعني أمام خيارين : إما أن يتركني في محنتي، أو أسقط هذا الحمل للنجاة من الفضيحة والعار..

ولمّا مرت الأيام دون أن يتقدم لخطبتي، ذهبت إلى الشرطة لأخبرهم بما حدث من جانبه، وبعد أن بحثوا عنه في كل مكان وجدوه بعد شهرين من بلاغي، لأنه أعطاني اسماً غير اسمه الحقيقي.. لكنه في النهاية وقع في أيدي الشرطة، واتضح أنه متزوج ولديه أربعة من الأولاد، ووضع في السجن.

وعندما علمت أنه متزوج أدركت كم كنت غبية عندما سرت وراءه كالعمياء..

ولكن ماذا يفيد ذلك بعد أن وقعت في الهوة السحيقة التي جعلتني أتردى داخلها ؟!

لقد ظن أنني ما زلت تلك الفتاة التي أعماها كذبه، فأرسل إلي من سجنه امرأة تخبرني بأنني إذا أنكرت أمام القاضي أنه انتهك عرضي فسوف يتزوجني بعد خروجي من السجن.. لكني رفضت عرضه الرخيص.

1() ذكرنا الحلول الشرعية المرتبطة بهذه الحالة في سلسلة (فقه الأسرة برؤية مقاصدية)

قلت: فماذا تفعلين الآن؟

قالت: لقد رجعت إلى بيتي، واتخذتها سجني.. وها أنا قابعة فيه لا أكلم أحـداً، ولا يـراني أحـد، بسـبب تلـك الفضـيحة الـتي سـببتها لأسرتي، فأهدرت كرامتها، ولوثت سمعتها النقية..

لقـد أصـبح والـدي كالشـبح يمشـي متهالكـاً يكـاد يسـقط من الإعيـاء.. بينمـا أصـبحت أمي هزيلـة ضـعيفة، تهـذي باسـتمرار، وسجنت نفسها بإرادتها داخل المنزل خشية كلام الناس ونظراتهم.

***

تركتها لأسمع أخرى، وهي تقول: أنا فتاة جامعية.. أحببت شـاباً بكل معنى الكلمة.. واخترتـه حبيبـاً لقلـبي ورفيقـاً لـدربي بموافقـة ومباركـة الأهـل، وفيمـا كنـا نقـوم بالاسـتعداد للـزواج فوجئنـا باعتراضات رسمية، وعقبات وهمية، حالت دون إتمام فرحتنا، لكننا لم نستسلم، فحاولنـا التغلب عليهـا، وضـحينا بـالكثير دون جـدوى، ولم نفقد الأمل رغم وصولنا إلى طريق مسدود.

واسـتمرت اللقـاءات والاتصـالات بيننـا، وفي ذات يـوم نسـينا أنفسنا في غمرة الحب، فكان الشيطان ثالثنا..

ومن هنا بدأت المشكلة أو المأساة الكـبرى، فبـدلاً من تصـحيح غلطتـه أو غلطتنـا، فـوجئت بـه يتهمـني زوراً وظلمـاً بأبشـع التهم، ويزعم ويدعي بأني لم أكن عذراء، واتخـذ من ذلـك حيلـة للتهـرب من المسؤولية، وتصحيح غلطة فظيعة ارتكبناها في لحظة طيش.

كيف يمكن أن يحدث لي هذا، ولم يمسسني أحـد غـيره، وقـد أقسـمت لـه أني لم أعـرف رجلاً قبلـه ولا بعـده، وبكيت أمامـه، وتوسلت إليه ألا يتخلى عني، فواعدني خيراً، وعاد يؤكد حبه لي.

وكثرت اللقاءات بيننا، وكنت أحرص خلالها على عـدم إغضـابه، وكـان هـو الآمـر النـاهي، والقاضـي والجلاد، ثم بـدأ يتهـرب مـني، وينتحل الأعذار، وأخيراً طال غيابه وانقطعت أخباره، فأدركت أنـني كنت الجانية على شرفي والضحية، وأنني قـد حكمت على نفسـي بالإعدام.

لقد صبرت، وانتظرت بما فيه الكفاية، ورفضت عشرات الشبان خوفاً من افتضاح أمري فتكون نهايتي.

قالت ذلك، ثم غرقت في دموعها، ولم أتبين منها سوى ما ذكرته لكم.

***

سرت إلى بلاد أخرى.. فصادف دخولي إليها رؤيتي لمنظر بشع لا زال يلح كل حين على ذاكرتي.

قلنا: وما رأيت؟

قال: لقد رأيت فتاة صبت على نفسها البنزين، ثم أسرعت إلى رجل كان قريبا منها، ثم عانقته، ثم أشعلت عود الثقاب، فاحترقا جميعا، ولم يستطع الجمع المحيطين بهما أن يفعلوا شييئا.

قلنا: عجبا.. لم فعلت هذا؟

قال: لقد سألت المحيطين بها، وقد أخبروني أن سبب ذلك هو الحب.. فقد تخلى حبيبها عنها، وارتبط بأخرى.. وكانت قبل ذلك قد حبست نفسها في غرفتها بمنزلها مدة ثلاثة أيام متتالية..

وقد قالت لي إحدى جاراتها: إن هذه الشابة المسكينة لم تتوقف عن البكاء طيلة تلك الفترة، وقد حاولت مواساتها، لكنها ردت علي بأنها قد رتبت لقاءً أخيراً مع حبيبها الذي ألحق بها ضرراً بالغاً.. وتم اللقاء الأخير الذي تحول إلى مواجهة عنيفة بينهما، ثم دخلا في مشادة كلامية حادة، وعندها توجهت الفتاة إلى مكان قريب، وتناولت وعاء مليئاً بالبنزين، فصبته على جسدها أمام حشد من الناس، وأشعلت النار، وقد حاول (الحبيب) منعها، لكنها انقضت عليه وهي تشتعل ناراً، واحتضنته بكل ما أوتيت من قوة ليحترقا جميعاً..

***

ما سرت إلا قليلا حتى رأيت شابا يطلق الرصاص على امرأة كانت بجانبه، ثم يطلق النار على نفسه بعدها، فسألت عنهما،

فقالوا: لقد عاش هذا الشاب في السنوات الأخيرة قصة عاطفية لم تُكتب لها نهاية سعيدة بعد أن اصطدمت ببعض المعوقات، بحسب رسالة تركها المنتحران بخط يديهما، قالا فيها : إنهما أقدما على الانتحار بكامل إرادتهما وقواهما العقلية.

ثم سمعت بعدها بطيار فضل الانتحار ومعه جميع الركاب، حين علم بوجود رجل على متن الطائرة التي يقودها كان قد انتزع منه فتاة يحبها على الرغم من اعتراضه سلفاً على وجوده في الطائرة، فما كان منه إلا أن قاد حفلة موت جماعية ذهب ضحيتها جميع الركاب.

ثم سمعت بامرأة وضعت السم لزوجها قبل زفافهما بيوم واحد حتى تتمكن من الزواج بشاب آخر تحبه منذ فترة طويلة.. وكان العريس قد توجه إلى منزل عروسه ليعرض عليهم كروت الدعوة لحفل الزفاف، فقدمت له العروس كوب شاي مسموم، وفور خروجه من المنزل سقط على الأرض، واكتشف الأطباء أنه مات مسموماً.

***

بعدها سرت إلى إيطاليا، وبالضبط إلى مدينة فيها يقال لها (فيرونا)، وهناك قدر الله لي أن أعيش أحداث مأساة روميو وجولييت.. لعلكم سمعتم بها.

قلنا: حدثنا عنها.

قال: قصتهما طويلة.. لقد حاول شكسبير بما أوتي من قوة قريحة أن يعبر عنها.. لكنه في الحقيقة لم يعبر إلا عن الظواهر التي رآها أو التي حاول أن يراها.. أما الحقيقة.. والتي ذقت مثلها.. فأعظم من أن يعبر عنها.

لقد كان روميو وجوليت مثالا عن الصراع الذي يعانيه أصحاب القلوب.. أصحاب القلوب الذين غمسوا قلوبهم في الطين المدنس..

قلنا: لقد شوقتنا، فحدثنا.

قال: لقد كانا شابين من فيرونا في إيطاليا، وقد وقعا ضحية عداء مرير بين عائلتيهما، عائلة مونتاجيو وعائلة كابيوليت.. وقد التقى روميو، وهو من عائلة مونتاجيو، بجولييت وهي من عائلة كابيوليت، في حفلة تنكرية أقامتها عائلة كابيوليت.. وحضر روميو تلك الحفلة بالرغم من أنه لم يُدْعَ هو ورفاقه إليها.. وفي تلك الحفلة صلي روميو بنار جولييت، وصليت جولييت بنار روميو.

وقد تزوج العاشقان في اليوم التالي سرًا بمساعدة الراهب لورانس، ولدى عودة روميو من حفل زواجه التقى بابن عم جولييت، واسمه تايبولت.. وقد تحرش هذا بروميو محاولاً الدخول في قتال معه، لكن روميو رفض قتاله، وهب صديق روميو واسمه ميركوشيو، وقبل التحدي دفاعًا عن شرف عائلة مونتاجيو، وعندما حاول روميو التدخل لفض النزاع، قام تايبولت بطعن ميركوشيو حتى الموت، مما يدفع روميو إلى قتل تايبولت، وأسفر ذلك عن إبعاد روميو عن فيرونا.

وفي أثناء ذلك حاول والد جولييت إجبارها على قبول الزواج من ابن عمها باريس، دون أن يدري بأنها متزوجة من روميو، لكن الراهب لورانس قام بإعطائها عقارًا يجعلها في حالة نوم تشبه الموت لمدة أربع وعشرين ساعة من أجل مساعدتها على التخلص من ضغوط والدها عليها بالزواج، ثم أرسل الراهب إلى روميو رسالة في منفاه يوضح له فيها ما فعل، لكن رسالته وصلت متأخرة حيث سارع روميو إلى قبر جولييت، وتجرع سمًا واستلقى إلى جانبها في القبر، وعندما استيقظت جولييت ووجدت زوجها ميتًا إلى جانبها، طعنت نفسها وماتت هي الأخرى.

هذه هي قصة روميو وجولييت الظاهرة.. أما قصتهما الباطنة، فلا يطيق التعبير عنها إلا من ذاق من ذلك الحب ما ذقت، وما ذاقه كل العشاق.

السلام

قال ذلك، ثم غرق في صمت عميق.. انتظرناه برهة، فلما لم يستأنف حديثه قلنا له: لقد حدثتنا عما رأيت، فحدثنا عما حصل لك.

قال: كل مـا رأيتم من آلام حصـل لي.. لقـد كـان الكـل معـبرا عني..

بعد أن قطعت كل تلك المفاوز شاء الله لقلبي أن يمتلئ بحب غانيـة من الغـواني أذاقتـه من الهـوان، ومن المـرارة، ومن ذلـة الاستعباد، ما لم أر مثله في حياتي..

قلنا: فهل ظفرت بها؟

قال: وهـل يمكن لأحـد أن يظفـر بالسـراب؟.. لقـد صـدق من نصحني.. ولكني لم أنتصح.

قلنا: فكيف ظهـر لـك أن تفارقهـا بعـد كـل تلـك المحبـة الـتي وصفت؟

قال: لم أفارقها أنا.. بل هي التي فـارقتني.. لقـد بـاعتني بثمن زهيد من متـاع الـدنيا.. فـارقتني لتـترك قلـبي مملـوء بحسـرات لا يمكن لأحد في الدنيا أن يتحملها.

قلنا: فماذا فعلت؟

قال: لقد رحت أفعل ما فعل كل العشاق.

قلنا: تقصد الانتحار؟

قـال: لم يعـد للحيـاة معـنى بعـدها.. لقـد كنت أصـبح متألمـا، وأمسـي متألمـا.. إلى أن عجـز جسـدي عن تحمـل الألم، فـراح يطالبني بالخلاص.

قلنا: فماذا فعلت؟

قـال: لقـد حفـرت قـبرا.. ورقـدت فيـه.. وهممت بشـرب مـا استحضرت من أدوية الموت.. لكـني مـا إن هممت حـتى سـمعت صوتا في المقـبرة يـردد بلحن عـذب، فيـه من ألحـان العشـق مـا تعودت سماعه، لكنه يختلف عنها جميعا.. لقد كـان مملـوءا بـالقوة والعزة والجمال.. وفوق ذلك كله بالسلام الذي لم أر له وجودا مـع أي حب عشته أو رأيته.. لقد كان ذلك الصوت يقول:

كـــــــانت لقلـــــــبي أهـــــواء مفرقـــــــةٌ

فاســـتجمعت مـــذ رأتـــك العين أهـــوائي

فصـــــــار يحســـــدني من كنت أحســـــده

وصـرت مـولى الـورى مـذ صـرت مـولائي

تــــــــركت للنـــــــاس دنيـــــــاهم ودينهم

شــــغلاً بـــــذكرك يـــــا ديــــني ودنيــــائي

ثم يقـول بعـدها متغنيـا بصـوت شـجي متحـدثا عن تـأثير تلـك المحبة العميقة العظيمة:

وإنْ خَطَـــرَتْ يَومـــاً على خـــاطِرِ امـــرِىءٍ

أقـــــامَتْ بـــــهِ الأفْـــــراحُ، وارتحـــــلَ الهَمُ

ولـــــو نَضَـــحوا مِنهـــا ثَـــرى قَبْـــرِ مَيتٍ،

لعـــادَتْ إليـــهِ الـــرُّوحُ، وانْتَعَشَ الجسْـــم

ولـــــو طَرَحـــــوا في فيءِ حائِطِ كَرْمِهـــــا،

عليلاً، وقـــــد أشْـــــفى، لفارَقَـــــهُ السّـــــقَمُ

ولـــــو قَرَّبـــــوا، من حانِهـــا، مُقْعَـــداً مَشى

وتِنْطِـــــقُ مِن ذِكـــــرِى مَـــــذاقَتِها البُكْمُ

ولـــو عَبِقَت في الشَّـــرْقِ أنْفـــاسُ طيبهـــا،

وفي الغَـــرْبِ مَزْكـــومٌ، لَعـــادَ لـــهُ الشم

ولـــو خُضِـــبتْ، مِنْ كأسِـــها، كـــفّ لامِسٍ

لَمـــا ضَـــلّ في ليـــلٍ، وفي يَـــدِهِ النَّجمِ

ولو جُلِيَتْ، سِـرّاً، على أكمَـهٍ غَـدا بَصـيراً،

ومِن رَاوَوقِهـــــــا تَســـــــمعُ الصّـــــــمّ

ولـــو أنّ ركْبـــاً يَمّمَـــوا تُـــرْبَ أرْضِـــها،

وفي الـــرَّكبِ مَلْســـوعٌ، لمـــا ضَـــرّهُ السّـــمُ

ولـــو رَسَـــمَ الـــرّاقي حُـــرُوفَ اســـمِها،

على جَـــبينِ مُصـــابٍ جُنَّ، أبْـــرَأَهُ الرَّســـمُ

رميت ما كان معي من أدوية الموت، ورحت أسرع إلى مصـدر الصوت، وأنا أصيح: هذا ما أبحث عنه، فأين أجده؟

قال: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْـهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:115)

قلت: ما تقصد؟

قال: كل من غاب عنه حبيبه اهتم، وكل من فارقه حبيبـه تـألم، وكل من قاطعه حبيبه انقطع.

قلت: أعـرف ذلـك.. وقـد صـليت بنـاره.. ولم آت إلى هنـا إلا بسببه.

قال: فابحث عن الحبيب الـذي لا يغيب ولا يفـارق ولا يقـاطع.. وابحث عن المحبـة الـتي لا تورثـك إلا العـزة والخلـود والكمـال والجمال.

قلت: وأين أجدها؟

قال: لقد قلت لـك: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْـرِقُ وَالْمَغْـرِبُ فَأَيْنَمَـا تُوَلُّوا فَثَمَّ

وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:115)

قلت: وما علاقة ذلك بهذا؟.. إن ما قرأته يتحدث عن الله.

قال: وهل هناك أحد يمكن أن يتشرف القلب ويتقدس بمحبته غير الله؟

قلت: الله يعبد.

قال: أعظم عبودية توجه لله هي محبته.. فلا خير في الحركات التي لا تصحبها المحبة.. إنها لا تكاد تختلف عن النفاق والرياء والخداع.

قلت: لقد جربت الحب، وذقت من آلامه ما رماني في هذه المقبرة.. ولولا تلك الأبيات التي سمعتها منك لكنت الآن في الموتى.

قال: ذلك هو الحب المدنس.. إنه لا يرميك إلا للمقابر أو مارستانات المجانين.. لأنه حب يبدأ بالصراع، وينتهي بالصراع.

قلت: الصراع!؟

قال: أجل.. كل محب يريد أن يستولي على قلب محبوبه، ويستأثر به.. فإذا ظفر به سامه من ألوان العذاب ما لعلك رأيت بعضه.

قلت: وهل هناك حب مقدس؟

قال: أجل.. وهو حب واحد.

قلت: حب من؟

قال: حب الواحد.. فحب كل ما عداه داء وألم..

قلت: إني أشعر بجمال ما تقول.. لكن ذهني لا يزال كليلا دون فهمه.

قال: يحق لك أن لا تفهم هذا.. فمن الصعب على من ارتمى في دنس الأدناس أن يترقى إلى قدس الأقداس.

قلت: أنت تعيدني إلى اليأس إذن؟

قال: لا.. بل أنا أنشر فيك الهمـة.. فلا يمكن لمنحـط الهمـة أن يطمع في مثل هذا الحب.

قلت: وما علاقة الهمة بهذا؟

قال: صاحب الهمة العالية يترفع أن يسلم قلبـه لأي كـان.. إنـه يبحث عن المحل المناسب له.. لقـد حـدث بعض العـارفين، وكـان اسمه بشر بن الحارث قال: مررت برجل وقد ضـرب ألـف سـوط في شـرقية بغـداد، ولم يتكلم ثم حمـل إلى الحبس، فتبعتـه فقلت له: لم ضربت؟ فقال: لأني عاشـق، فقلت لـه: ولم سـكت؟ قـال: لأنّ معشـوقي كـان بحـذائي ينظـر إليَّ، فقلت: فلـو نظـرت إلى المعشوق الأكبر قال: فزعق زعقة خرّ ميتاً..

قلت: لكني تعودت أن لا أحب إلا من أرى.

قـال: واللـه لا يغيب عن المحـبين أبـدا.. إن لم يـروه بالأبصـار المدنسة بدنس التبشبيه، رأوه بالبصائر المقدسة بأنوار التنزيه..

قلت: لقد ذكرت لك أني أشعر بجمال كلماتـك.. ولكن عقلي لا يزال كليلا دون فهمه.. فهلا انتقلت من الترقيق إلى التحقيق.

قال: لك ذلك.. فهذا هو الحب الوحيد الذي ينسجم فيـه العقـل مع القلب مع النفس.. ومع جميع اللطائف التي يتكـون منهـا بنيـان الإنسان.

قلت: من السهل عليك أن تقول هذا.

قال: ومن السهل علي أن أثبته لك.

قلت: إنـك أن أثبتـه لي لم تخلصـني أنـا فقـط.. بـل سـتخلص العالم أجمع.. هذا العالم الأسير لقلبه.

قـال: لاشـك أنـك مـررت في بريـة الحب المـدنس بالمرضـى والمجانين والحزانى والغافلين والمتوهمين والمنحرفين والقتلة..

قلت: لكأنك كنت معي في رحلتي.

قال: لم أكن معك بجسدي.. ولكن حقيقتي كانت معك.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد كنت أنا كل أولئك.. لقد صليت بجميع نيران الحب المدنس.. إلى أن جاء اليوم الذي حفرت فيه قبرا.. وكدت أسلم نفسي للموت.. ولولا أن الله خلصني بشمس الهداية لكنت الآن في حفرة من هذه الحفر.

قلت: لكأنك تحدثني عن نفسي.

قال: الإنسان واحد.. وسنن الله واحدة.. لقد أبى الله إلا أن يعذب من رغب عنه إلى غيره..

قلت: فما الذي رغبك في هذا الحب الذي تسميه مقدسا؟

قال: أشياء كثيرة.. لا يمكن حصرها.. ولكني سأكتفي بسبعة تقابل تلك السبعة التي صليت بنارها.

قلت: فما هي؟

قال: الصحة.. والعقل.. والفرح.. والحضور.. والحقيقة.. والاستقامة.. والحياة.

الصحة:

قلت: فحدثني عن **الصحة**.. فإن أول ما ينشره الحب في أهله هو تلك الأدواء التي لا يجد صاحبها لها ترياقا.

ابتسم، وقال: لقد عبر شعراؤكم من بني عذرة على ذلك، فقال أحدكم:

الحب داء عضال لا دواء له	يحار فيه الأطباء النحارير
قد كنت أحسب أن العاشقين غلوا	في وصفه فإذا بالقوم تقصير

قلت: بل منهم من زاد على ذلك، فراح يصيح:

ألا مـــا الهـــوى والحب بالشـــيء هكــــذا | يــذل بــه طــوع اللســان فيوصف
ولكنه شيء قضى اللــه أنه | هــو المــوت أو شــيء من المـــوت أعنف
فأولـه سـقم وآخـره ضـنى | وأوســطه شــوق يشــف ويتلف
وروع وتسهيد وهم وحسرة | ووجـــد على وجـــد يزيـــد ويضــــعف

قـال: صـدق الشـاعر، فـالحب في مقيـاس الحقيقـة مـوت حقيقي، فالروح المسلوبة، الغائبة عن نفسها، الفانية عن وجودهـا، المستسلمة لهواها روح ميتة.. ولذلك يعتـبر العـارفون هـذه الحـال مرضـا نفسـيا لا يقـع فيـه إلا ضـعاف العقـول، قـال الغـزالي: (مـا العشق إلا سعة إفراط الشهوة، وهو مرض قلب فارغ لا هم له)

قلت: سلمت لك بهذا.. فهل يخلـو الحب الـذي تـدعو إليـه من هذا؟

قال: أجل..

قلت: أثبت لي ذلك.

قال: ما أول ما ينشر المرض في المحبين؟

قلت: أشياء كثيرة.. منها فراق المحبوب أو إعراضه أو غيابه أو بغضه..

قال: ولذلك كان ذلك الحب مدنسا.. فمن الجنون أن تحب من يفارقك أو يعرض عنك أو يغيب أو يبغض..

قلت: لقد عرفت هذا الجنون في الحب المدنس.. فكيف يخلـو المقدس من هذا الدنس؟

قال: أما الفراق.. فإن محب الله لا يعرفه.. فالله لا يغيب أبدا.. بل هو أقرب إلينا من أنفسنا.. لقد قال الله تعالى يذكر قربه من عباده : وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)(البقرة: من الآية186)، وقال تعالى : إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ)(هود: من الآية61)، وقال تعالى: وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس:61)، وقال تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (قّ: 16)، وقال تعالى : وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ) (الواقعة:85)، وقال تعالى: مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (المجادلة: من الآية7)

وقد روي أن أعرابيًا قال: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبي ﷺ، فأنزل الله: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)(البقرة: من الآية186)(1)

وسأل أصحاب رسول الله ﷺ النبي ﷺ: أين ربنا؟ فأنزل الله عز وجل: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)(البقرة: من الآية﴾186(2)

وعن أبي موسى الأشعري، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غَزَاة فجعلنا لا نصعد شَرَفًا، ولا نعلو شَرَفًا، ولا نهبط واديًا إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير. قال: فدنا منا فقال: (يا أيها الناس، أرْبعُوا على أنفسكم؛ فإنَّكم لا تدعون أصمّ ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا بصيرًا، إن الذي تدعون أقربُ إلى أحدكم من عُنُق راحلته. يا عبد الله بن قيس، ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله)

1()رواه ابن مَرْدُويه، وأبو الشيخ الأصبهاني.

2()رواه عبد الرزاق.

(3)

سكت قليلا، ثم قال: لقد قال العارفون الـذين ذاقـوا لـذة هـذا القرب يعبرون عن هذا:

ومن عجب أني أحن إليهم
وأســــــــــأل عنهم من أرى وهم معي

وتطلبهم عيــــــني وهم في ســــــوادها
ويشـــــتاقهم قلـــــبي وهم بين أضـــــلعي

وقال الشبلي: رأيت جارية حبشية فقلت: من أين؟ قـالت: من عند الحبيب قلت: وإلى أين؟ قالت: إلى الحـبيب قلت: مـا تريـدين من الحبيب؟ قالت: الحبيب.

قلت: والإعراض!؟

فمن البليــــــــــــةِ أن تحبَ ولا يحبـــــكَ من تحبـــــهْ
ويصـــــــدَّ عنـــــــكَ بوجهِه وتلح أنتَ فلا تغبه

قال: كلهم قد يعرض عنك إلا الله.. فالله الكريم لا يعرض عن عباده، بل يقبلهم، بـل إنـه يـدعوهم بكـل الأسـاليب ليقبلـوا عليـه، رحمة منه وتفضلا ومودة.. لقـد ورد في الأخبـار أنـه كـان في بـني إسرائيل شاب عبد اللـه تعـالى عشـرين سـنة ثم عصـاه عشـرين سنة، ثم نظـر في المـرآة فـرأى الشـيب في لحيتـه فسـاءه ذلـك فقال: إلهي إني أطعتك عشـرين سـنة ثم عصـيتك عشـرين سـنة، فإن رجعت إليك أتقبلني؟ فسمع قائلاً يقول ولا يرى شخصاً: أحببتنا فأحببنـاك، وتركتنـا فتركنـاك، وعصـيتنا فأهملنـاك وإن رجعت إلينـا قبلناك.

وفي الأثر الإلهي من خطاب الله لعباده :

(3) رواه البخاري ومسلم.

(متى جئتني قبلتك..

إن أتيتني ليلا قبلتك.. وإن أتيتني نهارا قبلتك..

إن تقربت مني شـبرا تقـربت منـك ذراعـا.. وإن تقـربت مـني ذراعا تقربت منك باعا.. وإن مشيت إلى هرولت إليك.

لا تحجبك الخطايا عني، فلـو لقيتـني بقـراب الأرض خطايـا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا أتيتك بقرابهـا مغفـرة.. ولـو بلغت ذنوبـك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك.

هل هناك من هو أعظم مني جودا وكرما..

عبادي يبارزونني بالعظائم، وأنا أكلؤهم على فرشهم.

إني والجن والإنس في نبـإ عظيم: أخلـق ويعبـد غـيري وأرزق، ويشكر سواي خـيري إلى العبـاد نـازل وشـرهم إلى صـاعد أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم ويتبغضون إلي بالمعاصـي وهم أفقـر شيء إلي.

من أقبـل إلي تلقيتـه من بعيـد ومن أعـرض عـني ناديتـه من قريب ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد ومن أراد رضاي أردت ما يريد ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد.

أهل ذكري أهـل مجالسـتي وأهـل شـكري أهـل زيـادتي وأهـل طاعتي أهل كرامتي وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي إن تابوا إلي فأنا حـبيبهم فـإني أحب التـوابين وأحب المتطهـرين لم يتوبـوا إلي فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب.

من آثرني على سواي آثرته على سواه الحسـنة عنـدي بعشـر أمثالهـا إلى سـبعمائة ضـعف إلى أضـعاف كثـيرة والسـيئة عنـدي بواحدة فإن ندم عليها واستغفرني غفرتها له.

أشكر اليسير من العمل وأغفر الكثير من الزلل.

رحمتي سبقت غضبي وحلمي سـبق مؤاخـذتي وعفـوي سـبق

عقوبتي أنا أرحم بعبادي من الوالدة بولدها)(1)

بهذا الحديث الودود وغيره يخاطبنا ربنا، وبهذه العذوبة والجمال يدعونا إليه، ليرفع الحجب التي تحول بيننا وبينه، ويزيل الأعذار التي تعتذر بها عن التقرب إليه.

قلت: والبغض!؟.. إن أخوف ما يخاف المحب أن يبغضه محبه.

قال: لن تلقى من الله إلا المحبة.. فالله هو الودود الذي غمر الأكوان بوده.. ولذلك لا يعرض الله إلا على من أعرض عنه.. ولا يبغض إلا من أبغضه أو أبغض التقرب إليه.

العقل:

قلت: عرفت الأول.. فحدثني عن **الثاني**..

قال: لقد رأيت في برية الحب المدنس المجانين، وهم يهيلون على رؤوسهم التراب، ورأيت الأطفال، وهم يرمونهم بالحجارة.

قلت: أجل.. لقد رأيت ذلك.. وقد أصابني بعض ذلك.

قال: أتدري لم؟

قلت: لم أتعود البحث في أسرار الحب.. كنت أكتفي بالتعجب.. أو كنت أكتفي بأن أصلى بناره دون أن أبحث عن كيفية الخروج منه.

قال: لقد خلق الله لكل لطيفة من لطائف الإنسان محلها الذي لا تكمل إلا به.. ولا تستقر إلا به.. ولا تسكن إلا به.. فإن تحقق لها ذلك نعمت وسعدت وسلمت.. وإن لم يتحقق ثارت.. وقد يكون الجنون ثورة من ثوراتها.

قلت: قرب لي هذا.

قال: لقد خلق الله للمعدة طعاما هيأه لها في مطابخ القدرة يتناسب معها تناسبا تاما، فإن أقبلت عليه سلمت، وإن أعرضت

1() مقتبس من جملة أحاديث بتصرف.

عنه إلى ما لا يصلح لها أصابها من الجنون ما يملأ صاحبها بالألم.. ومثل ذلك خلق للرئتين هواء معينا تتنفسه.. فإن أعرضت عنه إلى غيره أصابها صاحبها من الضيق والألم ما قد يسلمه إلى الموت.

قلت: ما تقوله صحيح.. ولا يمكن لأحد أن يشك فيه.

قال: وهكذا عالم اللطائف.. لقد خلق الله قلب الإنسان.. والذي هو محل المواجيد محلا متوجها توجها كليا إلى الجمال الخالد الثابت الكامل.. فلذلك تجده يطلبه في كل محل، ويبحث عنه في كل مرآة..

قلت: ولكن لم يرضى بالجمال الزائل المتزعزع الناقص؟

قال: الغفلة ووساوس الشياطين.. وما يلقنه إياه رجال بني عذرة.

قلت: تقصد قومي؟

قال: أجل.. وفي البشر مثلهم كثير.. إنهم رجال صرفوا تلك اللطيفة من عالم القدس إلى عالم الدنس.. فصار الإنسان عبدا للإنسان.. وتمرغ عقل الإنسان السماوي وكرامة الإنسان السماوي في أوحال الطين.

قلت: ولكن القلب يجد بعض اللذة في ذلك؟

قال: إنها لذة لا تختلف عن لذة الخمرة(1).. ألم تسمع

1() نجد بعض العارفين يعبرون عن المحبة بالسكر، وهو من باب المشاكلة لا من باب الحقيقة، والأولى ترك مثل هذه التعابير لما توحي به من معان قد تفهم فهما خاطئا.. وقد اشتد ابن القيم في رده لمثل هذا، فقال: (وهذا المعنى (أي سقوط التمالك في الطرب الناشئ عن المحبة) لم يعبر عنه في القرآن ولا في السنة ولا العارفون من السلف بالسكر أصلا، وإنما ذلك من اصطلاح المتأخرين، وهو بئس الاصطلاح، فإن لفظ السكر والمسكر من الألفاظ المذمومة شرعا وعقلا، وعامة ما يستعمل في السكر المذموم الذي يمقته الله ورسوله قال الله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ (النساء: من الآية43)، وعبر به سبحانه عن الهول الشديد الذي يحصل للناس عند قيام الساعة فقال تعالى : يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (الحج:2)، ويقال: فلان أسكره حب الدنيا، وكذلك يستعمل في سكر الهوى المذموم.. فأين أطلق الله سبحانه أو رسوله أو الصحابة أو أئمة الطريق المتقدمون على هذا المعنى الشريف الذي هو من أشرف أحوال محبيه وعابديه اسم السكر المستعمل في سكر الخمر وسكر الفواحش كما قال عن قوم لوط لعمرك:

شعراءكم وهم يرددون:

سكران سكر هوى وسكر مدامة … ومتى إفاقة من به سكران

وعبر الآخر عن ذلك بقوله:

تسقيك من عينها خمرا ومن يدها خمرا … فما لك من سكرين من بد

لي سكرتان وللندمان واحدة … شيء خصصت به من بينهم وحدي

وعبر صفي الدين الحلي عن ذلك بقوله:

للعشقِ سكرٌ كالمدا … مِ (كالمدام) إِذا تمكنَ في العقولِ

يبقى اليسيرُ من الكث … رِ (الكثر) فكيفَ ظنُّكَ بالقليلِ

وعبر الشريف المرتضى عن ذلك، فقال:

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (الحجر:72)، فوصف بالسكر أرباب الفواحش وأرباب الشراب المسكر، فلا يليق استعماله في أشرف الأحوال والمقامات ولا سيما في قسم الحقائق ولا يطلق على كليم الرحمن اسما يسمى سكرا)

ثم أشار إلى أن الإنكار متوجه للألفاظ دون المعاني، فقال :(ونحن لا ننكر المعنى المشار إليه بهذا الاسم، وإنما المنكر تسميته بهذا الاسم، ولا سيما إذا انضاف إلى ذلك اسم الشراب، أو تسمية المعارف بالخمر، والواردات بالكؤوس، والله جل جلاله بالساقي فهذه الاستعارات والتسمية هي التي فتحت هذا الباب) (انظر: مدارج السالكين:3/306)

ونحن مع تسليمنا لما ذكره ابن القيم، إلا أنه لا ينبغي المبالغة في إنكار ما ذكره الصالحون بسبب هذه الألفاظ، فهو لم يذكر إلا على سبيل المشاكلة.. وكأنهم يقولون للمنتشي بنشوة الخمر، أو نشوة الحب الموهوم: دع عنك ما أنت فيه، وتعال للخمر الحقيقية التي لا تعدل نشوتها أي نشوة، ولا لذتها أي لذة.

صحا الذي يشـربُ الصـهباءَ مترعـــــــــــــــــــةً | وشاربُ الحُبِ أعيا أن يقالَ صَـــــــــــــــــــحا

لقد أشار ﷺ إلى هـذا المعـنى الـذي هـو حقيقـة الحب وأثـره، بقوله ﷺ :(حبك الشيء يعمي ويصم)(1)،

أي أن هذا النوع من الحب يجعل المحب مثل السكران لا يرى الأشياء على حقيقتها، فيعمى عن رؤية عيوب المحبوب، ويصم عن سماع العذال والناصحين، بل قد يلتـذ بملامتهم ونصـحهم لـذكرهم محبوبه، كما قال شاعركم:

وقـف الهـوى بي حيث أنت | فليس لي متــأخر عنــه ولا متقـــــــــــــــــــدم

وأهنتــني فــأهنت نفســي جاهـــــــــــــــــــدا | مــا من يهــون عليــك ممن يكـــــــــــــــــــرم

أشــهبت أعــدائي فصــرت أحبهم | إذ كــان حظي منــك حظي منهم

أجـــد الملامـــة في هـــواك لذيـــــــــــــــــــذة | حبا لذكرك فليلمــني اللــوم

ولهـذا نهت الملائكـة لوطـا ﵇ عن خطـاب قومـه ودعـوتهم، وجعلت سبب ذلك ما يقعون فيـه من سـكر الهـوى، قـال تعـالى : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾(الحجر:72)

فلذة السكر يغيب معها العقـل الـذي يعلم بـه القـول ويحصـل معه التمييز، كما قال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تَقْرَبُـوا الصَّـلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ (النساء: من الآية43)

فالآية الكريمة اعتبرت الغايـة الـتي يـزول بهـا حكم السـكر أن

(1) رواه أبو داود من حـديث أبي الـدرداء والوقـف أشـبه، وقـد بـالغ الصـغاني فحكم بوضعه ولهذا تعقبه العراقي قال: وابن أبي مـريم لم يتهم بكـذب بـل ولا شـديد الضـعف فهو حسن.(تذكرة الموضوعات:199)

يعلم السكران ما يقول، فمتى لم يعلم ما يقـول فهـو في السـكر، فإذا علم ما يقول خرج عن حكمه.

قلت: أكل ذلك الحب الذي تغنى بـه قـومي من بـني عـذرة لم يكن إلا نشوة لا تختلف عن نشوة الخمر؟

قال: أجـل.. وليس من فـرق بينهمـا إلا فـارق زمـني بسـيط.. فنشوة الخمر تأثيرها يمتد ساعات، بينما نشوة الحب الموهوم قــد تمتد إلى سنوات.

قلت: وإلام تنتهي؟

قـال: إلى مـا تنتهي إليـه نشـوة الخمـر.. صـداع في الـرأس، وتهتك في الجسد، وانتكاسة في الروح، وجنون في العقل..

قلت: فهذا الحب الذي يتغنى به كـل أولئـك لا يعـدوا أن يكـون نوعـا راقيـا من أنـواع المسـكرات، أو صـنفا ممتـازا من أصـناف المخدارت!؟

قال: أجل.. فأي سكير أو مـدمن خمـر يجـد مـا يجـده المحب العاشق، فكلاهما قـد يظفـر باللـذة، وكلاهمـا يعيش عـالم اللاوعي واللاعقل، وكلاهما في الأخير يزول عنـه ذلـك السـكر بانتهـاء مـدة تأثيره.

الفرح:

قلت: عـرفت هـذا.. فحـدثني عن **الفـرح**.. عهـدي بـالمحبين يفرحون سويعات اللقاء، ثم يتحولون إلى الحزن الدائم المقيم.

قال: وحق لهم أن يحزنوا.. ألم تعلم أن القلب لا يجد سعادته، ولا لذته، ولا فرحه إلا بلقاء حبيبه؟

قلت: بلى.. وقد جربته..

قـال: وتعلم أنـك إن فـرحت بشـيء، ثم ضـاع منـك، أو غـاب عنك، حزنت عليه بقدر فرحك به؟

قلت: أعلم ذلك.. وأحسب أن الكل يعلمه.

قال: وتعلم أنه إن كان في حبيبك ما يسوء وما يسر، فرحت بما سرك منه، واستأت بما ساءك منه؟

قلت: ذلك صحيح.. فما غرضك من كل هذا؟

قال: من الجنون أن تطلب الفرح واللذة والسعادة فيمن هذا حال حبه.

قلت: فما البديل لذلك؟

قال: الحب الذي لا يأتيك منه إلا الفرح والسعادة والرضى.. ذلك الحب الكامل الذي تجتمع فيه جميع لذات المحبين، وتموت عنده جميع هموم العاشقين..

ذلك الحب الذي يملأ جميع أركان القلب، ويستغرق جميع زوايا الوجدان..

ذلك الحب الذي يتوحد فيه الإنسان، فبشارك فيه العقل القلب، وتنسجم النفس فيه مع الجسد.

قلت: أين هذا الحب؟.. لقد نذرت حياتي جميعا للحب، فلم أجد حبا بهذا الوصف.

قال: ذلك الحب لا يتحقق إلا في الحب المقدس.. فهو الحب الوحيد الذي تجتمع عنده كل هذه الخصائص.. لقد عبر عن تلك الكمالات اللذيذة من ذاقه، فقال:

كان يسبى القلب فى كل ليله ثمانون	بل تسعون نفساً وأَرجح
يهيم بهذا ثم يأْلف غيره	ويسلوهم من فوره حين يصبح
وقد كان قلبى ضائعاً قبل حبكم	فكان بحب الخلق يلهو ويمرح
فلما دعا قلبى هواك أَجابه	فلست أَراه عن خبائك يبرح

حرمت الأَمانى منـك إِن كنت كاذبـــــــــــــــــــــاً
وإِن كنت فى الـــدنيا بغـــيرك أَفـــــــــــــــــــــرح

وإِن كـان شـيء فى الوجـود ســــــــــــــــــواكم
يقرَّ بـه القلب الجـريح ويفـرح

إِذا لعبت أَيدى الهوى بمحبكم
فليس لـه عن بـابكم مـتزحزح

فإِن أَدركته غربة عن ديـاركم
فحبكم بين الحشـا ليس يـبرح

وكم مشــتر فى الخلــق قــد ســـــــــــــــام قلبه
فلم يـــره إِلا لحبـــك يصـــلح

هـــوى غـــيركم نـــار تلظى ومحبس
وحبكم الفردوس أَو هـو أَفسح

فيــا ضــيم قلب قــد تعلــق غــــــــــــــــــيركم
ويا رحمـة ممـا يجـول ويكـدح

وقال آخر يذكر توحد لطائفه على محبة الله:

أروح وقــــــد ختمت على فــــــــــــــــــؤادي
بحبـك أن يحـل بـه سـواكا

فلو أني استطعت غضضـت طــــــــــــــــــرفي
فلم أبصــر بـــه حــتى أراكا

أحبـك لا ببعضـي بـل بكلي
وإن لم يبق حبك لي حراكا

وفي الأحبــاب مختص بوجد
وآخر يـدعي معـه اشـتراكا

إذا اشـــتبكت دمـــوع في خــــــــــــــــدود
تــبين من بكى ممن تبـاكى

فأما من بكى فيذوب شوقا	وينطـــق بـــالهوى من قـــد تبـــــــــــــــــــــاكى

وقد عجز العـارفون الـذين رزقهم اللـه هـذا الحب الكامـل عن التعبير عن مقداره، فذكروا بعض النسب للدلالة عليه، كما فعل أبو سليمان الـداراني حين أخـبر عن همـة العـارفيين، فقـال: (إن للـه عبـاداً ليس يشـغلهم عن اللـه خـوف النـار ولا رجـاء الجنـة فكيـف تشغلهم الدنيا عن الله؟)

أو عندما سـئل معـروف الكـرخي عن الهمـة الـتي دفعتـه إلى الإرادة والمجاهدة والتبتل، فسكت معروف، ليـترك للسـائل مجـالا للتخمين، قال السـائل : ذكـر المـوت، فقـال معـروف: وأي شـيء الموت؟ فقال: ذكر القبر والبرزخ، فقال: وأي شيء القبر؟ فقــال: خوف النار ورجاء الجنة، فقال: وأي شيء هذا؟ إن ملكـاً هـذا كلـه بـيده إن أحببته أنساك جميع ذلـك وإن كـانت بــينك وبــينه معرفـة كفاك جميع هذا.

أو عندما سأل الثوري رابعـة: مـا حقيقـة إيمانـك؟ فقـالت: مـا عبدته خوفاً من ناره ولا حباً لجنته فأكون كالأجير السوء، بل عبدتـه حباً له وشوقاً إليه، وقالت:

أحبــك حــبين حب الهــوى	وحبــاً لأنـــك أهْـــلٌ لـــذاكا
فأما الـذي هـو حب الهـوى	فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأمـــا الـــذي أنت أهـــلٌ له	فكشـفك لي الحجب حـتى أراكا
فلا الحمــــد في ذا ولا ذاك لي	ولكن لـــك الحمـــد في ذا وذاكا

قلت: حـدثتني حـديث المواجيـد، فحـدثني حـديث العقـل.. ألم تزعم انسجام هذا الحب مع العقل؟

قـال: صـدقت.. أجبـني.. مـا الـذي جعـل قلبـك ينجـذب كـل

الانجذاب لكل من أحببت؟

قلت: أشياء كثيرة لا أكاد أحصيها.. بل لا أكاد أعرفها.

قال: لكن العـارفين الخـبراء الـذين أطلعهم اللـه على أسـرار القلوب عرفوها، وحاولوا إحصاءها، وقد وجدوا أنها مهما تشعبت لا تعدو ثلاثة.

قلت: فما هي؟

قال: **أولها** حب الإنسـان لنفسـه، فـالمحبوب الأوّل عنـد كـل حي: نفسه وذاته.. هذه سـنة اللـه.. و لَنْ تَجِـدَ لِسُـنَّتِ اللَّهِ تَبْـدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً)(فاطر: من الآية43)

قلت: ما تعني بحب الإنسان لنفسه؟

قال: كل إنسان فطر على حبـه لـدوام وجـوده، وعلى النفـور من عدمــه وهلاكــه، (فلــذلك يحب الإنســان دوام الوجــود ويكــره الموت والقتل، لا لمجرّد ما يخافه بعد الموت ولا لمجرّد الحـذر من سكرات الموت، بل لو اختطف من غير ألم وأميت من غـير ثـواب ولا عقاب لم يرض به وكان كارهاً لـذلك، ولا يحب المـوت والعـدم المحض إلا لمقاســاة ألم في الحيــاة، ومهمــا كــان مبتلى ببلاء فمحبوبه زوال البلاء، فإن أحب العدم لم يحبه لأنه عدم بل لأنّ فيه زوال البلاء، فالهلاك والعدم ممقوت ودوام الوجود محبوب)(1)

وكما أن الإنسان يحب أصل وجوده ودوامـه، فإنـه كـذلك يحب كمال وجوده، لأن الناقص فاقد للكمال، والنقص عدم بالإضافة إلى القدر المفقود وهو هلاك بالنسبة إليه.

وهو لذلك يحب كل مـا يكمـل هـذا الوجـود، فهـو يحب سـلامة أعضائه، ويحب ماله وولده وعشيرته وأصدقاءه، وكل ذلك لتوقــف كمال وجوده عليها.

فحبه لولده ـ مثلا ـ وإن كان لا يناله منه أي حظ، بل قد يتحمل المشاق لأجله يرجع لاعتقاده بأنه سيخلفه في الوجود بعد عدمه، (

1() الإحياء:4/297.

فيكون في بقاء نسله نوع بقاء له، فلفرط حبه في بقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه لما عجز عن الطمع في بقاء نفسه أبداً)

ومثل ذلك حبه لأقاربه وعشيرته، (فإنه يرى نفسه كثيراً بهم قوياً بسببهم متجملاً بكمالهم، فإنّ العشيرة والمال والأسباب الخارجة كالجناح المكمل للإنسان، وكمال الوجود ودوامه محبوب بالطبع لا محالة)

قلت: عرفت هذا.. وأحسب أن الكل يعرفه.. فلا أحد من الناس يجادل في حبه لنفسه.. بل إن الكثير يجمح به حبه لنفسه إلى الأنانية المقيتة، والأثرة البغيضة.. ولكن كيف ينسجم الحب المقدس مع هذا.. بل كيف يكون مقدسا، وهو يرعى مثل هذا؟

قال: الحب المقدس هو الحب الذي يراعي الفطرة، وسلامة الفطرة.. فلا ينكسها ولا يعكسها.. وهو لذلك يرعى هذه الناحية ويهذبها ويعطيها البديل الذي تكف به عن كل شطط أو جموح.

قلت: كيف يجتمع له كل هذا؟

قال: لأن من عرف نفسه وعرف ربه علم (أنه لا وجود له من ذاته، وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده من الله وإلى الله وبالله، فهو المخترع الموجد له وهو المبقي له وهو المكمل لوجوده بخلق صفات الكمال وخلق الأسباب الموصلة إليه وخلق الهداية إلى استعمال الأسباب، وإلا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته، بل هو محو محض وعدم صرف لولا فضل الله تعالى عليه بالإيجاد)(1)

ثم هو بعد هذا الوجود المستفاد من الله هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالإبقاء، ثم هو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل، فليس في الوجود من يقوم بنفسه إلا الله الذي هو قائم بذاته، وكل ما سواه قائم به.

فلهذا إذا أحب العاقل ذاته أحب من يقوم بها، فإن كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه وبربه، فالمحبة ثمرة المعرفة تنعدم بانعدامها

(1) الإحياء: 4/301.

وتضعف بضعفها وتقوى بقوّتها.

ومثال هذا المبتلى بحرّ الشمس، فإنه لما كان يحب الظل، فإنه بالضرورة يحب الأشجار التي بها قوام الظل، (وكل ما في الوجود بالإضافة إلى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالإضافة إلى الشجر والنور بالإضافة إلى الشمس فإنّ الكل من آثار قدرته، ووجود الكل تابع لوجوده، كما أن وجود النور تابع للشمس ووجود الظل تابع للشجر》 (1)

قلت: عرفت الأول، ووعيته، فما **الثاني**؟

قال: حب الإنسان لمن أحسن إليه.

قلت: صحيح هذا، فقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، وقد قال في ذلك شاعرنا:

وَقَيَّدْتُ نفسي في ذراك محبةً	ومن وجدَ الإِحسانَ قيداً تقيدا

وقال الآخر:

أحسنْ إلى الناسِ تَسْتَعبِدْ قلوبَهمُ	فطالما استعبدَ الإنسانَ إِحسانُ
من جادَ بالمالِ مالَ الناسُ قاطبةً	إليه والمالُ للإنسانِ فتانُ

قال: لقد قال نبينا ﷺ مشيرا إلى هذا السبب:(إن استطعت أن لا يكون لفاجر عندك يدا فافعل)(2)

وكان مما يقوله ﷺ في دعائه :(اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي يدا ولا نعمة، فإني وجدت فيما أوحيته إلي : لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

1() الإحياء: 4/301.

2() الفردوس بمأثور الخطاب.

(المجادلـة: من الآية22)(3)- ففي هـذا إشـارة إلى أن حب القلب للمحسن حب اضطراري لا يسـتطاع دفعـه، وهـو جبلـة وفطـرة لا سبـيل إلى تغيـيرها.

قلت: ألا ترى أن هذا السبب هو عين السبب السابق؟

قال: ذلك صحيح، فالإحسـان سـبب إلى دوام الوجـود وكمـال الوجود وحصول الحظوظ التي بها يتهيأ الوجود.. لكن بينهمـا ــ مـع ذلك ـ فرقا.. فالحب في السبب الأول ذاتي، بينما هو تبعي في هذا السبب، (ففرق كبير بـين حب الصحة وبـــين حب الطبــيب الـذي هو سبب للصحة، إذ الصـحة مطلوبـة لـذاتها والطبــيب محبـوب لا لذاته بل لأنه سبب للصحة، وكذلك العلم محبوب والأستاذ محبوب، ولكن العلم محبـوب لذاتـه والأسـتاذ محبـوب لكونـه سـبب العلم المحبوب، وكذلك الطعام والشراب محبوب والدنانير محبوبة، لكن الطعام محبوب لذاته والدنانير محبوبة لأنها وسيلة إلى الطعام)(1)

فالفرق بين هذه المحبوبات راجع إلى الدرجـة الـتي تحلهـا من القلب، وكلها من حيث مصـدرها ترجـع إلى حب الإنسـان لنفسـه، (فكل من أحب المحسن لإحسانه فما أحب ذاتـه تحقيقـاً بـل أحب إحسـانه، وهـو فعـل من أفعالـه لـو زال زال الحب مـع بقـاء ذاتـه تحقيقاً، ولـو نقص نقص الحب ولـو زاد زاد، ويتطـرّق إليـه الزيـادة والنقصان بحسب زيادة الإحسان ونقصانه)

قلت: وعيت هذا.. ولا أحسب أني أخالفك فيـه.. فكيـف اكتمـل هذا السبب في الحب المقدس؟

قـال: بـل لم يكتمـل هـذا السـبب، بـل لم يوجـد إلا في الحب المقدس.. فليس هناك من نعمة في الوجود إلا واللــه سـببها الأول والمباشر.. فالله هو المحسن الوحيد، وكل من عداه محسن إليه.. لقد قال الله تعالى يذكر ذلك : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَـــةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْـهِ تَجْـأَرُونَ ﴾ (النحـل:53)، وأخبرنـا عن اسـتحالة عده لنعمه علينا، فقال: ﴿ آتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ

3() رواه أبو أحمد العسكري.

1() الإحياء: 4/298.

اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْأِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (ابراهيم:34)

قلت: كيف يكون الله هو المحسن الوحيد.. ونحن نرى الكل يمارس هذه الوظيفة؟

قال: أرأيت لو أن ملكا من الملوك أمر بعض خدمه بأن يهبك ما تشاء من الأموال والقصور وأنواع المتاع.. أكنت ترى تلك النعم من الملك، أم من ذلك الخادم البسيط الذي لم يقم إلا بما أمره به الملك؟

قلت: بل أرى كل تلك النعم من الملك.. أما الخادم فليس إلا عبد مأمور.. ولو أن الملك أمره بقتلي لفعل؟

قال: فهكذا كل الخلائق التي تراها منعمة عليك.. هي في الحقيقة وسائط الجود لا عين الجود.

قلت: عرفت الثاني، ووعيته، فما **الثالث**؟

قال: الجمال.

قلت: لن يجادلك أحد في هذا.. فلولا الجمال ما سقطت القلوب في أودية الهوى..

قال: لقد ذكر الله تعالى هذا، فذكر عن امرأة العزيز أن قلبها قد امتلأ بحب يوسف حتى صارت لا تملك من أمرها شيئا، ثم ذكر جماله وتأثيره في النسوة، فقال: فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (يوسف:31)

قلت: فالقرآن يقر به، فكيف تنكره أنت؟

قال: أنا لا أنكره.. ولكني أنكر أن يرضى الإنسان بحبس قلبه في قفص العيون النجل، أو الخدود المتوردة، أو يرضى أن يشنق بالشعر الأشقر المبسوط..

قلت: فما المخرج من ذلك؟

قـال: الحب المقـدس.. الحب المقـدس هـو الوحيـد الـذي لا يصلح القلب إلا به، ولا تكمل مطامح الإنسان في الفـرح الخالـد إلا به.

قلت: وما عداه؟

قال: أنت ترى وأنت تسمع.. ولا شك أنك ذقت..

ثم أخذ ينشد:

أيـا رُبَّ وجـهٍ في الـترابِ عـتيقِ ... ويـا ربَّ حُسْـنٍ في الـترابِ رقيـقِ

ويـاربَّ حـزمٍ في الـترابِ ونجـدةٍ ... ويـا ربَّ رأيٍ في الـترابِ وثيـقِ

أرى كُـلَّ حيٍّ هالكـاً وابنُ هالـكٍ ... وذا نسـبٍ في الهـالكينَ عريـقِ

فقـلْ لقـريبِ الـدارِ : إنـكَ ظـاعنٌ ... إِلى مـنزلٍ نـائي المحـلِّ سـحيقِ

قلت: أنت تشير إلى الهلاك؟

قال: وأشير قبله إلى الذبول.. ألم تر تلك الـورود الـتي امتلأت بها الساحات في عيد الحب.. كيف تحولت في المساء إلى هشـيم لا ترضاه العين، ولا يقبل عليه القلب؟

قلت: بلى..

قال: ولهذا، فإن القرآن الكريم ينهى عقولنا وقلوبنـا أن تتعلـق بالفاني والذابل والهالك.. لقد قال الله تعالى يشير إلى الـدنيا بكـل ما فيها من الحسـناوات :﴿ وَاضْـرِبْ لَهُمْ مَثَـلَ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا كَمَـاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّـمَاءِ فَاخْتَلَـطَ بِـهِ نَبَـاتُ الْأَرْض فَأَصْبَحَ هَشِـيماً تَـذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً ﴾ (الكهف:45)

قلت: فما الذابل، وما الهالك، وما الفاني؟

قال: كل ما أسر المحبين من ذلك الجمال المغشوش.. الــذي هو أقرب إلى السراب منه إلى الماء..

سـكت قليلا، ثم قـال: لاشـك أنـك مـررت في رحلتـك بجميـل وعروة وقيس وكثير.. وغيرهم كثير.

قلت: أجل.. لكأنك كنت معي في رحلتي..

قال: لقد كنت معك.. وكنت جميع أولئك.. لكني سألت نفسي، وقلت: أرأيت لــو أن المجنــون لم يــر ليلى إلا بعــد أن عمــرت، وصارت عجوزا شـمطاء.. أكـان يكن لهـا كـل ذلـك الحب، أو كـان يمكن أن يجن بسببها.. أو كان يمكن أن يرضى بها زوجا؟

ابتسمت، وقلت: حينذاك سيجن أيضا.. لكن لا بسبب حبـه لهـا، بل بسبب بغضه لها.. ألم تسمع قول الشاعر:

إِن العجــوزَ فــاركٌ ضـجيعَها   تسيلُ من غير بكىً دموعُها

تمــــدِّدُ الوجـــــهَ فلا يطيعُها   كــأن من يضــيفُها يضــيعها

وقول الآخر:

لا تنكحَنَّ عجـــــوزاً إِن أتيتَ   واخلعْ ثيابكَ منها ممنعاً هربا بها

وإِن أَتَوْكَ فقالوُا إِنها نَصــفٌ   فإِن أمثلَ نصفَيها الذي ذَهَبا

قلت: سلمت لك بهذا، فكل جمال سيذبل لا محالة.

قال: ومن الغبن أن تحب ما يذبل.. لأن قلبك سيذبل مثـل مـا يذبل من تحبه.

قلت: وهل هناك شيء لا يذبل؟

قال: الجمال المقدس عن الدنس.. الجمال الذي لا تغير عليـه الأيام والليالي.. ولا تكر عليه جحافل المرض والهرم.

قلت: ولكنـا تعودنـا على أن لا نـرى الجمـال إلا في تناسـب الخلقة والشكل وحسن اللون، وكون البياض مشرباً بالحمرة وامتداد القامة وغير ذلك..

قال: لا.. هذا لا يقوله إلا المحبوس في سجن الخيالات.

قلت: كلنا سجين الخيالات..

قال: ومع ذلك فإن عقولنا تتحرر في أحيان كثيرة من هذه السجون.. بل ترانا نذم ما أطبقت العيون على حسنه.

ألم تسمع شاعركم، وهو يقول:

لا خَيْـرَ في أوجـهٍ صِـباحٍ	تسـفرُ عن أنفسٍ قبـاحِ
كـالجُرْحِ يُبْـنى على فَسـادٍ	بظـاهرٍ ظـاهرِ الصَّـلاحِ
فقُـلْ لمن مالُـه مصـونٌ	أُصِـيْتَ في عِرْضِـكَ المباحِ

قلت: بلى.. وقد سمعت قول الآخر:

على وَجْـهِ ميٍ مسـحةً من ملامحـةٍ	وتحتَ الثيابِ الشينُ لو كان باديا
ألم تـرَ أن المـاءَ يخبثُ طعمُـهُ	وإن كـانَ لـونُ المـاءِ أبيضَ صـافيا

وقول الآخر:

لا تغتررْ بهـوى الملاحِ فربما	ظهرتْ خلائـقُ للملاحِ قبـاحِ
وكذا السيوفُ يرون حِسـنَ صِـقالها	وبَحـدِّها تتخطـف الأرواحُ

قال: فالجمال أعمق إذن من أن ينحصر في مضيق الخيالات.

قلت: ذلك صحيح.. ولكن ما الذي جعلنا نحصره في مضيق

الخيالات؟

قال: أشياء كثيرة.. لا يمكننا حصرها.. لعـل أهمهـا هـو الفـراغ الذي يجده القلب، فيعشق أول من يصـادفه.. إنـه يفعـل نفس مـا تفعله المعدة الجائعة حين تبحث عن أي طعـام يقابلهـا لتملأ نهمهـا به.

قلت: أهكذا الحب؟

قال: هكذا الحب المدنس.

قلت: والحب المقدس؟

قال: إن القلب المترفع الذي هـو محـل الحب المقـدس يـترفع أن يستسلم لأي إغـراء من أي جهـة من الجهـات.. إنـه لا يقبـل إلا بالجمال الذي لا يذبل، والصفاء الذي لا يكدر.

قلت: فأين نجد هذا؟

قال: الله.. الله هو البـديع والجميـل الـذي لا يسـكن القلب ولا يستقر إلا في محبته.

قلت: ولكنا لم نر الله.

قـال: لم نـره بأبصـارنا القاصـرة.. ولكنـا يمكن أن نـراه بكـل لطائفنـا.. بـل يمكننـا أن نصـحبه.. ويكفي ذلـك لأن نمتلئ عشـقا لجماله.

قلت: لا يزل ذهني كليلا دون فهم هذا.

قال: ألسنا نقول في أحاديثنـا :(هـذا خلـق حسـن.. وهـذا علم حسن.. وهذه سيرة حسنة.. وهذه أخلاق جميلة)؟

قلت: بلى.. وصـدقنا في ذلـك.. فنحن نستشـعر جمـال هـذه الأشياء.

قـال: ألسـنا نشـعر بجاذبيـة تربطنـا ببعض النـاس ممن التهم أجسادهم التراب؟

قلت: بلى.. فنحن نحب الكرمـاء والرحمـاء والعلمـاء والأدبـاء.. الذين لا تحلو المجالس إلا بذكرهم، ولا المصنفات إلا بأخبارهم، ولا الحياة إلا بعطر أزهارهم.

قـال: فكيـف بمن جمـع كـرم الكرمـاء وحلم الحلمـاء وعلم العلماء.. ولم تكن في هـذا الكـون مكرمـة ولا فضـل ولا جمـال إلا منه وبه وله؟

قلت: أيوجد مثل هذا؟

قال: بل إن وجود هذا هو الوجود الحقيقي الواجب.. ومـا عـداه ظلال.

قلت: أين؟

قال: الله.. فالله هو الجميل الـذي حـوى كـل جمـال، والكـريم الذي حوى كل كرم، واللطيف الذي حوى كل لطف، والبـديع الـذي حوى كل بديع.. ولو ظللنا على مقدار الأنفاس تعدد كمالات الله ما انتهينا.. لقد قال الشاعر الصالح يذكر ذلك:

ومـع تفنن واصـفيه بمدحه   يفـنى الزمـان وفيـه مـا لم يوصف

الحضور :

قلت: وعيت هذا، فحدثني عن **الحضور**.. ما مرادك منه؟

قال: ألم تر أولئك الذين شربوا من خمرة الحب المدنس كيف انشغلوا عن لطائفهم وعن حيـاتهم وعن جميـع مـا وكـل إليهم من مسؤوليات؟

قلت: بلى.. لقـد رأيتهم منشـغلين بـذكر من أحبـوهم.. فهم غائبون بهم عمن سواهم.

قال: الحياة لا تستقيم بذلك.. الحياة لا تستقيم إلا بالحضور.

قلت: لم أفهم مرادك من الحضور.

قال: لقد خلق الله الموازين.. فقال تعـالى : وَالسَّـمَاءَ رَفَعَهَـا وَوَضَـعَ الْمِـيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَـوْا فِي الْمِـيزَانِ (8) وَأَقِيمُـوا الْـوَزْنَ بِالْقِسْـطِ وَلَا تُخْسِـرُوا الْمِـيزَانَ (9)(النجم)، وقـال تعـالى : لَقَـدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَـاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَـابَ وَالْمِـيزَانَ لِيَقُـومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25) (الحديد)

قلت: ما علاقة الموازين بالحضور؟

قال: لقد خلق الله الحياة وكل ما في الحيـاة لرسـالة معينـة.. ولا يمكن أن تستقيم الحياة إلا بأداء تلك الرسالة.. فلذلك كان كـل شاغل عنها حجابا خطيرا يتدنس به الإنسان، وتتدنس به الحياة.

قلت: ولكن المحب لا يمكن أن يحب إلا بعـــــد أن يغيب في جمال محبوبه عن كل حضور.

قال: إلا محب اللـه.. فـإن اللـه لا يغيب.. وفي كـل حركـة من حركات العبد.. وفي كل سكنة من سـكناته رسـالة من اللـه إليـه.. والعبد المحب هو الذي يفك رموزها.. ليسير من خلالها إلى الله.

لقد قالت رابعة تذكر هذا:

ولقــد جعلتــك في الفــؤاد محـــــــــــــــدثي	وأبحت حســـــمي من أراد جلوسي
فالجســـم مـــني للجليس مـــــــــــــؤانس	وحــبيب قلــبي في الفــؤاد أنيسي

الحقيقة:

قلت: وعيت هـذا، فحـدثني عن **الحقيقة**.. فقـد سـئمت من أوهام الحب.

قال: لا حقيقـة إلا في الحب المقـدس.. أمـا مـا عـداه، فـوهم وسراب.. ألم يقل شاعركم:

الحبُّ يَـذْهَبُ بـالفوارقِ كُلِّها ... ويجيبُ الشقراءَ والسـمراءَ

ويجمِـلُ الشـوهاءَ حـتى لا تــرى ... عينُ المحبِ حبيبـةً شـوهاءَ

قلت: بلى.. وقد رأيت قبله بديارنا ببـني عـذرة المجنـون، وهـو يمر على ديار ليلى يقبل جدرانها، ويقول:

أمـرُّ على الـديارِ ديـارِ ليلى ... أقبلُ ذا الجـدارَ وذا الجـدارا

وما حبُّ الديارِ شَغَفْنَ قلبي ... ولكن حبُّ من سَكَنَ الديارا

بل سألته مـرة، فقلت لـه: أي شـيء رأيتـه أحب إليـك؟ قـال: ليلى.. قلت له: دع ليلى، فقد عرفنا مـا لهـا عنـدك، ولكن سـواها، قال: والله ما أعجبني شيء قط فذكرت ليلى إلا سقط من عيـني، وأذهب ذكرها بشاشـته عنـدي، غـير أني رأيت ظبيـاً مـرة فتأملتـه وذكرت ليلى فجعـل يـزداد في عيـني حسـناً، ثم إنـه عارضـه ذئبٌ وهرب منه فتبعته حتى خفيا عني فوجدت الذئب قد صـرعه وأكـل بعضه، فرميته بسهم فما أخطأت مقتله، وبقرت بطنه فأخرجت ما أكل منه، ثم جمعته إلى بقية شلوه، ودفنته وأحرقت الذئب، وقلت في ذلك:

أبى اللـــــه أن تبقى لحي بشاشـــــــــةٌ ... فصبراً على مـا شـاء اللـه لي صـــــــــــبرا

رأيت غــزالاً يرعــتي وســط روضـــــــــــةٍ ... فقلت أرى ليلى تــراءت لنــا ظهـــــــــــرا

فيا ظـبي كـل رغـدا هنيئاً ولا تخف ... فإنك لي جارٌ ولا ترهب الدهرا

وعنــدي لكم حصــنٌ حصــينٌ وصـــــــــارمٌ ... حسامٌ إذا أعملته أحسن الهبرا

ما راعني إلا وذئبٌ قـد انتحى فــأعلق في أحشــائه النــاب والظفـــــــــــــــرا

ففــوقت ســهمي في كتــوم غمزتها فخالط سـهمي مهجـة الـذئب والنحـــــــــــــــــرا

فـأذهب غيظي قتلـه وشـفى جـــــــــــــــوىً بقلبي إن الحر قد يدرك الوترا

ثم رأيت بعدها آخر، وهو يقول:

وإني ليرضـيني الممـر ببابها وأقنـــع منهـــا بالشـــتيمة والزجر

بل رأيت بعدها آخر، وقـد بلـغ بـه الجنـون عتـوه، وهو يصيح:

لو حز بالسـيف رأسـي في محبتها لطـار يهـوي سـريعا نحوهـا رأسي

قـال: لقـد كنت أقـول مثـل هـؤلاء إلى أن عـرفت الحقيقـة، فمسحت عن عيني كل وهم..

قلت: وما عرفت؟

قال: عندما امتلأ قلبي بحب الغواني قـرأت كلمـة في القـرآن الكريم رفعت عني كل ذلك الوهم.

قلت: كلمة واحدة!؟

قال: أجل.. كلمة واحدة رفعت كل تلك الزخـارف الـتي زينت بها أوهام الحب.

قلت: فما هي؟

قال: (**زُيِّنَ**).. فهذه اللفظة القصيرة في مبناهـا العظيمـة في معناها دلتني على الحقيقة..

قلت: أي حقيقة؟

قال: إن كلمة (زُيِّنَ) تشير إلى أن ذلك المـزين قـد كسـي من الأثواب، ووضع عليـه من المسـاحيق مـا أحالـه حسـنا وجميلا، وإن كان في أصله قبيحا ودميما، فالمزين ليس جميلا بالضرورة.

ولهذا يـبين القـرآن الكـريم كثـيرا من مظـاهر الـتزيين الـتي لا تتناسب مـع كـل الأذواق، ولكن القلـوب المسـتعدة لـذلك الـتزيين تتناسب معها وتفرح بها وتتعجب ممن لا يتذوق حلاوتها.

ومنها تلك القلـوب الـتي أودعت فلـذات أكبادهـا جـوف الـثرى مخافة أن تقتسم معها لقمة العيش أو مخافة السـبة والعـار، وهي تبتسم فرحا، وكأنها تخلصت من وزر ثقيـل ينـوء بـه ظهرهـا، قـال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنْ الْمُشْـرِكِينَ قَتْـلَ أَوْلَادِهِمْ شُـرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَـاءَ اللَّهُ مَـا فَعَلُـوهُ فَـذَرْهُمْ وَمَـا يَفْتَرُونَ ﴾ (الأنعام:137)

ومنها التي استحلت ألسنتها الطافحة بـألوان الخبث سـب اللـه تعالى وكأنه حلوى لذيذة أو فاكهة شهية، وقد نهي المسـلمون عن سبهم أو مناقشتهم في ذلك لأن حلاوة الكفر قـد تشـربتها قلـوبهم وذاقت لذتها وتمكنت منها، وفرق كبير بين مجرد الكفر وبين الكفر المزين في القلب، ولهذا يكون أبعد الناس عن اتباع الرسل رجـال الـدين الـذين اسـتحلوا صـناعة التـدين وتمكنت من قلـوبهم، قـال تعـالى :﴿ وَلَا تَسُـبُّوا الَّذِينَ يَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُـبُّوا اللَّهَ عَـدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام:108)

ومنها القلوب المصرة العنيدة التي تحملت لأواء الشـدائد وهي تقبض ألسنتها بشدة عن دعاء اللـه اسـتغناء عن اللـه وترفعـا عنـه كما يقبض اللئيم يده عن الكريم حسـدا وتعاظمـا واسـتنكافا، قـال تعالى :﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُـنَا تَضَـرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَـتْ قُلُـوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام:43)

ومنها القلوب التي ينقل القرآن الكريم عجب الهدهد منها، وهو الحيـوان الصـغير الضـعيف صـاحب الجمجمـة الصـغيرة والطاقـة الفكرية الضعيفة حين رآها تعفر الـثرى لمخلـوق مثلهـا، لم يخطـر على باله قط وهو الحيوان أن هناك من يبيع اللـه بأشـعته الحارقـة أو الدافئة، قال تعالى : ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّـيْطَانُ أَعْمَـالَهُمْ فَصَـدَّهُمْ عَنْ السَّـبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (النمل:24)

والخلاصـة الـتي يعطيهـا القـرآن الكـريم في ذلـك هي أن كـل الانحرافات التي وقعت فيها الـديانات والمـذاهب والنفـوس مزينـة وليست زينة، فهي محسنة بأنواع الحلي والمساحيق والحلل، بينمـا تبرز الدمامة بكل مظاهرها والبشاعة بكل صورها لكل من انشغل بالحقيقة عن المظهر، ولم تنسه نشـوة الفـرح الكـاذب مـا تخفيـه الصور.

قلت: مـا دام الأمـر هكـذا، فكيـف نمـيز بين الزينـة الحقيقيـة والزينة المزيفة؟

قال: كل زينة أسـرتك، أو ألهتـك عن حقيقتـك، أو أبعـدتك عن الوجود، أو وضعت الحجب بينك وبين ربك زينة مزيفة..

قلت: فكيف أميز بين الحقيقة والوهم؟

قال: بالبصيرة الإيمانية النافذة الـتي كـانت مركبـة في عقـول الذين آمنوا عندما مر بهم قـارون، وهـو في مـوكب الزينـة يسـلب الألباب وينشر الحسد والغبطة.

لقد نقل لنا القرآن الكريم بدقة صورة ذلـك المـوكب، وصـورة النفوس التي كانت تلتف به، قال تعـالى :﴿ فَخَـرَجَ عَلَى قَوْمِـهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَـظٍّ عَظِيمٍ وَقَـالَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَـوَابُ اللَّهِ خَيْـرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ (القصص:80)

والخلاف الذي وقـع بين هـذين الفـريقين ــ كمـا ينقلـه القـرآن الكريم ـ ليس في أصل الزينة، فكلا من المؤمنين والـذين يريـدون الحياة الدنيا يبصرونها وتشتهيها أنفسهم، لكن الفرق بينهمـا حصـل

فيما بعد الزينة وما خلفها، فالمؤمنون كانوا يشاهدون بعيونهم آثـار تلـك الزينـة المؤقتـة الملطخـة بـآلاف العيـوب، ولعـل أقلهـا فـرح صاحبها بها وانشغاله بها عن ربه، بينما الذين يريـدون الحيـاة الـدنيا كانت أعينهم عميا عن إبصار المدى البعيد الذي يبصره المؤمنون.

ولهذا يصور القـرآن الكـريم الـذين لا يؤمنـون بـالآخرة بصـورة الأعمه المتردد الحـائر بين نـوازع نفسـه الكثـيرة المتناقضـة، قـال تعـالى يصـور هـذه الحـيرة : إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُـونَ بِـالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (النمل:4)

الاستقامة:

قلت: وعيت هذا.. فحـدثني عن **الاستقامة**.. فقـد رأيت من ضحايا انحرافات الحب ما ملأني بغضا له.

قـال: ذلـك الحب المـدنس.. فـالقلب الـذي دنس بالأوهـام، واكتحلت عينه بهـا، لا يمكنـه أن يبصـر الطريـق، فكيـف يمكنـه أن يستقيم عليها.

قلت: والحب المقدس!؟

قـال: ليس هنـاك في الوجـود من يحـرك القلـوب والعقـول والجوارح وجميع اللطائف مثل هذا الحب.. لقد أشار إلى هذا أولياء الله وورثة النبوة.. فعن صادق آل محمد ﷺ أنه قال: (حبّ اللّـه إذا أضاء على سرّ عبد أخلاه عن كلّ شـاغل وكـلّ ذكـر سـوى اللّـه، و المحبّ أخلص النـاس سـرّا للّه وأصـدقهم قـولا وأوفـاهم عهـدا وأزكاهم عملا وأصفاهم ذكرا وأعبدهم نفسا يتباهى به الملائكة عند مناجاته وتفتخر برؤيته، وبه يعمر اللّـه تعـالى بلاده وبكرامتـه يكـرم اللّه عباده، يعطيهم إذا سـألوه بحقّـه، ويـدفع عنهم البلايـا برحمتـه، فلو علم الخلق ما محلّه عند اللّه و منزلته لديه لما تقرّبوا إلى اللّـه إلّا بتراب قدميه)

قلت: كيـف يكـون لحب اللـه كـل هـذه السـطوة.. وأين ذهبت النفس الأمارة بالسـوء؟ وأين ذهب الشـيطان الـرجيم المشـغوف بالوسوسة؟

قال: أليس المحب مطيعا لمحبوبه؟

قلت: بلى.. بـل إن كـل المحـبين يزعمـون أنهم على دين من أحبوا.. وقد قال في ذلك رجل منا:

إنَّ هَـــوَاكَ الَّذِى بِقَلـــبى صَـــيَّرَنِى سَـــامِعاً مُطِيعَا

وقال آخر:

كنْ إِذا أحبَبْتَ عبـــــداً للـــذي تَهـــوى مطيعا
لن تنـــالَ الوصـــلَ حـــتى تلـــزم النفسَ الخضـــوعا

وقال آخر:

اخضـــــع وذل لمن تحب فليس في شــرع الهـوى أنـف يشـال ويعقد

وقال آخر:

مساكين أهل العشـق حـتى قبـــــــــورهم عليهـــا تـــراب الـــذل بين المقـــــــــابر

وقال آخر:

قالوا عهدناك ذا عــز فقلت لهم لا يعجب النـــاس من ذل المحبينا
لا تنكروا ذلة العشــاق إنهم مســتعبدون بـــرق الحب راضــــــــونا

قال: وبمـا أن من أحبـوا لا دين لـه لم يكن لهم دين.. ومن لم يكن لـه دين لم يكن لـه خلـق.. ومن لم يكن لـه خلـق لم تكن لـه استقامة.

قلت: والحب المقدس!؟

قال: ذلك عين الاستقامة.. فلا يحرك الاستقامة مثل الحب.. فالله لا يحبه إلا المستقيمون.. ومحبة الله لا تورث في أصحابها إلا الاستقامة.. لقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك، فقال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)(المائدة: من الآية54)

قلت: فما الذي يحرك فيهم الاستقامة؟

قال: لقد عرفت أن المحب هو الذي يسعى في مرضاة محبوبه، حتى لا يراه إلا في أحسن أحواله.

قلت: بلى.. وقد ذقته.

قال: لقد ذكر لنا ربنا ما يحبه، وما يبغضه، وأعلمنا أننا لن نظفر بمحبته ـ التي هي غاية الغايات ـ إلا إذا فنى حبنا في حبه، ورضانا في رضاه.

فلذلك صرنا نحب الإحسان، لأن الله يحب المحسنين: قال تعالى : وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة:195)

وصرنا نحب التوبة والطهارة، لأن الله الذي امتلأت قلوبنا بحبه قال لنا : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)(البقرة: من الآية 222)

وصرنا نحب التقوى الحاجزة عن معصية الله، لأن الله قال لنا : بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:76)

وصرنا نحب الصبر، ونتحمله، لأن الله قال لنا : وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران:146)

وصرنا نحب التوكل على الله، لأن الله قال لنا : فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:159)

وصـرنا نحب العـدل، لأن اللـه قـال لنـا : وَإِنْ حَكَمْتَ فَـاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)(المائدة: من الآية42)

وهكذا امتلأت قلوبنا وجوارحنا بكـل خـير.. لأن محبوبنـا لا يحب إلا الخير، ولا يبغض إلا الشر.

الحياة:

قلت: وعيت كل هذا.. فحدثني عن **الحياة**.. فلم آت إلى هذه المقبرة إلا لأسلم نفسي إلى مشنفة الحب.

قال: الحب المـدنس يسـلمك إلى مشـنقة المـوت، أمـا الحب المقدس، فينفخ فيك من روح الحياة ما يملأك بالحياة.

قلت: لقد عرفت الشق الأول.. فحدثني عن الشق الثاني.

قال: أتدري ما سر الموت الذي يحمله الحب المدنس؟

قلت: لا.. لقد كنت غارقا إلى أذقاني في أوحاله.. ولعل ذلك ما أقعدني عن البحث في أسراره.

قال: هل تعرف دراكولا(1)؟

قلت: عندما تركت قومي من بني عذرة، وأتيت إلى هـذه البلاد سـمعت بـه.. وقـد امتلأت خوفـا من مهابتـه.. فهـو من مصاصـي الدماء.

قال: الحب المدنس هو دراكولا.. وهو جميع مصاصـي الـدماء.. ذلك أنه يريد أن يقضي على حياتك ليمد بها حياة من يحب..

قلت: ألم تكفه حياته حتى يمد أنيابه إلى حياتي؟

قال: وكيف تكفيه حياته، والموت يتهدده كل حين؟

قلت: فمن الغبن إذن محبة من يموت؟

1() دراكولا دراكيـولا (بالإنكليزيـة: Dracula أو Drakula) روايـة ألفهـا الكـاتب البريطاني الإيرلندي برام ستوكر في 1897، وسـميت باسـم الشخصـية الرئيسـية فيهـا، مصاص الدماء الكونت دراكولا.

قال: ومن الغبن التوكل على من يموت.. لقد قال الله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴾ (الفرقان: من الآية58)

قلت: إن ما تقوله خطير.

قال: ما خطره؟

قلت: إن هناك أنواعا كثيرة من الحب الشريف.. وكلها تتعلق بموتى.

قال: كل حب لا يتصل بحي أو لا ينبع من حي لا يمكن أن ينشر الحياة، أو تنتشر به الحياة.

قلت: أنتم تذكرون حب نبيكم وحب الأولياء وحب المؤمنين.. بل تفرطون فتزعمون أنكم تحبون كل الكون، وتذكرون عن نبيكم قوله عن جبل أحد:(هذا جبل يحبنا ونحبه)(1)

قال: كل ذلك الحب فيض من حب الله.. فمن أحب الله أحب لا محالة من يحبه الله.. ألستم تروون:

رأى المجنون في البيداء كلبا ... فجر له من الإحسان ذيلا

فلاموه لذاك وعنفوه ... وقالوا:لم أنلت الكلب نيلا؟

فقال: دعوا الملامة إن عيني ... رأته مرة في حي ليلى

قلت: بلى.. ولكن ذلك المجنون.

قال: جنونه هو أنه صرف طاقة الحب فيه إلى ليلى.. وليلى لم تكن إلا ليلا من الوهم.. ولو أنه صرفها إلى النور لتجلى له كل شيء.. وامتلأ قلبه بالحياة التي لا حياة تضاهيها.

***

(1) رواه البخاري ومسلم.

ما وصـل صـاحبي من حديثـه إلى هـذا الموضـع حـتى سـمعت صائحا يصيح: يا سمنون(1).. أين كنت؟.. لقـد ظللنـا طـول النهـار نبحث عنك؟

لست أدري كيـف رميت مـا كـان معي من أدويـة المـوت.. ثم صحبته.. وقد رأيت فيه القلب الكبير الـذي امتلأ بالمحبـة الخالصـة الصادقة الخالدة.. وقـد أزحت بصـحبته كـل مـا امتلأ بـه قلـبي من أدران الدنس الذي علق بي من آثار الحب المدنس.

1() نشير به إلى سمنون بن حمزة، والذي يطلق عليـه (سـمنون المحب)، وقـد كـان من كبار العارفين المتحدثين في المحبة الإلهيـة، ومن أقوالـه :(أول وصـال العبـد للحـق هجرانه لنفسه، وأول هجران العبد الحق مواصلته لنفسه)

وقال أبو الطيب العكي: ذكر لي أن سمنونا كان جالسا على شط دجلة، وبيده قضـيب يضرب به فخذه حتى تبدد لحمه وهو يقول:

وعن محمد بن حمادن قال: رأيت سـمنونا وقـد أدخـل راسـه في زرمانقتـه، ثم أخـرج رأسه بعد ساعة وزفر وقال:

ومن أشعاره في المحبة الإلهية قوله:

وكـــان فـــؤادي خـــالي قبـــل حبكم ... وكـــان بـــذكر الخلـــق يلهـــو ويمـــرح

لفمـــا دعـــا قلـــبي هـــواك أجابه ... فلســـــت اراه عن فنائـــــك يـــــبرح

فـإن شـئت واصـلني وإن شـئت لا تصل ... فلسـت أرى قلـبي لغـيرك يصـلح

رميت بـــبين منـــك إن كنت كاذبا ... وإن كنت في الـــدنيا بغـــيرك أفـــرح

قلنا: فكيف ظهر لك أن تفارقه؟

قال: أنا لم أفارقه.. لكنه هو الذي فارقني.. وما أتيت إلى هذه البلاد إلا لأبحث عنه.

قلنا: ما الذي تقصد؟

قال: لقد سمعنا في تلك الأيام بأنباء فتنة تريد أن تجتث أصول الشجرة التي غرسـها محمـد.. وأن بدايـة الاستئصـال سـتكون من هذه البلاد.. فلذلك رحل سمنون إليها، وقدمت هنا لأبحث عنه، فلم تعد لي حياة إلا بصحبته.

قلنا: فقد أسلمت إذن؟

قـال: لقـد كنت أقـرب النـاس إلى الإسـلام.. ولكن جبـالا من الحديد والزنك والرصاص لا تزال تحول بيني وبين إعلان إسـلامي.. ولست أدري لم، ولا كيف.

قال ذلك، ثم طأطأ رأسه، واستغرق في صمت عميق، لم نشأ أن نخرجه عنه.

ومنها قوله:

ولا عيش إلا مـــع رجـــال قلـــوبهم	تحن إلى التقـــوى وترتـــاح للـــذكر
أديـــــرت كـــــؤوس للمنايـــــا عليهم	فـأغفوا عن الـدنيا كإغفـاء ذي السـكر
همـــــومهم جوالـــــة بمعســـــكر	بـــه أهـــل ود اللـــه كـــالأنجم الزهر

ثالثا ـ العقل

في اليوم الثالث، قام رجل منا، وقال: سأحدثكم اليـوم أنـا عن حديثي.. اعذروني، لقد كنت أحمل أسماء كثيرة مستعارة مثل من سبقني، كنت أحاول بها أن أغطي حقيقتي التي كانت تعـذبني كـل حين.. لكن حقيقـتي أبت إلا أن تتمـرد علي، وتـذيقني في تمردهـا من الهوان ما لم أكن أحسب له أي حساب.

هنـاك جـوانت مشـرقة في قصـتي ممتلئـة بـالنور والسـلام والصفاء.. سأحدثكم عنها(1)..

ولكني لن أحدثكم عنها حتى تبصروا الصراع الذي كنت أعانيه.. وكانت جميع لطائفي تعانيه معي.

قلنا: حـدثنا أولا عن الأسـماء الـتي تسـميت بهـا.. فلا يمكن أن نعرفك من دون أن نعرف اسمك؟

قـال: لقـد تسـميت بأسـماء كثـيرة لا تكـاد تحصـى.. منهـا مـا تعرفون.. ومنها ما لا تعرفون.. منها سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وابيكوروس، وسيكستوس ايمبيريكوس، وأوغسطين، وبويـتيوس، وأنسـيلم كـانتربوري، ووليـام أوكـام، وجـون سـكوت، وتومـاس الأكويني، وميتشل دي مونتان، وفرانسيس بيكون، ورينيه ديكارت، وسبينوزا، ونيكولاس ماليبرانش، وغوتفريد لايبنتز، وجورج بيركيلي، وجـون لـوك، وديفيـد هيـوم، وتومـاس ريـد، وجـان جـاك روسـو، وإمانويل كانت، وجورج ويلهيلم فريدريك هيغـل، وآرثـر شـوبنهاور، وكيرغيكارد، وفريدريك نيتشه، وكـارل مـاركس، وفريجـه، وألفريـد وايتهيـد، وبيرترانـد رسـل، وهـنري بيرغسـون، وإدمونـد هوسـرل، ولودفيج فيتغينشتاين، ومارتن هايدجر، وهانز جورج غادامير، وجون بول سارتر، وألبرت كامو و كوين..

1()استفدنا الكثير من المعلومات عن المـدارس الفلسـفية الـواردة في هـذا الفصـل ونقدها من كتب العلامة (آية الله العظمى السيد محمـد تقي المدرسـي) ككتـاب (الفكـر الإسلامي مواجهة حضارية).. وكتاب (المنطق الإسلامي: أصوله ومناهجه).. بالإضـافة إلى الكتب الـتي أرخت للفلسـفة ومدارسـها.. بالإضـافة للموسـوعة العربيـة العالميـة، والموسوعة اليهودية.

ومنها دونالد ديفيدسن، ودانيال دينيت، وجيري فودور، ويـورجن هابرماس، وساول كريبكي، وتوماس كون، وتوماس نايجل، ومارثـا نوسباوم، وريتشارد رورتي، وهيلاري بوتنم، وجـون راولـز، ووجـون سيرل.. وغيرها كثير.

قلنا: من أي البلاد أنت؟

قــال: من كــل البلاد الــتي حنت إلى العقــل.. وامتلأت بــه.. وطلقت كل شيء من أجله.. لكنها في أوج غرورها لم تكتســب إلا الأوهام.. ولم تظفر بغير السراب.

قلنا: كثيرة هي البلاد التي تحمل هذه الصفات..

قال: كلهـا بلادي الـتي نشـأت فيهـا وترعـرعت.. ومن أفكارهـا تغذيت.. من سمومها صليت.

قلنا: نقصد البلاد التي ولد فيها جسدك.

قال: لقد ذكر لي أبي أني ولدت بأثينة..

الصراع

السفسطة:

في تلـك الأيـام تتلمـذت على أول عقـل عرفتـه.. كـان اسـمه (**السفســـطة**).. وكـــان زملائي من التلاميـــذ يســـمون (**سفسطائية**)

قلنا: فحدثنا عنهم.

قــال: هم ثلاثــة طوائــف.. وهم ينتشــرون في كــل مكــان وزمان(1)..

أمــا أولاهم.. فيمكن أن نســميها (العناديــة).. وهم المعانــدون الـذين لا يقـرون بـالحق لأهلـه مـع علمهم بـه.. لقـد عـرف قـرآن

1() هكذا صنفهم ابن حزم (384 ـ 456 هـ)، فقد قسمهم إلى ثلاثة أصناف:1- صنف نفى الحقائق جملة.2- صنف شكُّوا فيها.3- صنف قالوا هى حق عند مَنْ عنده حــق، وهى باطل عند مَنْ هى عنده باطل.

المسلمين منهجهم العقلي خير تعريف حين قال : وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ (النمل: من الآية14)

وأما الثانية.. فيمكن أن نسميها (العِندية).. وهي طائفة ترى أن الحق كل الحق عندها وحدها.. وأن الباطل كل الباطل عند غيرها.

وأما الثالثة.. فاختارت أن تسمى (اللا أدرية).. وهي التي تفر من الحقيقة ومن البحث عنها ومن الإقرار لها بقولها كل حين (لا أدري)

قلنا: فكيف بدا لهذه الطوائف أن تظهر للوجود؟

قال: لقد ظهرت هذه الطوائف لترد بكسلها على الأهواء الكثيرة التي حاولت أن تفسر الوجود وحقائق الوجود..

لقد ظهرت عندما رأت عجز الأفكار عن تفسير النشأة الأولى هل هى من ماء أو من تراب.. أو من هواء أو من نار.. وظهرت عندما عجز الدين الوثنى السائد فى بلادنا حينذاك عن تلبية الفطرة الإنسانية.. فقد كان لكل ظاهرة كونية أو إنسانية إله يعبد ويقدس.. وظهرت عندما عجزت السياسة، فسلمت أمرها للحروب والمنازعات.

في هذه الأجواء ظهرت السفسطة كعجوز كسولة تقول للجميع: ليس هناك شيء اسمه الحقيقة.. أو تقول لهم: كلكم تحملون الحقيقة.

أذكر في ذلك الحين أستاذا لي كان اسمه (بروتاجوراس) (480 ق م- 410 ق م)، كانت فلسفته تدور حول اعتبار الإنسان مقياسا لكل شيء.. فهو الذى يقرر وجود الأشياء.. وهو الذي يقرر عدم وجودها.. لقد كان يردد كل حين: (إن الإنسان هو مقياس الأشياء جميعا)

وكان يردد كل حين ما ذكره في مقدمة كتابه (الآلهة): (عندما نأتي إلى الآلهة فإني لا أستطيع معرفة هل هي موجودة أم لا؟ أو حتى ماذا يشبه الآلهة في شكلهم، أو هنالك أسباب عديدة تقف في طريق هذه المعرفة، منها غموض المشكلة وقصر حياة

الإنسان)

انظروا إلى التناقض الذي وقع فيه (بورتـاجوراس) المسـكين.. إنـه لم يربـط معرفـة الآلهـة بالإنسـان كمـا قـال في نظريتـه في المعرفة.. لقد كان الواجب عليه تقرير موقف من الآلهـة متناسـب مـع نظريتـه.. لكنـه لم يفعـل فهـو لم يقـل بـأن الآلهـة موجـودون بالإضافة إلى من يؤمنـون بهم، وغـير موجـودين بالإضـافة إلى من ينكرهم.

لقد كانت هذه المقولـة هي الـتي دفعت أفلاطـون(1) على أن يرد عليه في كتابه (القوانين) حين أعلن (أن الإله – ليس الإنسان- هو مقياس الأشياء جميعا بحس أعلى من أي حس إنساني)

في الصف الثاني في مدرسة السفسطة درسـنا أسـتاذ اسـمه (جورجياس).. لقد حاول المسكين بكل جهوده العقلية أن يثبت لنـا ثلاث قضايا خطيرة.. أولها أن لاشيء في الوجود موجود.. واستدل على ذلك بأن كل شيء خاضع للتغير..

والثانية.. أنه إن وجـد شـيء، فإنـه لا يمكن أن يعلم.. واسـتدل على ذلك بأن الحواس مختلفة.

والثالثة.. أنه إذا أمكن أن يعرف، فإنـه لا يمكن إيصـال معرفتـه للغير.. واستدل على ذلك بأن طريق الحواس ذاتى.

الحوارية:

بعــد أن امتلأت بــالمنهج الــذي علمــني إيــاه أســاتذتي في السفسـطة مــدة من الزمــان(2) كنت حينهــا أتلاعب بالكلمــات وبالخطب.. لأبرهن على وجـود العـدم وعـدم الوجـود.. مللت هـذا

(1) سنتحدث عن منهجه العقلي في هذا المبحث.

(2) ظهرت السفسطائية أول مرة إبان نهاية القرن السادس وبداية القــرن الخـامس قبل الميلاد، ثم ظهرت فى عصور تالية، وعرفت باسم حركة الشكاك، ووقف الفيلسوف الفرنسـى مونتـانى (1532-1592م) على أعتـاب الفلسـفة الأوروبيـة الحديثـة ليعلن أن العلم القديم قد سقط، فلِمَ لا يسقط العلم الجديد كذلك وإذا كان الجهل المطبــق بدايــة العلم فـإن جهـل العـالم هـو النهايـة، وأن آلات العلم عـاجزة عن توفـير اليقين، وسـتظل كذلك.

المنهج الذي يحتال على الحقائق ويصارعها.. ورحت أبحث عن أساتذة جدد.. لألقن عقلي المنهج الصحيح الذي يدرك به الحقائق.

قلنا: إلى أي مدرسة ذهبت؟

قال: لقد سمعت أن هناك جمعية عقلية تسمى (جمعية محبي الحكمة)(1).. وقد قصدتها.. وقد كان أول من لاقاني فيها شيخ جليل وقور.. كان اسمه (**سقراط**)(2)

لقد استطاع بمنهجه الفريد في الإقناع(3) أن يعيد لعقلي توازنه، وينفي عنه ذلك العقم والكسل الذي بذره فيه

1() أقصد بها الفلسفة.. فكلمة (فلسفة) مشتقة من اللغة اليونانية القديمة، وقَدْ تُترجمُ بـ (حبّ الحكمة).. والفلاسفة في العادة يكونون متشوّقين لمعرفة العالم، والإنسان، والوجود، والقيم..

2() سقراط (469 ـ 399 ق.م). فيلسوف ومعلم يوناني جعلت منه حياته وآراؤه وطريقة موته الشجاعة، أحد أشهر الشخصيات التي نالت الإعجاب في التاريخ. صرف سقراط حياته تمامًا للبحث عن الحقيقة والخير. لم يترك أي أثر مكتوب رغم أنه كان دائمًا ينهمك في المناقشات الفلسفية، وقد وصلتنا أفكاره ومناهجه عن طريق مجالس الحوار، التي كتبها تلميذه أفلاطون، حيث برز سقراط شخصًا رئيسيًا يشرف على الحوار، ويشرح عملية البحث عن الحقيقة، وعُرِفت معظم المعلومات عن حياته وتعاليمه من تلميذيه المؤرخ زينفون والفيلسوف أفلاطون، بالإضافة إلى ما كتبه عنه أريسطو فانيس وأرسطو.

وُلد سقراط وعاش في أثينا، وكان ملبسه بسيطًا، وعُرف عنه تواضعه في المأكل والمشرب.. وكان يعلم الناس في الشوارع والأسواق والملاعب، وكان أسلوب تدريسه يعتمد على توجيه أسئلة إلى مستمعيه، ثم يُبين لهم مدى عدم كفاية أجوبتهم.

قُدّمَ للمحاكمة وُوجهت إليه تهمة إفساد الشباب والإساءة إلى التقاليد الدينية.. وكان يُلمحُ إلى أن الحكام يجب أن يكونوا من أولئك الرجال الذين يعرفون كيف يحكمون، وليس بالضرورة أولئك الذين يتم انتخابهم، وقد قضت هيئة المحلّفين بثبوت التهمة على سقراط وأصدرت حكمها عليه بالإعدام. ونفذ الحكم بكلِّ هدوء متناولاً كوبًا من سم الشوكران.

كان سقراط يؤمن بأن الأسلوب السليم لاكتشاف الخصائص العامة هو الطريقة الاستقرائية المسماة بالجدلية؛ أي مناقشة الحقائق الخاصة للوصول إلى فكرة عامة.. وقد أخذت هذه العملية شكل الحوار الجدلي الذي عرف فيما بعد باسم الطريقة السقراطية.

ونحب أن ننبه هنا إلى أن حياة سقراط التي وصلت لنا تشير إلى أن له علاقة بالصالحين.. ولعل هذا ما جعل بعض علماء المسلمين يضع احتمالا لكونه نبيا من الأنبياء.. وهو ليس بمستبعد.. وما يروى عنه من خلاف منهج الأنبياء هو من التحريف الذي أصاب الديانات ورجالها.

السفسطائيون.. لكن الأيام لم تمهله.. فقد استطاع السفسطائيون أن يجرعوه السم الذي قضى على حياته قبل أن أكمل مشوار تلمذتي عليه.

لقد كان رجلا شجاعا ومتواضعا.. استطاع أن يستبدل بالآراء الغامضة أفكارًا واضحة.. وكثيرًا ما كان يجادل بعض أعيان أثينا، ويفضح ادعاءهم الفارغ للمعرفة والحكمة، مما سبب له العداوة بينهم، فحُكم عليه بالموت بدعوى أنه يشكل خطرًا على الدولة، وبذلك أصبح رمزًا للفيلسوف الذي يواصل باستمرار بحثه عن الحقيقة مهما كان الثمن..

بعد وفاته.. أو استشهاده.. بحثت في دفاتره عما يروي عقلي من مياه الحقيقة.. فلم أجد في دفاتره ما يكفيني.. فرحت أبحث عن تلاميذه أو تلاميذ تلاميذه..

الاستذكارية:

في أثينا سمعت بمدرسة كانت تتواجد بحدائق (أكاديموس).. كان اسمها (أكاديمية أفلاطون).. أسرعت أحث خطاي إليها.. فوجدت بها رجلا ضخما كان الناس يطلقون عليه لقب (**أفلاطون الإلهي**)(1).. وكان هو أستاذي الثاني بعد سقراط..

3() وذلك عن طريق أسئلة محكمة صارمة متلاحقة، من نوع :ماذا تعني؟ كيف عرفت ذلك؟ إن هذا الإجراء الذي يسمى الطريقة السقراطية مالبث أن أصبح من الطرائق الفلسفية النموذجية التي تُعنى بالمناقشة والحوار.

1() أفلاطون (427؟ ـ 347؟ق.م) هو فيلسوف ومعلم يوناني قديم، يُعَدُّ واحدًا من أهم المفكرين في تاريخ الثقافة الغربية.. وُلد في واحدة من أعرق العائلات في أثينا، وتنحدر أمه من نسل المشرع الأثيني الكبير سولون، وكلمة أفلاطون كنية تعني ذا الكتفين العريضتين، أما اسمه الحقيقي فهو أرستوكليس.

كان يرغب في شبابه أن يكون رجل سياسة، وفي عام 404 ق.م، نصَّب مجموعة من الأثرياء أنفسهم حكامًا مستبدين على أثينا، ودعوه للانضمام إليهم إلا أنه رفض لاشمئزازه من ممارساتهم القاسية اللاأخلاقية. وعندما أطاح الأثينيون بالحكام المستبدين في عام 403ق.م. وأقاموا حكومة ديمقراطية أعاد أفلاطون النظر في الدخول إلى ميدان السياسة، لكنه تراجع عن ذلك بعد الحكم بإعدام صديقه سقراط في عام 399 ق.م. وبعدها غادر أثينا في أسفار امتدت عدة سنين.

عاد أفلاطون إلى أثينا عام 387ق.م حيث أسس مدرسة للفلسفة والعلوم عُرِفَت باسم الأكاديمية، وكان الفيلسوف الشهير أرسطو أبرز تلاميذه.

لقد ذكر لي عندما سألته عنه أنه ــ مثلي ــ تتلمذ في بداياته على السفسطائيين وعلى كراتيلِس تلميذ هراقليطس، قبل أن يرتبط بمعلِّمه سقراط في العشرين من عمره.. وأخبرني أنه تأثر كثيرًا بالحُكم الجائر الذي صدر بحقِّ سقراط وأدى إلى موته؛ الأمر الذي جعله يعي أن الدول محكومة بشكل سيئ، وأنه من أجل استتباب النظام والعدالة ينبغي أن تصبح الفلسفة أساسًا للسياسة.. وهذا ما دفعه للسفر إلى مصر.. ثم إلى جنوب إيطاليا، التي كانت تُعتبَر جزءًا من بلاد اليونان.. وهناك التقى بالفيثاغوريين.. ثم انتقل إلى صقلية حيث قابل (ديونيسوس) ملك (سيراكوسا) المستبد، على أمل أن يجعل من هذه المدينة دولة تحكمها الفلسفة.. لكنها كانت تجربة فاشلة، سرعان ما دفعته إلى العودة إلى أثينا.. حيث أسَّس أكاديميته(2).

لقد كان أول ما تعلمته من هذا الأستاذ ردوده على السوفسطائية.. وقرأت عليه فيها مجموعة محاوراته.. كمحاورة بروتاجوراس، ومحاورة جورجياس، ومحاورة هيبياس، ومحاورة السوفسطائي.. وغيرها.. وقد انتفعت منها في انتشال عقلي من الهاوية التي أوقعه فيها السوفسطائية.

لكن ذلك.. مع ذلك.. لم يكفني.. فرحت أطالبه بالمنهج البديل لمنهج السفسطائية.. فقال لي ــ وقد كنا بجنب مرآة ــ : أترى صورتنا التي تنعكس على المرآة؟

قلت: أجل.. وكيف لا أراها؟

قال: أترى لها حدودا وجرما وكثافة؟

قلت: أما الحدود.. فأراها.. وأما الجرم والكثافة.. فلا يمكن أن

من أشهر مؤلفاته (المحاورات)، وقد اهتمت محاورات أفلاطون باستعراض ونقد الآراء الفلسفية، حيث كانت شخصيات محاوراته تتناول المسائل الفلسفية وتتجادل حول الجوانب المتعارضة لموضوع ما. وقد تميزت المحاورات بقيمة أدبية عالية إلى الحد الذي جعل الكثيرين من العلماء يعدون أفلاطون أعظم من كتب بالنثر في اللغة اليونانية وواحدًا من أعظمهم في أي لغة أخرى.. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

2()لكن هذا لم يمنعه من معاودة الكرة مرات أخرى لتأسيس مدينته الفاضلة في سيراكوسا في ظلِّ حكم مليكها الجديد ديونيسوس الشاب، ففشل أيضًا في محاولاته؛ الأمر الذي أقنعه بالاستقرار نهائيًّا في أثينا حيث أنهى حياته محاطًا بتلاميذه.

أراها.

قال: لم؟

قلت: لأنها صورة لا حقيقة.. هي صورة تمثل الواقع ببعض أبعاده لا بكل أبعاده.

قال: كمثل هذه الصورة هناك عالم يدعى (**عالَم المُثُل**).. كل حقائقه ذات حدود.. ولكنها دون كثافة.

في هذا العالم تتجلى صور الحقائق الأرضية جميعا، فالإنسان ـ مثلا ـ يعيش أفراده على الأرض، أما هو فإنه واحد يعيش في عالم المُثُل، وهو (أي حقيقة الإنسان) شبح هناك يمثل كل الناس في كل العصور.

قلت: وعيت هذا رغم صعوبته.. فما بعده؟.. وما علاقته بمنهج التفكير؟

قال: كان الإنسان قبل ينزل إلى الأرض يسرح في ذلك العالم.. عالم المثل..

قلت: فأنت تذهب إلى أن للإنسان وجودا قبل هذا الوجود؟

قال: أجل.. لقد كان الإنسان.. أو روح الإنسان موجودة في ذلك الحين.. وكانت قد أحاطت علما بكل الصور (أو المثل) التي كانت موجودة فيه.. ولكنها نسيتها بعد أن تقولبت في هذه المادة، وهبطت إلى عالم الجسد.

قلت: فكيف يمكن للإنسان أن يستعيد ذكرياته السعيدة في تلك العوالم الجميلة؟

قال: هذا هو منهجي الذي خصصت به.. وأسست هذه الأكاديمية من أجله.

قلت: لم أفهم.

قال: لقد وجدت من خلال حواراتي أن أقل تنبه يكفي الإنسان لتذكر ما كان قد نسيه، فيعود لمعرفة الحقائق التي عرفها في

عـــالم المثـــل.. يمكنـــك أن تســـمي هـــذه النظريـــة (النظريـــة الاستذكارية).. لأن الفكر، فيهـا، ليس سـوى اسـتعادة المعلومـات، والعلم ليس الا استعادة المحفوظات المنسية(1).

قلت: فأنت ترى أن العلم صفة ذاتية في روح الإنسان؟

قـال: أجـل.. وأرى أن العقـل البشـري أسـمى من أن يعـرف الحقائق الجزئية، بل إنه يعرف الكليـات؛ أي المثـل العامـة فقـط.. فهو يعرف من الأشياء حقائقها لا أعيانها.

قلت: قد أسلم لك بأن للأرواح وجودا قبل وجود الأجسام (2).. ولكن كيف تعتبر العلم صفة أصيلة في ذات الإنسان، ولسيت صفة طارئة عليه؟

قال: وما الذي يمنع من اعتباره كذلك؟

قلت: أشياء كثيرة.. منها أنه لو كان العلم صفة للـذات لم يجـز أن يتخلـف لحظـة عن الـذات، ذلـك أن الـذات لا تفقـد نفسـها إلا سـاعة انعـدامها.. كمـا أن النـور لا يمكنـه ان يتخلـف عن الحركـة والإشراق.. ذلك أن ذاته هي الحركة والإشراق؟

قـال: فمـا الـذي يمنـع من اعتبـار اسـتحالة تخلـف العلم عن الذات؟

---

1 ()شرح أفلاطون في كتابه (فيدروس) عملية سقوط النفس البشرية التي هَوَتْ إلى عالم المحسوسات – بعد أن عاشت في العالم العلوي - من خلال اتحادهـا مـع الجسـم.. لكن هذه النفس، وعن طريق تلمُّسها لذلك المحسوس، تصبح قادرة على دخـول أعمـاق ذاتهـا لتكتشـف، كالـذاكرة المنسـية، الماهيـة الجليـة الـتي سـبق أن تأمَّلتهـا في حياتهـا الماضية.

وقـد عـبر عن نظريتـه (نظريـة التـذكُّر) بشـكل رئيسـي في كتابـه (مينـون) من خلال استجواب العبد الشاب وملاحظات سـقراط الـذي توصـل لأن يجـد في نفس ذلـك العبـد مبدأ هندسيًّا لم يتعلَّمه هذا الأخير في حياته.

2() ويـدل لهـذا من القـرآن الكـريم قولـه تعـالى :﴿ وَإِذْ أَخَـذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِـرَبِّكُمْ قَـالُوا بَلَى شَـهِدْنَا أَنْ تَقُولُـوا يَـوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) (لأعراف:172)

ويـروي الإمامية في هـذا حـديثا يقـول فيـه رسـول اللـه ﷺ: (خلـق اللـه الأرواح قبـل الأجساد بألفي عام) (بحار الانوار،ج58،ص132)

قلت: أشياء كثيرة تراها وتشعر بها.. أنت تعلم أن الإنسان يبـدأ جاهلا لا يعلم شيئا(1).. ثم يعلم.. ثم ينسى ما علم(2).. وفوق هذا نحن نعلم من أنفسنا صفة الجهل الذاتية، لأن العلم لا يحصل لنا إلا بتعب وإرهاق.. ثم يزول بسرعة مع هبـوب عاصـفة النسـيان الـتي تتناوب على أنفسنا فتكنس معها معلوماتنا.

وفوق هذا كله، فـإن ذاتي الشـيء لا يمكن أن يحـدد.. فالجهـل والعدم والعجز من ذاتنا، ولذلك فهي غير محـدودة، لأنهـا إذا كـانت محدودة لم تكن ذاتية لنا.. أما العلم والإرادة والوجود والقــوة فهي مواهب أو مكاسب، ولذلك فهي محدودة.

وبتعبير آخر: إن التحديد يعـني العـدم في بعض الجـوانب.. فلـو حــددنا علم رجــل ببلــده مثلا، فــذلك يعــني أنــه لا يعلم عن البلاد الأخرى شيئا، وإذا كان ذات الرجل عالمـا فكيـف لا يعلم شـيئا عن البلاد الأخـرى؟ أفلا يعـني ذلـك أن هـذا الرجـل عـالم وجاهـل في لحظة؟ وهو تناقض مرفوض.

وهل يصح ان نقول: ان ذات الحرارة هي الحركة.. أي لا يمكن أن توجد حرارة ولا توجد حركة أو العكس بأن توجد حركة ولا توجد حرارة.. ثم نقـول إن الحـرارة يمكنهـا أن لا توجـد في وقت أو في حالة مع وجود الحركة؟!

قلنا: كلامك منطقي.. فبم أجابك؟

قال: لقد أجابني بابتسامة عذبـة لا تـزال صـورتها منطبعـة في خيالي.

قلنا: نقصد إجابته لعقلك.

قال: لقد فهمت من ابتسامته ما يريد أن يقول.

قلنا: فما فهمت؟

1() كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : وَاللَّهُ أَخْـرَجَكُمْ مِنْ بُطُـونِ أُمَّهَـاتِكُمْ لا تَعْلَمُـونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (النحل:78)

2() كما قال تعالى : وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) (النحل:70)

قال: لقد سلم لي ما ذكرت لـه.. كمـا سـلمت لـه مـا ذكـر لي (1)..

الصورية:

قلنا: فهل اقتنعت بما علمك هذا الأستاذ الفاضل؟

قلت: لا.. لقد كان لعقلي من الشوق للمعارف ما لم يجد معـه منهج أستاذي شيئا.. لذلك رحت أبحث عن أستاذ جديد.

قلنا: فبمن ظفرت؟

قال: لقد ظفرت بأرسطو(2).. ذلك الذي كان يسـمى (المعلم الأول).. ذلك الذي اعتبره توما الأكويني (الفيلسوف بحـق).. وكـان دانتي يسميه (سيد العارفين)..

قلنا: كيف التقيت به؟

قال: لقد كنت حينها أسير خارج أسـوار أثينـا بـالقرب من أيكـة

1() قـال تقي المدرسـي بعـد نقـده لنظريـة أفلاطـون الاسـتذكارية : (هي مرفوضـة بسبب واحد وهو أنها تدَّعي أن العلم من ذات الإنسان.. ولو فسرنا هذه النقطة منهـا، إذا لاستطعنا القبول بها فيما يخص العلم، فسرناها بـالقول: ان اللـه سـبحانه وهب الإنسـان العقل، ولكن هذا العقل محتجب بالنسيان وأن التذكر به يرجعه إليه)

2()أَرِسْطو (384 ـ 322ق.م) لد في سـتاجرا، وهي مسـتعمرة يونانيـة وميناء على ساحل تراقيا، و كان أبوه نيقوماخوس طبيب بلاط الملـك امينتـاس المقـدوني، ومن هنـا جاء ارتباط أرسطو الشديد ببلاط مقدونيا، الذي أثر إلى حد كبير في حياته ومصيره فكان مربي الإسكندر.. دخل أكاديميـة أفلاطـون للدراسـة فيهـا وبقي فيهـا عشـرين عامـا، ولم يتركها الا بعد وفاة أفلاطون..

بعد موت الإسكندر الأكبر في عام 323ق.م. رماه الأثينيون بتهمة عدم احترام الآلهــة، وخوفًا من مصير سقراط، هرب أرسطو إلى مدينة كلسيس (اسمها حاليًا كلكيس)، حيث مات هناك بعد عامٍ واحد.

كان من أعظم فلاسفة عصره وأكثرهم علما ومعرفـة ويقـدر مـا اصـدر من كتابـات بـ 400 مؤلف ما بين كتـاب وفصـول صـغيرة.. وتنقسـم مؤلفاتـه إلى ثلاث مجموعـات: 1- المؤلفـات الشـعبية، وقـد كـانت لعامـة الجمهـور خـارج مدرسـته.. 2- المـذكرات، وهي تصنيفات من مواد البحوث والسجلات التاريخية أعدَّها بمساعدة تلاميـذه؛ لتكـون مصـدرًا للمعلومـات الـتي يحتاجهـا العلمـاء الدارسـون.. 3- المقـالات.. وهي تمثـل تقريبًـا كـلَّ مؤلفات أرسطو التي سَلمت من الضياع وبقيت حتى الآن.. وقـد كـانت المقـالات مؤلفـةً للطلاب داخل المدرسة فقط.

مخصصة لعبادة الإله أبولو ليكيوس.. وهو ما كـان النـاس يسـمونه (اللِّيسـيوم)(1).. هنـاك وجدتـه مـع تلاميـذه يسـير، وهـو يتحـدث.. وسرعان ما جذبني الحوار، فانضممت إليهم.

قلنا: فما أفادتك صحبته؟

قال: أنـا لم يكن يهمـني من كـل تلـك الـثروة الـتي حظي بهـا أستاذي أرسطو إلا ما كان يسميه (الأورجانون)

قلنا: ما (الأورجانون)؟

قال: لقد كان يطلقه على جميع مؤلفاته في المنطق.. والكلمة تعني الأداة.. لأنَّ تلـك المؤلفـات كـانت تبحث عن موضـوع الفكـر الذي هو الأداة أو الوسيلة للمعرفة.

قلنا: فما المنهج العقلي الذي استفدته منه؟

قال: يمكنكم أن تسموه (منطق الانتزاع).. أو (منهج الانتزاع).. وخلاصته باختصار أن للذهن البشري نوعين من التصورات..

أما أولاها، فهي تصورات أولية، كتصـور اللـون والحجم والطعم والرائحة، وغيرها مما يتصوره الذهن عن طريق الحواس..

وأما الثانية، فهي تصورات ثانوية، وهي التصورات الـتي يولـدها الذهن البشـري منتزعـة إياهـا عن التصـورات الأوليـة، وذلـك مثـل الكليات المجردة، وتصور العلة والمعلول وما أشبه ذلك.

ومنهجه يعتمد على اعتبار التصورات الأولية أساسـا للتصـورات الثانوية.. ولذلك، فإنه يستحيل على الذهن القيام بأي تصـور ثـانوي بدون التصورات الأولية..

وبـذلك، فإنـه يعتـبر الإحسـاس أساسـا للعلم.. وهـو يعتـبر أن الـذهن لا يقـوم بنمـو ذاتي إلا عنـدما يـدخل حريمـه تصـور أولي، فيتمخض عن تصور ثانوي.. وذلك مثل الأرض الصـالحة الـتي تنمي

(1) اللِّيسيوم كان مبنىً رياضيًا في أثينا، يتلقى فيـه الصـبية والشـبان تـدريبات بدنيـة، ويستمعون لمحاضرات يلقيها مشاهير المعلمين.. والمبنى مقام خارج أسوار أثينا بالقرب من أيكة مخصصة لعبادة الإله أبولو ليكيـوس، إلـه الشـعر في أسـاطير الإغريـق. أسـس أرسطو مدرسة شهيرة هناك حوالي عام 335 ق.م.

أشجارا كثيرة بعد أن تزرع فيها النواة.

قلنا: فهل روى هذا المنهج عقلك الباحث عن الحقائق.

ابتسم، وقال: وكيف يرويه.. وهو منطق شكلي، يهتم بشكل التفكير، ويغفل البحث عن مادة التفكير وموضوعه.. ولذلك فقد تناسي دور السلبيات البشرية التي تدعو إلى الضلالة، كما تناسى دور العقل في تحدي هذه السلبيات.. ولذلك لم يوفق هذا المنطق في إعطائي مزيدا من التقدم الفكري.

لقد رأيت الكثير من رفاقي ـ المتأثرين بمنطقه الشكلي ـ على مدى أجيال طويلة ينطبع تفكيرهم بطابع الإطلاق وسرعة انتزاع الكلي من جزئيات صغيرة.. فكان يكفي الواحد منهم أن يلاحظ عدة أحداث جزئية حتى يحكم بكلي يشمل ملايين من أمثال تلك الأحداث.

ثم تحول المفكرون إلى الاعتقاد بأن المنطق الأرسطي طريق الوصول إلى الحقائق، غافلين عن أنه منهج للتفكير.. والتفكير هو الطريق.. فأخذوا يركبون القياسات بعضها فوق بعض لعلهم يقفون عليها ليروا الحقائق جميعا.

وقد رأيت أن القوالب الفكرية تحولت عند هذا الفريق، إلى أفكار استغنوا بها عن التجربة، بل زعموا أنها تغنيهم حتى عن عقولهم.. وهكذا لفهم الجمود.

وفوق ذلك، فهو منهج يعتمد على الحس، فيجعله سلطانا على العقل.. مع أن الإنسان لا يمكنه الإيمان بالحس دون وجود عقل يحكم بصدق الإحساس.

قلنا: وما الذي جعلك تعتقد هذا؟

قال: لقد اكتشفت ذلك بأدلة كثيرة (1).. منها ــ مثلا ــ أن المصاب بالدوار لا يشك في أن حسه هو مبعث الإحساس بحركة العالم.. وعند مقارنة حسه بحس الآخرين يكتشف أن الذي يحس به وحده لابد ان يكون خاطئا، فالواقع يجب أن يحس به كل أحد..

1() سنقتصر هنا على بعضها، وسنرى المزيد منها في الفقرات التالية.

وهكذا كل إحساس خاطئ ينكشف زيفه فور مقارنته بإحساس الآخرين، أو بإحساس الرجل ذاته في سائر الأوقات.

وهكذا قد تصاب العين بالمرض فترى الأشياء مقلوبة، ولكن اليد تكشف زيف هذا الإحساس، حين تلمس الأشياء لتجدها سالمة.. وهكذا يحكم العقل بين الأحاسيس المختلفة بمقارنتها ببعضها.

وقد تبصر العين رجلا قزما فلا يتردد العقل من الحكم بأنه طويل القامة، لأنه يقارن المسافة بينه وبين الرجل، فيقول: إذا كانت الرؤية من بعد ميل تظهر الشخص بهذا الطول ـ نصف متر ـ فلابد انه إذا اقترب يظهر ذو طول قد يتجاوز المترين.. وهكذا يقدر العقل دور المسافة في العين والأذن وسائر الأعضاء، بل هكذا يقدر سائر القوانين الفيزيائية كوزن الشيء في الماء، فإن الإحساس البسيط يزعم أنه خفيف مثل ما يتصور، إلا أن العقل سرعان ما يحكم بخلاف ذلك.

وعند مقارنة سائر العوارض الداخلية قد تشعر جميع أعضاء الجسم بالبرودة أو بالحرارة الشديدة، ولكن العقل لا يتردد في أن ذلك احساس باطل لأنه يتقارن مع عوارض المرض، مما يدل على زيف الإحساس.

وهكذا رأيت أن كل مقارنة تنطوي على مجموعة من الأحكام العقلية التي لم نعد نلتفت اليها لسرعة تحققها وشدة وضوحها.. فبالمقارنة ـ مثلا ـ بين ما نحس به وأحاسيس الآخرين نرى أنها تنطوي على الحكم الواضح الذي لا نرتاب فيه، وهو أن ما أحس به إن كان هو الواقع وجب ألا يختلف فيه حس الآخرين لأنهما من طبيعة واحدة، وتكشفان عن حقيقة واحدة. فلابد أن يكون الاختلاف بسبب آخر هو المرض والخطأ وما أشبه ذلك.. وبدون العقل من أين نعرف ان الحقيقة واحدة، أو ان الحقيقة الواحدة لا تبث الا لونا واحدا من الإحساس عندي وعند الآخرين، أو ان للإختلاف سببا خارجيا. فلماذا لا يكون الشيء بلا سبب؟

قلنا: أهذا فقط ما جعلك لا تكتفي بما علمك إياه أستاذك أرسطو؟

قال: ليس هذا فقط.. هناك شيء آخر.. لقـد رأيت أن أرسـطو ينزع منزع أستاذه أفلاطون في اعتبار النفس تسـير في نمـو ذاتي حتى تصـل إلى العلم.. وبـذلك يكـون العقـل وليـدا طبيعيـا للنفس ضمن حركة جوهرية تكاملية.

وهـذا ليس بصـحيح.. فإنــه إذا كـانت حركـة النفس إلى أعلى بصورة مستمرة، فكيف تنتكس حتى لا تعلم بعد علم شيئا، وكيــف ينسى الإنسان أشياء عرفها، وكيـف لا يعلم أشـياء يجهلهـا بصـورة طبيعية، بل كيف يكون محتاجا إلى المعلم(1)؟

وفوق ذلك كله.. فقد رأيت أن المنطق الذي دعاني إلى تعلمــه لا يكاد يغني عني شيئا.

قلنا: كيف ذلك؟

قال: لقد رأيت أنه يرى بأن التصورات لا تنال إلا بالحـدود.. وأن الحد هو المركب من الجنس والفصل.. وهـذا مبـنى على التفريـق بين الوجود والماهية، وأن الماهية أسـبق على الوجـود، وأنهـا ثابتـة فى المـادة، مـع أنهـا لا توجـد إلا فى الأذهـان، وليس فى الخـارج سوى الأعيان.. وقد وجدت أن في ذلك تقديرا لحقيقة ليست ثابتـة فى الوجود.

على أن التصـورات لا تنـال بالحـدود أصـلاً، فاللفـظ لا يــدل السـامع على معنـاه إن لم يكن قـد تصـور المعـنى، وعلم أن هـذا اللفظ موضوع له، فلو استفيد التصور منه لزم الدور، وبطل القول بأنه العبارة الكاشفة.

والحـدود إذا كـانت مبينـة أو مفصـلة لمجمـل فليس ذلـك من إدراك الحقيقة فى شىء وليس لها فائدة زائدة عما للأسماء(2).

هذا على مستوى التصورات.. أمـا على مسـتوى التصـديقات.. فقـد رأيت أن العلم بالقضـية الجزئيـة سـابق على العلم بالقضـية الكليـة، وليس من طريـق يعلم بـه صـدق الكليـة إلا والعلم بـذلك

(1) سنرى المزيد من الردود في خلال هذا الفصل.

(2) انظر الرد على المنطقيين ص 10.

يمكن من العيان بطريق الأولى، فحيث لا يستدل بقياس التمثيل لا يمكن الاستدلال بقياس الشمول.

والبرهان عنده قائم على القضية الكلية، والكلى لا يكون إلا فى الأذهان، وعليه فلا يفيد العلم بشىء موجود(1)..

فلم يبق من المنطق إذن إلا صورته، وهذا لا يحتاج إليه سائر العقلاء، وليس طلب العلم موقوفًا عليه، فالمعانى العقلية لا تحتاج إلى اصطلاح خاص.

الإشراقية:

قلنا: فإلى من لجأت؟

قال: لقد سمعت بأستاذ كبير التقيت به في مصر.. كان اسمه (**أفلوطين**)(2).. فرح بي كثيرا عندما عرف أنني تتلمذت على أفلاطون.. سألته حينها عن العالم، فقال: إن ما تراه من هذا العالم المادي مجرد أوهام لا حقيقة لها..

سألته عن السياسة، فقال: هي أمر تافه لا قيمه له.

سألته عن الجسم، فقال: هو سجن مؤقت للروح.

سألته عن الحياة، فقال: هي رحلة خلال صورة من الأوهام.. أما الحقيقة، فتقع بعيدًا في كائن وحيد كامل، هو مصدر كل الحقيقة والخير والجمال.. أما الأرواح النقية، فيمكنها أن تأمل بالعودة إلى هناك..

قلت: أنا أبحث عن المعرفة في الدنيا.

1() انظر صون المنطق2/135.

2() أفلوطين (205؟ ـ 270؟م) هو مؤسس المدرسة اليونانية الفلسفية التي تُعرف باسم (الأفلاطونية المحدثة)، قيل أنه وُلِدَ في مصر، والتحق بحملة حربية إلى الشرق ليتعلم المزيد عن الفلسفة الهندية.. وقضى سنوات حياته الأخيرة في التدريس بروما.. كان يكره الكتابة لكنه ألقى 54 محاضرة في ست وحدات، كل وحدة تسع محاضرات تُسمَّى التُّساعيَّات.. يعكس تشاؤم أفلوطين فقط جانبًا واحدًا من فلسفة أفلاطون حيث ينظر إلى الفلسفة كعزاء أو هروب من العالم.. وكان هذا هو الجانب الذي كان يحبه الرومانيون في عهد أفلوطين.

قال: في الـدنيا يمكن أن يتحقـق ذلـك في بعض الأحيـان على صورة كشف روحي.. لقد جرّبت هذا الكشف الروحي.. وأنا أعتبره منهجا من مناهج البحث عن الحقيقة.

قلت: لقد تتملذت على أفلاطون.. لكنه لم يذكر لي مـا ذكرتـه لي.

قال: ربما لم تفهمه.. أنا أفهم أفلاطون جيدا.. بل أعتبر نفسـي الوريث الوحيد لأفلاطون..

قلت: لكــني أســمع النــاس يســمون منهجــك (الأفلاطونيــة المحدثة)(1).. فهل أحدثت فيها ما لم يكن؟

قال: لا.. لقد صـغتها فقـط صـياغة تقربهـا لأهـل عصـرنا.. لقـد رأيت أن روح الإنسان متشوقة للالتقاء بالله، وهذا لا يتحقق إلا عن طريق التجربة الروحانية، لذلك كانت فلسفتي جسرًا بين الفلسفة اليونانية والفلسفة المسيحية في عهدها الأول..

لقد أثبت أن الحقائق الكبرى لا تنكشف إلا عن طريـق الإيمـان بالله والفضل الإلهي، وليس عن طريق العقل.

انتفضت قائلا: ليس عن طريق العقل!؟

قال: أجل.. فالعقل حجاب عن الحقائق لا دليل عليها.

قلت: فاشرح لي كيف نصل إلى الحقائق من دون عقل.

قال: للحقيقـة مسـتويات مختلفـة.. ويعتمـد كـل مسـتوى على حقيقة تلك المستويات التي تعلـوه.. وتجـاوز الحقيقـة بأكملهـا هـو الواحد، والذي هو في حد ذاتـه غـير معـروف، ولايسـتطيع أحـد أن يقول إن الواحد هو، لأن الواحد هو ما وراء الوجـود.. ولكن الواحـد يتمدد أو يفيض إلى المستويات التي دونه، كما يسطع الضـوء خلال الظلام، ويصبح أكثر ظلمة كلما مضى أبعد..

---

(1) الأفلاطونية المحدثة: هي مذهب فلسفي تطوّر عن فلسفة أفلاطون، وأخذت أيضًا عناصر من أفكار فيثاغوروس، وأرسطو والرواقـيين.. وقـد أسـس أفلـوطين الأفلاطونيـة المحدثة. أما رواد الأفلاطونية الآخرون فهم أتباع أفلوطين بورفيري وبروكلس.

والمستوى الأعلى للحقيقة هو ذلـك (العقلي) الـذي توجـد فيـه الأشكال كأفكار فيما وراء الوقت والفراغ. والمستوى التـالي أكـثر ظلمة وأقل حقيقة، وهو الـروح.. والمسـتوى التـالي هـو الطبيعـة، العالم المظلم لأجساد المادة.

وتحت هذه المستويات المادة التي ليس لها وجود حقيقي..

قلت: فهل يمكن رقي الأدنى إلى الأعلى؟

قال: أجل.. فنحن نسـكن المسـتويات الـدنيا.. ومـع ذلـك ترانـا نشتاق للصعود والعودة إلى المستويات الأعلى.. بل يمكن لأرواحنا أن تترك أجسامنا، وتسبح في عـالم الفكـر حيث تسـتقر الأشـكال كأفكار في العقل الإلهيّ.

الثالوثية:

بقيت مدة في صحبة أفلوطين.. ومن معه كجُوهانْس سكوتَسْ أريجِينا(1).. وبورفيري (2).. وبروكلس.. وغيرهم كثير.. ومـع أني وجدت لذة كبيرة في تلك الأجـواء الـتي كنت أعيشـها معهم إلا أن عقلي مـع ذلـك ثـار علي، فلم أكن أدري هـل مـا كنت أعيش فيـه حقائق عليـا ينبغي التسـليم لهـا.. أم أنهـا مجـرد أوهـام وخرافـات وأحلام يقظة، وليس لها أي علاقة بالحقيقة.

في تلك الأيام زارنا رجل مسيحي كان يحمل مبـادئ بسـيطة.. ولكنها جميلة.. ولكنه لم يكن مقتنعـا بهـا.. فقـد كـانت لـه أشـواق روحيـة مـع عقـل فلسـفي، ولم يسـتطع أن يمـزج بينهمـا، فجاءنـا

1() هو أريجِينا، جُوهانْس سكوتَسْ (810 ـ 877م)، هو فيلسـوف ولاهـوتي أيرلنـدي عرف بثقافته الواسعة، وقد بدأ أولى المحاولات لتحقيق فلسـفة نصـرانية منظمـة.. ومن أشهر كتبه تقسيمات الطبيعة. أقر نظرية تعتمد على مبـادئ الأفلاطونيـة المحدثـة، وكـان يقول إن الفكر والوجود يبدآن وينتهيان بالله، وهـو فـوق الوجـود والفكـر، واعتُبِـر أريجينـا على أثر هذه المبادئ صاحب بدعة، وشجبت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية كتاباته.

2() هو بورفيري (233 ـ 304م). فيلسوف ينتمي إلى الأفلاطونية المحدثـة، وصـف كيـف أن جميـع الخصـائص الـتي ينسـبها النـاس إلى الأشـياء يمكن تصـنيفها. وكـان لهـذا الموضوع الذي عرضه في كتابه مقدمـة للمقـولات تـأثير كـبير في الفلسـفة في القـرون الوسطى، كما أثار مسألة وضع القضايا الكلية التي شغلت أذهان علمـاء المنطـق لمئـات السـنين. وهـو من مواليـد صـور، ودرس في أثينـا ثم سـافر إلى رومـا حيث انضـم إلى أفلوطين.

يطلب منا أن نعلمه من مبادئنا ما يستطيع به أن يحـول المسـيحية إلى ديانة ممتلئة بالأشواق الروحية السامية.. والإشراقات النوارنية الفائضة.. والعقل الفلسفي الحكيم..

كـان اسـم هـذا الرجـل الـذي تحـول قديسـا فيمـا بعـد هـو (أوغسطين)(1).. وقد اسـتطاع بذكائـه.. وبعـد فـترة قصـيرة.. أن يحول من المسيحية البسيطة إلى ديانة فلسفية عميقة، لأنـه كـان يعتقد أن الديانة التي ينبغي أن يبشر بهـا في العـالم لا يصـح إلا أن

1() أشير بـه إلى القـديس أوغسـطين (354 ـ 430).. وهـو أحـد أهم الشخصـيات المؤثرة في المسيحية الغربية.. بـل تعتـبره الكنيسـتان الكاثوليكيـة والأنغليكانيـة قديسـا، وأحد آباء الكنيسة البارزين، وشفيع المسلك الرهباني الأوغسـطيني.. كمـا يعتـبره العديـد من البروتستانت، وخاصة الكالفنيون أحد المنابع اللاهوتية لتعـاليم الإصـلاح البروتسـتانتي حـول النعمـة والخلاص.. وتعتـبره بعض الكنـائس الأورثوذكسـية مثـل الكنيسـة القبطيـة الأرثوذكسية قديسا.

وهو يتحدّر من أصول أمازيغية على الأغلب.. ولد في تغسـات عـام 354 (حاليـا سـوق أهراس، بالجزائر) التي كانت مدينـة تقـع في إحـدى مقاطعـات مملكـة رومـا في شـمال أفريقيا.. وعندما بلـغ الحاديـة عشـرة من عمـره أرسـلته أسـرته إلى (مـداورش)، مدينـة نوميدية تقع 30 كلم جنوبي تغسات. وفي عمر السابعة عشرة ذهب إلى قرطـاج لإتمـام دراسة علم البيان.

كـانت أمـه مونيكـا أمازيغيـة ومسـيحية مؤمنـة، أمـا والـده فكـان وثنيـا.. ورغم نشـأته المسـيحية إلا أنـه تـرك الكنيسـة ليتبـع الديانـة المانويـة خـاذلا أمـه، وفي شـبابه عـاش أوغسطين حياة متعية وفي قرطاج، كانت له علاقـة مـع امـرأة صـارت خليلتـه لمـدة 15 عاما.. وخلالها ولدت له خليلته ابنا حمل اسم أديودادتوس..

كان تعليمه في موضوعي الفلسفة وعلم البيان، علم الإقناع والخطابة.. وبعد أن عمل في التدريس في تغسات وقرطـاج انتقـل عـام 383 إلى رومـا لظنّـه أنهـا مـوطن خـيرة علماء البيان، إلا أنه سرعان ما خاب ظنه من مدارس روما وعندما حان الموعد لتلاميـذه أن يدفعوا ثمن أتعابه قام هؤلاء بالتهرب من ذلك. بعد أن قام أصدقاءه المانويين بتقديمه لوالي روما، الذي كان يبحث عن أستاذ لعلم البيـان في جامعـة ميلانـو، تم تعيينـه أسـتاذا هناك واستلم منصبه في أواخر عام 384.

في ميلانو بدأت حياة أوغسطين بالتحول. من خلال بحثـه عن معـنى الحيـاة بـدأ يبتعـد عن المانويـة منـذ أن كـان في قرطـاج، خاصـة بعـد لقـاء مخيب مـع أحـد أقطابهـا. وقـد استمرت هذه التوجهات في ميلانو إذ ذهبت توجهت أمه إليها لإقناعـه باعتنـاق المسـيحية كما كان للقائه بأمبروزيوس، أسقف ميلانو، أثرا كبيرا على هذا التحول.

وقد أعجب أوغسطين بشخصية أمـبروزيوس وبلاغتـه وتـأثر من موعظاتـه فقـرر تـرك المانويـة إلا أنـه لم يعتنـق المسـيحية فـورا بـل جـرّب عـدة مـذاهب وأصـبح متحمسـا للأفلاطونية المحدثة.

وفي صيف 386، بعد قراءته سيرة القديس أنطونيوس الكبير وتأثره بهـا قـرر اعتنـاق المسيحية، وترك علم البيان ومنصبه في جامعة ميلانو والدخول في سلك الكهنوت، فقام

تكون من هذا النوع(1).

لقد مزج بساطتها أولا بـ (الأفلوطونية)، وهي مدرسة غربية في الأمة الإغريقية اليونانية.

ومزجها ثانيا بـ (الأفلوطونية الحديثة)، وهي مدرسة في الشرق بالإسكندرية، هيئ لها جو من أساتذة الفكر الروماني اليوناني، كما هيئ لشيخها أن ينقل عديدا من ثقافات الهند وفارس ويصهرها كلها في بوتقة واحدة.

ومزجها ثالثا بالتنظيم الثالوثي في الوثنية القديمة لدولة الرومان(2).

لست أدري كيف بدا لي أن أسافر إلى (تاجاست) حيث يتواجد (أوغسطين).. وهناك انضممت إلى جماعة من الرهبان الذين كان القديس أوغسطين يشملهم برعايته..

في صحبته علمت الأثر الكبير الذي أحدثته الأفلاطونية المحدثة

أمبروزيوس بتعميده وتعميد ابنه في عام 387 في ميلانو. وفي عام 388 عاد إلى إفريقيا وقد توفيت أمه وابنه في طريق العودة تاركين اياه دون عائلة.

بعيد عودته إلى تغسات قام بتأسيس دير.. وفي عام 391 تمت تسميته كاهنا في إقليم هيبو (اليوم عنابة في الجزائر)، وأصبح واعظا شهيرا (وقد تم حفظ أكثر من 350 موعظة تنسب إليه يعتقد أنها أصيلة)، وقد عُرِف عنه محاربته المانوية التي كان قد اعتنقها في الماضي.

وفي عام 396 تم تعيينه أسقفا مساعدا في هيبو وبقي أسقف خيبو حتى وفاته عام 430 رغم تركه الدير إلا أنه تابع حياته الزاهدة في بيت الأسقفية الأنظمة الرهبانية التي حددها في ديره أهلته أن يكون شفيع الكهنة.

توفي أوغسطين وعمره 75 بينما كان الفاندال يحاصرون هيبو، ويُزعم أنه شجع أهل المدينة على مقاومة الفاندال وذلك لاعتناقهم الاريوسية.. ويُقال أيضا أن توفي في اللحظات التي كان الوندال يقتحمون أسوار المدينة.

وقد تحدثنا عنه وعن فلسفته وعلاقتها بالمسيحية في رسالة (أسرار الإنسان) من هذه السلسلة.

1() ما نذكره هنا ليس بالضرورة آراء أوغسطين وحده.. بل نشير من خلاله إلى المسيحية المتأثرة بالفلسفات والمذاهب المختلفة.

2() رأينا الأدلة الكثيرة المثبتة لهذا في رسالة (الباحثون عن الله) من هذه السلسلة.

في هذا القديس.. وقد أعجبني من تعاليمه دعوته إلى الاشتغال بالله وعدم الانشغال باهتمامات الدنيا ومتاعها.

ولكن الذي لم يعجبني وظللت فترة طويلة تحت أسره هو تلك الصور المشوهة عن الله.. والتي لم يكن عقلي يستطيع أن يتقبلها.. فكنت بين نارين: نار الأشواق الجميلة التي تصبها في نفسي تلك المواعظ والأشعار.. ونار عقلي الذي يحترق لأنه لم يجد حقيقة منطقية مقبولة يستطيع أن يسلم لها.

المدرسية:

قلنا: فإلى من لجأت بعده؟

قال: ذهبت إلى (نابولي).. وهناك وجدت مدرسة دومينيكانيه (1).. وفيها التقيت بأستاذ حاول أن يجمع بين أفكار أرسطو الرئيسية مع التوراة والعقيدة المسيحية.. كان اسمه (القديس توما الأكويني) (2)

1() نسبة إلى تنظيم ديني روماني كاثوليكي أسسه القديس الأسباني (دومينيك) في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي.. وقد اشتهر الدومينيكانيون بأنهم وعاظ ومدرسون ومنصرون.. وكان تنظيم الدومينيكانيين أول تنظيم يؤكد العمل الذهني، إذ أن الأنظمة السابقة قد ركزت على الأعمال اليدوية، وخلال جيل من قيام التنظيم، ترأس الدومينيكانيون الأقسام اللاهوتية في كثير من الجامعات الكبيرة، ومن بين الأعضاء ذوي الشهرة في التنظيم القديس ألبرتوس ماجنوس والقديسة كاثرين السيناوية، والقديس توما الأكويني.

2() هو القديس توما الأكويني (1225؟ ـ 1274م).. كان أحد أشهر الفلاسفة وعلماء اللاهوت الذين عرفتهم العصور الوسطى في الغرب بتأثيره البالغ على الفكر النصراني، وبصفة خاصة على مذهب الروم الكاثوليك.

نشأ ببلدة روكاسيكا قرب كاسينو بإيطاليا، وتلقى تعليمه بجامعة نابولي، وانضم إلى سلك الرهبنة الدومينيكاني. عين قسيسًا على يد القديس ألبرت الكبير عالم اللاهوت الألماني، ثم صار توما أستاذًا للاهوت في جامعة باريس، حيث اشتهر بتميزه في الجمع بين ورعه الديني، وذاكرته الموسوعية وفرط تركيزه.

وفي عام 1258م بدأ في تأليف كتابه (الدعوة إلى دحض المنكرين للعقيدة)، يدافع فيه عن عقلانية العقيدة المسيحية، موجهًا خطابه إلي غير المسيحيين. وفي الفترة مابين الأعوام 1259 و 1268م خصَّص كتاباته للتعليق على كتابات الفيلسوف اليوناني أرسطو. وفي عام 1265م بدأ في تأليف أشهر أعماله المسمى بحث لاهوتي شامل. وقد اهتم فيه بشرح العقيدة النصرانية بتصنيف وترتيب متقن. ولكنه مالبث أن توقف عن التأليف، إذ أعلن عن دخوله في تجربة وجدانية تركته يوقن أن مجمل ما فعله حتى ذلك الحين لايرقى إلى ماتبدَّى له إثر ذلك الفيض الروحاني. وقد قام البابا يوحنا الثاني

وقد رأيت من خلال صحبتي له أنه لم يأل جهدا في المـزج بين فكر أرسطو، والفكر اللاهوتي.. وقد رأيت كثرة أتباعـه.. بـل رأيت أن فلسـفته تحـولت إلى الفلسـفة الرسـمية للكنيسـة الرومانيـة الكاثوليكيـة.. وكـانت تسـمى عنـدها (الفلسـفة المدرسـة)(1) أو (فلسفة المدرسيين)

عنـدما دخلت عليـه في مدرسـته سـمعته يتحـدث إلى تلاميـذه الذين كـانوا يسـجلون كـل مـا يقولـه.. كـان يقـول لهم(2): مثلمـا تجسـد الابن فإنــه من الممكن لكــل من الأب أو روح القــدس أن يتجسد.. تماماً مثلما فعل الابن..

ثم يستغرق في صمت عميق، وكأنـه يتلقى وحيـا من السـماء، ثم يقول: إن الابن، الكلمة الأزلية، قادر تماماً على أن يتجسد مـرة أخرى، في روح و جسد فرد إنسـاني آخـر مختلـف، مولـود من أم أخرى أو مولود من أم و أب، من جنس مختلف و عـرق مختلـف و في بلد آخر و زمن آخر متكلماً لغة أخـرى ومسـتخدماً نموذجـاً من الصورة البشرية مختلفة تماماً عن المسيح ليبشّر برسالته و يشرح العلاقة بين الله و العائلة البشرية.

والعشرون بإعلانه قديسًا في العام 1323م. ويُحتفـل بعيـده في السـابع من مـارس من كل عام..

(1) سادت هذه المنظومة الفكرية بين القـرن الثـاني عشـر والقـرن الخـامس عشـر الميلاديين، وهي تُشير إلى منهج فلسفي للاستقصاء، استعمله أساتذة الفلسفة واللاهوت في الجامعات الأولى التي ظهرت في أوروبا الغربية. وكانوا يُسمّون المدرسيين.

ويعتمـد المنهج المدرسـي على التحليـل الـدقيق للمفـاهيم، مـع التميـيز البـارع بين المدلولات المختلفـة لتلـك المفـاهيم. وقـد اسـتعمل المدرسـيون المحاكمـة الاسـتنتاجية انطلاقًا من المبادئ التي وضعوها بمنهجهم، بقصد إيجاد الحلول للمشكلات العارضة.

نشأت المدرسية نتيجة لترجمـة أعمـال أرسـطو إلى اللاتينيـة الـتي هي لغـة الكنيسـة النصرانية في العصر الوسيط. فهذه الأعمال حثت المفكرين آنذاك على التوفيق بين

قدّم المدرسيون مساهمات قيمة في تطور الفلسفة، منها مـا قـدّموه من أعمـال في مجال فلسفة اللغة. حيث بينوا كيف يمكن لخصـائص اللغـة أن تـؤثر في تصـورنا للعـالم. كما أنهم ركزوا على أهمية المنطق في البحوث الفلسفية.

(2) ما نذكره هنا ذكره القديس توما في كتابه (Summa) (الجزء 3 / المسـألة 3، الفقرات 5 ـ 8 والمسألة 4، الفقرات 4ـ 6)

ثم يستغرق مرة أخرى، ثم يقول بعدها: إن الله لم يصر إنساناً لأجل أن يكون يهودياً ذكراً من أهل القـرن الأول الميلادي ذا طـول و عرض.. بل الله اختار الإنسان لأجـل أن تكـون لِلّه طبيعـة جنس الإنسان ككل.. ولذلك فإنه من الممكن للأب والابن و روح القـدس أن يتجسـدوا ثلاثتهم جميعـاً مـع بعض وفي وقت واحـد في إنسـان فرد واحد فقط، أو في عدة أفراد..

لم أكن أدري الأسـس المنطقيـة الـتي ينطلـق منهـا هـذا المدرس.. فقد قرأت الكتاب المقدس، ولم أجـد فيـه مـا يـذكره.. سـألته عن المنطـق العقلي الـذي يـبرر أقوالـه هـذه.. فنظـر إلي كالحزين، وقال: إن الحقائق الـتي يقـدمها الإيمـان لا يقـوى العقـل على التدليل عليها، ففي اسـتطاعة العقـل أن يتصـور ماهيـة اللـه، ولكنه لا يستطيع أن يـدرك تثليث الأقـانيم، ومن دلـل على عقيـدة التثليث في الأقانيم حقر من شأن الإيمان(1).

ثم أضاف يقول، وتلاميذه يكتبون: حتى الكنائس الشرقية تقول هذا، فالقس باسـيلوس يقـول: (إن هـذا التعليم عن التلـثيث فـوق إدراكنا، ولكن عدم إدراكه لا يبطله).. ووزميلـه توفيـق جيـد يقـول: (إن تسمية الثالوث باسم الأب والابن والروح القدس تعتبر أعماقـاً إلهيـة وأسـراراً سـماوية لا يجـوز لنـا أن نتفلسـف في تفكيكهـا أو تحليلها أو أن نلصق بها أفكاراً من عندياتنا)(2)

التجريبية:

قلنا: فهل ظللت في صحبته بعد أن سمعت منه هـذا الموقـف من العقل؟

قال: لا.. لم أستطع أن أستمر طويلا في صحبته.. فقد كان مـع احترامه الشديد لأرسطو وللمنطق أبعـد النـاس عن أرسـطو وعن المنطق.. وما كان لعقلي أن يرضى بصحبة من هذا حاله.

قلنا: فإلى من لجأت؟

1() قصة النزاع بين الدين والفلسفة، توفيق الطويل: 83.

2()الله واحد أم ثالوث: مجدى مرجان: (11)

قـال: في ذلـك الحين بـدأت في أوروبـا حركـة ثقافيـة كـبرى، تسمى النهضة، أعقبت نهاية العصور الوسـطى.. وصـار لكثـير من الناس شغف كبير بالعلوم.. كل العلوم..

وقد أصابني من عدوى ذلك الشغف ما أصـابني.. فلـذلك رحت أبحث عمن يلــبي أشــواق عقلي للمعــارف وأســباب المعــارف ومناهجها.

وقد دلني بعضهم على رجل يقال له (**فرنسيس بيكون**)(1) رأيته قصد أخا له يقال له (**روجر بيكون**)(2).. كان قـد نقـل إلى

1() هو (فرانسيس بيكون) Bacon، Francis (1561 ـ 1626م)، وهو فيلسوف ورجل دولة إنجليزي، كان من المؤيدين الأوائل الأساسييّن والأكثر نفوذًا للمذهب التجريـبي ومن المؤيدين لاستعمال الطرق العلمية لحل المشكلات.

من أهم كتبه الفلسـفية: التقـدم في التعليم (1605م)؛ الأورغـانون الجديـد (1620م) وهما الكتابان الوحيدان اللذان أتم كتابتهما ضمن مشروع في ستة أجزاء يُسمَّى التجديــد الكبير. وهـو في طـرق بحث ونظريـات وإنجـازات العلـوم التجريبيـة. وكتب بيكـون أيضًـا مقالات ذات طابع هزلي ومقالات مبتكرة.

2() روجر بيكون (1214؟ ـ 1292م؟). كان فيلسوفًا وعالمًا إنجليزيًا. وهو يعد واحدًا من الشخصيات الرائدة في تطوير العلوم في القرون الوسطى.. عُـرف بصـفته مؤسسًـا للعلوم التجريبية وأحد الباحثين الأوائل في دراسة علم البصريات، وقد ساعد على إرسـاء القواعد للثورة العلمية التي ظهرت في أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشــر الميلاديين.

وُلدَ في سومرست في إنجلترا ودرس الفنون الحرة والفلسفة في جامعـة أكسـفورد، ثم تـرك أكسـفورد في ثلاثينيـات القـرن الثـالث عشـر الميلادي وبـدأ يـدَرِّس في جامعـة باريس.. عاد إلى أكسفورد وأمضى السنوات العشر التالية من حياتـه في دراسـة مكثفـة للرياضيات، والتقنية وخصوصًا علم البصـريات.. انضـم بعـدها إلى جماعـة الفرنسيسـكان الدينيـة وعـاد إلى بـاريس ليحث على الإصـلاح الثقـافي داخـل الكنيسـة وليكـرس نفسـه لاكتشاف ونشر نظام لكل المعرفة.

وفي هذا الوقت، قام نزاع في داخل الجماعة الفرنسيسـكانية، ونتج عنـه وضـع رقابـة على الكتب. وسـمح رؤسـاء بيكـون لـه بالاسـتمرار في الكتابـة ولكنهم منعـوه من نشـر أعماله.

وتنفيذًا لرغبة طلب البابا كليمنت الرابع، جمع بيكون ملخصًـا لنظـام المعرفـة وأرسـل الملخص المسمى أبوس مايوس (العمـل الأطـول)، إلى البابـا في عـام 1267م، وأصـبح هذا الملخص من أبرز وأهم أعمال بيكون.

خلال الســبعينيات من القــرن الثــالث عشــر الميلادي، كتب بيكــون في علم الفلــك والرياضيات وعلم الفيزياء. وفي عام 1278م انتقدت الكنيسة بعض مؤلفاته وسـجن في باريس في دير الراهبات حـتى عـام 1292م. وقبـل فـترة وجـيزة من وفاتـه، أتم بيكـون

سجن بدير الراهبات بباريس.. ذهبت معه إلى الدير.. وتوسلنا إلى الراهبات بكل ما أمكننا أن نتوسل به.. فأذن لنا.. وهناك صحبناه مدة من الزمان.

كان أول ما بدأنا به أن قال لنا(1): لن يعقل عقلك حتى تحطم الأصنام التي تحيط به.. والتي تمنعه من التفكير السليم.

سألته عنها، فقال لي: هي أربعة..

أولها.. صنم الطائفة.. إنه صنم ينحرف بمرآة العقل، فيعكس الحقائق بغير صورتها الأصلية.

وثانيها.. صنم الفرد ذاته.. وهو صنم تفرضه طبيعة الميول الخاصة بكل واحد منا، حيث تسبب هذه الميول الشخصية انحرافات بعيدة في فكر الإنسان.

وثالثها.. صنم السوق.. سوق المعرفة.. وهي الأفكار الخاطئة التي تتسرب إلى أذهاننا بسبب العبارات الغامضة، فعلينا تنقية العبارات حتى نستطيع الوصول إلى الحقائق.

ورابعها صنم المعرض (معرض الأفكار القديمة) التي تحتوي أفكار الفلاسفة السابقين، وتسبب ضغطا شديدا على أذهاننا، وبالتالي أخطاءا جسيمة.

قلت: أنت تحتقر الأفكار القديمة إذن؟

قال: أنا لا أحتقرها.. ولكني أرى أن منهجهم في التفكير لن يوصلهم إلى شيء.. ولن تتطور الإنسانية ما دامت تتمسك به.. والمنطق الذين يعتمدون عليه، ويستقون منه أفكارهم هو منطق

كتابه: ملخص لدراسات علم اللاهوت، وفيه أعلن ماكان يعتبره من شرور العالم النصراني.

كانت أهم الأعمال التي كتبها بيكون في العلوم ولكنه كتب أيضًا في الفلسفة وعلم اللاهوت. وتوضح هذه الأعمال تأثر بيكون بالفيلسوف الإغريقي أرسطو، وعالم اللاهوت النصراني القديس أوغسطين وابن سينا.

(1) ما ذكرناه هنا هو في الأصل لفرنسيس بيكون لا لروجر بيكون.. مع التنبيه إلى أنهما لم يعيشا في عصر واحد كما ذكرنا في ترجمتهما.

صوري لا يفيد علما جديـدا، انمـا هـو ترسـيخ للمعلومـات السـابقة وإلزام الخصم بها.

قلت: فما منطقك البديل؟

قال: منطقي البديل هـو الـذي ينهض بـالعلم.. إنـه ينطلـق من القياس والتعقل، واستخراج الكليات من الجزئيات، بعـد الاسـتقراء فيها، وتنويعها، والتعقل فيها، وبدون ذلـك يظـل الاسـتدلال عقيمـا، وبدون أساس ثابت.

الرياضية:

قلنا: فإلى من لجأت بعده؟

قال: إلى رجل جمع بين الفلسفة والرياضيات.. ولذلك كان لــه من العقل ما أرضى به بعض عقلي.. كان اسمه (**رينيه ديكارت**) (1).. ولكني ـ للأسف ـ لم ألقـه إلا قبـل فـترة وجـيزة من وفاتـه.. كان خارجا حينها من قصر الملكة كريستينا.. ملكة السويد..

قال لي أول ما التقيته: لاشك أنك تبحث عن منهج يسـتطيع بـه عقلك أن يصل إلى الحقائق من أقرب طريق، وأوثق طريق.

قلت: لقد قرأت ما في عقلي.. وأحسب ذلك كافيـا لأن يجعـل عقلي يعقد صحبة مع عقلك.

---

(1) رينيـه ديكـارْتْ (1596 ـ 1650م)، ويعـرف أيضـا بكارتيسـيوس Cartesius فيلسـوف فرنسـي ورياضـياتي وعـالم يعتـبر من مؤسسـي الفلسـفة الحديثـة ومؤسـس الرياضيات الحديثة.. والكثير من الأفكار والفلسفات الغربية اللاحقة هي نتاج وتفاعـل مـع كتاباته التي لا تزال تدرّس إلى اليوم..

ولد في لاهاييه قرب شاتيليرو. وتعلَّم في إحدى الكُلِّيَّات اليسوعيَّة، وخـدم في جيـوش بَلَدَيْن، كما سافر كثيرًا، وقد مكَّنته الأموال التي ورثها والتي جاءتـه ممن تولـوه بالرِّعايـة من تكريس معظم وقته للدِّراسة.. وفي الفترة بين 1628 و1649م، عاش ديكارت حياة علميَّة هادئة في هولندا، وأنتج معظم مؤلفاته الفلسفيَّة.. وفي أواخر عـام 1649م، قَبِـلَ دعوة من الملكة كريستينا لزيارة السّويد حيث أُصيب بمرض عُضال وتوفي هناك.

له ثلاثة مؤلَّفات رئيسية هي: رسالة في منهج التَّصرُّف العقلي السليم للمــرء والبحث عن الحقيقة في العلوم (عام 1637م) ويُعرف هذا الكتاب باسـم شـائع وهـو رسـالة في المَنْهَج.. أمَّا الكتابان الآخران فهما: تأمُّلات في الفلسفة الأُولى (عام 1641م) ولعلَّه أهمّ عمل لديكارت، ومبادئ الفلسفة (عام 1644م). وأصبحت فلسفته تُعْرَفُ بالديكارْتيَّة.

قال: لن يتيح عقلي لعقلك صحبته إلا إذا تخلق بأربع خلال.

قلت: فما **أولها**؟

قال: الاستقلال الفكري..

قلت: ما تقصد بذلك؟

قال: يجب ألا يعتقد عقلك إلا بما يكون واضحا لديه مقبولا لا ريب فيه..

قلت: فكيف يتسنى لي هذا؟

قال: بأربعة أركان:

أولها.. أن ترفض أفكار السابقين إذا خالفت العلم.. إذ أن اتباع الآخرين في العلم يشبه الأعمى الذي يقوده العميان.. ولهذا، فكلما كان واضحا عند النفس وضوحا شديدا كان معلوما، حتى ولو لم يكن واضحا عند القدماء.

وثانيها.. يجب ألا تتسرع في الحكم بشيء.

وثالثها.. يجب التخلص من الأهواء الداخلية.. فكما أن أفكار القدماء تأسر قلب المتعلم حتى يكاد لا يبصر الحقائق، كذلك أهواء النفس قد تأسر القلب ولا تدعه يكتشف الحقائق.

ورابعها.. اجعل وجدانك حكما على الأشياء، بحيث لا تقبل أي شيء إلا إذا كان واضحا ماثلا أمام وجدانك تماما.

قلت: عرفت أولها.. فما **ثانيها**؟

قال: التحليل.

قلت: ما تريد به؟

قال: بما أن علم الإنسان أوضح بالبسائط منه بالمركبات، فلا بد أن تحلل الحقيقة إلى أكبر قدر ممكن من البسائط.. فالمسائل كما تعلم قد يتضح جزء منها ولا يتضح جزء آخر.. ولذلك فإن التحليل هو الذي ينقذ الفكر من من التردد، ويضع لكل جزء من

المسألة ما يناسبه، دون اختلاطه بالجزء الآخر.

قلت: فما **ثالثها**؟

قال: التدرج..

قلت: ما تريد بالتدرج؟

قال: بما أن التحليل يؤدي إلى تعقيد الروابط بين الأجزاء.. فإن ترتيب الفكر والتدرج في البحث عن الواقع الأبسط فالأبسط هو الذي يحمي التحليل من ذلك.

قلت: فما **رابعها**؟

قال: الاستقراء..

قلت: ما تريد به؟

قال: هو الاستقصاء عن كل ما يكشف أي جزء من المسألة حتى تشبعه بحثا وتنقيبا فلا نتحول إلى الجزء الثاني الا بعد ان ننتهي من الجزء الأول في البحث.

قلت: عرفت أصول منهجك.. فما فروعه؟

قال: لقد وجدت أن مقدار العقل واحدا عند الناس جميعا.. وذلك جعلني أعتقد أن المنهج الذي يبنغي للعقل أن يتبعه ويسير فيه واحد أيضا.. ولذلك يجب ألا يكون هناك أي فرق بين العلوم المختلفة في المنهج.

قلت: فأي منهج موحد يجب أن تسير فيه العلوم جميعا؟

قال، وبقوة: إنه منهج الرياضيات الذي يبحث عن الكم.. إنه منهج محدد وواضح.. لذلك يجب بحث جميع العلوم حتى الطبيعيات في ضوء هذا المنهج.

نستطيع على ضوء هذا المنهج أن ندخل القياسات الكمية في العلوم الطبيعية.. بل نستطيع أن نحول المرض والقوة والحرارة وما أشبه ذلك إلى أمور مقاسة بالكم.

إن الطريقة الرياضية ـ وخصوصا طريقة الجبر ــ هي الطريقــة الوحيدة لمعرفة جميع العلوم.

قلت: فهلا شرحت لي ما تريد بهذا المنهج؟

قال: افترض ـ أولا ـ حلا مسبقا لمشكلتك.. ثم عدد النتائج التي قد تترتب على هذا الحل على افتراض صـحته.. ثم فتش عن هـذه النتائج لترى هل هي موجودة فعلا أم لا..

مثلا، لـو طـرحت عليـك مسـألة تقـول: هـل الحديـد يتمـدد بـالحرارة؟.. فـإن الجـواب السـليم لـذلك هـو أن تفـترض أولا حلا للمسـألة بأنـه (نعم الحديـد يتمـدد بـالحرارة) ثم تبحث عن النتـائج المترتبة على ذلك؟.. وأولى النتـائج أنـه من تمـدد الحديـد لا بـد أن يعوج الحديد أو يكسر أيام الحر لأنه حديد ممتد.. أو لا بـد أن يكـون بين قطع الحديد فواصل تظهر أيام الشتاء، وتختفي أيـام الصـيف.. فهذه هي النتيجة المترتبة على الحل المفترض.

وهذه النتائج تجعلك تلاحظ الواقع الخارجي لترى صحة النتيجــة خارجا، فتعرف مدى صحة الفرضية.

ثم التفت إلي، وقـــال: أليس هـــذا خـــيرا من منهج أســـتاذك أرسطو.. ذلك المنهج العقيم الـذي لا يزيـدك إلا جهلا.. (ان النتيجـة في منطقـه ليسـت سـوى صـيغة أخـرى للمقدمـة.. فـإن كـانت المقدمة صـحيحة فـإن النتيجـة معلومـة بصـورة آليـة.. وإن كـانت إحدى المقدمات باطلة، فإن المنطق ليس سوى وبال)

قال لي ذلك، ثم سار، وسرت معه مدة من الزمان أتتلمذ على يديـه كمـا تتلمـذت الأجيـال الكثـيرة.. لكن عقلي مـع ذلـك ومـع احترامي لاكتشافاته العلمية الـتي تمت على ضـوء منهجـه الجديـد كنت أرى في منهجه مجموعة نواقص..

منهـــا أنـــه لم يركـــز في منهجـــه على دور التجربـــة في فهم الحقائق، مما صبغ منهجه بالصبغة الصورية.. وهو بـذلك وقـع فيمـا وقع فيه أرسطو من قبل.

ومنها أني رأيت أن تبسيط العلوم يفيد في كثـير من الأحيـان..

ولكنه بالرغم من ذلك قد يوصلنا إلى طرق مسدودة.. فمثلا، لو أردنا البحث عن حقيقة الوجود أو العدم، لا نصل إلى نتيجة.. فليس الأمر كما ذكر ديكارت دائما، بأنه في سبيل البحث عن الحقائق لا بد من تبسيطها إلى آخر درجة ممكنة، لأن العلم بالبسائط أسهل من العلم بالمركبات.. كلا فبعض البسائط، العلم بها لا يختلف عن المركبات في صعوبته.

ومنها أن العلوم في لحظة وحدتها في جهة تختلف في جهات عديدة، وليس من الصحيح وضع منهج واحد لجميع العلوم، كما حاول ذلك ديكارت.. وقد تنبه المتأخرون إلى مدى فرق العلوم عن بعضها، فوضعوا لكل واحد منها منهجا بعد الإشارة إلى المنهج العام الذي يشمل جميع العلوم.

بالإضافة إلى نواقص أخرى كثيرة اكتشفتها بعد أن صحبت العقل الذي اجتمعت فيه العقول.. والذي لم أرحل لهذه البلاد إلا لأجل البحث عنه.

***

قلنا: فإلى من لجأت بعده؟

قال: لقد لقيت في طريقي رجلا لم تتح لي معرفته بالتفصيل.. كان اسمه (**مابرانش**) (1608 – 1715).. كان على ما يبدو تلميذا من تلاميذ ديكارت.. رآني مهتما، فقال: أنت تبحث عن المستحيل.. فلذلك لك أن تهتم.

سألته: ما تعني؟

قال: أنت تريد أن تعلم حقائق الأمور.. وهذا ما لا يكون.

قلت: لم؟.. وما الحائل بيني وبينها؟

قال: ما دام عقلك يصحب جسمك، ويندمج معه، فيستحيل أن تعرف الحقائق.. لأن حواسك وخيالك الفارغ ورغباتك النفسية ستحول بينك وبين الحقائق.

قلت: كيف تتسبب الحواس في حجب العقل عن الحقيقة؟

قال: تعليل ذلـك البسـيط.. إن الهـدف الفطـري من الحـواس يختلف عن الهدف الذي ينشـده الإنسـان، ولـذلك يتـورط الإنسـان في الخطأ.. إن الغاية من الحواس بالأصل هي ايجاد علاقة مناسبة بين الجسـم والعـالم المحيـط بـه، حـتى يبقى الجسـم مصـونا من الأخطار.. بينما يستخدم البشر حواسهم فيما هو وراء هـذه الغايـة، وهو البحث عن العلم بحقائق الأمور، جهلا بأنها إنما تنقل المظـاهر الساذجة والآثار السطحية إلى ضمير الإنسـان، حـتى يتجنبهـا لأنهـا هي غايته الطبيعية.

إن حواسنا ـ مثلا ـ تشعر بـالألم إزاء بعض الإثـارات الخارجيـة.. فهل الألم أثر من آثار تلك الأمور الخارجية كما نتصور وكمـا نقـول ظاهرا بأن الضرب مؤلم، فننسب الألم إلى الضرب، ونجعله صـفة من صفاته؟.. كلا إنما هو من مقتضيات ذواتنا نحن، فهي التي تتأثر بالضرب، ولا دخل له بصورة الحياة الخارجية، ونحن إنمـا نعـبر عن الضرب أنه مؤلم لبيان نوعية العلاقة التي تربطه بأجسامنا.

أضف إلى هذا أخطر داء يحول بيننا وبين العلم بالحقـائق.. إنـه (التوهم).. إنه الداء الذي يجعلنا نزعم صحة أفكار الآخرين، فنتبعهم بينما هي باطلة وانما تخيلنا خيالا.

أضف إلى هذا كله الرغبات النفسية فإنهـا تولـد الحب والبغض في الإنسان.. وهما بدورهما يحجبان نور العقـل ويوقعـان الإنسـان في الخطأ..

أضف إلى هذا الصفات النفسية.. فهي أشد أثرا في القلب من الرغبات النفسية، لأن الصفة المنحرفة بـذاتها تسـبب الخطـأ، دون واسطة الحب والبغض.

ليس ذلك فقط.. بل إن طاقة الفهم (العقـل) قـد تتسـبب في الخطأ، ذلك لأنها بطبيعتها محدودة بينما يزعم الإنسـان أنهـا قـادرة على كشف الأشياء جميعا.. وهذا الغرور سـبب خطـير من أسـباب الخطأ البشري.

قلت: عرفت الأدواء.. فما الدواء؟

قال: يجب ـ أولا ــ أن تطـرح أي مسـألة بصـورة مبسـطة.. ثم

تبحث عن الوسائط المشتركة.. ثم تحذف الزوائد.. ثم تلخص المعلومات بقدر الإمكان.. ثم تتدبر في نوعية ترتيب المعلومات مع بعضها بدقة تامة.. ثم تقابل المعلومات المركبة مع بعضها لحذف المكررات عنها.. ثم تحذف الأمور غير المفيدة.. وهكذا إلى أن تصل إلى ما قد يتاح لك من الحقائق.

العقلانية المادية:

قلنا: فإلى من لجأت بعده؟

قال: إلى رجل من هولندا كان اسمه (**اسبينوزا**)(1).. لقيته في أمستردام بين أعضاء جماعته اليهودية.. وقد كان حينها

---

(1) هو باروك سبينوزا (1632-1677م)، فيلسوف عقلاني مادي، من أهم فلاسفة الحضارة الغربية الحديثة، بل هو ـ مع نيتشه ودريدا ـ فيلسوف العلمانية الأكبر.. عاش في هولندا، ولكنه من أصل ماراني. أفصح أبوه وجده عن انتمائهما اليهودي بعد وصولهما إلى أمستردام حيث أصبحا من قادة الجماعة اليهودية ومن كبار التجار فيها، وكانا يعملان بالاستيراد أساساً.

ولد في أمستردام لأبوين يهوديين. اكتسب في بدء حياته سمعة المفكر الحر، ولذلك طرد من المجتمع اليهودي في عام 1656م. ثم عاش في عدة مدن في هولندا صانعًا للعدسات.

كان سبينوزا طوال حياته داعيًا للتحرر الديني والسياسي.. وكان يعتز باستقلاله، ورفض عروضًا لمعاش من الملك لويس الرابع عشر ملك فرنسا، وأستاذية جامعية في ألمانيا. وبالرغم من أن سبينوزا وجد الاحترام من الجميع فإنه كان مثيرًا للجدل بسبب آرائه الشاطحة في الدين والفلسفة والسياسة.

تأثرت فلسفة سبينوزا بالفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت، وتبنى آراء ديكارت في أن الفكر والمادة هما النظامان الأساسيان للواقع، وأن العالم المادي ليس سوى أجزاء من المادة تتحرك وتتفاعل وفق قوانين سببية. إلا أنه في كتابه الأخلاق (نُشر بعد موته بقليل)، طور أفكار ديكارت بطرق غير تقليدية تمامًا. ادعى سبينوزا بأن الإله أو الطبيعة هي المادة الحقيقية، وزعم أنّ الفكر والمادة هما من الصفات المتناهية للإله، وأن كل الأشياء الفانية (مثل عقول البشر وأجسامهم) مجرد أشكال أو حالات من صفات الإله.. لم يترك سبينوزا مجالاً لأي استثناءات للسببية، منكرًا الإرادة الحرة للبشرية والإله.. إلا أنه رأى، أن حرية العقل يمكن أن تحقق بالفهم العقلاني لمكاننا في الطبيعة وخضوعنا لقوانينها خاصة قانون الانفعالات.

وقد تعددت روافد فلسفة سبينوزا فكانت من بينها روافد يهودية، ولكنه كان يرفض صحة القول بدقة أسفار العهد القديم ـ وقد ذكرنا رأيه في هذا في الأجزاء السابقة من هذه السلسلة ــ وهو يرفض دعوى اليهود أنهم شعب الله المختار.. وقد تأثر كثيرًا بفلاسفة العصور الوسطى من اليهود مثل موسى بن ميمون وابن جبرول وهذان كانا متأثرين بالفلاسفة الإسلاميين الذين جمعوا في تصوراتهم، لله والخلق والكون، بين الإسلام والمشائية والأفلاطونية المحدثة.

مطـرودا مهانـا بينهم بسـبب ادعائـه بـأن اللـه يكمن في الطبيعـة والكون، وأن النصوص الدينية ليسـت سـوى اسـتعارات ومجـازات غايتها أن تعرّف بطبيعة الله.

لم يكن يهمني منه إلا البحث عن منهجه العقلي.. فقد سـمعت أنه من تلاميذ ديكارت.. وأنـه من الـذين حـاولوا أن يطـوروا أفكـار ديكارت ومنهجه.

عندما التقيت به أول مرة قال لي: لقد رأيت بعـد بحث طويـل ومعاناة قاسية أن طرق معرفة الأشياء أربعة لا خامس لها..

أما أولها.. وأدناها فهي ما نتلقـاه من أفـواه النـاس.. كمعرفتنـا مثلا بيوم ميلادنا..

وأما ثانيها.. فالتجربة المجملة.. كمعرفة الناس ـ بعـد التجربـة ـ أن النفط مما يحترق.

وأما ثالثها.. فمعرفة الرابطة بين الجزئيات والكليات.. كما نعلم بالحرارة بعد العلم بوجود النار.. وهذا الطريـق أفضـل من الطـرق التي سبقته.

وأمـا رابعهـا.. وأعلاهـا.. فهـو الوجـدان الـذاتي والشـهود الشخصي.. وهو طريق لا يأتيه الخطـأ، لأنـه منطبـق مـع المعلـوم، ويـأتي بعلاقـة مباشـرة بين الفـرد والمعلـوم، ولـذلك فهـو مـوجب لليقين، وهـو يتعلـق بالبسـائط والمبـادئ الأوليـة، ومـوارده قليلـة جدا(1).

قلت: لم كان كذلك؟

قـال: لأن العلم بالبسـائط.. أي بـالطريق الوجـداني.. واضـح ومحدد وموافق مع المعلوم الخارجي، ولسنا بحاجة إلى حجة تـدل

1() أنشـأ سـبينوزا منظومـة فلسـفية على منـوال الهندسـة، إذ حـاول أن يسـتخلص الاستنتاجات الفلسفية من عدد محدود من البديهيات المركزية؛ أي التي تفـترض أنهـا من الحقائق المسلم بها، وكذلك من التعاريف.. وهو يُعد من دعاة الفلسفة الآلية لأنه يرى أن كل شيء في الكون مقـدر حتمًـا، وكـان هدفـه الأساسـي ذا طـابع أخلاقي، حيث أراد أن يشرح كيف يمكن للإنسان أن يكون حرًا عاقلاً راضيًا مرضيًا في هذا العالم الـذي تسـيِّره الحتمية.

على صـحته.. ولهـذا فلسـنا بحاجـة إلى البحث عن منهج صـحيح للمعرفـة.. فالمعرفـة هي بـذاتها دليـل على صـحتها، وعلى صـحة الطريق المؤدي إليهـا، لا العكس... وبالتـالي فـإن العلم هـو طريـق العلم.. العلم بالواقع طريق العلم بذلك المنهج الـذي يوصـلنا اليـه، أي على ضوئه نستطيع معرفة المنهج المؤدي إليه وإلى غيره.

قلت: إن هذا يستدعي البحث عن حقيقة واضحة جدا ومتمـيزة تماما عن الباطل.

قال: أجـل.. فلا يمكن أن تؤسـس الحقـائق إلا على الحقـائق.. وكلما كانت الحقيقية واضحة أكثر وضوحا، وأشد تمييزا عن الباطل كانت أفضل.. لأن أسـاس العلم آنئـذ يكـون أكـثر رسـوخا، ويكـون العلم النابع منه أشمل إحاطة بالحياة.

قلت، وقد هزني الفرح: فما هـو ذلـك العلم الأول الـذي يتعلـق بأوسع الأشياء إحاطة وأسماها رتبة؟

قال: إنـه العلم باللـه الـذي يهـدي إلى كـل علم.. فعلى ضـوئه نتعرف على المنهج الصحيح ونبلغ به جميع الأشياء.

قلت: ومن هو الله؟.. وكيف نصل إليه؟

قـال: ليس الإلـه كائنًـا فـوق البشـر.. وليس هـو الـذي خلـق الكـون.. وليس هـو الـذي تـذهب إليـه الـديانات.. وليس هـو الـذي ينشغل بمصير البشر، ويرسل لهم العلامات والرسائل.

قلت: فمن هو إذن؟

قال لي بلغته اللاتينية: ديوس سيفي ناتورا (Deus sive natura)

قلت: تقصد (الإله أي الطبيعة)

قال: أجل.. فبما أن الطبيعة هي النظـام الكلي للأشـياء.. فـإن الإله هو النظام الكلي للأشياء(1).

---

(1) ذكر المسيري أن إسبينوزا استخدم للتفرقة بين تصـوري الإلـه والطبيعـة تعبـيرين لاتينـيين (نـاتورا نـاتورانز natura naturans)، أي (الطبيعـة الطابعـة)، و(نـاتورا

الحسية التجريبية:

اكتفيت بقوله هذا.. والذي رفضه عقلي أيما رفض(1).. ورحت أبحث عن أستاذ آخر.

قلنا: إلى من لجأت؟

قال: إلى رجل حاول أن يجمع بين الفلسفة والسياسة.. كان اسمه (**جون لوك**)(2).. لقيته عند خروجه من بلاط الأمير وليم بهولندا.. أراني أول ما لقيته مقالا له عن الفهم الإنساني شرح فيه

ناتوراتا natura naturata)، أي (الطبيعة المطبوعة)، والطبيعة الطابعة هي النظام الشامل للأشياء من حيث هو ذو وجود ضروري، ولا يمكن أن يتم تصوُّره بغيره لأن شيئاً لا يخرج عنه، كما أن العلة كامنة فيه باطنة، أي لا يتحكم فيه شيء خارج عنه. أما الطبيعة المطبوعة، فهي الأوجه الجزئية أو المكوِّنات الموجودة في العالم من حيث هي تعبير جزئي عن صفات الجوهر الشاملة. ويمكن القول بأن (الطبيعة الطابعة) هي الإله/الطبيعة في حالة اكتمال، أما الطبيعة/المطبوعة فهي الإله/الطبيعة في حالة صيرورة آخذاً في التحقق في المادة (وهذا يقابل العقل المطلق عند هيجل ثم تحقُّقه من خلال الجدل داخل الطبيعة إلى أن يكتمل في نهاية التاريخ) (انظر: الموسوعة اليهودية)

وبهذا، ردَّ إسبينوزا العالم بأسره، في ثباته وحركته، إلى مبدأ واحد، وهذا المبدأ هو القوة الدافعة للمادة والسارية في الأجسام، الكامنة فيها، والتي تتخلل ثناياها وتضبط وجودها، قوة لا تتجزأ ولا يتجاوزها شيء ولا يعلو عليها أحد، وهي النظام الضروري والكلي للأشياء، نظام ليس فوق الطبيعة وحسب ولكنه فوق الإنسان أيضاً. ويُسمي دعاة وحدة الوجود الروحية هذا المبدأ (الإله) ويسميه دعاة وحدة الوجود المادية (الطبيعة)، ويكتشف إسبينوزا التقابل بين شكلي وحدة الوجود ويؤكد هذه الحقيقة الأساسية بالنسبة لمنظومته الفلسفية في عبارته اللاتينية الشهيرة (ديوس سيفي ناتورا Deus sive natura) وهي عبارة تعني (الإله أي الطبيعة) والطبيعة هي النظام الكلي للأشياء، ومن ثم فإن الإله هو النظام الكلي للأشياء.. (انظر: الموسوعة اليهودية، للمسيري)

(1) من الملاحظات التي وجهها المدرسي لمنهج اسبينوزا:

1- أنه قسّم طرق العلم بالحقيقة إلى أربعة وجعل منها الوجدان كما جعل منها أقول الناس.. ومن حقنا أن نتساءل عن معنى العلم؟ أليس هو وجدان الأشياء وكشفها الوصول مباشرة إليها، كما يقول اسبينوزا ذاته.. فإذا كان كذلك، وهو كذلك، فلا فرق بين أن يأتي هذا الوجدان عن طريق التفكير أو الإحساس أو العلم بالعلة والمعلول، بل إنما يأتي الوجدان بعد هذه الطرق أو بعد غيرها مما يسبب حالة العلم في النفس، إذ الوجدان هو العلم ذاته.. إذا فليس من الصحيح جعل النتيجة من أقسام الطرق المؤدية إليها وجعلها أفضل منها.

2- بالرغم من أنه تفطن إلى أن حقيقة العلم نور وكشف وظهور إلا أنه لم يتفطن، أو لم يذكر، كيف نستطيع الوصول إلى منهج صحيح بعد العلم بحقيقة واضحة.

نظريته حول الوظائف الـتي يؤديهـا العقـل (الـذهن) عنـد التعـرف على العالم.

وقد رأيته فيه يعـترض على المـذاهب الـتي ترجـع الأفكـار إلى الفطرة والتلقائية.. أو التي ترى أن الأفكار تكون جـزءاً من العقـل عنــد الميلاد، ولا يتم تعلمهــا أو اكتســابها فيمــا بعــد من المصــادر الخارجية.

ورأيته يذكر بدل ذلك أن الأفكار جميعها تأخذ مكانها في العقـل من خلال الخبرة.. وأن هناك نوعين من الخبرة: الخـبرة الخارجيـة، والخبرة الداخلية.

أمـا الخـبرة الخارجيـة، فتُكتسـب من حـواس البصـر والتـذوق والسمع والشم واللمس، وهي الحواس التي تمد المرء بمعلومـات عن العالم الخارجي.

وأما الخبرة الداخلية، فتُكتسب من خلال التفكير في العمليـات العقليـة الـتي تتم لتمحيص هـذه البيانـات، وهي الـتي تمـد المـرء بمعلومات حول العقل.

ورأيته يذكر فيه أن في الكون ثلاثة أنواع من الأشياء: العقــول، وأنماط مختلفة من الأجساد، والإله.. ويذكر أن للأجساد نوعان من الخـواص: نـوع يمكن قياسـه حسـابياً مثـل: الطـول والـوزن، وهي أشـياء توجـد في الأجسـاد ذاتهـا؛ ونـوع آخـر كيفي مثـل الصـوت واللون، لا يوجد في الأجساد ذاتها ولكنـه، باختصـار، قـوى تمتلكهـا الأجساد لتعريف العقل بمفاهيم الألوان والأصوات.

2() هو جون لوك (1632م - 1704م)، وهو فيلسوف إنجليزي أثَّرت كتاباتــه في علم السياسة والفسلفة، كـان لكتابـه رسـالتان للحكومـة (1690م) تـأثير قـويّ على تومـاس جيفرسون وهو يكتب إعلان استقلال أمريكا.

وُلد في رينجتون بمقاطعة سومرست بـإنجلترا، ودَرَس بجامعـة أكسـفورد.. وفي عـام 1666م التقى بأنطوني أشلي كُوبر الذي صار فيما بعد أول إيـرل لشافتسـبري، وربطت بين الرجلين صداقة حميمة.. وفي عام 1679م تورط الإيـرل في مـؤامرات ضـد الملـك، وثارت الشكوك حول لـوك أيضـاً، فقـرر أن يرحـل عن إنجلـترا، وانتقـل إلى هولنـدا عـام 1683م، حيث التقى بالأمير وليم والأميرة ماري، أمـيرة أورانج.. وفي عـام 1689، صـار وليم وماري حاكمي إنجلترا، فعاد لـوك إليهـا بوصـفه أحـد المقـربين إلى البلاط الملكي.. وقـد ظـل لـوك حـتى وفاتـه يكتب بقـدرٍ كبـير من الحريـة في موضـوعات مثـل الإصـلاح التعليمي، وحرية الصحافة، والتسامح الديني.

ورأيتـه يـذكر فيـه أن الحيـاة الصـالحة هي حيـاة المتعـة.. وأن المتعـة والألم مفهومـان مجـردان يصـاحبان تقريبـاً كـل التجـارب الإنسانية.. ويستلزم التصرف على نحـو أخلاقي تحديـد أي الأفعـال يمكن أن يؤدي إلى أكبر قدر من المتعـة في موقـف معين، وذلـك قبل ممارسته..

ورأيته يذكر فيه أن اللـه قـد وضـع قانونـاً إلهيـاً، يمكن التعـرف عليه بالعقل، يكون الخروج عليه خطأً أخلاقياً.. وكان يرى أن هنـاك توافقاً بين القانون الإلهي ومبدأ المتعة.

ورأيته يذكر فيه أن للنـاس بطـبيعتهم حقوقـاً وواجبـات معينـة، مثل: الحرية والحياة وحق الملكية.. ورأيته يقصد بالحرية المساواة السياسية..

لم يكن يهمني من آرائـه إلي مـا يتعلـق منهـا بـالمنهج العقلي، فلذلك رحت أسأله عنه، فقال: أنا صاحب (النظرية الحسـية).. أنـا الذي أسستها.. وهي مدرسة تعيد كـل العلـوم إلى مبـدأ واحـد هـو الحس..

قلت: والعقل!؟

قـال: أنـا لا أنكـره.. ولكـني أرى أنـه ناشـئ من الحس.. أو بالأحرى كان بروزه متأخرا عن الحس.. ولذلك فأنا أرى الإنسـان لا يمكنه أن يعرف حقيقة إلا بتجربتها مباشرة، فليست هنـاك حقيقـة اسـتنباطية يسـير فيهـا الفكـر من الحقـائق العامـة إلى الحقـائق الجزئية.

قلت: ولكن الحس يعتمد على العقل.. ألا ترى أنا نقول: إن كل فلز يمتد بالحرارة.. والحديد فلز.. فلابد ان يمتد بالحرارة؟

قـال: من أين عـرفت هـذا العمـوم؟.. هـل من التجربـة على الحديد التي كانت بين التجارب التي أجريت على كل فلز؟.. أم أنه مجرد تخمين؟

قلت: بل هو حكم عقلي.

قال: لا يكفي ذلك لثبت ما تريد أن تثبتـه.. بـل يجب أن تجـرب

الامتداد على الحديد بالذات حتى يمكنك أن تقول ذلـك.. فـالعلم لا يحصل بدون التجربة.

قلت: على ما تعتمد هذه النظرية؟

قال: على ثلاث قواعد..

قلت: فما **أولها**؟

قـال: قـوى الادراك.. لقـد وجـدت أن في الإنسـان عـدة قـوى متدرجـة.. هي الـتي تـوفر لـه المعرفـة.. وتبـدأ هـذه القـوى بقـوة الإدراك، وهي أولى مراحل المعرفة.. تليها قوة الحفظ، وهي القوة التي تدخر المعلومات الناتجة من الإدراك.. تليها قوة التميـيز، وهي التي تفصل بين المعلومات المدخرة.. تليها قوة التقييم، وهي التي تبين نسبة المعلومات إلى بعضها.. تليها قـوة الـتركيب، وهي الـتي تكلـف بجمـع المعـاني البسـيطة وتركيبهـا.. تليهـا قـوة التجريـد أو الانــتزاع وهي مســؤولة عن اســتنباط معــنى كلي من الخصــائص الجزئية التي تلاحظها في منظر واحد.

قلت: فما القاعدة **الثانية**؟

قال: التقسيم..

قلت: ما تريد به؟

قال: لقد رأيت أن التصورات.. جميع التصورات.. إما أن تكــون بسيطة منشأها حس واحد، وذلك مثل تصور الحرارة.. وإما مركبـة منشأها عدة أحاسيس.. وذلك مثل تصور الجسمية، لأنه إنمـا يـأتي من تصور الحجم والوزن وغيرها.

ورأيت أن التصور قـد يكـون مثبتـا، يكشـف عن وجـود شـيء، وذلك مثل تصـور النـور والحـرارة.. وقـد يكـون منفيـا يكشـف عن عدمه، وذلك مثل تصورنا للظلام والبرودة.

ورأيت أن الفكرة التي يستوعبها الذهن بسبب التصور تدعى بـ (المفهوم)، بينما ارتباط هذا التصور بمنشئه يسمى بــ (الخاصـية).. فمثلا الحرارة، مفهوم ذهني، ولكنها من جانب آخر خاصية للنار.

والتصور أيضا قد يكون تصور لذات شـيء، وقـد يكـون تصـورا لحاله، وقد يكون تصورا لعلاقته بسائر الأشياء.

قلت: فما القاعدة **الثالثة**؟

قال: فقه اللغة..

قلت: وما علاقته بهذا؟

قال: لا يمكن فهم العمليات العقليـة من دون فقـه اللغـة.. لأن اللغة هي التي تكشف بقدر ما عن التصورات، وتكون مقياسا أمينا لمعرفة طبيعتها.

قلت: كيف ذلك؟

قال: بما أن تصور الإنسان يعتمـد على الإحسـاس في البدايـة، فإن الرجل البدائي يعبر عنه أولا، فالطفل مثال للفرد البدائي وهـو لا يعـبر أول مـا ينطـق إلا عن الأمـور المحسوسـة.. كـذلك الأمم المتوحشة، مثال للجماعة البدائية، فلا نجـد في لغتهم تعـابير تخص الأمور العقلية، وكلما تقـدمت الأمـة باتجـاه الحضـارة، كلمـا زادت تعابير لغتها التي تكشف عن أمور عقلية.

قلت: عرفت منهجك العقلي، فما حقيقة العلم؟

قـال: يقسـم العلم إلى ذاتي وتعقلي وحسـي.. فالـذاتي، هـو معرفـة نسـبة التصـورات الذاتيـة إلى بعضـها معرفـة مباشـرة.. والتعقلي، هو المعرفة التي تحتاج إلى استدلال وتفكـر.. والحسـي، هو المعرفة الناشـئة من الإحسـاس، وهـو بـالرغم من قلـة قيمتـه الفلسفية لعدم إفادته اليقين فإنه ذات قيمة عملية لأننا نعتمد على الحس في كـل شـؤوننا، وخاصـة في العلـوم الطبيعيـة الـتي مـرد تصوراتها فيها تكون خارج الذهن.

بعد أن سمعت منه هـذا صـحبته مـدة من الـزمن أتـدرب على يديه.. لكني سرعان ما انصرفت عنه، فقد لاحظت تعلقه الشديد.. بل تطرفه الشديد باتجاه تقـييم الحس.. وقـد نتج عن تطرفـه هـذا أمران..

أما أولهما.. فتناسي دور العقل والسابقيات الفكرية، التي يكشفها العقل، في بناء صرح المعرفة، وهذا مخالف للواقع المشهود(1).

وثانيهما.. أنه جعل المنهج العلمي خاضعا للتجربة المادية، تتشابه مع سائر التجارب التي تجري على المادة.. وهذا مخالف للرأي العلمي السديد الذي يفصل بين أنواع التجربة حسب اختلاف المواد(2).

وبالتالي فإن عقلي رفض نظريته، لأني رأيت أنه من دون وجود عقل يكشف عن صحة أو زيف الاحساس لا يمكننا أن نثق به ونستثمره في سبيل تحصيل العلم..

وقد رأيت أن لوك ذاته تنبه إلى هذه الملاحظة فجعل العلم الناشئ من الإحساس في الدرجة الثالثة من الأهمية بعد العلم الذي يحصل بالوجدان والعلم الذي ينشأ من الاستدلال.

المثالية الفلسفية:

قلنا: فإلى من لجأت بعده؟

1() سنرى تفاصيل هذا في المبحث الثاني من هذا الفصل عند حديثنا عن النظرية الإسلامية الشاملة.

2()ومن هنا قال جون ديوي عن لوك:(إن كلمة (خبرة) حين استعملت عند بدء ظهورها استعمالا يضفي عليها الوقار بولغ ـ بغير شك ـ في جانبها المتصل بالملاحظة، كما نرى مثلا عند (بيكن ولوك) ونستطيع أن نلتمس لهذه المبالغة تعليلا سريعا في كونها حدثت في الظروف التاريخية التي حدثت فيها (أي إنها كانت من وحي الظروف الخارجية) ذلك لأن الفكر الفلسفي كان قد تدهور حتى بلغ صورة استبيح معها الظن بأن اعتقاداتنا عن أمور الواقع يمكن، بل ينبغي أن نحصلها بالتدليل العقلي وحده الا إذا كانت مستندة إلى أقوال النقاد، فتولدت عن معارضة هذه النظرة المتطرفة نظرة أخرى تساويها في قصر نفسها على جانب واحد، وهي إن الإدراك الحسي وحده يمكن أن يقرر لنا على نحو مرض ما عسانا نريد أن نعتقده عن أمور الواقع، فأدت هذه الفكرة عند (بيكن) وبعد ذلك عند (لوك) إلى اهمال الدور الذي تؤديه الرياضة في البحث العلمي كما أدت عند لوك إلى تقسيم يوشك أن يكون فاصلا بين معرفتنا لأمور الواقع ومعرفتنا لما يقوم بين أفكارنا من علاقات، على أن هذه المعرفة الأخيرة ـ بناءاً على مذهبه ـ تعود فترتكز في نهاية الأمر على الملاحظة الخالصة سواء كانت تلك الملاحظة داخلية أم خارجية نتج عن ذلك مذهب يرد الخبرة إلى إحساسات هي المقومات التي تتألف منها كل ملاحظة كما يرد الفكر إلى روابط خارجية تصل هذه المقومات على أن المفروض في الاحساسات وفي روابطها معا أن تكون عقلية فقط أي أن تكون نفسية خالصة) (المنطق نظرية البحث).

قال: إلى رجل دين كان مطرانا إنجليكانيا.. وكان في نفس الوقت فيلسوفا.. كان يقال له (**جورج باژكلي**)(3).. لقيته بمسقط رأسه أيرلندا..

قال لي أول ما لقيته: لاشك أنك كنت عند ذلك الأعمى الذي يقال له (جون لوك)

قلت: أجل.. ولكنه لم يكن أعمى.

قال: ما دام لا يرى إلا الحس فهو أعمى.

قلت: وما ترى أنت؟

قال: أنا لا أرى إلا المعنى..

قلت: ولكن هناك أشياء محسوسة.. بل كل ما يحيط بنا محسوس.

قال: كل ما نراه من أشياء مادية ليس إلا أفكار أو أحاسيس نشعر بها تجاهها..

قلت: فأنت ـ بهذا الاعتبار ـ لا تعد التفاحة شيئاً سوى لونها، وشكلها، وملمسها، ووزنها، وطعمها، وخواصها الأخرى على النحو الذي ندركه بأحاسيسنا.

قال: أجل.. كما أن الخصائص أو الأفكار التي نشعر بها لا توجد إلا في مخيلتنا.. وهي تتغير بتغير الشخص الذي يتلقاها.. فالمياه الدافئة نفسها تبدو ساخنة لليد الباردة، وتبدو باردة لليد الساخنة.. وهكذا فإن الخصائص التي نشعر بها ماهي إلا أفكار تعتمد على العقل الذي يتلقاها، وليس لها وجود مستقل.

قلت: ما الذي جعلك تعتقد هذا مع أن الكل يعتقد أن الأشياء المادية المحسوسة تتكون من مادة، والمادة هي الشيء الذي توجد فيه الخصائص المختلفة، ومن المفترض أن المادة توجد خارج العقل، ومستقلة عنه.

---

(3) هو جورج باژكلي (1685 ـ 1753م) هو مطران إنجليكاني وفيلسوف، وُلد فى أيرلندا.. وقد حاول ربط العلم السائد في عصره بالمسيحية.

قال: إن كل ما يدركـه البشـر يرتكـز على الحس، وإذا اختبرنـا الحس وجدناه مليئا بالمتناقضـات.. فالبصـر يـرى الشـيء القـريب كبيرا، وإذا ابتعد عنه حسبه صغيرا.. والأذن تسـمع الصـوت ضـعيفا إذا كان بعيدا عنها، وإذا اقترب اليها سمعته عاليا ـ أو بالأحرى تعتقد أنها تسمعه عاليا ـ وهكذا..

فإذا كان الإحساس يتناقض فكيف نطمئن إليه؟

ثم لدى تحليل الإحساس نجده ليس سوى التصور، والتصــور لا يعدو أن يكون فكرة تعيش داخل الشعور، ولكن لدى التعمـق نجـد أن هـذه الفكـرة قـد لا تكـون وليـدة واقـع موضـوعي.. بـل وليـدة هاجسـة نفسـية أو قـوة علويـة تبعثهـا في نفوسـنا.. أليس أولئـك الواقعيون يعترفون بوجود أفكار لا واقع لها.. فلماذا لا يجعلون كــل الأفكار بعيدة عن الواقع؟

سـكت قليلا، ثم قـال: لنـدع التصـورات السـاذجة.. ولنـدرس المعارف البشـرية، هـل هي ذات قيمـة بعـد التنـاقض الـذي نجـده بينهــا؟ فهي لا تقــوم إلا لكي تنهــار.. فكم من قضــية كــانت من المسـلمات، أصـبحت من الخرافـات، وكم من فكـرة أجمـع عليهـا المفكرون، ولم تمض عليها فترة حتى اصبحت مهجورة.

فــالواقعيون لا يتمكنــون من ادعــاء الصــحة في أي جــزء من معلوماتهم ما دامت سائر الاجزاء قد تبخرت مع حرارة الزمن!

قلت: ألا ترى أن ما تقوله مثالية؟

قال: إن كانت المثالية تعني أن الوجود لا يعني ســوى التصــور، فأنا مثالي، وفلسفتي مثالية.

قلت: فأنت تنكر بقولك هذا العالم..

قال: أنا لا أنكر العالم، ولا أي حقيقـة موضـوعية فيـه.. ولكـني أنكر أن تكون حقيقة الأشياء هي الوجودات المستقلة عنا، القائمــة بذاتها.. إن هذا وهم كبير.. إن حقيقتهـا لا تعـدو أن تكـون مجموعـة تصورات تتفاعل داخل شعور كل منـا، وكـل مـا يقولـه النـاس عن العلم والصناعة والتاريخ والاكتشافات والنشاطات المادية حقيقة لا

ريب فيهـا، ولكنـا نسـأل عن معـنى الحقيقـة؟ انهم يحسـبون أن معناهـا الوجـود المـادي الكـثيف، ولكـني أقـول إن معناهـا الوجـود الذهني اللطيف.

قال ذلك، ثم اسـتغرق في صـمت عميـق قـال بعـده: كـل مـا يقوله العلماء والفلاسفة والناس جميعا صحيح، ولكنه لا يعني وجود واقع خـارج الشـعور.. بـل إن كـل مـا يذكرونـه تصـورات شـعورية محضة.

لم تطل صـحبتي لـه طـويلا.. فقـد رأيت أن مـا ذهب إليـه من منهج يكـاد يقضـي على كـل العلـوم.. بـل يكـاد يحولـني إلى السفسطة..

أما ما ذكره من أدلـة فهي مجـرد التباسـات.. فمعرفـة أخطـاء الحس وتناقضاته بسيطة لمن أوتي نور العقل.. وما دمنا آمنا بـدور العقل الذي لا يخضع للحس وإنما بالعكس يخضـع الحس لـه، فـإن بمقدورنا كشف تناقضات الحس ببساطة متناهية(1).

أما استدلاله بإمكانيـة خطـأ المعـارف البشـرية، فإنـه نـوع من الخلـط بين المعرفـة والجهـل، لأن المعـارف لن تخطئ لأنهـا مشاهدات مباشرة للواقع.. وهناك فرق كبير بين تبين خطأ عقيدة، وبين تبين خطـأ علم.. العلم لا يخطئ، بينمـا تخطئ العقيـدة إذ أن الثانية تخضع للشهوات والتطورات المادية بيـد أن العلم النـابع من العقل ليس كذلك.

ويكفينا حجة: تلك المجموعة الضـخمة من المعلومـات الـتي لا يتردد أحد فيها ولا يحتمل أنها قـد تخطئ في يـوم مـا إطلاقـا مثـل الإيمـان بوجـود حقيقـة الكـون والسـنن العامـة فيـه، والقـوانين الرياضية التي تحكمـه، لا يمكن ولا نحتمـل ان تخطئ في يـوم من الأيام.

الشكوكية التجريبية:

قلنا: فإلى من لجأت بعده؟

1() سنرى الأدلة المثبتة لهذا عند عرضنا للنظرية الإسلامية.

قال: إلى فيلسوف أسكتلندي أثر وتأثر بالشكوكية والتجريبيـة.. فصار شكوكيا تجريبيا.. كان يقال له (**ديفيد هيـوم**)(2).. سـألني أول ما التقيته قائلا: إذا كان كلّ ما يعرفه الإنسان مجرد فكـرة عن شيء ما، فكيـف السـبيل إلى التأكـد من وجـود شـيء في العـالم يتطابق مع تلك الفكرة؟

لم أجد بما أجيبه، فقـال: إن الوجـود يحـدث بحصـول إدراكـه.. فالشيء لا وجود له إلا عندما يدركه عقل الإنسان.

قلت: تقصد أن الأشياء المادية ليسـت سـوى أفكـار مرسـومة في العقل، وليس لها وجود مستقل.

قال: أجل.. هـذا مـا فهمتـه من نظريـات لـوك وبـاركلي.. لقـد رأيت من خلال الجمع بين فلسفتهما أن جميع محتويات العقل إنما هي انطباعات وأفكار.. وقد تخطر بالبال فكـرة يمكن الاهتـداء إلى أصلها المتمثل في انطباع سابق.

ولهـذا يجـدر بالإنسـان أن يحـدد الانطبـاع الـذي أنتج الفكـرة وأعطاهـا معـنى معينًـا، فـالفكرة الـتي تخطـر بالبـال من غـير أن نستدل على أصلها لابد أنها عديمة المعنى.

سـكت قليلا، ثم قـال: كيـف يمكن التأكـد من أن المسـتقبل سوف يكون مثل الماضي؟

قلت: ما تقصد؟

قال: هل ستمارس قوانين الطبيعة عملها على المنوال السابق نفسه؟

قلت: هذا هو الظاهر.

2() هو ديفيد هيوم (1711 - 1776م) فيلسوف أسكتلندي.. وُلد في أدنبره وقضـى غالبية سني حياته في الكتابة، ومن وقت لآخر، كان يقدّم خدماتـه في بعثـات دبلوماسـية في فرنسا وأقطار أخرى. وأعظم أعمالـه: رسـالة في الطبيعـة البشـرية في الفـترة بين 1739ـ 1740م، ولم تجذب إليها إلا اهتمامًـا ضـئيلاً، عنـدما نُشـرت. ولكن شـهرة هيـوم طبقت الآفـاق وبخاصـة في فرنسـا، بعـد أن نشـر عـددًا أكـبر من أعمالـه في الفلسـفة، والدين والتاريخ. وكـانت هـذه الأعمـال تضـم بين دفتيهـا: موضـوعات فلسـفية عن الفهم الإنساني (1748م). وبحث فيما يتعلق بمبادئ السلوك الأخلاقي (1751م)، وكتاب هيـوم عن تاريخ بريطانيا (1754، 1756م)؛ تاريخ إنجلترا (1759، 1762م)

قال: لا نستطيع أن نؤكد أنها جميعـا سـوف تسـتمر في السـير على المنوال نفسه..

قال ذلك، ثم انصرف عـني.. فانصـرفت إلى مؤلفاتـه أدرسـها لأبحث عن الأساس الذي انطلـق منـه في أفكـاره تلـك.. فوجدتـه عديم الثقة بالتأمل الفلسفي.. ولكنه يؤمن أن كـل معرفـة جديـدة تأتي نتيجة للخـبرة، وأن كـل الخـبرات لا توجـد إلا في العقـل على شكل وحدات فردية من الخبرة.. ووجدته يعتقد أنّ كـل مـا مَـرّ بـه الفــرد مباشــرةً من خــبرة لم يكن أكــثر من محتويــات شــعوره الخاص، أو ما يتضمنه عقله الخاص.. ووجدته يعتقد بوجود عالم مـا خارج منطقة الشعور الإنساني، ولكن لم يطـرأ على ذهنـه أنّ هـذا الاعتقاد كان من الممكن إثباته.

وقد وجدته يطلق على وحـدات الخـبرة الحيويـة الفعّالـة اسـم المدركات الحسِّية، أما وحدات الخـبرة الأقـل حيويـة وفعاليـة فقـد أطلق عليها اسم المعتقدات أو الأفكار.. فالكلمات والمدركات لهـا معانيها عند الشخص إذا كـانت لهـا علاقـة مباشـرة بوحـدات هـذه الخبرة.. وكانت كل وحـدة من الخـبرة منفصـلة متمـيزة عن بقيـة الوحدات الأخرى جميعهـا، على الـرغم من أن الوحـدات عـادة مـا تُمارس وتُجرب على أنها مرتبطة بعضها ببعض.

وقد وجدته يرى أن هناك ثلاثـة مبـادئ تربـط الأفكـار المتحـدة بعضها ببعض..

أولهـا التشـابه.. فـإذا مـا تشـابهت وحـدتان من الخـبرة، فـإن التفكير في واحدة قد يؤدي إلى التفكير في الأخرى.

وثانيها التّماس أو التجاور.. فـإذا مـا تلازمت وتجـاورت وحـدتان الواحدة مع الأخرى، فإن التفكـير في واحـدة قـد يثـير التفكـير عن الأخرى.

وثالثها السبب والنتيجة (الأثر).. فـإذا مـا سـبقت وحـدة واحـدة باستمرار وحدة أخرى، فإن فكرة الوحدة الأولى ستظهر في فكرة الوحدة الثانية.

وقد وجدته يهجم على مبدأ السببية الذي يقـرر أنـه لا يمكن أن

يحدث أو يظهر إلى عالم الوجود شيء من غير سبب.. وقد كان هيوم يعتقد بدل ذلك أنه بالرغم من أن حدثًا واحدًا يسبق دائمًا حدثًا آخر، إلا أن هذا لا يثبت أن الحدث الأول سبّب الحدث الثاني.

ووجدته يرى أن التزامن المتواصل بين حدثين، ينشئ توقعًا بأن الحدث الثاني سوف يتم حدوثه بعد الأول.. ولكن لم يكن هذا شيئًا أكثر من اعتقاد راسخ، أو عادة عقلية علمتنا إياها الخبرة، ولم يستطع أحد أن يبرهن أن هناك ارتباطات سببية بين الانطباعات.

وقد بنى هيوم نظريته عن الأخلاقيات على الخبرة، رافضًا الرأي القائل بأن العقل في استطاعته التمييز بين الفضيلة والرذيلة.. وقد فحص الظروف التي كان فيها الناس يتحدثون عن الأخلاقيات، وختم أقواله بأن الميزات الفاضلة عند الناس هي تلك التي كانت سائغة أو نافعة لهم.

النسبية الذاتية:

قلنا: فإلى من لجأت بعده؟

قال: إلى فيلسوف ألماني، كتب في (نقد العقل الخالص)(1).. كان اسمه (**إيمانويل كَانْط**)(2) لقيته ببروسيا الشرقية..

---

(1) حوى كتاب (نقد العقل الخالص) خلاصة تجربة إيمانويل كانط الفلسفية.. بل أدى إلى تغيير خارطة أوروبا الفكرية والفلسفية.

وقد أدى هذا الكتاب بفلاسفة مشهورين كانوا قد سلموا بمطلقية العقل النظري وسيادة أحكامه إلى تغيير آرائهم بصورة تامة بعد قراءته، إذ سلم نيتشه بكل ما في ثنايا الكتاب واعتبرما جاء به من ثورة عقلية قضية مسلماً بها، أما شوبنهور فقد اعتبر الكتاب على أنه أعظم ما أنتجه الأدب الألماني وأكثره شهرة، وكان له رأي مشهور مفاده أن الإنسان يبقى طفلاً في معرفته حتى يقرأ كانط ويفهمه، وأتى هيجل بعدهم ليربط الفلسفة كلها بمعرفة كانط إذ قال (لكي يكون المرء فيلسوفاً فلا بد من أن يدرس كانط)

(2) هو إيمانويل كَانْط (1724-1804م)، فيلسوف ألماني، وُلد وعاش في كونجزبيرج في بروسيا الشرقية (تُعرف الآن بكالينينغراد في روسيا).. وقد عمل بالتدريس بالقرب من كونجزبيرج من عام 1746م حتى عام 1755م، وبعد ذلك عمل بالتدريس في جامعة كونجزبيرج نحو 50 عامًا حتي وفاته.. وقد كان عمله فاتحة لعهد جديد، لأنه أنشأ الخطوط الأساسية للتطورات الفلسفية منذ ذلك الحين.

إضافة لعمله نقد العقل الخالص، كتب في علم الجمال وعلم الأخلاق. وفي علم الأخلاق، حاول إيضاح: 1- أن أداء الفرد لواجبه أكثر أهمية من إسعاد نفسه أو الآخرين.

والتي تُعرف الآن بكالينينغراد في روسيا..

لقيته في في جامعة كونجزبيرج، وهو يصيح في طلبته ومن حضر معهم من سائر الناس قائلا: اعملوا عقولكم أيها البشر! لتكن لكم الجرأة على استخدام عقولكم! فلا تتواكلوا بعد اليوم ولا تستسلموا للكسل والمقدور والمكتوب.. تحركوا وانشطوا وانخرطوا في الحياة بشكل إيجابي متبصر.. فالله زودكم بعقول وينبغي أن تستخدموها.

سأله بعضهم حينها عن التنوير، فأجاب: إنه خروج الإنسان عن مرحلة القصور العقلي وبلوغه سن النضج أو سن الرشد.

سأله آخر عن علاقة التنوير بالإيمان، فأجاب: عند حدود العقل تبتدئ حدود الإيمان.. لكن احذروا من الطاعة العمياء للقادة أو لرجال الدين.

سأله آخر عن القصور العقلي، فأجاب: إنه التبعية للآخرين، وعدم القدرة على التفكير الشخصي أو السلوك في الحياة أو اتخاذ أي قرار بدون استشارة الشخص الوصي علينا.

اقتربت منه أنا، وسألت سؤالي المعتاد الذي تعودت أن أسأل به العقول، قلت له: كيف يتسنى للعقل أن يبلغ حقائق الأشياء بلوغا لا شك معه.

ابتسم، وقال: أنت لا تعرفني..

قلت: رأيتك.. ولكني لا أزال لا أعرفك.

قال: ولذلك وجهت لي هذا السؤال.. ولو أنك عرفتني لما سألت هذا السؤال.

قلت: لم؟

2- إذا افترضنا أن بوسع العلماء التنبؤ بما سنفعله، فإن التنبؤات لا تتعارض مع ميلنا نحو حرية الإرادة. لذا فإن تنبؤات العلماء ليس لها أي تأثير على وجوب أن نعيش متحلّين بالأخلاق.

كان عمله الرئيسي في مجال الأخلاق هو كتابه نقد العقل العملي (1788م). ثم نشر تعليقات إضافية حول عَمَلَيْه الرئيسيين تحت عنوان نقد الحكم (1790م)

قال: لأن منهجي العقلي ينطلق من إلغاء هذا السؤال.

قلت: فسر لي ما تريد قوله.

قال: حينما رأيت مشاكل عديدة تمنع عن بلوغ حقيقة المعرفة، فعلت ما فعل غاليلو بالنسبة إلى الهيئة؛ فبدلا من ان يقـول الأرض مركز العالم والشمس تدور حولها، قال: ان الشـمس هي المركـز والأرض تدور حولها، فنجح وحلت مشاكله العلمية.. وكـذلك نجحت حين قلت: النـاس حـتى اللحظـة كـانوا يحسـبون ان الحقـائق هي المركز والفكر يدور حولها. ولكن بـدأت أقـول: الفكـر هـو المركـز والحقائق تدور حوله، وأبسط الحقائق هو الإحساس.. فمـا يزعمـه الناس حـول الإحسـاس انـه انعكـاس الحقيقـة على الـذهن، ولكن أقول بل هو صـبغة الـذهن للحقـائق.. أنـا أقـول: صـحيح أن هنـاك حقائق نحس بها، ولكن لم يكن من الممكن الإحسـاس بهـا الا في حـدود الزمـان والمكـان.. ولـدى التعمـق أكـثر من هـذا، نـرى أن الزمان لا يعني سوى نسـبة الإنسـان إلى الأحـداث.. وأمـا المكـان فهو نسبة الإنسان.. أي الفكر.. إلى الأشياء.

فاليوم يعـني: تقـارن إحساسـي مـع دورة الشـمس، والمكـان القريب يعني: قربي إليه.. ونستطيع تشبيه الزمان والمكان بظرف بلور نضع فيه الماء فيصطبغ الماء بلـون الظـرف، فنعتقـد نحن أن اللون من المـاء، ولكن الظـرف فقـط واهب اللـون، وكـذلك نحن نزعم الحقيقة في الزمان والمكان، والواقع هو أننا نحن نعيش عبر المحدودية الزمانية والمكانية، لا أن الحقائق هي التي تعيش.

قلت: فأنت تعتبر الحقيقة هي الإحساس مصبوغا بصـبغة ذاتيـة هي صبغة الزمان والمكان.

قال: أجل.. فالحقيقة كما هي في واقعها - أو كما هي في ذاتها - لا يمكن أن تعرف، لأننا لا نملـك إلا أداة محـدودة للمعرفـة، وهي أداة الذهن التي تعيش ضـمن وقت ومحـل محـدودين.. فالحقيقـة إنما تعرف بنسبة معينة.

تأمل في وجهي قليلا، ثم قال: ولذلك فإن بحـوث الميتافيزيقيـا (الغيب) بعيـدة عن إحاطـة الإنسـان، لأنهـا مجـردة عن الزمـان والمكـان.. أمـا بحـوث الرياضـيات فإنهـا أيضـا لا تعكس الحقـائق،

ولكنها صحيحة حسب أفكارنا إذ أنها تكرير لحقيقتي الزمان والمكان.. فالحساب مجموعة أعداد، والعدد ليس إلا انعكاس الذهن على شاشة الأشياء.. وكذلك الهندسة، فهي تحديد للأماكن القريبة والبعيدة ونوع قربها وبعدها عني.

قلت: فأنت تفرق بين العلوم في علاقتها بالحقيقة المجردة؟

قال: أجل.. لقد وجدت أن الطبيعيات.. كل الطبيعيات.. تحتوي على مادة هي الإحساسات وصورة هي الزمان والمكان.. وأن الرياضيات تحتوي على صورة ـ وهي الزمان والمكان ـ ولكن بدون مادة.. أما (الميتافيزيقيا) فلا تحتوي موضوعاتها على صورة ولا على مادة.

ولذلك، فإن معارفنا عن الطبيعيات مزيجة من الذاتية والموضوعية، وهي لذلك لا تمثل إلا بعض الحقيقة.. أما معارفنا عن الرياضيات، فهي ذاتية بحتة.. فرغم أننا نعتقد بها لأنها جزء من تركيب أذهاننا لكنها مع ذلك لا تعكس حقيقة وراءها.. وأما معارفنا عن الغيب (ميتافيزيقيا) فإنها لا ذاتية ولا موضوعية.

لم تطل صحبتي له طويلا، فقد انصرفت عنه بعد مدة قصيرة.. فلم أجد عنده ما يسد حاجة عقلي..

نعم.. النظرية النسبية التي تعتبر أساس منهجه، صحيحة علميا، إذا أريد منها: أن العلم بكل الأشياء غير ممكن لنا، وكذلك العلم بكنه الأشياء.. ولكن إذا أريد بها التشكيك في صحة علمنا بظواهر بعض الأشياء، فإن ذات العلم ينفي هذا النوع من التشكيك إذ أنه حين يكشف لنا عن شيء يعطينا اطمئنانا بالغ الشدة به، بحيث ينقطع التشكيك فيه.

ومن هنا كان خطأ كانط الكبير، حين اعتبر الزمان والمكان من متصورات النفس البشرية ومن إضافاتها النهائية التي تضفيها على الأشياء لا لأمر إلا لتعرفها.. ذلك أن الزمان والمكان بدورهما حقائق يكشف عنهما العقل البشري.. ويثق بوجودهما في الخارج كما يثق بوجود أي شيء آخر.. وما هو الفرق بينهما وبين مواد التصورات وكيف جاز لكانط أن يعتقد أن تصور الحرارة من نتائج الخارج ولكن تصور مكانها وزمانها من نتائج الذهن.

هذا بالإضافة إلى أن الذهن البشري يتصور إلى جـانب الزمـان والمكان أمورا أخرى كالشـدة والضـعف والنـوع والكيـف، فالـذهن يتصور مكـان وزمـان الحـرارة ويتصـور أيضـا الفـرق بين الحـرارة والبرودة، وبين الحرارة الشديدة والضعيفة.. وهكذا.

صـحيح أن التصـور الزمكـاني شـرط أساسـي للإحسـاس، إذ الإحساس مشروط بالتنظيم؛ وهو مشـروط بتصـور الزمكـان فهـو ينـبئ عن قـدرة الـذهن على الفهم قـدرة قبليـة.. ولكن ليس من الصحيح أن هـذا التصـور مجـرد إضـافة ذاتيـة يضـيفها الـذهن على الأشياء، بل هو كشف قبلي يجده الذهن ويجد الأشياء به(1).

الجدلية المثالية:

قلنا: فإلى من لجأت بعده؟

قال: إلى فيلسوف ألمـاني.. هـو أحـد أكـثر الفلاسـفة الألمـان تـأثيرًا في المـذاهب الفلسـفية الحديثـة.. كـان اسـمه (**جـورج ويلهلم فريدريك هيغل**)(2).. كانت أول كلمة سمعتها منه هي

---

(1) بالإضافة إلى هذا هناك اعتراضان وجها إلى منطق كانـط، أحـدهما من زاويـة علم (اجتماع المعرفة) والثاني من زاوية علم (نفس المعرفة).. وبالرغم من عدم صحة هذين الاعتراضين بصفة تامة، فإن فيهما قيمة اعتراضية نسبية.

1- أنها ليست الا قائمة لمقولات الفكـر الأوروبي الـتي تمخض عنهـا العصـر الكـانتي.. وأنه لم يكن واقعيا في نظرته إلى المعرفة إذ أحال المعرفة إلى (تصورية تركيبية) ونظر إلى العقل على أنه (عقل خالص)، والى الإنسان على أنه (كائن مجرد) ـ بلا تـاريخ.. على حين أننا لا نجد إنسانا مجردا على الإطلاق كمـا يسـتحيل علينـا أن نجـد عقلا خالصـا.. فلا يوجد في الواقع الا الإنسان المتحضر، أو التاريخ الذي نشاهده وندرسه من خلال احتكاكه بالآخرين، والـذي يتـأثر عقلـه بمختلـف المعـايير الاجتماعيـة وتصـاغ شخصـيته في قـالب ثقافي، أو في صورة اجتماعية.

2- لقد ثبت في الفيزياء الحديثة أن في وسعنا اكتسـاب معرفـة خـارج إطـار المبـادئ الكانطيـة، وأن الـذهن البشـري ليس قائمـة منحصـرة من المقـولات يكـدس العقـل في داخلها كل التجارب، بل إن مبادئ المعرفة تتغير بتغير مضمونها ويمكن تكييفها مـع عـالم أعقـد بكثـير من عـالم ميكانيكـا نيـوتن. (انظـر: المنطـق الإسـلامي: أصـوله ومناهجـه، للمدرسي).

(2) هو جورج ويلهلم فريدريك هيغل (1770 ـ 1831م) ولد في عائلة بروسية تنتمي إلى البورجوازية الصغيرة، كان والده موظفاً في الدولة البروسية.. بعد أن أنهى دراسـاته الثانويـة في مدينتـه الأصـلية شـتوتغارت دخـل إلى كليـة اللاهـوت الشـهيرة في مدينـة توبنغين. وهناك درس التاريخ وفقه اللغة الألمانية والرياضيات بصـحبة صـديقه هولـدرلين

(ديالكتيك)(1).. سألته عنها، فقال: أنت تبحث عن العقل الذي يدرك حقائق الأشياء.. وضالتك عندي..

استبشرت كثيرا لقوله هذا، وطلبت منه أن يبين لي الآلية التي أدرك بها الحقائق، فقال: لتفهم تلك الآلية تحتاج إلى معرفة ثلاثة معانٍ كبرى.. هي الفكرة، والروح، والطبيعة.. وهذه المعاني الثلاثة ترجع إلى معنى واحد هو المطلق.. والمطلق هو الذات الكلية التي تنتظم كل شيء، وكل الأشياء إنما هي تطور ونمو ديالكتيكي لهذه الذات الكلية.

الذي سيصبح شاعراً كبيراً فيما بعد، وقد نشأت بينهما صداقة حميمة وعميقة.

أتم تعليمَه في توبينغر شتيفت (كلية الكنيسة البروتستانتية في فورتيمبيرغ)، حيث ربطته صداقة مَع فلاسفة المستقبل فريدريك شيلنغ وفريدريك هولدرلين. بعد ذلك جذبته وسحرته أعمالِ سبينوزا، كانت، و روسو، و الثورة الفرنسية.

وبدأ سلك التدريس الجامعي عام 1801م، في جينا. وقد عمل أستاذًا للفلسفة في جامعة برلين منذ عام 1818م حتى وفاته.

تناول في أول كتاب نشر له، ظواهر الروح (1807م) مع تطور صيغ الوعي، وتشمل صِيَغُ الوعي هذه اختلافات ثرية ومحيرة لحالات العقل، ومناظرَ للعالم، ومواقف أخلاقية، ونظراتٍ دينية نصرانية، وأنواعًا للنشاط الطبيعي، وصيغًا لتنظيمات اجتماعية.

وقد حاول أن يوضح كيف تم التقدم فيما اعتبره تسلسلاً ضروريًا وتاريخيًا تحرك خلال تناقض وحل لمستويات نضج أكبر.

وحاول في كتابه الثاني، علم المنطق (1812 ـ 1816م)، أن يبين نوع الجدل نفسه في تطوير النظريات الفلسفية عن الحقيقة. واحتوت موسوعة العلوم الفلسفية (1817م)، نظامه الفلسفي في صورة مكثفة. وتشتمل على ثلاثة أقسام: صيغة قصيرة للكتابة عن المنطق، وفلسفة الطبيعة وفلسفة الروح. وحلل كتابه الأخير فلسفة الحق (1821م)، التطور الجدلي للنظم الاجتماعية، والأخلاقية، والقانونية. وبعد وفاة هيجل، نشر تلاميذه محاضراته عن فلسفة التاريخ، والدين، والفن، وعن تاريخ الفلسفة. وقد أعادوا كتابة المحاضرات بصورة أساسية، من مذكراتهم.

(1) كلمة (ديالكتيك) مأخوذة من الكلمة اليونانية (دياليغو) ومعناها المحادثة، أو المجادلة والمناظرة.

ثم صارت مصطلحاً علمياً عند فلاسفة الإغريق، يدلّ على حركة التغير والتطور الملاحظة في أشياء هذا الكون، سواءٌ منهم من أخضع ذلك لعلل وقوى خارجة عن الكون، أو تصور أنها ناتجة عن دوافع ذاتية كامنة في ضمن هذه الأشياء، كأن عناصر الكون تتجادل فيما بينها في حركة دائمة.

والديالكتيك عند سقراط هو الأسلوب الجدلي بين فريقين متعارضين متناظرين في موضوع ما.

قلت: فكيف نصل إلى هذه الذات الكلية؟

قال: لن تصل إليها حتى تعرف أن حركة التغير والتطـور تسـير وفق دورات لولبية صاعدة، كل دورة منهـا ذات ثلاث مراحـل، أمـا أولاها، فسميتها (الطريحة) أو (أطروحـة).. وأمـا الثانيـة، فسـميتها (النقيضـة) أو (النفي).. وأمـا الثالثـة، فسـميتها (الجميعـة) أو (نفي النفي)، أو (التركيب)(1)

والحركـة الجدليـة في هـذا المطلـق الـذي هـو الـذات الكليـة، تنطوي على ثلاث مراحل في ثلاث لحظـات، هي الوضـع الأول، ثم انقلابه إلى نقيضه، ثم مركب الوضع ونقيضه بعد توحدهما بسقوط التنـاقض بينهمـا، وارتفاعهمـا بهـذا التوحـد إلى مـا هـو أسـمى من الوضع ونقيضه.

وهكذا دواليك تتكرر حركـة الجدليـة، فيكـون في الأشـياء كلهـا تطور ونمو.

أي أن الحالة الأولى التي يكون عليها المطلـق، أو تكـون عليهـا الفكـرة، أو الـروح، أو الطبيعـة، أو الكـائن الطـبيعي، أو المجتمـع الإنساني.. وهي الحالة التي أسميها (الطريحة) تتفاعل مع أضدادها ونقائضها، فتنقلب إلى الطـرف الآخـر الـذي تقـع فيـه أضـدادها أو نقائضها، وبذلك يتم التحـول إلى الحالـة الثانيـة، وهي الحالـة الـتي أسـميها (النقيضـة).. ثم تتفاعـل الحالـة الثانيـة مـع أضـدادها أو نقائضـها، فينشـأ من ردود الأفعـال تغـير لهـا، ولكن لا إلى ذات

واستغله أفلاطونأسلوباً للوصول إلى الحقيقة، من خلال بيانين متعارضين، يكشف كـلٌّ منهما ما يراه في الآخر محلاً لتوجيه النقد إليه، أو الاعتراض عليه.

وارتقت المجادلـة أو المنـاظرة عنـد المسـلمين فصـارت لهـا أصـول وقواعـد وآداب، واقتصرت على ما يكون بين فريقين يتجادلان ويتناظران حول موضوع ما.

ثم جاء الفيلسوف الألمـاني (هيجـل) فأخـذ كلمـة (ديالكتيـك) وفـق مصـطلح فلاسـفة الإغريق الدالة فيه على حركة التغير والتطور الملاحظة في أشياء هـذا الكـون، وقـام في ذهنه تصور خاص لهذه الحركـة الدائمـة في الكـون، حـتى ظن هـذا التصـور قانونـاً ثابتـاً، تخضع له العمليات المنطقية الفكرية، وعلميات الكـون، وحركـة التـاريخ الإنسـاني، لكنـه اعتبر هذا القانون نظاماً للقوة الغيبية غير المادية، المهيمنة على الكون والمتصرفة فيه.

1() قد تختلف الألفاظ المعبرة عن هذه المراحل عن المعرفين بجدلية (هيجـل) مثـل التعبير التالي : (الوضع، ونفيه، ومؤتلف الوضع ونفيه)

الطرف الذي سبق أن تركته في التغير الأول، بل إلى تغير صاعد يجمع بين الطريحة والنقيضة جمعاً توفيقياً، وبهذا الجمع تسقط صفات وعناصر دنيا خسيسة، وبذلك يحصل الارتقاء، وهذه هي الحالة التي أسميها (الجميعة).. ويُحذفُ التناقض في هذه الحالة إذ يتم امتصاصه في شمولٍ أعلى.

ثم تغدو الحالة الثالثة (الجميعة) من جديد (طريحة) تتغير إلى (نقيضة) جديدة، ثم إلى (جَمِعيةٍ) جديدةٍ صاعدة.. وهكذا دواليك تذهب الدورات صاعدة.

التفت إلي، وقال: هذا هو طريق الحقيقة.. وهذا هو (الديالكتيك)..

قال ذلك، ثم التفت إلى برعم شجرة أمامه، وقال: هذا (البرعم) مثلا أعتبره (طريحة).. تأتي الزهرة، فتنفيه، وتصبح الزهرة بالتالي (نقيضة).. ثم تأتي (الثمرة) التي هي الجميعة، وهي أسمى من البرعم والزهرة.

قلت: فهمت الديالكتيك الذي يعرف به منهجك.. فما المثالية؟

قال: أنا من فئة المثاليين، الذين يؤمنون بالغيبي المجرد من الحسيات، لا من فئة الماديين، فأنا أؤمن بإلهٍ.. والله في تصوري هو الوجود غير المتناهي، وهو المطلق، وهو الحقيقة الكاملة.

بقيت في صحبته مدة.. إلى أن بان لي أن ما يذكره قد يوصلني إلى بعض الحقائق.. ولكنه قد يوصلني في نفس الوقت إلى كثير من السراب والأوهام..

فقد رأيته أن مذهبه من الناحية العقلية المنطقية مبني على اجتماع الأضداد أو المتناقضات سواء في حالة اصطراعها أو في حالة ائتلافها في الجميعة، ومنطق العقل يحكم جازماً باستحالة اجتماع الأضداد أو المتناقضات في شيء واحد وزمن واحد(1).

1() من الأصول العقلية البدهية المقررة لدى الفلاسفة والمناطقة وسائر العقلاء والمفكرين أن النقيضين كالوجود والعدم، وكإيجاب الشيء وسلبه، لا يجتمعان في شيء واحد ووقت واحد، واجتماعهما مستحيل عقلاً. ولا يرتفعان معاً من شيء واحد في وقت واحد، وارتفاعهما معاً مستحيل عقلاً.. فلا يكون الشيء الواحد في الوقت الواحد موجوداً ومعدوماً معاً، ولا موجباً وسالباً معاً من الجهة التي يكون فيها موجباً.. ولا يكون الشيء

ورأيــه يشــتمل على أن التغــيرات تــذهب صــاعدةً مرتقيــة باستمرار إلى ما هو أسمى، ولكن الواقع لا يُصدِّق هذا الادعاء، فهو إن صـدق بمثـالٍ أو بعـددٍ من الأمثلـة، لا يصـدق بأمثلـة كثـيرة لا تحصى، فهو إذن لا يصلح لأن يكون قانوناً شاملاً.

ولئن سلمنا في تغيرات المجتمـع البشـري، بـأن التطـرف في (الديكتاتوريــة) الفرديــة في المجتمــع قــد ينشــأ عنــه نقمــة في المجتمع، ويتولد عنه – دون حتمية- رد فعلٍ عنيف، يدفع بــالمجتمع

الواحد في الوقت الواحد غير موجود وغير معدوم معاً، أو غير موجب وغير سالب معاً.

أمــا الضــدان كــالأبيض والأســود، فلا يجتمعــان معــاً في شــيء واحــد ووقت واحــد، واجتماعهما معاً مستحيل عقلاً. فلا يكـون الشـيء الواحـد بالـذات أبيض وأسـود معـاً من الجهـة نفسـها في وقت واحـد.. لكن الضـدين قـد يرتفعـان معـاً في وقت واحـد، فيكـون الجسم لا أبيض ولا أسود معاً في وقت واحد،إذ قد يكون أحمر أو أصفر أو غـير ذلـك من ألوان.

ومن الملاحظ أن الجدلية قد نسفت هذا الأصل العقلي المنطقي نسـفاً كليـاً، فأقـامت الوجود كله على فكرة اجتماع الأضداد أو المتناقضات واتحادها.

وفي ادعاء اتحاد الأضداد والمتناقضات استهانة بالغة بالعقل البشـري، وإقامـة مـذهب كامل لبني الإنسان، على أمر باطل واضح البطلان.

إن اللحظة التي يكون فيها الشيء متحركـاً، لا يمكن أن يكـون فيهـا سـاكنا، واللحظـة التي يكون فيها ساكناً لا يمكن أن يكون فيها متحركاً.

ولكن الشيء الواحد قد تتداول عليه الحركة والسكون بلحظات متتابعات مهما صغرت ودقت هذه اللحظات، وقد ينخدع بذلك بعض أهل الفلسفة، فيظن أن السكون كـامن في الحركة، فيعتبر ذلك من اجتماع النقيضين، وليس الأمر كذلك.

وقد يمثل مدعو اجتماع الضدين أو النقيضين بتماس السالب والمـوجب في الكهربـاء، الذي ينجم عنه الظواهر الضـوئية والحركيـة، لكن التمثيـل بهـذا تمثيـل باطـل، فالسـالب والموجب في الكهرباء ليسا ضدين ولا نقيضين منطقيين.

إن السالب المنطقي للكهرباء هو لا كهرباء، ويصدق ذلـك بـأي شـيء غـير كهربـاء في الوجود، فالخشب والحجر والتراب والثلج والملح والحلاوة والملاسة والخشونة وغير ذلـك كلها ليست بكهرباء.

أمــا السـلك السـالب في الكهربـاء، فليس هـو السـالب المنطقي للكهربـاء، إنمـا هـو مشتمل على قوة أخرى منافرة للقوة الكهربائية.

فالموجب والسالب في الكهرباء قوتان متنافرتان متقابلتان، إذا تماسـا تفـاعلا، فأنتجـا بحسب قوانين إنتاجهما ظواهر ضوئية أو حركية، كالذكر والأنثى، وما ينتج عنهما.

إن القوى المتنافرة والمتآلفة والمتفاوتة كلهـا إذا تلاقت أو تماسـت أو اجتمعت كـانت ذات آثارٍ ما، وآثارها تخضع لقوانين خاصة بكل منها. (انظر: كواشف زيوف، لحبنكة)

إلى حرية اجتماعية سمتها الفوضى، ثم يتولد عن هذه الفوضى الاجتماعية رجعة توفيقية بين الديكتاتورية والحرية المسرفة، وهي أفضل منهما.. فمن الطريحة والنقيضة تولدت الجميعة.. ولكن ذلك لم يتم إلا من خلال وعي الناس، ودون أن تكون ضرورة حتمية.

فكيف نطبق الحركة التغيرية الصاعدة حينما تسوء حالة الجميعة التوفيقية هذه في المجتمع، فترجع إليه الديكتاتورية المتطرفة مرة أخرى، ثم الحرية الاجتماعية المسرفة، ثم الديمقراطية المعتدلة؟!

أليست هذه دورات متناظرة، وليست بصاعدة كما زعم الادعاء(1)؟

الجدلية المادية:

قلنا: فإلى من لجأت بعده؟

قال: إلى رجل تعرفونه جميعا.. استعمل جدلية هيجل بعد أن نزع عنها المثالية.. فحولها إلى مادية.

قلنا: تقصد (**كارل ماركس**)(2)

قال: أجل.. لقد أخذ هذا الرجل من هيجل آراءه في الجدلية بعد أن حذف منها نظرتها المثالية، المرتبطة بالله، وأضاف إليها نظرته المادية، فصار مذهبه الفلسفي الجذري (المادية الجدلية)

وبناء على ذلك جعل الدين، والقانون، والسياسة، والأخلاق، والنظم الاجتماعية، والفلسفة، والفن، آثاراً في الوعي الإنساني

1() استشهد (برنال) بنظرية الرغبات المكبوتة لفرويد في رد هذا الديالكتيك، فقال : إننا نجد الدول الديالكتيكية أبعد ما تكون عن الحتمية فيها، فالغريزة هي الطريحة والكبت هو النقيضة والتسامي هو الجميعة، ثم يقول برنال : هذا جميل، ولكن افرض أن المريض أصيب بالجنون بدلاً عن كونه قد استطاع أن يتسامى. افرض أنه قتل نفسه، أين تكون إذن هذه المواءمة بين الأضداد بين الجميعة؟! أين يكون التقدم من الأدنى إلى الأعلى في هذه الحالة ؟! (انظر: كواشف زيوف، لحبنكة)

2() سبق التعريف به.. وقد ذكرنا بتفصيل الرد على جدليته في رسالة (الباحثون عن الله) من هذه السلسلة.

للجدلية في حركة المادة وتطورها، وجعل هذه كلها صناعة إنسانية، وجعل الإنسان نتاج المادة في حركتها الجدلية، وجعل الفكر فيه نتاجها الأعلى.

وقد أخبرني أنه بعمله هذا قد أوقف آراء هيجل على قدميها، بعد أن كانت عنده واقفة على رأسها.. قال لي: إن هيجل لما اعتبر جدليته منطلقة من الله إلى كل الأكوان، فإنه بذلك قد عكس حقيقة الأمر، إذ حقيقة الأمر في ادعائي هو أن الله من اختراع الفكر الإنساني، ومن ابتكاراته التي لا تنطبق على الحقيقة والواقع.

وقد رأيت (ماركس) يعتبر نظام الجدلية أساساً لكل التغيرات في الطبيعة وفي التاريخ الإنساني بصفةٍ عامة، ويعتبره أساساً تتغير على وفقه المجتمعات الإنسانية، من مجتمع إقطاعي إلى مجتمع بورجوازي إلى مجتمع اشتراكي وأخيراً إلى مجتمع شيوعي تنتهي فيه كل الطبقات، ولا حاجة فيه إلى سلطة حاكمة.

ورأيته يعطي هذه التغييرات التي ذكرها صفة القانون الاجتماعي الحتمي، ليقنع قطعان الجند من الشيوعيين بأن النهاية مضمونة لهم، فهم الذين سيقبضون على ناصية الأمر في كل المجتمعات.

ورأيته يطلق عليها وصف (المادية) لأن نظرتها مادية صرفة، أي: لا ترى الوجود كله إلا مادة فقط، وتعلل حوادث الكون تعليلاً مادياً، وترفض أي مؤثر غيبي، أو خارج عن حدود المؤثرات المادية.. وهذا الرفض قد جعل الماركسيين يلتزمون تلقائياً عدم حاجة الكون لعلم سابقٍ وحكمة واختيار وقدرة، رغم كل ظواهر الإبداع والإتقان والعناية، ورغم كل روائع الحكمة البادية فيه لكل متدبر مفكرٍ، ورغم نظام الوحدة المسيطر عليه، والدالة على وحده المنظّم، ورغم تصاريفه الهادفة إلى غاية مثالية عظيمة، والتي لا يلاحظ فيها أية عشوائية، أو أي تخبط على غير هدى، بخلاف حال المصادفات.

قلنا: فكيف فسر الكون بجدليته هذه؟

قال: لقد ذكر لي أن مادة الكون الأولى قد تطورت تطوراً

ذاتياً، ضمن نظام (جدلية هيجل) حتى تكامل للكون نظامه الرائع.. ثم ظهرت في الأرض الحياة نتيجة لحركة التطور وفق الجدلية.. ثم ظهر الإنسان بالتطور الذاتي، وتدرج في كماله حتى بلغ وضعه الحالي المشاهد..

وذكر لي أن تطور المادة يخضع لعوامل ونظم من المادة نفسها، يفهمها الإنسان منها بعد وقوعها.. وأن تطورات الكون لا تخضع مطلقاً لخطة فرضت عليها من خارجها مسير لها، مدبر لأمرها، بل تخضع لقوانين حركة المادة.

السلام

قلنا: فإلى من لجأت بعده؟

قال: لم ألجأ إلى أحد.. لقد جرفني تيار الدياليكتيكية بسياطه.. إلى أن أسلمني اليأس إلى ما أسلمكم إليه.

قلنا: الانتحار!؟

قال: أجل.. فقد وجد عقلي ـ الذي لا أستطيع العيش من دونه ـ نفسه خاويا.. فراح يطالبني بالخلاص.. ولم أجد الخلاص إلا في الموت.

قلنا: كيف كان ذلك؟

قال: في تلك الأيام كنت في باريس منشغلا بالتفرج على مسرحيات (صمويل بيكيت) الأيرلندي و(أوجين يونسكو) الروماني زعيمي حركة اللامعقول.. وفجأة.. وبعد أن رأيت ما رأيت من حقارة حياة العقل.. وبعد أن ذقت من شراب اللامعقول ما ذقت.. أصابتني إغماءة الموت.. التي أعقبت صيحة شديدة تعالت أصداؤها في كل مكان.. ولم ينقذني منها إلا ذلك النور والسلام الذي حدثتكم عنه.. والذي جئت إلى هذه البلاد باحثا عنه.

قلنا: كيف تم ذلك؟

قال: في المسرح الذي أهين فيه العقل.. والذي أصابتني فيه إغماءة الموت التي كادت تقضي علي.. هرع الكل لإنقاذي

مستعملين كـل وسـائلهم وأسـاليبهم وأسـبابهم.. لكنهم جميعـا لم يرتدوا إلا بالفشل الذريع.

لكن رجلا ظهر في ذلك الحين.. لست أدري هل كـان معنـا في المسرح يتفرج على ما نتفرج عليه.. أم أنه سمع صـيحتي القويـة.. فأسرع لإنقاذي..

اقـترب مـني.. ثم راح يرتـل هـذه الآيـة من القـرآن[1] : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَـرَ وَالْفُـؤَادَ كُـلُّ أُولَئِكَ كَـانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ (الاسراء:36)

ثم يعقبها بآية أخرى تقول : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَـاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:78)

ثم يعقبهـا بهـذه : ﴿ إِنَّ فِي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالفلك الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَـا أَنـزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ لأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَـا مِنْ كُـلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَـخَّرِ بَيْنَ السَّـمَاءِ وَلأَرْضِ لآيَـاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: 164)

ثم يعقبها بهذه : ﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَـابِ وَالَّذِي أُنـزِلَ إِلَيْـكَ مِنْ رَبِّكَ الحق وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ (1) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُـلٌّ يَجْـرِي لِأَجَـلٍ مُسَـمًّى يُـدَبِّرُ الأَمْـرَ يُفَصِّـلُ الآيَـاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَـاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3) وَفِي الأَرْضِ قِطَـعٌ مُتَجَـاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَـابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَـاءٍ وَاحِـدٍ وَنُفَضِّـلُ بَعْضَـهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(4) ﴾ (الرعد)

ثم يعقبها بهذه : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُـونَ وَالنَّخِيـلَ

---

[1] () ذكرنا هنا بعض الآيات القرآنية التي تتحدث عن العقل.. والتي سـنحاول اسـتنباط المعاني الواردة فيها في هذا البحث.. ولا يخفى وجه الرمزية فيما نذكره هنا.

وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14)﴾ (النحل)

ثم يعقبها بهذه :﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ لأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (66) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنْ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70)﴾ (النحل)

ثم يعقبها بهذه :﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46)﴾ (الحج)

ثم يعقبها بهذه :﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24) ﴾ (الروم)

ثم يعقبها بهذه :﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثلا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ إيمانكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (28) ﴾ (الروم)

ثم يعقبها بهذه :﴿ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5)﴾ (الجاثية)

ثم يعقبها بهذه :﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ

تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (﴿44 (البقرة)

ثم يعقبهـا بهـذه : إِنَّا أَنزَلْنَـاهُ قُرْآنًـا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُـونَ (﴿2 (يوسف)

ثم يعقبها بهذه : لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْـرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُـونَ(﴿10 (الأنبياء)

ثم يعقبهـا بهـذه : وَهُـوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَـهُ اخْتِلَافُ اللَّيْـلِ وَالنَّهَارِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (﴿80 (المؤمنون)

ثم يعقبها بهـذه : هُـوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُـرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَـةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَـةٍ ثُمَّ يُخْـرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُـوا أَشُـدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُـوا شُـيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (﴿67 (غافر)

ثم يعقبها بهذه : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَـلْ نَتَّبِـعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَـدُونَ (170 ﴾ (البقرة)

ثم يعقبها بهـذه : وَمَثَـلُ الَّذِينَ كَفَـرُوا كَمَثَـلِ الَّذِي يَنْعِـقُ بِمَـا لَا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(﴿171 (البقرة)

ثم يعقبها بهذه : إِنَّ شَرَّ الـدَّوَابِّ عِنْـدَ اللَّهِ الصُّـمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ(﴿22 (الأنفال)

ثم يعقبها بهذه : وَلَقَدْ ذَرَأْنَـا لِجَهَنَّمَ كَثِـيرًا مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْـمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ(﴿179 (الأعراف)

ثم يعقبها بهذه : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّـمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (﴿42 (يونس)

ثم يعقبها بهذه : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ لأرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَـرُهُمْ لا يَعْقِلُـونَ (63) (العنكبوت)

ثم يعقبها بهذه: لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلا فِي قُرًى مُحَصَّـنَةٍ أَوْ مِنْ

وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ(14) ﴾ (الحشر)

فانتبهت.. أو بالأحرى انتبه عقلي الذي صار يشعر بأن له وجودا وحياة وحقيقة ووظيفة..

التفت إلى القارئ أبحث عنه.. فـإذا بـه رجـل في منتهى النـور والسلام والصفاء.. سألته: من أنت؟

قال: أنا مسلم.

قلت: لا أريد دينك.. أريد اسمك.

قال: لقد انمحى اسمي في اسم ديـني.. فصـرت لا أعـرف إلا به.

قلت: بم سماك أبواك؟

قال: لقد سميت أسماء كثيرة.. منهـا (ابن الهيثم).. ومنهـا (ابن خلدون).. وأنا الآن أسمى بين قومي (تقي المدرسي)(1)

قلت: لقد سمعتك تقرأ كلاما يمجد العقل.

قـال: ذاك كلام ربي.. الـذي خلـق لنـا العقـول.. وعلمنـا كيـف نستعملها لنصل بها إلى الحقائق.

انتفضت من مكـاني، وقلت: هـل حقـا مـا تقـول؟.. هـل يمكن للعقل أن يصل إلى الحقائق؟

قال: أجل.. لقد دلنا ربنا على المنهج الذي يصل بنا إلى ذلك.

قلت: لقد صـحبت الكثـير.. ولكـني لم أجـد عنـدهم مـا يرضـي عقلي أو ما يوصله إلى الحقائق.

قال: ذلك لأن عندهم بعض العقـل.. لا كـل العقـل.. ويسـتحيل على بعض العقل أن يصل إلى الحقـائق الكاملـة.. إنـه في أحسـن

1() أشير به إلى العلامة الجليل آية الله محمد تقي الدين المدرسي، والـذي اسـتفدنا من كتبه المتخصصة في هذا المجال كثيرا في هذا الفصل.

أحواله يصل إلى حقائق وقتية أو حقائق مشوهة قد ينتفع بها بعض الانتفاع، لا كل الانتفاع.

قلت: هلا قربت لي هذا؟

قال: بأسلوب أهل هذا العصر.. أم بأسلوب غيرهم؟

قلت: ما دمنا في هذا العصـر.. فلا يصـح أن نسـتعمل أسـلوب غيره من العصور.

قال: إن مثل كل من لقيت من المفكرين والباحثين مثـل قـوم ضلت بهم الطرق.. وكان لـديهم سـيارة مجهـزة بكـل الآلات الـتي تستطيع أن تقطع بهم الطريق.. لكنهم انشغلوا عن قيادتها بالبحث عن أجزائها.. فانشـغل كـل طـرف منهم بجـزء من الأجـزاء.. وراح يستغرق فيه ناسيا المقصد الذي صممت السيارة من أجله.

ذهب بعضهم إلى المرائي.. وذهب آخـرون إلى العجلات.. وراح آخـرون يقيسـون.. وراح آخـرون يجربـون.. وراح آخـرون يوجهـون أبصـارهم إلى غـير الجهـة الـتي كـانت السـيارة قابعـة فيهـا.. ثم يصيحون بملء أفههم: يا قـوم ليس هنـاك سـيارة.. فلمـاذا تبحثـون عنها؟..

وكل هؤلاء لم يتعب أحد منهم نفسه ليتساءل عن مقر القيـادة الكامل الذي لا تسير السيارة السير الصحيح إلا به.

نهضت من مكاني قائما، وقلت: ها أنا بين يديك.. فدلني.. فقـد انقطعت بي السبل.

قال: أول الطريق هو أن تعرف أن لـك عقلا.. وأن هـذا العقـل قد زود بالنور الذي يهيئه لإدراك الحقائق..

إن مثل ذلك مثل من يـدخل بيتـا تكتنفـه الظلمـات.. فـإن أول شيء يفعله هو أن يتحسس عن المصباح.. فإذا وجده استضـاء بـه في اكتشاف سائر الأشياء..

ولهذا، فإن الإسلام ـ بمصادره المقدسة ـ يذكر الإنسـان ــ كـل حين ـ بعقله، ليتخذه مصباحا يكشف به حقائق الوجود.

قلت: لقد سمعتك تقرأ علي النصوص الكثيرة التي تذكر فضل العقل وأهميته.

قال: تلك نصوص القرآن الكريم.. إنه الكتاب الذي يدلنا على النور وعلى مصادر النور.. وهو يدلنا على ذواتنا وطاقاتنا كما يدلنا على الكون وكيفية الاتصال به.

قلت: فهل اهتديتم بتلك الآيات إلى العقل؟

قال: لم نهتد لعقل واحد.. بل اهتدينا إلى عقول كثيرة..

قاطعته قائلا: عقول كثيرة!؟.. كيف ذلك؟.. لا أعرف إلا أن للإنسان عقلا واحدا.

قال: نعم هو عقل واحد من حيث الماهية.. ولكن الأدوار والمناهج التي قد يستعملها تختلف اختلافا يجعل من العقل عقولا كثيرة.

قلت: ألا يحدث الصراع بينها؟

قال: يحدث الصراع لو كان منشئها متعددا.. وبما أن منشئها واحد، فإنها تمتلئ بالسلام الذي يمتلئ به كل ركن من أركان الوجود.

قلت: فهلا وضحت لي هذا، فإني أرى عقلي كليلا دون فهمه.

قال: سر معي إلى (أكاديمية العقل المسلم).. ففيها تسمع العقول المغذاة بعقل الإسلام.. وفيها ترى السلام الجميل الذي يغمرها جميعا.

قلت: أكاديمية العقل المسلم!؟.. لم أسمع بها من قبل.

قال: هي أكاديمية أسسها محمد رسول الله ﷺ.. ولكن الإعلام في جميع فترات التاريخ بذل كل جهده ليهيل تراب النسيان عليها، فلا يبصرها أحد.. فلذلك تراهم يمرون على كل الأكاديميات عداها.

قلت: صدقت.. لقد كتب لي أن أتتلمذ على الكثير من العقول، وفي الكثير من الأكاديميات.. لكني لم أسمع أحدا منهم يذكرها.

قال: سر معي إليها.. وسترى فيها ما يرضيك.. أنا متيقن تماما.

قلت: ما الذي جعلك تتيقن؟

قال: لقد مر علي الكثير من أمثالك.. وهم الآن بحمد الله أساتذة في هذه الأكاديمية.

المدارك الحسية:

سرنا إلى أول قسم في (أكاديمية العقل المسلم).. وكان اسمه (المدارك الحسية).. سألت المدرسي عنه، فقال: في هذا القسم يتعلم الطلبة كيف يستفيدون من مداركهم الحسية في تغذية عقولهم بالمعارف.

قوة الحس:

قلت: ألا ترى أن الحس أضعف من أن أصل به إلى الحقائق؟

قال: لا.. بل الحس هو أول المدارك التي نصل بها إلى الحقائق، ولهذا فإن القرآن الكريم يحث على استعماله.. لا لنقف عنده، وإنما لنعبر منه إلى غيره.

اسمع إليه، وهو يقول موجها العتاب الشديد للذين لم يستعملوا مداركهم في العبور بها إلى الحقائق :﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73)﴾ (القصص).. ويقول :﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23)﴾ (الذاريات).. ويقول :﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (27) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (28) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (29) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (30)﴾ (السجدة).. ويقول :

﴿ أَفَلَا يَنْظُـرُونَ إِلَى الْإِبِـلِ كَيْـفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْـفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَـالِ كَيْـفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْـفَ سُطِحَتْ (20)ـ ﴾ (الغاشية).. ويقول :﴿ وَلَـوْ نَزَّلْنَـا عَلَيْـكَ كِتَابًـا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـذَا إِلَّا سِـحْرٌ مُبِينٌ (7) ﴾ (الأنعام)

ويـبين عاقبـة من لم يسـتعمل وسـائل إدراكـه في العبـور إلى الحقـائق، فيقـول :﴿ وَلَقَـدْ ذَرَأْنَـا لِجَهَنَّمَ كَثِـيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْـمَعُونَ بِهَـا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَـامِ بَـلْ هُمْ أَضَـلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَـافِلُونَ (179)﴾ (الأعراف).. ويقول :﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (20) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِـرُوا أَنْفُسَـهُمْ وَضَـلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (21) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (22)﴾ (هود)

قلت: فالعقل المسلم إذن يؤمن بالحس ويستسلم له.

قال: فرق كبير بين إيمانـه بمـا يقولـه الحس، وبين استسـلامه له.

قلت: ما الفرق بينهما؟

قال: الإيمان بمدارك الحس فطـرة بشـرية.. فكـل النـاس في معظم أحـوالهم يؤمنـون بشـهادة الحس، يؤمنـون بـأن مـا رأوه بأعينهم أو سمعوه بآذانهم، أو أحسوه بجلودهم أو شـموه بـأنوفهم أو ذاقوه بألسنتهم هو كما شهدت به هذه الحواس.

ولكن الاستسـلام شـيء آخـر.. لأن الحس قـد يعـرض لـه من الأوهام ما ينصرف به عن الحقيقة.. ولذلك فـإن العاقـل هـو الـذي يجعل إحساسه تبعا لعقله.. لا عقله تبعا لإحساسه.

قلت: لم أفهم.. ماذا تقصد؟

قال: إن العاقل هو الذي يعـترف بـأن حواسـنا لا تعطينـا علمـاً محيطاً بما نشاهد، إنما تعطينا جانباً منه.. وهـذا الـذي تعطينـاه وإن

كان جزئياً إلا أنه حق وهو كافٍ لنا في معاملاتنا الدينية والدنيوية.

مثال دلـك أننـا نعـرف الآن بسـبب الآلات الـتي تزيـد من قـوة حواسنا أن ما يبدو لنا صـلباً من الأجسـام ليس هـو بالصـلابة الـتي نراها، وإنما هو مكون من ذرات بينها فراغات كبيرة..ومثل ذلك مـا نراه سائلاً.. ونحن حين نرى الشمس قد غـربت أو أشـرقت تكـون قد فعلت ذلك قبل ثماني دقائق من رؤيتنا لها تشرق أو تغرب.. بل يذكرون أن كثيراً مما نراه من نجوم السماء يكون قد انفجر وتبــدد منـد آلاف السـنين، ولكن بمـا أننـا لا نـرى الشـيء إلا حين ينعكس الضـوء منـه على أعيننـا، وبمـا أن هـذه الأجـرام تبعـد عنـا ملايين الملايين من الأميال؛ فإن ضوءها لا يصلنا إلا بعـد آلاف من السـنين تكون هي في أثنائها قد ماتت؛ فمـا نـراه منهـا إنمـا هـو تاريخهـا لا حاضرها.

لكننا في معلاملاتنا اليومية وفي ديننا إنمـا نتعامـل مـع الأشـياء بحسب ما تبدو لنا؛ فأوقـات الصـلاة والصـيام والحج لا تعتمـد على الحقائق الفلكية التي يتحدث عنها علماء الفلك وإنما تعتمد على ما يظهر لنا منها(1).

لقد أشار القرآن الكريم إلى هذا، وبين مغزاه وفائدته، فقــال : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (43) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَـانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (44) ﴾ (الأنفال).. وقال :﴿ قَـدْ كَـانَ لَكُمْ آيَـةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَـا فِئَةٌ تُقَاتِـلُ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَأُخْـرَى كَـافِرَةٌ يَـرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْـرِهِ مَنْ يَشَـاءُ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (13)﴾ (آل عمران)

(1) ذكر المدرسي أن بعض الشباب في أحد المؤتمرات ببريطانيـا ذكـر أن رجلاً زعم أن في الإسـلام مـا يخـالف الحقـائق العلميـة وضـرب لـذلك مثلاً بافتراضـنا أن الشـمس تتحرك والأرض ثابتة؛ لأننا نقول مثلاً: إن وقت الظهر يحين عندما تصير الشمس في كبـد السـماء، قـال: فقلت لـه: ألسـتَ تجـد في جرائـدكم اليوميـة مـواقيت طلـوع الشـمس وغروبها؟ فلو أن الناس التزموا بالحقائق الفلكية وحدها لما جاز لهم الحديث عن شـروق وغروب؟ لأنه إذا كانت الشمس ثابتة بالنسبة للأرض؟ فكيف يقال إنها شرقت أو غـربت؟ فالعلماء أنفسهم يسمون هذا بالحركة الظاهرية للشمس، وهي الحركة التي نعتمدها في حياتنا اليومية.

قلت: فهمت هذا.. ولكن كيف يكون الحس تابعا للعقل؟

قـال: الاسـلام بنصوصـه المقدسـة أولى جـانب الحس أهميـة كبرى، حيث دعا إلى النظـر والسـير والتحـرك والتثبت، ولكنـه مـع ذلك أولى اهتمامـا أكـبر لـدور العقـل الـذي يوجـه الحس ويمحص نتائجه، والذي لولاه يصاب الفكر بالشلل الكامل.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لنفترض أننا أبعدنا العقل عن مجال الحس، وأصبحنا مثـل أولئك الحسيين الذين لم يعـترفوا بـدور العقـل في توجيـه الحس، فسوف نرى كيف نتخبط في الضلالات حتى لا نسـتطيع كشـف أي حقيقة مهما ضؤلت بواسطة الحس. بـل إن نكـران العقـل يـدعونا إلى التشكيك في وجـود أيـة حقيقـة وراء الحس، وينتهي بالإنسـان إلى المثالية أو التشكيك التام.. أفليس من الممكن أن تكون رؤيتنا للأمور أشبه شيء برؤية الحالم في منامـه، أوليس من الممكن أن يكــون الإحســاس نابعــا من ذات الأعصــاب وليس من الحقــائق الخارجية؟ فـإن لم يكن هنـاك نـور لـدى النفس يحكم بـأن مصـدر الإحساس حقيقة خارجية بصور جازمة، لو لم يكن هـذا فـأي حجـة تقدر على إثبات الحقائق وراء الإحساس؟

قلت: لقد رأيت بعض الفلاسفة والعامة يتعلل في عـدم إيمانـه بوجود الله بمدارك الحس.. فهو يرى أنه لا ينبغي أن يـؤمن إلا بمـا يرى(1).

ابتسم، وقال: لقد أشار القرآن الكريم إلى هؤلاء الأغبياء الــذي جعلوا عقولهم سـجينة حواسـهم، فقـال : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـا مُوسَـى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُـرُونَ (55)﴾ (البقرة)

قلت: لكن هؤلاء يدعون أن هذا أمر يقتضيه المنهج العلمي.

قال: لقد كذبوا في ذلـك.. فـإنهم لـو كـانوا صـادقين في عـدم تصديقهم بما لا تراه أعينهم للزمهم أن لا يؤمنـوا بحـوادث التـاريخ،

1() انظر الرد المفصل على هـذه الشـبهة في رسـالة (البـاحثون عن اللـه) من هـذه السلسلة.

وللزمهم أن لا يصدقوا بوجود شـيء في الأمـاكن الـتي تبعـد عنهم بُعداً لا ترى مـا فيهـا أعينهم.. بـل للـزمهم أن يـذهبوا مـذهب بعض الفلاسفة الذين كانوا يقولون إنهم إنما يؤمنون بما يـرون مـا دامـوا يرونه، ويقولون: من يـدرينا أنـه مـا زال موجـوداً حين نغمض عنـه أعيننا أو نلفت عنه أنظارنا؟

ضعف الحس:

رأيت في القاعة امرأة تخاطب امـرأة بفخـر واعـتزاز قائلـة: لا شك أنك لا تعرفيني.. أنا زرقاء اليمامة.. أنا المرأة التي ضربت بهـا العرب الأمثال في قوة بصرها، فقالت: (أبصر من زرقاء اليمامة).. أنا التي قال في النابغة:

واحْكم كحكم فَتَـاة الحيِّ إذا نَظَـــــــــــرتْ	إلى حَمَـــامٍ سِـــرَاعٍ وَارِدِ الثَّمَد
يَحُفُّهُ جَانِبـــاَ نِيـــقٍ وَتُتْبِعُــــهُ	مِثْـلَ الزجاجـة لم تُكْحَـلْ مِنَ الرَّمَـــــــــــدِ
قالَتْ أَلاَ لَيْتَمَا هَذَا الْحَمَــامُ لَنَا	إلى حَمَامَتِنَــا أَوْ نِصْــفَهُ فَقَــدِ
فَحَسبُوهُ فألفَوْهُ كَمَــا ذكَـرَتْ	تسـعا وتسـعين لَمْ ينقص ولم يَـــــــــــزِدِ

قالت لها صاحبتها، وهي تحاورها: كفي عن غـرورك يـا أخـتي.. فالعين مهما قدرت على الرؤية، فهي مخلوق عاجز خلـق اللـه لـه مجالا محدودا لا يمكنها أن تجاوزه.

قالت: أنت تقولين ذلك لما تـرين من ضـعف بصـرك.. ولـو أن بصرك كان أقوى ما قلت هذا.

ابتسمت صاحبتها، وقالت: لاشك أنك لم تخفظي الدروس التي لقنها لنا أساتذتنا في هذه الكلية.

قالت زرقاء: أي درس منها؟

قالت صاحبتها: درس (ضعف المدارك الحسية)

قالت زرقاء: لقد درست عظمة هذه المدارك التي من الله بها علينـا.. فلم أحتج لإدراك ضـعفها.. فلا يمكنـني أن أحمـد اللـه على الضعف.

قـالت صـاحبتها: ولا يمكنـك أن تسـتفيدي من شـيء، وأنت لا تعرفين ضعفه.

قالت زرقاء: كيف ذلك؟

قالت صاحبتها: لأنك قد تقعين في فخاخ الجهل التي ينصبها لك ضعفه.

قالت زرقاء: فلنفرض أني سلمت لك بما ذكرت.. فـاذكري لي من ضعف بصري ما يكفني عن الاغترار به.

قالت: سـأذكر لـك سـبعا من أنـواع النقصـان الـتي لقننـا إياهـا علماؤنا وأساتذتنا ليحفظوا بهـا عقولنـا من أن تقـع ضـحية لأخطـاء مداركنا الحسية.

قالت زرقاء: فما هي؟

قالت(1): لقد قال الغزالي، وهـو يلقننـا ضـعف حاسـة البصـر مقارنة بالعقل: (اعلموا أن نور بصر العين موسوم بأنواع النقصان: فإنه يبصر غيره ولا يبصر نفسه، ولا يبصر ما بعد منه، ولا يبصـر مـا هو وراء حجاب.. ويبصر من الأشـياء ظاهرهـا دون باطنهـا؛ ويبصـر من الموجودات بعضها دون كلها.. ويبصر أشياء متناهية ولا يبصر ما لا نهاية له. ويغلط كثيرا في إبصـاره: فـيرى الكبـير صـغيرا والبعيـد قريبا والساكن متحركا والمتحرك ساكنا)

ثم قال متسائلا: (فهذه سبع نقـائص لا تفـارق العين الظـاهرة.. فـإن كـان في الأعين عين منزهـة عن هـذه النقـائص كلهـا فليت شعري هل هو أولى باسم النور أم لا؟)

ثم أجاب: (اعلموا أن في قلب الإنسان عينا هـذه صـفة كمالهـا

1() ما نذكره هنا مستفاد بتصرف من رسالة (مشكاة الأنوار) لأبي حامد الغزالي.

وهي الـتي يعـبر عنهـا تـارة بالعقـل وتـارة بـالروح وتـارة بـالنفس الإنساني.. ودع عنك العبارات فإنها إذا كـثرت أوهمت عنـد ضـعيف البصيرة كثرة المعاني، فنعني به المعنى الذي يتميز به العاقـل عن الطفل الرضيع وعن البهيمة وعن المجنون. ولنسمه (عقلا) متابعـة للجمهور في الاصطلاح فنقول: العقـل أولى بـأن يسـمى نـورا من العين الظاهرة لرفعة قدره عن النقائص السبع)

قالت زرقاء: فاذكري لي القصور الأول.

قالت: القصور الأول هو أن العين لا تبصر نفسها، والعقل يدرك غيره ويدرك صفات نفسه.. إذ يدرك نفسه عالما وقـادرا.. ويـدرك علم نفسه.. ويدرك علمه بعلم نفسه وعلمه بعلمه بعلم نفسه إلى غير نهاية.. وهذه خاصية لا تتصور لما يدرك بآلة الأجسام.

قالت زرقاء: فاذكري لي القصور الثاني.

قالت: القصور الثاني هو أن العين لا تبصر مـا بعـد منهـا ولا مـا قرب منها قربا مفرطا، بينما العقل يستوي عنده القـريب والبعيـد: يعرج في تطريفه إلى أعلى السموات رقيا، وينزل في لحظــة إلى تخوم الأرضين هربا.. بل إذا حقت الحقائق يكشف أنه منزه عن أن تحـوم بجنبـات قدسـه معـاني القـرب والبعـد الـذي يفـرض بين الأجسام، فإنه أنموذج من نور اللـه تعـالى، ولا يخلـو الأنمـوذج عن محاكاة، وإن كان لا يرقي إلى ذروة المساواة.

قالت زرقاء: فاذكري لي القصور الثالث.

قالت: القصور الثـالث هـو أن العين لا تـدرك مـا وراء الحجب، والعقل يتصرف في العرش والكرسي ومـا وراء حجب السـموات، وفي الملأ الأعلى والملكوت الأسمى كتصـرفه في عالمـه الخـاص ومملكته القريبة أعني بدنه الخـاص.. بـل الحقـائق كلهـا لا تحتجب عن العقـل، وأمـا حجـاب العقـل حيث يحجب فمن نفسـه لنفسـه بسبب صفات هي مقارنة له تضاهي حجـاب العين من نفسـه عنـد تغميض الأجفان.

قالت زرقاء: فاذكري لي القصور الرابع.

قالت: القصور الرابع هـو أن العين تـدرك من الأشـياء ظاهرهـا وسطحها الأعلى دون باطنهـا؛ بـل قوالبهـا وصـورها دون حقائقهـا، بينم يتغلغل العقل إلى بواطن الأشـياء وأسـرارها ويـدرك حقائقهـا وأرواحها، ويستنبط سببها وعلتها وغايتها وحكمتها، وأنهـا من خلـق، وكيـف خلــق، ولم خلــق، ومن كم معــنى جمــع وركب، وعلى أي مرتبة في الوجود نزل، وما نسبته إلى خالقها وما نسبتها إلى سائر مخلوقاته.

قالت زرقاء: فاذكري لي القصور الخامس.

قالت: القصور الخامس هـو أن العين تبصـر بعض الموجـودات فقط دون جميع المعقولات، بل دون كثير من المحسوسـات، فهي لا تدرك الأصوات والـروائح والطعـوم والحـرارة والـبرودة والقـوى المدركة من السمع والبصر والشم والـذوق، بـل الصـفات الباطنـة النفسانية كالفرح والسرور والغم والحـزن والألم واللـذة والعشـق والشهوة والقـدرة والإرادة والعلم إلى غـير ذلـك من موجـودات لا تحصـى ولا تعـد؛ فهـو ضـيق المجـال مختصـر المجـرى لا تسـعه مجاوزة الألوان والأشكال وهما أخس الموجـودات: فـإن الأجسـام في أصلها أخس أقسام الموجودات، والألوان والأشـكال من أخس أعراضها.

بينما الموجودات كلها مجال العقل؛ إذ يـدرك هـذه الموجـودات الـتي عـددناها ومـا لم نعـدها، وهـو الأكـثر: فيتصـرف في جميعهـا ويحكم عليها حكما يقينا صادقا.. فالأسـرار الباطنـة عنـده ظـاهرة، والمعـاني الخفيـة عنـده جليـة. فمن أين للعين الظـاهرة مسـاماته ومجاراته في استحقاق اسم النور كلا إنها نور بالإضـافة إلى غيرهـا لكنها ظلمة بالإضافة إليه.. بل هي جاسـوس من جواسيسـه وكلـه بأخس خزائنـه وهي خزانـة الألـوان والأشـكال لـترفع إلى حضـرته أخبارها فيقضي فيها بما يقتضيه رأيه الثاقب وحكمه النافذ.

قالت زرقاء: فاذكري لي القصور السادس.

قالت: القصور السـادس هـو أن العين لاتبصـر مـا لا نهايـة لـه، فإنها تبصر صفات الأجسام، والأجسام لاتتصور إلا متناهية، والعقــل يدرك المعلومات، والمعلومات لا يتصور أن تكـون متناهيـه.. فهـو ـ

مثلا ـ يدرك الأعداد ولا نهاية لها؛ بل يدرك تضعيفات الإثنين والثلاثة وسائر الأعداد ولا يتصور لها نهاية، ويدرك أنواعا من النسب بين الأعداد لا يتصور التناهي عليها: بل يدرك علمه بالشىء وعلمه بعلمه بالشيء، وعلمه بعلمه بعلمه.. فقوته في هذا الواحد لا تقف عند نهاية.

قالت زرقاء: فاذكري لي القصور السابع.

قالت: القصور السابع هو أن العين تبصر الكبير صغيرا، فترى الشمس في مقدار مجن، والكواكب في صور دنانير منثورة على بساط أزرق، بينما يدرك العقل الكواكب وأن الشمس أكبر من الأرض أضعافا مضاعفة كثيرة؛ والعين ترى الكواكب ساكنة، بل ترى الظل بين يديه ساكنا، وترى الصبي ساكنا في مقداره، والعقل يدرك أن الصبي متحرك في النشوء والتزايد على الدوام، والظل متحرك دائما، والكواكب تتحرك في كل لحظ أميالا كثيرة، وأنواع غلط البصر كثيرة، والعقل منزه عنها.

القوانين المنطقية:

بعد أن تعرفت في القسم الأول في (أكاديمية العقل المسلم) على المدارك الحسية، والضوابط التي تحكمها، سرت مع المدرسي إلى قاعة أخرى كتب على بابها (قاعة القوانين المنطقية) فسألته: أهذه هي القاعة التي يدرس فيها منطق أرسطو؟

قال: ليس هناك في الدنيا شيء اسمه (منطق أرسطو)

قلت: كيف تقول ذلك؟.. لقد رأيت أرسطو وتتملذت على يديه.. بل حفظت على يديه (الأورجانون)

قال: فهل ابتدع منطقه ابتداعا.. أم أنه اكتشفه اكتشافا.. أم أنه وصفه وصفا؟

قلت: ربما أليق الألفاظ أن تعتبره واصفا أو ضابطا.

قال: فهل يمكن أن ننسب العربية للخليل أو لسيبويه.. فنقول

(عربية الخليل) أو (عربية سيبويه)؟

قلت: العربية أوسع من أن تنحصر في هذين الرجلين.

قال: فكذلك المنطق.. لقد جبل الله عليه العقول.. فلا يصح أن يوصف به فرد دون فرد.. ولا أمة دون أمة.

قلت: فما الحاجة إلى تدريسه إذن؟

قال: لأن العقـول قـد تنحـرف بهـا الأهـواء عن الحقـائق.. كمـا ينحـرف اللحن بالألسـن عن الإعـراب.. فتحتـاج إلى مـا يقومهـا.. سأضرب لك مثالا على ذلك من القرآن الكريم..

لقد كان من مجادلات اليهود لرسول الله ﷺ قولهم : مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ (الأنعـام: من الآية91).. وقـد أمـر اللـه رسوله ﷺ أن يرد عليهم، فقال : قل مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْـدُونَهَا وَتُخْفُـونَ كَثِـيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُـوا أَنْتُمْ وَلا آبَـاؤُكُمْ قُـلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِـهِمْ يَلْعَبُونَ (الأنعام: من الآية91)

انظر(1).. كيـف اسـتعمل القـرآن الكـريم المنطـق هنـا للـرد عليهم.. فالذي يلزم من قولهم ذلـك هـو أن اللـه لم يـنزل التـوراة على موسى.. لكن اليهـود يؤمنـون بـأن التـوراة كلام اللـه؛ ولـذلك سألهم القرآن الكريم سؤالاً استنكارياً، فقـال : مَنْ أَنْـزَلَ الْكِتَـابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى (الأنعام: من الآية91)

ولهذا نزه الله تعالى القرآن الكريم من التناقض، فقــال : أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِـيراً (النساء:82).. فهذه الآية لا تقول فقط إن القرآن الكريم لا تناقض فيه، بـل تجعـل عـدم هـذا التنـاقض دليلاً على كونـه من عنـد اللـه تعالى؛ لأنه لا يمكن لمخلوق أن يكتب كتاباً في حجم القرآن الكريم وتعدد موضوعاته وخطورتها والمدة الطويلة الـتي نـزل فيهـا، ثم لا يكون فيما قال تناقض.

---

1 ()انظر في هذا مقالا بعنوان (معايير العقلاء)، أ.د. جعفر شيخ إدريس رئيس الجامعة الأمريكية المفتوحة.

***

دخلنا القاعة، فـرأيت طلابـا مجتمعين حـول أسـتاذين، فتعجبت من ذلك، وقلت: عهدي بالحلقات أن لا يكون لها إلا شيخ واحد.

قال: أحيانا تحتاج إلى شيخين أو أكثر.. ليكمل أحدهما ما يقصر فيه الآخر.. ألا ترى غرف العمليات كيف يجتمع فيها جمـوع الأطبـاء من كل التخصصات؟

قلت: بلى.. لكن ذلك في الأجساد.

قال: والعقول أولى من الأجساد.. فلا تصـح الأجسـاد إلا بصـحة العقول.. ألم تسمع الحكمة التي تقول (الجسم السليم لا يكـون إلا لصاحب العقل السليم)؟

قلت: هم يقولون (العقل السليم في الجسم السليم)

قال: لقد قالوا ذلك احتقارا للعقل.. فقدموا عليه الجسـد.. ولـو أنهم فطنوا لقدموا العقول.. فلا يحفظ الأجساد مثل العقول.

قلت: فمن هما هذان الشيخان؟

قال: أمـا أولهمـا، فرجـل من علمـاء المسـلمين يقـال لـه (ابن حزم).. وأما الثاني، فيقال له (أبو حامد الغزالي)

***

تقـــدمت من الحلقـــة، فســـمعت شـــيخها الأول (ابن حـــزم) يقول(1): الحمد للـه رب العـالمين، بـديع السـماوات والأرض ومـا بينهما، ذي العرش المجيد، الفعال لما يريد، وصلى الله على محمد عبده وخـاتم أنبيائـه ورسـله إلى عبـاده من الأنفس الحيـة القابلـة

1() هـذه مقدمـة (التقـريب لحـد المنطـق والمـدخل إليـه بالألفـاظ العاميـة والأمثلـة الفقهية) لابن حزم، تحقيق: إحسان عباس (بتصرف).. وقـد ذكرناهـا لمـا فيهـا من الأدلـة على شرعية تعلم هذا العلم ووجه الحاجة إليه.

للموت، من الإنس والجن، بالدين الذي اجتبرهم به، ليسكن الجنـة التي هي دار النعيم السـرمدي من أطاعـه ويـدخل النـار الـتي هي محل العـذاب الأبـدي من عصـاه؛ ومـا توفيقنـا إلا باللـه تعـالى، ولا حول ولا قوة إلا بالله، عز وجل.. أما بعد:

فإن الأول الواحد الحق الخالق لجميع الموجودات دونـه، يقـول في وحيه الذي آتاه نبيه وخليلـه المقـدس : اللَّهُ خَـالِقُ كُـلِّ شَـيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الزمر:62)

وقال مثنيا على عبـاده من أولي الألبـاب : الَّذِينَ يَـذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُـوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَـاطِلاً سُـبْحَانَكَ فَقِنَـا عَـذَابَ النَّارِ) (آل عمـران: 191)

وقال ممتنا على عبـاده : الـرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُـرْآَنَ (2) خَلَـقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (﴾4 (الرحمن)

وقال آمرا عباده: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَـقٍ (2) اقْـرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْـرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِـالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (﴾5 (العلق)

تدبروا هذه الآيات، فإنها جامعة لوجوه البيان الذي امتن به الله تعالى على الناطقين من خلقـه وفضـلهم بـه على سـائر الحيـوان، فضلا منه تعالى يؤتيه من يشاء.. والله ذو الفضل العظيم.

وقد وجدنا أن الله عز وجل عدد في عظيم نعمه على من ابتدأ اختراعه من النوع الإنسـى تعلمـه أسـماء الأشـياء؛ فقـال تعـالى : وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا)(البقرة: من الآية31).. وهو الذي بانت به الملائكة والإنس والجن من سائر النفـوس الحيـة، وهـو البيـان عن جميع الموجودات، على اختلاف وجوههـا، وبيـان معانيهـا، الـتي من أجل اختلافها وجب أن تختلف أسماؤها، ومعرفة وقـوع المسـميات تحت الأسماء فمن جهـل مقـدار هـذه النعمـة عنـد نفسـه، وسـائر نوعـه، ولم يعـرف موقعهـا لديـه، لم يكن يفضـل البهـائم إلا في الصورة؛ فلله الحمد على ما علم وآتى، لا إله إلا هو.

ومن لم يعلم صـفات الأشـياء المسـميات، الموجبـة لافـتراق

أسمائها، ويحد كل ذلك بحدودها، فقد جهل مقدار هذه النعمة النفيسة، ومر عليها غافلا عن معرفتها، معرضا عنها، ولم يخب خيبة يسيرة بل جليلة جدا.

قال بعض التلاميذ: كيف تقول هذا، ولم نر أحدا من السلف الصالح تكلم فيه؟

قال ابن حزم: إن هذا العلم مستقر في نفس كل ذي لب.. فالذهن الذكي واصل بما مكنه الله تعالى فيه من الفهم، إلى فوائد هذا العلم.. والجاهل كالأعمى يحتاج إلى أن ينبه عليه.. وهكذا سائر العلوم.. فما تكلم أحد من السلف الصالح، رضى الله عنهم، في مسائل النحو، لكن لما فشا جهل الناس، باختلاف الحركات التي باختلافها اختلفت المعاني في اللغة العربية، وضع العلماء كتب النحو، فرفعوا إشكالا عظيمة، وكان ذلك معينا على الفهم لكلام الله عز وجل، وكلام نبيه ﷺ، وكان من جهل ذلك ناقص الفهم عن ربه تعالى، فكان هذا من فعل العلماء حسنا وموجبا لهم أجرا.. وكذلك القول في تواليف كتب العلماء في اللغة والفقه؛ فإن السلف الصالح غنوا عن ذلك كله بما آتاهم الله به من الفضل ومشاهدة النبوة، وكان من بعدهم فقراء إلى ذلك كله، يرى ذلك حسا ويعلم نقص من لم يطالع هذه العلوم ولم يقرأ هذه الكتب وأنه قريب النسبة من البهائم، وكذلك هذا العلم فان من جهله خفي عليه بناء كلام الله عز وجل مع كلام نبيه ﷺ، وجاز عليه من الشغب جوازا لا يفرق بينه وبين الحق، ولم يعلم دينه إلا تقليدا، والتقليد مذموم، وبالحرى إن سلم من الحيرة، نعوذ بالله منها.

قال آخر: لقد ذكرت بأن هذا العلم موجود في ذهن كل إنسان، فهل هو كسب اكتسبه، أم أنه معرفة ولد بها وفطر عليها.

قال ابن حزم: بل هو من العلم الذي اكتسبه.. لقد قال الله تعالى يشير إلى هذا :﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: 78)

قال التلميذ: فكيف تسنى للعقل أن يصل إليها؟

قال ابن حزم (1) : العقل هو الوسيلة التي تدرك بها الحقائق.. أو هو النور الذي إذا سلط على الحقائق ظهرت له وتجلت.. ولذلك فإن تلك الحقـائق يكشـفها نـور العقـل للنفس كمـا يكشـف ضـوء الشمس ألوان الحقول..

وقد كان خطأ الإنسان الأكبر غفلتـه عن مصـدر النـور وتوجهـه إلى الأحكام زاعما أنها هي حقيقـة النـور، فـراح يبحث عن مصـدر يقيِّم به تلك الأحكام.. ولو كان الإنسان قد تذكر بأن الذي يسـاعده على البحث ليس الا هذا النـور، وانـه لـو افتقـده أصـبح كـالمجنون والنائم حيث لا يفهمان أمرا ولا يعلمان شيئا، وأنه أشبه شيء بنــور الإرادة ونور الحرية الـذين تملكهمـا النفس البشـرية، وتملـك بهمـا القدرة على الاختيار وهي بذاتها قدرة ذاتية لا تعلل..

لـــو فعـــل الإنســـان ذلـــك إذا لتخلص عن سلســـلة لا تنتهي من المشاكل العلمية التي أحاطت بنظرية المعرفة.

ذلـك لأنـه حينـذاك يجـد أن البحث عنـه ضـرب من الإسـراف والـترف الفكـري.. إذ مـا من بحث الا وهـو يؤكـد على وجـود قـوة للإنســان تســاعده على البحث، وهي بالتــالي تنــير طريقــه إلى الحقيقة، وتلك القوة هي العقل، وهو نور مقـدس عن الإحاطـة بـه من لدن الذات..

التفت إلي، وقال: ومن هنا كانت عملية (كانط) النقدية ـ والتي استهدفت نقد العقل ـ عملية موغلـة في الجهـل إذ أن الغفلـة عن نور العقل، ذلك النور الذي لم يستطع (كانط) ذاتـه القيـام بعمليـة النقد بدون وجوده لديه.. إن الغفلـة عنـه فقـط كـانت السـبب في التوجه إلى السابقيات الذهنية، كتصور الزمان والمكـان والعلـة و.. و.. لينقدها وينتهي بالتالي إلى نظرية النسبية ومنطقه الوضعي.

ولو أن (كانط) كان يتذكر بوجود نور يجعله يقيم الأشياء ويعتمد على تقييمه هذا، وأن ذلك النور هـو الـذي يكشـف لـه عن الزمـان والمكـان والعلـة والسـبب، إذا لنقـد الأشـياء بـه، ولم يـزعم انـه استطاع نقده هو، غافلا عن أن العقل لا يمكن الإحاطة بـه، فكيـف يتاح له نقده، وبأي شيء ينقـد الإنسـان عقلـه؟ أبعقلـه أم بجهلـه؟

---

(1) ما نذكره هنا من التعليلات للمدرسي، وليس لابن حزم كما هو ظاهر.

والعقل لا يشكك في ذاته والجهل لا يمكنه نقد العقل..

ومن هنا ـ أيضا ـ أصاب (ديكارت) دوار عنيف في مسيرته عـبر العقول إذ أنه شكك نفسه في معلوماته النظريـة.. وحين زعم أنـه تخلص منها قام ليبني صرح العلم على قواعد جديدة، فلم ير تحت رجليه حجرا ثابتا، وجر إليه انتقادات كبـيرة من لـدن معارضـيه من الحسيين.. ورغم ان (ديكارت) عقلي التفكير فإنه أيضا مخطئ في منهجه، وينشأ خطئه من أمرين:

أولهمـا: تشـكيكه في أن تكـون سـابقياته الفطريـة ناشـئة من النفس أو من قوة شيطانية داخلها.. ولم يعلم أن تشكيكه إنما هــو في التصورات الغامضة التي لم تتنور بعلم الإنسان.. أمـا الحقـائق الواضحة التي أحاط بها علم البشر فلم يمكن التشكيك فيها أبــدا.. ولهذا عاد (ديكارت) نفسه فاعترف بـالنفس، وعلـل اعترافـه بأنـه يجدها ظاهرة مميزة أمامه بحيث لا يمكنه إلا الاعتراف بها.

وثانيهما: غفلتـه عن حقيقـة النـور الـذي كـان معـه في لحظـة تشكيكه في العقل، وإلا فكيف استطاع أن يبلـغ بالتشـكيك مرحلـة متقدمة منه بترتيب النتائج على الأسباب.. كيف استطاع أن يقـول: يمكن أن يكــون هنـاك شـيطان مضــلل للفكــر؟.. مـع أن علمــه باستلزام سبب للأفكـار الخاطئـة إنمـا هـو ناشـيء من حكم عقلي مسبق وهو: (لا بدية السبب لكل شيء) وأن علمه بـأن الشـيطان يقـوم بالإضـلال، يقـوم على أسـاس وجـود ضـلالة وهدايـة، وقبح الضلالة وحسن الهداية، وكل هذه الأحكام عقلية.

إن مثــل (ديكــارت) في ذلــك مثــل الــذي يشــكك في وجــود الشمس، ثم يرينا الحقول والواحات المضاءة بالشمس، ويقول لـو كانت الشمس موجودة لما كانت لها ظلال وارفة.. إن مجرد رؤيــة الحقــول والواحــات دليـل على وجـود الشــمس، وإن ذات الظلال الوارفة لهي دليـل على وجودهـا.. فكيـف يسـتدل بهمـا على عـدم وجود الشمس؟ وهكذا القدرة على التشـكيك نـوع من إثبـات نـور العقل.

والواقع: إن (ديكارت) لم يحاول التشكيك في عقله، إنما شكك في ركام الجهل الذي تجمع فـوق النفس البشـرية وزعم الإنســان

أنها علم وعقل.. لذلك فإن تصوره للعقل يختلف عن العقـل الـذي أرشد إليه الدين، فإنه زعم أن العقـل إنمـا هـو كـل مـا في النفس البشرية من تصورات، أما الإسلام فـيرى ان التصـورات ليسـت الا معقولات يكتشفها نور العقل وينقدها.

وهكذا ترون كيـف اضـطربت وتناقضـت مقـاييس البشـر حين زعمت أن المسبقات ذاتها العقل، بينما العقل هو: مـا ينـور للنفس تلك المسبقات العلمية.

قال تلميذ آخر: وعينا هذا.. فحدثنا عن خصائص هـذه الأحكـام الـتي نجـدها في عقولنـا.. فقـد رأينـا من الأسـاتذة من يبث من الشبهات حولها ما يرفع الثقة عنها.

قال: للأحكام العقلية السليمة أربعة خصائص كـبرى ترفـع كـل شبهة.

قالوا: فما **أولها**؟

قال: **الجزم**.. فجميع الحقائق المنطقيـة ثابتـة جازمـة لا تقبـل الـريب.. إذ أن ذاتهـا الكشـف، والكشـف يعـني ملامسـة الواقـع وشهوده.. فكيف يجد الانسان الواقع ثم يشكك فيه؟ ومن هنا فـإن الحكم بقبح الظلم، وحسن التضحية، وجمال الآداب ليست أحكامـا تقبـل الـريب، والـذي يرتـاب فيهـا يحـاول الفـرار عنهـا بتغيـير موضـوعاتها بحيث تصـبح الأحكـام ليسـت هي الـتي تغـيرت، بـل موضوعاتها فقط تبدلت، فمثلا: الذي يقول: ان الظلم حسـن يغـير معنى الظلم حتى يجعله يساوي معنى العدل ثم يقول بأنـه حسـن (1).

قالوا: فما **الثانية**؟

قال: **الشمول**.. فالأحكام العقل شاملة لا تخصص، فإذا كانت الرذيلة قبيحة، فليس هناك فرق بين أن تكون صـادرة من كبـير أو صغير، وفي أي عصـر وأي زمـان.. وإذا كـانت الحادثـة بحاجـة إلى علة محدثة وسبب موجد، فلا فرق بين أن تكون الحادثة رمي كـرة القدم أم وجود كرة الأرض.. واذا كـانت الصـدفة محالـة في وجـود

(1) انظر رسالة (أسرار الأقدار) من (رسائل السلام) عند الكلام عن الحسن والقبح.

ساعة يد، فإنها محالة أيضا في صنع مخ الإنسان.. وإذا كانت معادلة 5×5=25 صحيحة، فلا فرق ان تكون في أي وقت وأي مكان.

قالوا: فما **الثالثة**؟

قال: **العموم**.. فأحكام العقل تتفق عليها عقول البشر، فالعقل هو العقل في أي إنسان كان.. وما هو فضيلة أو رذيلة هنا فهي في كل مكان ولدى كل إنسان فضيلة أو رذيلة.. اذهبوا إلى من شئتم فسوف لا تجدون الفضيلة في الخيانة والنفاق وبيع الأوطان وإيثار النفس على الآخرين.. وسوف لا تجدون معاني التضحية والفداء والشجاعة والإباء من معاني الرذيلة.. ومن هنا فإن الأمم تتبارى بهذه القيم، وتجعل منها مقياسا يحتجون به وينتهون إليه، وترتكز أجهزة إعلامهم على الادعاء بأنهم يمثلون الفضيلة والعدل، وأن أعداءهم يمثلون الزيف والباطل.. وهكذا أصبح العقل حجة بين الأفراد ومقياسا لكل أحكامهم، فلا يمكن أن نتصور رجلا عاقلا في الأرض يحكم عقله بإمكان الصدفة أو صحة التناقض والتشكيك في وجود الذات وغيرها.

قالوا: فما **الرابعة**؟

قال: **الثبات**.. فأحكام العقل لا تتطور حسب تطور الأوضاع الاقتصادية أو الاجتماعية أو الفسيولوجية.. لأنها تكشف عن الحقائق الخارجية تماما كما لا تتغير المرآة وهي تعكس صور الحياة الناشطة الحركات..

وهنا تختلف الرؤية الإسلامية في المعرفة عن النظريات الذاتية والديالكتيكية.. ذلك أن تلك النظريات حسبت العقل وليدا لنفس المادة المتطورة، فادعت انها تتطور أيضا، ولم تستطع تلك الفلسفات اكتشاف حقيقة العقل التي لا تعدو أن تكون طاقة من نور زودت بها النفس للكشف عن الحقائق بصورة مباشرة.. ولذلك فإن حكمه مشهود متيقن ثابت وان أي حكم يتغير أو يتصور فيه التغيير لهو ليس بحكم العقل.. ومن هنا لا يمكن القول: بأن 2 ×2=4 انما هو صحيح اليوم ويمكن ان يتطور غدا حسب تطور الاوضاع السياسية فيصبح 2×2=5 إذ هذا القول مضحك بذاته

لدى كل نفس عاقلة.

وأيضا كان الزعم بـأن القـول (أن الحـادث بحاجـة إلى سـبب) صحيح اليوم، أما غدا فحيث يحكم البلاد نظم جديدة في الاقتصــاد، فـإن الحـادث يمكن ان يحـدث بلا سـبب، كـان هـذا الـزعم قـولا مرفوضا بذاته، وهكذا.

قال تلميذ من التلاميذ: نـراك تعـاتب كـانت وديكـارت.. مـع أن المنطق الذي تدرسنا إياه ليس إلا وليد البيئة التي ولـد فيهـا هـذان الرجلان.. أليس هو من تأليف أرسطو اليوناني؟

قال ابن حزم: وما الحرج في ذلك.. إن المنطـق من المعـارف الإنسانية العامة، كعلم الحساب والهندسة، فـإن كنـا نجـيز لأنفسـنا أن نستفيد من علم الحسـاب فى الفـرائض فلمـاذا لا نسـتفيد من المنطق؟

قال آخر: ولكن علماء المسلمين نظـروا في تلـك الكتب الـتي تشرحها لنا، فرأوا فيها أموارا عظاما؟

قال ابن حزم: لقد وجدت أن مواقـف المطـالعين لتلـك الكتب أربع طوائف.. وقد اخترت لنفسي ولكم أشرفها وأعلاها.

قالوا: فمن **الطائفة الأولى**؟

قال: هم قوم حكموا على تلك الكتب بانها محتويـة على الكفـر وناصرة للإلحاد، دون ان يقفوا على معانيها أو يطالعوها بــالقراءة.. وهؤلاء هم المقصودون بقوله تعالى :﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَـانَ عَنْـهُ مَسْـؤُولاً ﴾ (الاسـراء: 36).. وهم المقصودون بقوله تعالى :﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَـا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَـاجُّونَ فِيمَـا لَيْسَ لَكُمْ بِـهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران:66).. وهم المقصودون بقوله تعـالى :﴿ قُـلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)(البقرة: من الآية111)

ونحن ـ في مجلسنا هذا ــ نطلب من هـذه الطائفـة إزالـة هـذا الباطل من نفوسـهم الجـائرة الحاكمـة قبـل التثـبيت، القابلـة دون علم، القاطعة دون برهان..

قالوا: فمن **الطائفة الثانية**؟

قال: هم قوم يعدون هذه الكتب هذيانا من المنطق، وهذرا من القول.. وهؤلاء ـ كأكثر الناس ـ سراع إلى معاداة ما جهلوه، وذم ما لم يعلموه.. ولا يصدق عليهم إلا قوله ﷺ :(الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة)(1)

قالوا: فمن **الطائفة الثالثة**؟

قال: هم قوم قرأوا هذه الكتب بعقول مدخولة، وأهواء مشوبة، وبصائر غير سليمة.. وقد أشربت قلوبهم لذلك حب الاستخفاف، واستلانوا مركب العجز، واستوبأوا نقل الشرع، وقبلوا قول الجهال، فوسموا أنفسهم بفهمها، وهم أبعد الناس عنها وعن درايتها..

ونحن ـ في مجلسنا هذا ـ نصحح ما أخطأوا فيه.. عسى أن يكون ذلك سببا في هداية من سبقت له الهداية في علم الله عز وجل، فيفوز بالحظ الأعلى، ويحوز القسم الأسنى.

قالوا: فمن **الطائفة الرابعة**؟

قال: هم قوم نظروا بأذهان صافية، وأفكار نقية من الميل، وعقول سليمة، فاستناروا بها، ووقفوا على أغراضها فاهتدوا بمنارها، وثبت التوحيد عندهم ببراهين ضرورية لا محيد عنها، وشاهدوا انقسام المخلوقات وتأثير الخالق فيها وتدبيره إياها، ووجدوا هذه الكتب الفاضلة كالفريق الصالح والخدين الناصح والصديق المخلص الذي لا يسلم عند شدة، ولا يفتقده صاحبه في ضيق إلا وجده معه.. فلم يسلكوا شعبا من شعاب العلوم إلا وجدوا منفعة الكتب أمامهم ومعهم، ولا طلعوا ثنية من ثنايا المعارف إلا أحسوا بفائدتها غير مفارقة لهم، بل ألفوها لهم كل مستغلق، وتليح لهم كل غامض في جميع العلوم.

وهؤلاء هم أنتم.. وقد قصدنا في مجلسنا هذا ـ أنا وأخي الغزالي ـ أن نبسط لكم ما تعقد.. ونكشف لكم ما غمض..

1() رواه البخاري ومسلم.

وقد كان منهجي في ذلك التبسيط والتيسير.. وقد رأيت تعقيد الترجمة في تلك الكتب، لأنها وردت بألفاظ غير عامية ولا فاشية الاستعمال، وليس كل فهم تصلح له كل عبارة.. فلذلك رأيت أن أورد هذه المعاني بألفاظ سهلة بسيطة يستوي في فهمها العامي والخاصي، والعالم والجاهل.

وهذا بناء على مذهبي في أن العالم هو الذي يسهل العلم جهده، ويقربه بقدر طاقته، ويخففه ما أمكن.. بل لو أمكن أن يهتف به على قوارع طرق المارة، ويدعو إليه في شوارع السابلة، وينادي عليه في مجامع السيارة، بل لو تيسر له أن يهب المال لطلابه، ويجزي الأجور لمقتنيه، ويعظم الأجعال عليه للباحثين عنه، ويسني مراتب أهله، صابرا في ذلك على المشقة والأذى، لكان ذلك حظا جزيلا، وعملا جيدا، وسعيا مشكورا كريما وإحياء للعلم.

بالإضافة إلى هذا.. فقد رأيت أن هذه الكتب كالدواء القوي، إن تناوله ذو الصحة والمستحكمة، والطبيعة السالمة، والتركيب الوثيق، والمزاج الجيد، انتفع به وصفى بنيته وأذهب اخلاطه وقوى حواسه، وعدل كيفياته؛ وإن تناوله العليل المضطرب المزاج، الواهي التركيب، أتى عليه، وزاده بلاء، وربما أهلكه وقتله.. ولذلك فإن منهجي في تدريسها هو ربطها بالدين بمصادره المقدسة.. حتى لا يضل من شاءت له نفسه الضلالة، وهو يرى من أمثلتها ما يتناسب مع هواه.

قالوا: هذا منهجك.. ونحن نقدره.. فما منهج أخيك (الغزالي)؟

قال ابن حزم: ها هو أمامكم.. وسيحدثكم.. فخير من تحدث عن الإنسان لسانه.

***

قال ذلك، ثم التفت إلى الغزالي، وقال: لقد جاء دورك.. فهلم حدثهم عن منهجك.

قال الغزالي: قبل أن أذكر لكم منهجي أحب أن أبين لكم سر اهتمامي بالمنطق.. والذي ألفت فيه كما تعلمون مجموعة كتب.. منها (محك النظر).. ومنها (معيار العلم) وغيرها..

لقد بلغ اهتمامي بهذا العلم أن ذكرت بأن الحقــائق لا يمكن أن تعــرف في أي علم من العلــوم على وجههــا إلا إذا كــان المنطــق ميزانها.. وقد قلت في مقدمة كتابي (المستصـفي) الـتي شـرحت فيها علم المنطق إجمالاً.. وجعلته مقدمة لأصول الفقه:(نــذكر في هذه المقدمة مدارك العقول وانحصارها في الحد والبرهان، ونـذكر شرط الحـد الحقيقي، وشـرط البرهـان الحقيقي، وأقسـامها على منهاج أو جزء ممـا ذكرنـاه في كتـاب محـك النظـر، وكتـاب معيـار العلم، وليســت هــذه المقدمــة من جملــة علم الأصــول، ولا من مقدماته الخاصة به، بل هي مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيـط بهـا فلا ثقة بعلومه أصلاً)(1)

قال بعض التلاميذ: نحن نعرف كل ذلك.. وقد رأينـا من يرميـك بسببه بالعظائم.. فهذا الإمام العلامة المحدث أبو عمرو بن الصـلاح الشـهرزوري يقـول - فيمـا جمعـهُ من طبقـات أصـحاب الشـافعي وقرَّرهُ الشيخ أبو زكريا النووي – في فصل عقده بعنـوان: (فصــلٌ في بيان أشياء مهمةٍ أُنكرت على الإمام الغزالي في مصنفاته، ولم يرتضيها أهل مذهبِ من الشذوذ في مصـنفاته).. وممـا ذكـره فيـه قوله عنك: (فكيف غَفَلَ الغـزالي عن شـيخه إمـام الحـرمين ومِن قبلهِ مِن كلِّ إمام هو لهُ مُقدِّم، ولمحلـه في تحقيـق الحقـائقِ رافـعٌ ومُعظِّم، ثم لم يرفع أحدٌ منهم بالمنطقِ رأسـاً، ولا بـنى عليـه أُسَّـاً، ولقد أتى بخلطة المنطق بأصـول الفقـه بدعـةً عظُمَ شـؤمها على المتفقهة، حتى كثُرَ فيهم بعد ذلك المتفلسفة والله المستعان)

وقال العلامة أبو بكــر بن العـربي المـالكي:(شـيخنا أبـو حامـد دخل في بطون الفلاسفة ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر).. وقــال في موضـع آخـر : (يوجـد في كلام أبي حامـد ونحـوه من أصـول هؤلاء الفلاسفة الملاحدة الذين يُحرفون كلام اللـه ورسـوله ﷺ عن مواضعه كما فعلت طائفة القرامطة والباطنية)

قاطعـه الغـزالي، وقـال، وهـو يبتسـم: بـل قـال في صـديقي وحبيبي ابن رشد: (إنه ـ أي أنا ـ لم يلـزم مـذهبا من المـذاهب في كتبه، بل هو مـع الأشـعرية أشـعري، ومـع الصـوفية صـوفي، ومـع الفلاسفة فيلسوف، حتى أنه كما قيل:

1()مقدمة المستصفي:1/10.

يوما يمان إذا لاقيت ذا يمن   وإن لقيت معديا فعدناني

قال التلميذ: أجل.. وقد قال غيره مثل مـا قـال، أو قريبـا ممـا قال، أو أعظم مما قال.

قال الغزالي: لا ينبغي للعالم أن يخاف من آراء الرجـال فيـه أو نقدهم له.. لقد كنت في موقف لو وقفوا فيه لفعلوا ما فعلت.

قال التلميذ: كيف ذلك؟

لقــد انتشــر في ذلــك الحين مــا يســمى بالفلســفة، أو علــوم الأوائل.. وكان الناس حولها مختلفين إلى ثلاث طوائف.

قالوا: فما الطائفة الأولى؟

قال: هم المحـافظون المتشـددون الـذين راحـوا يقـابلون تلـك العلوم بالرفض الكلي.. بل بتـأليب الـرأي العـام عليهـا، وتكفـير أو تبديع كل من يبحث أو يخـوض فيهـا.. ولم تكن علاقـة هـؤلاء بتلـك الثقافـات إلا علاقـة الحكم المسـبق في معظم الأحيـان، ولهـذا لم يكن نقدهم لها إلا نقدا ظاهريا لا يعتمد البرهان العلمي، ولا الحجــة المنطقية،لأن المنطق نفسه من الفلسفة.

وأنا شخصيا أعتبر هـذا التيـار سـببا لانتشـار الأفكـار المضـللة.. فهم كالصديق الجاهل يضر صاحبه أكثر مما ينفعه.

انظروا ـ مثلا ـ إن هؤلاء أنكروا كون خسوف القمـر عبـارة عن انمحاق ضوء القمر بتوسط الأرض بينه وبين الشمس.. بـل أنكـروا الهندسة والحساب والمنطـق والفلـك وغيرهـا.. وكـان دافعهم إلى ذلك جميعا هو كون مصدر ذلك هو كونها من الثقافات الأجنبية، مـع أنها لا تصادم النصوص الشرعية.

لقد قلت في بعض كتبي أقررهذا: (وأعظم ما يفرح به الملحدة أن يصرح ناصر الشرع بأن هذا وأمثاله على خلاف الشرع، فيسهل عليه طريق إبطال الشرع)، مع أن الشرع لم يتعرض لهذه العلــوم نفيا ولا إثباتا،ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الشرعية.

وقد انجر عن هذا المنهج نوع من الشعور بالتصـادم بين العقـل

والـدين، فـإن تلـك القضـايا من الوضـوح والدقـة، وبراهينهـا من الوضوح والقوة بحيث لا يمكن رفضـها؛ ورفض العلمـاء لهـا بحجـة منافاتها للدين كذب عليه، وخدمة للملحدين والمشـككين، وهـو مـا حصـل في أوروبـا عنـدما أنكـرت الكنيسـة الكثـير من الكشـوف العلمية التي تتنافى مـع موروثاتهـا اليونانيـة وغيرهـا، ممـا أدى إلى النفور من الكنيسة، والتمكين للإلحاد.

قالوا: هـذه الطائفـة الأولى.. ولا يـزال ــ للأسـف ــ لهـا وجـود واقعي خطير.. فما الطائفة الثانية؟

قال: هم طائفـة عكس الأولى.. فهم يـرون القبـول الكلي لمـا ورد في تلك الفلسفات والثقافات.. بل يرون طـرح الـدين بسـببها والانخداع بمظاهرها.. لقـد قلت واصـفا هـذه الطائفـة في مقدمـة كتابي (تهافت الفلاسفة) : (أما بعـد، فـإني رأيت طائفـة يعتقـدون في أنفسهم التميز عن الأتراب والنظراء بمزيد الفطنة والذكاء قـد رفضوا وظائف الإسلام، واستحقروا شعائر الدين، بل خلعوا بالكلية ربقة الدين بفنون من الظنون يتبعون فيها رهطا يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجا)

وقد رأيت أن ذوبان هذا التيـار في تلـك الثقافـات لا يرجـع إلى تحكيم الموازين العقلية بقدر رجوعه إلى أوهام وخيـالات وأسـباب النفسـية.. منهـا إطنـاب طوائـف من متبعيهم في وصـف عقـولهم ودقة علومهم، وأنهم مع كل ذلك الذكاء منكرون للشرع متنصـلون من تكاليفه.

ومنهـا مصـادرتهم العامـة على مطـالبهم المعرفيـة اسـتدراجا لهم.. فقد كانوا إذا ما أوردوا عليهم إشكالا تذرعوا بأن هذه العلـوم غامضة، وأنها أعصى العلوم على الأفهام الذكية، ولا يمكن التوصل إلى فهمهـا إلا بتقـديم الرياضـيات والمنطـق، وهـذا كلـه اسـتدراج نفسي للوصول بهم إلى حالة الانبهار التـام المـؤدي إلى ا لخضـوع الكلي.

ومنها الخلـط بين العلـوم الطبيعيـة والهندسـية والمنطقيـة مـع الآراء الميتافيزيقيـــة، حـــتى ظن من ينظـــر في منطقهم فـــيراه مستحسنا أن سائر علومهم مؤيدة بتلك البراهين.

ومنها ما مزجه (إخوان الصفا) بتصانيفهم المستمدة من الفلسفة اليونانية من الحكم النبوية والكلمات الصوفية استدراجا للعامة إلى مقاصدهم، مع العلم أن انتشار آراء تلك الجمعية في ذلك الحين كان واسعا شاملا كل فئات المجتمع،كما تشير إليه رسائلهم.

وقد رأيت ـ كما ترون معي ـ أن جميع هذه الأسباب لا ترجع إلى براهين عقلية، أو حجج منطقية، وإنما هو حالة من الانبهار الساذج، والتأثر العاطفي الذي لا يحكمه العقل، ولا يستند إلى الحجة.

قالوا: فما الطائفة الثالثة؟

قال: هي الطائفة التي اخترت أن أنتسب إليها.

قالوا: وما تقول هذه الطائفة؟

قال: هذه الطائفة تريد أن تكون وسطا بين الطائفتين.. فتسد المفسدة، وتجلب المصلحة.

قالوا: أي مفسدة؟

قال: مفسدة الطائفة الأولى التي تحرم المسلمين علوما لم يحرمها الشرع.. ومفسدة الطائفة الثانية التي تريد أن تستغل العقل لتضرب الدين.. مع أن الدين عين العقل.. بل لا عقل بلا دين.. ولا دين بلا عقل.

قالوا: وأي مصلحة؟

قال: لقد رأيت في تلك العلوم مصالح كثيرة يمكننا أن نستفيد منها فيها.. فمن علومهم الرياضيات.. وهي تتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم، ولا يتعلق شيء منها بالأمور الدينية، بل هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجا حدتها بعد فهمها.. بل إنها من الفروض الكفائية ما دام يحتاج إليها.

ومنها العلوم الطبيعية.. وهي تشمل الطب والكيمياء والفلك وغيرها.. وهي لا تتعرض للدين.. ولذلك لا ينبغي مخالفتهم في

شيء منها إلا بما هدى إليه الدليل العلمي.

ومنها العلوم السياسية.. وهي تبحث عن الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية ولا علاقة لذلك بالدين.. بل يمكن الاستفادة من أبحاثهم فيها باعتبارها مستمدة ـ كما أرى ـ من كتب الله المنزلة على الأنبياء، ومن الحكم المأثورة عن سلف الأنبياء.

ومنها العلوم الأخلاقية.. وكلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها وأجناسها وأنواعها وكيفية معالجتها ومجاهدتها.. وأنا لا أرى ردها باعتبارها لا تناقض الشرع، بل إن كلامهم فيها مأخوذ من كلام الصوفية والمتألهين الذين لم يخلو من وجودهم أي عصر من العصور، ولذلك فإن الاستفادة منهم تلق لمزيد من التجارب والفوائد التي لم تمنعنا الشريعة من الأخذ بها.

ومنها العلوم الإلهية.. وأكثر أغاليطهم فيها.. وأنتم تعلمون أني ناظرتهم في هذه العلوم معتمدا المنطق الذي وضعوه هم بأنفسهم.. وفي ذلك تمام الحجة عليهم ببيان تناقضهم.. لقد قلت في مقدمة الكتاب الذي وضعته لهذ الغرض:(ونناظرهم في هذا الكتاب بلغتهم، أعني بعباراتهم في المنطق، ونوضح أن ما شرطوه في صحة مادة القياس في قسم البرهان من المنطق، وما شرطوه في صورته في كتاب القياس.. لم يتمكنوا من الوفاء بشيء منه في علومهم الإلهية)

ومنها العلوم المنطقية.. والتي وجه إليك اللوم لي بسببها.. وهي تتعلق بالنظر في طرق الأدلة والمقاييس وشروط مقدمات البرهان وكيفية تركيبها، ولا يتعلق شيء منها بالدين إلا ما حشيت به من أمثلة تتناقض وتتعارض مع الأصول الدينية، ولأجل ذلك ألفت كتبي المنطقية،كمعيار العلم وغيره،وحشوتها بدلا من ذلك بالأمثلة الفقهية.

قال بعض التلاميذ: ولكن لم ذلك؟.. ألم يكن عندنا ما يكفي؟

ابتسم الغزالي، وقال: ولكن ما المانع من قبولها؟

قال: لأن الذي كتبها وقالها ليس مسلما.

ابتسم الغزالي، وقال: ألم تعلم ـ يا ولـدي ــ أن الحكمـة ضـالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها..

قال التلميذ: ولكنهم فلاسفة.. وليسوا حكماء؟

قـال الغـزالي: إن مثـل من ينكـر على هـؤلاء بسـبب كـونهم فلاسفة كمن يسـمع من النصـراني قولـه : (لا إلـه إلا اللـه عيسـى رسول الله)، فينكره، ويقول:هـذا كلام نصـراني، ولا يتوقـف ريثمـا يتأمل أن النصراني كافر باعتبار هـذا القـول أو باعتبـار إنكـار نبـوة محمد ﷺ.

قال بعض التلاميذ: وعينا هذا.. وبورك فيك.. فحـدثنا عن المنهج الذي تريد أن نتعلم من خلاله هذا العلم.

قال: لقد رأيت ـ كما وضح لكم زميلي ابن حـزم ــ أن الأحكـام العقلية إذا تجردت من سلطة حكم الحس و الوهم لا تكـاد تخطئ، لأنها فطرة فطر الله الناس عليها.. قال تعالى :﴿ فِطْـرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَـا لا تَبْـدِيلَ لِخَلْـقِ اللَّهِ ذَلِـكَ الـدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: من الآية30).. انظروا كيف سمى اللـه العقل دينا..

ولكون أحكـام العقـل المجـرد دينـا، فـإن التنـاقض بين أحكـام العقل وأحكام الشرع مسـتحيلة.. بـل إن أسـاس الشـرع العقـل.. فالعقل كالأس والشرع كالبناء.. ولن يغـني أ س مـا لم يكن بنـاء.. ولن يثبت بناء ما لم يكن أ س.

والشرع ـ بسبب مراعاته الضرورية للأحكـام العقليـة ــ عقـل.. فالشــرع عقــل من الخــارج، والعقــل شــرع من الــداخل.. وهمــا متعاضدان بل متحدان.

و بسبب هذا الاتحـاد بين أحكـام العقـل وأحكـام الشـرع، فـإن تمجيد العقل تمجيـد للشـرع، وإعمالـه أعمـال للشـرع، ونبـذه نبـذ للشرع.. لأن كليهما من وضع الله.. أما ذم من ذمه فسـببه إلى أن النـاس نقلـوا اسـم العقـل إلى المجادلـة والمنـاظرة بالمناقضـات والإلزامات، فاستخدموا العقل في غـير مـا خلـق لـه، فلـذلك كـان الــذم منصـبا على الاسـتخدام السـيئ لا على المحـل فـإن (نــور

البصيرة التي بها يعرف الله تعالى، ويعرف صدق رسله، لا يتصور ذمه؟،وقد أثنى الله تعالى عليه ؛ وإن ذم فما الذي بعده يحمد؟)

قال بعض التلاميذ: وعينا هذا.. فما المنهج الذي تريد أن تعلمنا إياه؟

قال: لقد وفقني الله بعد أن كتبت في المنطق ما تعرفون.. فكتبت كتابا حاولت فيه أن أكتب المنطق بأسلوب يفهمه الجميع.. ولن يعترض عليه أحد من الناس.. إنه كتابي (القسطاس المستقيم).. وقد جعلته ـ بتوفيق الله ـ الميزان الذي ينفي الخلاف عن الخلق.

قال بعض التلاميذ: لقد رأيت الكتاب.. ولكني رأيت أن تلك الموازين التي وضعتها فيه مطابقة للموازين المنطقية اليونانية.

ابتسم الغزالي، وقال: لا يمكن لأحد في هذا الباب أن يأتي بالجديد المجرد.. إن تلك الموازين تتفق فيها العقول جميعا، ولو خالفتها لكنت مجنونا.

قال التلميذ: فما فعلت إذن؟

قال: تقريب الصياغة وربطها بمصادرنا المقدسة.. لقد فعلت ذلك لصنفين من الناس..

أما أولهما.. فالذين استهوتهم الفلسفة بما فيها من علوم عقلية، فخلطوا بين حقها وباطلها، وظنوا التناقض بين العلوم النقلية والأحكام العقلية.

وأما ثانيهما، فالعلماء الحرفيين الذين رفضوا المنطق باعتباره فلسفة وعلما غريبين عن الدين.

لقد قلت في مقدمة كتابي هذا : (لا يتصور أن يفهم ذلك الميزان ثم يخالف فيه أهل التعليم لأني استخرجته من القرآن وتعلمته منه، ولا يخالف فيه أهل المنطق، لأنه موافق لما شرطوه في المنطق غير مخالف له، ولا يخالف فيه المتكلم، لأنه موافق لما يذكره في أدلة النظريات،وبه يعرف الحق في الكلاميات)

قلت: لقد شوقتنا إلى هذه الموازين.. فما هي؟

قال: هي ثلاثة موازين: ميزان التعادل.. وميزان التلازم.. وميزان التعاند.

قلت: فما ميزان التعادل؟

قال: له ثلاثة أشكال(1)..

أما أولهما، فالميزان الأكبر.. وومثاله قوله تعالى على لسان إبراهيم ﵇ : فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ)(البقرة: من الآية258)، وصياغة هذا الميزان هي: كل من يقدر على إطلاع الشمس فهو الإله، فهذا أصل؛ وإلهي هو القادر على الإطلاع، وهذا أصل آخر؛ فلزم من مجموعهما بالضرورة أن إلهي هو الإله، ويمكن صياغته رمزيا هكذا : أ هي ب، وب هي ج،إذن :أ هي ج.

وأما الثاني، فالميزان الأوسط.. ومثاله قوله تعالى عن إبراهيم ﵇ : لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ)(الأنعام: من الآية76)، وصياغة هذا الميزان هي : أن القمر آفل، والإله ليس بآفل؛ فالقمر ليس بإله.. ويمكن صياغته رمزيا هكذا :أ هي ب، وج ليست ب،إذن : أ ليست ج.

قلت: فما الفرق بين هذا الميزان والميزان الأكبر؟

قال: الفرق بينهما واضح.. فالصفة في الميزان الأكبر عامة تشمل جزئيات الموصوف كلها، بخلاف ما هي عليه في الميزان الأوسط حيث تنحصر في شيئين متباينين كل التباين بحيث ينفي عن أحدهما ما يثبت للآخر.

قلت: فما الشكل الثالث من أشكل ميزان التعادل؟

قال: الميزان الأصغر.. ومثاله من القرآن الكريم قوله تعالى : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ ت) (الأنعام: من الآية91)، ووجه الوزن بهذا الميزان هو أن موسى

(1) هذه الموازين الثلاثة المشكلة لميزان التعادل تشبه ما يعبر عنه في المنطق بأشكال قياس أرسطو الاقتراني الثلاثة.

ﷺ بشر، وقـد أنـزل عليـه الكتـاب، إذن بعض البشـر أنـزل عليهم الكتـاب.. وصـياغته الرمزيـة هي: ب هي أ، وب هي ج، إذن بعض أهي ج.

والفرق بين هذا الميزان وما قبله أنـه يسـتخدم في التخصـيص والتميـيز بين الصـفات الذاتيـة الـتي تشـترك فيهـا عمـوم جزئيـات الجنس والصفات العرضية التي لا يشترك فيهـا إلا قسـم من هـذه الجزئيات.

قلت: فما الميزان الثاني؟

قال: ميزان التلازم(1).. وهو ـ كما عرفه الغزالي ــ أن كـل مـا هو لازم للشيء تابع له في كل حال، فنفي اللازم يوجب بالضرورة نفي الملزوم، ووجود الملزوم يـوجب بالضـرورة وجـود اللازم، أمـا نفي الملزوم ووجود اللازم فلا نتيجة لهما.

وقد ضرب له مثالا بقوله تعـالى :﴿ لَـوْ كَـانَ فِيهِمَـا آلِهَـةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)(الانبياء: من الآية22)﴾، وصياغة هـذا المـيزان هي أنـه لـو كان في السموات والأرض إلهان لفسدتا، فهذا أصل، ومعلوم أنهما لم تفسـدا، وهـذا أصـل آخـر؛ فيلـزم منهمـا ضـرورة نفي الإلهين، وإثبات الإله الواحد.

قلت: فما الميزان الثالث؟

قال: ميزان التعاند.. وهو ـ كما يعرفه الغـزالي ــ بـأن (كـل مـا انحصر في قسمين، فيلزم من ثبوت أحدهما نفي الآخر، ومن نفي أحدهما ثبوت الآخر بشرط أن تكون القسمة منحصرة، لا منتشرة)

وقد ضرب له مثالا من القرآن الكريم بقوله تعـالى :﴿ قُـلْ مَنْ يَـرْزُقُكُمْ مِنَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُـلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُـدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (سـبأ:24)، ووجه الاستدلال به هو: (إنـا أو إيـاكم لعلى هـدى أو في ضـلال مـبين، ومعلـوم أننـا لسـنا في ضـلال، والنتيجة هي: أنتم ضالون)

قال بعض التلاميذ: إن ما ذكرته من الموازين العقلية هي نفس

1() وهذا الميزان هو المسمى في المنطق بالقياس الشرطي المتصل.

المقاييس المنطقية..

قال: لقد ذكرت لكم ذلك.. لقد ذكرت في كتـابي (القسـطاس المستقيم):(أما هذه الأسامي فأنا ابتدعتها، وما عندي أني سبقت إلى استخراجها من القرآن؛ وأما أصل المـوازين فقـد سـبقت إلى استخراجها، ولها عند مستخرجيها من المتـأخرين أسـام سـوى مـا ذكرتها، وعند بعض الأمم الخالية السابقة على بعثة محمد وعيسـى ـ صلوات الله عليهما ـ أسـام أخـر كـانوا قـد تعلموهـا من صـحف إبراهيم وموسى ـ عليهما السلام ـ)

قال التلميذ: فهل سندرس في هذا الفرع هذه الموازين؟

قال: في هذا الفرع ستتدربون على هذه الموازين وغيرهـا.. فلا يمكن للمحاور أن يحاور، وعقله لا يعرف كيـف يـزن، وكيـف يتثبت مما يزن.

التجارب الميدانية:

سرنا إلى قسم آخر في (أكاديمية العقل المسلم).. كان اسمه (قســم التجــارب الميدانيــة).. عنــدما رأيت هــذا القســم، قلت للمدرسي: لاشـك أن هـذا القسـم من تأسـيس فرنسـيس بيكـون الذي عاش ما بين (1561-1626م).. فهو الذي يعزى إليـه فضـل نشــوء طريقــة البحث العلمي الحــديث المعتمــدة على المنهج التجريبي(1).

لست أدري كيف جذبني بعضهم جذبا شديدا، وقال: كيف تقول هذا.. إن ما تقوله يخالف جميع الحقائق، وجميع الأدلة.

قلت: من أنت؟

قـال: أنـا رجـال كثـيرون كلهم يشـهدون بـأن المنهج التجريـبي أعمـق وأخطـر من أن يختص بمن ذكـرت.. فالتجربـة في الأمـور الخاضعة للتجربة فطرة أصلية في العقل الإنساني، والإنسان يلجـأ

1()استـفدنا من بعض المـادة العلميـة هنـا من مقـال بعنـوان (شـبهة سـبق الغـرب للمسـلمين في وضـع منـاهج البحث العلمي)، للأسـتاذ عبـد الـرحيم الشـريف، من موقـع (موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة)

إليهـا بشـكل تلقـائي إذا أمكنـه ذلـك ليتأكـد من صـحة أحكامـه، أو ليختبر بعض القضايا، وربما يفعـل ذلـك دون الاعتمـاد على قــواعد معينة لذلك.. لقد قال كلود برنارد يؤكد هذا :(إنني أعتقـد أن كبـار المجربين قد ظهروا قبل أن توجد القواعـد العــامة لفن التجـريب، ومن ثم يبدو لي أنه لا يحق لأحد أن يقول في حديثه عن بيكون إنه اخــترع المنهج التجريــبي، ذلــك المنهج الــذي اســتخدمه جــاليلو وتورشيلي على نحو جدير بالإعجاب عجز عنه بيكون)(1)

وقالت زيغريد هونكه :(إن الإغريق تقيدوا دائماً بسيطرة الآراء النظرية، ولم يبدأ البحث العلمي القائم على الملاحظة والتجربة إلا عند العرب)(2).. وقـالت:(لم يكن مسـتوى روجـر بيكـون العلمي في الكيمياء أرفع من معاصريه ألا أنه رأى في التجربة التي أخــذها عن العرب السبيل الحقيقي للوصول إلى نتائج حاسمة في العلـوم الطبيعية وخاصـة في الكيميـاء، وهكـذا كـان روجـر علمـاً متوهجــاً سـطع في سـماء القــرون الوسـطى المظلمــة وفي حنايـاه روح الشاعر الأندلسي ابن الخطيب الذي قال : مبـدئيـاً يجب أن يكـون كـل برهـان متـوارث قـابلاً للتعـديل إذا مـا اتضـح لحواسنا عكسه)

وقد اضطر (فون كريمر) للاعتراف بدور المسـلمين في حقــل المعرفــة التجريبية(3)، فقـال:(إن أعظم نشـاط فكـري قـام بـه العـرب يبـدو لنـا جليـاً في حقـل المعرفـة التجريبيـة ضـمن دائـرة ملاحظاتهم واختباراتهم، فإنهم كانوا يُبدون نشاطاً واجتهاداً عجيــبين حين يُلاحظون ويمحصون، وحين يَجمعون ويُرتبـون مـا تعلمـوه من التجربة، أو أخذوه من الرواية والتقليـد، ولـذلك فـإن أسـلوبهم في البحث أكبر ما يكون تـأثيراً عنـدما يكـون الأمـر في نطـاق الروايـة والوصف)(4)

1()المنطق الحديث ومناهج البحث د. محمود قاسم ص 38.

2() (شمس الله تسطع على الغرب) ص 401 – ترجمة فاروق بيضون – دار الجيل – بيروت –

3()وإن كان هذا الإنصاف منه مقدمة لما يريد أن يصل إليه من إقنـاعٍ للقـارئ بتفـوق الجنس الآراي واليوناني على غيره.

4()مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي فرانتز روزنتال ص 15.

ويؤكد (الدكتور فرانتز روزنتـال) أن المسـلمين كـانوا ينظـرون إلى التجربــة والملاحظــة على أنهــا ذات قيمــة فريــدة في البحث العلمي، وأننا نجـد أمثلـة هائلـة لـذلك في الحضـارة الإسـلامية في حقول المعرفة المتنوعة، وينقل هـذه العبـارة عن ابن أبي أصـيبعة عن الــرازي (مــتى كــان اقتصـــار الطــبيب على التجـــارب دون القيـاس وقـراءة الكتب خُـذل) مما يدل على أن التجربة كانت عند الأطباء منتشرة بشكل كبير، وأنه كان يحمد للطـبيب أن يضـم إلى تجاربه العلمية القراءة النظرية والقياس العقلي.

قال ذلك، ثم انصرف، ليتركني لصاحبي المدرسـي الـذي سـار بي في فروع كثيرة في ذلك القسم، شد انتباهي منهـا رجـل يقـال له (ابن الهيثم)(1)

كان هذا الرجل محل إعجاب الكثيرين، منهم (زيغريـد هونكـه)، التي قالت، وهي تتحدث عنه: (لقد علّم إقليـدس وبطليمـوس بـأن العين المجردة ترسل أشعةً إلى الأشياء التي تريد رؤيتها فجـاء ابن الهيثم وأعلن أن هذا الادعاء خاطئ لأنه ليس هنـاك أشـعةً تنطلـق من العين ليتحقق النظـر بـل إن شـكل الأشـياء المرئيـة هي الـتي تعكس الأشعة على العين فتبصرها هذه بواسطة عدستها)

وقد سـمعت من ابن الهيثم قولـه ــ وهـو يجمـع في إيجـاز بين الاستقراء والقيـاس، ويقـدم الاسـتقراء على القيـاس، ويحـدد فيـه الشرط الأساسـي في البحـوث العلميـة الصـحيحة وهـو أن يكـون الغـــرض طلب الحقيقـــة ــــ : ونبتـــدئ في البحث باســـتقراء الموجـودات، وتصفح أحوال المُبْصَرات، وتمييز خـواص الجزئيـات، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الإبصار، وما هو مطرد لا يتغير، وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحسـاس، ثم نـرتقي في البحث والمقاييس على التدرج والتدريب مع انتقـاء المقـدمات، والتحفـظ من الغلـط في النتـائج، ونجعـل غرضـنا في جميـع مـا نسـتقريه ونتصفحه استعمال العدل، لا اتبـاع الهـوى، ونتحـرى في سـائر مـا

1() أشير به إلى محمد بن الحسن بن الهيثم، وهو مهندس من أهل البصرة ولـد عـام 354 هــ سـكن في مصـر واسـتوطن فيهـا على بـاب الجـامع الأزهـر فـانقطع للتصـنيف والإفادة إلى أن توفي عام 430 هـ له تصانيف في الهندسة وترجمت بعض مصـنفاته إلى الألمانية مثل كيفية الإظلال والمرايا المحرقة.. انظر الأعلام 3/ 83، 84.

نجيزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء.

قال لي صاحبي المدرسي، وهو يحدثني عنه، وقد رآني شديد الإعجاب بمنهجه(1) : ليس ذلك فقط.. بل إن ابن الهيثم قد عمق تفكيره إلى ما هو أبعد غوراً مما يظن أول وهلة فأدرك ما قال به من بعده (ماك) و(كارل بيرسون) وغيرهما من فلاسفة العلم المحدثين في القرن العشرين.

ومن مميزاته أنه كان يشرح الجهاز، ويبين وظيفة أجزائه المختلفة، ويستعمل أجهزة مبتكرة لشرح الانعكاس والانعطاف، وتدل تجاربه وحساباته أنه استطاع أن يجمع بين مقدرته الرياضية، وكفايته العلمية الممتازة، يدل على ذلك صنعه للأجهزة، واستعمالها في أغراضٍ مختلفة.

كما أنه اعتنى بالقياس كما في كتابه (المناظر).. فهو ينتقل من التجربة إلى القياس، ويستنبط من ذلك قضايا مهمة، ويشرح ظواهر خطيرة في الضوء.

***

رأيت في تلك القاعة الكثير من الشخصيات المسلمة الكبيرة التي كان لها الفضل العظيم على الحضارة الإنسانية، وقد رأيتها جميعا تستعمل هذا النوع من المدارك من غير أن تشعر بأي تناقض بينه وبين معرفتها بالله وإيمانها به، وقد دعاني الفضول في بعض المجالس، فسألت بعض أولئك العلماء عن سر عدم استعمالهم هذا المنهج في التعرف على الله(2)، فابتسم، وقال: هل يمكن لأذنك أن تدرك المبصرات، أو يمكن لذوقك أن يدرك المشمومات؟

قلت: كلا.. فلكل منها ميدانه الذي لا يمكنه أن يتجاوزه.

قال: فكيف تريد من عيوننا القاصرة، وقدراتنا المحدودة،

1() انظر: مناهج البحث في العلوم الإسلامية مصطفى حلمي ص 76.

2() انظر الرد المفصل على هذه الشبهة في رسالة (الباحثون عن الله) من هذه السلسلة.

وتجاربنا الحقيرة أن تتطلع لمعرفة الذي ليس كمثله شيء.

إن التجربة تقتضي التكرار.. وليس ربك إلا واحد.

قال ذلك، ثم انصرف عني بهمة عجيبة إلى تجاربه.

الخواطر النفسانية:

سرنا إلى قسم آخر في (أكاديمية العقل المسلم).. فوجدت رجلا منشغلا عن كل شيء، فقصدته، وقلت له: ما الهم الذي جعلك تنعزل عن الكل؟.. اذكره لي لعل في طاقتي أن أملأ قلبك بأنواع السلوى.

قال: أنا لم أجلس هنا مهتما ولا حزينا، بل جلست متعلما.

قلت: على من؟.. لا أرى أمامك أي أستاذ.

قال: على نفسي.. إن من لم يتتلمذ على نفسه لا يصلح له أن يتتلمذ على أي أستاذ.

قلت: نفسك إن تتلمذت عليها ساقتك إلى أنواع الشرور.

قال: تلك النفس الأمارة.. أما النفس المطمئنة، فإنها لا تسوقك إلا إلى الخير الذي لا خير بعده.

قلت: لن تطيق النفس ذلك حتى يكون لها من المدارك ما تستطيع أن تصل به إلى الحقائق.

قال: صدقت.. وقد وهب الله النفس من المدارك ما يمكنها أن تصل به إلى الحقائق.

قلت: لم أسمع من يقول بهذا.

قال: نفسك تقوله.

قلت: نفسي!.. كيف؟

قال: ألا ترى في نفسك أشياء كثيرة توقن بها مع أن هناك الكثير ممن يخالفك فيها؟

قلت: ذلك صحيح.

قال: فلمن تخضع؟.. ألم تقوله نفسك، أم لما يقوله غيرك؟

قلت: بل أخضع لنفسي.. ولكني أعتبر نفسي أحيانا مخطئة في ذلك.

قال: خطأ نفسك في شيء من الأشياء لا يدل على خطئها مطلقا.

قلت: ذلك صحيح.

قال: فكيف تنفي أن تكون النفس مدركا من مدارك العقل؟

قلت: لأنها تخطئ.

قال: وحواسك كذلك تخطئ.. ومع ذلك تعتبرها مدركا صحيحا.

قلت: لقد ألزمتني الحجة.. لكن كيف أتقي الخطأ؟

قال: في هذا القسم من (أكاديمية العقل المسلم) ندرس هذا.. فنضع الضوابط التي تحمي النفس من الأخطاء التي يمكن أن تسربها للعقول.

قلت: فهلا ذكرت لي بعضها.

قال: أهمها هو حماية النفس من الأهواء.. لأن هذا هو الذي يدع الإنسان يخضع للظروف ويتطور حسبها.. فمتى ما أحب الإنسان شيئا تأثر به بقدر حبه له، ووجب عليه أن يعطي من ذاته تنازلاً له، فطبيعة الحب تختلف عن المعرفة، لأنهما يمثلان جانبين مختلفين في النفس.

صحيح أن الإنسان لا يقدر على تمييز ذلك في كل وقت، وصحيح أن ذلك بحاجة إلى أنواع من التجرد الموضوعي والنقد الذاتي، كما أنه بحاجة إلى التفكر الممنهج. إلا أنه لدى ممارسة التمييز فترة طويلة يسهل ذلك على النفس حتى يبدو العلم والحب بعيدين عن أحدهما، مميزين عن بعضهما..

قلت: فهلا ضربت لي مثالا يقرب لي هذا؟

قال: سأضرب لك أمثلة عن **افتراق المعرفة عن الحب**..

فمن أمثلـة ذلـك أن المعرفـة تفـترق عن الحب في أننـا نحب كثيرا من الأشياء ونعلم أنهـا غـير موجـودة فعلا.. إننـا نحب الخلـود حتى أنه قد يطغى علينا هذا الحب فينسـينا العلم بـالموت، ونعمـل كما أننا نعلم بـالخلود.. وأننـا نحب السـيطرة ونعمـل في كثـير من الحالات مدفوعين بهذا الحب، بل زاعمين أننا نملك السيطرة فعلا، ولكن العلم الحقيقي يكشف لنا خلاف هذا الواقع.

وتفـترق المعرفـة عن الحب أيضـا حينمـا نحب أن تكـون كـل معارفنا صحيحة وكل عقائدنا موافقة للحق.. بيد أنا نواجه في كثـير من الأوقات حقائق تكرهنا على إعاة النظـر في معارفنـا وعقائـدنا والاعتراف بخطئها كليا أو جزئيا.

وتفـترق المعرفـة عن الحب، عنـدما نحب أن تكـون كـل أمم الأرض تخدم مصالحنا الخاصة في حين نعلم أن طائفة كبـيرة منهـا تخالفها تماما!..

إن هذه الأمثلة توضح الفارق الكبير بين الحب والمعرفة، إلا أنه رغم وجود هذا الفارق يواجه الفرد غموضا بالغا في التمييز بينهما.. فمثلا حين يحب الإنسان ذاته يخـادع نفسـه عن نقائصـها، ويحـاول ايجاد تبريرات لأخطائها ويريد أن يوقع مسؤولية ما تصدر عنها على الآخرين.. وحين يحب المرء أبناءه يغمض عينا عن كل ما فيهم من سيئات حتى يصبحوا مجموعة حسـنات في عينيـه!.. وهكـذا حينمـا يحب الإنسان مبدأ يركز نظره إلى محاسنه حتى يحذف دور عقلـه كليـا في نقــد المبــدأ أو حــتى في تطــويره وينقلب إلى إنســان ممســوخ.. ونعـرف من ذلـك كلـه: أن الإنسـان يسـتطيع أن يمـيز الفكرة النابعة من كشف الواقع، والفكـرة النابعـة من حب النفس وهواها، لأن الأولى تمثل جانب القـوة والثانيـة جـانب الضـعف في الإنسان.

قلت: ولكن الإرادة قد تقهر الحب.. وتعيد للنفس توازنها.

قال: ولكن الإرادة مع ذلك قد تقهرها الأهواء.. فتضلل النفس..

إن العقـل بمثابـة مصـباح منـير تملكـه النفس، وتنصـرف فيـه لرؤية الحقائق وكشفها؛ متى ما تريد وكيف ما تريـد؟ فـإذا لم يـرد الإنسان رؤيـة جمـال العـدل، وحسـن الآداب، واسـتحالة التنـاقض يمكنه ألا يعرف ذلك فعلا، بأن لا يسـتعمل المصـباح الـذي أوتيـه أو يدسه تحت التراب.

وهذه حقيقة قد تخفى علينا، إلاّ أنه من المؤكد عمليا أننـا لسـنا في كل لحظة نعلم جميع أحكام العقـل، وأننـا في أي لحظـة نريـد التعرف عليها فهي لا تعصى علينا، وهذه حجة كافية على أن العقل يدخل ضمن حرية الفرد واختياره فيستخدمه حينا لمعرفة الحقـائق ويدعه عاطلا حينا آخر..

ألست ترى أنك قادر في كل لحظـة وفي كـل مكـان أن تفكـر فيما حولك من الأشياء والأشخاص بصورة منهجيـة، وتسـتعمل في تفكيرك مقاييسك العقلية الثابتـة؟ كمـا أن بإمكانـك أن تتوجـه إلى أمور أخرى ولا تفكر منهجيا وعقلانيا في أي شـيء.. نعم، إن هنـاك لحظات لا يمكننا إلا أن نعرف أحكام العقل، كتلـك اللحظـات الـتي نقـع فيهـا تحت تـأثير موجِّه روحي قـوي، أو نشـاهد تجربـة عمليـة حادة، إلا أننا سرعان ما نعود إلى حالتنا السابقة حيث يخضع العقل لتصرفنا وإرادتنا من جديد.

قلت: وعيت هذا الضابط وأدركت أهميته.. فهل هناك غيره؟

قال: هنـاك الكثـير.. إن هـذا يسـتدعي دراسـة مفصـلة للنفس للتعرف على نواحي ضعفها وقوتها..

قلت: فهل أشار قرآنكم إلى هذا؟

قال: أجل.. أشار إلى مجامعه، ونحن ندرسها هنا..

قلت: هلا ضربت لي مثالا على ذلك.

قال: من ذلك مثلا قوله تعالى :﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيـلٌ وَاللَّهُ الْمُسْـتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (18)﴾ (يوسف).. وقـال تعـالى :﴿ قَـالَ فَمَـا خَطْبُـكَ يَـا سَامِرِيُّ (95) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْـتُ قَبْضَـةً مِنْ أَثَـرِ

الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96)﴾ (طه).. وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (25) ﴾ (محمد)

فهذه النصوص وغيرها تشير إلى أن للنفس البشرية مقدرة تمويهية كبيرة، فهي تقوم ــ مثلا ــ بتهدئة النفس وتسكينها حين تهجم عليها المصائب.. وهي تحاول التخفيف عن النفس بما يدعى في علم النفس (بأحلام اليقظة) فتسليها بآمال مستحيلة وأماني غير ممكنة الوقوع.. وحين يحب الإنسان شيئا حبا جما تحاول هذه الطاقة تبرير كل الوسائل المؤدية إليه، حتى تخترع النفس معلومات ليست واقعية، أو تفسير المعلومات التي لا تلائم بلوغ ما أحب بما يلائمها، وهكذا..

الخبرات البشرية:

سرنا إلى قسم آخر في (أكاديمية العقل المسلم).. فرأيت شيوخا كثيرين يلتف بهم شباب وصبية، فسألت المدرسي عنهم، فقال: هذا قسم (الخبرات البشرية)

قلت: فما علاقة هذا القسم بالعقل؟

قال: إن هذا القسم يجعل من العقل الواحد عقولا كثيرة.

قلت: كيف؟

قال: لا يمكن للعقل الواحد أن يصل إلا إلى بعض الحقائق.. ولذلك فإن الله جعل له من العقول المعينة ما ينوب عنه في البحث عن غيرها..

قلت: ولكن الأوهام قد تتسرب من هذا الطريق.. بل لا تكاد تتسرب الأوهام من غير هذا الطريق.

قال: لقد جعل الله في العقول القدرة على التمييز بين الحقائق والأوهام.. ولذلك فإن العاقل هو الذي يستقبل كل الخبرات، ثم يصفيها في غربال عقله ليميز الصادق منها من الكاذب، والحق منها من الباطل.

قلت: ألا يمكن أن نستغني عن هذا النوع من المدارك؟

قال: لو استغنينا عنه لم نصل إلى أي حضارة؟

قلت: وما علاقة الحضارة بهذا؟

قال: الحضارة تتأسس على الخبرات المختلفة.. فكل عالم يبدأ بما انتهى إليه غيره.. بالإضافة إلى أن العلوم يخدم بعضها بعضا.. ولا يمكن لشخص واحد أن يتخصص في العلوم جميعا.

قلت: إن هذا يستدعي البحث عن الخبراء.

قال: صدقت.. ولهذا أمرنا الله بالبحث عنهم وسؤالهم.. فقال تعالى : الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (59) (الفرقان).. وقال : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43) (النحل)

قلت: فكيف يميز الدجال عن الخبير؟

قال: في هذا القسم نبحث عن هذا.. فنميز بين الدجال والخبير.. بل نميز بين أقوال الخبير نفسها.. فقد يدخل فيها الدجل من حيث يشعر، ومن حيث لا يشعر.

قلت: إن هذا يستدعي الشك في الخبراء.

قال: الأصل في هذا وغيره الشك.. فلا يمكن أن نتيقن إلا بما تثبت الأدلة صدقه.

الفيوضات الربانية:

بعد أن استفدت الكثير من الخبرات والمعارف في قسم (الخبرات البشرية) سرت مع صاحبي المدرسي إلى قسم آخر في (أكاديمية العقل المسلم).. كان اسمه (قسم الفيوضات الربانية)، وقد رأيت فيه جموعا كثيرة ترفع أبصارها نحو شيء لا أراه.. سألت المدرسي عنه، فقال: هذا القسم هو أشرف الأقسام وأعلاها وأقدسها.

قلت: ما العقل الذي يحكمه؟

قال: هو فوق العقول.. ولذلك لا تجد العقول إلا التسليم له.

قلت: أهناك شيء فوق العقول؟

قال: أجل.. هناك من الحقائق ما تعجز العقول عن إدراكه، فلذلك تداركها الله بلطفه، وأفاض عليها عبر وسائط هدايته ما يدلها على ذلك.

قلت: مثل ماذا؟

قال: خالق الكون مثلا..

قلت: لكن العقل يدل عليه؟

قال: العقل يدل عليه.. لكنه لا يستطيع أن يعرف به.. وفرق كبير بين أن تؤمن بوجود الشيء، وبين أن تعرفه.

قلت: لم أفهم.

قال: إذا طرق بابك طارق.. قد يعرف عقلك بأن هذا الطارق إنسان عاقل مريد حي..

قلت: ذلك صحيح..

قال: ولكنه يقف عند هذا الحد.. فلا يستطيع أن يعرف من هذا الطارق.. وهل هو صديق أو عدو.. وهل يريد بطرقه أن يكرمك أو يهينك..

قلت: ذلك صحيح أيضا.

قال: فكيف تتعرف عليه؟

قلت: لذلك وسيلتان.. أما إحداهما، فأن أفتح له الباب، فأراه.. وأما الثانية فأن أنصب أجهزة تخبر عنه.

قال: أجهزة وسيطة تعرفك به.

قلت: أجل.. مثل الكاميرات وغيرها.

قال: فقد فعل الله هذا بنا.. لقد أرسل لنا عبر أنبيائه ورسله من يعرفنا به وبحقائق الوجود الكبرى التي تضعف عقولنا عن الوصول إليها.

قلت: لكن ما أسهل الدعاوى في هذا الباب.

قال: وما أسهل أن تميز العقول هذه الدعاوى.

قلت: كيف تميز بينها؟

قال: لقد جعل الله لوسائط هدايته ما يدل عليهم.. فلذلك يسلك العقل معهم مسلك التمحيص والشك إلى أن يتيقن صدقهم.. فإذا تيقن صدقهم استطاع أن يستفيد من المعارف التي لا يمكن أن يصل إليها من غير طريقهم.

قلت: ولكن لم لم تتح هذه المعارف لجميع الناس؟

قال: إذا كان جميع الناس قد عجزت مداركهم عن أبسط الأشياء، فكيف تصل مداركهم المحدودة إلى هذه الأمور الخطيرة؟

قلت: فما يدرس في هذا القسم؟

قال: تدرس الضوابط التي يمكن للعقول أن تستفيد بها من هذه الفيوضات.

قلت: أرى جموعا كثيرة تلتفت حول هذه الفيوضات..

قال: وحق لها.. أرأيت لو أن قادما قدم الأرض من كوكب آخر.. ألا ترى أن الناس سيلتفون حوله يسألونه؟

قلت: بلى.. ذلك صحيح.

قال: فإذا كان هذا القادم يعلم سر الأزل والأبد.. ويعلم ما سيحل بالأرض والكون والإنسان.

قلت: إن الاهتمام بهذا سيشتد.

قال: فلنفرض أن هذا القادم رجل رحــل من الأرض وســار في الكون، ثم جاء بأخباره.

قلت: الأمر لا يختلف.. ونحن نرى البشر يصرفون أموالا كثــيرة لأجل بعض هذا.

قال: فهؤلاء الذين تراهم يلتفــون حــول مصــدر النــور والهدايــة يفعلون هذا.. لقد علموا أن اللــه اختــار رجلا هــو أفضــلهم وأكملهم لينوب عنهم في هذه الرحلة العظيمة التي تعــرف البشــر بحقــائق الوجود.

الإشراقات الروحية:

سرنا إلى قســم آخــر في (أكاديميــة العقــل المســلم).. لســت أدري كيف خطــر على بــالي عنــدما وطئت أول عتبــة هــذا القســم (أفلوطين).. سألت صاحبي المدرسي عنه، فقال: هو كغــيره فقــه أمورا، وغفل عن أمور، أو اختلطت عليه أمور(1).

قلت: فما فقه؟

قال: لقد عرف أن من مدارك العقــول مــدارك خفيــة لا يفطن لها كثير من الناس بسبب كثافتهم.

قلت: فما أخطأ؟

قال: لم يكن للمسكين ما يعصم بــه تلــك المــدارك من الخطــأ الذي يعتري هذا النوع من العقل.

قلت: فهل في الإسلام ما يعصم هذا العقل؟

قال: أجل.. ففي الإسلام تتكامل العقول ولا تتناقض.

قلت: فأين أجد فقه هذا؟

قال: في هذا القسم.. في هذا القسم يلقن الأســاتذة من يريــد هذا النوع من العقل كيفية تحصــيله.. ويعلمــوهم في نفس الــوقت

1() هذا بحسب ما وصل إلينا لا بحسب حقيقــة الحــال، لأن مــا وصــل إلينــا من تــراث المدارس القديمة لا يمكن الجزم بصحته.. فقد يكون التحريف أو الدس قد دخله.

كيفية تحصينه من الخطأ الذي قد يقع فيه.

دخلنا إلى القسم، فرأينا حلقة تربع على عرشها رجل ممتلئ بالأنوار، سألت صاحبي عنه، فقال: هذا رجل من أهل الله، راض نفسه في ذات الله، وقد وهبه الله لذلك من العلوم التي تحار فيها العقول ما لا يمكن إدراكه إلا بالعقل الذي أدرك به.

قلت: وما العقل الذي أدرك به؟

قال: هو لب لباب العقول.. ولا يصل إليه إلا من حصل التقوى التي نص عليها قوله تعالى :﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: من الآية282)

قلت: فما علاقة التقوى بهذا النوع من العقول؟

قال: تعال بنا لنستمع لهذا الرجل المنور بنور الإيمان، فلن تفهم حقيقة هذا العقل، ولا علاقته بالتقوى إلا بالاستماع إليه، والاستفادة منه.

قلت: من هو أولا؟

قال: هو رجال كثيرون، امتلأت بهم هذه الأمة المباركة.. والكثير هنا يسميه (المتوسم)، وبعضهم يسميه (الخضر)

قلت: لم؟

قال: أما المتوسم، فلقوله تعالى :﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (الحجر:75)، وقد ورد في تفسير هذا قوله ﷺ : (إن لله عبادًا يعرفون الناس بالتوسم)(1)

وأما الخضر، فهو رجل آتاه الله من العلم اللدني ما رأى به الحقائق، وقد ذكر الله هذا العلم الذي آتاه، فقال :﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾ (الكهف:65)

---

(1) رواه الطبري والقضاعي في مسند الشهاب والطبراني في المعجم الأوسط، وقال الهيثمي في المجمع (10/268): إسناده حسن.

اقتربنا من الرجل، فسمعناه يقول(1): اعلموا أن القلب مثل المرآة، واللوح المحفوظ مثل المرآة أيضا؛ لأن فيه صورة كل موجود، وإذا قابلت المرآة بمرآة أخرى حلت صور ما في إحداهما في الأخرى، وكذلك تظهر صور ما في اللوح المحفوظ إلى القلب إذا كان فارغا من شهوات الدنيا، فإن كان مشغولا بها كان عالم الملكوت محجوبا عنه، وإن كان في حال النوم فارغا من علائق الحواس طالع جواهر عالم الملكوت؛ فظهر فيه بعض الصور التي في اللوح المحفوظ.

وإذا أغلق باب الحواس كان بعده الخيال؛ لذلك يكون الذي يبصره تحت ستر القشر، وليس كالحق الصريح مكشوفا فإذا مات - أي القلب - بموت صاحبه لم يبق خيال ولا حواس.. وفي ذلك الوقت يبصر بغير وهم وغير خيال، ويقال له :﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (قّ:22)

قال له بعض التلاميذ: فمتى يحجب القلب عن مطالعة عالم الملكوت؟

التفت إليه، وقال: اعلم أنه ما من أحد إلا ويدخل في قلبه الخاطر المستقيم، وبيان الحق على سبيل الإلهام.. وذلك لا يدخل من طريق الحواس، بل يدخل في القلب، لا يعرف من أين جاء؛ لأن القلب من عالم الملكوت، والحواس مخلوقة لهذا العالم (عالم الملك)، فلذلك يكون حجابه عن مطالعة ذلك العالم إذا لم يكن فارغا من شغل الحواس.

قال تلميذ آخر: فمتى يطالع القلب عالم الملكوت؟

التفت إليه مبتسما، وقال: لا تظنن أن هذه الطاقة تنفتح بالنوم والموت فقط، بل تنفتح باليقظة لمن أخلص الجهاد والرياضة، وتخلص من يد الشهوة والغضب والأخلاق القبيحة والأعمال الرديئة.

فإذا جلس في مكان خال، وعطل طريق الحواس، وفتح عين

---

(1) ما نذكره من حقيقة العلم اللدني والاستدلال له مستفاد من مراجع مختلفة للغزالي منها (الإحياء)، و(كيمياء السعادة)، و(معارج القدس في معرفة النفس)

الباطن وسمعه، وجعل القلب في مناسبة عالم الملكوت، وقال دائما : (الله - الله – الله) بقلبه إلى أن يصير لا خير معه من نفسه، ولا من العالم، ويبقى لا يرى شيئا إلا الله سبحانه وتعالى انفتحت تلك الطاقة، وأبصر في اليقظة الذي يبصره في النوم؛ فتظهر له أرواح الملائكة، والأنبياء، والصور الحسنة الجملية، وانكشف له ملكوت السماوات والأرض، ورأى ما لا يمكن شرحه ولا وصفه، كما قال النبي ﷺ : (زويت لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغربها)، وقال الله عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام:75)، لأن علوم الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كلها كانت من هذا الطريق، لا من طريق الحواس، كما قال سبحانه وتعالى :﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ (المزمل:8)، ومعناه: الانقطاع عن كل شيء، وتطهير القلب من كل شيء، والابتهال إليه سبحانه وتعالى بالكلية.

قال له تلميذ آخر: أليس هذا خاصا بالأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ـ

قال: هي في الأصل مختصة بالأنبياء.. ولكن لورثة الأنبياء حظ منها.. ولذلك لا يفتح لهم في هذا الباب إلا ما يؤيد النبوة ويؤكدها..

قال له التلميذ: فكيف نعرف هذه الطريق، ونتأكد من وجودها؟

قال: هذه الطريق لا تفهم إلا بالتجربة، وإن لم تحصل بالذوق لم تحصل بالتعليم.. والواجب التصديق بها حتى لا تحرم منها.. ومن لم يبصر لم يصدق، كما قال سبحانه وتعالى :﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (يونس:39)، وقال :﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ)(الاحقاف: من الآية11)

قال تلميذ آخر: ألا يمكن أن تبسط لنا هذا حتى نفهمه أولا.

التفت إليه، وقال: اعلم أن العلوم التي ليست ضرورية - وإنما تحصل في القلب في بعض الأحول - تختلف الحال في حصولها، فتارة تهجم على القلب كأنه ألقى فيه من حيث لا يدري، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم.

فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسـمى إلهامـاً، والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتباراً واستبصاراً.

ثم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقســم إلى ما يدري العبد أنـه كيـف حصـل لـه ومن أين حصـل، وإلى مـا يطلع معه على السبب الذي منه استفاد ذلك العلم وهـو مشـاهدة الملك الملقى في القلب.

أما الأول، فيسمى إلهاماً ونفثاً في الروع.. وأما الثاني، فيسمى وحيــاً، ولا يختص بــه إلا الأنبيــاء.. بينمــا يختص بــالأول الأوليــاء والأصفياء.. والذي قبله - وهو المكتسب بطريق الاستدلال - يختص به العلماء.

قـال التلميـذ: ألا يمكن أن تفـرق لنـا بين منهج الأوليـاء ومنهج العلماء بمثال محسوس؟

التفت إليه، وقال: سأضرب لك مثالين قد يقربان لك هذا:

أما أولهما، فهو: أنه لو فرضنا حوضاً محفـوراً في الأرض، فإنــه يحتمل أن يساق الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه، ويحتمل أن يحفــر أسفل الحوض ويرفع منه التراب إلى أن يقرب من مسـتقر المـاء الصافي، فينفجر الماء من أسفل الحوض ويكون ذلك الماء أصـفى وأدوم، وقد يكون أغزر وأكثر.. فـذلك القلب مثـل الحـوض، والعلم مثل الماء، وتكون الحـواس الخمس مثـال الأنهـار.. وقـد يمكن أن تســاق العلــوم إلى القلب بواســطة أنهــار الحــواس والاعتبــار بالمشاهدات حتى يمتلئ علماً، ويمكن أن تسد هذه الأنهار بـالخلوة والعزلـة وغض البصـر، ويعمـد إلى عمـق القلب بتطهـيره ورفـع طبقات الحجب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله.

قال التلميذ: فكيف يتفجر العلم من ذات القلب وهو خال عنه؟

قال: كما أن المهندس يصور أبنية الدار في بيـاض، ثم يخرجهـا إلى الوجـود على وفـق تلـك النسـخة، فكـذلك فـاطر السـموات والأرض كتب نسخة العالم من أوله إلى آخره في اللوح المحفوظ، ثم أخرج إلى الوجود على وفق تلك النسـخة، والعـالم الـذي خـرج إلى الوجود بصورته تتأدى منـه صـورة أخـرى إلى الحس والخيـال،

فـإن من ينظـر إلى السـماء والأرض ثم يغض بصـره يـرى صـورة السـماء والأرض في خيالـه حـتى كأنـه ينظـر إليهـا، ولـو انعـدمت السماء والأرض وبقي هو في نفسه لوجد صـورة السـماء والأرض في نفسه كأنه يشاهدهما وينظر إليهما، ثم يتأدى من خياله أثر إلى القلب فيحصل فيه حقائق الأشياء التي دخلت في الحس والخيال. والحاصل في القلب موافق للعالم الحاصل في الخيـال، والحاصـل في الخيـال موافـق للعـالم الموجـود في نفسـه خارجـاً من خيـال الإنسان وقلبـه، والعـالم الموجـود موافـق للنسـخة الموجـودة في اللوح المحفوظ.

فكـأن للعـالم أربـع درجـات في الوجـود: وجـود في اللـوح المحفـوظ وهـو سـابق على وجـوده الجسـماني، ويتبعـه وجـوده الحقيقي، ويتبع وجوده الحقيقي وجوده الخيالي - أي وجود صـورته في الخيال - ويبتع وجوده الخيال وجوده العقلي - أي وجود صـورته في القلب - وبعض هـذه الوجـودات روحانيـة وبعضـها جسـمانية، والروحانية بعضها أشد روحانية من البعض.

وهذا اللطف من الحكمـة الإلهيـة، إذ جعـل حـدقتك على صـغر حجمها بحيث تنطبع صورة العالم والسـموات والأرض على اتسـاع أكنافها فيها، ثم يسري من وجودهـا في الحس وجـود إلى الخيـال، ثم منه وجود في القلب فإنك أبداً لا تدرك إلا مـا هـو واصـل إليـك، فلو لم يجعل للعالم كله مثالاً في ذاتك لما كان لك خبر ممـا يبـاين ذاتـك، فسـبحان من دبـر هـذه العجـائب في القلـوب والأبصـار ثم أعمى عن دركها القلوب والأبصار، حتى صارت قلوب أكـثر الخلـق جاهلة بأنفسها وبعجائبها.

قال التلميذ: وعينا هذا.. فاذكر لنا المثال الثاني.

قال: المثال الثاني يتجلى من خلال هذه الحكاية.. فقد روي أن أهـل الصـين وأهـل الـروم تبـاهوا بين يـدي بعض الملـوك بحسـن صناعة النقش والصـور، فاسـتقر رأي الملـك على أن يسـلم إليهم صفة لينقش أهل الصين منها جانباً وأهل الروم جانبياً ويرخى بينهم حجاب يمنع اطلاع كل فريق على الآخـر ففعـل ذلـك، فجمـع أهـل الروم من الأصباغ الغريبة ما لا ينحصر، ودخل أهل الصين من غـير صبغ وأقبلوا يجلون جانبهم ويصقلونه، فلما فرغ أهـل الـروم ادعى

أهل الصين أنهم فرغوا أيضاً فعجب الملك من قـولهم وأنهم كيـف فرغـوا من النقش من غـير صـبغ؟ فقيـل: وكيـف فـرغتم من غـير صبغ! فقالوا: ما عليكم ارفعوا الحجاب، فرفعـوا وإذا بجـانبهم يتلألأ منه عجائب الصنائع الرومية مع زيادة إشـراق وبريـق، إذ قـد صـار كـالمرآة المجلـوة لكـثرة التصـقيل فـازداد حسـن جـانبهم بمزيـد التقصيل.

فكذلك عنايـة الأوليـاء بتطهـير القلب وجلائـه وتزكيتـه وصـفائه حتى يتلألأ فيه جلية الحق بنهاية الإشراق كفعل أهل الصين، وعناية الحكماء والعلمـاء بالاكتسـاب ونقش العلـوم وتحصـيل نقشـها في القلب كفعل أهل الروم.

قال تلميذ آخر: كـل مـا ذكرتـه نجـد من نفوسـنا قبولـه.. ولكن الاعتراض الذي قد يوجه لكل ذلك هو أن الأمـر لـو كـان كمـا ذكـر الأولياء لاستوى النـاس في التعـرف على الحقـائق.. ذلـك أن لكـل إنسان المرآة التي يبصر بها الحقائق.

التفت إليه، وقـال: إن هـذا يسـتدعي البحث عن الحجب الـتي تحول بين مرائي الناس والحقائق.. وإدراك ذلك بسيط لا يستدعي إلا التأمـل في سـر عـدم انكشـاف الأشـياء للمـرآة الحسـية مـع وجودها، ووجـود الأشـياء حولهـا.. فـأخبرني عمـا تـراه من أسـباب ذلك.

قال التلميذ: لقد بحثت في هذا.. ووجدت أن المرآة لا تنكشـف فيها الصورة لخمسة أمور.. أحدها نقصان صـورتها كجـوهر الحديـد قبل أن يدور ويشكل ويصقل.. والثاني لخبثه وصدئه وكدورتـه وإن كان تام الشكل.. والثالث لكونه معـدولاً بـه عن جهـة الصـورة إلى غيرها كما إذا كانت الصورة وراء المرآة.. والرابـع لحجـاب مرسـل بين المرآة والصورة.. والخامس للجهل بالجهة الـتي فيهـا الصـورة المطلوبة حتى يتعذر بسببه أن يحاذى بها شطر الصورة وجهتها.

قال: فهكذا مـرآة القلب.. فهي تحجب عن الحقـائق بالأسـباب الخمسة التي ذكرتها..

أما أولها، فهو نقصانها في ذاتها كقلب الصبي فإنه لا ينجلى لـه المعلومات لنقصانه.

وأما الثاني، فلكدورة المعاصي والخبث الذي يتراكم على وجـه القلب من كـثرة الشـهوات، فـإن ذلـك يمنـع صـفاء القلب وجلاءه فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وتراكمه.

وأما الثالث، فأن يكون معدولاً به عن جهـة الحقيقـة المطلوبـة فإن قلب المطيع الصالح وإن كان صافياً فإنه ليس يتضح فيه جليـة الحق لأنه ليس يطلب الحق وليس محاذياً بمرآته شطر المطلوب. بل يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية أو بتهيئة أسـباب المعيشـــة ولا يصـــرف فكـــره إلى التأمـــل في حضـــرة الربوبيـــة والحقائق الخفية الإلهية، فلا ينكشف له إلا مـا هـو متفكـر فيـه من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس إن كان متفكـراً فيهـا، أو مصالح المعيشة إن كان متفكرا فيها. وإذا كان تقييد الهم بالأعمـال وتفصيل الطاعات مانعاً عن انكشاف جليه الحـق فمـا ظنـك فيمن صرف الهم إلى الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلائقهـا فكيـف لا يمنـع عن الكشف الحقيقي؟.

وأما الرابع، فالحجاب.. فإن المطيـع القـاهر لشـهواته المتجـرد الفكر في حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوبـاً عنه باعتقاد سبق إليه منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن، فـإن ذلـك يحـول بينـه وبين حقيقـة الحـق ويمنـع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليـد.. وهـذا حجـاب عظيم به حجب أكـثر المتكلمين والمتعصـبين للمـذاهب، بـل أكـثر الصـــالحين المتفكـــرين في ملكـــوت الســـموات والأرض لأنهم محجوبون باعتقـادات تقليديـة جمـدت في نفوسـهم ورسـخت في قلوبهم وصارت حجاباً بينهم وبين درك الحقيقة.

وأمـا الخـامس، فالجهـل بالجهـة الـتي يقـع منهـا العثـور على المطلوب، فإن طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول إلا بالتذكر للعلوم التي تناسب مطلوبه حتى إذا تـذكرها ورتبهـا في نفسه ترتيباً مخصوصاً يعرفـه العلمـاء بطـرق الاعتبـار، فعنـد ذلـك يكون قد عثر على جهة المطلوب فتنجلى حقيقة المطلوب لقلبـه، فـإن العلـوم المطلوبـة الـتي ليسـت فطريـة لا تقتنص إلا بشـبكة العلوم الحاصلة، بل كل علم لا يحصل إلا من علمين سابقين يأتلفا ويزدوجان على وجه الخصوص فيحصل من ازدواجهما علم ثالث.

التفت إلى التلميذ، وقال: هذه هي الأسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الأمور.. وإلا فكل قلب فهو بالفطرة صـالح لمعرفـة الحقائق لأنه أمر ربـاني شـريف فـارق سـائر جـواهر العـالم بهـذه الخاصية والشرف.

***

في نهاية هـذه القاعـة وجـدنا شـرطة تحمـل بعض النـاس إلى سجونها، فسألت المدرسي عنه، فقال: هؤلاء قوم استغلوا قدرات العقل.. فراحوا يستعملونها في غير ما خلقت له..

قلت: ولكن لم يسجنون؟

قال: هم أولى بالسجن من اللصوص.

قلت: كيف ذلك؟

قال: أرأيت لو أن رجلا جاء لصبي صغير صاحب فطرة سـليمة وراح يعلمه فنون التلصص.. على من تقع تبعة سرقة الصبي؟

قلت: لاشك أنها تقع على معلمه.

قال: فهكذا الأمر مع من يحتال للعقول ويحتال عليها.

***

سألنا صـاحبنا عن سـر فراقـه لصـاحبه المدرسـي، ولأكاديميـة العقــل المســلم، فقــال: في ذلــك اليــوم الــذي أزحت فيــه كــل الكدورات التي تحول بيني وبين الإسلام.. جئت إلى أكاديمية العقل المسلم فوجدتها مغلقـة، فسـألت عنهـا، وعن أسـاتذتها، فـأخبرني بعض الثقات أنهم ساروا إلى هذه البلاد ليدرؤوا الفتنة التي تريد أن تستأصل الإسلام والمسلمين.

وقد حضرت إلى هذه البلاد بمجرد أن سـمعت ذلـك.. وهـا أنتم ترون المصير الذي صرنا إليه.

رابعا ـ النفس

في اليوم الرابع، قام رجل منا، وقال: سأحدثكم اليوم أنا عن حديثي.. لا لتتألموا ببعض ما أصابني من آلام.. ولكن لتعلموا من نحن.. وما هي النفوس التي كنا نهتدي بهديها، ونتحرك تحت أوامرها، ونصارع كل شيء من أجل تلبية شهواتها.

لقد كان اسمي في تلك الأيام (سارتر)(1) لا شك أنكم تعرفونه.. إنه اسم ذلك الرجل الذي ارتبط بما يسمونها (الوجودية) (2).. نعم.. هي تلك التي تختصر الوجود في الإنسان.. وأحيانا كثيرة في شهوات الإنسان.

كنت كما كان سائر أساتذتي: (سُورِين كيركيجارد) ذلك الفيلسوف الدنماركي اللاهوتي البروتستانتي الذي يُعدّه أصحابنا مؤسس حركتنا، و(فريدريك نيتشه)، الذي لا شك أنكم تعرفونه، ذلك الذي صاح بموت الإله.

وكنت كما كان سائر أصدقائي من المفكرين الوجوديين كألبير كامو، وجابرييل مارسيل، وكارل ياسبر، ومارتين هايدجر، ونيقولاس بيردييف، ومارتن بوبر.

1() أشير به إلى (جان بول سار تر) ولد عام (1905م) ومارس التدريس في (الهافر) ثم في المعهد الفرنسي بـ (برلين)، واعتقل عام (1940) ولبث سنة كاملة في السجن، ثم تخلى عن مهنة التدريس وقد تأثر في فلسفته بمؤلفات (هوسرل) و(هيجدر) .. وقد كان شيوعياً في ابتداء أمره، ثم عدل عن ذلك إلى (الوجودية) التي تزعمها، وصار على طرفي نقيض مع الشيوعية، ولذا كل من الفريقين يحارب الآخر ويهاجمه أشد مهاجمة، لكنه كان يعتقد بأن المستقبل للاشتراكية، لأن ظروفها باقية، ولسارتر مكان خاص في (باريس) يرتاده مريدوه، ولهم أشكال غريبة وهيئات خاصة من حيث الملبس وغيره، ولسارتر آراء خاصة حول (الكون) و(الإنسان) و(النظام) و(الأخلاق) وغيرها، وكثيراً ما يميل إلى صب آرائه في القوالب القصصية، مما يجعل فهم آرائه أصعب، والوجودية ليست مبدءاً اخترعه هو بل كانت من ذي قبل وإنما نفخ فيها وجعل لها قوالب جديدة. (انظر: الموسوعة العربية العالمية.. وغيرها)

2()الوجودية: حركة فلسفية ظهرت في أوروبا أثناء القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين. وسميت الوجودية لأن معظم أعضائها اهتموا مبدئيًا بطبيعة الوجود أو الكينونة، فقصدوا بمصطلح الوجود الوجود البشري.

وقد نشأت الوجودية من جهود اثنين من مفكري القرن التاسع عشر هما سُورِين كيركيجارد، الفيلسوف الدنماركي اللاهوتي البروتستانتي الذي يُعدّ مؤسس الحركة، وفريدريك نيتشه، الفيلسوف الألماني. (انظر: الموسوعة العربية العالمية.. وغيرها)

كنت كهؤلاء جميعا أصيح في داخلي بموت الإله، وكل القيم، وكل المبادئ، وكل الأخلاق.. وكل ما يمنع النفس الممتلئة بالشهوات، ويقف في طريقها.

لقد كنت كمن امتلأت بطنه، فراحت تزاحم دماغه وقلبه.. وتريد أن تحرمهما من الوجود..

هكذا كنت.. وهذه هي صورتي الكاريكاتورية.. أو هي صورتي الحقيقية.. فأنا لم أكن إلا بطنا مليئا بأصناف اللعب والشهوات..

نعم.. أنا ذلك الرجل.. وتلك هي حقيقتي.. ولكني لن أحدثكم عن نفسي.. فلا شك أنكم تعرفون الكثير عني.. أنا أريد أن أحدثكم عن سر رحلتي إلى هذه البلاد.

لعلكم لا تصدقون أنني ـ أنا سارتر ـ جئت إلى هذه البلاد بحثا عن المحاسبي(1).. لقد وجدت في المحاسبي الماء الذي كنت أبحث عنه.. أو كانت نفسي وجميع لطائفي تبحث عنه..

قلنا: فمن أين تبدأ قصتك؟

قال: بعد أن تشربت كل تلك المبادئ، وامتلأ عقلي بذلك التمرد الذي أوحته إليه نفسي، قررت أن أصير أستاذا لألقن الأجيال ما كنت قد لقنته، واقتنعت به، وسرت حياتي جميعا على هديه.

لقد كنت أصيح في تلاميذي بكل صوتي: ليس الوجود إلا أنتم.. ولولا أنتم لما كان هناك أي وجود.

وكنت أقول لهم: الإِنسان أقدم شيء في الوجود.. وما قبله كان عدماً.. وما بعده سيكون عدما..

وكنت أقول لهم: لقد عجزت كل الأديان والنظريات الفلسفية أن تحل مشكلة الإِنسان.. لأنها كانت تبحث عن اللاإنسان.

وكنت أقول لهم: أعيدوا الكلي لذواتكم بكل حرية.. فلا يحق

---

(1) أشير به إلى المحاسبي، وهي الشخصية التي جعلناها مقابلة لسارتر في هذا الفصل، وسنترجم لها عند الحديث عنها.

لأحد مهما كان ـ حتى لو كان الله نفسه لو فرضنا وجوده(2) ـــ أن يتحكم فيكم.

وكنت أقــول لهم: أثبتــوا وجــودكم كمــا تشــاءون، وبــأي وجــه تريدون، دون أن تراعوا أي قيد، مهما كان ذلك القيد.. فالقيد ليس إلا قيدا.

وكنت أقول لهم: اطرحوا عنكم جلابيب الماضي.. وتنكروا لكل القيود.. دينية كانت أم اجتماعية أم فلسفية أم منطقيــة.. فلا ينبغي أن تؤمنوا بوجود قيم ثابتة توجه سلوك الناس وتضـبطه.. إنمـا كـل إنسان يفعل ما يريد، وليس لأحد أن يفــرض قيمــاً أو أخلاقــاً معينــة على الآخرين.

وكنت أقــول لكــل من يجــادل من تلاميــذي فيمــا أطرحــه من أفكار: انطلــق أيهــا الأحمــق الغــبي في عمــل مــا تريــد أو تشــتهي وتهوى، مهما كان ذلك في اعتبار الناس شراً، دون أن يكــون لأحــد عليك سلطان، فأنت الذي تصنع فكرة الخير حسب مزاجـك، وأنت الذي تصـنع فكــرة الشــر، وأنت الــذي تخلــق فكــرة الحــق وفكــرة الباطل، وأنت الذي تخلق فكرة الحسن وفكرة القبيح.

كنت أقول لهم هذا وغير هــذا.. إلى أن امتلأوا بهــذه الخرافــات التي ملأت العالم صراعا.

قلنا: فما كانت نتيجة هذه الدروس التي لقنتها لتلاميذك؟

قال: سأذكر لكم بعض المآسي التي رأيتها في تلاميــذي.. وقــد كانت هي السبب الــذي جــرني إلى الانتحــار.. ولــولا أن قيض اللــه المحاسبي لإنقاذي لكنت الآن في عداد الموتى.

2() تنقســم الوجوديــة من حيث موقفهــا من الــدين إلى قســمين: (وجوديــة) ملحــدة، و(وجوديــة مســيحية).. واللاهوتيــون من الوجــوديين لا يحــاولون أن يؤسســوا الــدين على الأدلــة العقليــة. فالمعتقــد الــديني في رأيهم ليس مشــكلة تتطلب إثباتًــا أو رفضًــا، ولكن تتطلب قرارًا، مثل جميع القرارات البشرية الأخرى، يجب أن تتخذ بحرية كاملــة بوســاطة كــل فــرد في غيــاب الــدليل المقنــع. وينبــع اهتمــام الوجــودي بالــدين من اهتمــام مبــدئي بالتجربة البشرية الدينية. (انظر: الموسوعة العربية العالمية.. وغيرها)

الصراع

قال ذلك، ثم غرق في صمت عميق.. لم نشأ أن نفسده عليه.. قال بعده: لقد كنت أسير مرة في بعض بلادنا.. وهناك رأيت تلميذا من تلاميذي يخاصم امرأة يظهر عليها الفقر والحاجة مخاصمة شديدة، ثم يستولي على ما بقي لها من مال، بل يطلب منها بعد ذلك أن تمضي له على بعض الأوراق..

وقد أثر في ذلك المنظر، فأسرعت إلى ذلك التلميذ الذي ما إن رآني حتى أسرع إلي يصافحني بكل حرارة، وكأنه لم يحصل منه أمام عيني ما حصل من القسوة والشدة.

سألته: ما خبر هذه المرأة، وما علاقتك بها.. أراك تخاصمها بشدة؟

قال: لا.. بل هي التي تخاصمني بشدة.. لقد كنت أقرضتها قبل فترة بعض المال.. بفائدة كما تعلم.. وأنا الآن آتي كل حين لآخذ منها من الفوائد ما استحققته عليها.. وهي دون الناس تماطلني كل حين.. وتتعامل معي كما رأيت.

قلت: ألا ترى حالها.. إن حالها على ما يبدو شديد؟

قال: لا يهمني حالها.. يمكنها أن تعمل أشياء كثيرة لتسدد ما عليها من حقوق.

قلت: ولكني أعلم أنك سليل أسرة غنية!؟

قال: أجل.. ولولا ذلك ما كان لي هذا المال الذي أقرضته إياها كما أقرضت غيرها.

قلت: ألا يمكن أن تسامحها فيما وجب عليها من حقك؟

قال: مقابل ماذا؟

قلت: ما تقصد؟

قال: لقد تعلمنا في مدرستك أن لا نعطي من غير أن نأخذ.. فما الذي تريدني أن آخذ منها؟

لم أجد مـا أجيبـه بـه.. فقـال: أنت تعلم ــ يـا أسـتاذ ــ أني من تلاميذك النجباء.. وأنا ممنون لك بثروة كبـيرة من المـال كنت أنت سببها.. بل لولاك لضاعت مني الثروة التي ورثتها.

قلت: كيف؟

قال: لقد كنت صاحب قلب رقيق.. وقد تعلمت منك أن الرقـة لا تتناسب مع الاقتصاد.. فلذلك تخلصت منها كما يتخلص المرء من الداء القاتل.. وكان تخلصي منها بركة على مالي، فقد نما كما نمـا مال قومي..

***

في ذلك المساء قدر الله أن أشغل التلفـاز، لأتفـرج على قنـاة من قنواتنا المحترمة المختصة بالأخبار، وقد فـوجئت إذ رأيت نفس ذلك التلميذ يصرف أموالا ضخمة على مشاريع سـمتها تلـك القنـاة (مشاريع خيرية).. لقد امتلأت من العجب من ذلك الخـبر.. ولكـني عجبي زال عندما رأيته يظهر على التلفاز، وهو ممتلئ فخرا وكـبرا ورياء ليعرف بنفسه، وبشركاته وخدماته التي يقدمها للبشرية.

***

في يـوم آخـر رأيت إعلانـا بـأن بعض تلاميـذي يريـد أن يقـدم محاضرة في بعض النوادي العلمية، فسرني ذلك، وأسرعت أحجـز لي مكانـا في قاعـة المحاضـرات.. وقـد فـوجئت بـأن موضـوع المحاضرة كـان حـول مـا يطلـق عليـه قومنـا (الجنسـية المثليـة)، ويريدون به الميل الجنسي إلى الجنس المماثل.

وقد أطنب هذا التلميـذ في مـبررات هـذا النـوع من الانحـراف حتى اعتبره الأصل والفطرة التي لا تستقيم الحياة إلا بمراعاتها.

بعد انتهاء المحاضرة دعينا إلى احتفال في ذلك النادي العلمي، وقد ملأني ذلك الحفل بالتقزز والغثـاء.. فقـد رأيت فيـه من ألـوان البهيمية والشذوذ ما تنفر منه النفوس.

لست أدري كيف خطـر على بـالي أن أقـترب من جماعـة من ضيوف ذلك الحفل ممن كان يبدو عليهم الوقار.. ومما سمعته من

حديثهم:

قـال أحـدهم: من العجب أن أولئـك الهمجـيين من المسـلمين ينكرون علينا هذا السلوك ويعتبروننا منحرفين عن الفطرة.

قال آخر: عن أي فطرة يتحدثون؟.. هل اطلعـوا على البرنـامج الذي جبل عليه كل البشر حتى يمكنهم ادعـاء مثـل هـذه الـدعاوى العريضة؟

قال آخر: لعلهم لم يسمعوا ما ذكر سيدنا فرويـد من أن الفـرد يمــر بمرحلــتين: الأولى حب نفس الجنس، والثانيــة حب الجنس الآخر أو المغـاير.. وقـد ذكـر أن مكونـات حب الجنس الآخـر لـدى المثلي تكـون ضـعيفة مقارنـة بمكونـات حب نفس الجنس القويـة لديه مما يدفعه إلى الانسجام وممارسة الحب مع نفس الجنس.

قال آخر: ولعلهم لم يسمعوا بأن بعض علمائنـا الكبـار اكتشـف أن دماغ الرجـال المثلـيين تكـون المنطقـة الأماميـة فيـه أكـبر من مثيلتها في الرجال غير المثلـيين، وهـذا قـد يكـون ناتجـاً عن زيـادة هرمون الذكورة في دم الأم في فترة الحمل.

قال آخر: بما أن القرد الشمبانزي أقرب الحيوانات من الناحيـة البيولوجيـة للإنسـان ويشـترك معـه في 98% من الجينـات، فقـد أجرى العلماء تجاربهم على الشـمبانزي واكتشـفوا أن الشـمبانزي (بونوبـوس) ينشـغل في بعض الأحيـان بسـلوك جنسـي مثلي بين الذكور، ربمـا لتوطيـد الانتمـاءات الفريقيـة، أي ليكـوّن عـدة ذكـور فريقاً واحداً ضد الذكور الآخرين.

واكتشفوا ـ أيضا ـ بأن هناك نسـبة بسـيطة من الخـراف تكـون مثلية مائة بالمائة ولا تقترب من النعاج أبداً.

ولهذا، فإن الشذوذ الجنسي ليس منبعثاً عن ظروف اجتماعية، لأن الشمبانزي والخراف تتصرف حسـب الطبيعـة ولا تتحكم فيهـا الموانع الاجتماعية مثل الإنسـان. وإذا كـان هـذا صـحيحاً فلا بـد أن يكون الشذوذ الجنسي موروثاً عن طريق الجينات.

قالوا ذلك.. ثم انصرفوا ببهيمية للشـهوات الشـاذة الـتي ظلت

الأجيال تلعنها..

***

في يوم آخر سرت إلى عيادة للأمراض النفسية.. وهنـاك رأيت امرأة في العشرينات من عمرها كانت في يـوم من الأيـام تلميـذة من تلميذاتي(1)..

اقتربت منها، فوجدت حالتها في غاية الانهيار.. انتظرت إلى أن تحسـنت حالهـا، ثم رحت أسـألها عن سـر مـا أصـابها.. فأجـابت ؛ والدموع تنهمر من عينيها، قـالت : مشـكلتي الوحيـدة أنـني أعيش بقلــق واضــطراب، ولا أدري مــتى سينفصــل عــني صــديقي، ولا أسـتطيع مطالبتـه بـالزواج مـني، لأني أخشـى من موقـف يتخـذه، ونُصحتُ بالعمل على إنجاب طفل منه، لعل هذا الطفل يرغبـه في الزواج.. لكنه لم يفعل..

قـالت ذلـك، ثم أخـذت تصـيح بهسـتيرية: هـا أنت تـراني.. لا ينقصني الجمال.. ولا المال.. ومع هذا وذاك فأنا أبذل كل السـبل ؛ من تقديم خدمات.. وإنفاق أموال.. ومع ذلـك لم أنجح في إقناعـه بالزواج..

التفتت إلي، وقالت: هـذا سـر مرضـي، وسـبب قهـري.. إنـني أشـعر بـأنني وحـدي في هـذا المجتمـع، فليس لي زوج يسـاعدني على أعباء الحياة، ولي أهل ولكن وجودهم وعدمهم سواء، وليتــني بقيت بدون طفل لأنني لا أريد أن يتعذب ويشـقى في هـذه الحيـاة كما تعذبت وشقيت..

***

في يوم آخر مررت على مركز من مراكز الأمن.. وهنـاك رأيت الكثير من تلاميذي يساقون بشدة من طرف بعض الشرطة(2)..

1()انظر : مشاهداتي في بريطانيا: د. عبد الله الخاطر، ص 10.

2() استفدنا من الدراسات والإحصـائيات الـواردة في هـذه الفقـرة من مقـال طويـل بعنوان (ظلم المرأة في ظل الحضارة الغربية)، موقع إسلاميات.

لم ألتفت إلى في البدايــة لــذلك.. فقــد كــان هــذا من الأمــور العاديـــة.. لكن بعض تلاميـــذي راح يصـــيح بقـــوة في الشـــرطة: أســرعوا.. وخـذوا ذلـك الرجـل.. فإنـه رئيس عصـابتنا.. إنـه قائـدنا الروحي الذي استلهمنا منه جميع ما سلكناه من سلوك.

أسرعت الشرطة إلي، واقتادتني معهم..

حاولت بكل الطرق أن أتملص من أيديهم.. فلم أستطع..

استدعيت محامي الخاص.. فجاء.. ومعه دفـاتير القـوانين الـتي تتيح له أن يخلصني من القيود التي يريد تلاميذي أن يغلوني بها.

جلس المحامي مع المحقق، ورحت أسمع من حديثهما ما ندى له جبيني:

قال المحامي: بأي قانون سقتم موكلي مع المجرمين.

قال المحقق: نحن نبحث منـذ فـترة عن عصـابة خطـيرة ليس لهـــا من دور إلا انتهـــاك الأعـــراض.. فهي تتحـــرش بالنســـاء.. وتغتصبهن.. وتبيعهن.

لقد كشف مسح استطلاعي أعدتــه وزارة الداخليــة البريطانيــة أن 80 بالمائة من ضابطات الشرطة، أي بنسبة أربعة إلى خمسة، يتعرضن للمضايقات خلال نوبات العمل الرسمية.

لقد شارك في الاستطلاع 1800 ضـابطة في عشـر مـديريات أمن في إنكلترا وويلـز، وأشـرفت عليـه الـدكتورة (جـنيفر بـروان) وهي باحثـــة اجتماعيـــة في الوحـــدة الملحقـــة في مديريـــة أمن (نيوهامبشاير)

ألا ترى ـ حضرة المحامي ـ أنها نسـبة مفزعـة؟.. تصـور أربعـة أخمــاس الشــرطيات ـــ عفــوا ضــابطات الشــرطة ـــ يتعرضــن للمضايقات.. ومتى ؟ خلال نوبـات العمـل الرسـمية.. خلال العمـل على حفظ الأمن(1)!

قال المحامي: ولكن..

1() جريدة الشرق الأوسط عدد: (5170)

قاطعه المحقق بقوة قائلا: هذا في حق حاميات الأمن.. أما في حـق السـاهرات على مصـلحة المرضـى فهنـاك أفعـال ينـدى لهـا الجبين.

لقد أشارت دراسة صدرت عن جمعيـة علم النفس البريطانيـة إلى أن 60 بالمائة من الممرضات اللاتي تم اسـتطلاع آرائهن قـد عانين من التحرش من مرضاهن الرجال.

وقد دعت الباحثة النفسية البريطانية سارة فينـيز خلال مـؤتمر لجمعية علم النفس البريطانية عقد في لنـدن إلى ضـرورة صـياغة توجيهات ولوائح داخلية تلـزم الممرضـة بـالإبلاغ عن جميـع حـالات التحرش الجنسي التي تعاني منها خلال العمل، على أمل أن يؤدي ذلك إلى الحد من تلك الظاهرة المسيئة لمهنة التمريض ومــؤامرة الصمت التي تحيط بها.

وقد أشـارت الدراسـة إلى أن الرجـال (المرضـى) لا يتورعـون عن الإتيــان بأفعــال ينــدى لهــا الجــبين خلال قيــام الممرضــات بمساعدتهم (1)..

التفت إلي، وقـــال: انظـــر.. لا اقـــتراب المـــوت، ولا أجـــواء المستشفى ؛ ولا كل تلـك القـوانين الصـارمة اسـتطاعت أن تمنـع هؤلاء المرضى من القيام بتلـك الأفعـال الـتي وصـفتها الدراسـة بـ (يندى لها الجبين)

نظـر إلى المحـامي، وقـال: ليس التحـرش وحـده هـو الـذي تتعرض له نساؤنا المسكينات من أصحاب النفوس الشرهة.

هناك ما هو أخطر من ذلك.. هناك الاغتصاب..

لقد أعلن مركز الضـحايا الوطـني الـذي يناصـر حقـوق ضـحايا جرائم العنف أن معدل الاغتصاب في الولايات المتحدة أصـبح يبلـغ 1.3 امـرأة بالغـة في الدقيقـة الواحـدة ؛ أي 68000 امـرأة في العام.

وأضاف المركز أن واحدة من كل ثمـاني بالغـات في الولايـات

---

(1) الوطن الكويتية العدد (5711)

المتحدة تعرضت للاغتصاب ليكون إجمالي من اغتصبن اثني عشر مليونا ومائة ألف امرأة على الأقل.

ويشير المسح إلى أن 61 بالمائة من حالات الاغتصاب تمت لفتيات تقل أعمارهن عن 18 عاماً، وأن 29 بالمائة من كل حالات الاغتصاب تمت ضد أطفال تقل أعمارهم عن 11 عاما.

وأظهرت الأرقام زيادة معدل الاغتصاب عن العام الذي سبقه بنسبة 59 بالمائة(1).

وتقول دراسة أمريكية: إن جرائم الاغتصاب شأن هجمات واعتداءات الغرباء، تنخفض خلال الشتاء ؛ لأن الناس لا يخرجون كثيراً.. وبالتالي فإن فرص الالتقاء تكون أقل.

قال المحامي: لكن..

قاطعه المحقق، وقال: ليس ذلك فقط.. هناك ما هو أخطر من ذلك.. هناك استغلال المرأة في التجارة الجسدية..

لقد استغلت المرأة جسدياً حتى ظهر ما يسمى بتجارة الرقيق الأبيض.. وقد بلغت أرباحها بالملايين.

قبل أيام ألقت الشرطة التشيكية القبض على أربعة رجال وامرأة كانوا يشكلون عصابة لاستدراج الفتيات التشيكيات إلى الغرب عن طريق وعدهن بالعمل في الغناء والرقص في النوادي الليلية مقابل رواتب مغرية فيما كان الهدف من ذلك إجبارهن على ممارسة الدعارة أو المشاركة في تمثيل أفلام جنسية.

وذكرت بلانكا كوسينوفا المتحدثة الصحافية باسم رئاسة الشرطة التشيكية أن العصابة استدرجت 25 فتاة تشيكية، وأن أحد أفرادها أجنبي من دولة من جنوب شرق أوروبا غير أنه انتحر قبل إلقاء الشرطة القبض عليه، أما زعيم العصابة فألقت الإنتربول القبض عليه في برشلونه وسيسلم إلى القضاء التشيكي لاحقا.

---

(1) جريدة صوت الكويت العدد 542.

ورغم هذا النجاح للشرطة التشيكية إلا أن ظـاهرة اسـتدراج أو تصـدير الفتيـات من تشـيكيا ومن دول أوروبـا الشـرقية الأخـرى بمختلف الأساليب لا تزال تعتبر من الظواهر المقلقة الـتي تعيشـها هذه الدول منذ سقوط الأنظمة الشيوعية فيها، وما أعقب ذلك من تراجع مسـتويات المعيشـة وسـهولة الانتقـال عـبر الحـدود واللهث وراء المال بأي ثمن كان.

ويؤكد تقرير حديث لمنظمة الهجرة الدولية أنه يجري سنويا بيع نصف مليون امرأة إلى شـبكات الـدعارة في العـالم، وأن النسـاء من دول أوروبا الشـرقية يشـكلن ثلـثي هـذا العـدد، أمـا أعمـارهن فتتراوح بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين

وتعـترف منظمـة الشـرطة الأوروبيـة (أوروبـول) بـأن تجـارة الرقيق الأبيض منظمة بشكل جيد.. أما المنظمـات غـير الحكوميـة المهتمة بهذه المسألة وبعض الأجهزة الأمنيـة في أوروبـا الشـرقية فتؤكد أن الكثير من النسـاء يقعن في فخ الاسـتدراج الـذي يجـري عادة عن طريق نشر إعلانات مكثفة في مختلف الصحف في دول أوروبا الشرقية عن الحاجة إلى مربيات أو نادلات في المطـاعم أو مغنيـات أو راقصـات أو عارضـات أزيـاء للعمـل في الغـرب أو في بعض الدول البلقانيـة بعـروض مغريـة.. وبعـد وصـول الفتيـات إلى (أماكن العمل) تصـادر جـوازات سـفرهن ويحتجـزن لعـدة أسـابيع يتعرضــن خلالهــا للإهانــات والتعــذيب، ثم يجــبرن على ممارســة الجنس مـع كثـير من الرجـال إلى أن يروضــن تمامــاً، ثم يــبيعهن القوادون إلى عصـابات مختلفـة، الأمـر الـذي يجعـل عـودتهن إلى بلدانهن أو الوصول إلى الشرطة صعبا.

وتؤكد العديد من المصادر المتابعـة لتجـارة الرقيـق الأبيض في أوروبا أن العديد من الـدول والمنـاطق في البلقـان غـدت مفـترق طرق بالنسبة للكثير من النسـاء، ولاسـيما اللـواتي يسـتدرجن من جمهوريات رابطـة الـدول المسـتقلة كأوكرانيـا أوملـدوفيا وروسـيا البيضاء، فالنساء الأكثر جمالاً يرسـلن إلى أوروبـا الغربيـة ولاسـيما إلى المانيـا وفرنسـا وإيطاليـا، في حين أن الأقـل جمـالا وجاذبيـة يرسلن إلى تركيا واليونان والشرق الأوسط.

ويؤكد الكسندر لوناس الجـنرال في الشـرطة الرومانيـة الـذي

يـترأس المركـز الإقليمي لمكافحـة الجريمـة المنظمـة أن مدينـة برتشكو الواقعة في البوسنه والهرسك واقليم كوسوفو أصـبحا من المعاقــل الرئيســية لتجـارة الرقيــق الابيض، وأن أغلب الفتيــات اللـواتي يجـري الاتجـار بأجسـادهن تـتراوح أعمـارهن بين 18-24 عاماً.

و أكــد خــبراء في الأمم المتحــدة، أن تجـارة الرقيــق الأبيض، أصــبحت تحتــل المركــز الثــالث عالميــاً، بين النشــاطات غــير المشروعة.

وجـاء في نـدوة عقـدها مسـؤولون من مكتب الأمم المتحـدة لمكافحة الجريمة والمخـدرات في البرازيـل، وشـارك فيهـا خـبراء دوليون، ومسؤولون من الإنتربول، وشرطة اسكوتلانديارد، أن هذه التجارة تحقق عوائد بلغت أكثر من سـبعة مليـارات من الـدولارات في العام الواحد، ويبلغ عدد ضحاياها أكثر من أربعة ملايين شخص، يهاجرون من بلادهم بصورة غير مشروعة سنوياً، الأمـر الـذي دفـع وزير العدل البرازيلي إلى وصف الدعارة بأنها (مرض العصر)

بعد أن انتهى المحقق من سرده لهذه الإحصائيات والدراسـات التفت إلى المحامي، وقـال: ألا تـرى الجـرائم العظيمـة الـتي وقـع فيها موكلك؟

قال المحامي: أنا لم أرك تسند له أي جريمة.. لم أرك إلا تذكر الدراسات المختلفة التي تشير إلى ازدياد معدلات الجريمة.

قال المحقق: لقد ثبت بالأدلة القطعيـة أن موكلـك ضـليع بكـل الجرائم التي وقعت.

اهــتز المحــامي، والتفت إلي، وقــال: لعلــك أخطــأت حضــرة المحقق.. هذا أستاذ جامعي محترم.. له مؤلفات.. وله تلاميذ كبار..

قاطعه المحقق، وقال: تلاميذه الكبار هم الذين ساقوه إلى هذا المحـل.. لقـد رأينـا من خلال دراسـة إحصـائية لجميـع الجـرائم أن لموكلك ضلع فيها.. فالقائمون بهـا إمـا تلاميـذه المباشـرون.. وإمـا تلاميذه غير المباشرين.

قال المحامي: غير المباشرين!؟

قال المحقق: أجل.. هم الذين تتلمذوا على كتبه وأفكاره.. لقـد كان موكلك هو الأب الروحي لكل هذه العصابات.. ولذلك فـإن من العدالة أن يزج به في السجن الذي يزج إليه المجرمون.

قال ذلك، ثم نادى بصوت عال: ليدخل الشاهد الأول.

دخـل بعض تلاميـذي، فسـأله المحقـق عن علاقتـه بي، فقـال: يؤسفني حضرة المحقق أن أخبرك بأن هذا الأستاذ هو الذي جرني إلى ارتكاب هذه الجرائم.

قال المحقق: كيف ذلك؟

قـال: لقـد قـدمت الجامعـة الـتي يـدرس فيهـا بنفس مملـوءة بـالطهر.. كنت أسـكن في الريـف.. وكنت أحـرص النـاس على الأعراض.. لكن هذا الرجل الذي يقف أمامك بقي يلقي في روعي كل حين بأنه لا وجود لشـيء اسـمه الطهـارة.. بـل إن الطهـارة لا تؤدي إلا إلى الكبت.. والكبت هو أم العقد.. وأم الخطايا.

وتعلمت على يده أن الغاية تبرر الوسيلة..

وبنيت من هذه التعاليم جميعا فلسفة حياتي ودستورها..

وتلك الفلسفة وذلك الدستور هو الذي قادني إلى هنا.

بعد أن أدلى هذا التلميذ بشهادته، استدعي المحقق تلميذا ثانيـا وثالثا ورابعا.. وهكذا بقيت طيلة اليوم أسـمع تلاميـذي المجـرمين.. وأرى الجرائم التي ارتكبوها على ضوء التعاليم التي لقنتهم إياها.

بعد أن انتهى الشهود.. ابتسم المحامي، وقال: ومع ذلك كلــه.. فإن القانون ـ حضرة المحقق ـ يقف في صف موكلي.. وكل هــذه الدفاتر التي معي تقول ذلك..

قال ذلك، ثم فتح دفـاتره.. وراح يسـرد القـوانين الـتي تبرئـني وتــبرئ أمثــالي من الأســاتذة والمفكــرين والزعمــاء الروحــيين للعصابات والمجرمين..

لم يجد المحقق ما يقول، فلـذلك أمـر بـإطلاق سـراحي.. وهـو ينظــر إلي نظــرة ممتلئــة بالحقــد.. وكــان زملاؤه وزميلاتــه من الشرطة ينظرون إلي نفس النظرة.. وكأنهم يرون المجـرم الأكـبر يطلق سراحه بينما يزف بالمجرمين الصغار ظلمات السجون.

***

في يوم آخر سـرت إلى مستشـفى كبـير لعيـادة بعض أقـاربي المرضى.. وهناك حصل ما حصل في اليوم السابق..

قلنا: كيف ذلك.. هل اتهمك المرضى بأنك سبب أدوائهم؟

قــال: أجــل.. لقــد صــاح في الكثــير.. بعضــهم كــان مريضــا بالسيلان.. وبعضهم كان مريضـا بـالزهري.. وبعضـهم كـان مريضـا بالسـفلس.. وبعضـهم كـان مريضـا بـأنواع السـرطان المختلفـة.. وبعضهم كان مريضا بالأيدز..

قلنا: وما علاقتك أنت بهذه الأمراض؟

قال: سأحدثكم بما حصل.. وستكتشفون علاقتي بها.

أصخنا أسماعنا إليه، فراح يقول: بمجرد دخـولي المستشـفى.. وبعد أن صاح في المرضى بما ذكرت لك قبضت علي يـد شـديدة، وأدخلتني قاعة لا تختلف عن قاعة التحقيقـات.. ولكـني لم أر فيهـا أحدا من الشرطة.

قال لي الجالس على مكتبها: اسمح لنا حضرة البروفيسـور أن نوجه إليك تهمة خطيرة.. ربما لم توجه في جميع التاريخ لغيرك.

قلت: ائـذنوا لي أن أسـتدعيي المحـامي الـذي يتـولى الـدفاع عني.

قال: لن تحتاج إليه..

قلت: كيـف.. إن القـوانين الديمقراطيـة لا تسـمح لكم بتوجيـه الاتهامات دون حضور المحامين.

قــال: نحن نعلم مــا ســيقوله المحــامي.. ونحن نعلم مــا تقولــه

القوانين.. ولذلك لن تحتاج للمحامي.

قلت: فلن أخضع للحكم إذن.

قــال: أنت حــر في ذلــك.. نحن لن نحاكمــك لنســجنك في سجوننا.. فليس لدينا سجون.. ولكنـا نحاكمـك لضـميرك.. لتسـجن في سجون نفسك.

قلت: ما فعلت حتى أسجن في سجن ضميري.

قـام أحـدهم، وقـال: أنـا الـدكتور (بـرك جـونز).. أقـف أمامـك لأخبرك.. أو لأخبر ضـميرك بـأن خمسـين مليـون شـخص يصـابون بمرض السفلس كل عام (1).

وقد بلـغ عـدد المصـابين المسـجلين رسـمياً لعـام (1998م) ـ حسـب تقريـر منظمـة الصـحة العالميـة - حـوالي خمسـة ملايين شخص.. وبلغ عدد الوفيات - حسب ذات التقريـر - (159,000) شخص.

قام آخر، وقال: وأنـا طـبيب مختص بمـرض السـيلان.. إن هـذا المرض من أكثر الأمراض المعدية انتشاراً في الوقت الحاضر، وقد يصاب بـه 200-500 مليـون شـخص في كـل عـام، معظمهم في سن الشباب ممن تتراوح أعمـارهم بين 15و28 سـنة.. وغـالبيتهم من طلاب المدارس والجامعات.

ففي الولايات المتحدة الأمريكية - مثلاً - يتراوح عـدد الإصـابات المسجلة رسمياً بالسيلان ما بين 4و5ملايين إصابة.

أما في البرازيـل فتسـجل يوميـاً حـوالي عشـرين ألـف إصـابة جديدة في العيادات والمستشفيات.

وفي فرنسا يقدر عدد المصابين بالسـيلان سـنوياً بـ 500 ألـف رجل وامرأة وطفل.

وقد بلغ عدد المصابين بالسيلان لعام (1998م) حسـب تقريـر منظمة الصحة العالمية حوالي خمسة ملايين شخص.

1() حسب إحصائية جرت عام 1974م.

أمـا الوفيـات فيبلـغ عـددهم حسـب ذات التقريـر ثمانيـة آلاف شخص.

قام آخر، وقال: أنا طبيب مختص بمرض الهـربس الزهـري، أو القوباء التناسلية.. إن هذا المرض يحتل المرتبة الخامسة من حيث الانتشـار في سلسـلة الأمـراض الجنسـية.. وقـد تضـاعف عـدد المصـابين في العـالم بهـذا المـرض منـذ عـام (1970م).. ففي الولايات المتحـدة الأمريكيـة تسـجل سـنوياً مليـون إصـابة جديـدة، ويقدر عدد المصابين فيها بحوالي 25 مليون شخص.

وتشـكل هـذه الإصـابات 15 بالمائـة من مجموعـة الأمـراض الجنسية.. وفي اليابان يفوق عدد الإصابات الجديـدة بالقوبـاء عـدة مرات عدد الإصابات بالسيلان والسفلس.

وفي أوربا الغربيـة يشـكل الهـربس التناسـلي 20 بالمائـة من مجمـوع الأمـراض المتناقلـة عـبر الجنس، فقـد تم رصـد أكـثر من عشرة آلاف حالة في بريطانيا وحدها عام (1980م).

وقد ذكر الدكتور (مورس) ـ وهو أستاذ الفيروسات الطبيـة في كلية طب جامعة مانشستر ببريطانيا ـ أن نتيجة الدراسة التي قـام بها في بريطانيا تشير إلى أن انتشار هذا المـرض يـزداد يومـاً بعـد يوم، وأن أكثر الإصابات به تقع بين الشباب والشابات الذين تتراوح أعمارهم بين 15-30 سنة.. وأن هذا المـرض يتناسـب طرديـاً مـع الجنس وطرق ممارسته وازدياده في المجتمع بطرق غير صحيحة، فيما يقل بالمقابل عند الذين يحبون العفاف ويسعون إليه.

وقد انتقل المرض إلى عواصم عالميـة أخـرى مثـل: بروكسـل وأمسـتردام وكوبنهـاجن وسـتوكهولم وبـرلين وبـاريس وجنـوب إفريقية)

قام آخر، وقال: أنا طـبيب مختص بمـرض الإيـدز.. لاشـك أنـك لاحظت أن عـدد الإصـابات بوبـاء الإيـدز منـذ اكتشـافه في أوائـل الثمانينات حتى يومنا هذا في تصاعد مستمر ومخيف.

فحسب إحصاءات منظمة الصحة العالمية التي كشـف النقـاب عنها في المؤتمر العالمي الخامس ضد مـرض الإيـدز المنعقـد في

مونتريال بكندا عام (1989م)، فإن عـدد الإصـابات بمـرض الإيـدز حتى عام (1985م) لم يتجاوز 70,000 إصابة.

ثم ارتفع هـذا العـدد مـا بين عـامي (1986و1988م)، ليصـبح حوالي 300,000 إصابة.

ويقدر عدد الإصـابات مـا بين عـامي (1989و1990م) مـا بين 700,000 إصابة ومليون ونصف المليون إصابة.

وقد بينت منظمة الصحة العالميـة بأنـه إذا لم يسـتطع الأطبـاء إيجاد وسيلة فعالة للقضاء على هذا الوبـاء في السـنوات المقبلـة، فإن عـدد الإصـابات سـيبلغ في أواخـر هـذا القـرن خمسـة ملايين إصابة.

ولكن يبـدو أن توقعـات منظمـة الصـحة العالميـة عن عـدد المصابين بهذا المرض كانت متواضعة جداً.. فقد بلغ عدد المصابين بالإيـدز بنهايـة عـام (1998م) 70,930,000 إصـابة (35 مليـون مصاب من الذكور، و34 مليـون مصـاب من الإنـاث تقريبـاً)، وبلـغ عـدد الوفيـات 2,285,000 شـخص.. وذلـك حسـب الإحصـاءات الصادرة عن المنظمة نفسها عام (1999م).

قالوا ذلك، ثم نظروا إلي بقسوة، فصحت فيهم: وما علاقتي أنا بكل هذا؟

قال الجـالس على المكتب: ألسـت أنت الـذي فتحت لهم كـل الأبواب والنوافذ ليتمتعوا بما تمليه عليهم نفوسهم من شهواتهم؟

ألست أنت الذي كنت تلقنهم الأفكار التي تخلصهم من الـبراءة والطهر والعفاف؟

ألست أنت الذي كنت ترمي بالتخلف كل من تمسـك بـالأخلاق والتزم بها؟

لم أجد بما أجيبهم، فقالوا جميعا: أنت مجرم، وإن برأتك جميـع محاكم الدنيا.. وأنت قذر ولو اغتسلت في جميع بحارها.

قالوا ذلك، ثم انصرفوا.. وقد تركـوا في نفسـي خدوشـا كثـيرة

لم تستطع الأيام أن تمحوها.

***

في يوم آخر.. ذهبت إلى البنك لأستلم أجـرتي الشـهرية.. وقـد فـوجئت إذ رأيت في رصـيدي مبلغـا ضـخما من المـال.. فسـألت القائمين عمن أرسله إلي، فوجدته تلميـذا من تلاميـذي القـدامى.. أرسله لي، وترك مكتوبا قال لي فيه: شكرا يا أسـتاذ.. فأنـا مـدين لك بثروتي الضخمة.

لست أدري كيف دب الأمل إلى نفسي.. لقد قلت لها: هـا أنت ترين جـدوى تعاليمـك.. هـا هـو تلميـذ من تلاميـذك النجبـاء يعـرف الوفاء.. ويتعامل به.

لكن ضميري الذي بدأت الحياة تدب إليه دعاني للبحث عن هذا التلميذ (الوفي!).. وقد اكتشفت ما ملأني ألما..

نعم.. صار لهذا التلميذ ثـروة ضـخمة من المـال.. ولكن عنـدما بحثت في كيفية اكتسابه لها.. وفي كيفيـة إنفاقـه منهـا وجـدت مـا ملأني بالتقزز.

لقد كـان صـاحب شـركات كثـيرة.. منهـا شـركات ربـا.. ومنهـا شركات متاجرة في الأعضاء البشرية.. ومنها شركات وهمية تصدر جميع أنواع السموم..

بالإضافة إلى قنوات منحرفة كثـيرة كـان يـديرها.. وكـانت تـدر عليه مبالغ من المال لا تخطر على البال.

لكني مع كل ذلـك كلـه قبضـت المـال.. وتمتعت بـه برهـة من الزمان.. إلى أن جاء اليوم المشؤوم الذي قررت فيــه التخلص من الحياة.

قلنا: كيف كان ذلك؟

قلت: كنت أسير في ذلك اليـوم في شـارع من شـواع مـدينتنا العريضة.. كانت السيارات الضخمة القوية تسير بســرعة جنونيــة.. وفجأة حـدث أمـامي حـدث أليم.. راح ضـحيته صـبي صـغير تفـوح

عيناه بكل عطور البراءة.

عندما رأيت جثته المشوهة امتلأت ألما.. وشعرت.. ولست أدري كيف.. بأنني أحد الذين خططوا لقتل هذه البراءة..

وقد وجدت الأمر كما تصورت.. أو كما حدثتني مشاعري..

لقد قبض على الجاني.. وكان شابا مراهقا.. وكانت علاقته بي علاقة وطيدة.. فهو تلميذ كتبي وأفكاري.. وعندما سئل عن سبب سوقه بتلك السرعة قال بكل بساطة: لقد وجدت راحتي وسعادتي ومتعتي وهوى نفسي في هذا النوع من السياقة.. فلذلك رحت أرفع سرعتي إلى الحد الذي رأيتم.

قال ذلك، ثم التفت إلي، وقال: ألم تعلمنا ــ يا أستاذ ــ أن نضحي بكل شيء من أجل أن نلبي ما تطلبه نفوسنا.

صمت.. وتدخل المحامي الموكل بي ليدافع عني.. لكني قلت للمحامي: دعه يتحدث.. ودعهم يرمونني.. فأنا مجرم.. ولا يحق للمجرم أن يتلاعب بالقوانين التي تبرئه..

لكني مع قولي هذا لم أجد أحدا يقبض علي.. أو يودعني أي سجن..

كان الناس في الطرقات ينظرون إلي نظرة ازدراء واحتقار.. ويتمنون من كل قلوبهم لو يزيحوني من تلك الكراسي الكثيرة التي كنت أجلس عليها لألقن الأجيال كيف يخضعون لنفوسهم وشهواتهم ولو على حساب كل حقائق الوجود.

***

كان لي صديق في تلك الأيام.. كان فيزيائيا كبيرا.. كان اسمه (لويس دي برولي).. وهو الحائز على جائزة نوبل عام 1929.. كتب كتابا كأنه يخاطبني به.. كان عنوانه (الفيزياء والميكروفيزياء).. قال فيه: (يتطلب جسدنا المتوسع زيادة في الروح).. وقال : (هل سنستطيع الحصول على هذه الزيادة بنفس سرعة تقدم العلم؟ لاشك أن مصير البشرية متوقف على ذلك).. وقال : (والآن في هذا الجسد الذي اتسع أكثر مما ينبغي بقيت

الروح كما كانت أضـأل من أن تملأه وأضـعف من أن ترشـده.. إن هـذا الجسـد المتخم ينتظـر إضـافة في الـروح، وإن الآلـة تتطلب تصـوفا.. إن الإنسـانية تئن، تكـاد تسـحقها أثقـال التقـدم الـذي صنعته)..

عندما قرأت هـذه الكلمـات قـررت أن أبحث عن الـروح الـتي تردع النفس.. وكان أول ما بدأت بـه الكتـاب المقـدس.. لكـني لم أجـد فيـه.. ولا في الكنيسـة.. ولا في الأديـرة إلا مـا ملأني بالغثـاء (1)..

ولذلك قررت أن أنتحر.

صحنا جميعا: تنتحر!؟

قال: أجل.. بعد كل هذه الآلام والصـراع.. خطـر على بـالي أن أنتحر.. فلم يعد للحياة عندي أي معنى.

وقد قدر الله أن يكون أحد تلاميذي هو المنفـذ لمـا خطـر على بالي.. لقـد كـان يعمـل في مستشـفى من مسشـفيات واشـنطن الكبرى.. كان اسمه (تيموثي كيـل).. عنـدما رأيتـه لم يكن خطـر على بالي بعد أن أنتحر.. ولكـني بعـد أن سـمعت حديثـه مـع بعض رفاقــه خطــر على بــالي.. ســأنقل لكم بعض مــا ســمعت من حوار(2).. وسأذكر لكم بعدها ما فعلت مع هذا التلميذ:

قال أحدهم: أنا من الهند.. وقـد اجتمـع مـؤتمر الاتحـاد الـدولي لجراحي المخ والأعصاب بنيودلهى من 8-13 أكتـوبر 1989 م وأجمـع أعضاؤه.. وكانوا أربعة آلاف طبيب على اتخاذ قـرار ينص على أنـه في حالات الأمراض غـير القابلـة للشـفاء.. وفى المرحلـة الأخـيرة

1() ذكرنـا في الرسـائل السـابقة الكثـيرة من الأدلـة على هـذا، ولـذلك لم نحتج إلى إعادته هنا.

2() انظر: (القتل الرحيم: هل هو رغبة إنسانية أم دعوة شيطانية؟؟)، الدكتور محمـد السقا عيد، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسـنة، وانظـر: مجلـة (زهـرة الخليج) في عددها رقم 694 يوليو 1992 السنة الرابعة عشرة.

وقـد ذكرنـا المسـألة بتفصـيل في رسـالة (أدويـة من الأرض) من سلسـلة (ابتسـامة الأنين)

يحق للطبيب بعد مناقشة واضحة وقرار من المريض أو أقرب أقاربه أن يحد تدخله من هذا العلاج بشكله المناسب إلى قدر الإمكان لنوعية الحياة التي تقترب من نهايتها.

قال آخر: كنت معه في هذا المؤتمر، وقد نص أيضا على أنه من الواجب العناية بالمريض الذي على حافة الموت حتى النهاية.. ولكن بطريقة تسمح للمريض بالمحافظة على كرامته.

قال آخر: كنت معهم.. وكان القرار الذي وافق عليه أربعة آلاف طبيب من مختلف دول العالم على أن من حق الطبيب في إيقاف علاج المريض الذي أصبح ميئوساً من شفائه.

قال تيموثي كيل: لقد أبدعنا في بلادنا (اليوتانيجا)

قالوا: وما (اليوتانيجا)؟

قال: تستطيعون تسميتها (القتل من أجل الرحمة) أو (القتل يأساً من الشفاء)

قالوا: وضح ما تريد.

قال: لو قرأتم ما نشرت مجلة (..؟)الطبية الأمريكية في مارس عام 1991 حولي لعرفتم معناها.

قالوا: فماذا كتبت عنك؟

قال: لقد رويت أنا الطبيب (تيموثي كيل) قصة المريضة (دياني) التي كانت مصابة بسرطان حاد في الدم، وقررت ألا تتناول جرعة الدواء الكيميائي المخصص لها، والتي وصفها لها الطبيب المعالج.. ونظراً لاقتناعي بأن دياني قد اتخذت بالفعل القرار الحكيم، فقد وصفت لها المحاليل الكيميائية التي ساعدتها على التخلص من حياتها.

قالوا: وصفت لها ما يقتلها.

قال: أجل.. وفى يوليو في نفس العام رفضت هيئة المحلفين إدانتي بتهمة مساعدة المريض على الانتحار.. ثم جاءت (المبادرة 119) وهى استفتاء ولاية واشنطن على مشروع قانون يبيح

ممارسة القتل الرحيم، ليصبح أكـبر دليـل على تزايـد التأييـد لهـذه الفكرة في الولايات المتحدة.

قالوا: فهل يجد هذا تأييدا شعبيا عندكم؟

قال: أجل.. ولم يقتصر الأمر على ذلـك.. ففي عـام 1990 كـان الطبيب المتقاعد جاك كينعوركاتاب حـديث العنـاوين الرئيسـية في الصحف عنـدما سـاعد جـانيت إدكـيز، وهي سـيدة مصـابة بمـرض عضال على الانتحـار في مدينـة ميتشـجان باسـتخدام آلـة الانتحـار الـتي اخترعهـا.. والـتي من خلالهـا يسـتطيع المـريض حقن نفسـه بمادة سامة من خلال أنبوبة خاصة.

وفى سبتمبر عام 1991 ساعد الطبيب كيفور اثنين من مرضــاه على الانتحار أيضاً في ميتشجان التي ليس لـديها أي قـوانين حديـة تمنع تدخل الطبيب لمساعد مرضاة على الانتحار.

وفى أبريل 1919 نشرت جمعية هيملـوك كتـاب ديـري همفـري (المخرج الأخير Final Exit) الذي يصـف أكـثر من طريقـة للانتحـار، ويقدم بيانياً كاملاً بالأقراص التي يستطيع الشخص تناولهـا للانتحـار وعددها، وسرعان مـا أصـبح هـذا الكتـاب في مقدمـة أكـثر الكتب مبيعاً في الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد امتدح مؤيدو الكتاب مضمون الكتاب واعتبروه مادة قيمــة لمساعدة المرضي الميئوس من شفائهم.. خاصة المصابين بالإيدز الذين يخشون فقد السيطرة على أنفسهم وعدم كيفية موتهم.

بل إن انتشار الكتاب على هذا النحو قد يدفع أصحاب الأمراض العصبية بقوة إلى الانتحار.

قال آخر: أنا من هولندا.. ولنا طرقنا الخاصـة بالقتـل الـرحيم.. فعنـدنا يعطي المـريض محاليـل بهـدف قتلـه رحمـة بـه.. وهـذه العقـاقير تصـيب المـريض بغيبوبـة عميقـة لا إفاقـة منهـا خلال 30 دقيقة على أن تضع حداً لحياته في غضون عدة ساعات.

قال آخر: أنا من بلده.. وقد أصدرنا وثيقة خاصة بـ (الليثمانميا)، وصدرت عن أطباء الجمعية الهولندية الملكيـة للأدويـة.. وهي تنص

على أنه يجب عـدم منح المـريض أي عقـاقير خاصـة بالهلوسـة أو التشـنجات.. وإن حصـل احتمـال للتقيـؤ فيجب أن يواجـه بإعطـاء المريض المزيد من العقاقير.

ومنذ نحو 20 عاماً مضت قبل أن تصـبح اليوتانجيـا عملاً مقبـولاً في النظـام الطـبي الهولنـدي كـان المـريض الـذي يطلب تطـبيق اليوثانيي عليه يخاطر بمواجهة موت أقل راحة وكرامة.. ففي ذلـك الـوقت كـان الأطبـاء الـذين يشـعرون بالأسـي لوضـع حـد لآلام المرضي يلجئون إلى إصابة المريض بنسبه نقص السـكر من خلال حقن بجرعـات مضـاعفة من الأنسـولين وحقنـه بعقـاقير أخـري تسـاعد على إصـابة نوبـة قلبيـة، وأحيانـاً كـانوا يخنقـون المرضـي بالوسائد.

قال آخر: أمـا الآن فيتم تخيـير المـريض بين حقن بعقـار سـام تحت الجلد حتى يغرق في غيبوبـة كاملـة يعقبهـا حقن آخـر بمـواد تساعد على ارتخاء العضلات من أجل شل عمـل الجهـاز التنفسـي علاوة على طـرق أخـري يتم خلالهـا قتـل المـريض المـيئوس من شفائه علي عدة مراحل تستغرق عـدة سـاعات من خلال عقـاقير سامة أيضاً.

قال آخر: والأمـر يـزداد شـدة.. ونخشـى أن يخـرج الأمـر على السيطرة.. فيصبح الأطباء منفذي إعدام أكثر منهم أطباء.. وخاصـة إذا أصبح الأمر بيد الطبيب، ولم يعد المريض هـو صـاحب القـرار.. فإن ذلك سيفتح الباب أمام ممارسات غير مشروعة لا أول لهـا ولا آخر وقد يصعب وقفهـا.. وليس بعيـداً عن الأذهـان تجـارة الأعضـاء التي أصبحت رائجة عند الكثيرين لدرجة أنـه يمكن التأكيـد على أن هناك طرقا خاصة بهذه التجارة.

***

بعد أن سمعت هذا الكلام.. وبعد أن امتلأت قناعة بأنه لا يصـلح لي إلا الانتحار.. ذهبت إلى هذا التلميذ في المستشفى الذي يعمـل فيه، فعرفته بنفسي، وبكوني كنت في يوم من الأيـام أسـتاذا لـه.. فلم يكترث كثيرا لمعرفتي.. بل ما زاد على أن تحدث معي ببرودة عن طلبي، فأخبرته به.. فلم يبدو عليه ـ مع غرابة هذا الطلب ـ أي

تعجب.. بل اكتفى بأن طلب مني مبلغا من المـال.. ومـع أنـه كـان مبلغا كبيرا إلا أني قبلت به، فقد كان لي من الجبن ما يمنعــني من ممارسة ما يمارسه أكثر الناس من أساليب الانتحار.

بعد أن سلمته المـال أعطـاني ذلـك العقـار، ووصـف لي بدقـة الكمية التي أستعملها منه.. ووصف لي ما سيحدث لي بالضبط.

قلنا: ما دمت معنا، فأنت لم تتجرأ على استعماله؟

قال: لا.. بل استعملته.

قلنا: فقد غشك تلميذك إذن.. أخذ مالك دون أن يعطيك العقار القاتل.

قـال: لا.. لقـد أعطـاني العقـار القاتـل.. ولكـني لم أسـتعمله بالكيفية التي حددها.

قلنا: لم؟

قال: لقد سقطت القـارورة من يـدي فجـأة.. لا.. ليس فجـأة.. بل بعد سماعي لصوت جميل كان يردد من قرآن المسـلمين هـذه الآيــة :﴿ يَــا أَيَّتُهَــا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِــيَةً مَرْضِــيَّةً (28) فَـــادْخُلِي فِي عِبَـــادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي (30)﴾ (الفجر)

لست أدري كيف سرت قشـعريرة لذيـذة إلى جسـمي جميعـا وأنا أسمع هذه الكلمات.. وقـد غصـت بعـدها في غيبوبـة عميقـة.. ولم أستفق إلا وأنا في بيت النور والسلام والطمأنينة والصفاء.

قلنا: فحدثنا عن حديثك معه.

السلام

امتلأ وجه صاحبنا بالسلام الجميـل، ثم قـال: لقـد كـان أول مـا سمعته من ذلـك المسـلم هـو تحيـة السـلام.. المنطلقـة من وجـه ممتلئ بالسلام..وكان أول ما قال لي: لقـد شـاء اللـه أن يمـد في عمرك لترى من حقائق السلام ما حجبك عنه الصراع.

قلت: وما حقائق السلام؟.. وما الحجب التي حالت بيني وبينها؟

قال: السلام هو الذي يملأ كيانك كله بالطمأنينة والاستقرار، فتشعر بأن كل شيء في محله الذي يصلح له.. أو تشعر بأن كل شيء هو في حالته التي خلقه الله عليها لم يغير ولم يبدل.

قلت: فما الحجب التي تحول بيني وبين هذا السلام؟

قال: أول الحجب هو النفس..

قلت: ولكننا لا يمكن أن نعيش من دون نفوسنا.. ألم يخلق الله لنا النفوس لنعيش بها؟

قال: لنعيش بها.. لا لنعيش لها.

قلت: لم أفهم.

قال: فرق كبير بين أن تعيش لتأكل، وبين أن تأكل لتعيش.

قلت: لقد قرأت هذا.. ولكني ضحكت عليه، وسخرت منه، ورحت ألقن تلاميذي ما يخالفه.

قال: فماذا رأيت من تلاميذك؟

لم أجد ما أجيبه به، فقال: لقد خلق الله لنا مع نفوسنا التي لا تشبع أو لا تريد أن تشبع عقولا وأرواحا وقلوبا وفوق ذلك خلق معنا بشرا وحيوانات وأفلاكا.. وكل ذلك ينبغي أن يراعى.. فلا ينبغي للعاقل أن يترك لنفسه العنان لتصارع نفسها، وتصارع ما حولها.

قلت: ولكن الكبت نفسه صراع.

قال: لا.. ليس الكبت صراعا.. الكبت علامة السلام الكبرى.

قلت: كيف يكون ذلك؟.. والكابت إنما يصارع نفسه التي بين جنبيه.

قال: ألا ترى أن وقوف ذلك الشرطي في محله سليما معافى دليل على الاستقرار وسبب له.

قلت: وما علاقة الشرطي بما نحن فيه؟

قال: أليس الشرطي هو الذي يقوم بالكبت.. فيكبت كل النزعات الشريرة التي تريد أن تغذي هوى النفس على حساب العقل والقلب.. والكون؟

قلت: قد يصح ما تقول.

قال: بل لا يصح إلا ما أقول.

قلت: أنت على ثقة كبيرة بنفسك؟

قال: أجل.. ذلك أن معي النور الأزلي الذي لا تكشف الحقائق إلا به.

قلت: وما هذا النور؟

قال: كلام ربي الذي أنزله إلي كما أنزله إلى كل البشر ليحتموا بأنواره من الظلمات التي توقعهم فيها نفوسهم وشياطينهم.

قلت: فهل تحدث ربك عن النفس، وتلك الغرائز التي تمتلئ بها؟

قال: أجل.. لقد ذكر ربي النفس.. وبين أنها المحل الذي قد يرتع فيه الشياطين.. وهي المحل الذي قد يرفع صاحبها إلى أعلى الجنان.. قال تعالى: وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10) (الشمس)

لقد أخبر الله تعالى في هذه الآية أن الله تعالى خلق النفس سوية مستقيمة على الفطرة القويمة، وبين أنها في أصل خلقتها مستعدة لأن توظف ما وهب لها من طاقات في سبل الخير.. كما أنها مستعدة لأن توظفها في سبل الشر، كما قال تعالى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ (الروم: 30)، وكما قال رسول الله ﷺ :(كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه، كما تولد

البهيمة بهيمة جَمْعَاء هل تحسون فيها من جــدعاء؟)(1)، وقــال ﷺ حاكيا عن ربه عز وجل:(يقـول اللـه عـز وجـل: إني خلقت عبـادي حُنَفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم)

وأخبر أنه لن يفلح إلا من حافظ على سلامة فطرة نفسه، فلم يدنسها بأي دنس..

التفت إلي، وقال: أتدري ما مثل ذلك؟

قلت: ما مثله؟

قال: إن مثله كمثل قوم لهم أجسـام سـليمة وعقـول سـليمة كلفـوا بالـدخول إلى أرض تختلـط فيهـا أشـعة الشـمس الطيبـة بالأشـعة الخبيثـة.. وقـد زودوا لـذلك بمـا يقيهم من أوزار الأشـعة الخبيثة.. كما زودوا بما يمكنهم من الانتفاع بالأشعة الطيبة.

لكن بعضهم لم يرض هذا الوضع، فـراح يقتحم الأشـعة الخبيثـة بوجهه العاري زاعما أن ذلك القناع الذي يضعه على وجهه نوع من الكبت يحرم النفس من حقها في التمتع بأنواع الأشعة.

أتدري ما يحصل لهذا؟

قلت: أجل.. لاشك أنه سيحترق بتلك الأشعة.

قال: فهكـذا الأمـر بالنسـبة لنفوسـنا.. لقـد خلـق اللـه لهـا مـا يتناسب معها.. وأباحـه لهـا.. وخلـق مـا لا يتناسـب معهـا، وحرمـه عليها.

قلت: ما دام لا يتناسب معها، فلم خلقه؟

قال: هو لا يتناسب معها من الجهـة الـتي تريـد أن تتناولـه من خلالها، ولكنه يتناسب معها من حيث منفعته العامة.

قلت: لم أفهم.

قال: أليست الكهرباء وسيلة نافعة من وسائل الحياة؟

1() رواه البخاري ومسلم.

قلت: بل قد صارت ضرورة من ضروراتها.

قال: فمن أراد أن يلمس التيار الكهربائي بيديه العاريتين؟

قلت: ستصعقه الكهرباء بلهيبها.

قــال: وهكــذا النفس.. إنهــا إن تنــاولت الأشــياء من محلهــا، وبالسـبل الـتي أبيحت لهـا، فإنهـا لن تظفـر إلا بالسـعادة والسـلام والصـفاء.. ولكنهـا إن أبت إلا أن تـركب نفسـها وهواهـا، فإنهـا لن تجني إلا ما يجنيه الجـريء على الكهربـاء أو الجـريء على الأشـعة السامة.

قلت: كلامك معقول.. فهل ورد في كتـابكم المقـدس مـا يـدل على هذا؟

قال: أجل.. لقد سمى الله تعالى تلـك المشـاعر الـتي تجـذب النفـوس إلى الهاويـة (هـوى)، فقـال :﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَـرَ الْحَيَـاةَ الـدُّنْيَا (38) فَـإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَـأْوَى (39) وَأَمَّا مَنْ خَـافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَـأْوَى (41)﴾ (النازعات)

قلت: ولكن الحياة التي تمتلئ بقمع هوى النفس حيـاة ممتلئـة بالصراع.. فكيف يتحقق السلام مع هذا الصراع؟

قال: هو صراع محدود ومؤقت.. والنفس التي تقدم عليه تنال من اللذة ما يناله ذلك الذي انتصر على أعدى أعدائه.

قلت: ولكن الصراع يظل صراعا؟

قال: السلام لا يتحقق إلا بهذا النوع من الصراع.. ألا ترى العالم لا يتحقق له مراده من الكمـال العلمي إلا ببـذل الجهـد، ومصـارعة نزوات الهوى التي تدعوه إلى الركون إلى الراحة؟

قلت: بلى.. فلا يمكن لأحــد أن يتمكن من شــيء مــا لم يبــذل جهده فيه.

قال: ولذلك قال تعالى :﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ (البلــد: 4).. فالإنسـان لابـد أن يكبـد في حياتـه ويتعب إلى أن يتحقـق لـه

مراده..

قلت: وعيت ما ذكرته.. فهلا حدثتني عن مطالب النفس الأمارة.. وعن كيفية قمعها.

قال: ذلك علم طويل.. والعلم لا يكفي وحده فيه.. بل لا بد معه من تربية ومجاهدة..

قلت: فهل تدلني على من أرى فيهم ما تتحدث عنه؟

ابتسم، وقال: أنا أستاذ مثلك.. ولذلك سأمر بك على بعض تلاميذي(1)، ولنحاول أن نختبرهم بما تشاء من أنواع الاختبار.. لترى كيف تحولت نفوسهم إلى نفوس طاهرة طيبة ممتلئة بالسلام الجميل.

قلت: يسرني ذلك.. لكن أخبرني من أنت حتى أعرف مع من أسير.. وتلاميذ من سألتقي.

قال: أنا المحاسبي(2).. أنا الرجل الذي تعامل مع نفسه كما يتعامل الغريم مع غريمه.. حاسبتها وجاهدتها إلى أن استقامت على طريق الله.. وأسأل الله أن يثبتني على ذلك.

1() ذكرنا في هذا المبحث الأسس التي تقوم عليها النظرة الإسلامية للتعامل مع النفس.. وهي خير رد على المذاهب الوجودية.. أما التفاصيل المرتبطة بهذا، فقد أفردنا لها فصولا في رسالتي (أسرار الإنسان) و(أسرار الحياة)

2()أشير به إلى أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصري، أحد علماء السلوك الكبار، سمي المحاسبي لأنه كان يحاسب نفسه. و هو أستاذ أكثرِ البغداديين؛ و هو من أهل البصرة. مات ببغداد سنة 243هـ.

روي من ورعه أنه كان إذا مد يده إلي الطعام فيه شبهة تحرك إصبعه عرق، فكان يمتنع منه.. وقال الجنيد: مربي يوماً، فرأيت فيه أثر الجوع، فقلت: (يا عم، ندخل الدار وتتناول شيئاً)، فقال: نعم، فدخلت الدار، وحملت إليه طعاماً، من عرس قوم؛ فأخذ لقمة وأدارها في فيه مراراً، ثم قام وألقاها في الدهليز وفر، فلما رأيته بعد أيام، قلن له في ذلك، فقال: إني كنت جائعاً أن أسرك بأكلي وأحفظ قلبك، ولكن بيني وبين الله علامة: ألا يسوغني طعاما فيه شبهة، فلم يمكنني ابتلاعه، فمن أين كان ذلك الطعام؟ فقلت: إنه حمل من دار قريب لي من العرس، ثم قلت له: تدخل اليوم، فقال: نعم، فقدمت اليه كسراً كانت لنا فأكل، وقال: إذا قدمت إلي فقير شيئاً فقدم مثل هذا.

من مؤلفاته: (الرعايةِ لحقوق الله)، و(مائية العقل وحقيقة معناه)، وغيرها.

ولا يخفى سر اختيارنا له في هذا الفصل.

قلت: فهل ستدلني على الطريق التي سرت فيها؟

قال: يسرني ذلـك.. فلا هـدف لي في الحيـاة إلى الدلالـة على هذا.

قلت: فاختر لنا مجلسا نتحدث فيه.

قال: أنا مجرد فرد.. وحديثي وحـده لا يكفي.. سأسـير بـك إلى كلية مختصة بهذا.. إنها (كلية التهذيب والترقي) وفيها فروع كثيرة.. سـأمر بـك على بعضـها.. لتبصـر كيـف عـالج الإسـلام النفس من أدوائها.. وكيف لم يكتف بذلك، بل راح يغرس فيها من المكارم مـا جعلها حقلا عظيما لها.

قلت: من أسس هذه الكلية؟

قال: ومن غيره؟.. إنـه محمـد ﷺ.. إنـه ذلـك الرجـل الـذي لم تعرف البشرية مربيا مثله.

الهدي الإلهي:

كان أول قسم في (كلية التهـذيب والـترقي) قسـم كتب عليـه من القرآن هذه الآية: ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (45) ﴾ (ق)،) وهذه الآية : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَـالِحِينَ فَإِنَّهُ كَـانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُـورًا (25)﴾ (الإسـراء)، وهـذه الآيـة :﴿ وَنُنَـزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيـدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَـارًا (82)﴾ (الإسراء)، فسألت المحاسبي عنه، فقـال: في هـذا القسـم لن تسمع إلا القرآن.

قلت: وهل للقرآن كل هذه القوة في تهذيب النفس؟

قال: لقد وصف الله القرآن بكونه شفاء.. وما دام كـذلك، فإنـه يشفي من كل العلل النفسية.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد صيغ القرآن صياغة خاصـة، فهـو يخـاطب النفس من جذورها.. ولذلك فإن الذي أدمن عليـه والتزمـه تـأدب على يديـه لا

محالة.

إن كل من رباهم رسول الله ﷺ.. وكل من تربوا في حجر هذه الأمة لم يتهذبوا إلا بالقرآن..

روي أن النجاشي طلب من جعفر بن أبي طالب أن يسمعه شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ عن الله، فقرأ عليه صدراً من (كهيعص) فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته وبكت أساقفته حتى اخضلت لحاهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يُكادون.

وعن الأصمعي قال: أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود له فقال: ممن الرجل؟ قلت: من بني أصمع، قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمن، فقال: اتل عليّ فتلوت: ﴿ والذاريات ﴾ فلما بلغت قوله تعالى: ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22)﴾(الذاريات)، قال: حسبك، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى، فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق فالتفت، فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفر فسلّم عليّ واستقرأ السورة، فلما بلغت الآية صاح، وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرأت: ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23)﴾ (الذاريات)، فصاح وقال: يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف، لم يصدقوه بقوله حتى ألجؤوه إلى اليمين قائلها ثلاثاً، وخرجت معها نفسه.

***

سمعنا صوتا عذبا يرتفع بالقرآن.. أردت أن أتكلم، فقال لي المحاسبي: لقد ذكرت لك أن هذا القسم لا يوجد فيه إلا القرآن.. فهلم نسمع إلى المقرئين، وهم يخاطبون النفوس، ويهذبونها بكلام ربها.

اقتربنا من المقرئ.. فسمعته يردد من القرآن هذه الآيات: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا

وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (الأحزاب: 72).. : وَإِنْ كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (البقرة: 283).. إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً (النساء: 58).. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (الأنفال: 27).. قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11) (المؤمنون).. إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (35) (المعارج)

رأيت المجتمعين حوله مستغرقين استغراقا تاما، ورأيت على وجوه بعضهم دموعا كثيرة تنحدر.. ورأيت بعضهم يمسك ورقة يكتب فيها شيئا، فاقتربت منه، فرأيته يضع جداول مملوءة أرقاما.. فقلت له مختبرا: ما تفعل يا رجل.. أنت تنشغل عن كلام ربك بعد ثروتك؟

قال لي ـ والدموع تنحدر من عينيه ــ : لا يا أخي.. لا تسئ بي الظن.. أنا رجل كنت مسرفا على نفسي.. وقد أخذت أموالا كثيرة بغير حق.. وقد نبهتني هذه الآيات إلى وجوب إرجاع الحقوق

لأصحابها.. وقد عاهدت الله في هذا المجلس ألا أخرج منـه إلا بعـد أن أرد كل حق لصاحبه حـتى لـو افتقـرت.. فلأن أذوق فقـر الـدنيا خير من أن أذوق فقر الآخرة.

***

تركته، وسـرت إلى مجلس آخـر، فـرأيت رجلا يـردد بينـه وبين نفسه: : بلى يا رب قد آن.. بلى يا رب قد آن.. بلى يا رب قد آن.

فسألت المحاسبي عن شأنه، فقال: هـذا الفضـيل بن عيـاض.. كان شاطراً يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس.. وكان سبب توبته أنه ارتقى بعض الجدران فسمع تالياً يتلو قولـه تعـالى : أَلَمْ يَـأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُـوا كَالَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتَـابَ مِنْ قَبْـلُ فَطَـالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَـدُ فَقَسَـتْ قُلُـوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (16) (الحديد)، فلما سمعها قال: بلى يا رب قد آن فرجع، فآواه الليل إلى خربةٍ فإذا بها سابلة.. فقـال بعضـهم: نرحل، وقال بعضهم حتى نصـبح فـإن فضـيلاً على الطريـق يقطـع علينا.. قال: ففكرت، وقلت أنا أسعى بالليل في المعاصـي، وقـوم من المسـلمين هاهنـا يخـافوني، ومـا أرى اللـه سـاقني إليهم إلا لأرتـدع، اللهم إني قـد تبت إليـك وجعلت توبـتي مجـاورة الـبيت الحرام.

***

تركته، وسـرت إلى مجلس آخـر، فـرأيت رجلا يتوسـط حلقـة، وهو يقرأ عليهم القرآن، وبعد أن انتهى سأله أحدهم قائلا: يا شيخنا عن سر تأثير القرآن في قمع الشهوات الخسيسة الـتي تمتلئ بهـا النفوس.

فأجابه(1): لقد جعل اللـه في القـرآن من الحكمـة والموعظـة الحسـنة بـالترغيب والـترهيب والتزهيـد في الـدنيا والـترغيب في الآخرة والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصـار.. وكـل ذلك يرغب القلب السـليم إذا أبصـر ذلـك فيمـا ينفعـه في معاشـه ومعاده، ويرغب عمـا يضـره، فيصـير القلب محبـا للرشـد، مبغضـا

(1) هذا الجواب منقول بتصرف من: إغاثة اللهفان لابن القيم: 1/45.

للغي..

فالقرآن مزيل للأمراض الموجهة للإرادات الفاسدة، فيصلح القلب، فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، فتصلح أفعاله الاختيارية الكسبية كما يعود البدن بصحته وصلاحه إلى الحال الطبيعي فيصير بحيث لا يقبل إلا الحق كما أن الطفل لا يقبل إلا اللبن، فيتغذى القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويقويه ويؤيده ويفرحه ويسره وينشطه ويثبت ملكه كما يتغذى البدن بما ينميه ويقويه.

وكل من القلب والبدن محتاج إلى أن يتربى، فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح، فكما أن البدن محتاج إلى أن يزكو بالأغذية المصلحة له والحمية عما يضره فلا ينمو إلا بإعطائه ما ينفعه ومنع ما يضره فكذلك القلب لا يزكو ولا ينمو ولا يتم صلاحه إلا بذلك، ولا سبيل له إلى الوصول إلى ذلك إلا من القرآن، وإن وصل إلى شيء منه من غيره فهو نزر يسير لا يحصل له به تمام المقصود، وكذلك الزرع لا يتم إلا بهذين الأمرين.

الهدي النبوي:

بعد أن تجولت على حلقات كثيرة في قسم القرآن من كلية (كلية التهذيب والترقي) سرت مع صاحبي المحاسبي إلى قسم آخر كتب عليه من القرآن هذه الآية: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (164)﴾ (آل عمران)

فسألت المحاسبي عنها، فقال: في هذه الآية يذكر الله الوظائف التي كلف بها رسول الله ﷺ..

قلت: فما علاقتها بالتهذيب والترقية؟

قال: لا يوجد في العالم رجل وضع خطة متكاملة للتهذيب والترقية مثل رسول الله ﷺ..

قلت: فأين أجد هذه الخطة؟

قال: في أحاديثه.. تلك التي اجتهد العلماء في تمييز الموثوق منها من غيره.. ثم اجتهدوا في معرفة المعاني العظيمة التي تحملها.. ثم اجتهدوا في استنباط الكيفيات العملية التي تجعل منها واقعا ملموسا.

أردت أن أسأل، فقال لي: تعال.. فخير جواب لك أن ترى وتسمع، فليس الخبر كالعيان.

سرت معه إلى أول حلقة كان يجلس فيها شيخ عرفت فيما بعد أن اسمه (عبد الوهاب الشعراني) (1)

كان يقول: قال رسول الله ﷺ :(نضر الله امرأ سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع)(2)

ومعنى نضر الله : الدعاء بالنضارة وهي النعمة والبهجة والحسن تقديره جمله الله وزينه بالأخلاق الحسنة والأعمال المرضية.

وفي رواية: (فربما حامل فقه ليس بفقيه ورب حامل فقه

1() نشير به إلى الشيخ عبد الوهاب الشعراني (898 ـ 973 هـ = 1493 ـ 1565 م)، ولد في قلقشندة (بمصر) ونشأ بساقية أبي شعرة (من قرى المنوفية) وإليها نسبته: (الشعراني، ويقال الشعراوي) وتوفي في القاهرة.

له تصانيف، منها (الاجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية) و(أدب القضاة) و(إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العالمين) و(الانوار القدسية في معرفة آداب العبودية)، و(البحر المورود في المواثيق والعهود)، و(بهجة النفوس والاسماع والاحداق فيما تميز به القوم من الآداب والاخلاق)، و(العهود المحمدية) الذي رجعنا إليه في هذا المحل، وغيرها.

وننبه هنا إلى أن بعض الخرافات دست في كتبه، وقد نبه هو إلى ذلك، وأشار إليه المؤرخ عبد الحي بن العماد الحنبلي في كتابه (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) عند ترجمته، فقال: (وحسده طوائف فدسوا عليه كلمات يخالف ظاهرها الشرع، وعقائد زائغة، ومسائل تخالف الإجماع، وأقاموا عليه القيامة، وشنَّعوا وسبُّوا، ورموه بكل عظيمة، فخذلهم الله، وأظهره الله عليهم وكان مواظباً على السنة، ومبالغاً في الورع، مُؤثِراً ذوي الفاقة على نفسه حتى بملبوسه، متحملاً للأذى، موزعاً أوقاته على العبادة؛ ما بين تصنيفٍ وتسليكٍ وإفادة.. وكان يُسمَعُ لزاويته دوي كدوي النحل ليلاً ونهاراً، وكان يحيي ليلة الجمعة بالصلاة على المصطفى ﷺ، ولم يزل مقيماً على ذلك، معظَّماً في صدور الصدور، إلى أن نقله الله تعالى إلى دار كرامته) (شذرات الذهب في أخبار من ذهب:8/374)

2() رواه أبو داود والترمذي وابن حبان في صحيحه مرفوعا.

إلى من هو أفقه منه)(1)

وفي رواية:(اللهم ارحم خلفائي قالوا يا رسول الله وما خلفاؤك ؟ قال الذين يأتون من بعدي يروون أحاديثي ويعلمونها للناس)(2)

بعد أن روى هذه النصوص قال(3): أخذ علينا العهد العام من رسول الله ﷺ أن نسمع الناس الحديث، ونبلغه إلى البلاد التي ليس فيها أحاديث، وذلك بكتبنا كتب الحديث وإرسالها إلى بلاد الإسلام.

***

انتقلنا إلى حلقة أخرى، كان يطلق على شيخها لقب (ابن أبي الدنيا)(4).. عندما جلسنا سمعنا سائلا يسأل قائلا: نحن تجار قدمنا من بلاد بعيدة.. ونريد منك أن تحدثنا عن نبينا ﷺ.. وعن التوجيهات التي خصنا بها.

ابتسم ابن أبي الدنيا ابتسامة هادئة، وكأنه يرحب بهم من خلالها، ثم قال: قال رسول الله ﷺ :(ثلاثة لا ينظر الله إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) قال الراوي: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات.. قال الراوي: فقلت: خابوا وخسروا من هم يا رسول الله؟

1() هي للطبراني.

2() هي للطبراني.

3() هذه النصوص منقولة بتصرف من كتاب (العهود المحمدية) لعبد الوهاب الشعراني.

4() أشير به إلى أبي بكر عبدالله بن محمد بن عُبيد بن سفيان بن قيس المعروف بابن أبي الدنيا، البغدادي (208 ـ 281هـ، 823 ـ 894م)، وهو الحافظ، المحدث، صاحب التصانيف المشهورة المفيدة، كان من الوعاظ العارفين بأساليب الكلام وما يلائم طبائع الناس، إن شاء أضحك جليسه، وإن شاء أبكاه.. وثقه أبوحاتم وغيره.. صنّف الكثير حتى بلغت مصنفاته 164 مصنفاً منها: العظمة؛ الصمت؛ اليقين؛ ذم الدنيا؛ الشكر؛ الفرج بعد الشدة وغيرها. (الموسوعة العربية العالمية)

ولا يخفى سر اختيارنا له هنا، فهو من المؤلفين المكثرين في الأحاديث المرتبطة بالأخلاق.

قال : (المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب)(1)

وفي رواية (2) :(ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة أشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه)

وقال ﷺ :(ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : رجل على فضل ماء بفلاة يمنعه ابن السبيل)(3)

وفي رواية : (يقول الله له اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك، ورجل بايع رجلا سلعة بعد العصر فحلف بالله لأخذها بكذا وكذا فصدقه فأخذها وهو على غير ذلك، ورجل بايع إماما لا يبايعه إلا للدنيا فإن أعطاه منها ما يريد وفى له وإن لم يعطه لم يف له)

وفي رواية:(ورجل حلف على سلعة لقد أعطي بها أكثر مما أعطي وهو كاذب، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال امرئ مسلم، ورجل منع فضل ماء فيقول الله له يوم القيامة اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك)

وقال رسول الله ﷺ :(أربعة يبغضهم الله : البائع الحلاف، والفقير المختال، والشيخ الزاني، والإمام الجائر)(4)

وعن واثلة قال: كان رسول الله ﷺ يخرج إلينا وكنا تجارا وكان يقول : (يا معشر التجار إياكم والكذب)(5)

وقال رسول الله ﷺ :(الحلف منفقة للسلعة ممحقة للكسب﴾

1() رواه مسلم والأربعة.

2() هي للطبراني في الكبير.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() رواه النسائي وابن حبان في صحيحه.

5()رواه الطبراني بإسناد لا بأس به.

(1)

وقال رسول الله ﷺ :(التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء)(2)

وقال رسول الله ﷺ :(إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا باعوا لم يمدحوا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا، وإذا كان لهم لم يعسروا)(3)

وقال رسول الله ﷺ :(البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدق البيعان وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا فعسى أن يربحا ويمحقا بركة بيعهما.. اليمين الفاجرة منفقة للسلعة ممحقة للكسب)(4)

وخرج ﷺ إلى المصلى فرأى الناس يتبايعون فقال : (يا معشر التجار)، فاستجابوا لرسول الله ﷺ ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه، فقال : (إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارا إلا من اتقى وبر وصدق)(5)

الصراط المستقيم:

بعد أن تجولت على حلقات كثيرة سمعت فيها من هدي محمد وتربيته للنفوس، وتمكنه منها، سرت مع المحاسبي إلى قسم آخر في (كلية التهذيب والترقي)، وقد رأيت على لافتة بابه هذه الآية: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7)} [الفاتحة:

1() رواه البخاري ومسلم.

2()رواه الترمذي بسند حسن.

3()رواه البيهقي وغيره.

4()رواه البخاري ومسلم.

5()رواه الترمذي وابن حبان والحاكم وصححوه.

6، 7]، فسألت المحاسبي عنه وعن سر الآية التي وضعت على بابه، فقال: إن النفس الإنسانية تحتاج إلى نماذج ممتلئة بالطهر والعفـاف والكمـال الإنسـاني لتحتـذي بهـا، وتسـير على هـديها، ولهـذا فإننـا في هـذا القسـم نبحث عن هـذه النمـاذج الطـاهرة لنقتفي أثرها، ونسير خلفها.

قلت: ألا تكفي تلك التعاليم الراقية التي كنت سـمعتها في القسمين السابقين؟

قال: بلى.. ولكن للشيطان منافذه الـتي يحـول بهـا الخـير شرا، والهداية ضلالة.

قلت: أيمكن ذلك؟

قـال: أجـل.. وقـد وقـع في هـذه الأمـة من ذلـك كثـير من الصـراع نتيجـة انحـرافهم عن الصـراط المسـتقيم الـذي أمـروا بالالتزام بـه، والتمسـك بحبلـه.. لقـد أشـار رسـول اللـه ﷺ إلى ذلك، ففي الحديث عن ابن مسعود قال: خـط لنـا رسـول اللـه ﷺ يوما خطا فقال: هذا سبيل اللـه، ثم خـط خطوطـا عن يمين الخط ويساره وقال: هذه سُـبل، على كـل سـبيل منـه شـيطان يدعوه، ثم تلا: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْـتَقِيمًا فَـاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُـوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّـاكُمْ بِـهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُـونَ } [الأنعام: 153] يعني الخطوط التي عن يمينه ويساره(1).

قلت: ما دام الأمـر كمـا وصـفت، وأن الشـيطان قـد مـزج الخير بالشر، فصار الشـر خـيرا، والخـير شـرا، فكيـف تمـيزون بينهما؟

قال: لقد ترك لنا رسول الله ﷺ من الوصايا والإشارات ما يستطيع به كل عاقل مخلص أن يميز دين الله عن الـدين الـذي وضعه الشيطان ليلبس به على عباد الله.

1() رواه أحمد والنسائي والدارمي.

قلت: ولكن ألا يمكن أن تتسـرب الشـياطين إلى تلـك الوصايا والموازين فتنحرف بها، وتحولها إلى سبل الشيطان؟

قال: لا.. يستحيل ذلك.. فتلك الوصايا من الوضوح والدقـة ما لا يمكن للشـياطين الوصـول إليـه.. وهي فـوق ذلـك محميـة بالمحكم من القرآن، وبما تقتضيه الفطر السليمة.

قلت: فهلا انتقلت من الإجمال إلى التفصيل.

قال: لقد وردت الوصايا الكثيرة من رسـول اللـه ﷺ بأهـل بيته الذين حددهم بدقة متناهية، واعتبرهم متمسكين بحبل الله، وأنهم لن يـتركوه أبـدا، فقـد ورد في الحـديث المتـواتر: (إنّي تركت فيكم ما إنْ تمسّكتم به لنْ تضلّوا بعدي : كتاب اللّه حبـلٌ ممدودٌ مِن السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيـتي، ولنْ يفترقـا حتّى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما)(1)

قلت: ولكن ألا يمكن أن يكون في هذا الحـديث دعـوة إلى الاهتمـام بهم ومحبتهم دون اعتبـارهم أوصـياء على الـدين، أو حافظين للصراط المستقيم؟

قال: سأضرب لك مثالا عن وصـية من تلـك الوصـايا، وهـو منقول بالتواتر، وأخبرني عن فهمـك لـه، لقـد ورد في الحـديث بعد عودته ﷺ من حجة الوداع، ووصوله إلى مكان يسمى غـدير خم قرب الجحفة جنوب المدينة.. هناك أمر الحجاج الـذين معـه بـالتوقف، وعـددهم حـوالي عشـرة آلاف من الصـحابة، وفيهم صفوتهم المهاجرون والأنصار أصـحاب القـرار في المسـلمين.. ثم أمـر بانتظـار المتـأخرين من النـاس ورد من فـات عن هـذا الموضع.. حـتى عـاد الفـائت ووصـل المتـأخر ثم خطب مودعـاً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (أمـا بعـد.. أيهـا النـاس إنمـا أنـا بشر يوشك ان يأتيني رسول ربي عز وجل فـأجيب، وإني تـارك

(1) الحديث متواتر، وقد ورد بصيغ كثيرة رواه أحمد ومسلم والترمذي وغيرهم، وقد نص الألباني على صحته انظر حديث رقم : 2458 في صحيح الجامع.

فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله عز و جل فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله تعالى واستمسكوا به.. فحث على كتاب الله ورغب فيه.. [ثم] قال: وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي.. أذكركم الله في أهل بيتي.. أذكركم الله في أهل بيتي)، ثم قال: (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا بلى! قال من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه) (1).. هل تتصور أن كل هذه التوجيهات والإعدادات من أجل أن يطلب من الناس محبتهم.. أم أن الأمر له علاقة بالدين والسلوك والحياة جميعا؟

قلت: الأمر كما ذكرت.. ولكن ما علاقة ذلك بهذه الكلية؟

قال: لقد وقعت انحرافات كثيرة في وصف الشخصية الإنسانية السوية التي أراد الله أن يصطبغ بها المسلم.. فبعضهم صور المسلم بصورة الإنسان المستعلي المستكبر على غيره من الأمم.. وبعضهم صوره بصورة الضعيف المتهالك السلبي.. وهكذا دب الانحراف إلى هذه الأمة نتيجة بعدها عن الصراط المستقيم الذي أوصاها به.

قلت: فماذا تفعلون في هذا القسم من الكلية؟

قال: نحن في هذا القسم نبحث عن هؤلاء الهداة المتمسكين بحبل الله، فنعيش في صحبتهم وولايتهم ونتربى على أيديهم، وننفي الدخن ومزيج الشيطان بهديهم..

تجولت على حلقات كثيرة في هذا القسم، وقد امتلأت تعظيما لتلك النفوس الطاهرة الممتلئة بالقداسة، والتي مثلت بجدارة كتاب ربها وسنة نبيها.

وقد شدني منها خطبة كانت تردد كثيرا، وبأصوات جميلة، كانوا يطلقون عليها خطبة المتقين، وقد رأيتها تصور الشخصية

(1) الحديث ورد بصيغ كثيرة وهو متواتر ومروي في كثير من كتب السنة.

الإنسانية في قمة كمالها وجمالها، وقصتها كما ذكــر لي هي: أن صاحبا لأمير المؤمنين يقال له همام كان رجلا عابدا، فقـال لـه: يـا أمـير المؤمـنين صـف لي المتقين حـتى كـأني أنظـر إليهم، فتثاقل عن جوابه، ثم قال: يا همام اتق الله وأحسن، فـإن اللـه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، فلم يقنع همام بهذا القـول حتى عزم عليه فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النـبي ﷺ، ثم قال: (أما بعد، فإن الله ــ سـبحانه وتعـالى ــ خلـق الخلـق حين خلقهم غنيا عن طاعتهم آمنا من معصيتهم، لانة لا تضره معصية من عصاه، ولا تنفعه طاعة من أطاعه، فقسم بينهم معايشــهم، ووضعهم من الدنيا مواضعهم. فالمتقون فيها هم أهل الفضـائل: منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع. غضــوا أبصارهم عمـا حـرم اللـه عليهم، ووقفـوا أسـماعهم على العلم النــافع لهم. نــزلت أنفســهم منهم في البلاء كــالتي نــزلت في الرخاء. لو لا الاجـل الـذي كتب اللـه عليهم لم تسـتقر أرواحهم في أجســادهم طرفــة عين، شــوقا إلى الثــواب، وخوفــا من العقاب. عظم الخالق في أنفسهم فصـغر مـا دونـه في أعينهم، فهم والجنة كمن قد رآها، فهم فيهـا منعمـون، وهم والنـار كمن قــد رآهــا، فهم فيهــا معــذبون.. قلــوبهم محزونــة، وشــرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفـة.. صبروا أياما قصيرة أعقبتهم راحة طويلة، تجارة مربحة، يســرها لهم ربهم.. أرادتهم الدنيا ولم يريدوها، وأسرتهم ففدوا أنفسـهم منها.. أما الليل فصافون أقدامهم، تالين لاجزاء القرآن يرتلونهـا ترتيلا، يحزنون به أنفسهم، ويستثيرون به دواء دائهم، فإذا مروا بآيـة فيهـا تشـويق ركنـوا إليهـا طمعـا، وتطلعت نفوسـهم إليهـا شوقا، وظنـوا أنهـا نصـب أعينهم، وإذا مـروا بآيـة فيهـا تخويـف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفـير جهنم وشـهيقها في أصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مفترشــون لجبــاههم وأكفهم، وأطــراف أقــدامهم، يطلبــون إلى اللــه في فكــاك رقـابهم.. وأمـا النهـار فحلمـاء علمـاء، أبـرار أتقيـاء، قـد بـراهم

الخوف بري القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، وما بالقوم من مرض، ويقول: قد خولطوا! ولقد خالطهم أمر عظيم! لا يرضون من أعمالهم القليل، ولا يستكثرون الكثير، فهم لانفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون.. إذا زكي أحد منهم خاف مما يقال له، فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري، وربي أعلم مني بنفسي! اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون.. فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين، وحزما في لين، وإيمانا في يقين، وحرصا في علم، وعلما في حلم، وقصدا في غنى، وخشوعا في عبادة، وتجملا في فاقة، وصبرا في شدة، وطلبا في حلال، ونشاطا في هدى، وتحرجا عن طمع.. يعمل الاعمال الصالحة وهو على وجل، يمسي وهمه الشكر، ويصبح وهمه الذكر، يبيت حذرا، ويصبح فرحا، حذرا لما حذر من الغفلة، وفرحا بما أصاب من الفضل والرحمة.. إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سؤلها فيما تحب.. قرة عينه فيما لا يزول، وزهادته فيما لا يبقى، يمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل.. تراه قريبا أمله، قليلا زلله، خاشعا قلبه، قانعة نفسه، منزورا أكله، سهلا أمره، حريزا دينه، ميتة شهوته، مكظوما غيظه.. الخير منه مأمول، والشر منه مأمون.. إن كان في الغافلين كتب في الذاكرين، وإن كان في الذاكرين لم يكتب من الغافلين.. يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه.. بعيدا فحشه، لينا قوله، غائبا منكره، حاضرا معروفه، مقبلا خيره، مدبرا شره.. في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور.. لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم فيمن يحب.. يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه.. لا يضيع ما استحفظ، ولا ينسى ما ذكر، ولا ينابز بالالقاب، ولا يضار بالجار، ولا يشمت بالمصائب، ولا يدخل في الباطل، ولا يخرج من الحق.. إن صمت لم يغمه صمته، وإن ضحك لم يعل صوته، وإن بغي عليه صبر حتى يكون الله هو الذي ينتقم له.. نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة..

أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس من نفسه.. بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة، ليس تباعده بكبر وعظمة، ولا دنوه بمكر وخديعة..((1)

العقل:

بعد أن تجولت على حلقات كثيرة سمعت فيها من هدي آل محمد وتربيتهم للنفوس، سرت مع المحاسبي إلى قسم آخر في (كلية التهذيب والترقي)، وقد رأيت على لافتة بابه هذا النص العجيب : أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44)ـ (البقرة، وغيرها كثير)، فسألت المحاسبي عنه، فقال: في هذا القسم تخاطب العقول بما وضع الله فيها من المدارك.. فتربى النفوس من خلال ذلك.

دخلنا قاعة الدرس.. فرأيت تلاميذا كثيرين متحلقين في حلق مختلفة، وهم في منتهى الأدب والنظام، وقد تعجبت من ذلك إذ لم أر مراقبين ولا أساتذة كبارا يشرفون عليهم.. بل كانوا كلهم في سن المراهقة.. ومع ذلك كانوا كلهم في حكمة الشيوخ واتزانهم وانضباطهم(2).

اقتربنا من حلقة من الحلقات، فسمعنا شيخها الشاب يقول(3): السعاة الحقيقية هي السعادة التي لا تعني إلا بقاء بلا

---

(1) ذكرت الخطبة بطولها لأهميتها، ولاستمدادها التام من القرآن الكريم، ولتصويرها لشخصية الإنسان المسلم بأرقى صورها.

(2) سنذكر هنا ـ من خلال ما ورد في كتب السلوك الإسلامية ـ ما بنى عليه الإسلام تعامله مع النفس، وهو مما اشتركت في ذكره مدارس السلوك الإسلامية باختلاف توجهاتها.

(3)استفدنا الكثير من مادة هذا المبحث من كتاب (ميزان العمل) للإمام أبي حامد الغزالي، مع التصرف الذي يقتضيه المقام.

وقد قال الغزالي في مقدمة هذا الكتاب :(لما كانت السعادة التي هي مطلوب الأولين والآخرين لا تنال إلا بالعلم والعمل، وافتقر كل واحد منهما إلى الإحاطة بحقيقته ومقداره، ووجب معرفة العلم والتمييز بينه وبين غيره بمعيار، وفرغنا منه، وجب معرفة العمل المسعد، والتمييز بينه وبين العمل المشقي، فافتقر ذلك أيضاً إلى ميزان، فأردنا أن نخوض فيه ونبين أن الفتور عن طلب السعادة حماقة، ثم نبيّن العلم وطريق تحصيله، ثم نبيّن العمل المسعد وطريقه. وكل ذلك بطريقة تترقى عن حد طريق التقليد إلى حد الوضوح، لو استقصى بحقيقته وطوّل الكلم فيه ارتقى إلى حد البرهان على الشروط

فناء، ولـذة بلا عنـاء، وسـرورا بلا حـزن، وغـنى بلا فقـر، وكمـالا بلا نقصان، وعزا بلا ذل.. وفـوق ذلـك تكـون أبـد الآبـاد، وعلى وجـه لا تنقصه تصرم الأحقاب والآماد، بل لو قـدّرنا الـدنيا مملـوءة بالـدّرر، وقدّرنا طائراً يختطف في كل ألف سنة حبـة واحـدة منهـا، لفـنيت الدّرر ولم ينقص من أبد الآباد شيء.

فمثل هذه السعادة لا نحتاج إلى استحثاث النفوس على طلبها، إذ أن كل يتسارع إلى ما هو أقل منها بكثير، ولا يصرفه عنهـا كـون الطريق إليها متوعراً، ومحوجاً إلى ترك لذات الدنيا، واحتمال أنواع من التعب هنا.. فإن المدة في احتمـال التعب منحصـرة، والفـائت فيها قليل.. واللذات الدنيويـة منصـرمة منقضـية.. والعاقـل يتيسـر عليه ترك القليل نقداً في طلب أضعافه نسيئة.

ولذلك ترى الخلق كلهم في التجـارات والصـناعات، وحـتى في طلب العلم، يحتملون من الـذل والخسـران، والتعب والنصـب، مـا يعظم مقاسـاته طمعـاً في حصـول لـذة لهم في المسـتقبل، تزيـد على ما يفوتهم في الحال زيادة محدودة، فكيف لا يسمحون بتركه في الحال للتوصل إلى مزايا غير مقدرة ولا محدودة.

قـال آخـر: إن سـبب فتـور الخلـق عن طلب هـذا النـوع من السعادة هو ضعف إيمانهم باليوم الآخر، وإلا فالعقل الناقص قـاض بالتشمير لسلوك طريق السعادة فضلاً عن الكامل.

قال آخر: لقد تأملت فـرق النـاس في أمـر الآخـرة فوجـدتهم أربع فرق:

أما أولاها، وهي أكمل الفرق وأعقلهـا، وأحقهـا بنيـل السـعادة، فهي الفرقـة الـتي اعتقـدت الحشـر والنشـر والجنـة والنـار، كمـا نطقت بهـا الشـرائع، وأفصـح عن وصـفه القـرآن، وأثبتـوا اللـذات الحسية جميعها من المطعـوم والمشـموم والملمـوس والملبـوس

التي ذكرناها في (معيار العلم)، وإن كنا لسنا نطـوّل الكلام بـه، ولكن نرشـد إلى أصـوله وقوانينه)

والكتاب في جملته خير ما يبين النظرة الإسلامية للتعامـل مـع النفس، وهـو في نفس الوقت يرد على المقولات المختلفة التي تبرر للنفس سلوكاتها العشوائية غير المنضبطة.

واستفدنا كذلك من كتاب (تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين) للراغب الأصفهاني.

والمنظور إليه، وغير ذلك.. واعترفوا بأنه يضاف إلى ذلك أنواع من السرور، وأصناف من اللذات التي لا يحيط بهـا وصـف الواصـفين، فهي (مما لا أعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطـر على قلب بشـر)(1)

واعتقدوا أن ذلك يجري أبداً بلا انقطاع، وأنـه لا ينـال إلا بـالعلم والعمـل، وهـذا هـو قـول المسـلمين.. وهـو مـا يملـؤهم بالسـلام والسعادة والطمأنينة.

وأما الثانية، فقوم اعـترفوا بنـوع من اللـذة لا تخطـر على قلب بشر كيفيتها، وسموها لذة عقلية، وأما الحسـيات فـأنكروا وجودهـا من الخـارج إلا من طريـق التخييل(2).. وهـذا القـول يتنـافى مـع متطلبـات النفس الـتي تـرى أنهـا لا تسـتغني عن الملمـوس من اللذات والمنظور منها والمطعوم وغيره.

وأما الثالثـة، فـذهبوا إلى إنكـار اللـذة الحسـية جملـة، بطريـق الحقيقة والخيال، وزعموا أن التخيل لا يحصل إلا بـآلات جسـمانية، والموت يقطع العلاقة بين النفس والبدن، الذي هو آلته في التخيل وسائر الاحساسات، ولا يعود قط إلى تدبير البدن بعـد أن أطرحـه، فلا يبقى له إلا آلام ولذات ليست حسية ولكنها أعظم من الحسية.

وأما الرابعـة، فهم جمـاهير من الحمقى، ذهبـوا إلى أن المـوت عدم محض، وأن الطاعة والمعصية لا عاقبة لهما، ويرجـع الإنسـان

1() ورد هذا الوصف للجنة في أحاديث كثيرة منها ما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قـال :(لمـا خلـق اللـه جنـة عـدن خلـق فيهـا مـا لا عين رأت ولا أذن سـمعت ولا خطـر على قلب بشـر، ثم قـال لهـا: تكلمي فقـالت:﴿ قَـدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُـونَ) (المؤمنون:1)، وفي رواية :(خلق الله جنة عدن بيده ودلى فيها ثمارها وشق فيها أنهارهـا ثم نظـر فيهـا فقـال لهـا: تكلمي فقـالت :﴿ قَـدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُـونَ) (المؤمنـون:1)، فقـال: (وعـزتي لا يجـاورني فيـك بخيـل) رواه الطـبراني في الأوسـط والكبـير وأحـد إسـنادي الطبراني في الأوسط جيد.

2() وفرق هؤلاء بين طريق التخيل في حالة النوم وبين هذا التخييل بأن النـوم يتكـدر بالتنبـه، وذلـك لا تكـدر لـه، بـل هـو على التأبيـد، وذكـروا أن هـذا قاصـر على طائفـة من المشـغوفين بالمحسوسـات، والـذين التفـات نفوسـهم مقصـور عليهـا، ولا يسـمون إلى اللذات العقلية، وذكروا أن هذا لا يفضي إلى أمر يـوجب فتـوراً في الطلب، فـإن الالتـذاذ إنما يقع بما يحصل في نفس الإنسان من التأثر بالملموس والمنظور والمطعـوم وغـيره، والشيء الخارج سـبب في حصـول الأثـر، وليسـت اللـذة من الأثـر الخـارج بـل من الأثـر الحاصل عند حضور الخارج. فإذا أمكن حصول الأثر في النفس دون الشيء الخارج، كمـا في حالة النوم، فلا أرب في الشيء الخارج.. (انظر: ميزان العمل)

بعد موته إلى العدم، كما كان قبل وجوده.

وقد رأيت أن الدعاة لهذا المذهب لا يعدون كونهم بطّالين غلبت عليهم شهواتهم، واستولى عليهم شيطانهم، فلم يقدروا على قمع هواهم، ولم تسمح لهم رعونتهم بأن يعترفوا بالعجز عن مقاومة الهوى، فتعللوا لنقصانهم بأن ذلك واجب وأنه الحق، ثم أحبّوا أن يساعدهم غيرهم، فدعوا إلى البطالة وما جلبت عليه النفس من اتباع الهوى الذي هو أشد حامل للأحمق على المسارعة إلى التصديق به.

قال آخر: لقد تحدث شيخنا أبو حامد عن هذا الصنف الرابع كثيرا، وذكر علة ما وقعوا فيه وورد على مقولاتهم.. ومن أشهرها ادعاءهم أن (**النقد خير من النسيئة.. ولذات الدنيا يقين.. ولذات الآخرة شك!!.. ولا يترك اليقين بالشك**)

وقد اعتبر أن هذا القياس فاسد.. وأنه لا يختلف عن قياس إبليس فى قوله :﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (الأعراف: من الآية12).. فظن أن الخيرية فى النسب..

وقد ذكر أن علاج هذا الغرور يتم بأمرين: التصديق الإيماني.. والبرهان.

أما **التصديق** فهو أن يصدق الله تعالى فى قوله :﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (القصص: من الآية60)، وقوله :﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (آل عمران: من الآية185)).. وتصديق الرسول ﷺ فيما جاء به.

وأما **البرهان**: فهو أن يعرف وجه فساد قياسه، وأن قوله: الدنيا نقد والآخرة نسيئة مقدمة صحيحة، وأما قوله: النقد خير من النسيئة. فهو محل التلبيس.. وليس الأمر كذلك.. بل إن كان النقد مثل النسيئة في المقدار.. والمقصود فهو خير.. وإن كان أقل منها.. فالنسيئة خير منه.. فإن الكافر المغرور يبذل في تجارته درهماً ليأخذ عشرة نسيئة، ولا يقول :(النقد خير من النسيئة فلا أتركه)، وإذا حذره الطبيب الفواكه ولذائذ الأطعمة ترك ذلك في الحال خوفاً من ألم المرض في المستقبل؛ فقد ترك النقد ورضي

بالنسيئة.. والتجار كلهم يركبون البحار ويتعبون في الأسفار نقداً لأجل الراحة والربح نسيئة، فإن كان عشرة في ثاني الحال خيراً من واحد في الحال فانسبوا لذة الدنيا من حيث مدتها إلى مدة الآخرة، فإن أقصى عمر الإنسان مائة سنة، وليس هو عشر عشير من جزء ألف ألف جزء من الآخرة، فكأنه ترك واحداً ليأخذ ألف ألف بل ليأخذ ما لا نهاية له ولا حد، وإن نظر من حيث النوع رأى لذات الدنيا مكدرة مشوبة بأنواع المنغصات ولذات الآخرة صافية غير مكدرة، فإذن قد غلط في قوله: (النقد خير من النسيئة)

فمنشأ هذا الغرور ـ كما ترون ـ هو قبول لفظ عام مشهور أطلق وأريد به خاص، فغفل به المغرور عن خصوص معناه، فإن من قال: النقد خير من النسيئة، أراد به خيراً من نسيئة هي مثله وإن لم يصرح به.

قال آخر: ولكن الشيطان لا يكتفي بهذا.. بل هو يفزع إلى قياس آخر هو: (**أن اليقين خير من الشك.. والآخرة شك.. والدنيا يقين**)

قال آخر: إن هذا القياس لا يختلف عن الذي قبله.. بل لعله أكثر فساداً من الذي قبله.. لأن كلا أصليه باطل، إذ اليقين خير من الشك إذا كان مثله، وإلا فالتاجر في تعبه على يقين وربحه على شك، وطالب العلم في طلبه على يقين وفي إدراكه رتبة العلم على شك، والصياد في تردده على المقتنص على يقين وفي الظفر بالصيد على شك، وكذا الحزم دأب العقلاء بالاتفاق وكل ذلك ترك اليقين بالشك، ولكن التاجر يقول: إن لم أتجر بقيت جائعاً وعظم ضرري، وإن اتجرت كان تعبي قليلاً وربحي كثيراً؛ وكذلك المريض يشرب الدواء البشع الكريه وهو من الشفاء على شك ومن مرارة الدواء على يقين، ولكن يقول: ضرر مرارة الدواء قليل بالإضافة إلى ما أخافه من المرض والموت.

وهكذا من شك في الآخرة فواجب عليه بحكم الحزم أن يقول: أيام الصبر قلائل، وهو منتهى العمر بالإضافة إلى ما يقال من أمر الآخرة، فإن كان ما قيل فيه كذباً؛ فما يفوتني إلا التنعم أيام حياتي وقد كنت في العدم من الأزل إلى الآن لا أتنعم، فأحسب أني بقيت في العدم، وإن كان ما قيل صدقاً، فأبقى في النار أبد الآباد

وهذا لا يطاق، ولهذا قال علي ـ رضي الله عنه ـ لبعض الملحدين: إن كان ما قلته حقاً فقد تخصلت وتخلصنا، وإن كان ما قلناه حقاً فقد تخلصنا وهلكت.

قال آخر: أما الأصل الثاني من كلامه: وهو (**أن الآخرة شك**)، فهو أيضاً خطأ بل ذلك يقين عند المؤمنين، وليقينه أدلة كثيرة(1) لعل أقلها هو الإيمان تقليداً للأنبياء والعلماء، وذلك يزيل الغرور وهو مدرك يقين العوام وأكثر الخواص، ومثالهم مثال مريض لا يعرف دواء علته، وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه النبت الفلاني فإنه يطمئن نفس المريض إلى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك البراهين الطبية، بل يثق بقولهم ويعلم به، ولو بقي سوادي أو معتوه يكذبهم في ذلك وهو يعلم بالتواتر وقرائن الأحوال أنهم أكثر منه عدداً وأغزر منه فضلاً وأعلم منه بالطب، بل لا علم له بالطب، فيعلم كذبه بقولهم ولا يعتقد كذبهم بقوله، ولا يغتر في علمهم بسببه، ولو اعتمد قوله وترك قول الأطباء كان معتوهاً مغروراً، فكذلك من نظر إلى المقرين بالآخرة والمخبرين عنها والقائلين بأن التقوى هو الدواء النافع في الوصول إلى سعادتها، وجدهم خير خلق الله وأعلاهم رتبة في البصيرة والمعرفة والعقل، وهم الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم، وشذ منهم آحاد من البطالين غلبت عليهم الشهوة ومالت نفوسهم إلى التمتع، فعظم عليهم ترك الشهوات وعظم عليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار، فجحدوا الآخرة وكذبوا الأنبياء، فكما أن قول الصبي وقول السوادي لا يزيل طمأنينة القلب إلى ما اتفق عليه الأطباء فكذلك قول هذا الغني الذي استرقته الشهوات لا يشكك في صحة أقوالها الأنبياء والأولياء والعلماء.

قال آخر: وفوق ذلك، فلو تأمل هذا الشاك(2) آيات الرب تعالى الدالة على وجوده وقدرته ومشيئته ووحدانيته وصدق رسله فيما أخبروا به عنه لعلم أن ذلك حق لاشك فيه وأن خالق هذا

1() سنرى التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في رسالة (أسرار الحياة) من هذه السلسلة.

2() هذا الدليل منقول بتصرف من (الجواب الكافي) لابن القيم ص22.

العـالم هـو رب السـموات والأرض، يتعـالى ويتقـدس ويتـنزه عن خلاف ما أخبرت به رسله عنه، ومن نسبه إلى غير ذلك فقد شتمه وكذبه وأنكـر ربوبيتـه وملكـه إذ من المحـال الممتنـع عنـد كـل ذي فطرة سليمة أن يكون الملك الحق عاجزا أو جاهلا لا يعلم شيئا ولا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم ولا يأمر ولا ينهي ولا يـثيب ولا يعـاقب ولا يعـز من يشـاء ولا يـذل من يشـاء ولا يرسـل رسـله إلى أطـراف مملكتـه ونواحيهـا ولا يعتـني بـأحوال رعيتـه، بـل يـتركهم سـدى، ويخليهم هملا.. إن مثـل هـذا يقـدح في ملـك آحـاد ملـوك البشـر ولايليق به، فكيف يجوز نسبه للملك الحق المبين.

وإذا تأمل الإنسان حالـه من مبـدإ كونـه نطفـة إلى حين كمالـه واستوائه تـبين لـه أن من عـني بـه هـذه العنايـة، ونقلـه إلى هـذه الأحـوال، وصـرفه في هـذه الأطـوار لا يليـق بـه أن يهملـه ويتركـه سدى لا يأمر ولا ينهاه ولا يعرفه بحقوقه عليه ولا يثيبه ولا يعاقبه.

ولو تأمل العبد حق التأمل لكان كـل مـا يبصـره ومـا لا يبصـره دليلا له على التوحيد والنبوة والمعاد، بـل إن الانسـان نفسـه دليـل على وجود خالقه وتوحيده وصدق رسله وإثبات صفات كماله.

قال آخر: والشيطان لا يكتفي بهـذا، بـل يلجـأ إلى قيـاس آخـر يوسوس به لمن امتلأت نفوسهم بحب الشهوات يقول لهم فيه : (**لقد أحسن اللـه إليكم بنعم الـدنيا.. وكـل محسـن فهـو محب.. وكل محب فهو محسن**)

وليس الأمر كما يقول، فقد يكون في الظـاهر محسـناً.. ولكنـه ليس محباً.. بل ربما يكون الإحسان سبب هلاكـه على الاسـتدراج.. وذلك محض الغرور.. لقد قال الله تعالى يبين فساد هذا القيـاس : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَـهُ فَيَقُـولُ رَبِّي أَكْـرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16) كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُـونَ الْيَتِيمَ (17) وَلَا تَحَاضُّـونَ عَلَى طَعَـامِ الْمِسْـكِينِ (18) وَتَـــأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (19) وَتُحِبُّونَ الْمَـــالَ حُبًّا جَمًّا (20)﴾ (الفجر).. وقال :﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِـزْبٍ بِمَـا لَـدَيْهِمْ فَرِحُـونَ (53) فَـذَرْهُمْ فِي غَمْـرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (54) أَيَحْسَـبُونَ أَنَّمَـا نُمِـدُّهُمْ بِـهِ مِنْ مَـالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَـارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْـرَاتِ بَـلْ لَا يَشْـعُرُونَ (56)﴾ (المؤمنـون).. وقـال:﴿ فَـذَرْنِي وَمَنْ يُكَـذِّبُ بِهَـذَا

الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45) (القلم).. وقال : فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44) (الأعراف)

قال آخر: لكن مم ينشأ هذا النوع من الغرور؟

قال آخر: هو قياس من أقيسة إبليس جعلهم ينظرون مرة إلى نعم الله تعالى عليهم في الدنيا.. فيقيسون عليها نعم الآخرة، ومرة ينظرون إلى تأخير عذاب الله عنهم في الدنيا فيقيسون عذاب الآخرة كما أخبر الله تعالى عنهم، فقال : وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (8) (المجادلة).. ومرة ينظرون إلى المؤمنين وهم فقراء.. فيزدرونهم ويقولون: أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا (الأنعام: من الآية53).. ويقولون: لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ (الاحقاف: من الآية11)

***

انتقلنا إلى حلقة أخرى، وقد التف جمع من الشباب يتذاكرون، وقد كان لهم من الوقار والسمت والهيبة ما ملأني تعظيما لهم، قال أحدهم: إن استسلام النفس لربها وخضوعها له لا يقف بينها وبين سعادتها وملذاتها.

قال آخر: لقد قال شيخنا أبو حامد في حواره للطوائف التي امتلأت بالعبودية لنفوسها يذكرها باللذات التي فاتتها بسبب ذلك :(إن هذه الفرقة، وإن أنكروا السعادة الآخروية، فلم ينكروا السعادة الدنيوية، وأعلى السعادات الدنيوية العزة والكرامة، والمكانة والقدرة، والسلامة من الغموم والهموم، ودوام الراحة والسرور.. وهذا أيضاً لا يفوز به الإنسان إلا بالعلم والعمل.. فلا يخفي لذة العالم في علمه، وفيما ينكشف له في كل لحظة من مشكلات الأمور، لا سيما إذا كان في ملكوت السموات والأرض، والأمور الآلهية.. وهذا لا يعرفه من لم يذق لذة انكشاف المشكلات.. ثم إنها لذة لا نهاية لها، لأن العلوم لا نهاية لها، ولا مزاحمة فيها، لأن المعلومات تتسع للطلاب وإن كثروا، بل استئناس العالم يزيد

بكثرة شركائه، إذا كان يقصد ذات العلم، لا حطام الدنيا ورئاستها، فإن الدنيا هي التي تضيق بالمزاحمة، بل يزداد سعة بكثرة الطلاب.. ثم مع أنها أوفى اللذات عمن أنس بها، فهي أدومها، إذ المنعم بها عليه هو الله، ولكن عند اكبابه على الطلب وتجرده له. ولذلك لا ترى جماعة من الرؤساء والولاة، إلا وهم في خوف العزل يتشوقون أن يكون عزهم كعز العلماء.. وأما العمل فلسنا نعني به إلا رياضة الشهوات النفسانية، وضبط الغضب، وكسر هذه الصفات، لتصير مذعنة للعقل، غير مستولية عليه، ومستسخرة له في ترتيب الحيل الموصلة إلى قضاء الأوطار. فإن من قهر شهواته، فهو الحرّ على التحقيق، بل هو الملك. ولذلك قال بعض الزهاد لبعض الملوك: (ملكي أعظم من ملك)، فقال: كيف؟ قال: (من أنت عبده عبدي)، وأراد به أنه عبد شهواته، وشهواته صارت مقهورة له.. فعبد الشهوات، العاجز عن كسرها وقهرها، رقيق وأسير بالطبع، لا يزال في عناء دائم وتعب متواتر، إن قضى وطره يوماً عجز عنه أياماً. ثم لا يخلو في قضائها عن أخطار، وعلائق ومشاق، يضطر إلى تقلدها، فتقليل الشهوات تقليل لأسباب الغموم، ولا سبيل إلى إماطتها إلا بالرياضة والمجاهدة، وهو المراد بالعمل.. فإذن العالم العامل أحسن الناس حالاً، عند من رأى السعادة مقصورة على الدنيا. فإن الدنيا ليست تصفو لأحد، وليس يفي جدواها بمشاقها. فالممعن في اتباع الشهوات، والمعرض عن النظر في المعقولات، شقيّ في الدنيا باتفاق، وشقيّ في الآخرة إلا عند شرذمة من الحمقى، لا يؤبه لهم، ولا يعبأ بهم، ولا يعدون في جملة العقلاء رأساً)(1)

الطب:

انتقلنا بعد قسم الحكمة إلى قسم آخر كان أشبه بالعيادة.. وقد رأيت مكتوبا على بابه (عيادة عيوب النفس ومداوتها)(2)، فسألت المحاسبي عنه، فقال: هذه العيادة تحاول أن تشخص عيوب النفس.. لتقوم بعد ذلك بعلاجها.

1() انظر: (ميزان العمل) للغزالي.

2() هذا اسم الكتاب الذي استفدنا منه المعاني التي سنذكرها، وهو لأبي عبد الرحمن السلمي.

قلت: فمن طبيبها؟

قال: رجل من أهل الله يقال لـه (أبـو عبـد الـرحمن السـلمي) (1).. قـدمت بـه من (نيسـابور) لمـا رأيت فيـه من حكمـة وعلم وقدرة على التأثير والإصلاح..

وقد قدر الله بمنه وكرمه أني بمجرد أن قدمت بـه، وسـمع بـه الناس.. انهالوا عليه.. واستفادوا منه.. وتربوا على يديه..

قال ذلك، ثم طلب مني أن ندخل تلك العيادة العجيبـة الـتي لم أر مثلها في حياتي..

رأينا جمعا من الناس ملتفين حول الشيخ كما تلتف الهالة حول الشمس.. كانوا وكأن على رؤوسهم الطير..

جلسنا مع الجمع نسمع وصفات الطبيب الحكيم..

قال أحد الحاضرين: يا شيخ.. أشـكو إليـك نفسـي فإنهـا تطلب كشف الضر ممن لا يملكه، وترجو النفع ممن لا يقـدر عليـه، وتهتم بالرزق وقد تكفل الله لها بالرزق.

قال السلمي: فعالجها بالرجوع إلى صحة الإيمان بما أخبر اللــه في كتابه.. فقد قال: ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَـهُ إلا هُـوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17) وَهُوَ الْقَـاهِرُ فَـوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِـيرُ (18)﴾ (الأنعـام:17).. وقـال :﴿ وَمَـا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْـتَقَرَّهَا وَمُسْـتَوْدَعَهَا كُـلٌّ

(1) أشـير بـه إلى الإمـام الجليـل محمـد بن الحسـين بن محمـد بن موسـى الازدي السلمي النيسابوري، المعروف بأبي عبد الرحمن السلمي (325 - 412 هـ)

صرف أبو عبـد الـرحمن همـه إلى الدراسـة الحـديث والتصـوف، ولقي شـيوخ عصـره فيهما. فرحل في الطلب إلى: العراق، والـري، وهمـدان، ومـرو، والحجـاز، وغيرهـا لكتب الحديث، ولقاء الشيوخ، كما جـرت بـذلك عـادة عصـره، فـوق تتلمـذه لشـيوخ نيسـابور.. ونيسـابور يومئـذ من أمهـات المـدن الإسـلامية، الـتي بلغت قمت الاكتمـال في العمـران والفكر.

بلغت تصانيفه مئة أو أكثر، منها (حقائق التفسـير) و(طبقـات الصـوفية) و(مقدمـة في التصوف) رسالة، و(مناهج العارفين) و(رسالة في غلطات الصوفية) و(رسـالة الملامتيـة) و(آداب الفقــر وشــرائطه) و(بيــان زلــل الفقــراء ومنــاقب آدابهم) و(الفتــوة) و(آداب الصحبة).. و(عيوب النفس ومـداواتها)، ومنـه اسـتفدنا مـا سـنذكره في هـذا المحـل من الأدوية الروحانية.

فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (هود:6).. ثم انظـر إلى ضـعف الخلـق وعجـزهم لتعلم أن كل من يكون محتاجـا لا يقـدر على قضـاء حاجـة غـيره.. ومن يكون عاجزا لا يمكنه ان يصلح أسباب غيره.

قال آخر: نفسي ألفت الخواطر الرديئة حـتى اسـتحكمت فيهـا المخالفات.

قـال السـلمي: فعالجهـا بـرد تلـك الخـواطر في الابتـداء، لئلا تستحكم.. وذلك بالذكر الدائم، وملازمة الخـوف، وبعلمـك أن اللـه يعلم ما في سرك كما يعلم الخلق ما في علانيتـك، فتسـتحي منـه أن تصلح للخلق موضع نظرهم، ولا تصلح موضع نظر الحق.

حدثني شيخي وقـدوتي إبـراهيم الخـواص، قـال : (أول الـذنب الخطرة، فإن تداركها صاحبها بالكراهية وإلا صـارت سـقط الهـوى فتصد العقل والعلم والبيان)

قال آخر: نفسـي اسـتحكمت فيهـا الغفلـة والتـواني والإصـرار والتسويف وتقريب الأمل وتبعيد الأجل.

قال السلمي: فعالجها بدواء الجنيد.

قال: وما دواؤه؟

قال: لقد سئل: كيف السبيل إلى الانقطاع إلى الله؟.. فقال : (بتوبة تحل الإصرار، وخوف يزيل التسويف، ورجاء يبعث على قصد مسـالك العمـل، وذكـر اللـه على اختلاف الأوقـات، وإهانـة النفس بقربها من الأجـل، وبعـدها عن الأمـل)، قيـل: فبم يصـل العبـد إلى هذا؟ فقال : (بقلب مفرد فيه توحيد مجرد)

قال آخر: نفسي استحكمت فيها رؤيتها لأعمالها، وإعجابها بهـا، فانشغلت بها عن كل شيء.

قال السلمي: فعالجها برؤية فضل الله عليها في جميع الأحوال تسـقط عنـك رؤيتهـا لنفسـها.. حـدثني شـيخي الواسـطي قـال : (أقرب شيء إلى مقت الله رؤية النفس وأفعالها)

قال آخر: أشكو لك نفسي.. فقد انشغلت بعيـوب النـاس عمـا

بها من عيبها.

قال السلمي: فعالجها بمحبة الصالحين والائتمار بأوامرهم.. وأخبرها أن أقل حسنة تفعلها أن تسكت عن عيوب الناس وتعذرهم فيها وتستر عليهم خزاياهم لعل الله أن يصلحها لها ما ابتليت به من عيوبها.. فقد قال ﷺ : (من ستر على أخيه المسلم ستر الله عورته ومن تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته حتى يفضحه في جوف بيته)

وحدثني شيخي (زاذان المداينى) قال : (رأيت أقواما من الناس لهم عيوب فسكتوا عن عيوب الناس، فستر الله عيوبهم، وزالت عنهم تلك العيوب.. ورأيت أقواما لم تكن لهم عيوب اشتغلوا بعيوب الناس فصارت لهم عيوب)

قال آخر: أشكو لك نفسي.. فإنها اشتغلت بتزيين الظواهر.. والتخشع من غير خشوع.. والتعبد من غير حضور.

قال السلمي: فعالجها بالاشتغال بحفظ الأسرار، ليزين الله أنوار باطنها.. فقد قال ﷺ : (من أصلح سريرته أصلح الله علانيته)

قال آخر: أشكو لك نفسي.. فإنها تطلب العوض على أعمالها.

قال السلمي: فعالجها برؤية تقصيرها في عملها، وقلة إخلاصها.. فإن الكيس في عمله من أعرض عن طلب الأعراض أدبا وتورعا.. وأعلمها أن ما قدر لها سيأتيها دنيا وآخرة.

قال آخر: أشكو لك نفسي.. فإنها لا تجد لذة للطاعة.

قال السلمي: ذلك من سقم القلب، وخيانة السر.. فعالجها بأكل الحلال، ومداومة الذكر، وخدمة الصالحين والدنو منهم، والتضرع إلى الله تعالى في ذلك.. ليمن على قلبك بالصحة وزوال ظلمات الأسقام فتجد عند الذكر لذة الطاعة.

قال آخر: أشكو لك نفسي.. فإنها لا تحن لشيء كما تحن للراحة والنوم والكسل.

قال السلمي: الكسل ميراث الشبع.. فإن النفس إذا شبعت قويت.. فإذا قويت أخذت بحظها وغلبت القلب بوصلها إلى حظها.. فعالجها بالتجويع فإنها إذا جاعت عدمت حظها، وضعفت فغلب عليها القلب، فإذا غلب عليها حملها على الطاعة وأسقط عنها الكسل، ولذلك قال النبي ﷺ : (ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان ولابد ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس)

قال آخر: أشكو لك نفسي.. فإنها تطلب الرئاسة بالعلم.. وتتكبر به وتفاخر وتباهي وتتطاول..

قال السلمي: فعالجها برؤية منة الله عليها في أن جعلها وعاء لأحكامه.. وعالجها برؤية تقصيرها في شكر نعمة الله عليها بالعلم والحكمة والتزام التواضع والانكسار والشفقة على الخلق والنصيحة لهم.. فإنه روى عن النبي ﷺ أنه قال : (من طلب العلم ليباهى به العلماء، أو ليمارى به السفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس إليه فليتبوأ مقعده في النار)

وقال بعض السلف : (من ازداد علما فليزدد خشية، فإن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)(فاطر: من الآية 28).. وقال رجل للشعبي : (أيها العالم)، فرد عليه : (إنما العالم من يخشى الله)

قال آخر: أشكو لك نفسي.. فإنها كثيرة الكلام.

قال السلمي: فعالجها بإخبارها بأنها مؤاخذة بما تتكلم به.. وأنه مكتوب عليها.. وأنها مسئولة عنه.. فالله تعالى يقول :﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (12)﴾ (الانفطار).. ويقول :﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (قّ: 18).. ويقول :﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ (النساء:114)
ويقول ﷺ : (وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد

ألسنتهم)(1) وقال: (لا تكثر الكلام بغير ذكر الله فإن كـثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب وإن أبعد النـاس من اللـه تعـالى القلب القاسي)(2)

قال آخر: أشكو لك نفسي، فإنهـا إن رضـيت مـدحت الراضـي عنه فوق الحد، وإذا غضبت ذمته، وتجاوزت الحد.

قال السلمي: فعالجهـا برياضـتها على الصـدق والحـق حـتى لا تتعدى في مدح من رضـى عنـه ولا في ذم من سـخط عليـه، فـإن أكثر ذلك من قلة المبالاة بالأوامر والنواهي.. وقد قال رسول اللـــه ﷺ : (احثوا في وجوه المادحين التراب)

قال آخـر: أشـكو لـك نفسـي.. فإنهـا تسـتخير اللـه تعـالى في أفعالها، ثم تتسخط عليه فيما يختار لها.

قـال السـلمي: فعالجهـا بإعلامهـا بأنهـا لا تعلم من الأشـياء إلا ظواهرها.. أما الله فإنه يعلم علنها وحقائقها.. وأعلمهـا بـأن حسـن اختيار الله لها خير من اختيارها لنفسها.. فإن اللـه هـو المـدبر، ولا مدبر سواه.. وأعلمها بأنها سخطها للقضاء لا يغير المقضى.

قال آخر: أشكو لك نفسي.. فإنها كثيرة التمـني.. وليس تمنيهـا إلا اعتراض على الله تعالى في قضائه وقدره.

قال السلمي: فعالجها بإعلامها أنها لا تدري مـا يعقبـه التمـني.. أيجرها إلى الخـير أم إلى الشـر.. أم إلى الرضـا أم إلى السـخط.. فإذا أيقنت ذلك رجعت إلى الرضا والتسليم، فتستريح.. ولذلك قال النبي ﷺ : (لا يتمـنين أحـدكم المـوت لضـر نـزل بـه وليقـل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني إذا كانت الوفـاة خـيرا لي) ولذلك قـال النـبي {صـلى اللـه عليـه وسـلم} (إذا تمـنى أحـدكم فلينظر ما يتمنى فإنه لا يدري ما يكتب له من أمنيته)

قال آخر: أشكو إليك نفسي.. فهي كثرة الذنوب والمخالفـات..

1() رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجـه كلهم من روايـة أبي وائـل عن معـاذ وقال الترمذي حديث حسن صحيح.

2() رواه الترمذي والبيهقي، وقال الترمذي حديث حسن غريب.

وهي تجعل قلبي مثل الحجارة الصلبة القاسية.

قال السلمي: فعالجها بكثرة الاستغفار، والتوبة آناء الليل وأطراف النهار.. وعالجها بمداومة الصيام والتهجد بالليل والناس نيام.. وعالجها بخدمة أهل الخير ومجالسة الصالحين وحضور مجالس الذكر مع الذاكرين.. فقد روي فإن رجلا شكي إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال: (أدنه من مجالس الذكر).. وقال:(إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة)، وقال:(إن العبد إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب واستغفر الله ذهبت فإن أذنب ثانيا فكت في قلبه نكتة أخرى إلى ان يصير القلب غيثا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا)، ثم قرأ النبي ﷺ : كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين:14)

قال آخر: أشكو إليك نفسي وسرورها لمن يمدحها.. وطلبها الراحة.

قال السلمي: ذلك من نتاج الغفلة.. فعالجها بالتيقظ لما بين يديها، وأعلمها بتقصيرها فيما أمرت به، وارتكابها ما نهيت عنه.. وأعلمها أن هذه الدار سجن.. ولا سرور ولا راحة في السجن.. فإن النبي ﷺ قال: (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)..

حدثني أستاذي داود الطائي قال : (قطع نياط قلوب العارفين أحد الخلودين)، وقال رجل لبشر الحافي: ما لى أراك مهموما؟ فقال : (لأني مطلوبه)

قال آخر: أشكو إليك نفسي.. واتباعها هواها، وموافقتها لمواضع رضاها.. وحرصها على مراداتها.

قال السلمي: فعالجها بقوله تعالى : وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41) (النازعات).. وأعلمها بقوله تعالى : إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إلا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53) (يوسف).. حدثني مطر الداري قال : (لنحت الجبال بالأظافير أهون من زوال الهوى إذا تمكن في النفس)

قال آخر: أشكو إليها نفسي واسترواحها إلى معاشرة الأقران..

وميلها إلى صحبة الإخوان.

قال السلمي: فأعلمها بأنها ستفارق كل صاحب.. وأنه لا يــدوم لها إلا صحبة ربها.. فقد روي أن جبريل ﵇ قال للنـبي ﷺ : (عش ما عشت فإنك ميت وأحببت من شـئت فإنـك مفارقـه واعمـل مـا شئت فإنك مجزى به)

حـدثني أبـو القاسـم الحكيم قـال : (الصـداقة عـداوة إلا مـا صافيت، وجمع المال حسرة إلا ما واسـيت، والمخالطـة تخليـط إلا ما داويت)

السياسة:

بعد أن استفدت ما شاء الله لنا أن أستفيد في عيـادة أبي عبـد الـرحمن السـلمي سـرنا إلى قسـم آخـر كتب على بابـه (تهـذيب الأخلاق) (1).. فسألت المحاسبي عنـه، فـأخبرني أن هـذا القسـم خاص برجل جاء به من الري يطلق عليه (ابن مسكويه)(2)

فسألته عن الفرق بين هذا والذي قبلـه.. فقـال لي: ذاك رجـل يقصده الكل.. أما هذا فرجل يقصده صنف خاص من الناس.. وهم صنف يحن إلى الحكمة العقلية ويميل إليهـا.. ولا يـؤتى إليـه إلا من قبلها.

---

(1) هذا اسم الكتاب الذي استفدنا منه المعاني التي سنذكرها، وهو لابن مسكويه.

(2) أشير به إلى أبي علي أحمد بن محمـد بن يعقـوب مسـكويه (ت421 هــ)، وهـو مؤرخ بحاثة، أصله من الري وسـكن أصـفهان وتـوفي بهـا.. اشـتغل بالفلسـفة والكيميـاء والمنطق مدة، ثم أولع بالتاريخ والادب والانشاء.. وكان قيما على خزانة كتب ابن العميد، ثم كتب عضد الدولة بن بويه، فلقب بالخازن، ثم اختص ببهاء الدولة البويهي وعظم شأنه عنده.

وقال أبو حيان في جملة وصفه: (لطيف الالفاظ، سهل المأخذ، مشهور المعاني شديد التوقي، ضعيف الترقي، يتطاول جهده ثم يقصر)

من كتبه (تجارب الامم وتعاقب الهمم) في التاريخ، انتهى به إلى السنة التي مات فيها عضد الدولـة (372 ه)، ولـه (تهـذيب الاخلاق وتطهـير الاعـراق)، ومنـه اسـتفدنا في هـذا المطلب، و(طهارة النفس) و(آداب العرب والفـرس) و(الفـوز الاصـغر) في علم النفس، و(ترتيب السعادات) في الاخلاق، و(رسـالة في ماهيـة العـدل) و (نـديم الاحبـاب وجليس الاصحاب) و(الحكمة الخالدة)، و (الادوية المفردة) و(الاشربة) وغـير ذلـك.. عـاش عمـرا طويلا.. (انظر: الأعلام للزركلي)

دخلنا قاعة الحكمة التي تربع فيها ابن مسكويه يحيط بهـا جمـع قليل من الناس.. وقد كان من حسن حظنا أن حظرنا الـدرس من أوله..

بدأ ابن مسـكويه درسـه بقولـه: (الحمـد للـه الـذي أرشـد إلى الصراط المستقيم ومـدح الخلـق العظيم وأرسـل نبيـه محمـدا ﷺ متمما لمكارم الأخلاق، وأدبـه فأحسـن تأديبـه على الإطلاق.. اللهم إنا نتوجه إليك ونسعى نحوك ونجاهد نفوسـنا في طاعتـك ونـركب الصـراط المسـتقيم الـذي نهجتـه لنـا إلى مرضـاتك فـأعن بقوتـك واهـدنا بعزتـك واعصـمنا بقـدرتك وبلغنـا الدرجـة العلي برحمتـك والسعادة القصوى بجودك ورأفتك إنك على ما تشاء قدير)(1)

ثم قال: غرضنا في هذا الدرس أن نحصل لأنفسنا خلقـا تصـدر به عنا الأفعال كلها جميلة، وتكون مع ذلك سهلة علينا، لا كلفة فيها ولا مشقة، ويكون ذلك بترتيب تعليمي.

وقـد رأيت أن حسـن طريـق في ذلـك هـو أن نعـرف ــ أولا ـ نفوسنا ماهي، ولأي شيء أوجدت فينا، أعني كمالهـا وغايتهـا، ومـا قواها وملكاتها الـتي إذا اسـتعملناها على مـا ينبغي بلغنـا بهـا هـذه الرتبة العلية، وما الأشياء العائقة لنا عنها، ومـا الـذي يزكيهـا فتفلح، وما الذي يدسيها فتخيب فإن الله تعالى يقول :﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَـا (9) وَقَـدْ خَـابَ مَنْ دَسَّاهَا (10)﴾ (الليل)

***

ثم أخذ يتحـدث عن حقيقـة النفس وقواهـا بمـا بهـرني.. ولكن أهم ما سمعته منه، واستفدت منه كثيرا قوله: (لقد شـبه الحكمـاء من أهمل سياسة نفسه العاقلة وتـرك سـلطان الشـهوة يسـتولي عليها برجـل معـه ياقوتـة حمـراء شـريفة لا قيمـة لهـا من الـذهب والفضة جلالة ونفاسـة.. وكـان بين يديـه نـار تضـطرم فرماهـا في حباحبها حتى صارت كاسا لا منفعة فيها، فخسرت منافعها.

فقـد علمنـا الآن أن النفس العاقلـة إذا عـرفت شـرف نفسـها

---

(1) هذه مقدمة كتاب (تهذيب الأخلاق).

وأحست بمرتبتها من الله عزوجل أحسنت خلافتـه في تربيـة هـذه القوى وسياستها ونهضت بالقوة التي أعطاها الله تعالى إلى محلها من كرامـة اللـه تعـالى ومنزلتهـا من العلـو والشـرف ولم تخضـع للسبعية ولا للبهيمية.

بل تقـوم النفس الغضـبية الـتي سـميناها سـبعية وتقودهـا إلى الأدب بحملها على حسن طاعتها.. ثم تستنهضها في أوقات هيجان هـذه النفس البهيميـة وحركتهـا إلى الشـهوات حـتى يقمـع بهـذه سلطان تلك وتستخدمها في تأديبها وتستعين بقوة هـذه على تـأبى تلك)

لقد محت هـذه الكلمـات عن نفسـي تـوهم الصـراع بين قـوى النفس.. فقد عرفت أن الله ما أودع فينـا تلـك القـوى الـتي نراهـا متناقضة إلا لنستعمل بعضها في إصلاح بعض.

التربية:

بقيت مـدة أسـتمع إلى سياسـة النفس الـتي نطـق بهـا ابن مسـكويه.. إلى أن طلب مـني صـاحبي المحاسـبي أن نسـير إلى رجل له طرقه الخاصة في مخاطبة النفوس..

لم نسر إلا قليلا حتى رأينا رجلا يقال له (بديع الزمان)(1) كان بالغ الذكاء والفطنة.. قوي الحجـة والـدليل.. لـه قـدرة كبـيرة على الغوص في أعماق النفوس.. وله قدرة كبيرة على التحاور معها.

كان يخاطب أطفالا.. يقول لهم بلطف وحنان: كان يـا مـا كـان في قديم الزمان.. وسالف العصر والأوان.. كان هناك سـلطان لـه ثروات طائلة، وخزائن هائلة، تحوي جميع أنواع الجـواهر والألمـاس والزمرد، مع كنوز خفية أخرى عجيبـة جـداً.. وكـان هـذا السـلطان صاحب علمٍ واسع جداً، وإحاطة تامـة، واطلاع شـامل على العلـوم البديعة التيً لاتحد، مع مهارات فائقة لا تعد.

وبمـا أن كـل ذي جمـال وكمـالٍ يحب أن يشـهَد الغـير جمالَـه وكمالَه.. فكذلك هذا السلطان العظيم، أراد أن يفتح معرضـاً هـائلاً

(1) أشير به إلى الإمام بديع الزمان النورسي.. وقد تحدثنا عنه مرات كثيرة في هـذه السلسلة.

لعرض مصنوعاته الدقيقة كي يُلفت أنظار رعيته إلى أبهة سلطنته، وعظمــة ثروتــه، ويُظهــر لهم من خلالــه خــوارق صــنعته الدقيقــة وعجائب معرفته وغرائبها، ليشاهِد الكل جمالَه وكمالَه.

ولأجل هذه الحكمة بدأ هذا السلطان بتشييد قصر فخم شــامخ جــداً، وقسّــمه بشــكل بــارع إلى منــازل ودوائــر مزيّنــاً كــلَّ قســمٍ بمرصعات خزائنه المتنوعة، وجمّله بما عملت يداه من ألطف آثــارٍ إبداعه وأجملها، ونظّمه ونسقه بأدق دقائق فنون علمه وحكمته.

وبعد أن أتمه وكمله، أقام في القصر موائد فاخرة بهيجة تضــم جميع أنواع أطعمته اللذيذة، وأفضــل نِعَمــه الثمينــة، مخصصــاً لكــل طائفة ما يليق بها ويوافقها من الموائد، فأعدّ بــذلك ضــيافة فــاخرة عامة، مبيناً سخاء وإبداعا وكرماً لم يشهد له مثيل، حــتى كــأن كــل مائــدة من تلــك الموائــد قــد امتلأت بمئــات من لطــائف الصــنعة الدقيقة وآثارها، بما مَدّ عليها من نِعمٍ غالية لا تحصى.

ثم دعــا أهــالي أقطــار مملكتــه ورعايــاه، للمشــاهدة والتــنزه والضيافة، وعلّم كبير رُسُل القصر المكــرّمين مــا في هــذا القصــر العظيم من حكمٍ رائعــة، ومــا في جوانبــه ومشــتملاته من معــانٍ دقيقة، مخصصاً إياه معلماً رائــداً وأســتاذا بارعــاً على رعيتــه، ليعلّم الناس عظمة باني القصر وصانع ما فيه من نقوش بديعة موزونــة، ومعرّفاً لكل الداخلين رموزَه وما تعنيه هذه المرصــعات المنتظمــة والإشارات الدقيقة التي فيــه، ومــدى دلالتهــا على عظمــة صــاحب القصر وكماله الفائق ومهارته الدقيقة. مبيناً لهم تعليمات مراســيم التشريفات بمــا في ذلــك آداب الــدخول والتجــول، وأصــول الســير وفق ما يرضي السلطان الذي لا يُرى إلاّ من وراء حجاب.

وكان هذا المعلم الخبير يتوســط تلامذتــه في أوســع دائــرة من دوائر القصر الضخم، وكان مساعدوه منتشرين في كلٍ من الدوائر الأخرى للقصر.

بدأ هذا المعلم هذا بإلقاء توجيهاته إلى المشاهدين كافــة قــائلاً: (أيها الناس إن سيدنا مليك هذا القصر الواسع البــديع، يريــد ببنائــه هذا، وبإظهار ما ترونه أمــام أعينكم من مظــاهر، أن يعــرّف نفســه إليكم، فاعرفوه واسعوا لحسن معرفته.

إنه يريد بهذه التزيينات الجمالية، أن يحبب نفسه إليكم، فحببوا أنفسكم إليه، باستحسانكم أعماله وتقديركم لصنعته.

وهـو يتـودد إليكم ويـريكم محبتـه بمـا يسـبغه عليكم من آلائـه ونعمه وأفضاله فأحبوه بحسن إصغائكم لأوامره وبطاعتكم إياه.

وهو يظهر لكم شفقته ورحمته بهذا الإكرام والإغداق من النعم فعظّموه أنتم بالشكر.

وهو يريد أن يظهر لكم جمالـه المعنـوي بآثـار كمالـه في هـذه المصنوعات الجميلة الكاملة فأظهروا أنتم شوقكم ولهفتكم للقائـه ورؤيته، ونيل رضاه.

وهـو يريـد منكم أن تعرفـوا أنـه السـلطان المتفـرد بالحاكميـة والاسـتقلال، بمـا تـرون من شـعاره الخـاص، وخاتمـه المخصـص، وطرتـه الـتي لا تقلـد على جميـع المصـنوعات.. فكـل شـيء لـه، وخـاص بـه، صـدر من يـد قدرتـه.. فعليكم أن تـدركوا جيـداً: أن لا سلطان ولا حاكم إلاّ هو، فهو السلطان الواحد الأحد الـذي لا نظـير له ولا مثيل)

هكذا خاطب هذا المعلم الكبـير الـداخلين للقصـر والمتفـرجين عليه، لكن الداخلين انقسموا إلى فريقين:

أما الفريق الأول.. فكان من أصحاب العقول النـيرة، والقلـوب الصافية المطمئنة، الذين أدركوا قدر أنفسـهم.. كـان هـؤلاء حيثمـا تجولوا في آفاق ذلك القصر يسـرحون بنظـرهم إلى عجائبـه، وهم يرددون: لابد أن في هذا شأناً عظيماً.. ولابد أن وراءه غاية سامية.. فعلِمـوا أن ليس هنـاك عبث، وليس هـو بلعب، ولا بلهـو صـبياني.. ومن حيرتهم بدئوا يقولون: يا تُرى أين يكمن حل لغز القصـر، ومـا الحكمة في ما شاهدناه ونشاهده؟!

وبينمـا هم يتـأملون ويتحـاورون في الأمـر، إذا بهم يسـمعون صـوت خطبـة الأسـتاذ العـارف وبياناتـه الرائعـة، فعرفـوا أن لديـه مفاتيح جميع الأسرار وحل جميـع الألغـاز، فـأقبلوا إليـه مسـرعين، وقالوا له: السلام عليكم أيها الأستاذ.. إن مثـل هـذا القصـر البـاذخ ينبغي أن يكون له عرّيـف صـادق مـدقق أمين مثلـك، فالرجـاء أن

تعلّمنا مما علّمك سيدُنا العظيم.

فــذكَّرهم الأســتاذ بخطبتــه المــذكورة آنفــاً، فاســتمعوا إليــه خاشعين، وتقبّلوا كلامه بكل رضى واطمئنان، فغنموا أيمّا غنيمة، إذ عملوا ضمن مرضاة سلطانهم، فرضـي عنهم السـلطان بمـا أبـدوا من رضى وسرور لأوامره. فدعاهم الى قصر أعظم وأرقى لايكــاد يوصف، وأكرمهم بسعادة دائمة، بما يليق بالمالك الجواد الكريم.

هذا حال الفريق الأول.. وهذا جزاؤه..

أما الفريـق الثـاني.. فكـان أهلـه من الـذين فسـدت عقـولهم، وانطفأت جذوة قلوبهم، فمـا إن دخلـوا القصـر، حـتى غلبتْ عليهم شهواتُهم، فلم يعودوا يلتفتون إلا لما تشتهيه أنفسُـهم من الاطعمـة اللذيذة، صارفين أبصارهم عن جميع تلك المحاسن، سـادّين آذانهم عن جميــع تلــك الارشــادات الصــادرة من ذلــك المعلم العظيم، وتوجيهــات تلاميــذه.. فــأقبلوا على المــأكولات بشــراهة ونهم، كالحيوانات، فأطبقت عليهم الغفلة والنوم وغشـيهم السُـكرُ، حـتى فقدوا أنفسهم لكثرة مـا أفرطـوا في شـرب مـا لم يـؤذن لهم بـه فأزعجوا الضيوف الآخرين بجنونهم وعربدتهم، فأسـاءوا الادب مـع قوانين السلطان المعظم وانظمته، لـذا أخـذهم جنـوده وسـاقوهم الى سجن رهيب لينالوا عقابهم الحق، جزاءً وفاقـاً على مـا عملـوا من سوء الخُلق)

حكى بديع الزمان هذه الحكاية، ثم التفت للأطفال الملتفين به، وقال: الى هنا انتهت القصة يا أبنائي.. وسأختبر ذكاءكم في معرفة العبر التي تختزنها.. فما يوحي إليكم القصر؟

قال طفل من الأطفال الملتفين به: إن القصر ـ سيدنا ــ يشـير إلى هـذا العـالم الـذي نعيش فيـه.. فهـذا العـالم المسـقف بهـذه السماء المتلألئة بالنجوم، والمفروش بهذه الارض المزيّنة بالازهــار المتجددة كل يوم.. ليس إلا قصرا بديعه بناه لنا ربنا العظيم.

قال بديع الزمان: وما تـوحي إليكم أوصـاف ذلـك القصـر الـتي وصفتها لكم؟

قال طفل آخر: أما منازل ذلـك القصـر فقـد فهمت منهـا تعـدد

العوالم التي تزينت كل منها وانتظمت بما يلائمها من مخلوقات الله.. وأما الصنائع الغريبة في ذلك القصر فهي معجزات القدرة الإلهية الظاهرة في عالمنا لكل ذي بصر وبصيرة.. وأما الأطعمة اللذيذة التي فيه، فهي عيون الرحمة الالهية التي تشاهد في كل مكان وفي كل زمان.. وأما ومطبخ ذلك القصر هو سطح الارض وقلبها الذي يتّقد ناراً.

قال بديع الزمان: وما يوحي إليكم ذلك السلطان العظيم صاحب القصر؟

قال طفل آخر: لاشك أنه يدلنا على الله تعالى.. فهو سلطان الأزل والأبد.. وهو الملك القدوس ذو الجلال والاكرام الذي: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾(الاسراء: من الآية44)

قال بديع الزمان: وما توحي إليكم تلك الكنوز الخفية؟

قال طفل آخر: أعظم الكنوز هي تجليات أسماء الله الحسنى المقدسة.

قال بديع الزمان: ومن ذاك المعلم الحكيم؟

قال طفل آخر: لاشك أنه سيدنا، وسيد الكونين محمد ﷺ.

قال بديع الزمان: فمن مساعدوه، ومن تلاميذه؟

قال طفل آخر: مساعدوه هم الانبياء ـ عليهم السلام ـ وتلاميذه هم الاولياء الصالحون، والعلماء الأصفياء.

قال بديع الزمان: فمن خدم ذلك السلطان؟

قال طفل آخر: لاشك أنهم الملائكة الكرام ـ عليهم الصلاة والسلام.

قال بديع الزمان: فمن الذين دُعُوا إلى دار الضيافة؟

قال طفل آخر: إنهم نحن.. نحن البشر هم الذين استضافنا الله في هذا القصر الدنيوي.

قال بديع الزمان: فمن الفريقان؟

قال طفل آخر: أما أولهما، فهم أهل الإيمـان الـذين لم يرتضـوا لأنفسهم مائدة غير مائدة القـرآن.. وأمـا ثانيهمـا، فهم أهـل الكفـر والطغيان.. الصمّ البكم الضالون الذين اتبعوا أهواءهم والشـيطان، فما عرفوا من الحياة إلاّ ظاهرها، فهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

قـال بـديع الزمـان: صـدقتم يـا أبنـائي.. ونجحتم في الاختبـار.. فاجتهـدوا أن تكونـوا من أصـحاب الفريـق الأول.. أولئـك الأبـرار السعداء الذين أنصتوا إلى المعلم العظيم والأستاذ الجليل.

ذلك الفريـق الـذي أدى الوظـائف المتنوعـة للعبوديـة في هـذا المسجد الأكبر المسمى بـدار الـدنيا، حـتى اتخـذوا صـورة أحسـن تقويم، واعتلوا مرتبةً تفـوق جميـع المخلوقـات قاطبـة، اذ أصـبحوا خلفاء أمناء في الأرض، بما أُودع فيهم من الإيمان والأمانة..

وبعد انتهاء مدة الامتحان والخروج من قبضة الاختبـار يـدعوهم ربهم الكـريم إلى السـعادة الأبديـة والنعيم المقيم ثوابـاً لإيمـانهم، ويرزقهم الدخول إلى دار السلام جزاء إسـلامهم، ويكـرمهم - وقـد أكرمهم - بنعم لا عين رأت ولا إذن سـمعت ولا خطـرت على قلب بشر، إذ المشاهد المشتاق لجمال سرمدي والعاشق الذي يعكسـه كالمرآة، لابد أن يظل باقياً ويمضي إلى الأبد.

هذه هي عقبى تلاميذ القرآن.. اللّهمّ اجعلنا منهم!.

أما الفريق الآخر وهم الفجار والأشرار الذين ما إن دخلوا قصر هـذا العـالم حـتى قـابلوا بـالكفر دلائـل الوحدانيـة كلهـا، واتهمـوا الموجودات كلها بالتفاهة وحقّروها بالعبثية ورفضوا تجليات الأسماء الإلهيـة على الموجـودات كلهـا، فـارتكبوا جريمـة كـبرى في مـدة قصيرة، مما استحقوا عذاباً خالداً.

قال ذلك، ثم التفت إلينـا، وقـال، وكأنـه يخـاطبني: فيـا نفسـي الحائرة.. ويا صديقي المغرم بالهوى.. أتحسبون أن مهمـة حيـاتكم محصـورة في تلبيـة متطلبـات النفس الأمـارة بالسـوء ورعايتهـا بوسائل الحضارة إشـباعا لشـهوة البطن والفـرج؟.. أم تظنـون أن الغايـة من إدراج مـا أودع فيكم من لطـائف معنويـة رقيقـة، وآلات

وأعضـاء حساسـة، وجـوارح وأجهـزة بديعـة، ومشـاعر وحـواس متجسسـة، إنمـا هي لمجـرد اسـتعمالها لإشـباع حاجـات سـفلية لرغبات النفس الدنيئة في هذه الحياة الفانية؟ حاشَ وكلا!!

ويا صـديقي الحميم، ويـا نفسـي الامـارة بالسـوء.. اسـتجمعوا عقولكم، ولا تهدروا رأس مال عمركم، ولا تبـددوا طاقـات حيـاتكم واستعداداتها لهذه الدنيا الفانية الزائلة، وفي سبيل لذة مادية ومتاع حيـواني.. فالعاقبـة وخيمـة، اذ تُـردّون الى دَرَكـةٍ أدنى من أخس حيوان، علماً أن رأس مالكم أثمن من أرقى حيوان!

***

بعـد أن بقينـا مـدة نسـتمع لحكمـة هـؤلاء الحكمـاء قـال لي المحاسبي: لاشك أنك تريد أن ترى تأثير هذه التعاليم في الواقع.

قلت: لقد طرقت ما في نفسي.. فأنا أشعر، وكأني أعيش في برج عاجي لا علاقة له بالواقع.

قال: تعـال معي.. وسـترى النفـوس المطهـرة، وكيـف تتحـول معها الحياة..

سرت معه إلى محال كثـيرة(1).. وقـد رأيت فيهـا من طهـارة النفوس وسماحتها ولطفها وجمالها ما لا يمكن التعبير عنه..

لقد رأيت مقابل كل صورة من الصور التي رأيتهـا من تلاميـذي صورة تنسخها وتمحوها..

وقد أيقنت من خلال كل ذلك أن الله وضـع نفس الإنسـان بيـد الإنسان.. وأن لذتها وسعادتها لا تتحقق إلا في اختياراتهـا الرفيعـة.. وأن حريتها الحقيقية لا تكمن إلا في عبوديتها.

قلنا: فقد أسلمت إذن؟

قال: لم يبق بيني وبين الإسلام إلا شـعرة واحـدة.. لكن لسـت أدري من قطعها.. وقد جئت هنا أبحث عمن يصلني بها.

1() انظر الشواهد الكثيرة المثبتة لهذا في رسالتي (أسرار الإنسان) و(أسرار الحياة) من هذه السلسلة.

قلنا: ألم تكن معهم؟

قال: بلى.. لقـد كنت معهم.. ولكـني في اليـوم الـذي أردت أن أكسر فيه الخراسانات المسلحة التي كانت تحول بيني وبين إعلان إسلامي لم أجد أحدا منهم.

قلنا: أين ذهبوا؟

قال: لقـد أجمـع جميـع من سـألتهم على أنهم جـاءوا إلى هـذه البلاد ليقمعوا الفتنة التي تريد أن تستأصل دين محمـد من الأرض.. لكن قدري رماني إلى هذه الحفرة التي ترون.. فصار سبب حياتي هم سبب موتي.

خامسا ـ الأسرة

في اليوم الخامس، قام رجل منا، وقـال: سـأحدثكم اليـوم أنـا عن حديثي.. اعذروني، لقـد كنت مثـل من سـبقني أحمـل أسـماء كثيرة مستعارة صحبتني زمنا طويلا إلى أن التقيت النـور والسـلام والصفاء، فطلقت أسمائي جميعا.. وجئت إلى هذه البلاد أبحث عن اسم لي.

لقـد كـان آخـر اسـم لي هـو (تومـاس روبـرت مـالتوس)(1).. لاشك أنكم تعرفونه..

إنه ذلك الرجل الذي بدأ بالـدعوة إلى إبـادة الأسـرة وتفكيكهـا، لأن الميزانية التي تتطلبها ويتطلبها نسلها لن يكفيـه مـا وضـع اللـه في الأرض من بركات(2).

(1) أشير به إلى توماس روبرت مالتوس (1766 ـ 1834م)، وهو اقتصادي بريطاني، اشتهر بمقالته عن مبادئ علم السكان سنة 1798م.. وتقـوم فكرتـه الأساسـية في هـذا الكتاب على أن أعداد السكان في العالم تميل إلى الزيـادة، بينمـا كميـات الطعـام تقـل، كما كان يعتقد أن الحروب والأمراض ستفتك بالأعداد الزائدة من البشر، ما لم يتم تحديد النسل.

وأوحت مقالة مالتوس المذكورة إلى تشارلز داروين فكرة العلاقة بين التطوّر والبقـاء للأصلح.. وفشلت تنبؤات مالتوس في التحقق خلال القرن التاسع عشـر، حيث أمكن عن طريق وسائل الزراعة المتقدمة إنتاج الطعام الكافي لمعظم الناس.

وُلدَ مالتوس في مدينة سري ببريطانيا، وكان يرغب في أن يكون رجل دين، إلا أنه بعد تخرجه في جامعة كمبردج عمل أستاذًا للتاريخ والاقتصاد السياسي في كلية شركة الهنـد الشرقية عام 1805م وبقي في هذه الوظيفة إلى أن توفي.

(2) ثبت بطلان هذه النظرية وما دعا إليه أصحابها، بل ثبت خلاف ما تـدعو إليـه هـذه النظرية، فقد تضاعف سكان أوربا منذ أن أقدم (مالتوس) على نظريته عدة مرات، ومـع ذلك لم تصـب إنكلـترا، ولا أوربـا، ولا الولايـات المتحـدة بالمجاعـات الـتي كـان ينـذر بهـا (مالتوس). بل على العكس من ذلك زاد الإنتاج زيادة رهيبة، حتى إن الفائض من الطعام في أوربا والولايات المتحدة بلغ جبالاً من القمح والجبن واللحم، وأنهاراً من اللبن والزبـد. ومن أجل ذلك، قامت حكومات هـذه الـدول بحـرق الفـائض أو رميـه في البحـر؛ حـتى لا ينخفض السعر في السوق العالمي!!!.

ولأجل ما سبق، أصبحت كثير من الدول تدعو إلى زيادة النسل والإنجاب وتحث عليـه، وتزيل الأسباب التي تعوق ذلك.

فهذه إيطاليا تصدر قانوناً ضد منع الحمل المراقب، فقد صـدرت رسـالة بابويـة عـام (1968م) تمنع ذلك. وهذه إسبانيا تحظر بيع وسائل منـع الحمـل. وهـذه ألمانيـا تحـذر من انقراض الألمان في القرن القادم - أي القرن الحالي-، إن لم يحصل تـوازن بزيـادة عـدد

وهو الرجل الذي أوحت أفكاره بعد ذلك للكثـير من المجـرمين بأن يبحثـوا في الوسـائل الـتي تجعـل من المـرأة مجـرد متعـة.. لا علاقة لها بالأسرة.. ولا علاقة للأسرة بها.

وهو الرجل الذي جعل من الوالدين فردين حريصـين شـحيحين ينظـرون إلى أولادهمـا كمـا ينظـرون إلى اللصـوص والشـحاذين والمجرمين.

وهو الرجل الذي ملأنا بالأنانية والحرص.. ونزع منا كـل عاطفـة إنسانية.. بـل كـل عاطفـة في الكائنـات الحيـة الـتي تضـحي فيهـا الأمهات والآباء بأنفسها من أجل أولادها(1).

الصراع

هذا هو الرجل الذي سميت باسمه..

لقد صبت علي جميع لعناته منذ رأيت النـور المختلـط بـالظلام في هذا الوجود، بل قبل ذلك..

لقد حدثتني أمي الـتي طـرحت جميـع جلابيب حيائهـا عن ذلـك اليوم الذي أتاها والدي فيه، قبل أن يقترنا بذلك العقد المزيـف من عقــود الــزواج، وطلب منهــا أن تلقيــني من بطنهــا إلى مزابــل واشنطن..

لم يكن بيني وبين مزابـل واشـنطن في تلـك الأيـام إلا خطـوة واحدة.. وهي خطوة قدر لا خطوة تكليف..

لقد توفيت زوجة والدي.. ولست أدري كيف.. ربمـا تكـون أمي هي التي قتلتها، فقد كانت زوجة أبي هي الحجاب الذي حـال بينهـا

المواليد.

وهـذا الـرئيس اليونـاني يحض على إنجـاب المزيـد من الأبنـاء؛ لإقامـة قـوات مسـلحة ضخمة لمواجهة القوات التركية وتهديداتها، وهـذه زوجـة رئيس فرنسـا اختـارت الأمهـات المثاليات - على مستوى الدولة - من اللواتي أنجبن نحو ثلاثة عشر مولوداً.

(1) انظر في هذا كتابا رائعا لهارون يحي عنوانه (التضحية عند الكائنات الحية)

وبين أن تقترن بأبي.. وكان فوق ذلك هـو السـبب في إصـرار أبي على أن ترميني أمي في مزابل واشنطن.

قلنا: لم نفهم كل ما تـذكره.. فمن كـانت أمـك إن لم تكن هي عينها زوجة أبيك؟

قال: لا.. لقد كان أبي ـ كما كان أكثر قومنا ــ زيـر نسـاء.. ولم يكن القانون ـ كما لم يـزل ــ يـراعي هـذه الناحيـة فيـه.. فلم يكن القانون ـ كما لم يزل ـ يـبيح تعـدد الزوجـات.. فلـذلك كـان الرجـل غاليا بين النساء.. وبما أن أبي لم ير أمي إلا بعـد اقترانـه بزوجتـه، ولم تملأ قلبه الممتلئ بالشـهوات إلا بعـد ذلـك الاقـتران، فقـد راح يتخذها خليلة بعد أن حيل بينه وبين أن يتخذها زوجة.

قلنا: فلم لم يطلق زوجته، ويقترن بأمك؟

قـال: لقــد كــان رجلا ينتمي إلى عائلــة محافظــة لهــا علاقــة بالكنيسة.. وأنت تعلم موقف الكنيسة من الطلاق (1)..

لقد أخبرني الثقاة أن أبي ذهب في تلك الأيـام إلى صـاحب لـه من رجال الدين، واعترف بين يديه، وامتلأت عينـاه بالـدموع، وهـو يعترف له، وبعدها طلب منه أن يحل له هذا الإشـكال الـذي وقعت فيه حياته، وهذا الصراع الذي دب إلى نفسه.

لقد كان بين أمرين، كلاهما لا تبيحه الكنيسة: أمـا أولهمـا، فهـو أن يقترن بالثانية كما اقترن بالأولى، فيلبي مقتضيات نفسه وقلبـه، كما يلبي ما تطلبه منه أمي ـ أي معشوقته ـ كل حين.. وأما الثاني، فأن يطلق زوجته ليقـترن بـأمي اقترانـا شـرعيا يجعـل من ولـده ـ الذي هو أنا ـ ولدا شرعيا معترفا به عند الجميع.

ما قال هذا حتى انتفض رجل الدين في وجهه انتفاضة عظيمة، وقال: ما هذه الهرطقات التي تتحدث بها..

قال أبي: أنا ما فعلت إلا أن شكوت إليك حالي، واعــترفت بين

---

(1) ظـل الطلاق محرمـاً في ظـل الكنيسـة زمنـاً طـويلاً حـتى حـدث الانفصـام بين الكنيسة والدولة فأباحت التشريعات الوضعية الطلاق ثم تبعتها بعض الطوائف المسيحية، أما تعدد النساء فإنه مازال محرمـاً وإن نظـرت إليـه بعض الطوائـف على أنـه مبـاح ومـا زالوا يمارسونه بشكل سري في بعض الولايات الأمريكية.

يديك، ثم ذكرت لك ما توهمته من حلول.

قال: إن كلا الحلين اللذين ذكرتهما هما حل أهل الهرطقة.. أولئك الذين يتبعون المارق الذي يقال له (محمد).. أما نحن.. نحن الذين شرفنا بالمسيح.. المسيح الذي صلب من أجلنا ليخلصنا من خطايانا.. فلا نقبل تلك الحلول.

لقد قال لنا المسيح لنا :(من بدأ الخليقة ذكراً وأنثى خلقهما الله، من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق (ويلزم) بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً إذ ليسا بعد اثنين بل جسد واحد، فالذي جمعه الله لايفرقه الإنسان)(متى : 19 / 4 - 5)

***

كان أبي ـ رغم كونه زير نساء ـ على علاقة بالكتاب المقدس، باعتباره في الأصل سليل رجال كثيرين من رجال الكنيسة، ولذلك راح يبحث في الكتاب المقدس لعله يجد ما يحل له مشكلته.. وكم كان فرحه عظيما حينما وجد فيه أن إبراهيم كان متزوجاً من سارة وهاجر وقطورة، وكان له مع ذلك سرارى كثيرة لقوله :(أما بنو السرارى اللواتى كانت لإبراهيم فأعطاهم إبراهيم عطايا وصرفهم عن إسحاق ابنه شرقاً إلى أرض المشرق وهو بعد حى) (تكوين 25 : 6)

ووجد فيه أن موسى كان متزوجاً من مديانية وحبشية (عدد 12 : 1)

ووجد فيه أن يعقوب كان متزوجاً من حرتين وأمتين، وهما ليئة وراحيل وزلفة وبلهة، كما في (تكوين: 29 وما بعده)

ووجد فيه أنه كان لداود نساء هن: أخينوعم اليزرعبلية وأبيجايل ومعكة وحجيث وأبيطال وعجلة.. هؤلاء ستة.. ويضاف إليها بثشبع امرأة أورياالحثى التى أنجب منها سليمان، كما في (صموئيل الثانى 3: 1ـ5)

ووجد فيه أنه كان لسليمان (سبع مائة من النساء السيدات، وثلاث مائة من السرارى)، كما في (الملوك الأول 11: 3)

بل لم يجد فيه فوق ذلك كله أي نص من نصوص التوراة تحرم الـتزوج بأزيـد من امـرأة واحـدة، ولـو كـان حرامـاً لصـرح موسـى بحرمته، كما صرح بسائر المحرمات وشدد في إظهار تحريمها، بل وجد أن نصوص التوراة تفيد جوازه من مواضـع.. ففيهـا أن الأبكـار التي كانت من غنيمة المديانيين، كانت اثنتين وثلاثين ألفاً، وقسمت على بني إسرائيل، سواء كانوا ذوي زوجات أو لم يكونوا، ولا يوجـد فيه تخصيص العزب.

بل وجد في الباب الحادي والعشـرين من سـفر الاسـتثناء هـذا النص:(وإذا خرجت إلى القتال مع أعـدائك وأسـلمهم الـرب إلهـك في يــدك وســبيتهم ورأيت في جملــة المســبيين امــرأة حســنة وأحببتها، وأردت أن تتخذها لك امرأة، فأدخلها إلى بيتك وهي تحلق رأسها وتقص أظفارها، وتنزع عنها الرداء الـذي سـبيت بـه وتجلس في بيتك وتبكي على أبيها وأمها مـدة شـهر ثم تـدخل إليهـا وترقـد معها ولتكن لك امرأة، فإن كانت بعد ذلك لا تهواها نفسك فسرحها حرة ولا تستطيع أن تبيعها بثمن ولا تقهرها أنك قد ذليتها، وإن كان لرجل امرأتان الواحدة محبوبة والأخرى مبغوضة ويكون لهمـا منـه بنون وكان ابن المبغوضة بكراً، وأراد أن يقسم رزقه بين أولاده فلا يسـتطيع يعمـل ابن المحبوبـة بكـراً ويقدمـه على ابن المبغوضـة، ولكنه يعرف ابن المبغوضة أنه هو البكر ويعيطه من كل ما كان لـه الضعف من أجل أنه هو أول بنيه ولهذا تجب البكورية)(1)

ثم قرأ أبي في بعض الصحف(2) أن أستاذة لاهوت في جنوب إفريقيا دَعَتْ إلى السماح للبيض بتعدد الزوجات، لمواجهـة ارتفـاع معدل الطلاق في البلاد، وهو من أعلى المعدلات في العالم، وقـرأ أن الأستاذة (لاندمان) قالت :(ليس هناك سوى عدد محدود للغاية من الرجال في العالم، فقد قُتِل بعضـهم في الحـروب، والآن حـان الـوقت كي تختـار المـرأة زوجـاً من بين الرجـال المـتزوجين، وأن تتفاوض مع زوجته على أن تُصبح فرداً من أفراد أسرته)

بل وجد أن هذا الموقف لم يتبناه جميع المسيحيين، فقـد ظهـر

1() ذكرنا تفاصيل موقف الكنيسة والمسيحية من التعـدد بتفصـيل في رسـالة (النـبي المعصوم) من هذه السلسلة.

2() صحيفة الحياة في العدد (13099).

منهم رجال دين يبيحون الزواج مرة ثانية وثالثة ورابعة، بل ويبيحون الجمع بين أكثر من زوجة، ومن هؤلاء فرقة الان نابتست Ananabaptistes، والمورمون Mormons.. وهؤلاء ظلوا يمارسون التعدد حتى أوائل القرن التاسع عشر.. بل ظهرت دعوات من المفكرين والعلماء تدعو إلى إباحة التعدد الزوجات، وبخاصة بعد أن عانت أوروبا من نقص شديد في عدد الرجال نتيجة للحربين العالميتين التي قتل فيهما أكثر من ثمانية وأربعين مليون رجل.. وكذلك لانتشار الفواحش وزيادة عدد اللقطاء، ومن هؤلاء بول بيرو Boul Bureou، وفرديناً ند دريفوس Ferdinand Dryfus، و بن لندسي Ben Lindsey، وغيرهم..

وفوق ذلك وجد من يبين له حقيقة مقصد المسيح عندما قال : (من بدأ الخليقة ذكراً وأنثى خلقهما الله، من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق (ويلزم) بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً إذ ليسا بعد اثنين بل جسد واحد، فالذي جمعه الله لايفرقه الإنسان)

لقد قال له هذا الرجل: إن هذه العبارة ليس فيها أي منع للتعدد، بل غاية الكلام هنا منع الطلاق لا غير.. وهذا ما سأله الفريسيون من البداية، فقد ورد هكذا النص كما في متى (19 : 3 ـ 5): (وجاء اليه الفريسيون ليجربوه قائلين له: هل يحل للرجل ان يطلق امرأته لكل سبب؟ فأجاب وقال لهم: أما قرأتم ان الذي خلق من البدء خلقهما ذكرا وانثى، وقال: من اجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويكون الاثنان جسدا واحدا)

هذا ما عناه المسيح، فكما أن إتحاد الرجل بزوجته ليس حقيقياً بل مجازاً فكذلك من الممكن بكل سهولة أن يكون اتحاده بامرأة أخرى ويصيرا جسداً واحداً أيضاً.

حمل أبي كل هذه النصوص.. وسار بها إلى الكنيسة لكنه اصطدم برجل يقال له (القس شروش).. سمعه يعظ في الكنيسة يقول:(يسوع أعلن أن الذي خلقهم من البدء خلقهم رجلاً و امرأة، و لو أراد الله الرجل أن تكون له أربع زوجات لخلق من البدء أكثر من حواء)

حاول أبي أن يقنعه.. فلم يقتنع.. سار إلى كنيسة أخرى فسمع واعظها (القس سويجارت) يقول مفاخراً بتشريع الكنيسة في قصر الزواج على واحدة : (المسيحية تسمح لنا بواحدة فقط، و لذلك ارتضي أفضلهن من أول قذيفة)

***

انتقل أبي يبحث في الحل الثاني، وكان أسوأ الحلين عنده.. فلم يكن يرضى أن يطلق زوجته الأولى.. لكنه بفعل سحر أمي راح يبحث في النصوص التي تبيح له أن يطلقها.

وكم كانت فرحته شديدة عندما قرأ في الكتاب المقدس.. وفي سفر التثنية هذا النص : (إِذَا أَخَذَ رَجُلٌ امْرَأَةً وَتَزَوَّجَ بِهَا فَإِنْ لمْ تَجِدْ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْهِ لأَنَّهُ وَجَدَ فِيهَا عَيْبَ شَيْءٍ وَكَتَبَ لهَا كِتَابَ طَلاقٍ وَدَفَعَهُ إِلى يَدِهَا وَأَطْلقَهَا مِنْ بَيْتِهِ، وَمَتَى خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهِ ذَهَبَتْ وَصَارَتْ لِرَجُلٍ آخَرَ فَإِنْ أَبْغَضَهَا الرَّجُلُ الأَخِيرُ وَكَتَبَ لهَا كِتَابَ طَلاقٍ وَدَفَعَهُ إِلى يَدِهَا وَأَطْلقَهَا مِنْ بَيْتِهِ أَوْ إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ الأَخِيرُ الذِي اتَّخَذَهَا لهُ زَوْجَةً لا يَقْدِرُ زَوْجُهَا الأَوَّلُ الذِي طَلقَهَا أَنْ يَعُودَ يَأْخُذُهَا لِتَصِيرَ لهُ زَوْجَةً بَعْدَ أَنْ تَنَجَّسَتْ) (تثنية 24: 1-4)

وكانت فرحته أعظم عندما وجد اليهود الذين نزلت هذه الشريعة عليهم لا يزالون يبيحون الطلاق (1)..

أخذ هذه النصوص معه.. وأخذ معها قول المسيح ــ كما في (متى: 5 /ـ 17 ـ 19) ــ:(لا تظنوا أني جئت لانقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل فاني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى اصغر في ملكوت السموات، وأما من عمل وعلّم فهذا يدعى عظيما في ملكوت السموات)

1() ذكر المسيري في موسوعته عن اليهودية بأن الطلاق يتم حسب الشريعة اليهودية في محكمة حاخامية.. وتنتهي الإجراءات بأن يعطي الرجل زوجته قسيمة طلاق تُسمَّى في التوراة «سفير كيرتوت» أي كتاب الطلاق (تثنية 24/3)، وتُسمَّى في التلمود «جيط»، ويكون في حضور شهود أو أمام محكمة شرعية (بيت دين). وتتلخص وظيفة المحكمة في التأكد من أن الإجراءات تتفق مع القانون الديني، ولا تتنافى معه، ثم يسجل كاتب المحكمة الطلاق، ويعطي نسخة من القسيمة لكل من الزوجين.. والطلاق، حسب الشريعة اليهودية، من حق الرجل، يمارسه متى أراد. (انظر: الموسوعة اليهودية)

أخذ هـذه النصـوص، وذهب إلى بعض القسيسـين يترجـاهم أن يطلقوا زوجته، لأجل أن يتزوج عشيقته.. فواجهـوه جميعـا بمـا ورد في مـتى على لسـان المسـيح عنـدما سـأله اليهـود عن الطلاق فقـال : (وقيـل من طلـق إمرأتـه فليعطهـا كتـاب طلاق. وأمـا أنـا فأقول لكم : ان من طلق امرأته إلا لعلة الزنا يجعلهـا تـزنى، ومن تزوج مطلقه فإنه يزنى) (متى 5 : 31).. ولما اعترض اليهود عليه قائلين : (فلماذا أوصـى موسـى أن يعطى كتـاب طلاق فتطلـق؟) قال المسيح لهم : (إن موسى من أجـل قسـاوة قلـوبكم أذن لكم أن تطلقوا النساء.. لكن من البدء لم يكن هذا) (متى)

صاح فيهم: فما الحل؟.. لقد تعلق قلبي بالمرأة الأخـرى.. فمـا أفعل؟

قال له بعض الرهبان: أقوم حل لك يا أخي إذا أردت أن تـدخل الملكوت هو أن تتخلص من الرغبة في النساء.

قال أبي: كيف.. دلني..

قال الراهب: لقد قال المسيح يعلمنا ذلك : (لأنه يوجد خصيان ولدوا هكـذا من بطـون أمهـاتهم، ويوجـد خصـيان خصـاهم النـاس ويوجــد خصــيان خصــوا أنفســهم لأجــل ملكــوت الســموات، من استطاع أن يقبل فليقبل) (متى:19/12)

قال له أبي: أنا لا أطيق ذلك..

قال له بعض القسيسين: فاترك زوجتك زوجـة.. واتخـذ الثانيـة عشيقة.. وإن شئت أن تضم إليها غيرها فافعل.

قال أبي: ولكن الشريعة تحرم الزنا..

قال القسيس: أترى أنك أطهـر من الأنبيـاء.. ألم تقـرأ أن داود لم يكن ينام إلا فى حضن امـرأة عـذراء: (ملـوك الأول 1:ـ 1-4).. وأن رب الأرباب سلم أهل بيت داود للـزنى (صـموئيل الثـانى 12: 11-12)، وأن ابن داود زنى بأختـه (صـموئيل الثـانى: 13).. وأن رأوبين زنى بزوجــة أبيــه بلهــة (تكــوين 35:ــ 22 ؛ــ 49).. وأن شمشون ذهب إلى غزة ورأى هناك امرأة زانية فدخل إليها (قضاة

16:ـ 1)، وأن حزقيال شجع النساء على الزنى والفجور (حزقيـال 16: 33-34).. وأن..

سار أبي بهذه الرخصـة الـتي أعطـاه إياهـا رجـال الـدين تاركـا القسس يعدد الأدلة على إباحة الزنا..

لكن أمي لم ترتض أن تظل مجرد عشيقة.. فلـذلك عملت في الخفاء ما عملت لتتحول إلى زوجة.. وزوجة وحيدة تستأثر بأبي.

***

بهذه المأساوية تبدأ حياة والدي.. وليس عند هـذا الحـد تنتهي.. فـالآلام الـتي عشـتها لا تكـاد تنتهي.. ولـذلك رأيت من إخـواني وأخواتي ـ الذين لا أدري هـل هم إخـواني فعلا، أم لا مـا ملأ حيـاتي بالصراع.

قال رجل منا: كيف تقول هذا؟.. أتشك في إخوانك؟

قال: لست الوحيد الذي شك في ذلك.. الكل عنـدنا يشـك في ذلك.. حتى أبي كان يشك في كون إخـواني أولادا لـه.. لقـد ولـدوا بعد فترة طويلة من زواجـه.. وفي تلـك الفـترة كـان الصـراع بينـه وبين أمي قد بلـغ أشـده.. فقـد اتخـذ أبي من الخليلات مـا شـغلنه عنا.. ولولا أنه كان يجد عند أمي من المال والسكن ما عاد إلينا..

وكانت أمي لتحمي نفسـها من الجنـون الـذي كـاد يلم بهـا في تلك الفترة قد التجـأت إلى الخمـر تحتسـيها كمـا تحتسـي الميـاه.. وظلت تحتسيها حـتى أدمنت عليهـا.. وكـانت تخـرج أحيانـا فـترات طويلة من الليل والنهار لا نراها ولا نعلم ماذا فعلت في خروجها..

المهم أننا لم نكن نعرف إلا شيئا واحدا هو أنها كـانت تنتقم من أبي بالطريقة التي أملى عليها شياطيها أن تنتقم بها.

***

قلت: حـدثتنا عن أمـك.. فحـدثنا عن إخوانـك الـذين تشـك في أخوتهم لك.

قال: لقد كاني لي أختـان وأخـوان.. وكـانوا جميعـا هم الانتقـام

الإلهي الذي أرسله الله على أبي وأمي..

قلت: كيف؟.. وهل يمكن للولد أن يكون نقمة على والديه؟

قال: في مجتمعاتنا لا يكون إلا ذلـك.. فنحن في جميـع مصـادر فكرنا لا ننهل إلا من المنـابع الـتي تغـذي فينـا العقـوق.. ليس على آبائنا فحسب.. بل على كل شيء.. حياتنا كلهـا تعتمـد على التمـرد والصراع.. ولا يمكن أن نخلي والدينا من هذا الصراع.

قلنا: فحدثنا عن إخوانك.

قال: أما **أولهم**.. وكان أصلح إخواني.. فقد كان متوجها توجهـا دينيا، ولكنه كان مع ذلك ممتلئا بالعقوق.. وقد كان يبرر عقوقه بما يجـده في الكتـاب المقـدس من دعـوة مباشـرة أو غـير مباشـرة للعقوق.

وكان يصيح فينا كل حين بقوله ـ كما في (لوقا:14: 26) ـ:(إِنْ جَاءَ إِلَيَّ أَحَدٌ، وَلَمْ يُبْغِضْ أَبَـاهُ وَأُمَّهُ وَزَوْجَتَـهُ وَأَوْلاَدَهُ وَإِخْوَتَـهُ وأَخَوَاتِـهِ، بَلْ نَفْسَهُ أَيْضاً، فَلاَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَكُونَ تِلْمِيذاً لِي)

ويصيح بما صـاح بـه المسـيح:(لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لألقي سَـلاماً عَلَى الأَرْضِ.. مَا جِئْتُ لألقِي سَـلاَماً، بَـلْ سَـيْفاً.. فَـإِنِّي جِئْتُ لأَجْعَـلَ الإِنْسَـانَ عَلَى خِلاَفٍ مَـعَ أَبِيـهِ، وَالْبِنْتَ مَـعَ أُمِّهَـا، وَالْكَنَّةَ مَـعَ حَمَاتِهَـا) (متى: 10 : 34)

بل جعلتموه يقـول :(جِئْتُ لأُلْقِيَ عَلَى الأَرْضِ نَـاراً، فَلَكَمْ أَوَدُّ أَنْ تَكُونَ قَدِ اشْتَعَلَتْ؟) (لوقا 12 : 49)

***

وأما أخي الثاني، فقد كـان على عكس أخي الأول.. كـان شـابا شيوعيا ملحدا لا علاقة له بالدين.. ولا علاقـة لـه بـالأخلاق.. وفـوق ذلك كان من المثليين.. بل كان من دعاتهم الكبار..

لقد كان يحمل جنسية هولندية(1).. وقد سـعى مـع رفاقـه لأن

1() المعلومات التي نذكرها هنا منقولة من مقال بعنوان (الانهيـارُ الاجتمـاعي يعصـف بالمجتمع الغربي) في موقع الألوكة.

يقـر البرلمـان الهولنـدي تشـريعًا يسـمح بـزواج الشـواذ، ويعـترف بحقهم في كل ما يتصل بالزواج الحقيقي..

وقد استطاع مع رفاقه الشواذ أن يعقد في العاصمةُ الهولنديــة (أمستردام) أولَ زواج رسمي بين الشواذ في العالم، وسط حضور وزراء الحكومة والمواطنين الهولنديين، بالإضافة إلى إذاعة الــزواج على الهواء مباشرة.

***

قلنا: حدثنا عن أخويك.. فحدثنا عن أخواتك.

قال: أما أختي الأولى.. فقد كان اسـمها (سـيمون دي بوفـوار) (1)، فقد كان لها من التحرر ما عمقت به الهوة التي كانت تعيشها أسرتنا، وقد انتمت إلى بعض حركـات تحريـر المـرأة الـتي نشـأت في الستينات، والتي بدأت بالمطالبة بضمانات قانونيـة للمـرأة في مجـال ظـروف العمـل والحقـوق السياسـية تحت شـعار (تحريـر المرأة من سلطة الرجل)

لكنهـا في غمـرة انتصـاراتها لم تكتـف بـذلك، بـل تحـولت إلى استخدام مفهوم جديد من (الأنثوية)، أو (النسـوية) أو (النسـوانية)، أو كما نعبر عنه في بلادنا (Feminism)

1() أشير به إلى (سيمون دي بوفوار)، ولدت عام 1908 في باريس لعائلة برجوازية، والدها كان محاميا خسر أملاكه في الحرب العالمية الأولى.. أما أمها فعملت على تلقينها هي وأختها الصغرى مبادئ الكاثوليكية، والتي ما لبثت دي بوفوار أن أعلنت كفرها بها.

درست الفلسفة في جامعة (أكول نورمال سوبراير) وكانت جامعة تضم الـذكور فقـط حينها، وفي عام 1929 تعرفت على جان بول سارتر الـذي كـان وقتهـا طـالب في قسـم الفلسفة، ونشأت قصة حب بينهما استمرت حتى وفاة سارتر عام 1980، لكن بــدون أن يلتزما بالزواج.

في الأعوام 1931ـ 1943 درست بوفـوار الفلسـفة في ثانويـات مختلفـة في إرجـاء فرنسا. في الأعوام 1941ـ 1943 عملت كبروفيسور (أستاذه جامعيـه) في السـوربون. عـام 1943 نشـرت روايتهـا الأولى (المـدعوة)،. هـذه الأعـوام كـانت مهمـة في صـقل شخصيتها كفيلسوفة ومفكرة، لاسيما في المجال النسوي. في عام 1981 كتبت (مباركة الانفصال عن سارتر)، وبه وصف صعب للسنوات الأخيرة التي عاشـها سـارتر. تعتـبر دي بوفوار أماً للتيار النسوي ما قبل عام 1968، وقد اشتهرت بصـورة خاصـة بفضـل كتابهـا (الجنس الآخر) الذي نشرته عام 1949. تـوفيت بوفـوار في بـاريس عـام 1986 ودفنت إلى جانب جان بول سارتر.

لقـد مارسـت هـذه الأخت المتمـردة كـل مـا لقنوهـا إيـاه من دروس لم تزد إلا في تفكك أسرتنا.. لقد كانت كل حين تصيح فينـا بأنهـا الأفضـل.. وأنهـا تـرفض رفضـا مطلقـا مـا تسـميه (السـلطة الأبوية)، وكانت تذكر لنا كـل حين أن المجتمعـات الإنسـانية كـانت في البداية أمومية، ثم استولى عليها الرجال.

بل إن التمرد وصل بها إلى درجة الوقاحة فذكرت لنا أن المرأة يمكنها أن تستغني عن الرجـل في كـل شـيء حـتى في العلاقـات الجنسية.. وقد أدى ذلك بها إلى أن تقع أسيرة لنوادي المثليات.

ولم تكتف أختي بالخراب الذي سببته لأسرتنا.. بل راحت ـ مـع أعضاء حركتها ـ ترحل إلى العالم أجمع لتبشـر بـالتخلص من عبء الأسرة، والدعوة إلى (أن النظام الأسري ضد طبائع البشر)

وقـد تحقـق لأخـتي وللحركـة الـتي تنتمي إليهـا الكثـير من المطالب.. لقد أقنعوا المجتمعات المختلفة أن هذا السـلوك الـذي يمارسـونه من قضـايا حقـوق الإنسـان الـتي ينبغي أن تثـار كـل الصراعات من أجلها.

بل قد استطاعوا أن يقنعوا الكثير من مجموعـات ذلـك العـالم الذي لا يعرف إلا استهلاك بضائعنا بجدوى ما يـدعون إليـه من قيم، وهي قيم ومبادئ لا تدعو إلا للشذوذ والسلوك الاجتماعي المنـافي للطبيعة.

والأخطـر من كـل ذلـك هـو أن حركتهـا بـدأت في تبـني هـذه المفاهيم والمبادئ النسوانية وصـياغتها في وثـائق رسـمية تضـفي عليها الصفة القانونية والشرعية، لتحاول بعـد ذلـك أن تصـنع منهـا قضية دولية.

بل إنها في غمرة سعيها لاعادة تحديد المفاهيم المرتبطة بـدور الرجل والمرأة داخلها، طالبت بمخاطبة الله عز وجل بضمير (هي) معتـبرة أن مخاطبـة الخـالق بضـمير المـذكر فقـط إهانـة للنسـاء وتحقير من شأنهن.

لقد كانت من نتائج تلك الصـيحات الشـيطانية أن تخـرب بنيـان الأسرة في بلادنـا، وفي بلاد كثـيرة.. فتلـك الحركـات التحرريـة لم

تجعل من المرأة عنـدنا معـولاً لهـدم أسـرتها فقـط، وإنمـا جعلتهـا معولا لهدم مقومات مجتمعها من الأساس.

وقد ظهر نتيجـة لـذلك أشـكال شـاذة من التعـايش بين امـرأة وامرأة، أو بين رجل ورجل وحتى بين أكثر من رجل وامرأة، بل إن بعض الدول الإسكندنافية أضفت جميعها شرعية قانونية على مثـل هذه الأشكال، وسمحت لهـؤلاء الشـواذ بتبـني الأطفـال وتنشـئتهم وسط هذا العبث الإنساني غير الأخلاقي.

سـكت قليلا، ثم قـال: نعم.. ليسـت كـل الأسـر حصـل لهـا مـا حصـل لهـؤلاء.. ولكن القـوة الـتي ينتشـر بهـا هـؤلاء لا تبشـر إلا بالخراب العظيم الذي ينتظر البشرية..

لقد بدأت أمارات هذا الخـراب تظهـر على الأسـر عنـدنا.. فلم يبق ذلك الـزواج التقليـدي الـذي تباركـه الكنيسـة.. والـذي يتم بين رجـل وامـرأة كمـا اعتـادت البشـرية منـذ نشـأتها.. إلا في بيئـات محدودة.. لقد حل محله شكل قانوني جديد يفرغ مؤسسة الـزواج من مضمونها بشكل مـدهش، فبـدلاً من الـزواج الكنسـي أو حـتى المدني الذي يفرض على طرفيه تبعات قانونية يضيق بهـا كلاهمـا، ظهر عندنا شكل جديد من العلاقـة بين الرجـل والمـرأة ضـمن مـا يسمى بزواج العقود، وهو ليس زواجـاً من الأسـاس إلا أن طرفيـه يلجآن إليه لتنظيم توزيع النفقـات ومسـئوليات الحيـاة اليوميـة بين طرفين غالباً ما يكونان قد تعاشرا لمـدة سـابقة معاشـرة الأزواج، ولكن دون أن يتم تسجيل هذه العلاقات على أنها علاقات زواج قد تؤدي عند الانفصال مثلاً إلى اقتسام ثروة الطرفين بالتسـاوي كمـا هو متبع عند الطلاق من زواج كنسي أو مدني.

***

قلنا: فحدثنا عن أختك الثانية.

قال: لقد اشتغلت المسـكينة في بعض دور السـينما(1).. وقـد عاشت حياتها جميعا منشـغلة عن نفسـها وعن أهلهـا.. وقـد انتهت

1()استدفنا المعلومـات عن الفنانـات الـواردة هنـا من كتـاب (التوبـة وظيفـة العمـر) للشيخ محمد الحمد.

في الأخير إلى مصحة نفسية..

لا أزال أذكر جيدا اليوم الأول والأخير الـذي زرتهـا فيـه قبـل أن تنتحر..

لقد كانت تردد، وهي تحت تأثير الأقراص الكثيرة المخدرة التي شربتها: أهلا (بريجيت باردو).. أهلا بالممثلة الفرنسية المشـهورة.. ألست أنت الذي قال لـك الصـحفي: لقـد كنتِ في يـوم من الأيـام رمزاً للتحرر والفساد.. فأجبته قائلة: هذا صـحيح كنت كـذلك، كنت غارقـة في الفسـاد الـذي أصـبحت في يـوم مـا رمـزاً لـه.. لكن المفارقة أن الناس أحبوني عاريـة، ورجمـوني عنـدما تبت.. عنـدما أشاهد الآن أحد أفلامي السابقة فإنني أبصق على نفسـي، وأقفـل الجهاز فوراً، كم كنت سافلة.

ثم التفتت إلى جهة أخرى، وقالت: أهلا (مـارلين مـونرو).. أهلا بممثلة الإغراء الأمريكية التي تعد أشهر ممثلـة في تـاريخ هوليـود.. ألست المرأة التي قيل عنها: (إنها أسـطورة هوليـود الـتي لا يخبـو نورها، ولا ينطفىء وهجها، ولا ينقطع الحديث عنها)

لقد كنت أظن أنك فارقت الحياة منذ سبعة وثلاثين عاماً.. كيف ظهـر لـك أن تعـودي.. حـدثيني عن سـبب وفاتـك.. فقـد مت في ظروف غامضة..

لقـد ذكـر المحققـون أنهم وجـدوك جثـة هامـدة في منزلـك، واكتشف المحقـق الـذي تنـاول قضـيتك أنـك مت منتحـرة، ووجـد رسالة محفوظة في صـندوق الأمانـات في مانهـاتن في نيويـورك، وجهتهـا إلى فتـاة تطلب نصـيحة منـك عن الطريـق إلى التمثيـل.. قلت فيها تخاطبينها وتخاطبين كل من ترغب العمـل في السـينما: (احذري المجد، احذري كل من يخدعك بالأضواء؛ إني أتعس امرأة على هـذه الأرض؛ لم أسـتطع أن أكـون أمـاً، إني أفَضِّـل الـبيت، والحيـاة العائليـة الشـريفةَ على كـل شـيء، إن سـعادة المـرأة الحقيقية في الحياة العائلية الشريفة الطاهرة، بـل إن هـذه الحيـاة العائلية لهي رمز سعادة المرأة، بل الإنسانية)

وقلت في نهاية الرسالة : (لقد ظلمني الناس، وإن العمـل في السينما يجعل المرأة سلعة رخيصـة تافهـة مهمـا نـالت من المجـد

والشهرة الزائفة.. إني أنصح الفتيات بعدم العمل في السينما وفي التمثيل؛ إن نهايتهن إذا كن عاقلات كنهايتي)

التفت إلى جهة أخرى، وقالت: أهلا بالفنانـة الإيطاليـة العالميـة (داليدا).. أهلا بالفنانة التي وصلت مبيعـات أغانيهـا إلى 85 مليـون اسـطوانة، والـتي غنت 400 أغنيـة بالفرنسـية، و 200 أغنيـة بالإيطالية، و 20 أغنيـة بلغـات مختلفـة منهـا الألمانيـة، والأسـبانية، واليابانية، والعربية.. أهلا بالتي حصدت الجوائز العالمية.. أهلا بالتي تركت للدنيا أغاني كثيرة، خلفت ثـروة تقـدر بـأكثر من 30 مليـون فرنك فرنسي..

أجيبيني.. هل عشت حياة سعيدة رغم كل تلك الثروة والجاه ؟

لقد علمت أنك لم تؤسسي أسرة، ولم تنجبي طفلاً، أو طفلـة، مع أن الإنجاب كان حلم حياتك.

وقد علمت ـ فوق ذلك ـ أنـك كنت مدمنـة للمخـدرات، تلجـئين إليها كل حين للخلاص من الاكتئاب، والوحدة، والعذاب النفسي.

وقد علمت ـ فوق ذلك كله ـ أنك حاولت الانتحار عام 1967م، محاولة اللحاق بحبيبك (لويفي تانكر) الذي قتـل نفسـه بمسدسـه، فلم تطيقي العيش من دونـه، فتجـرعت مـواد سـامة؛ رغبـة في الانتحار، ولكن محاولتك باءت بالإخفاق في المـرة الأولى.. ولكـني صممت ونجحت أخيرا.. وقـد تـركت ورقـة كتبت فيهـا : (الحيـاة لا تحتمل، سامحوني؛ الحياة أصبحت بالنسبة لي مستحيلة)

التفت إلى جهة أخرى، وقالت: أهلا بالفنانة الأمريكية الشـهيرة، التي نالت من المال والشهرة والانطلاق ما جعلها أشـهر فنانـة في هذا العصر.. الفنانة العظيمة (مادونا).. هل تعلمين أن شـهرتك قـد طبقت الخـافقين؟.. وأن ثروتـك لا يمكن تقـديرها.. أجيبيـني.. هـل وجدت الراحة والاستقرار؟

لقد سمعت أنك صـرحت بأنـك تعيشـين حالـة اكتئـاب عميـق، وذلك بعد أن اكتشفت أنه لم يبـق بينـك وبين سـن الأربعين سـوى ثلاث سنوات، ذلك السـن المتعـارف عليـه لـدى الأطبـاء بأنـه آخـر فرصة للإنجاب بالنسبة للمرأة دون مشكلات.

وسمعت بأنك صرحت لمجلة نمساوية بأنك نادمة نـدماً شـديداً على السنوات التي أضعتها وراء الغناء هنـا وهنـاك دون أن تفكـري أن تتزوجي من جديد بعد زواجك الأول الـذي لم يسـتمر، ودون أن تفكـري في إنجـاب طفـل أو أكـثر يملأون عليـك حياتـك بعـد أن تنصرف عنك الأضواء.

قالت ذلك، ثم راحت تصرخ بهستيرية.. وقد سمعت أنها مـاتت بعد تلك الكلمات..

***

قلنا: حدثتنا عن أسرتك.. فحدثنا عنك أنت.

قال: ماذا عساي أقول لكم..

بعد أن خرج جميع إخواني وأخـواتي، ولم يبـق إلا أنـا، ولم يبـق معي إلا ذلك الأب المشوه، وتلك الأم المنحرفة.. قـررت أن أكـون مستقيما، فطلبت لنفسي زوجة.. لقد كـانت الفطـرة تحثـني على أن أتخذ زوجة..

لكـني لم أتمتـع بـذلك الـزواج إلا شـهرا واحـدا.. بعـدها انقلبت حياتي إلى جحيم..

كان أول ما فرضته علي زوجتي هـو التخلص من والـدي.. فلم تكن تطيق أن ترى وجهيهما.. وقد اضطررت لذلك ـ وقد شاخا ـ إلا أن أرميهما في بعض ديار العجزة..

قال رجل منا مستغربا: ترمي والديك في ديار العجزة!؟

ابتسم، وقال: ربما لا يوجد شيء أرحم لهما في تلك الديار من ديار العجزة..

لعلكم لم تسـمعوا بمـا قـال النـائب الـديمقراطي الأمـريكي (كلودبير) في معرض تعليقـه على تقريـر أعدتـه لجنـة في مجلس النواب الأمريكي، بعد دراسة استمرت ست سنوات جاء فيهـا: (إن أكـثر من مليـون مسـن ومسـنة، تجـاوزت أعمـارهم (65عامـاً) يتعرضـون لإسـاءات خطـيرة، فيضـربون ويعـذبون عـذاباً جسـدياً

ونفسياً، وتسرق أموالهم من قبل ذويهم)

وقد أكد التقرير أن الإساءة للمسنين، تأخذ عـدة أشـكال، منهـا الضرب والإهمال والحرمان من الطعام والشراب، وقد يصل الأمر إلى القتل أحياناً.

لقد قال معلقا على هذا : (إن وضع المسـنين في أمريكـا عـارٌ وطني مرعب)، وقال: (لا أحد يدرك حتى الآن أبعاد هذه المشكلة المرعبة، ولا يرى أحد أن يعترف بما يجري، لقـد تجاهلنـا المشـكلة لأنهـا مخيفـة، لدرجـة تمنعنـا من الاعـتراف بوجودهـا، ولا نريـد أن نصدق أن مثل هذه الأشياء، يمكن أن تحدث في دولة متحضرة)

وقالت الدكتورة (سوزان ستايتمتر) أستاذة الدراسـات العائليـة في جامعـة (ملاويـر): (لقـد تعودنـا طـوال تاريخنـا على الإسـاءة للمسنين، إننا نميل إلى العنف البدني، وقد أصبح هذا جزءاً ثابتاً من طبيعة عائلات كثيرة تسيء للمسنين، بـالعنف والاضـطهاد، وأصـبح إهمالهم وعدم الرفق بهم، أو حتى نجدتهم من الأمور الشـائعة في المجتمعات الأوربية)(1)

قال الرجل: أيحصل هذا في أمريكا المتحضرة؟

قال: ليس في أمريكا وحدها يحصل هـذا.. في كـل تلـك البلاد الممتلئة بالصراع تحدث كـل الغـرائب.. اسـمحوا لي أن أذكـر لكم بعض ما يحصل هناك مما رأيته أو شاهدته أو سمعت به لتروا مدى الانحطاط الذي وصلنا إليه.

مما سمعت به في تلك البلاد أن امرأة قامت بتقييد أبيها البـالغ من العمر(81عاماً) بسلسلة وربطته أمام الحمـام، وأخـذت تعذبـه لعدة أيام.

وحدثني صديق لي كان يدرس في بريطانيا أن صديقاً له، كــان يعمل مناوباً في أحد المستشـفيات هنـاك، وكـان قـد تـوفي رجـل مسن في تلك الليلة عنده، فأحب أن يعزي أسرة المتوفى، واتصل بولـده في السـاعة الثانيـة عشـرة ليلاً، وعـزاه بوفـاة والـده على

(1) انظر مقالا بعنوان: المسنون في ديننا وحضارتهم، لخالد ابن ناجم الشريف، مجلة الأسرة، العدد (105)

وجـل.. فمـا كـان من الابن إلا أن امتعض من هـذا الاتصـال وقـال: أتتصل بي في هـذه السـاعة المتـأخرة من الليـل، لتخـبرني بوفـاة والدي؟! وماذا تنتظر مـني أن أفعـل؟!.. أنـا مسـافر صـباحاً لمـدة ثلاثة أيام، ضعوه في الثلاجة، وسـأراجعكم حين عـودتي، من أجـل استلام الجثة.

***

قلنا: فماذا حصل بعد أن رميت والديك في ديـار العجـزة.. هـل اطمأنت زوجتـك بعـد ذلـك؟.. وهـل وجـدت الاسـتقرار الـذي كنت تحلم به؟

قال: كيف أجد الاستقرار في تلك البلاد التي لم تكن تعــرف إلا الصراع ؟

قلنا: فأي صراع جديد حصل لك؟

قال: تلك الجريمة الخطيرة التي تسمى (الخيانة الزوجية)..

قلنا: كيف حصل ذلك؟

قال: ما أسهل أن تقع الخيانات في مجتمعاتنا.. فقـد كـان فيهـا من التفتح والانحلال ما ييسر كل سبل الرذيلة..

لقــد جــاء في الإحصــائيات(1) أن 75% من الأزواج يخونــون زوجاتهم في أوروبا، وأن نسبة أقل من المتزوجات يفعلن الشــيء ذاته.. وفي كثير من هذه الحالات يعلم الزوج بخيانــة زوجتــه وتعلم الزوجــة بخيانــة زوجهــا، ومــع هــذا قــد تسـتمر العلاقـات الزوجيـة الشكلية دون أن يطرأ عليها أي انفصام.

قلنا: فما مصير زواجك بعد اكتشافك للخيانة؟

قال: الطلاق.. لقد رحت للمحاكم أسعى لتطليق زوجتي.

قلنا: لكنك ذكرت موقف الكنيسة من الطلاق..

1()نشرت هذه الإحصائية صحيفة الشرق الأوسـط الـتي تصـدر في لنـدن في عـددها الصادر 15/7/1400 هـ الموافق 29/5/1980 م.

قال: لقد رضخت الكنيسة أخيرا.. وصارت تقر بالطلاق.. وتحكم به.. وتوافق عليه..

ومع ذلك، فلم يكن لي اهتمام بالكنيسة، ولا اهتمام بمعرفة رأيها.. فقد كانت الفضائح التي تملأ أذني من أخبار رجالها ما يردعني عن الالتفات إليها.

قلنا: فكيف صار المجتمع ينظر إليك بعد تطليقك لزوجتك؟

قهقه بصوت عال، وقال: كل الذين قاموا بالإجراءات المرتبطة بتطليقي لزوجتي كانوا من المطلقين أو المطلقات.

قلنا: هي مصادفة غريبة إذن؟

قال: لا.. ليست مصادفة غريبة.. الطلاق عندنا يكاد يساوي الزواج..

لقد نشرت بعض صحفنا(1) مقالا تحت عنوان (بريطانيا الجديدة: أزمات زوجية وعائلية وارتفاع حالات الخيانات.. على أنواعها) جاء فيه : (بريطانية مقبلة على أزمة اجتماعية كبيرة.. وتتحدث أرقام رسمية نشرت أمس في لندن عن تزايد المخاوف من زيادة نسبة الطلاق وانخفاض نسبة الزواج وارتفاع نسبة الخيانة الزوجية بين الطرفين وتقول الأرقام ما يلي: 30 بالمائة من الأزواج الذين تتراوح أعمارهم بين 20 و 24 عاماً عليهم أن يتوقعوا سلسلة عمليات طلاق خلال 15 عاماً الآتية.. ارتفع عدد الأمهات المطلقات إلى مليون وربع المليون أم، والرقم مرشح للزيادة.. 50 بالمئة من الأزواج الجدد يرفضون الإنجاب خلال السنوات الثلاث الأولى من زواجهم..

أما في أمريكا.. فنسبة الطلاق في ازدياد مطرد فبينما كانت نسبة الطلاق سنة (1900م) لا تتجاوز (10%) قفزت النسبة في عام (1948م) لتصبح (40%) أما الآن فنسبة الطلاق في أمريكا تتجاوز (70%) من الزيجات تنتهي بالفشل والطلاق.

---

(1) انظر: صحيفة الشرق الأوسط في عددها الصادر 12/7/1400 الموافق 26/5/1980.

قلنا: فما أسباب ذلك؟

قال: الأسباب معروفة.. منها: الخيانة الزوجية، وقد ذكـرت لكم أن نسبتها تتجاوز (75%).. ومنها التكاليف الباهظة في وقت ليس لدى الرجل فيه أي استعداد لتحمل أية مسؤولية لا عن الزوجـة ولا عن الأطفال، فهو يريد أن يستمتع بـالمرأة، لكن لا يريـد أن تنجب، وإذا أنجبت لا يعـترف بهـذا الولـد، ولا ينفـق عليـه.. ومنهـا العمـل، فالرجل يعمل والمرأة تعمـل، وبالتـالي ليس بينهمـا علاقـة زوجيـة حقيقية.. وغيرها من الأسباب الكثيرة..

***

قلنا: فما حصل بعد تطليقك لزوجتك؟

قال: تزوجت أخرى.. ثم أخرى.. ثم أخرى.. إلى أن يئسـت من أن أجد امرأة محترمة أكون معها بيتا ممتلئا بالسلام..

وعندما يئست من ذلك لجأت إلى ما لجأ إليه رفاقي.

قلنا: الانتحار.

قال: أجل.. لقـد كـان هـو الحـل الوحيـد الـذي أنهي بـه حيـاتي الممتلئة بالصراع.

قلنا: فحدثنا كيف تم تخطيطك للانتحار؟

قال: لم يكن الأمـر صـعبا.. فمـا أسـهل أن يصـنع المصـارعون أدوية الموت.

قلت: أي دواء استعملته؟

قال: لقد ذهبت إلى جمعية من جمعيات الانتحار.. كانت تسمى (طائفة معبد الشمس)(1)، وقد كانت من الطوائف التي تدعو إلى

1() وهي طائفـة تتواجـد في كنـدا وأوروبـا وخاصـة فرنسـا وسويسـرا.. وأصـحابها يعتقدون أن الانتحار الجماعي في طقـوس معينـة يمكِّن الواحـد منهم أن يولـد من جديـد في كوكب الشعرى اليماني.

وقد وجد (48) شخصاً من أعضاء هذه الطائفة قتلى منتحرين في أحد الشـاليهات في سويسرا.. وفي جبال الألب بفرنسا انتحر 16 شخصـاً من أتباعهـا في ديسـمبر 1995م..

الانتحار، وتيسر السبل إليه.

وقد سلمتني هذه الطائفة من أدوية الموت ومناهجـه مـا رحت به أحاول التخلص من نفسي.. لكن من سـوء حظي أو من حسـنه أن الله أنقذني من أن يكون مصـيري هـو الانتحـار بـالرغم من أني أعددت كل عدته.

قلنا: كيف كان ذلك؟

السلام

قال: لقـد سـقطت قـارورة المـوت من يـدي فجـأة.. لا.. ليس فجـأة.. بـل بعـد سـماعي لصـوت جميـل كـان يـردد من قـرآن المسلمين هذه الآية : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِـكُمْ أَزْوَاجـاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَـا وَجَعَـلَ بَيْنَكُمْ مَـوَدَّةً وَرَحْمَـةً إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيـاتٍ لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم:21)

قلنا: وما حصل بعدها؟

قال: لقد أغمي علي بعد أن حصلت لي بعض تلك اللذات التي حدثتني عنها تلـك الطائفـة.. ولم أفطن إلا وأنـا في بيت رجـل من المسلمين كان يسكن واشنطن.. ولكنه كان أغرب الناس عنها.

بعد أن فتحت عيناي في بيته، وجدته وأهل بيته جميعا بجـانبي.. شعرت براحة عظيمـة لم أشـعر بمثلهـا في حيـاتي.. لقـد لاحظت ابتسـامتهم العذبـة وهم ينظـرون إلي، بـل إني سـمعت تكبـيرهم بمجرد أن فتحت عيناي.. لقد كبروا اللـه وحمـدوه على نجـاتي مـع أني لم أكن أعرفهم، ولم يكونوا يعرفونني.

بعدها قال لي الرجل: الحمد لله على نجاتك.

نظـرت إليـه خجلا، وقلت: من أنت؟.. وكيـف أنقـذتني؟.. لقـد

وفي كويبك بكندا عثر على جثث لخمسة منتحـرين في مـارس 1997.. وكـان قـد سـبق ذلك العثور على خمسة أطفال آخرين في مدينة مونتريال بكندا أيضاً.. انظر مقالا بعنوان (ظاهرة الانتحار) لأوزجان يشار، منشور في موقع عشتار / التاريخ: 1423هـ.

شـربت الـدواء الـذي لا يحتـاج شـاربه إلى أي دواء بعـده.. فلم خلصتني؟

ابتسم، وقال: أنا أخ من إخوانك.. أرسلني اللـه إليـك في وقت أحوج ما تكون فيه إلي.. وأنا أعتذر إليك، لأني لم أسـرع بـالمجيء إليك حتى وصلت إلى تلك الحال.

قلت: من أنت؟

قال: أنا رجل من هذه البلاد.. كان قلبي ممتلئا بالبرودة.. وكـان صدري مملوءا بالظلمات.. ربما كنت مثلك تمامـا.. لكن اللـه شـاء أن أتعرض للشمس التي لا يتعرض لها أحد إلا أطعمتـه من الأنـوار ما يخلصه من كل برد ومن كل ظلمة.

قلت: لا أعي كثيرا مما تقول.. فاذكر لي اسمك.

قال: لقد كنت أسمى أسماء كثيرة.. مرة فرويد، ومرة نيتشة.. لكني بعد أن تعرضت لتلـك الأشـعة تسـميت باسـم محمـد.. ولكن أصحابي يأبون إلى أن يدعونني أمين الدين(1).

قلت: لقد سمعت بمثل هـذه الأسـماء.. أليسـت هـذه الأسـماء هي الأسماء التي يتخذها أولئك الإرهابيون من أكلة لحوم البشر؟

ابتسم، وقال: أنت تردد ما كنت أردد أنا زمنا طويلا.. وإن شئت أريتـك من مقـالاتي مـا يـبين لـك أني لم أختلـف عنـك في هـذا الموقف.

1() أشير به إلى المفسر الفقيه المحدث أمين الدين أو أمين الإسلام الشيخ أبـو علي الفضـل بن الحسـن بن الفضـل الطبرسـي الطوسـي السـبزواري الرضـوي المقلب بـ(المشهدي)..

قال صاحب (رياض العلماء) بعد الترجمة له: كان قدس سره وولده رضـي الـدين أبـو نصر حسين بن الفضل، صاحب (مكـارم الأخلاق) وسـبطه: أبـو الفضـل علي بن الحسـن صاحب (مشكواة الانوار) وسائر سلسلته وأقربائه من أكابر العلمـاء ويـروي عنـه جماعـة من أفاضـل العلمـاء، منهم ولـده المـذكور، وابن شـهر آشـوب والشـيخ منتجب الـدين، والقطب الراوندي)

وسبب اختيارنا له هنا هو ما اشتهر عنه من اهتمامه بأسرته، حـتى تخـرج منهـا الكثـير من العلماء الأفاضل.

قلت: فكيف تحـولت عن قولـك؟.. وأي سـحر هـذا الـذي رمي عليك، فجعلك تتراجع عن آرائك؟

قال: كنت صحفيا.. وقد شاء الله أن أرسل إلى بقعة من بقــاع ذلك العالم.. وقـد ودعت أهلي عنـد إرسـالي وداع من سـيفارقهم فراقا لا يعود بعده.. ولكني عدت إليهم بالحياة التي كنت أفتقدها..

لقــد كنت أعيش قبــل أن أذهب إلى تلــك البقعــة كمــا تعيش القطط والكلاب.. بـل كمـا تعيش الخنـافس والجعلان.. بـل كـانت حياتي لي لا تختلف عن حياة أي بهيمة من بهـائم الغـاب لا هم لهـا من الحياة إلا اقتناص ما تملأ به غرائزها.

ولكــني عنــدما ذهبت، ورأيت من أهــل اللــه من رأيت امتلأت بأشواق رفيعة سامية، وامتلأت نفسي بسـلام لا أرى أن هنـاك في الدنيا سلاما يعدله.

قال ذلـك، ثم ابتسـم بلطـف، وقـال: اعـذرني.. لقـد انشـغلت بالحديث عن نفسي عن تعريفك بهؤلاء..

أشــار إلى المحيطين بي، وقــال: هــؤلاء هم أهلي.. لقــد كنــا متفرقين متفككين يصارع بعضنا بعضـا.. ولكـني بمجـرد أن رجعت جعلت أول أهدافي أن تكون لي أسرة كما لكل مسلم أسـرة.. فلا يمكن أن يرى الإنسان السلام وهو يعيش في أجواء الصراع.

بمجـرد أن عـدت ذهبت إلى والـدي اللـذين أرسـلتهما إلى دور العجزة، فأسكنتهما معي، وها هما أمامك.. لقـد قامـا ليـال طويلـة يدعوان الله لك بالشفاء.. ولعل ما تظفر به من العافيـة لم يكن إلا بسبب تلك الدعوات المباركة التي دعوا بها لك.

أشار إلى أربع نسوة، وقال: هؤلاء هن زوجاتي..

انتفضت من فراشي، وقلت: أنت تعدد الزوجات.. هذا ما يؤخذ على المسلمين؟

قال: أجل.. هم يقولون ذلك.. وهم يتلاعبون بذلك القول.. لقــد اتخذت الصحافة من زواجي بهؤلاء الزوجات الأربع مـادة للسـخرية مع أنهن أنفسهن كن صديقاتي قبل أن يمن الله على بالإسلام..

لقد كنت في تلك الجاهلية الجهلاء أعيش معهن جميعا معيشة الأزواج.. وكان الكل يعلم ذلك، ولم ينكر أحد علي ذلك.. ولكني بمجرد أن نظرت إليهن نظر الرحمة، فخيرتهن بين الفراق وبين الزواج بي اخترن جميعا الزواج بي.. كلهن.. لم ترد إحداهن أن تلغي الأخرى.. في ذلك الحين قامت الدنيا ولم تقعد.

لقد كتبت الصحافة ما شاء لها أن تكتب مع أن الحرية التي تدعيها تجعل لأي شخص الحرية في أن يختار المعيشة التي يريد.. ولكن تلك الصحافة الممتلئة بالتناقضات تقدر معيشة الخليلات البئيسة، وتحتقر معيشة الزوجات الشريفة.

أذكر ممن كتب في ذلك صديقا لي كان مسؤولا كبيرا.. كان من أكبر مسؤولي هذا البلد.. كان اسمه (جونسون)، وكانت حياته مملوءة بكل أنواع الانحراف.. وكانت له علاقات مع صحفيات وغيرهن كان معاونوه يحضرونهن له، وذات مرة ـ وبمرآي ـ أحضر جونسون ثلاث فتيات دفعة واحدة من مزرعته بتكساس، وأصر على توظيفهن في البيت الأبيض ليبقين رهن إشارته.

وكان منهم (فرانكلين روزفلت) ــ الذي حكم هذه البلاد منذ عام 1933، وأعيد انتخابه للمرة الثالثة في عام 1940 ـ لقد كان هذا الرجل المقعد ذا علاقات نسائية متعددة، على الرغم من أنه كان مقعدا يتحرك بكرسي طبي.

وكان منهم (جون كيندي).. وكان من أشهر عشيقاته ممثلة الإغراء الراحلة (مارلين مونرو)، والتي لقيت مصرعها في حادث غامض قيل إنه من تدبير المخابرات المركزية الأمريكية، وكان شقيقه (روبرت) على علاقة هو أيضا بمارلين مونرو في ذات الوقت، وكان يقابلها في مكتبه أثناء عمله مدعيا عاما لهذه البلاد.

وقد أقام جون كيندي علاقات أخرى مع عشرات من النساء أثناء ارتباطه بزوجته (جاكلين).. ومن عشيقاته سكرتيرتان هما الشقراء (فيدل) والسمراء (فادل) والثالثة كانت فتاة تعمل في عصابات المافيا وتدعى (جوديث كامبل)

كل هؤلاء لقيت منهم ما لقيت بعد أن هداني الله.. وبعد أن هدى الله هؤلاء النسوة الطيبات، فرحن يبدلن الحياة الخبيثة في

البيت الخبيث بالحياة الطيبة في البيت الطيب.

أشار إلى مجموعة أولاد وبنات، وقال: هؤلاء هم أولادي.. وهم ـ كما ترى ـ قد نور الله قلوبهم بالإيمان.. لقد تداولوا عليك في فترة مرضك.. كل واحد منهم يسقيك من بره ما يسر الله لك الشفاء.

نظـرت إليهم نظـرة امتنـان، فبـادلوني بنظـرات جعلتـني أرى الحياة بصورة أجمل بكثير من الصورة التي كنت أنظر بها إليها.

***

بعد أن يسر الله لي الشفاء التـام، وصـرت أنهض من فراشـي كما ينهض الأصحاء، طلبت من أمين الدين أن يأذن لي في العـودة إلى بيتي.. ذلك الـبيت المملـوء بالظلمـات، فقـال: لا.. لا ينبغي أن تذهب الآن.. أنت في حالة نقاهة.. وينبغي أن تظل هنا.

قلت: شكرا.. لقد شفيت تماما.. وأنا ممتن لـك.. يكفيـني ذلـك الإزعاج الذي سببته لكم.

قال: ومن قال لك بأنك أزعجتنا.. بالعكس نحن سـررنا كثـيرا.. الحمد لله.. لقد وسع اللـه علينـا.. ومن وسـع اللـه عليـه ينبغي أن يوسع على غيره.. هكذا علمنا الإسلام(1).

لقــد اتخـذت في هـذا الـبيت بيتـا خاصـا بـأي ضـيف يـأتيني.. واسـتفدت ذلـك من المسـلمين الـذين عشـت معهم.. فلـذلك لا يسبب لي الضيوف أي حرج، أما الطعـام، فقـد أخبرنـا نبينـا ﷺ أن الله يبعث مع الضيف رزقه، فقال ﷺ:(الضيف يأتي برزقه ويرتحل بــذنوب القــوم يمحص عنهم ذنــوبهم)(2)، وقــال ﷺ:(إذا دخــل الضيف على القوم دخل برزقه، وإذا خرج خـرج بمغفـرة ذنـوبهم)

(1) ننبه هنا إلى أنا اقتصرنا في هـذا الفصـل على بعض مـا شـرعه الإسـلام في هـذا الباب، أما التفاصيل، فقـد أفردناهـا ــ أولا ــ بسلسـلة فقهيـة مفصـلة هي (سلسـلة فقـه الأسرة برؤية مقاصدية) والتي طبعت أجزاؤها تحت عنوان (مكتبة الأسرة المسلمة)

والثاني أن الكثير من التفاصـيل المرتبطـة بالموضـوع في هـذه السلسـة طرقنـاه في رسالة (رحمة للعالمين).

(2) رواه أبو الشيخ.

(1)، وقال ﷺ:(إذا أراد الله بقوم خيرا أهـدى إليهم هديـة الضـيف ينزل برزقهن ويترحل، وقد غفر الله لأهل المنزل) (2)، وقال ﷺ:(الرزق أسرع إلى الـبيت الـذي يؤكـل فيـه من الشـفرة إلى سـنام البعير)(3)

بل أخبر ﷺ، فقال: (إن أسـرع صـدقة إلى السـماء أن يصـنع الرجل طعاما جيدا، ثم يدعو إليه ناسـا من إخوانـه)(4)، وقـال ﷺ: (إن من موجبات المغفرة إطعام السغبان)(5)

بل أخبر ﷺ بما هو أعظم من ذلـك، فقـال:(أطعمـوا الطعـام، وأفشوا السلام تورثوا الجنـان)(6)، وقـال ﷺ:(من أطعم مسـلما جائعا أطعمه الله من ثمار الجنة)(7)، وقـال ﷺ:(من ذبح لضـيفه ذبيحة كانت فداه من النار)(8)

وأخبر ﷺ عن فضل مطعم الطعام، فقـال:(خـيركم من أطعم الطعام ورد السلام)(9)، وعلى عكس ذلك، قال ﷺ:(لا خير فيمن لا يضيف)(10)

في مسـاء ذلـك اليـوم قـدم أقـارب كثـيرون لمحمـد يهنئونـه

1() الديلمي.

2() أبو الشيخ في الثواب وأبو نعيم في المعرفة.

3() ابن ماجة والبيهقي.

4() ابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان.

5() البيهقي في الشعب.

6() الطبراني.

7() أبو نعيم في الحلية.

8() الحاكم.

9() أبو يعلى، والحاكم.

10() أحمد، والبيهقي.

بشفائي، ويهنئوني مثله.. وقد تعجبت لما رأيت من اللحمة التي وصلت بين قلوبهم، وهي ما لم أجده في البيئة التي كنت أعيش فيها.

سألت محمدا عن سر هذا، فقال: إن الفضل لما تراه من هذه اللحمة التي وصلت قلوبنا للإسلام.. لقد كنا في جاهليتنا قبل أن يمن الله علينا بالإيمان والإسلام ننفر من بعضنا نفورا تاما، لكني بمجرد أن جئت من تلك البلاد الطيبة رحت أبحث عن أقاربي وأجدد علاقاتي معهم وأمتنها، وقد من الله على كثير منهم بالإسلام بسببي.

قلت: أفيمن رأيت من ليس مسلما؟

قال: أجل.. فيهم المسلم، وفيهم غير المسلم.

قلت: ولكنك لم تفرق بينهم في معاملتك؟

قال: هكذا علمنا الإسلام.. لقد حدثت أسماء قالت: قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدهم، فاستفتيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، قدمت علي أمي وهي راغبة أفأصل أمي؟ قال : (نعم، صلي أمك)(1)

بل إن القرآن الكريم ذكر هذا، فقد قال تعالى :﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:8)

قلت: ولكن.. أليس الطبع يغلب التطبع.. فكيف تحولت بهذه السهولة مما كنت عليه إلى ما صرت إليه؟

قال: لأني سمعت النصوص المقدسة التي وردت في مصادر المسلمين تخاطب أركاني جميعا.. تخاطب نفسي وعقلي وقلبي وروحي.. فلذلك لم أجد إلا أن أخضع لها، وألتذ بذلك الخضوع بلذة لا تعدلها لذة.

قلت: فأسمعني هذه النصوص التي أثرت فيك كل هذا التأثير.

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

قال: أول ما هزني من النصوص هو ما ورد في القرآن الكــريم من التشديد في قطع الرحم:

فالقرآن يقرن تقوى الله بالرحم، وكأنـه يقـول :(لا تقـوى لمن لم يصل رحمه)، قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُـوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَـا زَوْجَهَـا وَبَثَّ مِنْهُمَـا رِجَـالاً كَثِـيراً وَنِسَـاءً وَاتَّقُـوا اللَّهَ الَّذِي تَسَـاءَلُونَ بِـهِ وَالْأَرْحَـامَ إِنَّ اللَّهَ كَـانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبـاً) (النساء:1) أي واتقوا الأرحام أن تقطعوها.

وهو يقرن بينها وبين الإفسـاد في الأرض، قـال تعـالى : فَهَـلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ) (محمد: 22)، وقال : الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُـونَ مَـا أَمَرَ اللَّهُ بِـهِ أَنْ يُوصَـلَ وَيُفْسِـدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِـرُونَ) (البقرة:27)، وفي موضع آخر ما هو أشـد من ذلـك، قـال تعـالى : وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَـرَ اللَّهُ بِـهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَـةُ وَلَهُمْ سُـوءُ الـدَّارِ) (الرعد:25)، وفي مقابل ذلك قال تعالى : وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَـرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُـوءَ الْحِسَـابِ) (الرعـد: 21)

وتأكيدا لهذه المعاني وردت الأحاديث النبويـة تشـدد على قطـع الرحم، وتعتبره من الكبائر التي رتبت عليها العقوبات الـتي تـنزجر لهولها النفوس:

ففي الحديث قال رسول الله ﷺ :(إن الله تعالى خلـق الخلـق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائـذ بـك من القطيعـة، قـال نعم أمـا ترضـين أن أصـل من وصـلك وأقطـع من قطعك ؟ قـالت بلى، قـال فـذاك لـك)، ثم قـال رسـول اللـه ﷺ : (اقرءوا إن شئتم : فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَـوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِـدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُــوا أَرْحَــامَكُمْ (22) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَــمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (23) (محمد)[1]

وقال ﷺ :(ما من ذنب أجدر - أي أحق - أن يعجل الله لصاحبه العقوبـة في الـدنيا مـع مـا يـدخر في الآخـرة من البغي وقطيعـة

[1] رواه البخاري ومسلم.

الرحم)(1)

وقال ﷺ :(لا يدخل الجنة قاطع)(2)

وقال ﷺ :(إن أعمال بني آدم تعرض كل خميس وليلـة جمعـة فلا يقبل عمل قاطع رحم)(3)

وقال ﷺ :(إنـه أتـاني جبريـل عليـه السـلام فقـال : هـذه ليلـة النصف من شعبان ولله فيها عتقاء من النار بعدد شعر غنم كلب لا ينظر الله فيها إلى مشرك ولا إلى مشاحن ولا إلى قــاطع رحم ولا إلى مسبل - أي إزاره خيلاء - ولا إلى عـاق لوالديـه ولا إلى مـدمن خمر)الحديث(4).

وقال ﷺ :(ثلاثة لا يدخلون الجنة مـدمن الخمـر وقـاطع الـرحم ومصدق بالسحر)(5)

وقال ﷺ :(يبيت قوم من هـذه الأمـة على طعم وشـرب ولهـو ولعب، فيصـبحوا قـد مسـخوا قـردة وخنـازير، وليصـيبنهم خسـف وقـذف حـتى يصـبح النـاس، فيقولـون: خسـف الليلـة ببـني فلان وخسـف الليلــة بـدار فلان خـواص، ولترســلن عليهم حجـارة من السماء كما أرسـلت على قـوم لـوط على قبائـل فيهـا وعلى دور، ولترسلن عليهم الـريح العقيم الـتي أهلكت عـادا على قبائـل فيهـا وعلى دور بشــربهم الخمــر ولبســهم الحريــر واتخــاذهم القينــات وأكلهم الربا وقطيعتهم الرحم)(6).

1() رواه الترمـذي وقـال: حـديث حسـن صـحيح وابن ماجـه والحـاكم، وقـال صـحيح الإسناد.

2() رواه البخاري ومسلم، قال سفيان : يعني قاطع رحم.

3() رواه أحمد بسند رواته ثقات.

4() رواه البيهقي.

5() رواه ابن حبان وغيره.

6() رواه أحمد مختصرا وابن أبي الدنيا والبيهقي، وفي تتمة الحديث :(وخصلة نسـيها جعفر)

وعن جابر قال :خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن مجتمعون فقال: (يا معشر المسلمين اتقوا الله وصلوا أرحامكم فإنه ليس من ثواب أسرع من صلة الرحم، وإياكم والبغي فإنه ليس من عقوبة أسرع من عقوبة بغي، وإياكم وعقوق الوالدين فإن ريح الجنة يوجد من مسيرة ألف عام والله لا يجدها عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جار إزاره خيلاء إنما الكبرياء لله رب العالمين)(1)

وعنه قال: كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ فقال : (لا يجالسنا اليوم قاطع رحم)، فقام فتى من الحلقة فأتى خالة له قد كان بينهما بعض الشيء فاستغفر لها فاستغفرت له ثم عاد إلى المجلس فقال النبي ﷺ :(إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم)(2)

وفي حديث آخر قال ﷺ :(إن الملائكة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم)(3)

وقال ﷺ :(الرحم معلقة بالعرش تقول : من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله)(4)

وقال ﷺ:(قال الله عز وجل : أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته أو قال بتته)(5) أي قطعته.

وقال ﷺ :(إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق، وإن هذه الرحم شجنة من الرحمن عز وجل فمن

1() رواه الطبراني في الأوسط.

2() رواه الأصبهاني، ويؤيد هذا ما رواه الطبراني بسند صحيح عن الأعمش قال: كان ابن مسعود جالسا بعد الصبح في حلقة فقال : أنشد الله قاطع رحم لما قام عنه فإنا نريد أن ندعو ربنا وإن أبواب السماء مرتجة مغلقة دون قاطع رحم)

3() رواه الطبراني.

4() رواه البخاري ومسلم.

5() رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح.

قطعها حرم الله عليه الجنة)(1)

وقال ﷺ :(إن الرحم شجنة(2) من الـرحمن(3) تقـول يـا رب إني قطعت، يا رب إني أسـيء إلي، يـا رب إني ظلمت، يـا رب يـا رب، فيجيبها : ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟)(4)

وقـال ﷺ :(الـرحم حجنة(5) متمسـكة بـالعرش تتكلم بلسـان ذلق : اللهم صل من وصلني واقطع من قطعني، فيقول الله تبارك وتعالى : أنا الرحمن الرحيم وإني شققت الـرحم من اسـمي فمن وصلها وصلته ومن بتكها(6) بتكته)(7)

وقال ﷺ :(ثلاث متعلقات بالعرش : الرحم تقول اللهم إني بـك فلا أقطع، والأمانـة تقـول اللهم إني بـك فلا أخـان، والنعمـة تقـول اللهم إني بك فلا أكفر)(8)

وقال ﷺ:(الطـابع معلـق بقائمـة العـرش فـإذا اشـتكت الـرحم وعمـل بالمعاصـي واجـترئ على اللـه - تعـالى - بعث اللـه الطـابع فيطبع على قلبه فلا يعقل بعد ذلك شيئا)(9)

1() رواه أحمد بإسناد صحيح.

2() الشجنة بكسر أوله وضمه وإسكان الجيم : القرابة المشتبكة كاشتباك العروق.

3()أي مشتق لفظها من لفظ اسمه الرحمن.

4() رواه أحمد بإسناد جيد قوي وابن حبان في صحيحه.

5() الحجنة بفتح الحاء والجيم وتخفيف النون : صـنارة المغـزل، أي الحديـدة العقفـاء التي يعلق بها الخيط ثم يفتل الغزل.

6() البتك : القطع.

7() رواه البزار بإسناد حسن.

8() رواه البزار.

9() رواه البزار واللفظ له والبيهقي.

وقال ﷺ :(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت)(1)

وقال ﷺ :(من سره أن يبسط له في رزقه أو ينسأ له في أثره فليصل رحمه)(2)

وقال ﷺ :(تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال منسأة في الأثر)(3)، أي بها الزيادة في العمر.

وقال ﷺ :(من سره أن يمد له في عمره ويوسع له في رزقه ويدفع عنه ميتة السوء فليتق الله وليصل رحمه)(4)

وقال ﷺ :(إن الصدقة وصلة الرحم يزيد الله بهما في العمر ويدفع بهما ميتة السوء ويدفع بهما المكروه والمحذور)(5)

وعن رجل من خثعم قال: أتيت النبي ﷺ وهو في نفر من أصحابه فقلت : أنت الذي تزعم أنك رسول الله؟ قال : نعم، قلت : يا رسول الله أي الأعمال أحب إلى الله ؟ قال الإيمان بالله، قلت : يا رسول الله ثم ماذا ؟ قال : ثم صلة الرحم، قلت : يا رسول الله أي الأعمال أبغض إلى الله ؟ قال : الإشراك بالله، قلت : يا رسول الله ثم ماذا ؟ قال قطيعة الرحم، قلت : يا رسول الله ثم ماذا ؟ قال: ثم الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف(6).

وعرض أعرابي لرسول الله ﷺ وهو في سفر، فأخذ بخطام

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه البخاري.

3() رواه الترمذي.

4() رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند والبزار بإسناد جيد والحاكم.

5() رواه أبو يعلى.

6() رواه أبو يعلى بإسناد جيد.

ناقته أو بزمامها، ثم قال: يا رسول الله - أو يا محمد - أخبرني بما يقربني من الجنة ويباعدني عن النار؟ فكف النبي ﷺ، ثم نظر في أصحابه، ثم قال: لقد وفق هذا أو لقد هدي، قال: كيف قلت ؟ فأعادها، فقال النبي ﷺ :(تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم، دع الناقة)(1)، وفي رواية: وتصل ذا رحمك، فلما أدبر قال رسول الله ﷺ :(إن تمسك بما أمرته به دخل الجنة)

وقال ﷺ:(إن الله ليعمر بالقوم الديار وينمي لهم الأموال وما نظر إليهم منذ خلقهم بغضا لهم)، قيل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال :(بصلتهم أرحامهم)(2)

وقال ﷺ :(إنه من أعطي الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، وصلة الرحم وحسن الجوار وحسن الخلق يعمرن الديار ويزدن في الأعمار)(3)

وقيل له ﷺ : يا رسول الله من خير الناس؟ قال :(أتقاهم للرب وأوصلهم للرحم، وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر) (4)

وعن أبي ذر قال : أوصاني خليلي ﷺ بخصال من الخير : أوصاني أن لا أنظر إلى من هو فوقي وأن أنظر إلى من هو دوني، وأوصاني بحب المساكين والدنو منهم، وأوصاني أن أصل رحمي، وإن أدبرت، وأوصاني أن لا أخاف في الله لومة لائم، وأوصاني أن أقول الحق وإن كان مرا، وأوصاني أن أكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة)(5)

1() رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

2() رواه الطبراني بإسناد حسن.

3() رواه أحمد بسند رواته ثقات إلا أن فيه انقطاعا.

4() رواه أبو الشيخ وابن حبان والبيهقي.

5() رواه الطبراني وابن حبان في صحيحه واللفظ له.

وأتى النبي ﷺ رجل فقال: إني أذنبت ذنبا عظيمـا فهـل لي من توبة؟ فقال: هل لك من أم؟ قال : لا، قـال: وهـل لـك من خالـة ؟ قال نعم، قال: فبرها(1).

وقـال ﷺ :(ليس الواصـل بالمكـافئ ولكن الواصـل الـذي إذا قطعت رحمه وصلها)(2)

وأتاه آخر، فقال: يا رسول الله : إن لي قرابة أصل ويقطعونني وأحسن إليهم ويسـيئون إلي وأحلم عليهم ويجهلـون علي، فقـال : (إن كنت كما قلت فكأنمـا تسـفهم المـل - أي الرمـاد الحـار - ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك)(3)

وقال ﷺ:(أفضل الصدقة صدقة على ذي الـرحم الكاشـح)(4)، أي الذي يضمر عداوة في كشحه - أي خصره - كناية عن باطنه.

وقال ﷺ:(ثلاث من كن فيه حاسبه اللـه حسـابا يسـيرا وأدخلـه الجنة برحمته) قالوا : وما هي يـا رسـول اللـه؟ قـال :(تعطي من حرمك، وتصل من قطعك، وتعفـو عمن ظلمـك ؛ فـإذا فعلت ذلـك يدخلك الجنة)(5)

وعن عقبة بن عامر قـال: لقيت رسـول اللـه ﷺ فأخـذت بيـده فقلت: يا رسول الله أخبرني بفواضل الأعمـال؟ فقـال :(يـا عقبـة صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعف عمن ظلمك)(6)

وقال ﷺ :(ألا أدلك على أكرم أخلاق الـدنيا والآخـرة : أن تصـل

1() رواه ابن حبان والحاكم.

2() رواه البخاري وغيره.

3() رواه مسلم.

4() رواه الطبراني وابن خزيمة في صحيحه والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

5() رواه البزار والطبراني والحاكم وصححه.

6() رواه وأحمد بإسنادين أحدهما رواته ثقات.

من قطعك، وتعطي من حرمك، وأن تعفو عمن ظلمك)(1)

وقال ﷺ :(إن أفضل الفضـائل : أن تصـل من قطعـك، وتعطي من حرمك، وتصفح عمن شتمك)(2)

وقـال ﷺ :(ألا أنـبئكم بمـا يشـرف الله بـه البنيـان ويرفـع بـه الدرجات؟) قالوا: نعم يا رسول الله؟ قـال :(تحلم على من جهـل عليك، وتعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك)(3)

وقال ﷺ :(أسرع الخير ثوابا البر وصـلة الـرحم، وأسـرع الشـر عقوبة البغي وقطيعة الرحم)(4)

وقال ﷺ :(ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الـدنيا مـع مـا يـدخر لـه في الآخـرة من قطيعـة الـرحم والخيانـة والكذب، وإن أعجل الـبر ثوابـا لصـلة الـرحم حـتى إن أهـل الـبيت ليكونون فجرة فتنمو أموالهم ويكثر عددهم إذا تواصلوا)(5)

***

قلت: فكيــف ظهــر لــك أن تخــرج والــديك من دور العجــزة لتضمهما إليك؟

قال: لقد امتلأت بالمعاني العظيمـة الـتي وردت في النصـوص المقدســة.. والــتي تحث على الــبر، وتحــذر من العقــوق، ومن العواقب الخطيرة التي تنتظر العاقين.

قلت: فاذكر لي منها بعض ما أثر فيك هذا الأثر العظيم.

1() رواه الطبراني بسند محتج به.

2() رواه الطبراني.

3() رواه البزار والطبراني.

4() رواه ابن ماجه.

5() رواه الطبراني.

قال: من ذلك ما ورد في القرآن الكريم من اقتران عبادة الله وتوحيده بالبر بالوالدين.. ولا يقرن المهم إلا بمثله[1]: قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ (النساء:36)، وقال تعالى :﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)(الأنعام: من الآية 151)، وقال تعالى :﴿ وَوَصَّيْنَا الْأِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) (لقمان:14)، وقال تعالى :﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24)﴾ (الاسراء:23)

انظر كيف نهى الله تعالى حتى على مجرد أن يقال لهما أف، ولو علم الله شيئا أدنى من (أف) لنهى عنه.. ثم أمر بأن يقال لهما القول الكريم: أي اللين اللطيف المشتمل على العطف والاستمالة وموافقة مرادهما وميلهما ومطلوبهما ما أمكن سيما عند الكبر، لأن الكبير يصير كحال الطفل لما يغلب عليه من الخرف، فيرى القبيح حسنا والحسن قبيحا، فإذا طلبت رعايته وغاية التلطف به في هذه الحالة وأن يتقرب إليه بما يناسب عقله إلى أن يرضى.

ثم أمر - تعالى - بعد القول الكريم بأن يخفض لهما جناح الذل من القول بأن لا يكلمهما إلا مع الاستكانة والذل والخضوع وإظهار ذلك لهما واحتمال ما يصدر منهما، ويريهما أنه في غاية التقصير في حقهما وبرهما، وأنه من أجل ذلك ذليل حقير، ولا يزال على نحو ذلك إلى أن يثلج خاطرهما، ويبرد قلبهما عليه، فينعطفا عليه بالرضا والدعاء[2].

---

[1] () وفي ذلك يقول ابن عباس : ثلاث آيات نزلت مقرونة بثلاث لم تقبل منها واحدة بغير قرينتها: إحداها : قوله تعالى :﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ (المائدة: من الآية 92)، فمن أطاع الله ولم يطع رسوله لم يقبل منه.. والثانية قوله تعالى :﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ (البقرة: من الآية43)، فمن صلى ولم يزك لم يقبل منه.. الثالثة قوله تعالى :﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ (لقمان: من الآية14)، فمن شكر الله ولم يشكر والديه لم يقبل منه.

وقد ضرب الله تعالى نموذجا للبر بإبراهيم ـ عليه السلام ـ فقد ذكر القـرآن الكـريم خطابـه لأبيـه بلطـف شـفَّافٍ، وإشـفاقٍ بـالغ، وحرص أكيد؛ رغبة في هدايته ونجاته، وخوفـاً من غوايتـه وهلاكـه.. يقول الله تعالى :﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَـانَ صِـدِّيقاً نَبِيّـاً (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْـمَعُ وَلاَ يُبْصِـرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنْ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْـدِكَ صِـرَاطاً سَـوِيّاً (43) يَـا أَبَتِ لا تَعْبُـدْ الشَّـيْطَانَ إِنَّ الشَّـيْطَانَ كَـانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنْ الـرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً (44)﴾ (مريم)

انظر هذه الرقة التي يخاطب بها إبراهيم ـ عليه السـلام ــ أبـاه رغم كفره بالله.. ورغم شدته عليه.. لقد ذكـر القـرآن جـواب الأب الشديد لابنه، فقال :﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْـرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾ (مـريم:46).. ومـا كـان من إبـراهيم ـ عليه السلام ـ إلا أن رد عليه بكل رقة :﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً﴾ (مريم:47)

بـل ذكـر القـرآن الكـريم أن إبـراهيم ــ عليـه السـلام ــ لازم الاسـتغفار لأبيـه إلى أن نهي عن ذلـك، قـال تعـالى :﴿ وَمَـا كَـانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَـهُ أَنَّهُ عَـدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ (التوبة:114)

وهذه الـبراءة الـتي ذكرهـا اللـه عن إبـراهيم ــ عليـه السـلام ـ ليست براءة من الإحسان إليـه، أو الأدب معـه، بـل هي بـراءة من اتباعه على كفره ونصرته عليه.. كما قال تعالى يوصي المؤمـنين : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَـكَ بِـهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَـا وَصَـاحِبْهُمَا فِي الـدُّنْيَا مَعْرُوفـاً وَاتَّبِـعْ سَـبِيلَ مَنْ أَنَـابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (لقمان:15)

وبمثل هذه الوصايا العظيمة أوصانا رسول الله ﷺ.. فقد اعتـبر العقوق من أكبر الكبـائر.. ففي الحـديث قـال رسـول اللـه ﷺ:(ألا أنـبئكم بـأكبر الكبـائر -ثلاثـا -؟) قلنـا: بلى يـا رسـول اللـه، قـال : (الإشراك بالله، وعقوق الوالدين)، وكان متكئا فجلس فقـال :(ألا

[2] انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر.

وقول الزور وشهادة الزور)، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت)(1)

وقـال ﷺ :(الكبـائر: الإشـراك باللـه، وعقـوق الوالـدين، وقتـل النفس، واليمين الغموس)(2)

وذكر ﷺ في كتابه الذي كتبه إلى أهل اليمن وبعث به عمرو بن حزم : (وإن أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة الإشراك بالله، وقتـل النفس المؤمنـة بغـير حـق والفـرار في سـبيل اللـه يـوم الزحـف، وعقوق الوالدين، ورمي المحصنة، وتعلم السحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم)الحديث(3).

وقال ﷺ :(إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه)، قيل : يا رسول الله وكيف يلعن الرجـل والديـه؟ قـال :(يسـب أبـا الرجـل فيسب الرجل أباه)(4)

وفي رواية:(من الكبائر شتم الرجل والديه)، قـالوا : يـا رسـول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال:(نعم، يسب أبا الرجل فيسـب أباه ويسب أمه فيسب أمه)(5)

وقـال ﷺ :(إن اللـه حـرم عليكم عقـوق الأمهـات ووأد البنـات ومنعا وهات، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضـاعة المـال)(6)

وقال ﷺ :(ثلاثة لا ينظر الله إليهم يـوم القيامـة العـاق لوالديـه، ومدمن الخمر، والمنـان عطـاءه، وثلاثـة لا يـدخلون الجنـة : العـاق

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه البخاري.

3() رواه ابن حبان في صحيحه.

4() رواه ابن حبان في صحيحه.

5() رواه البخاري ومسلم.

6() رواه البخاري وغيره.

لوالديه والديوث والرجلة(1) من النساء)(2)

وقال ﷺ :(ثلاثة حرم الله - تبارك وتعالى - عليهم الجنة : مدمن الخمر، والعاق لوالديه، والديوث الذي يقر الخبث في أهله)(3)، أي الزنا مع علمه به.

وقال ﷺ :(يراح ريح الجنة من مسيرة خمسمائة عام ولا يجد ريحه منان بعمله ولا عاق ولا مدمن خمر)(4)

وقال ﷺ:(ثلاثة لا يقبل الله عز وجل منهم صرفا ولا عدلا عاق ومنان ومكذب بقدر)(5)

وقال ﷺ:(أربع حق على الله أن لا يدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيمها : مدمن الخمر، وآكل الربا، وآكل مال اليتيم بغير حق، والعاق لوالديه)(6)

وقال ﷺ:(ثلاثة لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف)(7)

وجاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وصليت الخمس وأديت زكاة مالي وصمت رمضان، فقال رسول الله ﷺ :(من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين يوم القيامة هكذا، ونصب أصبعيه ما لم يعق والديه)(8)

1() الرجلة: المترجلة، أي المتشبهة بالرجال.

2() رواه النسائي والبزار واللفظ له بإسنادين جيدين والحاكم وصححه.

3() رواه أحمد واللفظ له والنسائي والبزار والحاكم وصححه.

4() رواه الطبراني في الصغير.

5() رواه ابن أبي عاصم بإسناد حسن.

6() رواه الحاكم وصححه.

7() رواه الطبراني في الكبير.

وعن معاذ قال : أوصاني رسول الله ﷺ بعشر كلمات، قال:(لا تشرك بالله شيئا وإن قتلت وحرقت، ولا تعقن والديك وإن أمــراك أن تخرج من أهلك ومالك)الحديث(1).

وقال ﷺ :(أربع حق على الله أن لا يــدخلهم الجنــة ولا يــذيقهم نعيمها : مـدمن الخمـر وآكـل الربـا، وآكـل مـال اليـتيم بغـير حـق، والعاق لوالديه)(2)

وقـال ﷺ:(لا يلج حظـيرة القـدس مـدمن خمـر ولا العـاق ولا المنان عطاءه)(3)

وقال ﷺ :(لا يدخل الجنة مدمن خمر ولا عـاق ولا منـان)، قـال ابن عباس : فشق ذلـك علي ؛ لأن المؤمـنين يصـيبون ذنوبـا حـتى وجدت ذلك في كتاب الله عز وجل في العـاق : فَهَـلْ عَسَـيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ) وفي المنـان : يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَـدَقَاتِكُمْ بِـالْمَنِّ وَالْأَذَى)(البقـرة: من الآية 264)، وفي الخمـر : يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا إِنَّمَـا الْخَمْـرُ وَالْمَيْسِـرُ وَالْأَنْصَـابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَـلِ الشَّـيْطَانِ فَـاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (المائدة:90)(4)

وتكميلا لهذا وردت النصـوص الكثـيرة تحث على الـبر، وتقرنـه بأفضل الأعمال، وفي الحـديث: سـئل رسـول اللـه ﷺ: أي العمـل أحب إلى الله؟ قال:(الصلاة على وقتهـا)، قيـل: ثم أي؟ قـال:(بـر الوالدين)، قيل: ثم أي؟ قال:(الجهاد في سبيل الله)(5)

8() رواه أحمد والطبراني بإسنادين أحدهما صحيح، وابنا خزيمة وحبان في صحيحيهما باختصار.

1() رواه أحمد وغيره.

2() رواه الحاكم وصححه.

3() رواه أحمد، ورواه البزار إلا أنه قال :(لا يلج جنان الفردوس)

4() رواه الطبراني بسند رواته ثقات.

5()رواه البخاري ومسلم.

وفي حديث آخر، قـال ﷺ :(لا يجـزي ولـد والـده إلا أن يجـده مملوكا فيشتريه فيعتقه)(1)

وجاء رجل إلى نبي الله ﷺ فاسـتأذنه في الجهـاد، فقـال: أحي والداك؟ قال: نعم قال:(فيهما فجاهد)(2).. وفي رواية قـال: أقبـل رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: أبايعك على الهجرة والجهـاد أبتغي الأجر من الله، قال:(فهـل من والـديك أحـد حي؟)، قـال: نعم، بـل كلاهمـا حي، فقـال ﷺ :(فتبتغي الأجـر من اللـه) قـال: نعم قـال : (فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما)(3)

وجاءه رجل، فقـال :(جئت أبايعـك على الهجـرة وتـركت أبـوي يبكيان)، فقال :(ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما)(4)

وروي أن رجلا من أهل اليمن هاجر إلى رسول الله ﷺ: فقـال: هل لك أحد باليمن؟ قال: أبواي قال: أذنا لك قال: لا قال: (فـارجع إليهما فاستأذنهما فإن أذنا لك فجاهد وإلا فبرهما)(5)

وأتاه رجل، فقال: إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليـه، قـال: هـل بقي من والديك أحد؟ قال: أمي قـال: (قابـل اللـه في برهـا، فـإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد)(6)

وأتاه طلحة بن معاوية السلمي، فقال: يا رسول اللـه إني أريـد الجهاد في سبيل الله، قال: أمك حية، قال: نعم، فقـال النـبي ﷺ : (الزم رجلها فثم الجنة)(7)

1()رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

2()رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

3() هذه الرواية لمسلم.

4()رواه أبو داود.

5()رواه أبو داود.

6()رواه أبو يعلى والطبراني في الصـغير والأوسـط وإسـنادهما جيـد ميمـون بن نجيح وثقه ابن حبان وبقية رواته ثقات مشهورون.

وأتاه جاهمة، فقال: يا رسـول اللـه أردت أن أغـزو، وقـد جئت أستشيرك، فقال: هل لك من أم؟ قـال: نعم قـال :(فالزمهـا فـإن الجنة عند رجلها)(1)

وقيل له: يا رسول الله ما حـق الوالـدين على ولـدهما؟ قـال : (هما جنتك ونارك)(2)

وقال ﷺ :(من سره أن يمـد لـه في عمـره، ويـزاد في رزقـه فليبر والديه وليصل رحمه)(3)

وقال ﷺ :(من بر والديه طوبى له زاد الله في عمره)(4)

وقـال ﷺ :(إن الرجـل ليحـرم الـرزق بالـذنب يصـيبه، ولا يـرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر)(5)

وقال ﷺ :(عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم، وبروا آبـاءكم تبركم أبناؤكم، ومن أتاه أخوه متنصـلا فليقبـل ذلـك محقـا كـان أو مبطلا، فإن لم يفعل لم يرد على الحوض)(6)

وقال ﷺ :(رغم أنفه، ثم رغم أنفه(7)، ثم رغم أنفه، قيل: من يا رسول الله؟ قال:(من أدرك والديه عند الكـبر أو أحـدهما ثم لم

7()رواه الطبراني.

1()رواه ابن ماجه والنسائي واللفظ له والحاكم وقال صحيح الإسناد.

2()رواه ابن ماجه.

3()رواه أحمد ورواته محتج بهم في الصحيح.

4()رواه أبو يعلى والطبراني والحاكم والأصبهاني، وقال الحاكم صحيح الإسناد.

5()رواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه واللفـظ لـه والحـاكم بتقـديم وتـأخير وقـال صحيح الإسناد.

6()رواه الحاكم من رواية سويد عن أبي رافع عنه وقال صحيح الإسـناد قـال الحافـظ سويد عن قتادة هو ابن عبد العزيز واه.

7()رغم أنفه: أي لصق بالرغام وهو التراب.

يدخل الجنة)(1)

وصعد النبي ﷺ المنبر، فقال: آمين آمين آمين، ثم قال :(أتاني جبريل ـ عليه الصلاة و السلام ـ فقال: يا محمد من أدرك أحد أبويه فمات فدخل النار فأبعده الله، فقل آمين، فقلت آمين، فقال: يا محمد من أدرك شهر رمضان فمات فلم يغفر له فأدخل النار، فأبعده الله، فقل آمين فقلت آمين، قال ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده الله فقل آمين فقلت آمين) (2)

وقال ﷺ :(من أعتق رقبة مسلمة فهي فداؤه من النار، ومن أدرك أحد والديه ثم لم يغفر له فأبعده الله)(3)

وحكى رسول الله ﷺ، فقال: (انطلق ثلاثة نفرٍ ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار ـ أي: دخلوا الغار للمبيت فيه قال: ـ فانحدرت صخرةٌ من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، قال الأول: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبِقُ قبلهما أهلاً ولا مالاً ـ أي: لا أقدم عليهما أحدًا بهذا الغبوق من الحليب ـ قال: فنأى بي طلب الشجر يومًا ـ أي: استطرد مع غنمه في المرعى إلى أن بعُد عن مكانه على غير العادة ـ قال: فلم أرح عليهما ـ أي: لم أرجع عليهما ـ حتى ناما، فحلبت لهما غبُوقهُما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمي ـ أي: يتصايحون ببكاء من شدة الجوع ـ قال: فاستيقظا فشربا غبُوقهُما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنّا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت لا يستطيعون الخروج منه) الحديث (4)..

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ :(من أصبح مطيعًا

1()رواه مسلم.

2()رواه الطبراني بأسانيد أحدها حسن ورواه ابن حبان في صحيحه.

3()رواه أحمد من طرق إحدها حسن.

لله فِي والديه أصبح له بابان مفتوحـان من الجنـة وإن كـان واحـدًا فواحدًا ومن أمسى عاصيًا لله فِي والديه أصبح له بابـان مفتوحـان من النار وإن كان واحدًا فواحدٌ)، قـال رجـل: وإن ظلمـاه ؟ قـال : (وإن ظلماه وإن ظلماه وإن ظلماه)(1)

وعنه أن رسول الله ﷺ قال : (مَا من ولد بار ينظر إِلَى والديـه نظر رحمة إلا كتب له بكل نظرة حجة مبرورة)، قـالوا : وإن نظـر كل يوم مائة مرة؟ قال :(نعم، الله أكبر وأطيب)(2)

بل إن النصوص المقدسة لا تكتفي بالحث على البر في الحياة، بل تضيف إليه الأمر بـالبر بعـد الوفـاة، ففي الحـديث أن رجلا جـاء رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، هل بقي من بـر أبـوي شـيء أبرهمـا بـه بعـد موتهمـا؟ ز فقـال ﷺ :(نعم الصـلاة عليهمـا، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصـلة الـرحم الـتي لا توصل إلا بهما وإكرام صـديقهما)، فقـال الرجـل: مـا أكـثر هـذا يـا رسول الله وأطيبه، فقال ﷺ :(فاعمل به)(3)

سكت قليلا، ثم قال: لقد أثمرت هذه النصـوص ثمـارا عظيمـة في واقـع المسـلمين.. فكـانت المجتمعـات المسـلمة في جميـع

4() رواه البخاري ومسلم.. وتتمة الحديث:(قال الآخر : اللهم كانت لي ابنة عم كانت أحب النـاس إلي فأردتها على نفسـها فـامتنعت مـني حـتى ألمت بهـا سـنة من السـنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسـها ففعلت، حـتى إذا قدرت عليهـا قـالت لا أحـل لـك أن تفض الخـاتم إلا بحقـه، فتحـرجت من الوقـوع عليهـا، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي وتركت الذهب الذي أعطيتها.. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فـافرج عنـا مـا نحن فيـه، فـانفرجت الصـخرة غـير أنهم لا يسـتطيعون الخروج منها.

وقال الثالث : اللهم إني استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد تـرك الـذي له وذهب، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعـد حين فقـال يـا عبـد اللـه أد إلي أجري، فقلت كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقـر والغنم والرقيـق، فقـال يـا عبـد الله لا تستهزئ بي، فقلت إني لا أستهزئ بك، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منـه شـيئا.. اللهم إن كنت فعلت ذلـك ابتغـاء وجهـك فـافرج عنـا مـا نحن فيـه، فـانفرجت الصـخرة فخرجوا يمشون)

1() رواه البيهقي فِي شعب الإيمان.

2()رواه البيهقي فِي شعب الإيمان.

3()رواه أبو داود وابن حبان فِي صحيحه.

فترات التاريخ تراعيها وتحافظ عليها، وتخشى العواقب الوخيمة التي يجرها العقوق، وترجو الثمار الطيبة التي يجرها البر.

***

بقيت في أسرة أمين الدين مدة من الزمان أرى فيها السلام وهو ينشر أشعته الدافئة الجميلة عليها إلى أن جاء ذلك اليوم المشؤوم الذي استأذنني فيه أن يسير إلى هذه البلاد ليساهم في رفع الفتنة التي تريد أن تستأصل المسلمين، وقد استأذنته في أن أحضر معه، لكنه أبى، وقال لي: أنا لست أدري هل أعود من هذه الفتنة أم لا.. ولا أريد أن أزج بك في أي شيء يضرك.

لكني بعد فراقه لي، أظلمت الدنيا في عيني، فلم أجد إلا أن ألحقه، وها أنا ذا بينكم.. وقد قدر الله من شأننا ما ترون.. وأنا لا آسف على شيء في حياتي إلا على ذلك الذي فتح الله به علي من الأبواب ما كان مغلقا، وأضاء به علي من الأنوار ما كان مظلما.

سادسا ـ المجتمع

في اليوم السادس، قام رجل منا، وقـال: سـأحدثكم اليـوم أنـا عن حـديثي.. اعـذروني، لقـد كنت مثـل من سـبقني أحمـل اسـما مستعارا، لأني منـذ ذلـك اليـوم الـذي التقيت فيـه بـالنور والسـلام والصفاء، صرت أسـتحيي من الاسـم الـذي سـماني بـه أهلي رغم أنفي..

لقد كان اسمي في تلك الأيام (هابر) لا شك أنكم تعرفونه.. إنه ذلك الرجل الذي كان يصيح بملء فيه في الأسواق والمجامع قائلا: إن ما ذكره لكم كل الحكماء من أن الإنسـان مـدني بـالطبع خطـأ فاضح، لأن الإنسان بطبعه عـدو الإنسـان!.. ولـذلك، فـإن الحكمـة البديلة التي وضعتها هي (الإنسان للإنسان ذئب).. فالإنسان لا يريد شيئا الا لنفسه، وهو لذلك يحارب الآخرين أبدا.

وعلى هذا الأساس، فقد كنت أرى أنه لا محل للأخلاق في قلب الإنسان.. بل الأخلاق تابعة للمنافع فقط.

وكنت أرى أن أساس الحكم هو الاستبداد، والحكم عن طريــق القوة، وذلك لأن الناس حيث يحارب بعضـهم بعضـا، لا يسـتطيعون العيش بســعادة فلابـــد من تقريـــر الأمن الـــذي يعتـــبر من أهم الضرورات له.

وتقريـــر الأمن إنمـــا يمكن بـــأن يتنـــازل الكـــل عن حريـــاتهم ويسلموها بيد رجل واحد يحكمهم بالقوة.. ولا يجوز أن يوضـع لهـذا الواحد أي قانون ولا يحدد بأي قيد.

وكان اسمي في تلك الأيام (نيتشة).. وقد كنت لأجل ذلــك أرى بأن الإنسان إنما جاء إلى الحياة ليتمتع بما فيها، وكل ما يهيء له طريق التمتع فهـو خـير (وافـق الحـق أو خالفـه)، ومـا يقـال عن تساوي الخلق بعضهم مـع بعض خطـأ، بـل الحـق ان في النـاس سادة وعبيدا، وعلى العبيد أن يهيئوا وسائل الراحة للسادة.

وفـوق ذلـك كلـه تتلمـذت على أسـاتذة كثـيرين كلهم ملأوني بالصراع..

لن أحـدثكم عنهم الآن.. وإنمـا سـأحدثكم عن بعض مـا عـاينت من مظاهر الصراع الاجتمـاعي لتعرفـوا قيمـة السـلام الـذي جئت إلى هذه البلاد باحثا عنه.

الصراع

بعد صمت عميق، تنفس صاحبنا الصعداء، ثم قال:

العنصرية:

كان أول مظهر من مظاهر الصراع التي عاينتهـا وعـانيت منهـا (العنصرية).. ذلك الـداء الخـبيث الـذي يجعـل من الإنسـان وحشـا كاسرا لا يبصر إلا نفسه، ولا يعظم إلا نفسه، ولا يترفع إلا بنفسه.

وللأسف.. فقد تتملـذت على هـذا الـداء في جميـع المـدارس.. كلها لقنتني أصوله ومبادئه والسلوكات الأخلاقيـة الـتي تخرجـه من القوة إلى الفعل.. ومن الإيمان إلى العمل..

لن أحدثكم على مـا لقنتنـا تلـك المـدارس(1) فـإن الكلام في ذلك طويل ممل، وربما تعرفونه، وربما تسمعون من بعض رفـاقي من يحدثكم عنه.. ولذلك سـأكتفي بـذكر بعض مـا رأيت في بلـدي الأول.. أمريكا..

في تلـك الأيـام كنت في أمريكـا تلـك الـتي تعتـبر نفسـها أمـا لحقوق الإنسان.. بينما هي في الحقيقـة ليسـت سـوى أم لانتهـاك حقوق الإنسان.

لقد كان التمييز العنصري جزءا من الحياة اليومية التي يعيشــها المــواطن الأمــريكي في مختلــف قطاعــات الحيــاة الإنتاجيــة، الاقتصادية والسياسية حتى أصبح السمة الرئيسـة الـتي يتمـيز بهـا الشارع الأمريكي.

وحتى منتصـف القـرن الماضـي، كـان الكثـير من المؤسسـات والنوادي والمقاهي تضع يافطات كُتِبَ عليها بالخط العـريض (يمنـع دخول الزنوج والكلاب).. وكان على الزنجي الأمريكي الوقوف من

(1) سنرى بعض النماذج عنه في فصل (العالم) من هذه الرسالة.

مقعده في الحافلة إذا لم يكن من مقعد فارغ ليفسح المجال أمام جلوس نظيره (الأمريكي الأبيض)

وكثير من مؤسسات الخدمات العامة في المقاطعات الجنوبيـة في الولايات المتحدة ومنها المطـاعم كـانت لا تقـدّم الوجبـات إلى الزنوج إلا وهم واقفون، وجرت أول عملية جلوس قسري في عام 1960، وكانت حصيلة ذلـك الجلـوس القسـري إلقـاء القبض على 53 زنجياً والحكم عليهم بالسجن مدة أربعة أشهر في ولاية (نورث كارولينا)

وإلى جـانب الاضـطهاد العنصـري الـذي كـان يعيشـه السـكان السود في الولايات المتحدة، كان الظلم الاقتصادي الأكثر بشـاعة، ففي السـتينات كـان يعيش أكـثر من عشـرين مليـون زنجي في بيوت سكنية فقيرة قذرة مبينـة من الصـفيح والأخشـاب في مـدن الولايات المتحـدة الشـمالية هربـاً من ظلم التفرقـة العنصـرية في الجنوب، ففي هذه الأماكن كان الظلم الاقتصادي يترجم إلى بطالة وفقر، كمـا كـان يـترجم إلى بحث مضـن عن العمـل، وعن أمـاكن صالحة للسكن، وجعلت هذه الأسباب من الزنجي الأمـريكي نوعـاً من الطاعون المقيم في وسط المدن الكبرى لا يسـتطيع الخـروج منها والانتقال إلى مكان أكثر صحة وعافية.

وفي الوقت الذي كـانت الأمم المتحـدة تصـدر مواثيـق حقـوق الإنسان مركزة على مفاهيم أكثر رقيا للحريـة الفرديـة من مجـرد حق العمل والمساواة والمعتقد، كان أصحاب البشرة السمراء في الولايـات المتحـدة حـتى عـام 1955 لا يسـتطيعون الجلـوس في الباصات العامة، وكانت القوانين تقضي بعـدم جلـوس الزنـوج في الباصات التي تقّل البيض.

وكانت قائمة المطالب التي رفعها السـود في عـام 1955 في مدينــة مــونتغمري الجنوبيــة مجــرد الســماح لهم بــالجلوس في الباصات العامة ولو بـالجلوس في المـؤخرة، وأن يعـاملوا بتهـذيب ولياقــة كمعاملــة الــبيض، واضــطر الســود إلى طلب مســاعدات إنسانية من اليابان لشراء باصـات خاصـة بعـد مقـاطعتهم للأخـرى المملوكة للدولة.

وما تشهده المدن الأمريكية من فترة لأخرى هو بمثابـة نسـخة طبق الأصل عن جولة حدثت في أواخر الستينات في عهد الرئيس ليندون جونسون حيث انفجر الغضب الأسود بعد أن قامت السلات المحلية بتحقيرهم وإذلالهم، مما اضطر الرئيس الأمريكي لأن يدفع بـالجيش الفيـدرالي إلى الشـوارع لضـبط الأوضـاع في ديـترويت وشـيكاغو ونيويـورك ومـدن متعـددة أخـرى، حيث كـانت الخسـائر المادية بمليارات الدولارات إلى جـانب عشـرات القتلى والجـرحى والمفقودين.

وعلى مـدى السـنوات الـتي تلت، لم تنطفىء نـار العنصـرية وظلت تتحـرك تحت الرمـال، والدلالـة على ذلـك تكـرار حـوادث العنـف العنصـري خلال السـنوات العشـرين الماضـية بين الـبيض والسود في أكثر من مدينة أمريكيـة، وأبـرز هـذه الحـوادث حادثـة مقتل (يوسف هادكنز) الفتى الأسود الذي لم يبغ السادسة عشـرة في حي (بروكلين) في نيويـورك (1990) والـتي وقعت في وضـح النهار، عندما أطلـق جماعـة من الـبيض النـار على يوسـف وبعض أصدقائه الذين اختلفوا معهم على شراء سيارة مستعملة.

واعـترف تقريـر صـادر عن مكتب التحقيقـات الفدراليـة (إف. بي.آي) عام 1999 بارتفاع جرائم الكراهية والجرائم القائمــة على أساس عنصري داخل الولايـات المتحـدة، مشـيرا إلى أنـه تـرتكب حوالي 8000 جريمة سنويًا من تلك الجـرائم. وأشـار التقريـر الى أن 4292 جريمة ارتُكبت في 1999 بدوافع تتعلق بلـون البشـرة، كمـا تم ارتكـاب نحـو 1411 جريمـة بـدافع ديـني، بينمـا تم تقـدير الجـرائم الجنسـية بنحـو 1317 جريمـة، فضـلا عن الجـرائم ذات الطـابع الإثنيـة الـتي بلغت نحـو 829 جريمـة، مشـيرًا إلى أن 19 معاقا تعرضوا لاعتداءات عام 1999 لتلك لأسباب.

سكت قليلا، ثم قال: لقد قال (أندرو شايير) مؤلف كتاب (نحن القـوة الأولى) عن السـود: (إنهم هنـا في أمريكـا يعيشـون كـأفراد غربـاء وأجـانب على أرض ولـدوا وترعرعـوا فيهـا، ولا يعرفـون سواها.. يمكننا النظر إلى أمريكا على أنها دولة تتكون من شعبين: البيض وهم الأغلبية المسيطرة، والسود وهم الأقلية المضطهدة)

ونشرت صحيفة (وول ستريت جورنال تقريراً عن وضع السـود

في مجال الشرطة ذكرت فيه أن شرطيا من أصل أفريقي وصـــل إلى رتبة كابتن في مدينة سنسناتي - وهذه هي المرة الرابعة التي يصل فيها أسود لهذه الرتبة- ولكن بعض البيض اعترض على هــذه الترقية، مما جعل السلطات القضائية تتدخل للنظر في القضية.

أمــا في المــدن الأخــرى فالحــال ليســت أفضــل، ففي ولايــة نيويــورك حيث يبلــغ الأمريكــيين الأفارقــة 28.7 بالمائــة من عــدد سكان الولايــة، ولكنهم لا يؤلفــون أكــثر من 11.4بالمائــة من قــوة الشرطة، أما الذين وصلوا إلى رتبة قيادية فلم يتجاوز 6.6بالمائة.

ويقول التقرير إن السود بالرغم مما بلغوه في العصر الحاضــر فــإنهم لا يزالــون يعــانون من العقبــات في التوظيــف والترقيــات والمضــايقات من زملائهم الــبيض الــذين يعترضــون على ترقيــة زملائهم السود، حتى إن بعضهم يرفض إطاعة أوامر رئيس أسود.

وقد انفجرت الأوضاع الأمنيــة في مدينــة لــوس أنجلــوس حيث انــدلعت أعمــال عنــف وشــغب إثــر قيــام محطــات التلفــاز بعــرض شريط لبعض رجال الشرطة من البيض وهم يضربون أحــد الســود وهو رودني كينج بعنف ووحشية.. وكانت نتائج هذه الاضطرابات أن قتل ثمانية وخمسون منهم عشــرون شــرطياً، وبلــغ عــدد الجــرحى 2382، منهم 220 جريحـــاً في حالـــة خطـــرة، واعتقـــل 13505 شخصــاً، ودمــرت الحرائــق 5537 محلاً تجاريــاً، وقــدرت الخســائر الماليــة ب785 مليونــا، وســاهم من رجــال الشــرطة والحــرس القومي وجنود البحرية واحد وعشرون ألفاً.

وذكر كارل بيل - مــدير مجلس الصــحة العقليــة بشــيكاغو - إن المواطنين السود لا يزالون يتعرضون يوميــاً للإهانــة والعنــف بحيث أصبح ذلك جزءاً من لا شعورهم المحبط.

ويعترف نيكسون بأن المحاكم الأمريكية حاولت فرض حصــص تميزية على أســاس العــرق في القَبــول في الجامعــات والتوظيــف والترقيـــة، وتغاضـــت عن التميـــيز في إشـــغال الوظـــائف العامـــة والقطاع الخاص وإبرام العقود مع الحكومــة ممــا جعــل الجامعــات وبعض الوظــائف تقبــل بالأقــل كفــاءة لتغطيــة الحصــص الخاصــة بالأعراق.

وقد ظهرت في السنوات الأخيرة جماعات متطرفة في المجتمعات الغربية.. ومن هذه الجماعات جماعة تطلق على نفسها (الأحرار)، والتي تتزعم حرباً عرقية ودينية ضد السود وبقية الملونين الذين لا ينحدرون من أصول شمال أوروبية، ويزعم هؤلاء أنهم - البيض- شعب الله المختار، وأن الولايات المتحدة الأمريكية هي أرض الميعاد وليست أرض فلسطين (إسرائيل).ويبلغ تعداد هذه الجماعة من عشرة آلاف إلى أربعين ألفاً.

ويشبه هذه الجماعة أيضاً حركة أخرى تطلق على نفسها (حليقي الروس) وهي جماعة مسلحة متطرفة تنطلق من منطلقات عنصرية حاقدة على كل الأجناس غير البيض، وقد قدمت محطة التلفزيون H.B.O. برنامجاً خاصاً عن هؤلاء في صيف عام 1995.

وقد أوردت وكالة الأنباء الفرنسية تقريراً من لوس أنجلوس مفاده أن جرائم الكراهية ضد الآسيويين قد ارتفعت بنسبة ثمانين بالمئة في العام الماضي في ولاية كاليفورنيا عن العام الذي سبقه.

وقد نقلت الوكالة عن التقرير السنوي الثاني للتجمع القانوني لأسيويي المحيط الهادى الأمريكيين بأن هناك أربعمئة وثمان وخمسين حالة اتهام مثبتة لحوادث ضد الأسيويين مع وجود حالات كثيرة لا تصل إلى الشرطة بسبب اللغة والحاجز الثقافي وعدم وجود سجلات كاملة لدى الشرطة.

ومن الطريف أن التجمع يوجه اللوم للخطاب السياسي المعادي للمهاجرين الذي يتسبب في إثارة العواطف وأعمال العنف ضد الآسيويين.. ومن الأمثلة على ذلك أن حاكم ولاية أريزونا استخدم حق النقض ضد قانون يحارب الكراهية بسبب العرق بالرغم من ارتفاع هذه الجرائم في ولايته بأكثر من خمسمئة في المئة في الخمس سنين الماضية.

وتشهد فرنسا تطرفاً عرقيا حيث ارتفعت الطوائف المتطرفة بنسبة خمسين في المئة في الفترة من 1983 حتى 1995، فهناك مئة واثنتين وسبعين مجموعة ترتبط بها ثمانمئة فرقه تابعة

لهـا بينهـا خمس عشـرة طائفـة تتمـيز بخطورتهـا الشـديدة على الأوضاع العامة.

الجريمة:

سكت قليلا، ثم قال: لا تشكو مجتمعاتنـا من العنصـرية فقـط.. هناك ما لا يقل خطرا.. إنه الجريمة.. الجريمة بكل أنواعها..

لقد تحـدث البـاحث الإجتمـاعي الأمـريكي (لويـل فـاكنت) في دراسة له عن ذلك، فقال: (وواقع الأمر أن الولايـات المتحـدة قـد اختارت أن تبني لفقرائها بيوت اعتقال وعقاب بدل المستوصـفات ودور الحضانة والمدارس.. هكذا ومنذ عام 1994 تخطت الموازنة السـنوية لـدائرة السـجون في كاليفورنيـا (المسـؤولة عن مراكـز الإعتقـال للمحكـومين الـذين تتجـاوز عقـوبتهم السـنة الواحـدة) الموازنة المخصصة لمختلف فروع جامعة الولاية فقد تقدم الحاكم (بيت ويلسون) عام 1995 بمشروع موازنة يلحظ فيـه إلغـاء ألـف وظيفة في التعليم العالي من أجل تحويلهـا الى ثلاثـة آلاف وظيفـة حـارس سـجن جديـدة، والسـبب واضـح فمثلا في 22/8/1999 أعلنت وزارة العـدل الأمريكيـة (أن عـدد البـالغين المسـجونين أو الذين خارج القضبان بكفالة بلغ عـام 1998 خمسـة ملايين و900 ألف شخص، وتعني هـذه الأرقـام أن 3 في المائـة من الأمريكـيين مع نهاية عام 1998 إما يكونوا داخل السجن وإما خـارج القضـبان بكفالة)

لم تكتف الجريمة بالشوارع.. بـل انتقلت عـدواها المريعـة إلى المـدارس، حيث شـاعت ظـاهرة إطلاق النـار على المدرسـين والمدرسات وعلى التلامذة بشكل لافت لم يشهد له العالم مثيلا.

لقـد تنـاقلت وسـائل الإعلام في مـارس 1998 المعلومـات التالية: (لاحظ الخبـير في علم دراسـة الجـرائم (رونالـد وايـنر)من الجامعة الأمريكية أن وتيرة العنف لـدى الشـباب زادت إلى درجـة كبيرة بسبب ثقافة الأسلحة النارية، وغلبة العقليـة المسـتوحاة من قـانون الشـارع أو (التعـاليم التوراتيـة) على الأخلاق والمبـادئ الإنسانية.. وأظهرت دراسة كشف عنهـا الـبيت الأبيض، أن واحـدة من كل عشر مدارس رسمية أمريكية شهدت أعمال عنف خطـرة

عام 1997.

وكتب أحد كبار صحافيي نيويورك متعجبا: (هناك حرب حقيقيـة في شوارع الولايات المتحدة. ويسقط قتلى بالرصـاص مـا يقـارب 45 ألف شخص كل تسعة عشـر شـهرا، وهـو العـدد نفسـه الـذي سقط خلال تسعة أعـوام من حـرب فيتنـام، هـذا يكشـف أمـراض المجتمع الأمريكي المستعصـية، والعنصـرية المتفشـية في داخلـه، والتباينات الإجتماعية الواضحة، إن دل هذا على شـيء فيـدل على تفجـر اللحمـة الأسـرية، وإفلاس النظـام الـتربوي، واستشـراء المخدرات، وعن عدم فاعلية النظام القضائي، وعن قوة اللوبيـات المدمرة داخل المجتمعات الامريكيه، وخصوصا اللوبي الصهيوني.

وهـذا يـدل ايضـاعلى الإرهـاب الـدموي الـذي يطـال مختلـف الشرائح والطبقات. فمثلا في سنة 1991 قتـل الإرهـاب الـداخلي الأمريكي 38317 شـخص وجـرح 175 ألـف شـخص، هـذا يعـني حصول 105 قتيلا في اليوم الواحد.

ولترجمة هـذه الأرقـام على الواقـع لنفهم نتـائج هـذا الإرهـاب، يكفي أن نقـارن طبيعـة القتلى بالسـلاح بين أمريكـا وبعض الـدول الأوروبية، ففي سنة 1990 بلغ عدد حالات القتل بأسلحة اليــد في الولايات المتحدة فقط الى 10567 حالة بينما بلغ في بريطانيا 22 حالة وفي السويد 13حالة، وفي استراليا10 حالات وفي كنــدا 68 حالـة وفي اليابـان 87 حالـة.. وهـذا مـا دفـع الكثـير من المحللين الأمريكـيين من إطلاق وصـفا لهـذه الحالـة الإرهابيـة بأنهـا (حـرب حقيقية في كل بيت) أو (الإرهاب على الذات).. لذلك صرح بصوت عال (كولمان يونغ) عمـده مدينـة شـيكاغو الأسـود البشـرة، الـذي رفض بإصرار تجريد مواطنيه من أسلحتهم حيث قـال: (قـد أكـون مجنونا إذا صادرت الأسلحة، في الحين الـذي نحن فيـه محاصـرون بأناس عدوانيين) ممـا جعـل لجنـة أمن منتجـات الاسـتهلاك، الـتي باشرت عملية إحصاء لحوادث إطلاق النار الى التوصـل إلى نتيجـة مفادها أن في الولايات المتحدة وفق التقـديرات المختلفـة حـوالي 200 ألف شخص يصابون بالرصاص سنويا.

بالطبع لا يتضمن هـذا الإحصـاء عـدد الضـحايا المجهولـة الـذين يعـالجون بعـد إصـابتهم بعيـدا عن أعين الحكومـة الفيدراليـة، كمـا

ينتشــر في الولايــات المتحــدة 211 مليــون قطعــة من الأســلحة النارية، بينها 67 مليون مسدس مختلف الأنواع.

يقول الكاتب (جيل ديلافون) الذي أصدر كتاب (violente Ameique) العنــف في أمريكــا: (ففي نهايــة 1994حطم النظــام القضــائي الأمريكي المتعثر رقما قياسيا مرعبا بوجود أكثر من مليون شخص من الأمريكيين يتعفنون وراء قضـبان السـجون، وهـو أعلى معـدل اعتقالات على سطح هذا الكوكب. مع الإشـارة إلى أن ثلاث أربـاع المتهمين لا يعتقلون ولا يضـعون داخـل السـجون لأسـباب قانونيـة معينة. والاسوأ من النظام القضائي هو نظام السجون الـذي يصـنع (مجرمين محترفين) حقيقيين محكومين نهائيا بالعودة إلى الأجرام. فأكثر من 60بالمائة من المعتقلين نفذوا بالسابق حكمـا بالسـجن، وبناء على دراسة أجريت على مسـتوى الولايـات كلهـا هنـاك 108 ألف مجـرم تم إيقـافهم حـوالي 109 مليـون مـرة. هـذا يعـني أن أمريكا تقبع تحت مسلسل الإرهاب والجريمة الداخليـة والمسـؤول عنها الشعب الأمريكي بامتياز. وأمريكا متخلفة أكـثر من أيـة دولـة عربية أو أية دولة من دول العالم الثـالث المتهم بـالتخلف. ويكفينـا تحاليل وتنظـيرات من المتـأمركين المتصـهينين الـذين يسـتهزئون بشعوبهم ويريدون إقناعها بالتجربة الأمريكية الرائعة، وهذه الأرقام لأكبر دليل على روعة التجربة الأمريكية.

إذن الإرهاب الداخلي مستفحل في جـذور المجتمـع الأمــريكي وفي كل آليات حركته، بل كان ركيزة نشـأة هـذا البلـد، سـواء من خلال الصــراعات بين الغــزاة الــبيض فيمــا بينهم أو صــراعهم مـع أصحاب الأرض الحقيقيون من الهنود الحمر.. إن الغازي الأمــريكي أصـبح مواطنـا أمريكيـا بمقـدار مـا وسـع أرضـه وقتـل أصـحابها الحقيقيين، أو من خلال الإضطهاد الشرس ضد الأفارقـة والـتي مـا زالت تغذيه المعتقدات التوراتيـة والقـوانين الأمريكيـة الـتي تعتمـد على العهد القديم في تشريعاتها.

وحسب تقرير رسمي صدر عام 1989 بعنوان (ضـحايا العنـف في القوانين الأمريكية) تحدث أحد كاتبي التقرير (ليونارد جيفــري) عن أن في أمريكـــا 5500 عصـــابة مســـلحة معروفـــة تنتشـــر اليوم،وبعضها منظم وله أفـرع في كـل الولايـات المتحـدة. وتقـوم

هذه العصابات أو الميليشيات بـ 25 ألـف عمليـة قتـل في السـنة، والقتلى معظمهم من السود، وأخذت هذه الميليشيات تبـني دولهـا و قوانينها الخاصة بها داخل الولايات المتحدة.وهي محمية بكميـات كبــيرة من الأســلحة المتطــورة،و أكــد كثــير من المطلعين أنهم يملكون كميات وافرة من أسلحة الـدمار الشـامل تفـوق الخيـال.. ولعـل اسـتخدام الجمـرة الخبيثـة بعـد أحـداث 11 سـبتمبر داخـل الولايـات المتحـدة الأمريكيـة والإربـاك الـذي أصـاب المؤسسـات الحكومية والاجتماعية من جرائه لدليل ساطع على ذلك. وتم إثبات أن هـذه الجمـرة الخبيثـة المسـتخدمة هي أمريكيـة داخليـة بحتـة صـنعت على يـد الإرهـابيون الأمريكيـون.. كمـا لهـذه الميليشـيات نفوذهـا الانتخـابي والاجتمـاعي، وهي تمـارس العنـف الهسـتيري، وتطمع إلى تجهيز جيشا من الإرهابيين للزحـف على الـبيت الأبيض وتدمير الحكومة الفيدرالية فيه واحتلال البلاد.

الانحلال:

سكت قليلا، ثم قال: بالإضافة إلى هذا هناك ما لا يقل خطــرا.. بل لعله أخطر الجميع.. إنه الانحلال والتفسخ الذي أنهـك مجتمعنـا، وحوله إلى ماخور كبير للرذيلة.. لن أطيل عليكم الحديث في هذا، فلاشك أنكم جميعا تعرفونه، وعانيتم منه.

لقد أصبحتم المرأة المحترمة بسببه إلى كائن لا هــدف لــه في الحياة إلا إرضاء النزوات الشاذة للمنحرفين..

لقـد كتب بعضـهم يقـول في هـذا تحت عنـوان (امـرأة بلادي والعشق والجنس): (لنتحدث عن حريـة المـرأة.. دعـوني أعـترف لكم فوراً إن حرية المرأة ليس لهـا غـير معـنى واحـد إنـه المعـنى الجنسي.. المرأة في نظري هي مصعب الأشواق والشهوات.. هي مخلوقة غرامية لا معنى لها خارج الوجد والعشق والجنس..)

وكتب يقول:(ما هي حرية المرأة ؟ حريتها الحقيقية هي حريـة العلاقة الجنسية مع الجنس الآخر، أو حتى مع بنات جنسـها، أو مـع الجنسين معاً.. والرجل ما هو دوره؟ عليه أن يحـرض المـرأة على الحرية. إنني أطلب لامرأة بلادي الحق بأن تصادق رجلاً فجـأة فـإذا اشـتهته حققت شـهوتها.. إنـني أطلب لامـرأة بلادي كسـر طـوق

الاضطهاد العائلي والديني والأخلاقي وحريتها في أن تكون حـرة بلا حدود.. حرة في اقامة علاقة جنسية قبل الزواج (ولماذا ليس بعده أيضاً).. حرة في تغيير حبيبها متى ضجرت منه.. حرة في التصـرف بجسدها دون قيد ولا شرط)

أتدرون ما نتيجة هذا الانحلال الذي قامت كل مدارسنا وصـحفنا ووسائل إعلامنا تحرض عليه بكل الوسائل؟

إن الإحصاءات في ذلك تكاد تصيبنا بالجنون..

تقول (الريدرز دايجست) في عـدد أغسـطس 1983 :(هنـاك مليون حالة اعتداء جنسي على الأطفال في كل عام في الولايـات المتحدة الأمريكيـة.. وانتشـرت الأمـراض الجنسـية.. في الولايـات المتحدة عشرين مليون هربس (عام 1983) وفي كل عام تضاف إلى القائمة العتيدة أكثر من نصـف مليـون حالـة هـربس.. وأخـيراً ظهر مرض الايـدز الـذي يصـيب المخنـثين أساسـاً. وقـد بلـغ عـدد المصابين في الولايـات المتحـدة 2600 حالـة (حـتى نهايـة أكتـوبر 1983) والعدد يتضاعف كل ستة أشهر.. والايدز يقتل المصاب بــه في خلال عامين أو ثلاثـة.. ولا علاج لـه بـل ولا يعـرف سـببه حـتى الآن..)

بالإضـافة إلى هـذا، فـإن هنـاك الآلاف من الفتيـات الصـغيرات اللائي يعانين من الحمل سنوياً نتيجة لعدم معـرفتهن بوسـائل منـع الحمل معرفة جيدة.. ولذا قـام كبـار المـربين والمسـؤولين بوضـع بـرامج منـع الحمـل في المـدارس الثانويـة، ثم قـاموا بعـد ذلـك بتدريسها لطلبة الإعدادي.. وأخيراً توصـلوا إلى قـرار تدريسـها في المدارس الابتدائية بعد أن وجدوا أن الطالبات الصـغيرات جـداً هن اللائي يقعن بالدرجـة الأولى فريسـة لهـذا الحمـل.. ولم يعـد يهم المسـؤولين أن يعم البغـاء، ولكن همهم منصـب فقـط على نشـر وسائل منع الحمل بين الأطفال.

واضـطرت القـوانين الغربيـة إلى إباحـة الإجهـاض ولـو على مضض.. وانتشرت حالات الاجهـاض حيث يتم في أمريكـا إجهـاض مليون امرأة سنوياً.. ويتم ما يقارب هذا العدد في أوروبا..

وتـذكر الإحصـائيات أن أغلب حـالات الانتحـار هي من الفتيـات

الصغيرات اللائي يعشن حياة قلقة ويائسة.

العنف:

بالمناسبة.. هناك ظاهرة لا تقل خطرا.. إنها العنف الممارس ضد القصر.. لقد ظهرت في عصرنا للأسف، ولأول مرة في تاريخ الطب حالات جماعية لضرب الأطفال الصغار ضرباً وحشياً يؤدي في كثير من الأحيان إلى الوفاة أو إلى تشوهات جسدية وعقلية.

وقد تحدثت المجلات الطبية بإسهاب عن هذا المرض الجديد الذي لم يكن معهوداً من قبل وأسمته (مرض الطفل المضروب) الذي اكتشفه الدكتور كيمب منذ خمسة وعشرين عاماً فقط.

وتذكر مجلة هيكساجين الطبية أنه لا يكاد يوجد مستشفى للأطفال في أوروبا وأمريكا إلا وبه عدة حالات من هؤلاء الأطفال المضروبين ضرباً مبرحاً من أمهاتهم وأحياناً من آبائهم.

وفي عام 1967 دخل إلى المستشفيات البريطانية أكثر من 6500 طفل مضروب ضرباً مبرحاً أدى إلى وفاة ما يقرب من 20 بالمائة منهم، وأصيب الباقون بعاهات جسدية وعقلية مزمنة.. وقد أصيب المئات بالعمى كما أصيب مئات آخرون بالصمم.. وفي كل عام يصاب المئات من هؤلاء الأطفال بالعته والتخلف العقلي الشديد والشلل نتيجة الضرب المبرح.

ويتساءل الدكتور آبلي رئيس أقسام الأطفال في مستشفيات بريستول المتحدة في مدينة بريستول ببريطانيا: هل هؤلاء الآباء والأمهات وحوش؟ وينتهي في مقاله إلى أن هؤلاء الأمهات يواجهن أزمات نفسية خطيرة أدت بهن إلى ضرب أطفالهن ضرباً مميتاً.. أو مؤدياً إلى عاهات مستديمة.. ويقول أن أغلب هؤلاء الأمهات لسن مجرمات بطبيعتهن ولكن وجود الأم بدون زوج واضطرارها للعمل والخروج ثم عودتها مرهقة إلى المنزل لتواجه الطفل الذي لا يكف عن الصراخ يفقدها اتزانها وعواطفها.. وقد لوحظ أن كثيراً من هؤلاء الأمهات يكرهن أولادهن كرهاً شديداً حيث ينغص هؤلاء الأطفال على أمهاتهن حياتهن.

وقد نشرت الصحف قصة الشاب والشابة اللذين قاما ببيع

طفلتهما البالغة من العمر ستة أشهر في أمريكا بثمانين دولاراً، وقد أجاب الأبوان عندما سئلا: لماذا يقومان ببيع طفلتهما؟ بأنهما لا يجدان من المال ما يكفي لإعاشتهما فكيف بهما مع الطفلة وأنه من الخير لطفلتهما أن تجد من يعولها بدلاً منهما رغم أنهما يحبان الطفلة ولكنهما مضطران لبيعها (1) !

ونشرت بعض الجرائد(2) خبراً مفاده أن مطلقة بريطانية اسمها (مانيس جاكسون) عرضت ابنها الوحيد للبيع بمبلغ ألف جنيه والمبلغ يشمل ملابس الطفل وألعابه، وقد قالت بأنها ستبيع ابنها لأنها لا تستطيع الإنفاق عليه، وليس لديها دخل لإعاشته.

والأكثر فظاعة وبشاعة من كل هذا أن يرتكب الأب الفاحشة بطفلته وتقول مجلة هيكسا جون الطبية أن الاعتداءات الجنسية على الأطفال من آبائهم أكثر بكثير مما هو معروف ومدون.. كما أن كثيراً من الأمهات والآباء يقومون بتسميم أطفالهم بإعطائهم السموم والعقاقير الخطيرة.

السلام

سكت قليلا، ثم قال: بعد أن عاينت كل هذا وتألمت له، رحت أبحث عما بحثتم جميعا عنه.

قلنا: الموت!؟

قال: أجل.. ولم يصعب علي أن أجد جمعيات الموت..

قلنا: أي جماعة قصدت منها؟

قال: لقد قصدت جماعة (جيم جونز).. القس (جيم جونز).. لاشك أنكم تعرفونه.. إنه قس مهووس، ومدمن للمخدرات، أقام لأتباعه مزرعة ضخمة وجمعهم فيها، وأباح لهم الجنس، وأتاح لهم المخدرات، وظنوا أن الحياة داخل هذه المزرعة هي السعادة، وأن

1()نشرت ذلك صحيفة ((السعودي جازيت)) مع نشر صورة الأبوين الشابين في 22/1/1977 الموافق 3/2/97.

2()جريدة الشرق الأوسط في عددها الصادر 15/9/1400 الموافق 27/7/1980.

هـذا هـو النعيم المقيم.. ولكن بعـد فـترة خـاب ظنهم، وأصـابهم الإحباط، واستطاع هذا القس إقناعهم بالانتحار.. وبالفعل وفي عام 1978م أقـدم 918 شخصـاً على الانتحـار، وكـان بينهم كثـير من الأطفال وكبار السن.

لقـد كـان مقـر هـؤلاء مدينـة جويانـا بولايـة سـان فرانسـيكو بالولايــات المتحــدة، وكــان أكــثر أعضــاء الطائفــة من الزنــوج السـاخطين على النظـام الاجتمـاعي، والـذين كـانوا يعـانون من التفرقة العنصرية التي يعاملهم بها الأمريكان البيض.

انضممت إلى هـذه الجمعيـة لا لشـيء إلا لأتنـاول المـوت على أيديهم..

لكن قدر الله أنقذني.. ولم ينقذني إلا ليريني من النور والسلام والصفاء ما لم أكن أدرك له أي وجود.

في ذلك المحل الذي كنت فيـه في بـرزخ بين المـوت والحيـاة رأيت السلام الذي جئت إلى هذه البلاد أبحث عنه.

قلنا: كيف كان ذلك؟

قال: لقد حملني وأنا في سـكرات المـوت رجـل لا أعـرف إلى الآن اسمه.. ولكنه كان رجلا عظيما ممتلئـا بكـل معـاني الإنسـانية والنبل..

لقد مكث معي فترة طويلـة يـداويني من جـروحي، ويواسـيني من آلامي.. وفوق ذلك كله يمدني من المعارف المرتبطـة بجـوهر اهتمامي في الحياة ما أحال المجتمع في عيني كخلايا النحـل الـتي تتآلف وتتواصل وتتعاون لتؤدي الرسالة التي كلفت بها.

وفوق ذلك كله أراني عينات واقعية من هذا المجتمع.. جعلتــني أمتلئ تفاؤلا وهمة..

قلنا: فحدثنا عن المجتمع البديل الذي عرضه عليك.

قال: لقد سألته عن ذلك، فقال: هـو مجتمـع يقـوم على أربعـة أصول كبرى تفتقر إليها جميع المجتمعات الإنسـانية إلا المجتمعـات

المستظلة بظل الإسلام.

سألته عنها، فقال: هي: التآلف، والتكافل، والتناصر، والتناصح.

سألته عن وجه الحصر فيها، فقال: إن أفـراد المجتمـع لا يمكن أن يستقيم بغير توفر هذه الأربع:

أما أولها.. وهو الألفة.. فهو تلك الخصال الطيبة التي تملأ حيـاة أفـراد المجتمـع محبـة ومـودة واسـتقرارا.. فلا يسـمعون إلا مـا يرضيهم، ولا يرون إلا ما يطمئنهم.

وأما ثانيها، فلأنه لا يمكن لمجتمع أن يعيش السلام وفيه الجـائع والعاري..

وأمـا ثالثهـا، فلأنـه لا يمكن لمجتمـع أن يعيش السـلام وفيـه المظلوم والمستضعف..

وأمـا رابعهـا، فلأنـه لا يمكن لمجتمـع أن يعيش السـلام وفيـه المجرم والمنحرف..

ثم ذكر لي أن القرآن الكتـاب المقـدس للمسـلمين أشـار إلى هذه الأربع.. ففيه عند ذكر الخصال الموجبة للنجاة من عذاب الله: ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَـامٌ فِي يَـوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ (البلد:11 ـ 17)

فقوله :﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ إشارة إلى النصـرة، لأن أعظم نصـر للأخ لأخيه أن يفك رقبته من قيد من استعبده.

وقولـه :﴿ أَوْ إِطْعَـامٌ فِي يَـوْمٍ ذِي مَسْـغَبَةٍ يَتِيمـاً ذَا مَقْرَبَـةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ إشارة إلى ركن التكافل الاجتماعي.

وقوله:﴿ ثُمَّ كَـانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُـوا وَتَوَاصَـوْا بِالصَّـبْرِ وَتَوَاصَـوْا بِالْمَرْحَمَـةِ ﴾ إشـارة إلى التناصـح بين المؤمـنين، والتـآلف بينهم.. فالمرحمة هي أساس الألفة.

التآلف:

قلنا: فحدثنا عن التآلف.

قال: سألته عنه، فقال: تتأسس الألفة الاجتماعيـة في الإسـلام على أساسين: **الرحمة والمحبة**..

أما أولهما، فأشار إليه قوله تعالى : مُحَمَّدٌ رَّسُـولُ اللـهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ (الفتح: 29)

وقد ربى الأمة عليه تلك التوجيهـات القوليـة والعمليـة الكثـيرة لرسول الله ﷺ..

فقد كان الرسول ﷺ **يعامل الصبية** معاملة كلها رحمة ورقة وتلطف.. وكان يلوم على القسوة والجمود، فكان يحمـل الصـبيان ويقبلهم ويتركهم يركبونه ويضعهم في حجره، ويحملهم على عاتقه حتى وهو بين يدي ربه في الصلاة.

وعندما قبل رسول الله ﷺ الحسن أو الحسين بن على، وعنده الأقرع بن حابس التميمى، فقال الأقرع : إن لي عشـرة من الولـد ما قبلت منهم أحداً قط، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: (من لم يرحم لا يُرحم)(1)

وعن أبى قتادة قال: خرج علينـا النـبى ﷺ وأُمَامَـةُ بنت العـاص على عاتقه فصلى فإذا ركع وضعها وإذا رفع رفعها(2).

وعن جابر قـال: صـليت مـع رسـول اللـه ﷺ صـلاة الأولى، ثم خرج إلى أهله وخرجت معه فاستقبله ولدان، فجعـل يمسـح خـدَّيْ أحدهم واحد واحد.. قال : وأما أنا فمسح خدي، فوجدت ليده بــرداً أو ريحاً كأنما أخرجها من جونة عطار(3).

وكان ﷺ يولي **كفالة اليـتيم** المنزلـة العظيمـة.. ويخـبر عن الأجر العظيم الذي أعده الله لمن يكفل يتيمـا، فقـال:(أنـا وكافـل اليتيم فى الجنة هكذا ــ وأشـار بالسـبابة والوسـطى وفـرج بينهمـا

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه مسلم.

شيئا ـ)(1)

ومن عنايتـه ﷺ باليتـامى مـا حـدث بـه ابن أبى ملكيـة أن ابن الزبير قال لابن جعفر: أتذكر إذا تلقينا رسول الله ﷺ أنا وأنت وابن أبى عباس؟ قال : نعم، فحملنا وتركك(2).

فالثلاثة صبية صغار كانوا خرجوا لتلقى الرسـول ﷺ وهـو عائـد من إحدى سفراته، فحمل عبد الله بن جعفر على دابته ـــ حيث أن جعفر كان قد استشهد فى مؤتة ـ هو وابن عمـه وتـرك ابن الزبـير لأبيه.

ويقول عمر بن أبى سلمة: كنت غلاماً ـ يتيماً ـ فى حجـر النـبي ﷺ فكانت يدي تطيش في الصفحة فقال لي رسـول اللـه ﷺ :(يـا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك) فما زالت تلك طعمـتي بعد(3).

وهـذا وغـيره لمـا ورد في النصـوص الكثـيرة من الحث على رحمة اليتامى والاهتمام بهم..

ومن ذلك رحمته ﷺ **بالنساء**.. فقد روي أنه وقـف بينهن وقـد جئن يبايعنه على أن يأتمرن بأوامر الله ويجانبن نواهيه، فقـال لهن الرسـول ﷺ :(فيمـا اسـتطعتن وأطعتن)، فقلن: (اللـه ورسـوله أرحم بنا من أنفسنا)(4)

وكـان ﷺ يقـول: (اللهم إني أحـرج حـق الضـعيفين : اليـتيم والمرأة)(5)

وكانت حياته ﷺ بين نسائه فى بيتـه المثـل الأعلى فى المـودة

1() رواه البخارى وأبو داود والترمذى وابن حبان.

2() رواه البخارى.

3() رواه البخاري.

4() رواه الترمذى والنسائى وابن ماجة، وقال الترمذى : حسن صحيح.

5() رواه ابن ماجة وأحمد.

والموادعة وترك الكلفة، وبذل المعونة، واجتناب هُجْر الكلام ومره.

ومن ذلك رحمته ﷺ بالأرقاء.. روي أن أبا ذر خرج إلى الناس يوماً ومعه غلاماً يرتدى حلة مثل حلته، فسئل عن ذلك فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: (هم أخوانكم وخولكم، جعلهم الله تعالى تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم)(1)

وقال ﷺ :(ما خففت على خادمك من عمله كان لك أجرا في موازينك)(2)

وأما **الأساس الثاني الذي يقوم عليه التآلف الاجتماعي في الإسلام، وهو المحبة**، فأشار إليه قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ (الحشر:9)

وقد وردت النصوص الكثيرة تبين فضل المحبة في الله بين المؤمنين.. ففي الحديث قال رسول الله ﷺ :(ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار) (3)

وقال ﷺ :(سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه، وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة، فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه) (4)

1() رواه ابن حبان في صحيحه وهو في مسلم باختصار.

2() رواه أبو يعلى وابن حبان في صحيحه.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() رواه البخاري ومسلم.

وقال ﷺ :(إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي) (1)

وذكر ﷺ :(أن رجلاً زار أخا له في قرية أخرى فأرصد الله له على مدرجته ملكاً فلما أتى عليه قال:أين تريد؟ قال:أريد أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها، قال: لا غير أني أحببته في الله عز وجل، قال : فإنِّي رسول الله إليك بأنَّ الله قد أحبك كما أحببته فيه)(2)

وقال:(المتحابون في جلالي، لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء) (3)

وقد شرع الإسلام لرعاية هذا الأساس وتحقيقه الكثير من الأحكام والتشريعات والآداب(4).. والتي تجعل من الإنسان ملتزما إنسانا محبوبا مألوفا كما قال ﷺ:(المؤمن يألف ويؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وخير الناس أنفعهم للناس)(5)

ومن ذلك ما ورد في الحديث من قوله ﷺ :(والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم) (6)

ومن ذلك ما ورد في موعظة لقمان عليه السلام من قوله لابنه : ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (لقمان:18)

1() رواه مسلم.

2() رواه مسلم.

3() رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

4() ذكرنا الكثير منها بتفصيل في (الأبعاد الشرعية لتربية الأولاد) من سلسلة (فقه الأسرة برؤية مقاصدية)

5() الدارقطني في الأفراد والضياء عن جابر، وفي حديث آخر:« المؤمن يألف ويؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » رواه أحمد والطبراني في الكبير.

6() رواه مسلم.

ومن ذلك ما ورد في القـرآن الكـريم من التنبيـه إلى كثـير من أصول الآداب الاجتماعية، كآداب الاستئذان، كما في قوله تعالى :﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْـتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النور:59)

أو آداب الزيارة كما في قوله تعالى :﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَـرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْـرَجِ حَـرَجٌ وَلا عَلَى الْمَـرِيضِ حَـرَجٌ وَلا عَلَى أَنْفُسِـكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـاتِكُمْ أَوْ بُيُـوتِ إِخْـوَانِكُمْ أَوْ بُيُـوتِ أَخَـوَاتِكُمْ أَوْ بُيُـوتِ أَعْمَـامِكُمْ أَوْ بُيُـوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُـوتِ أَخْـوَالِكُمْ أَوْ بُيُـوتِ خَـالاتِكُمْ أَوْ مَـا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَـهُ أَوْ صَـدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتـاً فَسَـلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَـةً طَيِّبَـةً كَـذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَـاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (النور:61)

أو آداب المجالس، كما في قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَـحُوا يَفْسَـحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيـلَ انْشُـزُوا فَانْشُـزُوا يَرْفَـعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (المجادلة:11)

أو آداب الكلام، كمـا في قولـه تعـالى :﴿ وَاقْصِـدْ فِي مَشْـيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (لقمـان:19)، وقوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَـوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْـرِ بَعْضِـكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَـطَ أَعْمَـالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ (الحجرات:2)

أو آداب التحية، كمـا في قولـه تعـالى :﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً ﴾ (النسـاء: 86)

أو آداب المشي، كمـا في قولـه تعـالى :﴿ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾ (الاسراء:37)

أو آداب التعامل مع مختلف أصناف النـاس بمـا يناسـبهم، كمـا في قوله تعالى :﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ (النور: من الآية63)

وقد كان ﷺ يعلم الصحابة ﷺ أصول هذه الآداب وفروعها، وقد قـال لهم مـرة:(إنكم قـادمون على إخـوانكم، فأحسِـنوا لباسَـكم، وأصلحوا رِحالكم، حتى تكون كأنكم شامَةٌ في النـاس، فـإنَّ اللـه لا يُحبُّ الفُحشَ ولا التَفَحُّشَ)(1)، والنصوص والأمثلة على ذلك كثيرة تفيض بها كتب السنة.

بالإضافة إلى هذا.. فقد **حمي التآلف الاجتماعي من كـل المنغصات التي قـد تـؤثر في العلاقـات الاجتماعية**، ومن ذلك ما نص عليه قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6) وَاعْلَمُـوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُـولَ اللَّهِ لَـوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِـيرٍ مِنَ الْأَمْـرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَـانَ وَزَيَّنَـهُ فِي قُلُـوبِكُمْ وَكَـرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْـرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِـدُونَ (7) فَضْـلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَـةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8) وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ اقْتَتَلُـوا فَأَصْـلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْـدَاهُمَا عَلَى الْأُخْـرَى فَقَـاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَـإِنْ فَـاءَتْ فَأَصْـلِحُوا بَيْنَهُمَـا بِالْعَـدْلِ وَأَقْسِـطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِـطِينَ (9) إِنَّمَـا الْمُؤْمِنُـونَ إِخْـوَةٌ فَأَصْـلِحُوا بَيْنَ أَخَـوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَـوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَـاءٌ مِنْ نِسَـاءٍ عَسَـى أَنْ يَكُنَّ خَيْـرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِـزُوا أَنْفُسَـكُمْ وَلَا تَنَـابَزُوا بِالْأَلْقَـابِ بِئْسَ الِاسْـمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11) يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُـوا كَثِـيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُـوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُـكُمْ بَعْضًـا أَيُحِبُّ أَحَـدُكُمْ أَنْ يَأْكُـلَ لَحْمَ أَخِيـهِ مَيْتًـا فَكَرِهْتُمُـوهُ وَاتَّقُـوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَـوَّابٌ رَحِيمٌ (12) يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَـارَفُوا إِنَّ أَكْـرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)﴾ (الحجرات)

وكان رسـول اللـه ﷺ يـدرك أن بقـاء هـذه المـة رهين بتـآلف القلـوب الـتي التقت على الحب في اللـه، وأن حتفهـا في تنـاحر قلوبها لذلك كان يحذر من أن يذر الخلاف قرنه فيقول: (الا تختلفوا فتختلف قلوبكم)(2)

1() أبو داود وأحمد والحاكم في « المستدرك».

2() رواه البخاري.

وكان ﷺ يجتث بذرة الخلاف قبل أن تتنامى.. فعن عبدالله بن عمر قال : هجّرت إلى رسول الله ﷺ يوما فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الغضب فقال : (إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب)(1)

التكافل:

قلنا: فحدثنا عن ثانيها.. ذلك الذي سميته التكافل (2).

قال: لقد سألته عنه، فقال: التكافل هو إعانة الأخ لأخيه إعانة تخرجه من العوز إلى الغنى.. وهو ركن أساسي لأن حياة الإنسان لا تقوم إلا بحياة هذا الجسد وصحته، وتوفر ما يلزمه وما يقتضيه بقاؤه، وذلك كله يقتضي توفر ما يلزم من قوت ومأوى ونحو ذلك.

وهذا الواجب لا يتحقق إلا بتوفر التربية التي تشعر الفرد بمسؤوليته على الجماعة..

ويشير إلى هذ من القرآن الكريم قوله تعالى : وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْأِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (الحشر:9)

ففي هذه الآية إخبار عن الإيثار الذي تحلى به الأنصار لما قدم المهاجرون إليهم، بعد أن تركوا في بلادهم كل ما يلزم لنفقتهم، فوجدوا لهم إخوانا لهم اقتسموا معهم زادهم، بل آثروهم على أنفسهم.

وقد حفظت لنا كتب الحديث بعض ما فعله الأنصار مع المهاجرين، فعن أنَس قال: قال المهاجرون:(يا رسول اللّه ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم، أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلاً في كثير، لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله)، فقال ﷺ:(لا، ما أثنيتم عليهم

(1) رواه مسلم.

(2) خصصنا التكافل بفصل خاص في رسالة (عدالة للعالمين) من هذه السلسلة.

ودعوتم اللّه لهم)(1)

وظلوا هكذا حتى بعد أن فتح الله على المؤمنين، وقـد روي أن النـبي ﷺ دعـا الأنصـار أن يقطـع لهم البحـرين، فقـالوا:(لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها)، قـال:(إمـا لا، فاصـبروا حـتى تلقوني فإنه سيصيبكم أثرة)(2)

بل روي أكثر من ذلك، ففي الحـديث: قـالت الأنصـار:(اقسـم بيننـا وبين إخواننـا النخيـل)، فقـال:(لا)، فقـالوا:(أتكفونـا المؤنـة ونشرككم في الثمرة؟) قالوا:(سمعنا وأطعنا)(3)

بـل روي أكـثر من ذلـك، فقـد كـان الأنصـار من حرصـهم على الحفاوة بإخوانهم المهاجرين أنه ما نزل مهـاجري على أنصـاري إلا بقرعة.

وكان المهاجرون في قمة الاستغناء، كما كان إخـوانهم الأنصـار فيقم البذل، فقد روي أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول اللــه ﷺ بين عبـد الـرحمن بن عـوف وسـعد بن الربيـع، فقـال سـعد لعبـد الـرحمن:(إني أكـثر الأنصـار مـالا، فأقسـم مـالي نصـفين، ولي امرأتان فـانظر أعجبهمـا إليـك، فسـمِّها لي أطلقهـا، فـإذا انقضـت عدتها فتزوجهـا)، فقـال عبـد الـرحمن:(بـارك اللـه لـك في أهلـك ومالك، أين سوقكم؟؟)

فدلوه على سوق بني قينقـاع، فمـا انقلب إلا ومعـه فضـل من أقط وسمن، ثم تابع الغدُوَ..ثم جاء يوماً وبه أثر صفرة، فقال النبي ﷺ:(مَهْيَمْ؟)، قال:(تزوجتُ)، قال:(كم سقتَ إليهـا)، قـال:(نـواة من ذهب!)(4)

وقد عبر القرآن الكريم عن هذا التكافل بصورة أخـرى جميلـة،

1() رواه أحمد.

2() رواه البخاري.

3() رواه البخاري.

4() رواه البخاري.

فقال تعالى : وَيُطْعِمُونَ الطَّعَـامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْـكِيناً وَيَتِيمـاً وَأَسِـيراً إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً (الانسان:8 ـ 9)

ففي هـاتين الكريمـتين إخبـار عن إيثـار هـؤلاء المحـاويج من المؤمـنين غـيرهم بالطعـام مـع حبهم لـه وحـاجتهم إليـه، ثم هم لا يطلبون على ذلك جزاء ولا شكورا.

وهـو موقـف يشـبه كثـيرا موقـف موسـى عليه السلام عنـدما سـقى للفتاتين، ثم أوى إلى الظل من غير أن يشعر نفسه أو يشعر غيره أنه فعل شيئا، قال تعالى:﴿ فَسَـقَى لَهُمَـا ثُمَّ تَـوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَـالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (القصص:24)

وهذه المواقف ـ في حقيقتهـا، وفي حقيقـة الإسـلام ــ ليسـت شيئا ثانويا مستحبا، وإنما هي واجب من واجب من واجبات الـدين، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم:(ما آمن بي من بات شـبعان وجـاره جـائع إلى جنبـه وهو يعلم به)(1)، وقال صلى الله عليه وآله وسلم:(أيما أهل عرصة بات فيهم امرؤ جـائع فقد برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله)(2)

بـل نص القـرآن الكـريم على هـذا في مواضـع مختلفـة بصيغ مشددة تدل على أن الأمر ليس موكولا لرغبات النـاس، وإنمـا هـو واجب من واجبـات الـدين، فلا يصـح أن يمـوت النـاس جوعـا في نفس الوقت الذي تمتلئ يه خزائن الكثيرين، ولو دفعوا الزكاة.

فالواجب هو إغناء المحتاجين بأدنى مـا يجب إغنـاؤهم بـه، ومـا الزكـاة إلا وسـيلة لـذلك، إن كفت فبهـا، وإن لم تكـف وجب في أموال الجميع ما يكفيهم.

والقرآن الكريم يحض على هذا ويصـرح بـه ويشـير إليـه، قـال تعـالى:﴿ كُـلُّ نَفْسٍ بِمَـا كَسَـبَتْ رَهِينَـةٌ إِلَّا أَصْـحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَـاءلُونَ عَنِ الْمُجْـرِمِينَ مَـا سَـلَكَكُمْ فِي سَـقَرَ قَـالُوا لَمْ نَـكُ مِنَ الْمُصَـلِّينَ وَلَمْ نَـكُ نُطْعِمُ الْمِسْـكِينَ وَكُنَّا نَخُـوضُ مَـعَ الْخَائِضِـينَ وَكُنَّا

(1) البزار، والطبراني في الكبير.

(2) مسلم.

نُكَـــذِّبُ بِيَـــوْمِ الـــدِّينِ حَتَّى أَتَانَـــا الْيَقِينُ فَمَـــا تَنْفَعُهُمْ شَـــفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (المدثر:38 ـ 48)

فقـد اعتـبر تعـالى عـدم إطعـام المسـاكين من الجـرائم الـتي تسبب الدخول في جهنم، بل تقرن هذه الجريمة بترك الصــلاة، ثم تقدم على التكذيب بالدين، ثم يتوعدون بعدم نفع الشافعين فيهم.

بل لم يعف القرآن الكـريم من هـذا الـواجب حـتى العامـة من الناس الذين لا يملكون ما يطعمون غيرهم، لأنه لم يـأمر بالإطعـام فقط، بل أمر بالحض على الإطعام، ليشمل هذا الأمر الجميع، قال تعالى:﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلَا تَحَاضُّـونَ عَلَى طَعَـامِ الْمِسْـكِينِ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴾ (الفجر:17 ـ 20)

وقالتعالى وهو يذكر موقفا من مواقف القيامـة الشـديدة:﴿ خُـذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَـــلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِـلَةٍ ذَرْعُهَـا سَـبْعُونَ ذِرَاعـاً فَاسْــلُكُوهُ إِنَّهُ كَـانَ لَا يُـــؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَـــامِ الْمِسْـكِينِ فَلَيْسَ لَـهُ الْيَـوْمَ هَاهُنَـا حَمِيمٌ وَلَا طَعَـامٌ إِلَّا مِنْ غِسْـلِينٍ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ (الحاقة:30 ـ 37)

بل نجد هذا في سورة كاملـة تكـاد تكـون خاصـة بهـذا الجـانب يعتبر من لا يحض على طعام المسكين مكذبا بالدين، قال تعـالى:﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَوَيْـلٌ لِّلْمُصَـلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَـلَاتِهِمْ سَـاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾(الماعون:1 ـ 7)

وقد ذكر العلماء درجات المؤمنين في قيامهم بمـا يتطلبـه هـذا الركن من البذل، وهي ثلاث درجات:

الأولى: وهي أدناها أن تنزله منزلـة عبـدك أو خادمـك فتقـوم بحاجته من فضلة مالك، فإذا سنحت له حاجة وكانت عنـدك فضـلة عن حاجتك أعطيته ابتداء ولم تحوجه إلى السؤال فإن أحوجته إلى السؤال فهو غاية التقصير في حق الأخوة.

الثانية: أن تنزله منزلـة نفسـك وترضـى بمشـاركته إيـاك في مالـك ونزولـه منزلتـك حـتى تسـمح بمشـاطرته في المـال قـال الحسن: كان أحدهم يشق إزاره بـينه وبـين أخيه.

الثالثة: وهي العليا أن تؤثره على نفسـك وتقـدّم حاجتـه على حاجتك وهذه رتبة الصدّيقين ومنتهى درجات المتحابـين.

التناصر:

قلنا: فحدثنا عن ثالثها.. ذلك الذي سميته التناصر.

قال: لقد سألت صـاحبي عنـه، فأجـابني قـائلا: هـو نصـرة الأخ لأخيـه في مواقـف الشـدة والحاجـة، لأن الأمن ركن أساسـي في الحياة لا يقل عن ركن الغذاء، ولـذلك جمـع اللـه تعـالى بينهمـا في قوله : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَـداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَـاسَ الْجُـوعِ وَالْخَـوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (النحل:112)، وقال تعالى في ذكر نعمـه على قريش: الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (قريش:4)

لأن أسـباب الهلاك لا تصـيب الإنسـان من جهـة الجـوع وحـده، بـل تصيبه أيضا من الأعداء الـذين يتربصـون بـه، بـل إن هـذا الجـانب أكـثر ضررا بالإنسان من جانب الجوع.

وقد أشار إلى هذا الركن قوله تعـالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَهَـاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَـا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَـيْءٍ حَتَّى يُهَـاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَـرُوكُمْ فِي الـدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْـرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (لأنفال:72)

ففي هذه الآية الكريمة حض على نصر المؤمنين بعضهم بعضا، فلا يصح أن ينعم المسلم بـالأمن في الـوقت الـذي يصـاب إخوانـه بكل أنواع البلاء.

وقد قال ﷺ وهو يحض على رعاية هذا الـركن:(المسـلم أخـو المسلم لا يسـلمه ولا يخذلـه)، وقـال ﷺ:(انصـر أخـاك ظالمـاً أو مظلوماً)، قيـل: يـا رسـول اللـه! أنصـره مظلومـاً، فكيـف أنصـره ظالما؟)، قال:(تمنعه من الظلم؛ فذلك نصرك إياه)(1)

---

(1) رواه البخاري وأحمد.

ولأجل تحقيق هذا الركن شرع الإسلام الجهاد في سـبيل اللـه، قال تعالى في تبرير الأمر بالجهاد مع كونه إزهاقـا للأرواح الـتي جـاءت الشريعة لحفظها: ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَـاءِ وَالْوِلْـدَانِ الَّذِينَ يَقُولُـونَ رَبَّنَـا أَخْرِجْنَـا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَـا مِنْ لَـدُنْكَ وَلِيّـاً وَاجْعَـلْ لَنَـا مِنْ لَـدُنْكَ نَصِيراً﴾ (النساء:75)

وقد ورد هذا التبرير في مواضع مختلفـة، وكلهـا تنطلـق من أن الغـرض من القتـال في الإسـلام ليس المقصـود منـه التوسـع ولا الاستعمار والسيطرة، وإنما المقصد منه نصرة المستضعفين، قـال تعـالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـاتَلُونَ بِـأَنَّهُمْ ظُلِمُـوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْـرِهِمْ لَقَـدِيرٌ﴾ (الحج:39)، وقـال تعـالى: ﴿ وَقَـاتِلُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَـاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَـدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَـدِينَ﴾ (البقـرة:190)، وقالتعالى: ﴿ يَسْأَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَـرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْـتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَـدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِـهِ فَيَمُتْ وَهُـوَ كَـافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الـدُّنْيَا وَالْآخِـرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْـحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:217)

وتحقيق هـذا الـركن يسـتدعي بـذل الجهـد في تحصـيل القـوة بأنواعها المختلفة، كما قال تعـالى: ﴿ وَأَعِـدُّوا لَهُمْ مَـا اسْـتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُـونَ بِـهِ عَـدُوَّ اللَّهِ وَعَـدُوَّكُمْ﴾ (الأنفـال: من الآية60)، وقـال ذامـا من لم يعـد للأمـر عدتـه، واعتبـه كـاذا في دعواه: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَـهُ عُـدَّةً وَلَكِنْ كَـرِهَ اللَّهُ انْبِعَـاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (التوبة:46)

ومما يدخل في هذا الباب (ذب الأخ عن أخيـه في غيبتـه مهمـا قصد بسوء أو تعرض لعرضه بكلام صريح أو تعريض فحـق الأخـوة التشـمير في الحمايـة والنصـرة وتبكيت المتعنت وتغليـظ القـول عليه، والسكوت عن ذلك موغر للصدر ومنفـر للقلب وتقصـير في حق الأخوة.. فأخسس بأخ يراك والكلاب تفترسك وتمزق لحومـك وهـو سـاكت لا تحركـه الشـفقة والحميـة للـدفع عنـك وتمزيـق الأعراض أشد على النفوس من تمزيق اللحوم ولـذلك شـبهه اللـه

تعالى بأكل لحوم الميتة فقال: أَيُحِبُّ أَحَـدُكُمْ أَنْ يَأْكُـلَ لَحْمَ أَخِيـهِ مَيْتاً (الحجرات: من الآية12))(1)

التناصح:

قلنا: فحدثنا عن رابعها.. ذلك الذي سميته التناصح.

قال: لقـد سـألت صـاحبي عنـه، فقـال: هـو الـركن الرابـع من الأركان التي يقوم عليها بنيان المجتمع في الإسـلام، وهـو أساسـي من حيث أن الإنسان ليس جسدا فقط يحتـاج إلى غـذاء قـد يكفي أمره التكافل، أو حماية قد يكفي أمرها التناصر، ولكنه روح وعقـل يحتاج إلى تعليم وتوجيه وتربية ونصح، وكـل ذلـك يسـتدعي وجـود هذا الركن.

يقول الغـزالي في بيـان الحاجـة إلى هـذا الـركن:(ومن ذلـك التعليم والنصيحة فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال، فإن كنت غنياً بالعلم فعليك مؤاساـته من فضـلك وإرشـاده إلى كل ما ينفعه في الدين والدنيا، فإن علمته وأرشدته ولم يعمـل بمقتضى العلم فعليك النصيحة)(2)

وقال ذو النون:(لا تصحب مع الله إلا بالموافقة، ولا مع الخلـق إلا بالمناصـحة، ولا مـع النفس إلا بالمخالفـة، ولا مـع الشـيطان إلا بالعداوة)

وقـد رد الغـزالي على من اعتـبر هـذا سـببا للوحشـة بين المؤمنين، فقال:(إعلم أن الإيحاش: إنما يحصل بـذكر عيب يعلمـه أخوك من نفسه فأما تنبـيهه على مـا لا يعلمـه فهـو عين الشـفقة وهو استمالة القلوب، أعني قلوب العقلاء، وأمـا الحمقى فلا يلتفت إليهم فإن من ينبهك على فعل مـذموم تعاطيتـه أو صـفة مذمومـة اتصفت بها لتزكي نفسك عنها كان كمن ينبهك على حية أو عقرب تحت ذيلـك وقـد همت بإهلاكـك، فـإن كنت تكـره ذلـك فمـا أشـد حمقك والصفات الذميمة عقارب وحيات وهي في الآخرة مهلكـات

---

(1) الإحياء: 2/181.

(2) الإحياء: 2/182.

فإنها تلدغ القلوب والأرواح وألمها أشد مما يلدغ الظواهر والأجساد وهي مخلوقة من نار الله الموقدة)(1)

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الركن في قولـه تعـالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ (البلد:17)، وقالتعـالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ وَتَوَاصَـوْا بِـالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر:3)

وإلى هذا الركن الإشارة بقول لقمان ﷺ في وصيته لابنه: ﴿ يَـا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّـلاةَ وَأْمُـرْ بِـالْمَعْرُوفِ وَانْـهَ عَنِ الْمُنْكَـرِ وَاصْـبِرْ عَلَى مَـا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (لقمان:17)

وقد اعتبر القرآن الكريم هذا الركن خاصـة من خصـائص هـذه الأمـــة، فقـــال تعـــالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْـرَ أُمَّةٍ أُخْـرِجَتْ لِلنَّاسِ تَـأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: من الآية 110)

واعتبر أداء هذا الركن من علامات المؤمـنين الصـادقين، فقـال تعالى: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَـأْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـوْنَ عَنِ الْمُنْكَـرِ وَيُسَـارِعُونَ فِي الْخَيْـرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّـالِحِينَ ﴾ (آل عمران:114)، وقال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُـهُمْ أَوْلِيَـاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُـونَ الزَّكَـاةَ وَيُطِيعُـونَ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ أُولَئِكَ سَـيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبـة:71)، وقـال تعـالى: ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِـدُونَ الْحَامِـدُونَ السَّـائِحُونَ الرَّاكِعُـونَ السَّـاجِدُونَ الْآمِـرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة:112)

بـل اعتـبره من صـفات الرسـول ﷺ الأساسـية، قـال تعـالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْـدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ يَـأْمُرُهُمْ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـاهُمْ عَنِ الْمُنْكَـرِ وَيُحِـلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَـاتِ وَيُحَـرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَـائِثَ وَيَضَـعُ عَنْهُمْ إِصْـرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف:157)

---

(1) الإحياء: 2/183.

واعتبره بعد ذلك من علامات صحة التمكين في الأرض، قال تعالى:﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (الحج:41)

وقد اعتبر ﷺ هذا التناصح ركنا من أركان الدين، فقال ﷺ:(الدين النصيحة) ثلاثا، قلنا لمن؟ قال:(لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)(1)، فقد اعتبر ﷺ الدين نصيحة، ثم عد من النصيحة النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم.

وقد ورد في الإسلام الآداب الكثيرة التي تجمع بين الألفة والنصيحة.. فلا يحصل الصراع بينهما، ومن ذلك أن تكون النصيحة في سر لا يطلع عليه أحد، لأن ما كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة، قال الشافعي:(من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه)، وقيل لمسعر: أتحب من يخبرك بعيوبك؟ فقال: إن نصحني فيما بيني وبينه فنعم وإن قرّ عني بين الملأ فلا.

قال الغزالي:(فالفرق بين التوبيخ والنصيحة بالإسرار والإعلان كما أن الفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء. فإن أغضيت لسلامة دينك ولما ترى من إصلاح أخيك بالإغضاء فأنت مدار وإن أغضيت لحظ نفسك واجتلاب شهواتك وسلامة جاهك فأنت مداهن)(2)

***

قلنا: فكيف كانت نهاية صحبتك لهذا الرجل الفاضل؟

قال: كما كانت نهاية صحبتكم.. لقد سمعنا من يصيح بالفتنة التي تريد أن تستأصل المسلمين.. فلم ألبث حتى رأيت صاحبي يهرول لقمعها لا يلوي على شيء..

وقد جئت إلى هذه البلاد بحثا عنه.. فقد علمت كما علمتم بأن الفتنة تريد أن تنطلق من هذه البلاد لتشمل غيرها.

(1) رواه مسلم.

(2) الإحياء: 2/182.

سابعا ـ الدولة

في اليوم السابع، قام رجل منا، وقال: سأحدثكم اليوم أنــا عن حديثي..

أنـا رجـل كتب لـه أن يكـون مواطنـا بسـيطا في أنظمـة حكم كثـيرة.. تعـاملت معـه كمـا يتعامـل الخـبراء المغفلـون مـع فـئران التجارب.. إلى درجة أني صـرت أطلب المـوت.. بـل أسـتعمل من الوسائل ما يصلني به.. ولـولا أن أمـدني اللـه بلطفـه.. وأراني من السلام ما أراني لكنت الآن في عداد الموتى.

وقد شاء الله اللطيف الخبـير أن يكـون منقـذي هـو نفسـه من يريد أن ينفذ في حكم الإعدام.. وإلى الآن لا يـزال عقلي كليلا دون إدراك هذا وفهمه.

قلنا: من كان هذا الذي أنقذك؟

قـال: لن أحــدثكم عمن أنقــذني حــتى أحــدثكم عمن أرداني، وجعلني بكامل اختياري أطلب الموت.

الصراع

قلنا: فمن هو الذي أرداك؟

قال: لقد ذكرت لكم أنهم كثيرون.

الثيوقراطية:

قلنا: فمن أولهم؟

قال: الثيوقراطيون(1).

قلنا: ثيوقراطيون!؟.. ما تعني؟

1()نسـبة للثيوقراطيـة، وتعـني حكومـة الكهنـة أو الحكومـة الدينيـة.. وتتكـون كلمـة ثيوقراطية من كلمتين مدمجتين هما (ثيو) وتعني الدين و(قراطية) وتعني الحكم.. وعليــه فإن الثيوقراطية هي نظام حكم يستمد الحاكم فيه سلطته أو بالأحرى شـرعيته مباشـرة من الإله.. حيث تكون الطبقة الحاكمة من الكهنة أو رجال الدين.

قال: هم رجال كثيرون كانوا يزعمون أنهم ينوبون عن اللـه في حكم عبـاده.. كـانت لهم مقـار كثـيرة.. وكـان آخرهـا مقـر اسـمه الكنيسة.. كان فيهـا رجـال كثـيرون لا أزال متعجبـا من التناقضـات التي كانوا يحملونها، والتي كانت تملؤني بالصراع.

فهم من جهة أصحاب ألسنة عذبـة يقولـون لنـا بهـا كـل حين : (من ضربك على خدك الأيمن، فأدر له الأيسر)

ومن جهة أخرى كانوا يحملوننا كل حين على أن تظـل وجوهنـا مستديرة لهم، ليصفعوها متى شاءوا، وبما شاءوا.

أذكر في بعض تلك الأيام أن (تشرلس التاسع) أراد ســنة 574 م أراد أن ينشر الأمن فى ربوع البلاد، فهادن (الهوجونـوث)، وأدنى زعماءهم من حضرته، وتوج هذه الحركة بالرغبـة فى تـزويج أختـه من زعيم لهم، فأثار هذا المسلك ثائرة الكنيسة.

وفى ليلة الزفاف أقبل جموع (الهوجونوث) تـترى إلى بـاريس، فأطلق الرصاص على زعيمهم.

وعندئذ وطد عزمه على التنكيـل بمن حـاول اغتيالـه، وخشـيت (الكنيسة) مغبة ذلك، فعقدت النيـة على أن تجعـل عيـد (القـديس بـارثلميو) فى 24 أغسـطس سـنة 1572 م مذبحـة يبيـدون فيهـا خصومهم.

وفى منتصف الليل دق ناقوس (كنيسـة سـان جرمـان) مؤذنـا ببدء المذبحة.. فإذا بأشـراف الكاثوليـك والحـرس الملكى وجمـوع الجمـاهير تنقض على بيـوت (الهوجونـوث) والفنـادق الـتى آوتهم، وتأتى على من بها ذبحا.

فلما أصبح الصباح كانت شوارع باريس تجرى بــدماء ألفين من النفوس.

وتطايرت أنباء المذبحة المروعة إلى الأقاليم، فإذا بها تسـتحيل ـ بدورها ـ مجزرة تجرى بدماء ثمانيـة آلاف من هـؤلاء المسـاكين.. بل قيل: إن هذه المذبحة قد أودت بحياة نيف وعشرين ألفا.

وقـد أثـار وقـوع هـذه المذبحـة الغبطـة والرضـا فى أوروبـا

المسـيحية الكاثوليكيـة كلهـا، فكـاد (فيلب الثـاني) يجن من فـرط الفرح عندما بلغته أنباؤها، وانهالت التهانى على (تشرلس التاســع) بغـير حسـاب.. وكـاد (البابـا جريجـورى الثـالث عشـر) يطـير من السرور، حتى إنه أمر بسك أوسمة لتخليد ذكراها توزع على وجـوه الشعب وعيونه.

وقـد رسـمت على هـذه الأوسـمة صـورته، وإلى جانبـه ملـك يضرب بسيفه أعناق الملحدين، وكتب على هـذه الأوسـمة (إعـدام الملحدين)

وإلى جانب هذا أمر البابا بإطلاق المـدافع وإقامـة القـداس فى شـتى الكنـائس، ودعـا الفنـانين إلى تصـوير منـاظر المذبحـة على حوائط الفاتيكان، وأرسل تهنئته الخاصة إلى (تشرلس)

هذا ليس إلا مشهدا واحدا من مشاهد الدماء التي كانت تسـيل لإرضاء نهم الكنيسـة ورجـال الـدين الـذين كـانوا يحيـون كـل حين وصايا العهد القـديم بحـرب الإبـادة، الإبـادة الـتى لا تبقى فى ديـار الأعداء إنسانا ولا حيوانا.. حتى لو كان الأعداء مواطنون.

لقـد كـان أولئـك الرجـال الـذين سـفكوا تلـك الـدماء يعتـبرون أنفسهم يقدمون قرابين يطلبون بها رضوان الرب.

لقد كانوا يعتصرون أعناق الضحايا كما يمارسون الصـلاة سـواء بسواء.. أسوتهم في ذلـك مـا ورد في سـفر (يشـوع) عنـدما قـال للشعب: اهتفوا لأن الرب قد أعطاكم المدينة، فتكون المدينة وكل ما فيها محرما للرب.

وكان حين يسمع الشعب صوت البوق أن الشـعب هتـف هتافـا عظيما، فسقط السور فى مكانه، وصعد الشعب إلى المدينة، كــل رجل مع وجهه.

وأخذوا المدينة، وحرموا كل ما فى المدينة من رجـل، وامـرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير، بحد السيف، وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها)

لقد كان يشوع هو أسوتهم.. وكان يشوع هو رجل الدولة الــذي

صلينا بناره فترات طويلة.

وبما أن يشوع الـذي كـان يمثـل رجـال الـدين والدولـة لم يكن يقيم أي وزن للحياة الدنيا، بل كـان يحتقرهـا ويزدريهـا ويـدعو إلى إهمالها وعدم الالتفـات إليهـا في سـبيل الحصـول على (الخلاص)، فإن الدين(1) ـ في صورته الكنسية ـ لم يكن يسـعى إلى تحسـين أحوال البشر على الأرض، أو إزالة المظالم السياسية والاجتماعيـة والاقتصادية التي تقع عليهم، وإنما يدعو إلى الزهد في الحياة الدنيا برمتها، وترك كل شيء على ما هـو عليـه، لأن فـترة الحيـاة الـدنيا أقصر وأضأل وزناً من أن يحاول الإنسان تعديل أوضاعه فيها. إنمـا يسـعى جاهـداً إلى الخلاص منهـا دون أن يعلـق بروحـه شـيء من الآثام. والمتاع ذاته هو من الآثـام الـتي يحـاول المتطهـرون النجـاة منها بالرهبنة واعتزال الحياة.

بـل أكـثر من ذلـك : إن احتمـال المشـقة في الحيـاة الـدنيا، واحتمال ما يقع فيهـا من المظـالم هـو لـون من التقـرب إلى اللـه يســاعد على الخلاص. ومن ثم دعت الكنيســة الفلاحين للرضــا بالمظالم الـتي كـانت تقـع في ظـل الإقطـاع وعـدم الثـورة عليهـا لينالوا رضوان اللـه في الآخـرة وقـالت لهم : ((خـدم سـيدين في الحياة الدنيا خير ممن خدم سيداً واحداً))!

ومن جهة أخرى كان هذا الدين يحصر كيان الإنسان في نطـاق محدود محصور أشد الحصر ليبرز جانب الألوهية في أكمل صورة.. ألوهية الله بمعناها السلبي.

ومن ثم فـإن فاعليـة الإنسـان محصـورة في الطاعـة للأوامـر الإلهية _ كما تعرضـها الكنيسـة بـالحق أو الباطـل _ لا تتعـداها إلى الإنشاء لأنه ليس للإنسان أن ينشئ شيئاً من عند نفسه.

ومن ثم كـذلك كـان ثبـات الأوضـاع في أوروبـا في العصـور الوسطى لفترة طويلة من الزمان بكل ماتحمل من ألوان الفســاد السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري والروحي على أسـاس أنها قدر الله الذي لا يجـوز للنـاس تغيـيره إنمـا ينبغي الخضـوع لـه

1() استفدنا الكثير من المعلومات التاريخية الواردة هنا من كتاب (العلمانيـة) لمحمـد قطب.

والمحافظة عليه تقرباً إلى الله.

قال رجل منا: كيف تقول ذلك عن الكنيسة، وهي لا تزال أزهـد الناس في الرئاسة والسلطة، وهي لا تـزال تـروي كـل حين قصـة المسيح التي رواها الملهم متى، فقال: (فَذَهَبَ الْفَرِّيسِيُّونَ وَتَـآمَرُوا كَيْفَ يُوْقِعُونَهُ بِكَلِمَةٍ يَقُولُهَا. فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ بَعْضَ تَلاَمِيـذِهِمْ مَـعَ أَعْضَـاءِ حِزْبِ هِيرُودُسَ، يَقُولُـونَ لَـهُ: يَـامُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ صَـادِقٌ وَتُعَلِّمُ النَّاسَ طَرِيقَ اللهِ فِي الْحَقِّ، وَلاَ تُبَالِي بِأَحَدٍ لأَنَّكَ لاَ تُـرَاعِي مَقَامَـاتِ النَّاسِ، فَقُلْ لَنَا إِذَنْ مَا رَأْيُكَ؟ أَيَحِـلُّ أَنْ تُـدْفَعَ الْجِزْيَـةُ لِلْقَيْصَـرِ أَمْ لاَ؟ فَـأَدْرَكَ يَسُوعُ مَكْرَهُمْ وَقَالَ: (أَيُّهَا الْمُرَاؤُونَ، لِمَـاذَا تُجَرِّبُـونَنِي؟ أَرُونِي عُمْلَـةَ الْجِزْيَةِ! فَقَدَّمُوا لَهُ دِينَاراً. فَسَأَلَهُمْ: لِمَنْ هَذِهِ الصُّـورَةُ وَهَـذَا النَّقْشُ؟ أَجَابُوهُ: لِلْقَيْصَرِ! فَقَالَ لَهُمْ: إِذَنْ، أَعْطُوا مَا لِلْقَيْصَرِ لِلْقَيْصَرِ، وَمَـا لِلـهِ لِلهِ، فَتَرَكُوهُ وَمَضَوْا، مَدْهُوشِينَ مِمَّا سَمِعُوا) (متى:15/14-21)

كما أن (بولس) كرر نفس ما قاله السيد المسيح، فـأمرهم بالخضوع لأيـة حكومـة تبسـط سـلطانها عليهم، وألا يحـاولوا إثـارة الفتن، لأن تسلط هـذه الحكومـات عليهم إنمـا هـو بقَـدَر من اللـه، ومن ثم لا ينبغي التمـرد على سـلطانها، بـل عليهم دفـع الجزيـة والجبايات دون أى تذمر : (لِتَخْضَعْ كلُّ نفس للسلاطين العالية، فإنه لا سلطان إلا من اللـه، والسـلاطين الكائنـة إنمـا رتَّبهـا اللـه، فمن يقاوم السلطان فإنما يعاند ترتيب الله، والمعاندون يجلبـون دينونـة على أنفسـهم، لأن خـوف الرؤسـاء ليس على العمـل الصـالح بـل على الشرير، أفتبتغى ألا تخاف من السلطان؟ افعل الخير فتكـون لديه ممدوحا لأنه خادمُ الله لك للخـير فأمـا إن فعلتَ الشـر فَخَـفْ فإنه لم يتقلد السيف عبثا لأنه خادمُ الله المنتقمُ الذى يُنْفِذ الغضب على من يفعـل الشـر، فلـذلك يلـزمكم الخضـوع لـه لا من أجـل الغضب فقط بل من أجل الضمير أيضا، فـإنكم لأجـل هـذا تُوفُـونَ الجزية أيضا، إذ هم خُدّام الله المواظبون على ذلك بعينه، أدُّوا لكلٍّ حقه : الجزية لمن يريد الجزية، والجباية لمن يريد الجباية، والمهابة لمن لـه المهابة، والكرامة لمن لـه الكرامة)

قال: ما تقوله صحيح من حيث النظريـة.. ولكن التطـبيق كـان مختلفا تماما.. لقد استطاعت الكنيسـة بنفوذهـا أن تجعـل الملـوك والأباطرة طوع إرادتها.. وأعلن البابـا (نقـولا الأول) (858-867م)

بياناً قـال فيـه : (إن ابن اللـه أنشـأ الكنيسـة بـأن جعـل الرسـول بطرس أول رئيس لها، وإن أساقفة روما ورثـوا سـلطات بطـرس في تسلسل مستمر متصـل (ولـذلك) فـإن البابـا ممثـل اللـه على ظهر الأرض يجب أن تكون لـه السـيادة العليـا والسـلطان الأعظم على جميع المسيحيين حكاماً كانوا أو محكومين)

وأعلن البابا جريجوري السابع الذي تولى البابويــة من (1073-1085 م) قائلا: (إن الكنيسة بوصفها نظاماً إلهياً خليقة بأن تكــون صاحبة السلطة العالمية، ومن حق البابا وواجبـه أن يخلـع الملـوك غير الصالحين، وأن يؤيد أو يرفض اختيار الحكام أو تنصيبهم حسب مقتضيات الأحوال)

التفت إلي صاحبنا، وقال: لم يكن ذلـك مجـرد كلام.. لقـد كـان واقعاً عاشته أوروبا عدة قرون.. لعل أبرز ما يشير إلى تلك الفـترة ما حدث بين (جريجوري السابع) هذا والإمبراطور الألمـاني (هـنري الرابع) إذ أن خلافـاً نشـب بينهمـا حـول مسـألة (التعيينـات) أو مـا يسمى (التقليد العلماني)، فحـاول الإمـبراطور أن يخلـع البابـا، ورد البابا بخلع الأمبراطور وأصدر قرار حرمان ضده، كمـا أحـل أتباعـه وأمراء مملكتـه من ولائهم لـه وألبهم عليـه، فعقـد الأمـراء مجمعـاً قررو فيه أنه إذا لم يحصل الإمبراطور على المغفـرة لـدى وصـول البابا إلى ألمانيا فإنه سـيفقد عرشـه إلى الأبـد، فوجـد الإمـبراطور نفسه مضـطراً إلى استرضـاء البابـا، ولم يسـتطع أن ينتظـر حـتى يصل البابا إلى ألمانيا فسافر إليـه في (كانوسـا)، وظـل واقفـاً في الثلج في فناء القلعة ثلاثة أيام في لباس الرهبـان متـدثراً بـالخيش حـافي القـدمين عـاري الـرأس حـتى تعطـف عليـه البابـا، ومنحـه مغفرته!

وفي بريطانيــا حصــل نــزاع بين الملــك (هـنري الثــاني) وبين (توماس بكت) رئيس أساقفة كنتربري بسبب دستور رسمه الملك يقضي على كثير من الحصانات التي يتمتع بها رجـال الـدين، ثم إن رئيس الأساقفة اغتيل فثـارت المسـيحية على هـنري الثـاني ثـورة عنيفة، فاعتزل الملك في حجرته ثلاثة أيام لايذوق فيها الطعام، ثم أصدر أمره بالقبض على القتلـة، وأعلن للبابـا براءتـه من الجريمـة وألغي الدستور، ورد إلى الكنيسة كل حقوقها وأملاكها ومع ذلك لم

يحصل على المغفرة حتى جاء إلى كنتربري حاجاً مظهراً ندمه، وسار الأميال الثلاثة الأخيرة من الطريق على الحجر الصوان حافي القدمين حتى دميت قدماه، ثم استلقى على الأرض أمام قبر رئيس الأساقفة المقتول وطلب من الرهبان أن يضربوه بالسياط، وتقبل ضرباتهم وتحمل كل الإهانات في سبيل استرضاء البابا وأتباعه.

الميكافيللية:

قلنا: عرفنا الثيوقراطيين.. فمن غيرهم؟

قال: قوم يسمون (ميكافيليين)(1).

قلنا: ميكافيليون!؟.. ما تعني؟

قال: هم قوم يقودهم رجل كان يقال له (مكيافيلي).. وكان يقودهم كتاب كان يقال له (الأمير)

قال رجل منا: لكن الذي أعلمه هو أن الكل كان يبغض مكيافيلي.. بل إن اسمه أصبح ملازماً للشر دائماً حتى في الفنون الشعبية.. وأول من هاجم مكيافيلي هو (الكاردينال بولس) مما أدى لتحريم الإطلاع على كتاب الأمير ونشر أفكاره، وكذلك أنتقد غانتيه في مؤلفٍ ضخم أفكار مكيافيلي، ووضعت روما كتابه عام 1559 ضمن الكتب الممنوعة وأحرقت كل نسخة منه.

ابتسم، وقال: لقد كان كل ذلك مجرد دعاية للكتاب ولأفكار الكاتب.. فعندما بزغ نور عصر النهضة في أرجاء أوروبا ظهر من يدافع عن مكيافيلي ويترجم كتبه.. لقد مدحه جان جاك روسو،

1() نسبة لمكيافيلي (Niccolò Machiavelli)، ولد في فلورنسا 3 مايو 1469، وتُوفي في فلورنسا في 21 يونيو 1527، فيلسوف سياسي إيطالي إبان عصر النهضة.. وقد أصبح مكيافيلي الشخصية الرئيسية والمؤسس للتنظير السياسي الواقعي، والذي أصبحت فيما بعد عَصّبَ دراسات العلم السياسي. أشهر كتبه على الإطلاق، كتاب الأمير، والذي كان عملاً هدف مكيافيلي منه أن كتيب تعليمات للحكام، نُشرَ الكتاب بعد موته، وأيد فيه فكرة أن ماهو مفيدٌ فهو ضروري، والتي كان عبارة عن صورة مبكرة للنفعية والواقعية السياسية.

وألف مكيافيلي العديد من (المطارحات) حول الحياة السياسية في الجمهورية الرومانية، فلورنسا، وعدة ولايات، والتي من خلالها برع في شرح وجهات نظر أخرى.

وفيخته، وشهد لـه هيغـل بالعبقريـة.. بـل إن مكيـافيلي اعتـبر أحـد الأركـان الـتي قـام عليهـا عصـر التنـوير في أوروبـا.. وقـد أختـار موسوليني كتاب الأمير موضوعاً لأطروحته التي قدمها للـدكتوراه.. وكان هتلر يقـرأ هـذا الكتـاب قبـل أن ينـام كـل ليلـة.. وهكـذا من سبقهم من الملوك والأباطرة كفريدريك وبسمارك وكريستينا وكل من ينشد السلطة.

قلنا: عرفنا الكـاتب والكتـاب.. ولكنـا لم نعـرف مـذهب الحكم الذي يحمله ويدعو إليه.

قال: كل الكتاب.. وكل المذهب الذي يحمله ليس سوى جوابـا عن سؤال واحد هو: (كيف لحاكمٍ أو أمـير مُلهم أن يبـدأ أو يُحافـظ على مُلكه وحكومته؟)

قلنا: فكيف أجاب ميكافيلي على هذا السؤال الخطير؟

قـال: يـرى مكيـافيلي أن القيم والمبـادئ الأخلاقيـة يجب أن تخضع، أو يُتخلى عنها، لصالح الأهـداف.. وعليـه فهـو ينص على أن العالم الذي يعايشه الأمير يجب أن يظل على ما هو عليـه، ورجـال هذا العالم لايحسنون ولايسيئون. ومهمةُ الأمير هي أن يحصل على أفضل النتائج مع هؤلاء الرجال، من دون أن يعمـل على تثقيفهم أو تنويرهم.

وقد تجاهـل مكيـافيلي أي ترابـطٍ بين الأخلاق والسياسـة، كمـا شـدّدَ على أن الأمـير يجب أن يظهـر بمظهـر الـرحيم، والمتـدين، والأمين، والأخلاقي. ولكن واقعياً، فإن مركـزه لا يُؤهلـه لكي يمتـاز بأي من الخصال السالفة.

لقد اسـتطاع مكيـافيلي أن يعـري (السياسـة) من ذلـك القنـاع الأخلاقي المستمد من الدين، وكشفها عارية من كل أثـر للـدين أو الأخلاق!

جاء يشرع الجريمة السياسـية ويجعلهـا أصـلاً ينبغي للحكـام أن يتبعوه!

لقد كان الحكام يسيرون في سياستهم على أسـاس أن الغايـة

تبرر الوسيلة، والغايـة طبعـاً هي غـايتهم هم! ولكنهم كـانوا – حين يستخدمون الوسائل غير النظيفة لتحقيـق غـايتهم غـير النظيفـة – يستترون وراء عبارات براقة تحـوى كـل نبيـل من القيم والمبـادئ والأخلاقيات، أما مكيافيلي فإن الجديد الذي أتى به- وهو خطير في ذاته أنه أعطى الوسائل الخسيسة في السياسـة شـرعية صـريحة لامواربة فيها ولا إنكار.

قال رجل منا: ماذا أضاف مكيافيللي من عنده إلى الواقع؟ ألم يكن الواقع خسيساً في غايته ووسائله؟ فكـل مـا فعـل مكيـافيللى أنه كان صريحاً بالدرجة التي كشف بها القناع عن الواقـع المزيـف وجعله حقيقة واقعة!

قال: الفارق العملي كبير.. وقد لا يتضح الفرق في البدايـة، لأن البداية تكون مجرد مطابقة النظرية للواقع الموجود.. ولكن الفارق يتبين – ويزداد – مع التطبيق.. حين ترتكب المنكر وأنت شاعر بأنه منكر، فستقتصـد في ارتكابـه فلا تلجـأ إليـه إلا تحت ضـغط قـاهر، وستقف في ارتكابه عند الحد الذي ترى أنه لا يطيح بسمعتك كلهـا أمام الناس، وقد تحاول الرجوع عنه في يـوم من الأيـام، أمـا حين يكتسب المنكـر في حسـك الشـرعية فلمـاذا تقتصـد في ارتكابـه، ولماذا تقف عند حد من الحدود ؟!

ونظرة إلى ما وقـع في أيـام موسـولينى وهتلـر، ومـا وقـع في الدول الشيوعية منذ الثورة الشيوعية حتى اليوم، كفيلـة بـأن ترينـا إلى أي مدى انحـدرت السياسـة (الميكافيليـة) في تـبرير الوسـيلة بالغاية، وكلتا الوسيلة والغاية ما أنزل بها من سلطان!

في فاشـية موسـولينى ونازيـة هتلـر كـانت الغايـة هي التجمـع القـومي والعـزة القوميـة وإحلال قوميـة كـل منهـا مكانهـا (تحت الشمس)

وفي سبيل هذه الغاية (التي قـد تكـون مشـروعة في ذاتهـا إذا خلت من العدوان على الآخرين) استباح كل من الرجلين أن يقتـل ألوفـاً ومئـات الألـوف من المعارضـين باسـم (حركـات التطهـير) و(وحـدة الصـف) و(القضـاء على الثورةالمضـادة) و(القضـاء على

الطابور الخامس) وما أشبه ذلـك من التعلات، وفتحت معسـكرات التعذيب، وذاق الشعب كله ويلات الجاسوسية والإرهاب.

وفي الثورة الشيوعية كانت الغاية إزالـة الظلم (!!) الـذي يقـع على الناس من جراء الملكية الفرديـة والصـراع الطبقي واسـتئثار الطبقة المالكة بالحكم والسـلطان والمنـافع على حسـاب الطبقـة الكادحة ! وإقامة العدل(!) بالوسائل النبيلـة (!) الـتي تـدعيها هـذه الثورة، ومن بينهـا ذبح ثلاثـة ملايين ونصـف مليـون من المسـلمين في عهد رجل واحد، وإخضاع الشعب كله لألوان من الإرهاب نادرة في التاريخ!

أما الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية فهي الـتي تـبيح احـتراف المعارضــة واحــتراف التأييــد بحســب موضــع كــل حــزب من الحكم :هل هو بداخله أم خارجه، بصرف النظر عن الحـق والعـدل والمصلحة الوطنيـة أو القوميـة.. وتـبيح الكـذب من الساسـة على شعوبهم في الدعاية الانتخابية (وغـير الانتخابيـة) وتـبيح اسـتخدام وسائل اسـتراق السـمع بحجـة المحافظـة على الأمن، وهي تقـوم أساسـاً على مسـاندة الطبقــة الرأسـمالية في امتصـاص دمـاء الكـادحين وإن أخـرجت ذلـك كلـه في مسـرحية طريفـة اسـمها (الحرية والإخاء والمساواة!)

وهذا كله في السياسة الداخلية..

أما في السياسة الخارجية فالأمر أدهى وأمر.. فالقرن الجاهلي العشرون هو الـذي شـهد أبشـع حـالات قـانون الغـاب الـتي يأكـل القوي فيها الضعيف!

في حربين عالميتين متتاليتين شهد الناس أفظع فنون العـدوان في التاريخ، من غازات سامة وقنابل محرقة وتدمير جماعي وقتـل للنساء والأطفال والشيوخ والمدنيين غير المحاربين..إلى أن كـانت القمة قنبلتى هيروشيما ونجازاكي الذريتين، اللتين ما تـزالان حـتى اليوم بعد أكـثر من أربعين سـنة من إلقائهـا تنتجـان أجنـة مشـوهة بفعل الإشـعاع الـذري السـام، وذلـك غـير الخـراب المـدمر الـذي أحدثتاه وقت إلقائهما في مساحة كبيرة من الأرض قتلتـا فيهـا كـل من عليها من الأحياء من البشر والدواب والشـجر، وحرمتـا الحيـاة

فيها لأجل غير معلوم !

والقنبلة الذرية لعبة صغيرة إلى جوار المدمرات التي اخترعت بعد ذلك والتي تهدد الحياة في أي حرب تالية تقوم بين الوحوش ويصلاها الآدميون !

وذلك إلى إباحة الكذب الدولي والخيانة على أنها عملة (شرعية) في عالم السياسة الدولية!

تبرم المعاهدات لكي تنقض! ويعلم المبرمون جميعاً أنها حبر على الأوراق! وأنه لن يتقيد بها أي طرف إلا ريثما يجد الفرصة السانحة للخروج عليها وإلقائها طعمة للنيران!

وتتكون عصبة للأمم وهيئة للأمم كلتاهما ستار للسياسة العدوانية التي تتخذها (الدول العظمى) ضد الدول الصغار!

وذلك بخلاف الوسائل الفردية التي تستخدمها (الدول العظمى !) بطريقها المباشر لتنفيذ (غاياتها) النبيلة!

حين قامت ثورة المجر سنة 1956 ميلادية وجدت روسيا في نفسها من (النبل) ماتحرك به الدبابات الشاهقة تهدم به البيوت على أصحابها أحياء وتردمهم في الركام لأنهم تجرأوا فطلبوا أن يمنحوا حرية التصرف بأنفسهم في أمر أنفسهم دون وصاية الدولة الروسية عليهم.. فهل تقاوم الردة إلا بالقتل الجماعي؟!

أما المخابرات الأمريكية فالأرض كلها مجال لمؤامراتها بغير حساب.. نريد انقلابا هناً..ونريد تغيراً هناك! وسرعان ما تنقلب الأرض وتتغير الأحوال وكل الوسائل حلال! الكذب والغش والتصفية الجسدية وشراء الضمائر بالمال ! المهم أن تنفذ الغاية..والغاية والوسيلة كلتاهما غارقة في الأوحال!

العلمانية:

قلنا: عرفنا الميكافيليين.. فمن غيرهم؟

قال: العلمانيون.

قلنا: ما تريد بهم؟

قال: بعد أن انتشرت أفكار ميكـافيلي في المصـلحة المجـردة أخذ الملوك والأباطرة يتمردون على ذلك السـلطان القـاهر الـذي تستذلهم به الكنيسـة، ويطـالبون (بالسـلطة الزمنيـة) خالصـة لهم على أن تقتصـر الكنيسـة على السـلطة الروحيـة فحسـب، وكـان مستندهم في ذلك نظرية الحق الإلهي المقدس.

يقـول رنـدال: (نشـأت نظريـة الحـق الإلهي للملـوك في أول عهدها كمحاولـة لتحريـر الحكومـة المدنيـة، أوالعلمانيـة من رقابـة البابا والكهنة، كما أنها كـانت رداً على دعـواه أن لـه حقـاً إلهيـاً في السيطرة على الأمور الزمنية)(1)

ونظرية الحق الإلهي تستند إلى نظرية رومانيـة قديمـة تعـرف بنظرية (العقد الاجتماعي)

وقـد كـانت الإمبراطوريـة الرومانيـة – كمـا ضـمنت في مجلـة الحقوق المدنية – على القول بأن كل السلطة وكل حق في وضـع القوانين يعودان للشعب الروماني، غير أن الشعب تنـازل بمـوجب قـانون شـهير عن هـذه الحـق للإمـبراطور، وهـو تفسـير طـبيعي لمجرى التاريخ الروماني فجميع حقـوق الشـعب الرومـاني وجميـع سلطاته انتقلت إلى الإمبراطور، وله وحده حق (إصـدار) القـوانين وحق تفسيرها.

وعندما تم إحياء القانون الروماني في القـرون الوسـطى انتبـه الإمبراطور إلى هذه النظرية واتخذها سلاحاً ضد سيطرة الكنيسـة، ثم تبعـه في ذلـك جميـع الأمـراء.. وهكـذا نشـأت نظريـة العقـد الاجتماعي القائلة بأن كل سـلطة مدنيـة ترتكـز في أساسـها على الشـعب، وأن الشـعب قـد حولهـا إلى الحـاكم ليمكنـه من القيـام ببعض الوظائف الضرورية.

قلنا: فما الضير في هذه الأفكار؟

قال: لقد كانت هذه الأفكار وقودا لنيران كثيرة لا نـزال نحـترق

1() تكوين العقل الحديث:1/277..

بها.

قلنا: كيف ذلك؟

قال: لقد كانت تلك الأفكار تحمل معاول خطيرة تهدم بها كل القيم النبيلة.. وأولها أن (المفكرين الأحرار) بدأوا يهاجمون فكرة الألوهية وينفون الرسالات والوحي، وينفون الحياة الآخرة والجنة والنار.. ويقولون إن هذه كلها أوهام تبنتها البشرية في غيبة من العقل، والآن وقد صحا العقل فقد آن الأون لنبذها وتركها للهمج المتأخرين.

بل انتشرت الأفكار الإغريقية القديمة التي تذكر أن الآلهة في صراع دائم مع الإنسان.. وأنها تريد أن تقهر الإنسان وتكبته وتحطمه لكي لا يطمح في أن يكون مقتدراً مثلها، فلا تفتأ كلما حقق نجاحاً أن تصب الكوارث فوق رأسه لكي لا يستمتع بثمرات نجاحه، وهو من جانبه دائم التحدي للآلهة، كلما وقع في حفرة من حفائرها عاد يستجمع قواه ليصارعها من جديد.

وتكفي أسطورة بروميثيوس الشهيرة لبيان هذا المعنى بصورة مباشرة، إذ تزعم تلك الأسطورة أن (زيوس) إله الآلهة خلق الإنسان من قبضة من طين الأرض ثم سواه على النار المقدسة (التي ترمز إلى المعرفة) ثم وضعه في الأرض محاطاً بالظلام (الذي يرمز إلى الجهل) فأشفق عليه كائن أسطوري يسمى بروميتوس، فسرق له النار المقدسة لكي ينير له ماحوله، فغضب زيوس على الإنسان وعلى بروميثيوس كليهما.. فأما بروميثيوس فقد وكل به نسراً يأكل كبده بالنهار، ثم تنبت له كبد جديدة بالليل يأكلها النسر بالنهار في عذاب أبدي!

وأما الإنسان فقد أرسل له زيوس (باندورا) (التي ترمز إلى حواء) لكي تؤنس وحشته (في ظاهر الأمر!) وأرسل معها هدية عبارة عن علبة مقفلة، فلما فتحها إذا هي مملوءة بالشرور التي قفزت من العلبة وتناثرت على سطح الأرض لتكون عدواً دائماً وحزناً للإنسان !

ويشير جوليان هكسلي إشارة صريحة إلى هذه الأسطورة في كتاب (الإنسان في العالم الحديثMan in the modern world)، فيقول

إن موقـف الإنسـان الحـديث هـو ذات الموقـف الـذي تمثلـه هـذه الأسطورة فقد كان الإنسان يخصع لله بسبب الجهل والعجز، والآن بعد أن تعلم وسـيطر على البيئـة فقـد آن لـه أن يأخـذ على عـاتق نفسه ماكان يلقيه من قبـل في عصـر الجهـل والعجـز على عـاتق الله، ويصبح هو الله)

قلنا: فما المصدر الذي هرب إليه الإنسان بعد هربه من الله؟

قال: لقد اتجه الفكر المنسلخ من الدين إلى البحث عن مصدر آخر للقيم الإنسانية غير الدين! ذلك أن أوروبا لم تكن قد انسـلخت بعد من القيم ذاتها كما حدث فيما بعد حين امتـد الخـط المنحـرف فازداد بعداً وانحرافاً، أو لم تكن قد سنحت الفرصـة للشـريرين أن يعلنوا الحرب المنظمة على كل مقومات (الإنسـان) كمـا سـنحت لهم بعد ظهور الداروينية وإعلان حيوانية الإنسان!

ففي تلك الفترة وجد (الفكر الحر !) أنه إن أقر بأن الدين هــو مصدر القيم الإنسانية فقد وجب عليه أن يحافظ عليـه ولا يهاجمـه ولا يسـعى إلى تحطيمــه ! فينبغي إذن أن يبحث ذلــك الفكــر عن مصدر آخر يستمد منه القيم ويسندها إليه، لكي لا يقول أحد إنــه لا يمكن الاستغناء عن الدين ! وعلى هذا الضـوء يمكننـا فهم فلسـفة (أوجست كومت) من ناحية، وأفكار (جان جـاك روسـو) من ناحيـة أخرى، فكلاهمـا يجهـد نفسـه ليقـول للـذين يقفـون مـدافعين عن الدين: ها قد وجدنا مصـدراً آخـر تنبـع منـه القيم الضـرورية لحيـاة الإنسان غير الدين وجدناه في (الطبيعـة) وفي (النفس البشــرية) وهــو مصــدر أفضــل _ في إثبـات القيم وترسـيخها _ من الــدين.. فدعونا إذن من الدين، وتعالوا معنا إلى تلك المصادر (الحرة) التي يقبل عليها الإنسان إقبـالاً (طبيعيـاً) (وذاتيـاً) دون أن يحس بـالقهر المفروض عليه من قوة أعلى منه!

وفي الوقت ذاته اتجه هذا (الفكر المتحرر) إلى عبادة الطبيعــة بدلاً من عبادة اللـه، ونسـبة الخلـق إليهـا بـدلاً من اللـه.. وفي ذات الوقت كذلك اتجه الفن إلى مناجاة الطبيعـة بـدلاً من مناجـاة اللـه وتأليهها بدلاً من تألية الله.

وعندما جاءت الثورة الصناعية جاء معها المزيد من إبعاد الــدين

عن الحياة..

ففي العهد الزراعي _ أو الإقطاعي كما يسمونه _ كان ما يزال للدين نفوذ كبير في حياة الناس.

كان الملوك قـد اسـتقلوا عن سـطان البابـا، وقـامت (علمانيـة الحكم) بفصل الدين عن السياسـة (أي إقصـاء رجـال الـدين عن التدخل في شـؤون السياسـة) ولكن الكنيسـة كـان مـا يـزال لهـا سـطان ضـخم على أخلاق النـاس وعـاداتهم وأفكـارهم رغم كـل الصراعات وكل الاعتبارات.

ولكن الثورة الصناعية أحدثت _ أو أريد لها أن تحـدث _ هـزات عنيفة في حياة الناس.. فقد عملت هذه الثورة على إخراج المـرأة إلى العمل وإفساد أخلاق الرجل معها، واستغلال قضـية المسـاواة مع الرجـل في الأجـر لبث روح الصـراع في نفس المـرأة وإحـراج صدرها من قوامة الرجل والعمل في البيت والتفرغ للأمومـة، ومـا نتج عن ذلك كله من تحطيم الأسرة وتشريد الأطفـال والفوضـى.. ونسبة ذلك إلى التطور الـذي يهـدم مـا يشـاء من القيم ويلغي مـا يشاء!

وكانت الطامة العظمى هي الداروينية وإبعاد الإنسـان ذاتـه من عالم الإنسان وإلحاقه بعالم الحيوان ! فعندئذ لم تعـد هنـاك حاجـة إلى القيم أصـلاً.. لا الـدين ولا الأخلاق ولا التقاليـد المسـتمدة من الدين.

قال رجل منا: ولكن ألا ترى في النظام العلماني من المصـالح ما قضى به على تلك الآثار الخطيرة التي أنشأها الحكم الديني؟

لقـد كـان ــ في ظـل الحكم الـديني ــ النظـام الإقطـاعي هـو السائد، وكانت الكنيسة قد أوهمت الناس أنـه هـو النظـام الربـاني الدائم الثابت الذي لايتغير، لأن أوضاع الناس فيه هي الأوضاع التي قدرها الله منذ الأزل ورضي عنها واقتضت مشيئته أن يظل النـاس عليها إلى الأبد ! وأنه من رضي بما فيه من هوان ومذلـة وشـظف ومشقة فقد استحق من الله الجنة والرضوان!

قال: ذلـك صـحيح.. ولكن النـاس حين خرجـوا من الـدين على

خـط العلمانيـة لم يسـتبدلوا بالإقطـاع مـاهو خـير منـه، سـواء في الرأسمالية أو الشيوعية، بل ظلوا ينتقلون من جاهليـة إلى جاهليـة حتى هـذه اللحظـة، وكلمـا حـاولوا أن يصـلحوا الظلم جـاءوا بظلم جديد.

فهم ينقسمون أولاً إلى سادة وعبيـد، سـادة في أيـديهم المـال والسلطان، يشرعون وحين يشرعون فإنهم يضعون القوانين الـتي تضمن مصلحتهم وتسخر الآخرين لهم، وعبيد ليس في أيديهم مال ولا سلطان، فلا يشـرعون، إنمـا يقـع عليهم مـا يضـعه السـادة من تشـــريعات، ويســـخرون – رضـــوا أم أبـــو- لمصـــلحة أصـــحاب السلطان..ومن جهة أخرى يصـيبهم الخبـل والاضـطراب والتخبـط نتيجـة القصـور البشـري والجهـل البشـري والعجـز عن الإحاطـة والعجز عن رؤية المستقبل الـذي ينبـني على الحاضـر، نعم ولكنـه مع ذلك غيب لا يمكن التنبؤ به عن يقين.

الديمقراطية:

قلنا: عرفنا العلمانية.. فما غيرها؟

قال: كذبة تسمى (الديمقراطية) (1)

1() مصـطلح الديمقراطيـة يونـانى الأصـل، ويتكـون من شـقين : الشـق الأول (Demoskratia) وتعني بالعربية: (الشعب)، والشعب فى لسان العـرب : القبيلـة العظيمـة، والجمـع شـعوب.. أمـا الشـق الثـانى من الديمقراطيـة (Demoskratia): فيعـنى حكم أو سلطة بمعنى التحكم فى المصير الشخصى، وأحيانا تعنى مصير الغير.

ومجموع الشقين يعنى : حكم الشعب، أو سلطة الشعب.

ويلاحظ أن الكلمة فى النطق العربى لها أقرب إلى أصلها اليونـانى ممـا هـو عليـه فى اللغات الأوربية الحية.

ويرى منتسكيو - وهو من أبرز مفكرى عصر النهضة وممن ساهموا فى إرسـاء نظريـة الديمقراطيـة- أن الديمقراطيـة هى حكم الشـعب، أو من يمثلونـه وفـق قواعـد نيابيـة خاصة، فإذا كان الحكم فى أيدى فئة من أغنياء الشعب، فتلك هى الأرستقراطية.

ففى الديمقراطية يسـتطيع كـل شـخص وفـق قواعـد خاصـة تمثيـل الشـعب، أو حكم الشعب باسم الشعب، أما فى حالة الأرستقراطية فإن الحكم محصور فى طبقة معينة أو عدة طبقات لا يتعداها.. وأحسن شكل للحكم الأرستقراطى هو ذلك الحكم الذى يقـترب من الحكم الديمقراطى.

قلنا: لا نسمع عنها إلا طيبا، فكيف تصفها بهذا(1) ؟

قال: لأنها كذلك.. إنها أكبر كذبة يمارسها المستبدون ليلعبوا بها على أذقان شعوبهم.

قلنا: كيف ذلك؟

قال: لذلك قصة طويلة لن تفهموا آخرها حتى تفهموا أولها.

قلنا: فحدثنا عن أولها.

قـال: لا شـك أنكم تعرفـون أن أول من مـارس الديمقراطيـة كنظام حكم هم الإغريق في مدينتي أثينا وإسـبارطة خلال القـرنين الخـامس والرابـع قبـل الميلاد، وذلـك بعـد تطـور سياسـي طويـل استغرق حوالي سبعة قرون، حيث كانت تقوم في المدينة حكومة، يطلق عليها اصطلاحاً: اسم حكومة المدينة.

لقد كان أفراد الشعب من الرجال يجتمعون كلهم في المدينـة، ويشـاركون جميعـاً في حكمهـا، أي يجتمعـون في هيئـة جمعيـة عمومية، يتشاورون فيها في كل أمور الحكم، مثل: انتخاب الحـاكم وإصدار القوانين، والإشـراف على تنفيـذها، ووضـع العقوبـات على المخالفين، وربما ساعد على هذا الاجتماع العام: قلة عدد السكان، وبسـاطة الحيـاة، وسـهولة المشـاكل ويسـرها، وقـد تـوزعت الاختصاصات التشريعية والتنفيذية والقضائية على الهيئـات التاليـة: الجمعيـة الشـعبية (العموميـة)، والمجلس النيـابي، والمحـاكم الشعبية.

فحكم الشعب في هاتين المدينتين كان مطبقاً بصورة مباشرة، وكانت التسمية (حكم الشعب) مطبقة بصورة مباشـرة، ومنطبقـة على الواقع انطباقاً كاملاً.

أمـا الحكم الملكى - فى رأى مونتسـكيو- فهـو الـذى يقـوم على هيئـات تتوسـط بين الملك والشعب، وتكون لها اختصاصات محدودة تحديدا دقيقا يحد من سلطان الملك.

(انظر: د حسن سعفان، روح القوانين لمونتسيكو، ص 28، وما بعدها، الهيئة المصـرية العامة للكتاب، تراث الإنسانية، 1995م)

1() استفدنا هنا من كتاب بعنوان (الديمقراطية) للدكتور صالح الرقيب.

ولكن هذه الصورة من حكم الشعب (الديمقراطيـة) قـد انتهت بانتهاء حكومة المدينة في أثينا وإسبارطة اليونانيتين(2).

بعد ذلك بفترة طويلة.. وبعـد أن عـرفت أوربـا نظـام الإقطـاع الـذي ظـل يحكمهـا أكـثر من ألـف عـام في ظـل الإمبراطوريـة الرومانية والقانون الروماني، ولما آمنت أوربـا بالديانـة المسـيحية، لم تغير المسيحية من واقع الحياة في الجانب التشريعي والقانوني شيئاً بل مارس رجال الدين النصارى ظلماً وطغياناً تجـاه الشـعوب الأوربية، وفي ظل النظـام الإقطـاعي والطغيـان الكنسـي لم يكن للشــعب قيمــة أو وزن، بــل كــان يتعــرض لأبشــع أنــواع الظلم والطغيان.

بعد أن كان الشعب يعاني من ظلم وطغيـان الملـوك والأمـراء الذين كانوا يمارسون الحكم المستبد استناداً إلى نظريـة التفـويض الإلهي التي اُخترعت لتبرير سـلطانهم المطلـق، حيث تقـول هـذه النظريـة: (إن الملـوك يسـتمدون سـلطانهم من تفـويض اللـه لهم سواءً كان تفويضاً مباشراً أو غير مباشر)، وكان الشعب يعاني أيضاً من ظلم الإقطاعيين ورجال الكنيسة، ونتيجـة المظـالم المتراكمـة تفجرت الثورة الفرنسية، ورفع شـعار: (اشـنقوا آخـر ملـك بأمعـاء آخر قسيس)

لقد تخلصت أوربا من ظلم الإقطاع والأمـراء والملـوك ورجـال الكنيسة، ولكنها اسـتبدلت نظـام الحكم الظـالم الـذي كـان جاثمـاً على صدرها لعدة قرون بنظام حكم آخر، هو النظام الــديمقراطي الذي أخذته من تراثها الإغريقي الروماني.

والأساس الـذي اسـتندت إليـه أوربـا الحديثـة في أخـذها بمبـدأ سيادة الشعب هو نظرية (العقد الاجتماعي) الـتي صـاغها كـل من تومـاس هـوبز، وجـون لـوك، وجـان جـاك روسـو.. وجـوهر هـذه النظرية: (أن الناس في أول أمرهم كانوا يعيشون حياتهم الفطرية البدائية حياة غير منظمة، تخلو من التشـريع الـذي يحكمهم، وليس هناك دولة أو مؤسسـة تنظم معـاملاتهم وأمـور حيـاتهم، ثم نتيجـة تطور الحيـاة احتـاج النـاس إلى دولـة وتشـريع حـاكم، لأجـل ذلـك

2()انظر الديمقراطية الأثينية أ.هـ.م. جونز، ترجمة د. عبد المحسـن الخشـاب، الهيئـة المصرية العامة 1976م ص 121.

عقـدوا فيمـا بينهم عقـداً تنـازلوا بمقتضـاه عن جميـع حقـوقهم أو بعضـها للمجمـوع، من أجـل إقامـة السـلطة الـتي تحكمهم وتنظم شؤون حياتهم وتحفظ حقوقهم وحرياتهم)

والسلطة حسب هذا التصور قامت بنـاء على الإرادة الشـعبية، فالشعب هو صاحب السيادة والسلطة.

وبعد نضال وكفاح اسـتمر فـترة طويلـة من الزمـان اسـتقرت الديمقراطية في أوربا على صورتها الحالية، على اختلاف بينهـا في الجزئيات لا يؤثر في صورتها العامة ومبادئها الرئيسية.

قال رجل منا: فما الضير في هذا.. أليس من حـق الشـعب أن يحكم بالقوانين التي تتناسب مع مصالحه؟

قال: ذلك صحيح.. ولكن التاريخ في القديم والحـديث لم يـذكر لنـا أن هـذه الخصيصـة قـد تحققت، فالديمقراطيـة كنظـام للحكم كانت دوماً نظاماً طبقياً، أي كانت ومازالت طبقة واحـدة هي الـتي تفرد إرادتها ومشيئتها على باقي طبقات المجتمع.. ولـذلك ذكـرت لكم أن الديمقراطيــة لا تعــدو كونهــا كذبــة تفنن المســتبدون في التلاعب بها.

قلنا: كيف ذلك؟

قـال: في القـديم - عنـد الإغريـق- كـانت الطبقـة المكونـة من الأمـراء والنبلاء وأشـراف القـوم هي الطبقـة الحاكمـة المشـرِّعة صاحبة الإدارة العليا، بينما كان بقية أفراد الشعب - وهم الأغلبية- لا تملك من الأمر شيئاً.

وفي الحــديث نجــد طبقــة كبــار الأغنيــاء من أصــحاب رؤوس الأمـوال هم الـذين يشـكلون الطبقـة الحاكمـة المشـرِّعة صـاحبة الإرادة العليا، فهي التي تملك الأحزاب ووسائل الإعلام الـتي تصـنع الرأي العام وتوجهه لصالح القلة الحاكمة.

إن الديمقراطية لعبة الأقلية سواء كانت فئة أو طبقة، وليســت حكومة الشعب أو الأغلبية كما جاء في تعريفها، وكمـا يتـوهم كثـير من الناس.

ولهـذا فـإن الديمقراطيـة قـدمت لنـا صـوراً كثـيرة للنظم المسـتبدة، كالديمقراطيـة القيصـرية، وكنظـام نـابليون بونـابرت، ونظام لويس نابليون 1852م.

بالإضـافة إلى هـذا، فـإن المجلس النيـابي - بكـل أفـراده أو أكـثرهم- في النظـام الـديمقراطي لا يسـتطيع أن يسـنّ تشـريعاً صالحاً نافعاً، لتعذر اتفاق عقول جميـع النـواب على تشـريع واحـد، ولمّا أدرك هؤلاء النواب اسـتحالة ذلـك، جعلـوا في المجلس لجنـة قانونية، ولها مقرر واحـد، حـتى يمكن وضـع النظـام من واحـد، ثم يعـرض للنقـاش من عـدد محـدود - أعضـاء اللجنـة القانونيـة-، ثم يعرض على المجلس لا لوضعه، وإنما لإقراره، بعد نقـده من عـدة أشخاص، وبعد ذلك يصبح قانوناً من قبل المجلس. وحقيقـة الأمـر: أن واضع القانون شـخص واحـد، وناقشـه عـدة أشـخاص، فيكـون واضـع القـانون بضـعة أفـراد، لا الشـعب ولا أكثريتـه، ولا المجلس النيابي المنتخب نفسه.

وعلى فرض أن نواب الأمة - ممثلي أكثريـة الأمـة- هم واضـعو القوانين، فإن القانون أو النظـام الـذي وضـعوه لا يصـلح لأن يعين المصلحة ويحـدد المفسـدة، الـتي تقـوم عليهـا علاقـات الأمـة في المجتمع، لأن النظام أو القانون مصـدره العقـل، والعقـل وحـده لا يملك ذلـك، لأن عقـول النـاس متفاوتـة ومتباينـة من حيث الأفكـار وتحديد المصالح والمفاسد.

بالإضـافة إلى هـذا، فـإن الديمقراطيـة تقـوم على مبـدأ تقريـر الحقوق والحريات للأفراد، ووجوب ضمانها وصيانتها وحمايتها، ولقد ظهـرت هـذه الحقـوق والحريـات في البدايـة لحمايـة الأفـراد في مواجهـة سـلطة الدولـة، واسـتمدت دعائمهـا من النظريـات الـتي أوردت قيـوداً على سـلطان الدولـة كنظريـتي القـانون الطـبيعي والعقد الاجتماعي، ولقد اسـتقرت أخـيراً هـذه الحقـوق والحريـات وأصـبحت جـزءاً من النظـام الـديمقراطي، إذ قررتهـا من قبـل إعلانـات الحقـوق المختلفـة عقب الثـورات الإنجليزيـة والأمريكيـة والفرنسـية، وظهـرت في شـكل نصـوص دسـتورية في صـلب القوانين الأساسية، وهو ما أخذت به أغلب الدساتير. وقررها أيضـاً ميثاق هيئة الأمم، والميثـاق العـالمي لحقـوق الإنسـان الصـادر في

15 ديسمبر 1948م.

قال رجل منا: ما أجمل هذا.. فلم تعيبه؟

قال: أنا لا أعيبه.. ولكني أذكر خطورته.

قال الرجل: فما خطورته؟

قال: سأضرب لك مثالا على هذا فيما يتعلق بالحرية التي كفلتها الديمقراطية **في مجال الأخلاق**..

أنت تعلم أن حرية الإنسان في أن يفسد حرية مكفولة بالقانون الديمقراطي.. فالسلوك الجنسي مسألة خاصة إلى أبعد حدود الخصوصية، لا يتدخل القانون بشأنها، أي تدخل إلاَّ في حالة واحدة هي جريمة الاغتصاب، لأنها تقع بالإكراه لا بالاتفاق، أما أي علاقة - على الإطلاق- تقع بالاتفاق فلا دخل للقانون بها ولا دخل للمجتمع ولا دخل لأحد من الناس.. فسواء كانت هذه العلاقة سوية أو شاذة، وسواء كانت مع فتاة لم تتزوج أو مع امرأة متزوجة، فهذا شأن الأطراف أصحاب العلاقة، وليس شأن أحد آخر.

تلك هي الحرية التي تقر بها الديمقراطية في بلاد الغرب، وتحميها بالقانون، وتعطيها الشرعية الكاملة.

هذا في مجال السلوك الأخلاقي.. أما الحريات الاقتصادية، فقد أعطت الديمقراطية الفرد حرية مطلقة في الكسب والتملك والثراء والإنفاق، دون ضوابط ولا قيود، ومن هنا كان الربا والاحتكار والكساد والبطالة، والإسراف في إنفاق المال ولو كان على الفساد والرذيلة، وظهر المحتالون على أموال الناس، يأكلونها بالقمار، والرشوة واستغلال السلطة، وعبر المصنوعات التافهة، والتجارة بالمواد المفسدة للفطرة والذوق الإنساني، ومن خلال دور العهر والبغاء، وصالات الرقص والتعري والانحلال، ومن خلال الحروب المصطنعة لإيجاد أسواق تصريف فائض الإنتاج من السلاح ووسائل الدمار، ومن خلال مؤسسات الجنس والسينما والمودة والتقاليع المفسدة للأخلاق والطباع.

بالإضافة إلى هذا، فإن عدم وجود شروط يجب توافرها في

الشخص الذي يريد ترشيح نفسه للحكم في الديمقراطية يجعل طلاب السلطة يتنافسون عليها، بل يتقاتلون من أجلها، ويسلكون في سبيل الوصول إلى الحكم كل الوسائل اللاأخلاقية التي من شأنها التأثير على الناخبين وشراء أصواتهم بالأموال المبذولة للعامة، والمناصب الموعودة للكتاب والصحفيين والساسة والزعماء ونحوهم ممن يسير في موكب النفاق للشخص أو الحزب المرشح للحكم.

ثم إن انعدام هذه الشروط تمكِّن غير المؤهلين علمياً وإدارياً وخلقياً -من خلال أموالهم الطائلة وموكب المنافقين السائدين معهم- من الوصول إلى الحكم، وأمثال هؤلاء يكونون لعنة على شعوبهم وبلدانهم، كما نرى في واقعنا المعاصر.

إن الأنظمة والتشريعات التي تصدر عن المجالس البرلمانية الديمقراطية تؤكد أن نسبة الأغلبية التي توافق على هذه التشريعات والأنظمة نسبة تافهة مجردة من القيم والأخلاق، نسبة خاضعة لأهواء ورغبات شياطين الإنس والجن الذين يهمهم تفكيك روابط الأسرة والمجتمع، وهدم قواعد الحق والعدل والأخلاق. وإلا: بماذا نفسر القوانين التي تبيح ما لا يقبله من لديه مسكة من عقل أو ذرة من حياء، كقوانين إباحة اللواط، وعقد الرجل الزواج على رجل آخر كما يعقد الزواج بين الرجل والمرأة، وإباحة الزنا والربا والقمار، وإباحة المشروبات الكحولية المدمرة للفرد والمجتمع، والمسببة للضياع وفقدان الإحساس، ونحو ذلك مما تقشعر منه الفطر والعقول السليمة.

الفاشية:

قلنا: عرفنا الديمقراطية وأوزارها.. فما غيرها.

قال: الفاشية(1).

قلنا: ما الفاشية؟

1() يطلق مصطلح (فاشية) لكل نظام حكم، أو مفهوم سياسي، يشبه حكم بنيتو موسوليني، وأدولف هتلر وسياساتهما.. فقد قامت حكومتان فاشيتان في كل من إيطاليا، بقيادة موسوليني من سنة 1922م إلى سنة 1943م، وفي ألمانيا بقيادة هتلر من سنة 1933م إلى سنة 1945م.

قــال: هي الصــورة الفاضــحة للديمقراطيــة والميكافيليــة والعلمانية.. إنها شكل من أشكال الحكومات التي يرأسـها دكتـاتور يسيطر على الحكومـة سـيطرة تامـة، ويسـيطر معهـا جميـع على النشاطات السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية.

وهــو يغــذي كــل ذلــك بكافــة أشــكال التطــرف الوطــني، والسياســات النازعــة للعســكرية، والتوسّــع، والغــزو واضــطهاد الأقليات.

قلنا: فكيف يسمح لهذا بالمرور؟

قـال: يسـتغل الفاشـيون ببراعـة مـا يحصـل في الدولـة من أزمات.. فهم يأتون إلى السـلطة ــ في أغلب الحـالات ــ على إثـر حدوث انهيار اقتصادي بالبلاد أو هزيمة عسـكرية أو كارثـة أخـرى.. ويكسب الحـزب الفاشـي تأييـدًا شـعبيًا لمـا يبذلـه من وعـود بأنـه سينعش الاقتصاد، وسيسترد كرامة البلاد.. وقد يسـتغل الفاشـيون خوف هذه الشعوب من الأقليات أو من شيء ما.. ونتيجة لذلك قد يستحوذ الفاشـيون على السـلطة عن طريـق انتخابـات سـلمية أو عن طريق القوة.

وبعــد أن يســتولي الحــزب الفاشــي على الســلطة، يتســلم أعضاؤه الوظائف التنفيذية والقضـائية والتشـريعية في الحكومـة.. وفي أغلب الحالات يتولى رئاسة الحكومـة شـخص واحـد ــ وغالبًـا مايكون ذا نزعة استبدادية وجاذبية لدى الجماهير.. وأحيانـاً، تتـولى قيادة الحكومة هيئة من أعضاء الحزب.. ولايسمح الفاشيون بقيـام حزب آخر أو معارضة لسياستهم.

ويـؤدي شـغف الفاشـيين بتمجيـد الوطنيـة إلى ازديـاد الـروح العسكرية.. وقد يجنحون، عندما تزداد القوات المسـلحة قـوة، إلى غزو بلاد أخرى واحتلالها.

وتسمح الفاشية، بل وتشجع النشاط الاقتصادي الخاص، ما دام يخـدم أهـداف الحكومـة.. وتحظـر الحكومـة الإضـرابات؛ حـتى لا يضطرب الإنتاج. وتحرم الفاشية النقابات العمالية وتسـتعيض عنهـا بشبكة من المنظمات في الصـناعات الكـبرى.. ويطلـق على هـذه المنظمـات الـتي تتكـون من العمـال وأصـحاب الأعمـال، اسـم

المؤسسات. لكنها تختلف عن تلك التي تنشأ في بلاد أخرى.

ويفترض في المؤسسات الفاشية أن تمثل العمال وأصحاب العمل معًا. وفي حقيقة الأمر فإن هذه المؤسسات تخضع لسيطرة الحكومة، وعن طريقها تحدد الحكومة الأجور، وساعات العمل، وأغراض الإنتاج.

والحرية الشخصية في هذا النظام مقيدة تقييدًا شديدًا، فعلى سبيل المثال، تقيد الحكومة السفر إلى البلاد الأخرى، وتحد من أي اتصال بشعوبها، وتهيمن على الصحف ووسائل الاتصال الأخرى في بلدها، وتبث الدعاية للترويج لسياساتها، وتمارس رقابة صارمة على المطبوعات لقمع الآراء المناوئة لها.. ويفرض على كل الأطفال الالتحاق بمنظمات الشباب، حيث يتدربون على المسيرات ويتعلمون المفاهيم الفاشية.. وتسحق الشرطة السرية أية مقاومة.. وقد تؤدي المعارضة إلى السجن والتعذيب والموت.

ويعتبر الفاشيون كل الشعوب الأخرى أدنى من قوميتهم التي ينتمون إليها، لذلك قد تضطهد الحكومة الفاشية أو تقتل حتى الغجر أو من ينتمون إلى أقليات أخرى.

قلنا: أليست هذه الكلمة التي كان ينادي بها (بنيتو موسوليني)؟

قال: (بنيتو موسوليني) لم يكن إلا داعية من دعاتها.. أما هي كواقع وتطبيق فقد كانت أسبق وأطول عمرا.

السلام

بعد أن ذكر لنا صاحبنا ما ذكر من أنظمة الحكم المختلفة سكت سكوتا عميقا، قطعناه بقولنا: فما غيرها؟

قال: حسبكم ما سمعتم.. لقد كان كل اسم من تلك الأسماء قنبلة نووية جثمت على كياني وكيان الملايين لتفجرنا، وتفجر معنا كل خصائص الإنسان التي جعلها الله له.

قلنا: لقد ذكرت لنا أنك حاولت التخلص من حياتك.

قال: أجل.. عندما رأيت أن حياتي أصبحت مجرد عدد يستغله

الأمراء والملوك والمستبدون ليملأوا حياة البشر ظلما وقهرا.. وعندما رأيت أن صوتي أصبح وسيلة من الوسائل التي ينفخ بها المستبدون كير استبدادهم.. عندما رأيت هذا رأيت أن كأس الموتى أحلى، وأن القبر أسلم.. فلذلك لجأت إلى ما لجأتم إليه جميعا.

قلنا: فما فعلت؟

قال: لم يصعب علي البحث عن الموت.. فقد عرفت ما تحبه الأنظمة وما تبغضه.. وعرفت أن الموت يترصد كل من تبغضه.. فلذلك رحت أصيح به.. وما أسرع أن هبت رصاصة نحوي، فأردتني.. ولست أدري هل كان من سوء حظي أو من حسنة أن الرصاصة لم تجهز علي تماما.

قلنا: كيف نجوت منها؟

قال: في غمرة جراحي، وبعد أن ظن من صوب رصاصته نحوي أنه قتلي جاءني رجل ممتلئ بالسلام والنور والصفاء، وراح يمسح على جراحي جرحا جرحا إلى أن برئت تماما.

ولم يكتف هذا الرجل الفاضل بأن يمسح على جراحي.. بل راح يملؤني بمعاني الحكومة العادلة التي أمر الله بها.. والتي مثلها الصديقون والنبيون، وسيعيد تمثيلها خلفاؤهم من الصالحين(1).

ولم يعد لي هم بعد ذلك إلا أن أكون لبنة تمهد لهذه الحكومة، وصوتا يدعمها.. وقد انتشرت في همة عجيبة.. لكني، وفي غمرة سروري وقوتي بحثت عن الرجل الذي نفخ في من الهمة ما نفخ فإذا بي أسمع أنه قد جاء لهذه البلاد ليدرأ فيها الفتنة العظيمة.. وقد قدمت لقدومه، وساقتني الأقدار إلى ما ساقتكم إليه.

قلنا: فحدثنا عن هذه الحكومة التي بعثت فيك كل هذه الهمة

1() للأسف الشديد لم يسمح الطغاة والمستبدون والظلمة الذين حكموا الأمة الإسلامية لفترات طويلة بقيام مثل هذه الحكومة الإلهية التي يعم نورها وعدلها الأرض جميعا، ولكن ذلك لا يعني عدم قيامها، فالله وعد بذلك.. والأسف الأخطر من هذا هو على من يشوه هذه الحكومة العادلة بنسبة تطبيقها في الواقع التاريخي الإسلامي حرصا على التاريخ وعلى الحكام الظلمة الذين حالوا بين الأمة وبين الدولة التي أرادها الله لهم.

مع أنك لم ترها.

قال: سيطول بي الحديث لو حدثتكم عنها(1)..

قلنا: لا مناص لنا من الحديث عنها.

قال: هي حكومة تقوم على أربعة أسس: الدستور، والحاكم، والرعية، والتنظيمات.

الدستور:

قلنا: فحدثنا عن الدستور.

قال: لقد سألت عن هذا صاحبي المسلم الممتلئ بالسلام، وقد ذكر لي أن النظام السياسي في الإسلام يختلف عن كل الأنظمة في نقطة مهمة وخطيرة غفلت عنها كل الأنظمة، بل هناك من راح يحاربها أو يشوهها.

سألته عنها، فقال: إنه نظام ينطلق من أن العباد عباد الله.. ولا يحق لأحد أن يحكمهم إلا ربهم الذي خلقهم.. ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ (الأنعام: من الآية57).. :﴿ وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص:70).. :﴿ وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (القصص:88)

وربهم الذي خلقهم أنزل عليهم بفضله وكرمه ورحمته ما يدلهم على مراضيه ليجعلوه دستور حياتهم الذي عليه تقام، وبه تستقر، فلا يحق لأحد أن يتجاوزه أو يقدم رأيه عليه، قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (48) وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ

1() تحدثنا عن هذا وما يرتبط به من تفاصيل في رسالة (عدالة للعالمين).. ولذلك اكتفينا هنا ببعض الأسس التي تقوم عليها النظام السياسي في الإسلام، وقد لخصناه بتصرف من الرسالة المذكورة.

اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (49) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (50) ﴾ (المائدة)

سألته: ولكن هذا الذي تنص عليه الحكومات الدينية؟

قال: لا.. الحكومات الدينية زعمت أنها تنوب عن الله.. لقد احتالت على الرعايا باسم الله لتلبي مصالحها.

قلنا: فما علاقة هذا بالدستور؟

قال: لقد سألت صاحبي عنه، فقال: أرأيت الآلات الكثيرة التي يتزاحم الناس عليها ابتغاء ما فيها من رفاه؟

قلت: ما بها؟

قال: ألست تجد معها من الدفاتر ما يوضح غرضها، ووجوه استعمالها، وأساليبه.. وكيفية تصحيح ما يقع لها من أعطاب.. وكيفية تجنب تلك الأعطاب قبل حصولها؟

قلت: أجل.. وذلك من المحاسن لا من المساوئ.

قال: أرأيت لو أن مؤسسة ما اخترعت جهازا معقدا غاية التعقيد.. وله من الاستعمالات ما لا يمكن حصره.. وكان فيه في نفس الوقت من الاستعداد للعطب ما يجعله يتأثر لأبسط المؤثرات.. ؟

قلت: إن مثل هذا الجهاز قد لا يحتاج دفترا فقط.. إنه يحتاج فوق ذلك إلى تدريب خاص لمن يمتلكه.

قال: من يقوم بذلك التدريب.. ومن يعين عليه؟

قلت: الجهة المصنعة هي الجهة المسؤولة عن ذلك.

قال: ولو قصرت الجهة؟

قلت: تقصيرها لا يغتفر.. بل تكون إساءتها بالتقصير في هذا

ناسخة لمحاسنها في صناعته.

قال: فهكذا الأمر مع صنعة الله.. الإنسـان.. بنيـان اللـه الفريـد العجيب.. إنه آلة معقدة.. بل هـو أعقـد الآلات.. ولـو جمعنـا جميـع عقول آلات الدنيا.. فلن تعدل عقل مجنون من مجانين بني آدم..

قلت: سلمت لك بهذا.. فما تريد منه؟

قـال: هـل تـرى اللـه الـرحمن الـرحيم الـذي خلـق هـذه الآلـة العجيبـة.. وأمـدها بكـل مـا تحتاجـه.. البسـيط والمعقـد.. يمكن أن يقصر في هذا، في الوقت الذي لا تقصر فيـه أبسـط المؤسسـات وأحقرها؟

سكت، فقال: ولهـذا.. فنحن المسـلمين نعتقـد أن اللـه تعـالى برحمته أرسل إلى البشـرية.. في كـل فـترة من فـترات تاريخهـا.. وفي كل أمة من أممها ما يدلها على الطريق الصحيح الذي تعبد به ربها، وتمارس به حياتها:

لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِـدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَـابَ بِـالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَـفَ فِيـهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُـوهُ مِنْ بَعْـدِ مَـا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُـوا فِيـهِ مِنَ الْحَـقِّ بِإِذْنِـهِ وَاللَّهُ يَهْـدِي مَنْ يَشَـاءُ إِلَى صِـرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ (213)﴾ (البقرة)

وقـال تعـالى عن تقصـير بـني إسـرائيل ــ باعتبـارهم نموذجـا لرسالة من رسالات الله ـ فيما أنزل إليهم من كتاب:﴿ أَلَمْ تَـرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَـابِ يُـدْعَوْنَ إِلَى كِتَـابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23) ذَلِـكَ بِـأَنَّهُمْ قَـالُوا لَنْ تَمَسَّـنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24)﴾ (آل عمران)

وقال يصفهم :﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّـحْتِ فَـإِنْ جَـاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِـطِينَ (42) وَكَيْـفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِـكَ وَمَـا

أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (43) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (44) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (45) وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (46) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (47)﴾ (المائدة)

وعلى هذا النهج والسنة الإلهية أنزل القرآن الكريم ليؤدي الوظيفة التي أدتها سائر الدساتير الإلهية، قال تعالى:﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (48) وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (49)﴾ (المائدة)

وقد سمى الله تعالى كل خلاف للمنهج الذي اختاره لعباده جاهلية، فقال :﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (50)﴾ (المائدة)

ابتسمت، وقلت: هل ترى أن الله ينزل من علياء عرشه.. ليحكم هذه الذرات التائهة المسماة (بشرية) ؟

ابتسم صاحبي، وقال: أليس الله هو الذي خلق النمل والنحل والبعوض ووحيدات الخلية، وأمدها بالفطرة السليمة التي تتيح لها أن تحيا الحياة السليمة؟

قد لا تقول بعض الديانات المحرفة بهذا.. أما تصورنا نحن المسلمين، فيقوم على هذا، فالله هو القيوم الذي يقوم به كل شيء من الخلق والأمر.. قال الله تعالى : اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) (البقرة:255)

لقد أخبرنا ربنا أن حركات النحل التي تتحركها لتصنع ذلك الشفاء الرباني العجيب لا تتحركها إلا انطلاقا من الوحي الإلهي، قال تعالى : وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(69) (النحل)

فإذا كان النحل البسيط يحتاج إلى الله في حركاته.. فكيف نستغني نحن عنه؟

قلت: لقد عرفت الله، وعرفت أنه أرفع من أن ينزل إلى عرش قيصر ليحكم بدل قيصر.. فلذلك قال لنا الكلمة: (دعوا ما لقيصر لقصير، وما لله لله)

قال: أما لقيصر لله، أم ليس لله؟

قلت: ما تقصد؟

قال: أليس البشر الذين يحكمهم قيصر عباد لله.. خلقهم الله وصورهم ووهبهم من أفضالهم ما وهبهم؟

قلت: صحيح ما تقول.

قال: فهم لله.. وليسوا لقيصر.

قلت: ولكن قيصر هو الذي يحكمهم.

قال: أرأيت لو أن رجلا سطا على بيتك.. وجلس على عرشك.. وراح يأمرك وينهاك أكنت تعتقد أن طاعته واجبة عليك لا مناص

لك منها؟

قلت: لا.. طاعتي له جريمة.. فكيف أرضى لمن سـطا علي أن يتملكني.

قال: فكذلك قيصـر.. وكـذلك كـل القياصـرة.. لقـد خلقنـا اللـه أحرارا، فرحنا نبيع حريتنا للمستبدين ليحرقونا بنيرانهم.. ثم ننسـب ذلك كله لله.

الخليفة:

قلنا: حدثتنا عن الأساس الأول.. فحدثنا عن الثاني.. فهـو الـذي تتنازع فيه الأنظمة والمذاهب وتمتلئ صراعا.

قال: لقد سألت صاحبي عنه، فقال ـ وهو يشير إلى السماء ـ : ألا ترى السماء.. وأقمارها وكواكبها ونجومها ومجراتها؟

قلت: بلى.. وما علاقتها بهذا؟

قال: ألا ترى كيـف نظم اللـه الكـون.. فـالقمر تـابع للكـوكب.. والكـوكب تـابع للنجم.. والنجم سـائر مـع المجـرة يتحـرك وفـق حركاتها.. فلا يشذ عنها ولا ينحرف.

قلت: بلى.. فما علاقة ذلك بما نحن فيه؟

قال: إن الحركات المنتظمة تستدعي نقطة مركزية أو محورا.. ولا يمكن أن تنتظم الحركات من دون ذلك.

قلت: أتقصد أن الركن الثاني هو تلك النقطة المركزية؟

قال: أجل.. فلا يكفي الدستور وحده لأكثر النـاس.. فلـذلك هم يحتاجون إلى من ينظم حياتهم وحركاتهم.

قلت: ذلك متفق عليه عنـد البشـر جميعـا.. فمـا مـيزة النظـام الإسلامي في هذا؟

قال: ميزة الإسلام في هذا أنه وضع القوانين التي تتيح لشخص ما أو لجماعة ما هذه الوظيفة الخطـيرة الـتي تتوقـف عليهـا حيـاة

الناس.

قلنا: فما هذه الضوابط؟

قال: لقد ذكر القرآن الكريم ضابطين عظيمين لذلك، تندرج ضمنهما سائر الضوابط، وذلك في قوله تعالى على لسان يوسف ﷺ: ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) (يوسف: 55)

لقد ذكر الله في هذه الآية الكريمة ضابطين عظيمين، أما أولهما، فالحفظ، وأما الثاني، فالعلم.

أما الحفظ، فيتمثل في جميع الأخلاق التي تجعل من وكلت إليه هذه المهمة لا يسعى لحظ نفسه.. بل يسعى لحفظ ما وكل به من شؤون الرعية..

وأما العلم.. فيتمثل في جميع القدرات والخبرات التي تمكنه من أداء وظيفته.. فلا يمكن أن تؤدى وظيفة من وظائف الوجود بالجهل.. فالجاهل لا ينفع نفسه، فكيف ينفع غيره؟

قلت: فأين مثل هذا الرجل.. إنه كالدرة اليتيمة.

ابتسم صاحبي، وقال: جل جناب الحق أن يخلي الأرض من أصحاب القدرات المختلفة.

قلت: فما الذي يحول بينهم وبين الوصول إلى المناصب التي هم أهل لها؟

قال: أصحاب النفوس والأهواء هم الذين يحولون بينهم وبينها.. لقد ذكر الله ذلك فقال حاكيا عن بني إسرائيل وعنصريتهم التي حالت بينهم وبين قبول الحاكم الذي رضيه الله لهم.. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً

مِنَ الْمَـــالِ قَــالَ إِنَّ اللَّهَ اصْــطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْــطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْــمِ وَاللَّهُ يُــؤْتِي مُلْكَــهُ مَنْ يَشَــاءُ وَاللَّهُ وَاسِــعٌ عَلِيمٌ (247) (البقرة)

ومع ذلك لم يقبلوا إلى أن رأوا المعجزة الـتي تـدلهم على أنـه الحاكم الذي رضيه الله لهم.

ولم يكن الأمر قاصرا على بني إسـرائيل.. فـأكثر الأمم واجهت أنبيائها الذين هم أشرف الناس وأقدر الناس على تحمل مثل هــذه المسؤوليات بالتكذيب والاحتقار لسبب بسيط كهـذا السـبب الـذي أورده القرشــيون في رفضــهم لمحمــد ﷺ.. قــال تعــالى : وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَـافِرُونَ (30) وَقَـالُوا لَـوْلَا نُـزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31) (الزخرف)

وقد رد الله عليهم هذا المنطق، فقـال : أَهُمْ يَقْسِـمُونَ رَحْمَـةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـاتٍ لِيَتَّخِـذَ بَعْضُـهُمْ بَعْضًـا سُـخْرِيًّا وَرَحْمَـةُ رَبِّكَ خَيْـرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32) (الزخرف)

وللأسف فإن ما حصل للأمم الأخرى حصل لأمتنا التي أعرضت عن الخلفاء الراشدين الهادين المهديين الـذين ارتضـاهم اللـه لهم، واستبدلت بهم ظلمة وطوغيت وملوكا شوهوا دين اللـه، وانحرفـوا به.

الرعية:

قلنا: حدثتنا عن الأساس الثاني.. فحدثنا عن الثالث..

قال: لقد سألت صاحبي عنه، فقال: الرعية.. الرعية هم الــذين يتشكل منهم نظام السياسة في الإسلام.

قلت: وفي غير الإسـلام.. فلا يمكن أن يكـون هنـاك نظـام من غير رعية.

قال: لا أقصد بالرعية الشعب المجرد عن حريـة الـرأي، وقـوة الإرادة، ونفاذ العزيمة.. بل أقصد الشعب الممتلئ بالحرية والوعي

والقـدرة على أن تكـون لـه إرادتـه الحـرة الـتي يهابهـا الحـاكم، ويحسـب لهـا حسـابها.. بـل لا يمكن للحـاكم أن يحكم الرعيـة من دونها.

قلت: تقصد الانتخاب؟

قال: لا أقصد الانتخاب وحده.. بل أقصد كـل مـا يربـط الرعيـة براعيها حتى عزله إن أرادت.

قلت: أفي الإمكان ذلك؟

قال: أجل.. بل يجب على الرعيـة أن تعمـل على عـزل راعيهـا إن أساء..

قلت: نرى أن للرعية شأنا في النظـام الإسـلامي.. فمـا هـو؟.. وما منطلقاته؟

قال: للرعية في النظام السياسي الإسلام أربع مسؤوليات(1): البيعة لمن توفرت فيه الأهلية.. والطاعة في المعروف.. والمعصية في المنكر.. وعزل من لم تتوفر فيه الأهلية.

التنظيمات:

قلنـا: فحـدثنا عن الأسـاس الرابـع الـذي يقـوم عليـه النظـام السياسي الإسلامي..

قال: لقد سألت صاحبي عنه، فقال: أرأيت لو أن رسـاما رسـم على لوحته صورة لحديقة زينها بأجمـل الزهـور والألـوان، ونسـقها تنسيقا بديعا.. لكنه تلاعب بالألوان.. فجعل أوراق الأشجار سوداء.. وجعل المياه حمراء.. وجعل الشمس خضراء؟

قلت: لا شك أن هذا رسام هازل.

قال: لا.. هو رسام جاد.. ولكنه أراد أن يبدع.. وقـد رأى أن كـل الرسامين يرسمون الأوراق خضراء، فراح يحولها إلى سوداء.

1() تحـدثنا عن هـذه المسـؤوليات بتفصـيل في رسـالة (عدالـة للعـالمين) من هـذه السلسلة.

قلت: فهذا مجنون إذن.

قال: لم تر جنونه؟

قلت: لأن الإبداع لا يكون بالتلاعب بحقائق الأشياء..

قال: ففيم يكون إذن؟

قلت: في تنسيقه واختياراته والإيحاءات التي تعبر عنها صوره..

ثم أضفت قائلا: ما تريد بكل هذا؟

قال: أريد أن أبين لك العلاقة بين التنظيمات والدستور.. فالدستور الإلهي دوره أن يبين فطر الأشياء وحقائقها حتى لا يتلاعب الساسة بها.. وأما التنظيمات، فدورها أن تجعل صورة الحياة جميلة حية ممتلئة بالسعادة.

قلت: فما علاقة هذا بالنظام السياسي الإسلامي؟

قال: كما أن الإسلام تشدد في دستوره الذي يحفظ حقائق الأشياء، فإنه في مقابل ذلك تفتح تفتحا تاما على كل ما يخدم الحياة من تنظيمات.. فالحياة لا تستقيم إلا بالتنظيمات الصالحة التي تيسر للرعية حياتها.

***

بعد أن ذكر لنا صاحبنا من أنباء النظام الإسلامي ما ذكر سألناه عن صاحبه، فقال: لقد مكثت معه فترة من الزمن يشرح لي جوانب السلام التي يختزنها الإسلام في جميع مبادئه ونظمه.. وفي اليوم الذي قررت فيه بكل قواي أن أحطم تلك الخراسانات المسلحة التي جثمت على قلبي وعقلي وحالت بيني وبين الإسلام.. في ذلك اليوم لم أر صاحبي.. فرحت أسأل عنه، وأمعن في السؤال، وقد دلني الناصحون على أنه قدم هذه البلاد، وقد قدمت لأجله، وها أنتم ترون ما أصابنا من البلاء.

وأنا لا أحزن على فوات ما فاتني من الدنيا، ولكني أحزن على تلك المبادئ العظيمة التي جاء بها الإسلام كيف تشوه هذا التشويه.

ثامنا ـ العالم

في اليوم الثامن، قام رجل منا، وقال: سأحدثكم اليـوم أنـا عن حديثي.. فاسمعوني.. وأرجو أن تصبروا على مـا سـأذكره لكم من مآس.. فأنـا لا أذكرهـا لكم إلا لأنفس عن صـدري بعض تلـك الآلام الـتي تنهشـه، وأطفئ تلـك الحرائـق العظيمـة الـتي تملأ قلـبي بالخراب..

أنا رجل كتب له أن يكون ضحية لأفكار سـوداوية كثـيرة جعلتـه تلميذا للإجرام وأستاذا من أساتذته.. ولم أكن وحدي في ذلك.. لقد كنت في أمـة من النـاس لا تفكـر إلا بالعقـل الـذي أفكـر بـه، ولا تمارس من الأساليب إلا ما أمارسه من الأساليب.

ليس عند هذا الحد تقف قصتي.. هناك جوانب مشـرقة جميلـة ختمت بها.. ولأجلها جئت إلى هذه البلاد.. ولكن الله قدر أن أصـلى ببعض النيران التي كنت أصـليها غـيري.. وأنـا راض بـذلك، مطمئن له.. لأني على حسب ما ذكـر لي النـور والطهـر والسـلام لن ألقى في حياتي إلا ثمار ما غرسته فيها.

ولكني مع ذلك متأسف أسفا لا يمكن أن يكون له حد.. لأني ما أتيت هنا إلا لأستبدل تلك الثياب الدمويـة الـتي ولـدت بهـا ونشـأت عليها وسرت في حياتي جميعا وأنا ألبسـها.. بثيـاب أخـرى ممتلئـة بالطهر والسلام والصفاء.. ثياب قد تكفر تلك الجرائم الكثيرة الـتي ارتكبتها كما ارتكبها أسلافي في حق الإنسانية.

قلنا: من أنت؟

قال: لقد تسميت بأسماء كثيرة.. فمن أسمائي نيرون.. ومنهـا شارون.. ومنها هتلر.. ومنها نابليون.. ومنهـا بـوش.. ومنهـا أسـماء كثيرة ستعرفونها عند سردي لقصتي..

قلنا: فمن أي البلاد أنت؟

قال: من كل تلك البلاد التي تصدر الإجرام، وتتعامل مع البشر كما تتعامل مع الحشرات.

قلنا: فمتى ولدت؟

قال: من قديم.. من زمن طويل.. لا أذكر اليوم بالضبط.. ولكني أذكر أنه في اليوم الذي بدأت أميز فيه قدمت لي آلاف القرابين البشرية.. وعمدت بالسباحة في دمائها..

الصراع

في ذلك الحين جاء الكاهن ورتل علي آيات كثيرة من الكتاب المقدس.. كانت أول مرة أسمع فيها بالكتاب القدس.. سأقرأ عليكم أول ما طرق سمعي منها.. ولعلكم تعذروني في ذلك التوجه المؤلم الذي توجهت إليه في حياتي.. وكيف لا أتوجه إليه.. وقد بدأ الكاهن حياتي بأن أسمعني هذه النصوص الممتلئة بالقداسة:

لقد أسمعني من سفر (حزقيال: 9 :ـ 5) قول الرب:(اعْبُرُوا فِي الْمَدِينَةِ خَلْفَهُ وَاقْتُلُوا. لاَ تَتَرَأَّفْ عُيُونُكُمْ وَلاَ تَعْفُوا. أَهْلِكُوا الشَّيْخَ وَالشَّابَّ وَالْعَذْرَاءَ وَالطِّفْلَ وَالنِّسَاءَ. وَلَكِنْ لاَ تَقْرَبُوا مِنْ أَيِّ إِنْسَانٍ عَلَيْهِ السِّمَةُ، وَابْتَدِئُوا مِنْ قُدْسِي. فَابْتَدَأُوا يُهْلِكُونَ الرِّجَالَ وَالشُّيُوخَ الْمَوْجُودِينَ أَمَامَ الْهَيْكَلِ. وَقَالَ لَهُمْ: نَجِّسُوا الْهَيْكَلَ وَامْلأُوا سَاحَاتِهِ بِالْقَتْلَى، ثُمَّ اخْرُجُوا. فَانْدَفَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ وَشَرَعُوا يَقْتُلُون)

وأسمعني من سفر (العدد: 31 :ـ 1):(وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: انْتَقِمْ مِنَ الْمِدْيَانِيِّينَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَبَعْدَهَا تَمُوتُ وَتَنْضَمُّ إِلَى قَوْمِكَ. فَقَالَ مُوسَى لِلشَّعْبِ: جَهِّزُوا مِنْكُمْ رِجَالاً مُجَنَّدِينَ لِمُحَارَبَةِ الْمِدْيَانِيِّينَ وَالانْتِقَامِ لِلرَّبِّ مِنْهُمْ.. فَحَارَبُوا الْمِدْيَانِيِّينَ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ وَقَتَلُوا كُلَّ ذَكَرٍ؛ وَقَتَلُوا مَعَهُمْ مُلُوكَهُمُ الْخَمْسَةَ: أَوِيَ وَرَاقِمَ وَصُورَ وَحُورَ وَرَابِعَ، كَمَا قَتَلُوا بَلْعَامَ بْنَ بَعُورَ بِحَدِّ السَّيْفِ. وَأَسَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ نِسَاءَ الْمِدْيَانِيِّينَ وَأَطْفَالَهُمْ، وَغَنِمُوا جَمِيعَ بَهَائِمِهِمْ وَمَوَاشِيهِمْ وَسَائِرَ أَمْلاَكِهِمْ، وَأَحْرَقُوا مُدُنَهُمْ كُلَّهَا بِمَسَاكِنِهَا وَحُصُونِهَا، وَاسْتَوْلَوْا عَلَى كُلِّ الْغَنَائِمِ وَالأَسْلاَبِ مِنَ النَّاسِ وَالْحَيَوَانِ.. فَخَرَجَ مُوسَى وَأَلِعَازَارُ وَكُلُّ قَادَةِ إِسْرَائِيلَ لاِسْتِقْبَالِهِمْ إِلَى خَارِجِ الْمُخَيَّمِ، فَأَبْدَى مُوسَى سَخَطَهُ عَلَى قَادَةِ الْجَيْشِ مِنْ رُؤَسَاءِ الأُلُوفِ وَرُؤَسَاءِ الْمِئَاتِ الْقَادِمِينَ مِنَ الْحَرْبِ، وَقَالَ لَهُمْ: لِمَاذَا اسْتَحْيَيْتُمُ النِّسَاءَ؟ إِنَّهُنَّ بِاتِّبَاعِهِنَّ نَصِيحَةَ بَلْعَامَ أَغْوَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِعِبَادَةِ فَغُورَ، وَكُنَّ سَبَبَ خِيَانَةٍ لِلرَّبِّ،

فَتَفَشَّى الْوَبَأُ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ. فَالآنَ اقْتُلُوا كُلَّ ذَكَرٍ مِنَ الأَطْفَالِ، وَاقْتُلُوا أَيْضاً كُلَّ امْرَأَةٍ ضَاجَعَتْ رَجُلاً، وَلَكِنِ اسْتَحْيَوْا لَكُمْ كُلَّ عَذْرَاءَ لَمْ تُضَاجِعْ رَجُلاً)

وأسمعني من سفر (يشوع: 6 :ـ 16):(قَالَ يَشُوعُ لِلشَّعْبِ: اهْتِفُوا، لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ وَهَبَكُمُ الْمَدِينَةَ. وَاجْعَلُوا الْمَدِينَةَ وَكُلَّ مَا فِيهَا مُحَرَّماً لِلرَّبِّ.. أَمَّا كُلُّ غَنَائِمِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ وَآنِيَةِ النُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ، فَتُخَصَّصُ لِلرَّبِّ وَتُحْفَظُ فِي خِزَانَتِهِ. فَهَتَفَ الشَّعْبُ، وَنَفَخَ الْكَهَنَةُ فِي الأَبْوَاقِ. وَكَانَ هُتَافُ الشَّعْبِ لَدَى سَمَاعِهِمْ صَوْتَ نَفْخِ الأَبْوَاقِ عَظِيماً، فَانْهَارَ السُّورُ فِي مَوْضِعِهِ. فَانْدَفَعَ الشَّعْبُ نَحْوَ الْمَدِينَةِ كُلٌّ إِلَى وِجْهَتِهِ، وَاسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا. وَدَمَّرُوا الْمَدِينَةَ وَقَضَوْا بِحَدِّ السَّيْفِ عَلَى كُلِّ مَنْ فِيهَا مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ وَأَطْفَالٍ وَشُيُوخٍ حَتَّى الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالْحَمِيرِ)

وأسمعني من سفر (هوشع: 13 :ـ 16) قول الرب :(تجازى السامرة لأنها تمردت على إلهها، بالسيف يسقطون، تحطم أطفالهم، والحوامل تشق)

وأسمعني من سفر (إشعيا: 13 :ـ 16) قول الرب :(وتحطم أطفالهم أمام عيونهم وتنهب بيوتهم وتفضح نساؤهم)

وأسمعني من سفر (التثنية:20 :ـ 10) قول الرب :(حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها الى الصلح. فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب الهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا)

وأسمعني قول بولس في رسالته إلى العبرانيين (12 ـ 29): (لأن إلهنا ناراً آكلة)

وأسمعني ما جاء في مزمور (94 :ـ 1):(يا إله النقمات : يا رب. يا إله النقمات)

وأسمعني من سفر (الخروج: 3/18-21) قول الرب لموسى : (تدخل أَنْتَ وَشُيُوخُ إِسْرَائِيلَ أَمَامَ مَلِكِ مِصْرَ وَتَقُولُ لَهُ: إِنَّ الرَّبَّ إِلَهَ الْعِبْرَانِيِّينَ قَدْ تَفَقَّدَنَا، فَدَعْنَا نَمْضِي مَسِيرَةَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ فِي الْبَرِّيَّةِ وَنُقَدِّمُ ذَبَائِحَ لِلرَّبِّ إِلَهِنَا. وَلَكِنَّنِي عَالِمٌ أَنَّ مَلِكَ مِصْرَ لَنْ يُطْلِقَكُمْ مَا لَمْ تُرْغِمْهُ يَدٌ قَوِيَّةٌ. فَأَمُدُّ يَدِي وَأَضْرِبُ مِصْرَ بِجَمِيعِ وَيْلاَتِي الَّتِي أَصْنَعُهَا فِيهَا، وَبَعْدَ ذَلِكَ يُطْلِقُكُمْ. وَأَجْعَلُ هَذَا الشَّعْبَ يَحْظَى بِرِضَى الْمِصْرِيِّينَ، فَلاَ تَخْرُجُونَ فَارِغِينَ حِينَ تَمْضُونَ، بَلْ تَطْلُبُ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْ جَارَتِهَا أَوْ نَزِيلَةِ بَيْتِهَا جَوَاهِرَ فِضَّةٍ وَذَهَبٍ وَثِيَاباً تُلْبِسُونَهَا بَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ فَتَغْنَمُونَ ذَلِكَ مِنَ الْمِصْرِيِّينَ)

وأسمعني من سفر (الخروج: 12/34-36):(فَصَرَّ الشَّعْبُ فِي ثِيَابِهِمْ مَعَاجِنَهُمْ وَعَجِينَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَخْتَمِرَ، وَحَمَلُوهَا عَلَى أَكْتَافِهِمْ، وَطَلَبُوا مِنَ الْمِصْرِيِّينَ آنِيَةَ فِضَّةٍ وَذَهَباً وَثِيَاباً بِحَسَبِ قَوْلِ مُوسَى. وَجَعَلَ الرَّبُّ الشَّعْبَ يَحْظَى بِرِضَى الْمِصْرِيِّينَ، فَأَعْطَوْهُمْ كُلَّ مَا طَلَبُوهُ، فَغَنِمُوا مِنَ الْمِصْرِيِّينَ)

وأسمعني من سفر (التثنية 20 : 16):(أما مُدُنُ الشُّعُوبِ الَّتِي يَهَبُهَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ لَكُمْ مِيرَاثاً فَلاَ تَسْتَبْقُوا فِيهَا نَسَمَةً حَيَّةً، بَلْ دَمِّرُوهَا عَنْ بِكْرَةِ أَبِيهَا، كَمُدُنِ الْحِثِّيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ كَمَا أَمَرَكُمُ الرَّبُّ إِلَهُكُمْ)

وأسمعني من سفر (صموئيل الأول: 15 : 3):(وَقَالَ صَمُوئِيلُ لِشَاوُلَ: أَنَا الَّذِي أَرْسَلَنِي الرَّبُّ لأَنْصِّبَكَ مَلِكاً عَلَى إِسْرَائِيلَ، فَاسْمَعِ الآنَ كَلاَمَ الرَّبِّ. هَذَا مَا يَقُولُهُ رَبُّ الْجُنُودِ: إِنِّي مُزْمِعٌ أَنْ أُعَاقِبَ عَمَالِيقَ جَزَاءَ مَا ارْتَكَبَهُ فِي حَقِّ الإِسْرَائِيلِيِّينَ حِينَ تَصَدَّى لَهُمْ فِي الطَّرِيقِ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ. فَاذْهَبِ الآنَ وَهَاجِمْ عَمَالِيقَ وَاقْضِ عَلَى كُلِّ مَالَهُ. لاَ تَعْفُ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ بَلِ اقْتُلْهُمْ جَمِيعاً رِجَالاً وَنِسَاءً، وَأَطْفَالاً وَرُضَّعاً، بَقَراً وَغَنَماً، جِمَالاً وَحَمِيراً)

قلنا: فما أورثتك هذه الآيات المقدسة؟

قال: لقد أورثتني سبعة خلال.. كانت حياتي كلها ممتلئة بها.. إلى أن لقيت النور والسلام والصفاء..

***

الحروب:

قلنا: فما أولها؟

قال: حب الحروب..

قلنا: حب الحروب!؟

قال: أجل.. لقد صرت عاشقا للحـروب.. لا يرتـاح لي جفن إلا إذا سـمعت أصـوات المـدافع والرصـاص.. حـتى أني.. وإلى فـترة قريبــة.. كنت آتي بــالمتفجرات لأنــام على أصــواتها.. لقــد كــانت أصوات المتفجرات هي الصوت الذي يملؤني بالراحة والطمأنينة.

قلنا: ولكن الحروب لا تجلب إلا الدماء؟

قال: وقد كنت أحب الدماء.. بل لم يكن حــبي للمتفجــرات إلا لكون المتفجرات هي السبب الأكبر لكثرة الدماء..

لقــد حضـرت الحــرب العالميــة الأولى، وتلـذذت بـدماء القتلى الـذين بلـغ عـددهم (22) مليونـا.. بالإضـافة إلى أعـداد كثـيرة من الجرحى سالت منهم دماء كثيرة لكني لم أكن أكتفي بهـا.. لم يكن يكفيني إلا دماء القتلى.

لذلك، وبعد سنوات قليلة شاركت في الحــرب العالميــة الثانيــة والتهمت دماء ما يزيد على (70) مليونا.

ليس هذا فقط ما شربت من دماء.. هناك دماء كثــيرة.. كثــيرة جدا.. أكثر مما تتصورون..

لقد شربت مع صديقتي المفضلة بريطانيـا العظمى دمـاء أكـثر من عشرين مليونا من دماء الصينيين الذين رفضوا أن يضعوا التاج على رأس هذه الصديقة المفضلة..

وعندما اندلعت الحرب العنيفة في الهنـد الصـينية بين شـطري فيتنام واسـتمرت لمـدة ثلاثين عامـاً، شـربت دمـاء أكـثر من ثلاثـة ملايين ومــائتي ألــف قتيــل (3.200.000) بين مــدني وعســكري، وسبعة ملايين وأربعمائة وثلاثة وخمسين ألف جريح (7.453.000)

بين مدني وعسكري، وأربعمائة ألف عاجز (400.000).

وعندما ألقى الطيران الأميركي من سنة 1961 إلى سنة 1972م زهاء ستة ملايين وسبعمائة وسبعة وعشرين ألف طن من القنابل (6.727.000) على منطقة الهند الصينية شربت دماء كثيرة.. كثيرة جدا.. لا يمكن إحصاؤها.

وعندما ألقت الطائرات الأميركية واحد وسبعين مليون لتراً من المواد الكيمياوية السامة على منطقة في جنوب فيتنام توازي مساحة إيرلندا الشمالية شربت دماء كثيرة.. كثيرة جدا.. لا يمكن إحصاؤها.

وهكذا في كل الحروب التي كانت تشتعل في أي منطقة من مناطق العالم.. كنت أسرع، وأحمل ملعقتي وجميع الوسائل التي أبدعنا في صناعتها لأغترف من تلك الدماء ما يملؤني بالمسرة.

الاستعلاء:

قلنا: عرفنا الأول.. فما الثاني؟

قال: الاستعلاء.. الكبرياء.. التضخم..

قلنا: ما علاقة هذا بالدماء، وبحبك للدماء.. وبالكتاب المقدس بعد ذلك؟

قال: كل ذلك مترابط.. كل ذلك سلسلة يؤدي بعضها إلى بعض.. ربما يوجد في السلسلة بعض الخيوط الخفية.. لكن الحقيقة هي أن كل هذه الحلقات مترابطة تشكل جميعا سلسلة واحدة.

قلنا: فأظهر لنا ما خفي من هذه الخطوط.

قال: أنتم تعلمون أن الكتاب المقدس يعتبر اليهود شعب الله المختار.. وأنهم جنس أرقى من غيرهم من الأجناس؟

قلنا: نعلم ذلك.

قال: ولذلك أتاح الرب لهذا الشعب ــ على حسب الكتاب

المقدس ـ أن يبيد كل الأغيار.. ويقضي عليهم بلا رأفة ولا رحمة.

قلنا: ذلك صحيح.. وما قرأته من الكتاب المقـدس يـدل عليـه.. ولكن ذلك ـ على حسب الكتاب المقدس ـ خـاص بـاليهود، فكيـف انتقل إلى غيرهم؟

قال: ألا تعرفون المنطق؟

قلنا: نعرفه.

قال: فمنطقوا هذه القضية لتعرفوا الحلقة المفقودة.

قلنا: منطق لنا أنت.

قال: لقد أعطتني المقـدمات الـتي ذكرتهـا لكم نتيجـة مهمـة.. كانت حياتي وحروبي كلها متوجهة إليها.

قلنا: ما هي؟

قال: الاستعلاء.. لقد صرت أشعر ـ بأسـباب كثـيرة ــ أنـني من الجنس الأعلى.. من الدم الأرقى.. وقد أشعرني هـذا الشـعور بـأن غيري أغيار.. وانطلاقا من تلك المقدمات رحت بكل مــا أوتيت من قوة أسعى لمحو الغير واستئصاله والتلاعب به..

ولست وحدي في ذلك.. كل تاريخنا كـان يمثلـني.. كـان يمثـل وقاحتي وكبريائي وتضخمي.

لقــد ذكــر بعضــهم هــذا الاســتنتاج، فقــال في مقالــه بعنــوان (الأنجلوسكســونية عقــده المحوريــة وفلســفة التفــوق):(كــانت مطاردة مهاجري أوروبا للهنود الحمر في العالم الجديـد الأمــريكي مشـابهة لمـا جـاءت بـه التـوراة في مطـاردة العـبريين القـدماء للكنعانيين في فلسطين حسـب إدعـائهم، وقـد أوجـد التشـابه في هذه التجربة قناعة وفلسفة ووجدانا متشابها ومشـتركا بين الكيـان الصهيوني والولايات المتحدة الأمريكية في العصر الحديث)

ســكت قليلا، ثم قــال: لكــني لشــراهتي للــدماء لم يكفــني الاستعلاء الذي عمقه في نفسي البعد الديني.. ولـذلك رحت أبحث في العلوم والفلسفات عما يعمق هـذا الاسـتعلاء الـذي امتلأت بـه

نفسي.

قلنا: فهل وجدت فيها ما يرضيك؟

قال: أجل.. فما أسهل أن تطوعـوا العلم لمـا تشـاءون.. فقـط عرفوا الباحثين ما تريدون أن تستنتجوه.. وأنيلوهم ما يملأ نفوسهم الشرهة.. وسترونهم يخضعون لكم كل الخضـوع، ويفيـدونكم بكـل ما تريدون.

قلنا: فحدثنا عن النتائج التي خرج بها هؤلاء الباحثون.

قال[1]: لقد اعتـبر هـؤلاء البـاحثون ــ بـوحي منـا ــ الأسـاس البيولوجي العرْقي أساساً وحيداً وأكيداً لتصنيف البشر.. وتم المزج بين هذه النظرية شبه العلميـة، ونظريـة أخـرى شـبه علميـة وهي الداروينيــة الاجتماعيــة، وكــانت الثمــرة هي النظريــة الغربيــة في التفاوت بين الأعراق ذات الطابع الدارويني.

وهذه النظرية (شبه العلمية!؟) تُقسِّم الجنس البشـري بأسـره إلى أعراق.. لكلٍ منها سماته التي يمكن تحديـدها علميـاً.. ومن ثم يمكن تصنيف البشر إلى أعراق راقيـة عليـا.. وهم على الخصـوص الآريون[2]، وبخاصة النورديون.. وأعراق دنيا: وهم الزنوج والعرب

---

[1] () انظر (الموسوعة اليهودية) للمسيري.

[2] ()كلمة آريانAryan، أي (آري)، مشتقة من اللغة السنسكريتية ومعناها (سـيِّد)، وقـد استُخدم المصطلح في بداية الأمر للإشارة إلى مجموعة من اللغـات الإيرانيـة ثم الهنديـة الأوربية، إذ طرح العالم الألماني ماكس مولر (1823 ـ 1900) نظرية مفادهـا أن هنـاك جنساً يُسمَّى (آرياس) كان يتحدث اللغة الهندية الأوربية التي تفرعت عنها اللغات الهندية الأوربية الأخرى جميعاً ابتداءً بالهندوستانية وانتهاء بالإنجليزية.

كما استُخدم المصطلح للإشارة إلى الشعوب الهندية الأوربية التي انتشرت في جنوب آسيا وشمال الهند في العصور القديمة. وكان جوزيـف جوبينـو (1816 ــ1882) من أهم المفكرين الذين أشاعوا هذه الفكرة، فكان عادةً ما يضع الآريين مقابل السـاميين، وكـان ثمة تَرادُف مُفترَض بين الآرية والهيلينية مقابل السامية.

وقام المفكرون العرْقيون الغربيون بتطوير المفهوم فذهبوا إلى أن هــذا الجنس الآري انتشـر من شـمال الهنـد وإيـران عـبر الإسـتبس، إلى أوربـا، وهـو جنس يتسـم ــ حسـب نظريتهم ـ بالجمال والذكاء والشجاعة وعمق التفكير والمقـدرة على التنظيم السياسـي، وبأنــه المؤســس الحقيقي للحضــارة وبتفوقــه على الســاميين والصــفر والســود. ونبــه هيوسـتون ســتيوارت تشــامبرلين (1855 ـ 1927) إلى أن النـورديين هم أرقى الآريين، فهم الجنس السيد، أما اليهود والسود والعرب فيشـغلون أدنى درجـات السـلم العـرْقي.

واليهود.

قلنا: واليهود!؟.. ألم تكن تزعم أنهم شعب الله المختار؟

قال: لقد كانت كبرياؤهم هي السبب في وضعهم في هذا المحل.. لقد حفروا حفرة الكبرياء في العقيدة المسيحية.. فسقطوا في تلك الحفرة.. وأسقطوا معهم كثيرا من الشعوب.

قلنا: فما نتيجة هذا التفريق بين الأدنى والأعلى؟

قال: لقد اعتبر هؤلاء الباحثون بوحي منا العنصر الآري الأبيض متفوقا على كل الشعوب الأخرى.. وهذا التفوق ليس له جانت نظري فقط.. بل له جانت عملي خطير.

قلنا: ما هو؟

قال: لقد أعطوا هذا العرق المختار من الحقوق ما يتجاوز أية منظومات قيمية، وأي حديث عن المساواة.

وقد ذهب هؤلاء الباحثون إلى أبعد من ذلك حين أثبتوا ـ بالوسائل الشبيهة بوسائل العلم ـ أن التزاوج بين أعضاء الأجناس المختلفة يؤدي إلى تدهور العرْق الأسمى الذي يجب أن يحتفظ بنفسه قوياً نقياً حتى يضمن لنفسه البقاء والتماسك العضوي.

وقد كان من الطبيعي بعد هذا أن يصنف أعضاء الأجناس الأدنى باعتبارهم غير نافعين من منظور المطلق العرْقي لأنهم خطر على تماسك العرْق وعلى تجانسه، وعدم التماسك يؤذي المصلحة العليا للدولة، لأن التماسك يؤدي إلى زيادة الكفاءة الإنتاجية، وإلى زيادة قوة الدولة في مقدرتها على البقاء والانتشار والهيمنة.

لقد أثمرت هذه الأفكار كثيرا من المرارات الذي صلي بشر كثير بنارها:

منها أن ذات الدولة تعاظمت.. بل تحولت إلى مقدس.. بل إلى إله.. لا يجوز مسه بأي حال من الأحوال.. بل أصبح الدفاع عن

انظر (الموسوعة اليهودية) للمسيري.

مصلحة الدولة القومية.. ظالمة كانت أم مظلومة.. مسألة لا تقبل النقاش، لا تخضع لأي معيارية.. واعتبر الانحراف عن هذا الهدف النهائي المطلق خيانة العظمى.. وليس لها من عقوبة إلا الإعدام.

ومنها أن مؤسسات بيروقراطية قوية.. حكومية وغير حكومية.. تولت كثيراً من الوظائف التي كانت تتولاها الأسرة في الماضي، وتقوم بعملية الاختيار بالنيابة عن الإنسان الفرد، الأمر الذي زاد في ضمور الحس الخلقي وانكماش رقعة الحياة الخاصة.

وهذه المؤسسات البديلة صارت ترى نفسها ذاتاً مطلقةً تُعبِّر عن مصلحة الدولة.. والتي هي بدورها تُعبِّر عن إرادة الشعب.. وقد جعلت جل همها أن تنفِّذ المطلوب منها تنفيذه بأقل التكاليف وأكثر الوسائل كفاءة، دون أن تأخذ أية اعتبارات خُلقية.

ومنها تزايد معدلات التجريد في المجتمع.. لاشك أنكم لا تعرفون هذا المصطلح.. إنه لا يعني ذلك الذي يريده الصوفية من التجرد لله.. بل هو يعني التجرد لتلك المؤسسات التي لا تعرف القيم ولا تؤمن بها.

لقد نجحت عمليات التجريد المتزايدة في جعل القيمة الأخلاقية شيئاً بعيداً للغاية لا علاقة له بفعل الإنسان المباشر.. سأضرب لكم مثلاً على ذلك من صناعة الأسلحة الكيماوية الفتاكة.. ففي صناعة هذا النوع من الأسلحة الخطيرة ــ كما في غيرها كثير ــ تُقسَّم عملية إنتاج المبيد البشري إلى عدة وظائف صغيرة، كل وظيفة تُشكِّل حلقة تؤدي إلى ما بعدها وحسب.. ولأنها مجرد حلقة، فهي محايدة تماماً ولا معنى لها، إذ لا يوجد أي مضمون خلقي لعملية إضافة محلول لآخر.. ومن ثم، تظل النهاية الأخلاقية، والتي هي حرق البشر وإبادتهم بعيدة للغاية.. والعامل أو الموظف المسئول عن هذه الحلقة سيبذل قصارى جهده في أداء عمله الموكل إليه دون أية أعباء أخلاقية، ومن ثم تستمر الآلة الجهنمية في الدوران من خلال الحلقات والتروس، ولا يتحمل أي شخص مسئولية إبادة البشر، إذ أن مسئولية العامل أو الموظف مسئولية فنية وليست مسئولية أخلاقية.

أستطيع أن أقول لكم بأن ما تم إنجازه في الحضارة الغربية

الحديثة هو القضاء على الشخصية التقليدية ذات الولاء لمطلق خُلقي ثابت يتجاوز عالم المادة والتاريخ، وحلَّت محلها الشخصية الحركية المتغيرة والمتقلبة مع حركة المادة، والتي لا ولاء عندها لأية ثوابت أو مطلقات والمتحررة من أية قيم أو غائية، فهي تعيش في عالم الواحدية المادية المعقم من القيم المتجاوزة.

هذه الشخصية يمكن أن تتبدَّى من خلال إمبريالية داروينية مليئة باليقينية العلمية توظِّف الكون والإنسان لصالحها، ويمكن لها أن تتبدَّى من خلال إذعان أداتي فتصبح شخصية نمطية تعاقدية برجماتية ذات بُعد واحد، تستبطن تماماً النماذج السائدة في المجتمع والتي تروجها الأجهزة الأمنية للمجتمع وضمن ذلك الإعلام، وهي شخصية نسبية هزيلة مهتزة لا تثق في ذاتها ولا رؤيتها ولا هويتها ولا منظوماتها، ولذا يتحدد تَوجُّهها حسب ما يصدر لها من أوامر تأتي لها من عل، ويتحدد ولاؤها استناداً إلى المصلحة المادية المتغيرة التي يتم تعريفها مدنياً وقومياً وعلمياً وموضوعياً من خلال الجهات المسئولة واللجان المتخصصة والسوبرمن، ومن ثم يمكنها أن تطيع الأوامر البرانية وتنفذ التعليمات بدقة متناهية. وهي شخصية ذات عقل أداتي لا تفكر في الغايات وإنما في الوسائل والإجراءات وحسب، وفي أحسن السبل لإنجاز ما أوكل لها من مهام دون تساؤل عن مضمونها الأخلاقي أو هدفها الإنساني.

وحينما ظهر هذا النوع من الشخصية، أصبح من الممكن أن تقرر الدولة وأعضاء النخبة إبادة عناصر تراها غير نافعة في المجتمع أو في وطن آخر أو قارة بأسرها.

ولم يعد هذا ـ بهذه الاعتبارات ـ جريمة، إذ لا توجد قوانين مطلقة خارجة عن الدولة، أو هي ـ بتعبير آخر ـ جريمة قانونية مشروعة تكتسب مشروعيتها من أن الدولة توافق عليها وتباركها، بل تشجع عليهقال:، وتضرب على يد كل من يعارضها أو يحجم عن اقترافها.

لقد أثمر كل هذا وجود مؤسسات متخصصة لتنفيذ الجريمة، وهي مؤسسات بيروقراطية منفصلة عن القيمة، تتجاوز الخير والشر، ولا تسأل عن السبب وإنما عن الوسيلة، والعاملون في

مثل هذه المؤسسات لا يتخذون قرار قتل الأطفال، على سبيل المثال، بأنفسهم، ولا ينفذون جريمة القتل بأيديهم فاللجان المتخصصة التي تضم السوبرمن تجتمع على أعلى مستوى وتناقش المسألة بطريقة علمية وبيروقراطية وفي لغة محايدة وتتخذ القرارات في ضوء ما تراه هي الصالح العام. ثم يصدر الأمر في نهاية الأمر، لا بالقتل أو التصفية الجسدية وإنما بالقيام بعمليات (التطهير العِرْقي) أو (الحل النهائي) أو خدمة (مصلحة الدولة العليا). ثم يُقسَّم القرار إلى مئات التفاصيل التي يقوم بها آلاف الموظفين التنفيذيين من الجنود والعمال والفلاحين والمهنيين الذين لن يشعروا بهذا الطفل الذي سيُقتَل في غابات فيتنام أو في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين أو في معسكرات الاعتقال النازية.

قلنا: والضمير الخلقي.. ألا يمكن أن يتكلم؟

قال: ربما.. ولكن هذه الحضارة اللعينة عملت الإنسان كيف يسكت ضميره.. لقد أعطته من الآليات ما يجعله قادراً على إسكات حسه الخُلقي.. فالإنسان الحديث أصبح بوسعه، بحسه العملي، ومن خلال الحسابات الرشيدة والتسويغ العلمي الموضوعي المحايد الصارم والنسبية الكاملة التي تجعل الأمور متساوية، تبرير أي شيء وقبول أي وضع، فتمكن التضحية بالجزء في سبيل الكل، والأقلية في سبيل الأغلبية، والمرضى في سبيل الأصحاء، والعجزة في سبيل الشباب. ومع سيطرة حب البقاء، باعتبار أن البقاء قيمة مطلقة، فإن الجميع يمكن أن يتعاونوا مع الدولة من قبيل تقليل الخسائر.. إذ لا توجد قيم مطلقة أو مرجعية متجاوزة يمكن للفرد أن يؤمن بها ويموت من أجلها ويحاكم البشر والأمم كافة من منظورها.. ثم تتكفل المؤسسات الإعلامية للدولة بتصفية كل ما تبقى من أحاسيس إنسانية أو أخلاقية متخلفة.

قلنا: إن ما تطرحه من فلسفة خطير.. فهل وقع في تاريخنا ما يؤكد ذلك؟

قال: ليس ما أطرحه فلسفة.. هو واقع.. واقع مرير عشته.. لقد شربت من الدماء تحت ظل الاستعلاء ما لم أشرب مثله في حياتي جميعا.

لقد حَوَّلنا أنفسنا.. نحن الإنسان الغربي.. إلى سوبرمان له حقوق مطلقة تتجاوز الخير والشر، ومن أهمها حق الاستيلاء على العالم وتحويله إلى مجال حيوي لحركتنا ونشاطنا، وتحويل العالم بأسره إلى مادة خام، طبيعية أو بشرية.

ومن هذا المنطلق اعتبرنا شعوب آسيا وإفريقيا الصفراء والسوداء المتخلفة مجرد مادة بشرية تُوظَّف في خدمتنا، كما اعتبرنا العالم مجرد مادة طبيعية تُوظَّف في خدمة دول أوربا وشعوبها البيضاء المتقدمة، واعتبرنا الكرة الأرضية مجرد مجال حيوي لنا نصدِّر مشاكلنا له.. بل لم تفرق الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية الشاملة في نهاية الأمر بين شعوب آسيا وأفريقيا وشعوب العالم الغربي، فالجميع مادة بشرية، نافعة أو غير نافعة، ضرورية أو فائضة.. فكان العمال يُنظر لهم باعتبارهم مادة بشرية نافعة، ومصدراً لفائض القيمة، أما المتعطلون فهم مادة بشرية فائضة. وصُنِّف المجرمون (وفي مرحلة أخرى، المعوقون والمسنون) مادةً بشريةً غير نافعة. وهذه المادة يجب أن (تُعالج)، وكانت الوسيلة الأساسية للمعالجة هي تصدير المادة البشرية الفائضة إلى مكان آخر لتحويلها إلى مادة نافعة إن أمكن (مع عدم استبعاد (الحلول الأخرى) إن استلزم الأمر)

الاستعباد:

قلنا: فما الثالث؟

قال: الاستعباد.

قلنا: الاستعباد !؟.. لقد ألغت أمتنا الاستعباد.. ذلك الذي شرعه الإسلام(1).

نظر إلينا بحزن، وقال: لا شك أنكم لا زلتم خاضعين لتلك المخدرات التي خدرنا بها قومنا.

1() انظر بتفصيل الموقف الإسلامي من الرق، والمعاملات الرحيمة التي شرعها تجاه الرقيق في رسالة (رحمة للعالمين) من هذه السلسلة.. ونحب أن نذكر هنا فقط بأن ما حصل في التاريخ الإسلامي من مآس حول الرقيق لا يتحمله الإسلام الإلهي، وإنما هو نتاج للإسلام البشري الذي اجتمع على تأسيسه الحكام الظلمة وعلماء السوء.

قلنا: ما تقول؟

قال: لقد أخطأتم خطأين.. أما الخطأ الأول، فهو إلغاء أمتنا للاستعباد.. وأما الخطأ الثاني، فتشريع الإسلام له..

قلنا: هذا ما نعلمه.. ويعلمه كل الناس.

قال: لقد كنت أقول ذلك.. ولكني عندما عرفت الحقيقة من مصدرها عرفت أن قومنا أقسى قلوبا من يقوموا بعمل جليل كإلغاء الرق، وعرفت أن الإسلام أعظم رحمة من أن يشرعه.

قلنا: كيف؟.. لقد ورد في النصوص المقدسة للمسلمين الكثير من النصوص التي تتحدث عن الرق.

قال: قارنوا تلك النصوص بما أسمعني الكاهن من النصوص.

لقد قرأت في كتاب المسلمين، فلم أجد حرفا واحدا يدعو إلى استعباد الإنسان للإنسان.. بل وجدته جميعا يدعو إلى تحرير الرقاب، وإلغاء الرق، ويعتبر ذلك من قمم العبودية.. لقد قرأت فيه: ﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ (البلد:10 ـ 13)

وقرأت فيه ترتيبه الكفارات على الذنوب التي تعم بها البلوى على تحرير الرقاب..

وقرأت فيه الأمر بالإحسان إلى الرقيق والتعامل الإنساني معهم..

لكن الكاهن الذي لقنني الكتاب المقدس لم يلقني كلمة واحدة تحوي هذه المعاني الجليلة.. بل عكس ذلك لم أجد في الكتاب المقدس إلا أمر الرقيق بالخضوع التام لأسيادهم..

لقد لقنني ما ورد في (أفسس 6 عدد5):(أيها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح)

ولقنني ما في (لوقا:12 عدد45):(ولكن أن قال ذلك العبد في قلبه سيدي يبطئ قدومه.فيبتدئ يضرب الغلمان والجواري

ويأكل ويشرب ويسكر)

ولقنني ما في (لوقا 12 عدد47):(وأما ذلك العبد الذي يعلم إرادة سيده ولا يستعد ولا يفعل بحسب إرادته فيضرب كثيرا)

ولقنني ما في (خروج:20 عدد17):(لا تشته بيت قريبك..لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا مما لقريبك)

ثم علمني ــ بتفصيل ممل ــ ما ورد في سفر التثنية من الشريعة التي أوحى بها الرب إلى موسى فيما يتعلق بالسبي والنساء السراري.. ولا يزال يعلق بذهني إلى الآن ما جاء في (التثنية 21 عدد10-14):(إذا خرجت لمحاربة أعدائك ودفعهم الرب إلهك إلى يدك وسبيت منهم سبيا ورأيت في السبي امرأة جميلة الصورة والتصقت بها واتخذتها لك زوجة (12) فحين تدخلها إلى بيتك تحلق رأسها وتقلم أظفارها وتنزع ثياب سبيها عنها وتقعد في بيتك وتبكي أباها وأمها شهرا من الزمان ثم بعد ذلك تدخل عليها وتتزوج بها فتكون لك زوجة. وان لم تسرّ بها فأطلقها لنفسها. لا تبعها بيعا بفضة ولا تسترقها من أجل انك قد أذللتها)

ثم أخبرني بخبر رحبعام الذي لم يكتف بثماني عشر زوجة، بل ضم إليها ستين سرية، فصار مجموع نسائه وسراريه بعد تزوجه بمعكة بنت أبشالوم تسعة عشر زوجة وأكثر من ستين سرية، ولا أدري هل زاد عن ذلك بعد زواجه بمعكة أم اكتفى بهذا؟

لقد جاء في سفر (أخبار الأيام الثاني: 11 عدد21) خبره : (وأحب رحبعام معكة بنت ابشالوم أكثر من جميع نسائه وسراريه لأنه اتخذ ثمانية عشر امرأة وستين سرية وولد ثمانية وعشرين ابنا وستين ابنة)

لقد لقنني جميع هذه النصوص.. ولم يلقني معها أي نص يدعو إلى تحرير الرقاب والإحسان إليهم واعتبار ذلك من التقرب إلى الله.. لم أجد أي شيء من هذا.

هذا على مستوى النصوص المقدسة..

أما على مستوى الواقع.. فقد قدر الله أن أقرأ رحلة كرستيان سنوك الهولندي.. لا شك أنكم لا تعرفونه.. إنه أحد الرحّالة الأوربيين، في القرن التاسع عشر الميلادي، نال شهادة الدكتوراه سنة (1880م) من جامعة ليدن، وزار الجزيرة العربية، ودخل مكة وبقي في الحجاز سنة (1882م) ستة أشهر، وكتب حوادث رحلته هذه بالألمانية، وتكلم في هذه الرحلة عن الرق الذي رآه وشاهده في الحجاز، ومع أنه ليس هو الرق بجميع آدابه الإسلامية إلا أنه قال عنه:(إن الذي يدخل سوق الرقيق بتصورات أوروبية وفي ذهنه كابينة العم توم (Uncle Tom –Cabin) - وهي إشارة إلى الرقيق الذي كان يُرسل إلى العالم الجديد - سيأخذ انطباعاً سيئاً، وسوف يغادر السوق وهو مشمئز من سوء المنظر، وهذا الانطباع الأولي هو انطباع خاطئ، ومع الأسف فإن معظم المستشرقين الرحّالة لم يصوّروا لنا إلا انطباعاتهم الأولية، وهذا هو مصدر الخطأ لديهم)

إلى أن قال: (وعلى العموم فإن الرقيق في العالم الإسلامي لا يختلف كثيراً عن الخدم والعُمّال في المجتمع الأوروبي، وإن الذي يعرف الظروف المحليّة يعرف هذا تماماً، ويعلم كذلك أن إلغاء الرقيق يعني ثورة اجتماعية في الجزيرة العربية. وهناك العديد من الأوربيين الذين يعرفون جيداً شؤون الشرق، لا يريدون أن يقولوا ذلك بصراحة؛ لئلا يتهم هؤلاء بأنهم ضد الاتجاه السائد عموماً، الداعي إلى تحرير الرقيق نهائياً، وبأنهم ضد الاتجاه المبني على مشاعر إنسانية نبيلة)

ثم يقول :(إن خدعة ما يُسمى حركة تحرير الرقيق، ليس سَبَبُها اهتماماً شعبياً لغاية شريفة، ولكنه لعبة خطرة مزيّفة، يقوم بها رجال السياسة الكبار، لأغراض غير إنسانية، وذلك من أجل أن يتخذ العالم المسيحي موقفاً عدائياً خاطئاً ومزيَّفاً ضدّ الإسلام)(1)

في ذلك الوقت.. وقبله.. والذي نعم فيه الرقيق في بلاد الإسلام بما لا ينعم به الأحرار عندنا.. كان قومنا يجوبون العالم ليسترقوا الأحرار.. ويحملون معهم شعار القداسة، وهم يسترقون أحرار العالم.

1()صفحات من تاريخ مكّة، سنوك هو رخونية، وترجمة د. على الشيوخ، طبع دارة الملك عبد العزيز: (1419هـ):2/323، 326، 330

لقد اعتبر البرتغاليون اقتناص الأفارقة من الشواطىء الإفريقية وبيعهم عملاً مقدساً، إذ تم بعد اختطافهم اقتيادهم إلى أوربا وتعميدهم، ثم جرى بيعهم وتسخيرهم للعمل في ضياع الأمراء الإقطاعيين.

وقد كان نطر الأوربيين إلى هذا الأمر نظرة عادية طبيعية، فالمسيحية إنقاذ لأرواح هؤلاء الزنوج أما أجسادهم فتبقى في الرق، ومرسوم سنة 1455 البابوي اعتبر غير النصارى كفاراً ينبغي إذلالهم واسترقاقهم، وهكذا تطلع البرتغاليون إلى الأفارقة نظرة السيد للعبد، وجرى القنص والاختطاف باسم المسيح والقديسين، ولم يفكر الأوربيون في هذا الوقت بتنصير السود أو بتحريرهم، وإنما كان جل اهتمامهم اختطافهم وتسخيرهم في أشق الأعمال وفي إعمار واستغلال العالم الجديد.

لقد نقل لنا أحد المعاصرين للحملات البرتغالية صورة حية لما فعله البرتغاليون بالأفارقة عندما اشتبكوا معهم، ووضح لنا كيف أن عمليات القنص قد تمت باسم المسيح والقديسين والقديسات، فقال: (كان رجالنا يهتفون (القديسة ياجور، القديس جورج)، ويسقطون عليهم فيقتلون أو يخطفون كل من تقع عليه أيديهم، وقد تشاهد هناك أمهات يهربن بأطفالهن، وأزواجاً يفرون بزوجاتهم، وكل منهم يبذل قصاراه للنجاة، يقفز بعضهم في البحر ويرى بعضهم أن يختبىء في أركان أخصاصهم، وخبأ البعض أطفالهم تحت الشجيرات، حيث كان رجالنا يعثرون عليهم. والله الذي يمنح كل إنسان ما يستحق من جزاء، وهب رجالنا آخر الأمر النصر على أعدائهم، تعويضاً لهم على ما بذلوه من عناء في خدمته أخذوا مئة وخمسة وستين بين رجال ونساء وأطفال ولم يحسب القتلى في هذا العدد)

وازدادت بمرور الوقت شراسة الحملات البرتغالية واتسع نطاقها وتنافست الدول الأوربية في جلب الرقيق من إفريقيا ودخلت الميدان إلى جانب البرتغال وهولندا وإنجلترا ثم فرنسا، ونجح هؤلاء في تفريغ القارة من سكانها، فبينما حققت كل من أوربا وآسيا زيادة طبيعية لا بأس بها، ظل عدد سكان القارة الإفريقية مستمراً عند المائة مليون نسمة.

لقد جرى نقل الأفارقة من قـراهم إلى المـزارع الكبـيرة الـتي يملكهـا الأوربيـون من أوربـا والأمريكـتين أو حـتى في مورشـيوس وريـنـون وسيشــل، وقــد تنافســت الــدول الأوربيــة في عمليــات الاسترقاق والاختطـاف وازدهـرت المـدن والمـوانىء الأوربيـة إلى درجة كبيرة ومن بينها ليفربول وبيستول ونانت وبوردو وإشبيلية.

ولم تقتصر تجارة الرقيق على القراصنة والمغامرين، بل تورط فيها الملوك والأمراء ورجال السياسة والـدين لقـد جـاء في تقريـر خـاص بعـام 1862: (تفـوق أعـداد النـاس المتـورطين في تجـارة الرقيق وكمية الأموال الموظفة بها طاقتنا عن التقدير وتعتبر مدينة نيويورك حتى الأيام الأخيرة من عـام 1862 المينـاء الرئيسـي في العالم لهذه التجارة الآثمة بيد أن مدينتي بورتلاند وبوسـطن تأتيـان وحدهما في المرتبة الثانية من ذلك التصنيف)

وقد بلغت أرباح تجارة الرقيـق أرقامـاً خياليـة، وقـد قـام جـون هوكــنر على ســبيل المثــال بثلاث رحلات إلى غــرب إفريقيــا في ستينات القرن السادس عشر واختطـف أفارقـة وبـاعهم للإسـبان من أمريكا وأغرت أرباحه الطائلـة ملكـة برطانيـا إلـيزابيت الأولى، فأرسلت في طلبه وعرضـت عليـه رغبتهـا في مشـاركته في هـذه التجارة الآثمة فوافق من فوره وقدمت لهذا الغرض سفينة تحمــل اسم (المسيح) أو (يسوع) وبالفعل أبحر هوكنر على ظهر السـفينة الكبيرة (يسوع) لاختطاف وسرقة المزيـد من الأفارقـة، وعـاد إلى إنجلترا بإيرادات هائلة جعلت الملكة إليزابيت تمنحـه لقب فـارس، واختار هوكنر أن يكون شعار النبالة الخاص به على شكل إفــريقي مقيـد بالسلاسـل الأمـر الـذي يفضـح الطبيعـة السـادية العدوانيـة للرجل الأوربي الأبيض.

وشــهدت هــذه القــرون اســتنزافاً لمــوارد إفريقيــا البشــرية والمادية.. وكمثال مقرب لذلك ما قام به الملك ليوبولد الثاني حتى 1906 من جمعه حوالي (20) مليـون دولار من المطـاط والعـاج، ويقــدر البلجيكيــون أن حجم رأس المــال الأجنــبي المتــدفق إلى الكونغو بين عام 1887ـ، 1953 قد بلغ (5700) مليون جنيـه كمـا حقق اتحاد كانتجا أرباحاً سنوية وصلت إلى (27) مليـون جنيـه في العام الواحد، ونزح رأس المال الأجنبي المصادر الطبيعية الإفريقية

كالفوسفات والذهب والبترول الزنك والنحاس والحديد والبوكسايت والقصدير ورواسب التبر)

وهكذا فقد جرى قنص الأفارقة منذ القرن الخامس عشر الميلادي باسم المسيح وتم نقل وبيع الأفارقة في أقاصي الأرض وأدانيها باسم المسيح، ورغم تعميد هؤلاء الأفارقة وإدخالهم في المسيحية غصباً وبمجرد وصولهم إلى موانيء الشحن والتفريغ فإن عبوديتهم ظلت قائمة، وادعى المسيحيون الأوربيون أن المسيحية قد خلصت أرواحهم فقط.. أما أجسادهم فتبقى في الرق، ولذلك لم تأخذ الرحمة أو الشفقة قلب الرجل الأبيض فسخر السود في إدارة الطواحين والآلات وفي جر العربات وشق الطرق وحفر المناجم وحمل الأثقال وما إلى ذلك من أعمال شاقة.

نظر إلينا، وقال: كيف تقارنون بين الإسلام وهؤلاء.. إن الإسلام يجعل من أعظم الجرائم استرقاق الأحرار.. لقد قال محمد :(ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته : رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يوفه أجره)(1)

قلنا: دعنا من الإسلام.. وحدثنا عن الاستعباد الذي عانت منه البشرية في مراحل كثيرة من تاريخها.

قال: لقد بحثت في التواريخ(2)، فوجدت أن معاملة السيد لرقيقه اتسمت في جميع فترات التاريخ.. ما عدا في تلك الفترة المقدسة التي ظهرت كفلتة في تاريخ البشرية.. بالقسوة والجبروت ومجافاة الإحساس الإنساني والمشاعر الآدمية، حيث كان يتعامل معهم كما يتعامل مع الأثاث والأدوات والآلات الجامدة.

ولم يكن للرقيق أدنى حق إنساني، بل كان لمالكه تمام الحرية في إبقائه على قيد الحياة، أو تجويعه وتعذيبه والتنكيل به.

وقد منعت أكثر القوانين الزواج بالرقيق، وكثيرًا ما عاقبت

---

(1) رواه ابن ماجة.

(2) انظر: الموسوعة العربية العالمية، بتصرف.

الطـرفين المـتزوجين بـالحرق في النـار معًـا وهم أحيـاء، في حين كـانت تسـمح للرجـال أن يقضـوا شـهواتهم مـع من يشـاءون من النساء الرقيق.

وقـد بولـغ في إجبـار الرقيـق على أداء أشـق الأعمـال، تحت ضربات السياط الملهبة، وكان جزاء من يمتنع عن ذلك تعليقـه من رجليـه، ووضـع الأجسـام الثقيلـة في يديـه، وضـربه أو كيّ مواضـع حساسة من جسمه، وقـد يعمـدون إلى ملء فمـه وأذنيـه بـالزيت المغلي، أو قطع لسانه وأعضائه والتمثيل به، أو قتله بأفظع الصور.

هذا عند القدماء.. في ذلك التاريخ الغابر..

قلنا: ذلك جبروت القـدماء.. وقـد تغـير الأمـر كثـيرا عنـد الأمم الحديثة..

قال: تقصدون الأمم والشعوب والدول الـتي عايشـت النهضـة الأوروبيـة.. منـذ أواسـط القـرن الخـامس عشـر الميلادي، وحـتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي؟

قلنا: أجل.. لقد اختلف الأمر فيها كثيرا..

قـال: صـحيح ذلـك.. لقـد وضـعت كـل دولـة من تلـك الـدول وضعت ـ في زمن ما يُسمى عصر المدنية والنهضة ـ قانونًـا خاصًـا يرتقي بأحوال الرقيق ويفصل حدود معاملتهم، وعرف هذا القانون بالقانون الأسود، لكونه مختصًا بمعالجة أحوال الأرقاء السود وبيـان الأحكام المتعلقة بهم. إلا أن تلك القوانين لم تحدث تغيرات جذرية في الطريقة التي يعامل بها الرقيق:

لقد كان من مقتضى القانون الأسود الفرنسي، أن الـزنجي إذا اعتدى على أحد الأحرار أو ارتكب جريمة السرقة، عـوقب بالقتـل، أو بعقاب بدني آخر شديد.

أما إذا أبق ـ أي هرب ـ الرَّقيق من سيده مـرة أو مـرتين، فـإن القانون يسمح للسيد بقطع أذني رقيقه وكيّه بالحديـد المحميّ في النار، فإذا أبق الثالثة قُتل.

وكان قتل الرَّقيق الآبق معمولاً به أيضًـا في إنجلـترا، حيث نصّ

القانون الأسود فيها على أن من أبق من الرَّقيق وتمادى في إباقــه قُتل.

وكان غـير مسـموح للملـونين، أن يحضـروا في فرنسـا لطلب العلم والثقافة.

وظل الحال في فرنسا على الوصف السابق حتى قيام الثـورة الفرنسية في سـنة 1789م حيث لم تجـرؤ على إلغـاء الـرق، بـل منحت صفة المواطنة لكـل مقيم على أرضـها مهمـا كـان لونـه أو عرقـه، وفي عـام 1791م أصـدر مجلس الثـورة الفرنسـي قـرارًا بإلغاء الرق في جميع المستعمرات الفرنسية، ومساواة جميــع من فيها في الحقوق والواجبات مع تمتعهم بالجنسية الفرنسية.

لكن حين تــولى نــابليون الحكم، لاحـــظ انخفــاض صـــادرات المسـتعمرات الفرنسـية الـتي تعتمـد على اليـد العاملـة الزنجيـة، فأصـدر قـرارًا عـام 1802م بـالعودة إلى اسـترقاق الزنـوج، فثـار الزنوج في المستعمرات وقاوموا مدة ثلاث سنوات فقضى نابليون على ثورتهم وأعادهم إلى الرق.

وفي عــام 1884م صــدر قــرار في فرنســا بإلغــاء الــرق في المستعمرات الفرنسية ـ مرة أخرى ـ تماشيًا مع قـرارات مشـابهة اتخذتها قبـل فـترة وجـيزة كـل من بريطانيـا ثم البرتغـال، فتبعتهـا هولندا والدنمارك عام 1860م.

هذا في فرنسا.. أمـا في أمريكـا، ففي العصـر الأول من تـاريخ الولايات المتحدة الأمريكية كان كثـير من سـكانها ــ وبخاصـة أهـل الجنوب ـ يملكون الرقيق، إذ كان تجـار الرقيـق من أهـل الجنـوب يقومون بحملات منظمة ومسلحة إلى القارة الإفريقية ويختطفـون الرجــال والنســاء في مــداهمات وغــارات مفاجئــة على قــراهم ومسـاكنهم، ويجلبـونهم قسـرًا إلى المـدن الأمريكيـة ــ وبخاصـة الجنوبية ـ ليبيعوهم في أسواق الرقيق.

وكـــانت معاملـــة هـــؤلاء المختطفين المغصـــوبين في منتهى الفظاعة والقسوة والهمجيـة، وكـان من مقتضـى القـانون الأسـود الأمريكي أن للسيد كل الحق في الإبقاء على رقيقه حيًا أو إماتتــه، بــل صــرّح قــانونهم بأنــه ليس للرقيــق روح ولا عقــل وأن حياتــه

محصورة في ذراعيه، كما أنه ليس له حق الخروج إلى الشوارع ـ وقت شدة الحرّ ـ إلابتصريح قانوني، وإذا شوهد أكثر من سبعة أرقاء مجتمعين في شارع واحد، كان لكل رجل أبيض الحق في إلقاء القبض عليهم وجلدهم، ولو كان خروجهم إلى الشارع بتصريح قانوني، وكان القانون أيضًا يجيز للسيد رهن رقيقه وإجارته وبيعه، بل والمقامرة عليه.

وظل الأمر على هذا الحال حتى شهر يناير من عام 1863م حين أصدر أبراهام لنكولن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية إعلانًا بتحرير الرَّقيق في ولايات الجنوب الأمريكي، وكان هذا القرار من أسباب اغتياله عام 1865م.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وقّعت الدول المشتركة في عصبة الأمم عام 1926م اتفاقية تقضي بملاحقة تجارة الرق والمعاقبة عليها، والعمل على إلغاء الرقيق بجميع صوره، وفي عام 1948م أصدرت هيئة الأمم المتحدة إعلانًا عالميًا تضمن حظر الرِّق وتجارة الرقيق، وقد التزمت بهذا الإعلان أكثر دول العالم.

قلنا: ها قد انتهت المأساة أخيرا.. وعادت للإنسان حريته.

ابتسم، وقال: عن أي حرية تتحدثون؟.. ليس هناك مع المصارعين شيء اسمه (حرية).. إن الذي يحمل في عقله وقلبه وروحه وجميع لطائفه جميع أنواع الكبرياء يستحيل أن يترك لغيره فرصة يتنعم فيها بحريته.

إن قومنا لم يعلنوا انتهاء عصر الرقيق إلا بعد أن رأوا الرقيق المحدود لا يكفي.. فراحوا يسترقون الشعوب.

قلنا: يسترقون الشعوب؟

قال: أجل.. هم يسترقون الشعوب المستضعفة، ويمكننون لأنظمة الاستبداد فيها أن تتولى مهمة استرقاق شعوبها.. ليحولوا من جميع العالم سوق نخاسة.

قلنا: نراك متشائما؟

قال: هذه هي الحقيقة التي عشتها، وكنت في يوم من الأيام

أحد فصولها..

أنا.. وكثير من قومي ـ إن لم أقل كل قومي ــ كنا ننظر إلى تلك الشعوب السمراء أو السوداء نظرة ممتلئة بالاحتقار.. وكيف لا نكون كذلك، ونحن لم نكن نتغذى إلا على الأفكار التي تملؤنا بالعنصرية.

أذكر أنا كنا في الذكرى السنوية للقديس نقولا التي يحتفل بها الأوربيون في غرب أوربا.. كان يمثل لنا القديس الطيب في صورة كاهن أبيض على جواد أبيض يوزع الصدقات، بينما خادمه بطرس الأسود الذي يحمل الحقيقة السوداء ينشر الخوف والرعب ويخطف الأطفال الأشقياء، وفي اللحظة التي يهم فيها العبد بإمساك الطفل يتبعه القديس ويمنع الاعتداء عليه وسط تهليل وتصفيق الحاضرين وصيحاتهم.

هذه النظرة العنصرية لها أصولها ــ كما تعلمون في الكتاب المقدس ـ فقد ورد في العهد القديم أن نوحاً سكر يوماً ثم تعرى ونام في خبائه، فاتفق أن ابنه حاماً أبصره على هذه الحال فلما استيقظ نوح وعلم أن حاماً قد أبصره عارياً دعا عليه ولعن نسله الذين هم كنعان.. اسمعوا هذه الكلمات المقدسة من سفر التكوين (9 من 18 ـ 27):(كان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساماً وحاماً ويافث وحام وهو أبو كنعان. هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح. ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض.. وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً. وشرب من الخمر فسكر وتعرّى داخل خبائه فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجاً. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء. فلم يبصرا عورة أبيهما، فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير، فقال ملعون كنعان عبد العبيد يكون لأخوته، وقال مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبداً لهم. ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبداً لهم)

وتفرعت عن حكاية العهد القديم حكايات وأساطير انتشرت في أجزاء متفرقة من العالم وكلها تعلي الرجل الأبيض وتحط من الأسود، بينما تعترف هذه الحكايات للرجل الأبيض بالنقاء والطهارة

لا تعترف بأن الأسود من البشر وإذا اعترفت فإن لونه الأسود لا بد أن يكون آية غضب الله عليه.

وجاء في إحدى الأساطير التي اختلقها الرجل الأبيض، أن الله قد خلق الخلق سوداً كلهم وهيأ لهم جميعاً الفرصة لكي يتطهروا فاغتسل البيض وابيضت أجسامهم، أما الزنوج فلم ينظفوا إلا راحات أيديهم.

وتذهب قصة أخرى إلى أن من أساء العمل صار أسود، وأعطي قليلاً من اللباس، ومن كان أقل منه سواءاً كان أسمر اللون وكان أكثر حظاً من الملابس، أما من أحسن فقد ظل أبيض اللون وأعطي وفرة من الملابس.

وتذهب أسطورة ثالثة إلى أن الله رأى ثلاثة زنوج يبكون، ولكي ينفى عنهم الحزن سمح لهم أن يغتسلوا ليصيروا ذوي بشرة بيضاء، فلم يفعل ذلك إلا واحد منهم دون أخويه الآخرين.. وهذا صار أبيض اللون جميل المنظر، فأكلت الغيرة قلب أحد أخويه، ولكن الماء قد نفذ فمسح بدنه بتربة الأرض الحمراء فصار لونه أحمر أما الثالث فلم يستطع إلا غسل راحتي يديه وقدميه وهي الأجزاء الوحيدة في جسمه التي أصبحت بيضاء.

قلنا: ولكن.. قد سمعنا أن في إنجيل متى (6/25):(سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين)

ضحك ضحكة عالية وقال: واقرأوا في نفس الإنجيل (إنجيل متى 25/ـ 29):(كل من له يعطي فيزداد ومن ليس له فالذي عنده يؤخذ منه والعبد البطال اطرحوه إلى الظلمة الخارجية هناك يكون البكاء وصرير الأسنان)

قلت: لكن أكثر قومنا الآن لا يعرفون الإنجيل.. وفي حال معرفتهم له لا يسمعون إلا ما قرأناه لك.

قال: إن ذلك النص لا يكفي لا يكفي تلك النظرة المملوءة

بالاستعلاء.. لعلكم قرأتم ما ذكره سيمونز في كتابه (لون البشرة وأثره في العلاقات الإنسانية).. لقد ذكر أن نظرة الأوربي الأبيض إلى الإفريقي الأسود تتلخص في أن (لون الزنجي الأسود يدل على سخافة عقله.. الزنوج شهوانيون ولأجسامهم رائحة نتنة.. الزنوج سطحيون ومتعلقون بالحلي وأدوات الزينة.. الزنوج عراة وبدائيون ومعادون للحضارة المدنية.. الزنوج وثنيون متعددو الآلهة ويجب إدخالهم في المسيحية غصباً)

الاستعمار:

قلنا: فما الرابع؟

قال: هو نتيجة لكل ما سبق.. وهو نتيجة تلك القراءات المقدسة للكتاب المقدس.

قلنا: ما هو؟

قال: الاستعمار..

قلنا: لقد كان يلقن لنا بأن الاستعمار ما هو إلا نوع من الانتشار الذي لا يقصد منه إلا التعمير.

قال: صدقوا في هذا التعبير.

قلنا: فلم تنظر إليه إذن نظرة تشاؤمية؟

قال: لأن التعمير فيه ليس للمستعمرات وإنما للمستعمرين.. فلم تكن المستعمرات المسكينة تجني من قدوم تلك الجحافل من الجيوش سوى الخراب والدمار والاستعباد والإبادة.

قلنا: فحدثنا عن قصتك مع الاستعمار(1).

قال: في البدء كانت الإمبراطورية الرومانية أكبر دولة استعماريةٍ في التاريخ القديم، فقد بدأت توسُّعَهَا فيما وراء البحار نحو عام 264ق.م.. وفي أوج مجدها، كانت الإمبراطورية

1() انظر: الموسوعة العربية العالمية، وكتاب (الاستعمار و التنصير في إفريقيا السوداء)، لعبد العزيز الكحلوت.

الرومانيــة تمتــد من شــمالي بريطانيــا إلى البحــر الأحمــر والخليج العربيّ.. ولكن القدر لم يهمل هذه الامبراطورية، فقد قضي عليها، وكان من رحمة الله بعباده أن قضي عليها.

بعد قرون طوال.. وبعد أن أحس المارد الروماني الذي يسكننا أنه أصبح له من القوة مــا يعيــد بــه مجــد رومــا بــدأ الاســتعمار من جديد.

بــدأت البرتغــال وأســبانيا في القــرن الخــامس عشــر الميلادي بإرســال مستكشــفين للبحث عن طــرق بحريــة جديــدة إلى الهنــد والشــرق الأقصــى، حيث كــان المســلمون يهيمنــون على الطــرق البرية ويسيطرون على التجارة بين آسيا وأوروبا.. وكان الأوروبيون يطمحون إلى الســيطرة على تلــك التجــارة، فقــد نجحت البرتغــال في السيطرة على البرازيل، وأنشــأت مراكــز تجاريــةً في كــل من غربي إفريقيا والهند وجنوب شرقي آســيا..كمــا نجحت أســبانيا في السيطرة على أجزاء مما يعرف اليوم بالولايــات المتحــدة، واحتلت معظم أجزاء أمريكا اللاتينية.

وفي القـــرن الســـابع عشـــر الميلادي، انـــتزع الهولنـــديون والبريطانيون التجارة الآسيوية من البرتغاليين، وذلك بعد أن نجحوا في احتلال جــزر الهنــد الشــرقية الهولنديــة (إندونيســيا) وأصــبح للإنجلــيز نفــوذٌ قــويٌّ في الهنــد، وتمكّن الهولنــديون والبريطــانيون والفرنسيون من احتلال بعض المناطق في أمريكا اللاتينية.

بالإضــافة إلى ذلــك، احتــل عــددٌ من المهــاجرين البريطــانيين والفرنســـيين بعض المنـــاطق في كنـــدا، كمـــا أنَّ الهولنـــديين والبريطانيين والفرنســيين ادَّعــوا ملكيــة بعض أجــزاء من الولايــات المتحــدة.. وفي نهايــة المطــاف، تمكن الإنجلــيز من إنشــاء ثلاث عشرة مستعمرة في تلك البلاد، ودخــل البريطــانيون والفرنســيون في صراعٍ على أمريكا الشمالية سُمّي حروب الهنود والفرنســيين الأربع، واستمر ذلك الصراع من عام 1689م حــتى 1763م. وفي آخــر تلــك الحــروب، انتصــرت بريطانيــا ونجحت في احتلال معظم الممتلكات الفرنسية في أمريكا الشمالية.

لم يتطوَّر الاستعمار الأوروبي في بداية القرن التاسع عشر مــع

أنَّ بريطانيا ضَمَّت عددًا من المستعمرات في أستراليا، وقد كانت نيوساوث ويلز أول مستعمرة أسترالية تم تأسيسها في القرن الثامن عشر.. وكان معظم المستوطنين الأوائل من السجناء الذين أُبعدوا إلى أستراليا عقابًا لهم. وقد أوقف إرسال السجناء إلى تلك المناطق في منتصف القرن التاسع عشر، وبحلول ذلك التاريخ، أُنشئت مستعمراتٌ جديدة في كوينزلاند وفان ديمنزلاند (تسمانيا حالياً)، وغربي أستراليا وجنوبيها، وفكتوريا. أما نيوزيلندا، فإنها لم تصبح مستعمرة بريطانية إلا عام 1840م.

لم تهدأ النفوس الثائرة بعد كل هذا.. فقد ساعدت الثورة الصناعية وظهور القومية الأوروبية، على تطور الاستعمار في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في كلٍّ من إفريقيا وآسيا، ففي هاتين القارتين، سعت الدول الصناعية إلى الحصول على المواد الخام لمصانعها، والأسواق لمنتجاتها الصناعية، كما سعت إلى هاتين القارتين بوصفهما مناطق استثمار جديدة، وللبحث عن أقطار جديدة تقويها في منافستها للأقطار الأوروبية الأخرى.

فاقتسم إفريقيا كلٌّ من بلجيكا وفرنسا وألمانيا وبريطانيا وإيطاليا والبرتغال وأسبانيا، ولم يبق من المناطق الإفريقية مستقلة إلا إثيوبيا وليبيريا.. أما بريطانيا، فقد سيطرت بدورها على الهند وبورما وما يُعرف الآن بماليزيا.. كما احتلت فرنسا الهند الصينية، وكانت الهند الصينية الفرنسية تضم كلاّ من كمبوديا ولاوس وفيتنام، وتوسَّع الهولنديون في الهند الصينية الشرقية. أما الولايات المتحدة، فقد احتلت الفلبين.. وكان هناك تنافسٌ كبير بين فرنسا وألمانيا وبريطانيا وأسبانيا والولايات المتحدة للسيطرة على جزر المحيط الهادئ.

وفي نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، أنشأت اليابان إمبراطوريةً ضمَّت كوريا وتايوان، وخلال الحرب العالمية الثانية (1939 - 1945م)، وسَّعت اليابان إمبراطوريتها على حساب بعض المستعمرات الصغيرة التي كانت تسيطر عليها دول غربية. إلا أنَّ هذه الإمبراطورية سقطت بعد أن هُزمت اليابان عام 1945م. وتحولت هذه المناطق مرةً أخرى إلى مستعمرات

غربية.

قلنا: نعرف تاريخ الاستعمار.. فما جرائمه التي تدينه من أجلها؟

قال: كثيرة.. الاستعلاء لا يولد إلا الخبث.. وقد كان المستعمرون ممتلئون إلى أذقانهم كبرا واستعلاء.. ولهذا راحوا يفرضون أسلوب حياتهم على المستعمرات، فقد كانوا يؤمنون بتدنّي مستوى ثقافة المناطق المُستعمَرة قياسًا إلى ثقافتهم.. بل حاول بعض هؤلاء الحكام أن يُغيّروا من ديانة المناطق التي يَستعمِرونها، كما عَمَدوا إلى جعل لغتهم الأجنبية اللغة الرسمية في تلك المستعمرات. وفي عدد من الحالات، حاول الحكام المستعمرون أن يحلوا ثقافتهم الخاصة محلَّ الثقافة المحلية.

أما السياسة الاقتصادية التي مارسها الاستعمار، فقد كانت ممتلئة بالجشع.. ففيما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر الميلاديين، ظهر نظام اقتصادي في أوروبا يُدعى المركنتالية (أي النزعة التجارية).. وفي ظلِّ هذا النظام، قامت القوى الأوروبية بتشكيل اقتصاد المناطق المستعمرة حسب حاجاتها التجارية.. فعلى سبيل المثال، سنَّت بريطانيا عددًا من القوانين في القرن السابع عشر لتقوية سيطرتها على اقتصاد مستعمراتها الثلاث عشرة في أمريكا الشمالية. وقد كان بعض هذه القوانين يحصر التجارة بين المستعمرات البريطانية مع التجار البريطانيين فقط،كما كانت تشترط استخدام سفنٍ بريطانية فقط. أما القوانين الأخرى، فقد قلّصت من الصناعةً في المستعمرات لأنَّ البريطانيين كانوا يريدون أن تعتمد المستعمرات على السلع المصنَّعة في بريطانيا. ولتشجيع الأمريكيين على تصدير السلع التي تحتاج إليها بريطانيا، عمد البريطانيون إلى إعطاء امتيازات تجارية لهذه الصادرات للتجار الأمريكيين. وقد أدارت القوى الأوروبية الأخرى تجارتها بالطريقة نفسها.

قلنا: لقد ذكرت أن الاستعمار كان وليدا لتلك القراءات التي سمعتها من الكاهن؟

قال: أجل.. لقد كانت تلك القراءات سر كل أنواع البلادء.. لقد امتزجت تلك النصوص مع ما امتلأت به نفوسنا من صراع وأحقاد

لنملأ العالم بكل أنواع البلاء.

قلنـا: ولكنـا نـرى أن المبشـرين من قومنـا يـذهبون لمنـاطق المستعمرات ليملأوها بالبشارة؟

قال: صدقتم.. إنهم يـذهبون لتلـك المنـاطق ليقولـوا لهم بكـل وقاحـة: دعـوا ملككم الأرضـي ليأخـذه المسـتعمر، وتنـالوا بدلـه ملكوت السماء..

بل كان لهم فوق هذا دور أخطـر بكثـير.. يقـول الـدكتور والـتر رودني: (قد كانت البعثات المسيحية جزءاً من قوى الاسـتعمار إلى حد كبير، مثلها في ذلك مثل المكتشـفين والتجـار والجنـود، وربمـا يكون هناك مجال للمجادلة حـول مـا إذا كـانت البعثـات التبشـيرية في مستعمرة مـا هي الـتي جلبت قـوى الاسـتعمار الأخـرى أم أن العكس هو الصحيح، ولكن ليس هناك شك في حقيقـة أن البعثـات (التبشيرية) كانت أدوات الاستعمار من الناحية العمليـة، وقـد كـان جونستون المغامر الإمبريالي بكره تلك البعثـات (التبشـيرية) لكنـه قال في الثناء عليهـا: (كـل موقـع لبعثـة تبشـيرية هـو تـدريب على الاستعمار)

وقـد علـق سـيمونز على دور البعثـات التبشـيرية في إفريقيـا بـالقول: (جـاء الرجـل الأبيض إلى إفريقيـا وبيـده الإنجيـل، وأصـبح الإنجيل بيد الزنجي)

إن هذا الأسلوب يذكرنا بالمناديل القرمزية..

قالوا: ما المناديل القرمزية؟

قال: لقد ذكر ايستبان مونتجو، وهو إفريقي هرب من مزرعــة كوبيه في القرن التاسع عشر أن شعبه قـد وقـع في حبائـل الـرق بواسطة اللون الأحمر، حيث جاء البيض بمناديـل قرمزيـة، وأخـذوا يلوحون بها من سفنهم، فاستثارت هـذه المناديـل السـود وصـعدوا إلى السفن الأوربية ليحصلوا على هذه المناديل القرمزيـة فوقعـوا في الرق.

وهكذا فعل المبشـرون.. إنهم حين يقيمـون الكنـائس الجميلـة

وسط الحدائق الخضراء المحاطة بالأشجار الباسقة لا يقصدون بذلك خدمة الرب، وإنما خدمة القوى الاستعمارية التي ارتأت وقف الاسترقاق، واستعمار القارة لضرورات اقتصادية بحتة، فأرادت توجيه ضربتها الأخيرة القاصمة وهي الاستحواذ على الأرض والثروات الطبيعية وتقزيم الإفريقي وتفريغه من إفريقيته وثقافته وتراثه.

وقد شهد مطلع القرن التاسع عشر بداية التدفق الاستعماري للقارة الإفريقية، وهو نفس التاريخ الذي شهد تدفق الإرساليات التنصيرية إلى القارة، ومن هذه البعثات التنصيرية جمعية الآباء البيض التي تأسست في كل من نيجيريا والجزائر سنة 1868 ثم امتدت إلى منطقة البحيرات 1878 وإلى غرب إفريقيا 1885 ومنها جمعية شهودة يهوه، وجمعية برلين التنصيرية، وجمعية لندن التنصيرية، وجمعية آباء الكنيسة الإنجليزية.. بالإضافة إلى جمعيات الرومان الكاثوليك.. وغيرها.

سكت قليلا، ثم قال: هناك جريمة أخرى ما رسناها بكل وقاحة، وهي قريبة من الاستعمار.

قلنا: ما هي؟

قال: النفي.. الإخراج من الأرض.. الإبعاد عنها..

قلنا: ما تعني؟

قال: لقد كان من الأساليب التي مارسناه مع من نعتبرهم حشرات وأوباشا وهباء هو النفي والإخراج من الأرض.. لقد بدأنا، فنقلنا الساخطين سياسياً ودينياً (البيوريتان) إلى أمريكا، ونقلنا المجرمين والفاشلين في تحقيق الحراك الاجتماعي في أوطانهم إلى أمريكا وأستراليا. وتبعتها عمليات نقل أخرى تهدف جميعاً إلى تحقيق صالح السوبرمن.. الإنسان الغربي..

منها نقْل سكان أفريقيا إلى الأمريكتين لتحويلهم إلى مادة استعمالية رخيصة.

ومنها نقْل جيوش أوربا إلى كل أنحاء العالم، وذلك للهيمنة

عليها وتحويلها إلى مادة بشرية وطبيعية تُوظَّف لصالح الغرب.

ومنها نقْل الفائض البشري من أوربا إلى جيوب استيطانية غربية في كل أنحاء العالم، لتكون ركائز للجيوش الغربية والحضارة الغربية.

ومنها نقْل كثير من أعضاء الأقليات إلى بلاد أخرى.. نقل الصينيين إلى ماليزيا.. ونقل الهنود إلى عدة أماكن.. ونقل اليهود إلى الأرجنتين.. كل ذلك كشكل من أشكال الاستعمار الاستيطاني، إذ أن هذه الأقليات تشكل جيوباً استيطانية داخل البلاد التي تستقر فيها.

ومنها نقْل كثير من العناصر المقاتلة من آسيا وإفريقيا وتحويلهم إلى جنود مرتزقة في الجيوش الغربية الاستعمارية، مثل الهنود في الجيوش البريطانية.. وفي الحرب العالمية الأولى، تم تهجير 132 ألفاً من مختلف أقطار المغرب لسد الفراغ الناجم عن تجنيد الفرنسيين، بالإضافة إلى تجنيد بعضهم مباشرةً للقتال.

وفي هذا الإطار المعرفي، تمت عملية الاستيطان الصهيونية التي هي في جوهرها تصدير لإحدى مشاكل أوربا الاجتماعية.. تلك المعضلة التي تسمى المسألة اليهودية.. إلى الشرق، فيهود أوربا هم مجرد مادة، أو فائض بشري لا نفع له داخل أوربا يمكن توظيفه في خدمتها في فلسطين، والعرب أيضاً مادة أو كتلة بشرية تقف ضد هذه المصالح الغربية، وفلسطين كذلك مادة، فهي ليست وطناً وإنما هي جزء لا يتجزأ من الطبيعة/المادة تُطلَق عليه كلمة (الأرض). فتم نقل العرب من فلسطين ونُقل اليهود إليها، وتمت إعادة صياغة كل شيء بما يتلاءم مع مصالح الإنسان الغربي.

لقد تمت ـ نتيجة لهذا أيضا ـ عمليات نقل ضخمة بعد الحرب العالمية الأولى، فنُقل سكان يونانيون من تركيا إلى اليونان، وسكان أتراك من اليونان إلى تركيا، كما نُقل سكان ألمان من بروسيا الشرقية بعد ضمها إلى بولندا.

وهذه العمليات هي التي أوحت لهتلر بعمليات نقل اليهود خارج الرايخ.. بل إنه في السنين الأخيرة من حكم الرايخ طوَّر هملر

جنرال بلان أوست لنقل 31 مليوناً (غير ألمان) من أوربا الشـرقية وتوطين ألمان بدلاً منهم.

الإبادة:

قلنا: فما الخامس؟

قال: الإبادة.. القتل.. أو ما نسميه بلغتنا التي هذبنا بها الجريمـة (التطهير)

قلنا: ما تعني؟

قال: لقد ساهمت كـل تلـك الأفكـار.. المقدسـة.. والعلميـة.. والفلسفية.. وغيرها، في نزع القداسة عن البشر كافـة، وتحـويلهم إلى مادة ليست لها قيمة مطلقة، ولا علاقة لها بأية قيم.

وهذا ما يسر عمليات الإبادة الضـخمة الـتي سـالت فيهـا دمـاء كثيرة.. دماء لا يمكن إحصاؤها..

في أمريكـا الشـمالية.. كـانت العقيـدة التطهريـة هي عقيـدة المستوطنين البيض، فهي أولى الأيـديولوجيات الإمبرياليـة الإباديـة الـتي كـانت تغطيهـا ديباجـات دينيـة كثيفـة.. حيث كـان هـؤلاء المتطهـرون يشـيرون إلى هـذا الـوطن الجديـد باعتبـاره (صـهيون الجديـدة) أو (الأرض العـذراء) فهي (أرض بلا شـعب)، وكـان المسـتوطنون يشـيرون إلى أنفسـهم باعتبـارهم (عبرانـيين)، وللسـكان الأصـليين باعتبـارهم (كنعـانيين) أو (عمـاليق) وكلهـا مصطلحات توراتية إبادية، اسـتخدمها معظم المسـتوطنين الـبيض فيما بعد في كل أرجاء العالم.

وكـان كـل هـذا يعـني إبـادة السـكان الأصـليين حـتى يمكن للمستوطنين البيض الاستقرار في الأرض الخالية الجديدة..

قلنا: فهل تم بعض هذا؟

قال: بـل تم الكثـير منـه.. لقـد تم إنجـاز هـذا من خلال القتـل المباشر، أو من خلال نقـل الأمـراض المختلفـة كـأن تُـترَك أغطيـة

مصابة بالجدري(1) كي يأخذها الهنود، فينتشر الوباء بينهم ويتم إبادتهم تماماً..وكانت الحكومة البريطانية في عصر الملك جورج الثالث تعطي مكافأة مالية لكل من يحضر فروة رأس هندي قرينة على قتله.

واستمرت هذه التقاليد الغربية الإبادية بعد استقلال أمريكا، بل تصاعدت بعد عام 1830 حين أصدر الرئيس جاكسون قانون ترحيل الهنود، والذي تم بمقتضاه تجميع خمسين ألفاً من هنود الشيروكي من جورجيا وترحيلهم أثناء فصل الشتاء سيراً على الأقدام إلى معسكر اعتقال خُصِّص لهم في أوكلاهوما، وقد مات أغلبهم في الطريق.. وهذا شكل من أشكال الإبادة عن طريق التهجير، فهو ـ شكلاً ـ نقل من مكان لآخر ولكنه حقيقة نقل من هذا العالم للعالم الآخر.

وقد وصلت العملية الإبادية إلى قمتها في معركة ونديد ني Wounded Knee (الركبة الجريحة) عام 1890.. وكانت الثمرة النهائية لعمليات الإبادة هذه أنه لم يبق سوى نصف مليون من مجموع السكان الأصليين الذي كان يُقدر بنحو 6.5 مليون عام 1500 لدى وصول الإنسان الأبيض، أي أنه تمت إبادة ستة مليون مواطن أصلي.. وهو رقم سحري لا يذكره أحد هذه الأيام، إذا لم نحسب نسبة التزايد الطبيعي(2).

وقد تكرر نفس النمط في أستراليا التي كان يبلغ عدد سكانها الأصليين 2 مليون عند استيطان البيض للقارة في عام 1788، ولم يبق منهم سوى 300 ألف. ولا تزال عملية إبادة السكان

1() يذكر المؤرخون أنه في عام 1763 أمر القائد الأمريكي (البريطاني الأصل) جفري أهرست برمي بطانيات كانت تستخدم في مصحات علاج الجدري إلى الهنود الحمر بهدف نشر المرض بينهم مما أدى إلى انتشار الوباء الذي نتج عنه موت الملايين من الهنود، ونتج عن ذلك شبه إفناء للسكان الأصليين في القارة الأمريكية.

وقد كانت هذه الحادثة أول وأكبر استخدام لأسلحة الدمار الشامل بشكلها الشامل ضد الهنود الحمر، حتى أن القنابل النووية التي أطلقت بعد ذلك بما يزيد عن قرن ونيف على هيروشيما وناكازاكي لم تكن اكثر فتكا من جرثومة الجدري المستخدمة ضد الهنود، حيث قتل من اليابانيين 5% من عدد ضحايا الهنود في تلك المجزرة.

2()يُقدر البعض أن العدد الفعلي الذي تم إبادته منذ القرن السادس عشر حتى بداية القرن العشرين قد يصل إلى عشرات الملايين.

الأصليين مستمرة في البرازيل وأماكن أخرى، وإن كان بشكل أقل منهجية وخارج نطاق الدولة.

وترتبط بالتجربة الاستيطانية في أمريكا الشمالية عمليات نقل ملايين الأفارقة السود للأمريكتين لتحويلهم إلى عمالة رخيصة، وقد تم نقل عشرة ملايين تقريباً، ومع هذا يجب أن تعلموا أن كل أسير كان يقابله بوجه عام عشرة أموات كانوا يلقون حتفهم إما بسبب الإنهاك والإرهاق وسوء الأحوال الصحية، أو من خلال إلقائهم في البحر لإصابتهم بالمرض.

وكانت أعمال السخرة الاستعمارية في أفريقيا ذاتها لا تقل قسوة، ففي كتابه رحلة إلى الكونغو (1927)، يُبيِّن أندريه جيد كيف أن بناء السكة الحديد بين برازفيل والبوانت السوداء.. وهي مساحة طولها 140 كيلو متر.. احتاجت إلى سبعة عشر ألف جثة.. ويمكن أن تعلموا هنا أيضاً أن حفر قنال السويس بنفس الطريقة وتحت نفس الظروف وبنفس التكلفة البشرية.

وقد ورد في إحدى الدراسات أن عدد المواطنين الأوربيين الذين لهم علاقة بعمليات التطهير العرْقي والإبادة داخل أوربا، إما كضحايا أو كجزارين، يصل إلى مائة مليون، فإذا أضفنا إلى هذا عدد المتورطين في عمليات القمع والإبادة الاستعمارية في الكونغو وفلسطين والجزائر وفيتنام وغيرها من البلدان فإن العدد حتماً سوف يتضاعف.

سكت قليلا، ثم قال: أرجو أن تملكوا أنفسكم.. فسأذكر لكم نموذجا قريبا رأيته وعشته من عمليات الإبادة المنظمة.. إنه الإبادة النازية..

قلنا: الكل ينكر على النازية(1)؟

1()كلمة «نازي» مأخوذة بالاختصار والتصرف (بهدف التهكم) من العبارة الألمانية «ناشيونال سوشياليستيش دويتش أربايتربارتي National Sozialistische Deutsche Arbeiterpartei» (NSDAP)، أي «الاشتراكية القومية»، وهي حركة عرْقية داروينية شمولية، قادها هتلر وهيْمنت على مقاليد الحكم في ألمانيا، وعلى المجتمع الألماني بأسره. والحركة النازية هي حركة سياسية وفكرية، ضمن حركات سياسية فكرية أخرى تحمل نفس السمات، ظهرت داخل التشكيل الحضاري الغربي بعد الحرب العالمية الأولى. كانت النواة الأساسية للحركة النازية هي حزب صغير يُسمَّى «حزب العمال الألمان» أُسِّس في جو البطالة والثورة الاجتماعية عام 1918 بعد هزيمة ألمانيا في

قال: أصدقكم القول.. لم تكن النازية سوى اللحظة التي تبلور فيها النموذج الغربي للإبادة وأفصح عن نفسه بشـكل فاضـح، دون زخارف أو ديباجات.. ولذا أذهلت الجميع.

لقـد كنت في ذلـك الحين أشـرب الـدماء مـع النـازيين.. وكـان النازيون ـ حينها ـ يُـدركون تمامـا أن نظـامهم النـازي وممارسـاته الإبادية هما ثمـرة طبيعيـة للتشـكيل الحضـاري الإمبريـالي الغـربي الحديث.

لقـد عشـت مـع هتلـر، وعـرفت من صـحبته موقفـه من أولى تجارب الإنسان الغـربي الاسـتعمارية الاسـتيطانية، أي تجربتـه في أمريكا الشمالية.. لقد كان يعتبرها تجربة مثالية أوحت له بكثير من أفكاره التي وضعها موضع التنفيذ فيما بعد(1).

الحرب العالمية الأولى وإذلالها على يد الدول الغربية المنتصرة. وكـان المنظِّر الأساسـي للحزب هو جوتفريد فيدر الذي نـادى بعقيـدة لهـا صـبغة قوميـة قويـة وطـابع اشـتراكي، تدعـو إلى ملكية الدولة للأرض وتأميم البنـوك. وكـان من أوائـل من انضـم لعضـوية هـذا الحزب محاربون قدامى مثـل رودولـف هس وهرمـان جـورنج، ومثقفـون محبطـون مثـل ألفريد روزنبرج و ب.ج. جوبلز وهتلر نفسه، وشخصيات أخـرى مثـل يوليـوس سـترايخر. وقد ازدادت عضوية الحزب لأنـه توجـه إلى المخـاوف الكامنـة لـدى قطاعـات كبـيرة من الألمان من الشيوعيين والبلاشفة، وإلى حنقهـا على معاهـدة فرسـاي الـتي أذلت ألمانيـا وحولتهـا إلى مـا يشـبه المسـتعمرة، وعلى جمهوريـة وايمـار المتخاذلـة الـتي قبلت هـذا الوضع، وإلى إحساس الجماهير بالضياع في المجتمع الحديث وإحساسـهم بـالقلق وعـدم الطمأنينة نتيجة تآكل المجتمع التقليدي. ورغم أن الحـزب كان يُسـمَّى «حـزب العمـال»، فإنه لم يضم كثيراً من العمال بين أعضائه، ولم ينضم له من العمال سوى العـاطلين عن العمـل. وأعيـد تنظيم الحـزب عـام 1920 وسُـمِّي «حـزب العمـال الألمـاني الاشـتراكي القومي» وترأسه هتلر الذي حصل على تأييد لودندورف (بطـل الحـرب العالميـة الأولى) وعديد من رجال الصناعة الذين رأوا أن بإمكـان هتلـر تقـويض دعـائم النظـام السياسـي القائم، الذي لم يكن يسمح لهم باتبـاع سياسـة رأسـمالية حـرة تمامـاً، كمـا أنهم رأوا أن وجوده يمثل الفرصة الوحيدة أمامهم لوقف تقدم الشيوعيين. وقد تزايد نفوذ الحزب مـع اتساع نطاق الكساد الاقتصادي. وحـل كتـاب هتلـر كفـاحي محـل برنـامج جوتفريـد فيـدر (الذي تحول إلى مجرد ناطق بلسان هتلر)، كما تراجـع الخطـاب الاشـتراكي وحـل محلـه خطابٌ نازيٌ أكثر تبلوراً ومادية. (انظر: الموسوعة اليهودية، للمسيري)

1() وكأدلة على ذلـك يـذكر المـؤرخ جـون تولانـد أن هتلـر، في أحاديثـه الخاصـة مـع أعضاء الحلقـة المقرَّبـة إليـه، كثـيراً مـا كـان يعبِّر عن إعجابـه بالمسـتوطنين الأمريكـيين وطريقة معالجتهم لقضية الهنود الحمر. فقد قاموا بمحاولة ترويضـهم عن طريـق الأسـر، أمـا هـؤلاء الـذين رفضـوا الرضـوخ فكـان يتم إبـادتهم من خلال التجويـع أو القتـال غـير المتكافئ.

ويقـول يـواقيم فسـت إن حـروب هتلـر القاريـة المسـتمرة كـانت محاكـاة للنمـوذج الاستعماري الغربي في أمريكا الشمالية. وبالفعل صرح هتلر في إحـدى خطبـه بأنـه حين قام كورتيز وبيزارو (وهما من أوائل القواد الاستعماريين الإسبان) بغزو أمريكـا الوسـطى

ولعل أكبر دليل على أن الإبـادة تضـرب بجـذورها في حضـارتنا المتعفة بالدماء، وأنها لم تكن مقصورة على النازيين، ما لاحظتموه من فكر وسلوك الحلفاء، أعداء النـازيين الـذين قـاموا بمحـاكمتهم بعد الحرب:

فإرنسـت همنجـواي، الكـاتب الأمـريكي، كـان يُطـالب بتعقيم الألمان بشكل جماعي للقضاء على العنصر الألماني..

وفي عام 1940 قال تشرشل: إنه ينوي تجويع ألمانيـا وتـدمير المدن الألمانية وحرقها وحرق غاباتها..

وقد عبَّر كليفتون فاديمان(1) عن هذا الموقف الإبـادي بشـكل متبلور.. فقد شن حملة كراهية ضارية ضد الألمان تشـبه في كثـير من الوجوه الحملة التي شنها الغـرب ضـد العـرب في السـتينيات، والتي يشنها ضـد المسـلمين والإسـلام في الـوقت الحاضـر.. لقـد جعل الهدف حملته (إضرام الكراهية لا ضد القيادة النازية وحسب، وإنما ضد الألمان ككـل.. فالطريقـة الوحيـدة لأن يفهم الألمـان مـا نقول هو قتلهم.. فالعدوان النازي لا تقوم به عصابة صغيرة.. وإنمـا هـو التعبير النهـائي عن أعمق غرائز الشـعب الألمـاني، فهتلـر هـو

والولايات الشمالية من أمريكا الجنوبية، فهم لم يفعلوا ذلك انطلاقاً من أي سـند قـانوني وإنمـا من الإحسـاس الـداخلي المطلـق بـالتفوق. فاسـتيطان الإنسـان الأبيض لأمريكـا الشمالية، كما أكد هتلر، لم يكن لـه أي سـند ديمـوقراطي أو دولي، وإنمـا كـان ينبـع من الإيمان بتفوق الجنس الأبيض. ولذا في مجال تـبريره للحـرب الشرسـة الـتي شـنها على شرق أوربـا قـال هتلـر: (إن هنـاك واجبـاً واحـداً: أن نـؤلمن هـذه البلاد من خلال هجـرة الألمان الاستيطانية وأن ننظر إلى السكان الأصليين باعتبارهم هنوداً حمراً)

وأكد هتلر أن الحرب الـتي تخوضـها ألمانيـا ضـد عناصـر المقاومـة في شـرق أوربـا لا تختلف كثيراً عن كفـاح البيـض في أمريكـا الشـمالية ضــد الهنـود الحمـر. ومن هنـا كـان هتلر يشير إلى أوربا الشرقية باعتبارها أرضاً عذراء وصحراء مهجورة.

وقد بيَّن ألفريد روزنـبرج، أثنــاء محاكمتـه في نورمـبرج، هــذه العلاقـة العضــوية بين العنصـرية النازية والمشـروع الغـربي الإمبريـالي، فأشـار مثلاً إلى أنـه تعـرَّف لأول مـرة على مصــطلح (الإنســان الأعلى) (الســوبرمان) في كتــاب عن الاســتعماري الإنجلــيزي كتشـنر، وأن مصـطلح (الجنس المتفـوق) أو (الجنس السـيد) مـأخوذ من كتابـات العـالم الأمريكي الأنثروبولوجي ماديسون جرانت والعالم الفرنسي لابوج، وأن رؤيته العرْقية هي نتيجة أربعمائة عام من البحوث العلمية الغربية، فالنازية - كما أكـد روزنـبرج لمحاكميـه - جزء من الحضارة الغربية. (انظر: الموسوعة اليهودية، للمسيري)

(1) كان محـرر مجلـة الـنيو يـوركر، وهي من أهم المجلات الأمريكيـة، ورئيس إحـدى الوكالات الأدبية التي أنشأتها الحكومة الأمريكية إبَّان الحرب بغرض الحرب النفسية.

تَجسُّد لقوى أكبر منه، والهرطقة التي ينادي بها هتلر عمرها 2000 عام)، ومثـل هـذا الحـديث لا يختلـف كثـيراً عن الحـديث عن عبء الرجل الأبيض وعن الخطر الإسلامي ومن قبله الخطر الأصفر.

وقـد اشـترك بعض الزعمـاء والكُتَّاب اليهـود في هـذه الحملـة، فصـرح فلاديمـير جابوتنسـكي عــام 1934 بـأن مصلحــة اليهـود تتطلب الإبادة النهائية لألمانيـا، فالشـعب الألمــاني بأسـره يُشـكِّل تهديداً لنا.

سكت قليلا، ثم قال: لا شك أنكم قرأتم كتاب الكاتب الأمريكي تيودور كاوفمان بعنوان (لابد من إبادة ألمانيا).. إنــه من أهم الكتب المحرضة على الإبادة، وقد استفادت منه آلة الدعاية النازية، وبيَّنت أبعاد المؤامرة الإبادية ضـد الألمـان، وهـو مـا شـكَّل تـبريراً لفكـرة الإبادة النازية نفسها.

لقد ورد في هذا الكتـاب أن كـل الألمـان، مهمـا كـان تـوجههم السياسي (حتى لو كانوا معــادين للنازيــة، أو شــيوعيين، أو حـتى محبين لليهود) لا يستحقون الحياة، ولذا لابد من تجنيد آلاف الأطباء بعد الحرب ليقوموا بتعقيمهم حـتى يتسـنى إبـادة الجنس الألمـاني تماماً خلال ستين عاماً!

وكان هناك أحاديث كثيرة عن ضرورة هدم ألمانيا، وعن تحويل ألمانيا إلى بلد رعوية، أي هدم كل صناعاتها ومؤسساتها الحديثة.

ولم يكن كل هذا مجرد كلام..

لقد نجحت غارات الحلفاء على المدن الألمانية في إبادة مئـات الألــوف من المــدنيين من الرجــال والأطفــال والنســاء والعجــائز وتحطيم كل أشكال الحضارة والحياة.. وقد بلغ عدد ضحايا الغارات على مدينة درسدن الألمانية وحـدها 200 ألف قتـيل.

كما اسـتمرت النزعة الإبادية بعد الحرب،فقامت قوات الحلفاء بوضع مئات الألوف من الجنود الألمان في معسكرات اعتقــال وتم إهمــالهم عن عمــد، فتم تصــنيفهم على أســاس أنهم DEFS[1] أي (قوات معادية تم نزع سلاحها) بدلاً من تصنيفهم (أسرى حرب)

[1] () وهي اختصار عبارة (ديس آرميد إنيمي فورسيز disarmed enemy forces).

وإعــادة التصــنيف هــذه لم تكن تعــني ســوى حرمــانهم من المعاملة الإنسانية التي تنص عليها اتفاقيات جنيف الخاصة بأسـرى الحــرب، وبالفعــل قضــى 793.239 جنــدي ألمــاني نحبهم في معسـكرات الاعتـقال الأمريكية عام 1945،كمـا قضـى 167 ألـف نحبهم في معسكرات الاعتقـال الفرنسـية نتيجـةً للجـوع والمـرض والأحـوال الصـحية السـيئة، وفي الـوقت ذاتـه كـان يوجـد 13.5 مليون طرد طعام في مخازن الصـليب الأحمـر، تعمـدت سـلطات الحلفاء عدم توزيعها عليهم.

ولم تقتصر الإبادة على التصفية الجسدية بل كانت هنـاك إبـادة ثقافية، فقد قام الحلفاء بما سُمِّي (عملية نزع الصـبغة النازيـة عن ألمانيـا) للقضـاء على النـازيين في الحيـاة العامـة، فـأُقيمت 545 محكمة دائمـة على الأقـل يتبعهـا طـاقم من الفنـيين والسـكرتارية عددهم اثنان وعشرون ألفاً.

وقام الأمريكيون بتغطيـة ثلاثـة عشـر مليـون حالـة (أي معظم الـذكور الألمـان البـالغين)، وتم توجيــه الاتهــام إلى ثلاثـة مــلايين وسـبعمائة ألـف، أجـريت لهم محاكمـات عاجلـة، وأدين تسـعمائة وثلاثون ألفـاً منهم، وصـدرت أحكـام بشـأنهم من بينهـا 169.282 حكماً بتهمة ارتكاب جرائم نازية لا مجرد التعاون مع النظام النازي. وأصـــدر البريطانيـــون 22.296 حكـــماً والفرنســـيون 17.353 حكماً، والروس ثمانية عشر ألف حكم. وبحـلول عـام 1945، كـان قــد تم طــرد 141 ألــف ألمــاني من وظــائفهم، من بينهم معظم المدرسين في منطقة الاحتلال الأمريكية، وزُج بعدد أكبر من هـؤلاء في السجن.

وتظهر نفس النزعة الإبادية في استجابة الحلفاء لليابان، فقبـل اكتشاف القنبلة الذرية، كان الجنرال الأمـريكي كـورتيس لي مـاي يقوم بتحطيم مدن اليابان الواحـدة تلـو الأخـرى بشـكل منهجي لم يسبق له مثيل في التاريخ.. فخلال عشرة أيام في مـارس 1945، قامت الطائرات الأمريكية بطلعات جوية بلـغ عـددها 11.600، تم خلالها إغراق 32 ميل مربع من أكبر أربع مدن يابانية بالقنابل، وهو ما أدَّى إلى محو هذه المساحات وكل ما عليها من الوجود وتسببت في مقتل150.000. أما الغارات الجوية على طوكيو يوم 25 مايو

1945، فتسببت في اندلاع عاصفة نارية ضخمة حتى أن قائدي الطائرات المقاتلة كانوا يشمون رائحة لحم البشر المحترق وهم على ارتفاع آلاف الأقدام. وأدَّت هذه الغارات إلى مقتل الآلاف وتشريد مليون شخص على الأقل.

وكانت عملية الإبادة من الشمول لدرجة أن الجنرال جروفز المسئول عن مشروع مانهاتن لإنتاج القنبلة النووية كان يخشى ألا يجد أي هدف سليم يمكن أن يُلقي عليه بقنابله ويدمره.

ورغم أن الولايات المتحدة كانت تعرف أن اليابانيين كانوا قد بدأوا يفكرون بشكل جاد في إنهاء الحرب، فقد رأى الجنرال جروفز ضرورة استخدام القنبلة مهما كان الأمر ـ بعد أن تم إنفاق 2 بليون دولار في تطويرها وهو ما يُعادل 26 بليون دولار بحسابات اليوم ـ كما أن ترومان كان يشعر بعدم الثقة في نفسه أمام تشرشل وستالين، ولذا كان يود أن يذهب للاجتماع بهم وهو في موقع قوة، خصوصاً وأن الدب الروسي كان قد بدأ في التضخم. ومن ثم، كان لابد من إلقاء القنبلة الذرية بغض النظر عن عدد الضحايا أو حجم التدمير. وكان الجنرال جروفز (محظوظاً) (كما تقول بعض الدراسات) إذ وجد ضالته المنشودة في هيروشيما التي كان يقطنها 280 ألف نسمة، ووجد أنها محاطة بتلال يمكن أن تُحوِّل المدينة إلى جهنم حقيقية بعد الانفجار إذ أنها ستركز الحرارة، وبالفعل قُتل فور وقوع الانفجار 70 ألف مدني ومات 130 ألف آخرون بعد عدة شهور متأثرين بحروقهم من الإشعاع.

وكأن هيروشيما لم تكن كافية، فأُلقيت قنبلة أخرى على ناجازاكي، أدَّت هي الأخرى إلى مقتل 70 ألف آخرين، غير مئات الألوف الآخرين الذين لقوا مصرعهم فيما بعد، فما بين ألمانيا واليابان تم إبادة وإصابة حوالي مليوني شخص معظمهم من المدنيين.

ومثل هذا كان يقوم به النظام الستاليني ضد الشعوب الإسلامية المسالمة في الخانات التركية، والتي أصبحت الجمهوريات السوفيتية الإسلامية:

لقد كان عدد شعب التتار وحده يساوي عدد سكان روسيا، أمـا الآن فهو لا يُكوِّن سوى نسبة مئوية ضئيلة، ومصيره بهذا لا يختلــف كثيراً عن مصير السكان الأصليين في أستراليا وأمريكا الشمالية.

وقـد اسـتمر النظـام السـتاليني في عمليـات الإبـادة المنهجيـة والمنظمة لأعدائـه الطبقـيين مثـل الكـولاك الـذين قـاوموا تحويـل مزارعهم إلى مزارع جماعية، بل تم إبادة كثير من أعضـاء الحـزب الشيوعي ممن عارضوا الديكتاتور.

وكانت الإبادة تأخـذ أشـكالاً مختلفـة مثـل الإعـدام والعمـل في معسكرات السخرة. وقد بلغ عدد الضحايا 20 مليـون، مـات منهم 12 مليــون على الأقــل في معســكرات الجــولاج: هــذا حســب التقديرات المحافظة، أما أعداء النظام الستاليني فيقولون إن عدد الضحايا بلغ 50 مليوناً! وبعد حـوالي نصـف قـرن لا تـزال عمليـات الإبادة والتطهير العرْقي على قـدم وسـاق في البوسـنة والهرسـك والشيشان ولا تـزال بعض الـدول الغربيـة تـراقب هـذا بحيـاد غـير عادي.

قلنا: فحدثنا عن الإبـادة النازيـة الـتي اعتبرتهـا النمـوذج الأمثـل الذي تجلت فيه دموية قومنا.

قال: لا شك أنكم تعرفون الغجر(1)؟

قلنا: وكيف لا نعرفهم.. ما بهم؟

قال: لقد كانوا من الشعوب التي شملتهم عنصريتنا وكبرياؤنا.. فرحنا نبيدهم بكل ما أتاحت لنا وسائلنا من قدرات على الإبادة.

قلنا: لم نكن نعلم أن الإبادة مست هذا الشعب المسالم.. لقـد

1() الغجر مجموعةٌ متجوِّلةٌ من الناس عاش أسلافهم أصلاً في الهند، ويعيشون اليوم في كل جزء من العالم تقريباً. وقد استقر بعضهم، ولكن الكثيرين مازالوا رُحَّلا.. ولايعرف عدد الغجر لأنهم منتظمون في جماعات صـغيرة، ويتجنبـون الاتصـال بالجهـات الرسـمية. وتتراوح تقديرات أعداد الغجر في كلِّ أنحاء العالم بين مليون وستة ملايين. وتعيش أكــبر أعـداد الغجـر في أوروبـا الشـرقية. وتوجـد مجموعـات كثـيرة منهم تشـمل الكـالي في أسبانيا، والمانوش في فرنسا، والسنتْ في ألمانيا. وقبائـل رُوم هي الجماعـة الأكـبر من الغجر، وتعيش في كلِّ أنحاء العالم تقريباً. (انظر: الموسوعة العربية العالمية).

كنا نتصورها خاصة باليهود(2)؟

قــال: ذلــك من تلاعبنــا وتلاعب إعلامنــا بالحقــائق.. فنحن لم نشهر إبادة اليهود حبـا لليهـود، وإنمـا لنـوظفهم في إبـادة شـعوب أخرى واستغلال شعوب أخرى.. أما الغجر.. فلم نر لهم أي وظيفة، فلذلك لم نسقط عليهم أي دمعة.

قلنا: فحدثنا عن إبادة هذا الشعب الطيب.

قال: لقد كانت إبادة الغجر مُدرجة في برنامج ألمانيا النازيـة.. وكان لـدى شـرطة إقليم بافاريـا الألمـاني منـذ عـام 1899 قسـمٌ خاص بشـئون الغجـر يتلقى نسـخاً من قـرارات المحـاكم المكلّفـة بالبت في المخالفات التي يرتكبهـا الغجـر.. ثم تحـوَّل هـذا القسـم عام 1929 إلى مركز وطني مقـره ميونيــخ، وحُظـر على الغــجر منذ ذلك التاريخ التنقل بدون تصريح الشرطة، وكـان الغجـر الـذين يزيـد أعمـارهم على السادسـة عشـرة ولا يعملـون يُجـبرون على العمل لمدة سنتين في مركز من مراكز التأهيل.. وابتداءً من عــام 1933، وهو تاريخ وصول هتلر إلى الحكم، زادت تلك القيود شــدة وصرامة، وطُـرد الغجـر الـذين لا يحملـون الجنسـية الألمانيـة، وزُجّ بالباقين في المعتقلات بحجة أنهم (غير اجتماعيين)

ثم بدأ الاهتمام بالبحث في الخصـائص العِرقيـة للغجـر، فـأعلن الدكتور هانز جلوبكه ـ أحد المساهمين في صياغة قوانين نورمـبرج ـ عام 1936 ـ أن الدم الذي يجري في عروق الغجـر (دم أجنـبي)، ثم صنَّفهم الأستاذ هانز ف. حينـثر في فئـة مسـتقلة تمثـل مزيجـاً عرْقيــاً غــير محــدَّد (إذ لم يســتطع نفي أصــلهم الآري).. وبلغت الخصائص العرْقية لدى الغجر من الأهمية درجـة أهلتهـا لأن تصـلح موضـوعاً لرسـالة دكتـوراه، وممـا قالتـه إيفـا جوسـتين مسـاعدة الـدكتور ريتّـر في قسـم الأبحـاث العِرقيـة بـوزارة الصـحة (عنـد مناقشة رسالتها) إن الدم الغجري (يُشكِّل خطراً بالغـاً على صــفاء

2()ارتبطت عبارة (الإبادة النازية) بكلمة (اليهود) حتى يستقر في الأذهان أن النازيين لم يبيدوا سوى اليهود. وقد ساعد الإعلام الغـربي والصـهيوني على ترسـيخ هـذه الفكـرة حتى أصبح دور الضحية حكراً على اليهود. بل تطور الأمر إلى حد أنه إذا ما أراد باحث أن يبيِّن أن الإبـادة النازيـة لم تكن مقصـورة على اليهـود، وإنمـا هي ظـاهرة شـاملة ممتـدة تشمل الغجر والسلاف والبولنـديين وغـيرهم، فإنـه يصـبح هـدفاً لهجـوم شـرس. (انظـر: الموسوعة اليهودية، للمسيري)

الجنس الألماني)

ووجَّه طبيب يُدعَى الـدكتور بورتشـي مـذكرة إلى هتلـر يقـترح فيها فرض الأشغال الشاقة على الغجر وتعقيمــهم بالجملـة نظـراً لأنهم (يُشكِّلون خطراً على نقاء دم الفلاحين الألمان)

وفي 14 ديســمبر عــام 1936، صــدر قــرار أدى إلى تفــاقم أوضاع الغجر إذ وصمهم بأنهم (مجرمون معتـادون على الإجـرام)، وفي نهايـة عـام 1937 وخلال عـام 1938 شُـنت حملات اعتقـال جماعية عديدة ضد الغجر، وخُصِّص لهم جناح في معتقل بوخنولــد، وكـانت قـوائم الوفيـات في كثـير من المعسـكرات تحـوي أسـماء غجرية يُـذكر منهـا: ماوتهاوسـن وجوسـن وداوتمـرجن وناتلزفـايلر وفلوسـنبورج. وفي رافنسـبروك، راحت كثـيرات من نسـاء الغجـر ضحايا لتجارب أطباء الشرطة العسكرية الهتلرية الإس. إس. (SS).

وفي عام 1938، أصدر هملر بنفسه أمـراً بنقـل مقـر المركـز الوطـني لشـئون الغجـر إلى بـرلين، وفي السـنة نفسـها اعتُقـل ثلاثمائة غجري كان قد استقر بهم المقام في قرية مانفويرت حيث كانوا يملكون الحقول والكروم. وقد أمر هملر بتصـنيف الغجـر في الفئـات التاليـة: غجـري صـرف (Z)، وخلاسـي يغلب عليـه العـرْق الغجري (ZM+)، وخلاسي يغلب عليـه العـرْق الآري (ZM-)، وخلاسـي يتساوى فيه العرْقان الغجري والآري (ZM).

قلنا: فكيف تمت محاولات إبادة هذا الشعب؟

قال: هناك أسـاليب مختلفـة لـذلك.. منهـا إزالـة القـدرة على الإنجـاب.. ومنها اخـتطاف الأطفال.. ومنها الإبادة عن طريق الــزج في المعتقـلات.. ومنها الإبادة عن طريق الإفناء.

لقد عُقِّمت في مستشفى برسلدورف - ليبرنفلد نساء غجريات متزوجات من غـير الغجـر، ومـات بعضـهن على أثـر تعقيمهن وهنَّ حوامــل، وفي رافنسـبروك، قـام أطبــاء الإس. إس. بتعقيم مائــة وعشرين فتاة غجرية صغيرة.

وكان من أمثلة الإبـادة الجماعيـة عن طريـق الاعتقـال ترحيـل خمسة آلاف غجري من ألمانيا إلى جيتـو لـودز في بولنـدا، وكـانت

ظروف المعيشة في هذا الجيتـو من الفظاعـة بحيث لم ينج أحـد من هؤلاء الغجر من الهلاك.

ومع ذلك فإن الطريقة التي كـان يؤثرهـا النـازيون هي طريقـة الإفناء المباشر، وقد اتخذ قرار إبادة الغجـر بالإفنـاء في ربيـع عـام 1941 عندما شُكِّل ما عُرف باسم (فـرق الإعـدام)، ولكي يتحقـق ذلك كان يتعيَّن جمع الغجر في أماكن محـددة، فمنـذ صـدور قـرار هملر في 8 ديسمبر 1938، كانت أماكن سكنى الغجر قد أصبحت معروفة لـدى الشـرطة، ثم جـاء قـرار 17 نوفمـبر 1939 ليحظـر عليهم ترك منازلهم أو ليضعهم تحت طائلة الحبس في معسكرات الاعتقال، ورُحل ثلاثون ألـف غجـري إلى بولنـدا فلاقـوا حتفهم في معتقلات الموت في بلـزك وتربلينكـا وسـوبيبور ومايـدانك، شـأنهم شأن آلاف آخرين رُحلـوا من بلجيكـا وهولنـدا وفرنسـا إلى معتقـل أوشفيتس.

ويـروي هـويس، قائـد المعتقـل، في مذكراتـه أنـه كـان بين المعتقلين شيوخ ينـاهزون المائـة سـنة من العمـر ونسـاء حوامـل وأعداد كبيرة من الأطفال، كذلك يروي بعض السجناء الـذين نجـوا من الهلاك، كما يسرد كولكا وكرواس في كتابهمـا المعنـون مصـنع الموت، قصة مذبحة الغجر الرهيبة التي وقعت في ليلـة 31 يوليـه عام 1944.

وفي بولنـدا، كـان الغجـر يُقتلـون في معسـكرات المـوت أو يُعدمون في البراري.. وامتـد نطـاق القتـل إلى الاتحـاد السـوفيتي عندما اندلعت نيران الحرب بين الألمان والسوفييت، فكـانت فـرق الإعدام التابعـة للإس. إس. تسـير مـع الجيـوش الألمانيـة، وكـانت القبور الجماعية تملأ مناطق البلطيق وأوكرانيا والقـرم.. وفي ليلـة 24 ديسمبر 1941 أُعدم رمياً بالرصاص في سيمفيروبول ثمانمائة غجـري من الرجـال والنسـاء والأطفـال.. وحينمـا زحفت الجيـوش النازيـة، كـان الغجـر يُعتقلـون أو يُرحلـون إلى المعسـكرات أو يُقتلـون.. وفي يوغسـلافيا، كـان الغجـر واليهـود يُعـدمون في غابـة باجنيس.

قلنا: فقد أبيد كم كبير من هذا الشعب على حسب ما تذكر؟

قال: لا يمكن تصور عدد من أبيـدوا.. لأنـه من الصـعب تقـدير عدد الغجر الـذين كـانوا يعيشـون في أوربـا قبـل الحـرب العالميـة الثانيـة وعـدد ضـحايا هـذه الحـرب.. لكن يتـبيَّن من تقـارير فـرق الإعدام أن عدد الضحايا في روسيا وأوكرانيـا والقـرم بلـغ ثلاثمائـة ألف غجـري، بينمـا تُقـدر السـلطات اليوغسـلافية عـدد القتلى من الغجر بثمانية وعشرين ألفاً في الصرب وحـدها. أمـا عـدد الضـحايا في بولندا، فمن الصعب تقديره وإن كان المؤرخ تيننبـاوم يؤكـد أن الشعب الغجري فقد على الأقل خمسمائة ألف من أبنائه. هذا، مع العلم بأن الشعب الغجري شعب عريق وكثير النسل.

وعلى كل حال، ومهما اختلفت النسب، فإن نسبة من أُبيـد من الغجر إلى عددهم الكلي يفوق نسبة من أبيد من اليهود.

قلنا: فحدثنا عن إبادة اليهود.. أم أنك تنكرها؟

قال: لا يمكنني أن أنكر الجريمة.. لأن من أنكـر الجريمـة كـان مصرا عليها.. ولكني أنكر أن تتخذ الجريمة ذريعة لجريمة.

قلنا: ما تقصد؟

قال: أنتم تعلمون ما يفعله قومنا بذلك الشعب المسالم الـذي طرد من أرضه من أجل أن يسـكنها اليهـود.. وليس لهم من مـبرر لـذلك إلا أن هـذا الشـعب تعـرض لجريمـة.. ومـا دام قـد تعـرض لجريمة، فلا بد أن يدفع شعب آخر لا علاقة له بالجريمة الثمن.

سكت قليلا، ثم قال: إن هؤلاء الذي زجوا بهذا الشعب في تلك الأرض الطيبة المقدسة لينجسوها لم يفعلوا إلا مـا كـان يـود هتلـر فعله.. ولكن الأمر قصر به.. فراح يسرع إلى حل الإبادة.

لقد كان جوهر الفكـر النـازي، متمثلاً في كتابـات أدولـف هتلـر وغيره من المفكرين النازيين، لا يختلف كثـيراً عن فكـر سـير آرثـر بلفـور صـاحب الوعـد المشـهور وغـيره من الساسـة والمفكـرين الاستعماريين.. فكلٌ من هتلر وبلفور يدور داخل الإطـار الإمبريـالي العِـرقي المبـني على الإيمـان بالتفـاوت بين الأعـراق، وعلى حـل مشـاكل أوربا عن طريق تصـديرها.. وكلاهما يؤمن بفكرة الشـعب العضوي، وكلاهما يرى في اليهود عنصراً غير مرغـوب فيـه ويؤكـد،

من ثم، ضـرورة وضـع حـل نهـائي للمسـألة اليهوديـة في أوربـا، وكلاهمـا لا يلـتزم بأيـة منظومـة أخلاقيـة سـوى منظومـة المنفعـة المادية ومنظومة الصراع الداروينية، وقد تم الحل النهائي في حالة بلفور بنقل اليهود خارج إنجلترا وأوربا إلى فلسطين.

وقد حـاول هتلـر، في بدايـة الأمـر، أن يحـل مسـألته اليهوديـة بشـكل نهـائي أيضـاً، بـالطرق الاسـتعمارية السـلمية البلفوريـة التقليديـة، أي التخلص من الفـائض البشـري اليهـودي عن طريـق تصديره إلى رقعة أخرى خارج ألمانيا. وكان هتلـر يـدرك أن النقـل هو جزء من المنظومة الغربية وطريقة حلها للمشاكل. فقـد أشـار (في أغسـطس 1940) إلى أنـه تم إفـراغ بروسـيا الشـرقية من سـكانها الألمـان بعـد الحـرب العالميـة الأولى، وتسـاءل عن وجـه الضرر في نقل 600 ألف يهودي من أراضي الـرايخ (وكـان هنـاك مشروع نازي ترانسـفيري أكبر وهـو نقل 31 مليـون غـير ألمـاني من شرق أوربا، وهي عبارة بلفورية لا تختلف عن تلك العبارة التي وردت في وعد بلفور حيث تمت الإشارة لسكان فلسطين العـرب على أنهم (الجماعات غير اليهودية)

وداخل هذا التصور البلفوري الغربي تحرَّك هتلر لتنفيـذ خطتـه، حيث قام بشحن عشـرة آلاف يهـودي وأرسـلهم عـبر الحـدود إلى بولندا في 28 أكتوبر 1938، ولكن الحدود البولندية كانت موصـدة دونهـم، فبولندا هي الأخرى كانت تود الدفاع عن مصالحها المادية.

واسـتمرت المحاولات النازية التي تستهدف تهجير اليهـود حتى نهاية الحكم النـازي، فبُـذلت المحاولـة تلـو الأخـرى لتـوطينهم في سوريا وإكوادور وتم تشجيعهم على الهجرة إلى فلسـطين.. وكـان هناك مشروع صهيوني نازي يُسمَّى (مشروع مدغشقر) يهدف إلى تأسيس دولة يهودية في تلك الجزيرة الأفريقية، ولكن معظم هـذه المشـــروعات فشـــلت، ولم تُطـــرح بـــدائل أخـــرى، فالمجـــال الاسـتعماري الحيـوي لألمانيـا بعـد هزيمتهـا في الحـرب العالميـة الأولى، كان محدوداً.

في ذلك الحين لم تكن الدول الغربية ـ الـتي تتبـاكى حـتى الآن على ضحايا الإبادة ـ ترحب بالمهاجرين اليهود أو غيرهم.

وكان هتلر يسمي خطة النقـل هـذه (الحـل الشـامل) و(الحـل النهائي)، ولكن هذا الحـل النهـائي البلفـوري لم يكن متاحـاً لهتلـر، ولذا لم يكن أمـامه سـوى اسـتبعاد اليهـود بطريقـة غـير بلفوريـة، وتتميَّز بكونها أكثر حدة ومنهجية وتبلوراً وسـوقية، ومـع هـذا يميـل كثير من العلمـاء إلى القـول بـأن (الحـل النهـائي النـازي للمسـألة اليهودية) ظل ذا طابع بلفوري حتى النهاية، أي حل نهائي من خلال التهجير القسري إمـا إلى المسـتعمرات في آسـيا وأفريقيـا أو إلى معسكرات العمل والسخرة في ألمانيا، التي لم تكن الأوضاع فيهـا تختلف كثيراً عن الأوضاع السائدة في المستعمرات.

قلنا: فحدثنا عن تلك الأعـداد الضـخمة من اليهـود الـتي أبادهـا النازيون.

قال: أنا لم أحضـر تلـك العمليـات بالدقـة الـتي وصـفت بهـا.. ولكن لي أصدقاء كثيرين حضروا.. وقد أخـبروني أخبـارا مختلفـة.. وأنـا لا أسـتطيع أن أصـدقهم جميعـا، ولا أن أكـذبهم جميعـا.. فقـد تعلمت من النــور والســلام والصــفاء عنــدما التقيت بــه أنــه من الجريمة أن نتهم المجرم بما لم يرتكبه من الجرائم.

كل ما أعلمه من ذلك أنـه عنـدما أقيمت معسـكرات الاعتقـال في ألمانيـا عـام 1933 بعـد اسـتيلاء النـازيين على الحكم، كـان البوليس السـري الألمـاني (جسـتابو) يقـوم بـالقبض على خصـوم الحكومـة النازيـة واحتجـازهم في هـذه المعسـكرات، وحين عظم نفـوذ الجسـتابو وأُعطي الحريـة المطلقـة في التصـرف، أصـبحت عمليــات القبض تتم على نطــاق واســع، فقُبض على جماعــات بأكملها ثم أُرسلت إلى معسكرات الاعتقال.

ولم تكن هذه العمليات موجهة ضد اليهـود بالـذات، وإنمـا كـان يُعتقل كل من يشكل خطراً على الدولة الجديـدة بغض النظـر عن دينـه أو جنسـيته.. وقـد وقعت أول حادثـة موجهـة ضـد اليهـود في نوفمــبر 1938 عنــدما وُضــع عشــرون ألــف يهــودي في هــذه المعســكرات في داخــاو وبوخنوالــد.. ومن معســكرات الاعتقــال الشهيرة الأخرى، معسكر برجن بلسن.

ومما أعلمه بدقة في هذا أنه أُقيمت ستة معسكرات للاعتقــال

والإبـادة في بولنـدا، وقـد أُرسـل إلى هـذه المعسـكرات كثـير من الضحايا اليهود والغجر والسلاف وغيرهم، من كل أنحاء أوربا.. وقد ذكر لي أن كل معسكر كان مزوداً بأدوات متنوعة للإبادة مثل فرق إطلاق النيران، وأدشاش المياه التي تطلق الغاز، والمحارق(1).

وممـا أعلمـه بدقـة أن معسـكرات الاعتقـال لم تكن مخصصـة لليهود وحدهم، وإنما كانت أداة من أدوات النظام النـازي تُسـتخدَم لتحقيق أهدافه القومية، بل إن عدد ضحاياها من غير اليهـود يفـوق عدد ضحاياها من اليهود.

سكت قليلا، ثم قال: لماذا يلام النازيون وحــدهم على معتقلات الإبادة.. الكل مارس الاعتقال.. والكل مارس الإبادة..

لا شك أنكم تعلمون أنه منذ بداية التشـكيل الحضـاري الغـربي الحديث أصبحت معسكرات الاعتقال والإبـادة نمطـاً متكـرراً، حيث تم نقــل ســكان أمريكــا الأصــليين الهنــود الحمــر إلى معســكرات اعتقال منعزلة تمهيداً لإبادتهم بشكل مباشر أو غير مباشر.. وكانت عمليــة النقــل ذات طــابع إبــادي. وكــان الســود، الــذين يجــري اصــطيادهم في أفريقيــا ونقلهم إلى أمريكــا، يتم وضــعهم في معسكرات أيضاً، ويسكنون في مسـاكن هي أقـرب مـا تكـون إلى

1()يذكر المسيري أن الكثير من الباحثين يثير الشكوك حول وجود أفران الغـاز أصـلاً وقد صدرت عدة دراسات موثقة في هذا الشأن.

كما تُثار الشكوك حول استخدام غاز زايكلون بي Zyclon B. في أفران الغـاز. إذ تشـير معظم الدراسات إلى أن استخدام مثل هذا الغاز يتطلب احتياطـات فنيـة عاليـة، مكلفـة للغاية (يجب أن تكون الغرفة محكمة تماماً ــ لابـد من تهويتهـا لمـدة عشـر سـاعات بعـد استخدامها ـ يجب أن تكون المفاصل مصنوعة من الإسبستوس أو التيفلون). ومثـل هـذه الاحتياطــات لم تكن متــوفرة للألمــان تحت ظــروف الحــرب، وهــو مــا يعــني اســتحالة استخدامه على نطاق واسع. وقد ورد كل هذا في تقرير ليوشتر Leuchter Report، الـذي كان يعمل مستشاراً لولاية ميسوري وكان متخصصاً في مثل هذه الأمور (ومما لـه دلالتـه أن كثيراً من حكومات الولايات المتحدة، التي كانت تستخدم هذا الغاز في عمليات إعدام المجرمين، قررت الاستغناء عنه، بسبب تكلفته العالية).

وثمة نظرية تذهب إلى أن غُرف الغاز الموجودة إنما كانت غُرف غاز لتعقيم الخارجين والداخلين إلى المعسكر. أما المقابر الجماعية فهي مقابر الآلاف الـذين لقـوا حتفهم بعـد انتشار الأوبئة كالملاريا والتيفود، وهو أمر مُتوقَّع في ظل ظـروف الحـرب وفقـر الرعايـة الصحية. ويرى أنصار هذه النظرية أن الإبادة لم تكن عملية منظمة مقصـودة تمت دفعـة واحدة، وإنما تمت نتيجةً لعناصر مختلفة فرضت نفسها بسبب ظروف الحرب مثـل سـوء التغذية والأوبئة وغيرها، وأن من أُبيدوا بطريقة منهجية منظمة أعـداد صـغيرة جـداً، وهي قضية خلافية. (انظر: الموسوعة اليهودية للمسيري)

معسكرات السخرة.. وفي الحرب العالمية الثانية، وضعت الولايات المتحـدة الغالبيـة السـاحقة من المواطـنين الأمريكـيين من أصـل ياباني في معسكرات مماثلة.. وفي جنوب أفريقيـا قـامت حكومـة التفرقة اللونية (الأبارتهايد) البيضاء بوضع المواطنين الأصــليين في معازل جماعية..

قلنا: والنازية.. ماذا فعلت؟

قال: في النازية التي تمثل قمة الإنسـانية بمفهومنـا الغـربي.. تبدَّى الموقـف الحيـادي الـدارويني في موقـف النـازيين من العلم، وزعمهم انفصاله عن القيمة وعن الغائية الإنسـانية، في واحــد من أهم المفاهيم الطبية (العلمية المحايدة) في القـرن التاسـع عشـر، وهو مفهوم (الصحة العرْقيـة)، الـذي ينطلـق من ضـرورة الحفـاظ على وحدة الشعب العضوي وعلى بقائه (فهما سر تفوقــه ورقيــه) عن طريق التخلص من العناصر الضارة أو غير النافعـة (الـتي تُعـدُّ تعبيراً عن انهيار العـرْق وانحطاطـه)؛ وثمـة كتابـات عديـدة بجميـع اللغات الأوربية في هـذا الموضـوع. ومن أهم المفـاهيم المرتبطـة بالصحة العرْقية مفهوم اليوثينيجيا euthenesia أو مـا يُسـمَّى (القتـل الــرحيم)، أي التخلص من المعــوقين وغــيرهم (مثــل المرضــى بأمراض مزمنة)

سكت قليلا، ثم قال: أذكر جيدا أنه في تلك الأيام الـتي صـارت الدماء فيها كالأمطار.. بل كالسيول والأنهار.. أصدرت النخبة النازية عدة قوانين لضمان الصحة العرْقية، فوضعوا البشر تحت تصنيفات مختلفة.. يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

أمـا القسـم الأول، فهم المسـتهلكون الـذين لا نفـع اقتصـادي لهم.. مثــل المعتــوهين والمتخلفين عقليــاً والمصــابين بانفصــام الشخصـية والأطفـال المعـوقين والأفـراد المتقـدمين في السـن والمصابين بالسل، والمرضى الميئوس من شـفائهم.. وكـان يُضَـم لهـؤلاء الجنـود الألمـان الـذين أصـيبوا أثنـاء العمليـات العسـكرية، فعلاجهم كان يُشكِّل عبئاً على ميزانية الدولة.

وأما الثاني، فهم المنحلون، وهم الشـيوعيون والشـواذ جنسـياً وعـدد كبـير من أعـداء المجتمـع الـذين يتسـمون بالسـلوك غـير

الاجتماعي، مثل مدمني الكحول والعـاهرات والمجـرمين ومـدمني المخدرات ومن لا مأوى لهم.

وأما الثالث، فهم أعضاء الأجناس الـدنيا مثـل السـلاف والغجـر واليهود والأقزام، فهم غرباء داخل الفولك الألماني ولا يوجـد مـبرر قوي لوجودهم إلا باعتبارهم مادة خاماً تُوظَّف لصالح الجنس الآري الأرقى، خاصةً أن بعضهم،مثل البولنديين، يشغلون المجال الحيوي لألمانيا.

وفي 14 يوليه 1933.. أي في اليـوم التـالي لتوقيـع المعاهـدة مع الفاتيكان، أصدر النازيون قانونـاً يُسـمَّى (قـانون التعقيم) لمنـع بعض القطاعـات البشـرية مثـل المعـوقين والمرضـى النفسـيين والمرضـى بالصـرع والعمى الـوراثي والصـمم الـوراثي والتشـوه الخلقي والإدمان المتطرف للكحول من التكاثر، وبالفعل، تم تعقيم أربعمائة ألف مواطن ألماني..

وفي عـام 1935، صـدر قـانون بمنـع العلاقـات الجنسـية بين اليهود وأعضـاء الأعـراق غـير الراقيـة من جهـة والألمـان من جهـة أخرى، وذلك للحفاظ على النقاء العرْقي.

بعدها أُعلن عام 1939 عاماً يراعي فيه المواطن واجب التمتع بصحة جيدة، وطُلب من كل طبيب أو دايـة أن تُبلـغ عن أي مولـود جديـد معـوق، وبـدأت عمليـة القتـل الموضـوعي (أو العلمي أو المحايد) لهـؤلاء الـذين لا يمكن شـفاؤهم مثـل المعـوقين وغـيرهم تحت عنوان مشروع عنه (تي فور T4)، وظهرت وثائق تبين أنه قُتل سـبعون ألـف معـوق وعـاجز يـأكلون ولا ينتجـون.. كـانوا حينهـا يسمونهم (آكلون غير نـافعين).. والـذين كـانوا يُشـكِّلون عبئـاً على الاقتصاد الوطني ويعوقون التقدم حسب رؤيتنـا الاسـتعلائية.. وقـد تمت إبـادتهم بمقتضـى برنـامج (تجنب العـدوى والقضـاء على الجراثيم).. أي برنامج إبادة المجرمين والمتخلفين وربما المسنين.

وقد أدَّى ذلك ـ كما جاء في إحدى الدراسات العلميـة الألمانيـة الرصينة ـ إلى توفير 239.067.020 كيلـو جرامـاً من المـربى في العام.

أذكر أن لجنة ـ في ذلك الحين ـ كانت قد أُنشئت للعلاج العلمي

للأمراض الوراثية الخطيرة أوصت بقتل الأطفال المشوهين، وكـان هؤلاء وغيرهم يُرسلون إلى مستشفيات، فكانوا يوضعون في عنابر خاصة ثم يتم الإجهاز عليهم عن طريق أفران غاز مخبأة على هيئة أدشاش، ومحـارق لحـرق الجثث، وقـد طُبِّق المعيـار نفسـه، بعض الـوقت، على الجنـود الألمـان الجـرحى في الحـرب، إذ أن عمليـة علاجهم كانت ستُكلف الدولة الكثير، ثم طُبِّقت عمليات الإبادة هذه بصورة أوسع على أسرى الحرب.

وقد صُنِّف اليهود ـ حينها ـ باعتبارهم مرضى، وذلك نظـراً لعـدم نقائهم العرْقي، ومن ثم أصبح من الضروري إبادتهم، شـأنهم شـأن العناصر الألمانية غير النافعـة. ومن جهـة أخـرى، تم توسـيع نطـاق برنامج القتل المحايد أو العلمي ليضم المجرمين كافة، يهوداً وغــير يهود.. وكان اليهـود يُعتـبرون أيضـاً ذوي اسـتعداد إجـرامي طـبيعي بسبب اختلاط خصائصهم الوراثية. ولذا، طُبق البرنامج على اليهـود الموجودين في المستشفيات جميعاً.

ومن أهم تجليـات الحيـاد العلمي الـذي اتسـمت بـه عمليـات الإبـادة، تلـك التجـارب العلميـة الـتي كـان النـازيون يجرونهـا على خنـازير التجـارب البشـرية وهي تجـارب منفصـلة تمامـاً عن أيـة منظومات قيمية:

لقد كان النازيون يختارون بعض العناصر التي لها أهمية تجريبية خاصــة لإجـراء التجـارب عليهـا، وكـان هـذا يتم بسـهولة ويســر وسلاسة؛ لأن البشر تحولوا إلى مادة محايدة في عقـول القـائمين على هذه التجارب.

وممـا أذكـر من ذلـك أن الطـبيب هـانس إيسـيل كـان يقـوم بعمليات استئصال دون تخدير ليدرس أثرها، وأُجريت تجارب أخرى على نزلاء معسكرات الاعتقال لا تقـل رهبـة عن تجـارب إيسـيل.. وكان بعضهم يُطلَـق عليـه الرصـاص لاختبـار فعاليتـه في الحـرب، وعُرّض آخرون لغازات سامة في عمليات اختباريـة.. وكـان البعض يوضعون في غرفة مفرغة من الهواء لمعرفة المدة الـتي يسـتطيع الإنسان خلالهـا أن يظـل حيـاً وهـو على ارتفاعـات عاليـة أو بـدون أوكسـجين.. وكـان الأوكسـجين يُقلـل تـدريجياً ويخفض الضـغط، فتزداد آلام خنازير التجارب البشرية شيئاً فشيئاً حتى تصبح آلامـاً لا

يمكن احتمالها حتى تنفجر رئاتهم.. كما كان الضغط الــداخلي على أغشية طبلات الآذان يسبب لهم عذاباً يوصلهم إلى حد الجنون.

وكان الدكتور راشر، وهو عالم نـازي آخـر، شـمولياً في أبحاثـه إلى درجة عالية، فقام بتزويد غـرف الضـغط في النهايـة بمـبردات تجبر عيناته على مواجهة شروط أقرب مـا تكـون إلى الارتفاعـات العالية.

وكان هذا الدكتور مسئولاً عن الكثير من تجـارب التجميـد الـتي يتعرض فيها الأشخاص إلى البرد الشـديد المسـتمر حـتى المـوت، وكان الهدف معرفة مدة مقاومتهم، وبقائهم أحياء، وما الذي يمكن صنعه لإطالة حياة الطيارين الـذين يسـقطون في ميـاه متجمـدة.. وكــان بعض نــزلاء داخــاو ضــمن ضـحايا راشــر أو ضــمن خنــازير تجارية.. فكان يتم غمر الضحايا في وعاء ضـخم، أو كـانوا يُـتركون عُراة في الخارج طوال الليالي الثلجية.

وفي أواخر شتاء عام 1943، حدثت موجة برد شـديدة، فتُـرك بعض السجناء عراة في الخلاء أربع عشرة سـاعة، تجمـدت خلالهـا أطرافهم وسطوح أجسامهم الخارجية وانخفضـت درجـة حـرارتهم الداخلية، وكان أسلوب العمل هو تجميد السجناء تدريجياً مع متابعة النبض والتنفس ودرجة الحرارة وضغط الدم وغير ذلك.

وكانت هناك تجارب أخرى من بينهـا تدفئـة أشـخاص مثلجين.. وبنــاءً على تقريــر راشــر، أجــريت أكــثر من أربعمائــة تجربــة على ثلاثمائة ضحية، وقــد مــات من هــؤلاء زهــاء تسـعين شخصــاً نتيجــةً لمعــالجتهم، وجُنَّ عــددٌ ممن بقى، أمــا الآخــرون، فقــد قُتلــوا لكيلا يتحولـوا إلى شـهود مـزعجين فيمـا بعـد.. وقـد توصـل راشـر إلى حقائق علمية جديدة تتحدى كثـيراً من المقـولات العلميـة السـائدة في عصره، وأُجريت بالطبع تجـارب لا حصـر لهـا على نـزلاء أحيـاء في معســكرات الاعتقــال، من بينهــا الحقن بالســم أو بــالهواء أو البكتريـا، معظمهـا مـؤلم وكلهـا قاتلـة، كمـا أُجـريت تجـارب زرع الغرغرينا في الجروح وترقيع العظام وتجارب التعقيم.

وفي الإطار التجريبي نفسه كان يتم اختيـار التـوائم وإرسـالهم إلى الطبيب النازي الشهير الـدكتور منجـل لإجـراء تجـارب علميـة

فريدة عليهم، لا يمكن للعلماء الآخرين القيام بها نظراً لعـدم تـوفر العينـات اللازمـة. فكـان يفصـل التـوأمين ويضـعهما في غرفـتين منفصلتين، ثم يعذب أحدهما أحياناً ليدرس أثر عملية التعذيب على الآخر، بل كان يقتل أحدهما لدراسة أثر هـذه العمليـة على الآخـر.. لقد قـال بريمـو ليفي يـذكر ذلـك: (إن ألمانيـا النازيـة هي المكـان الوحيد الذي كان بوسع العلماء أن يدرسـوا فيـه جثـتى تـوأمين قُتلا في نفس اللحظة)

وقد أجرى بعض العلماء تجارب على أمخاخ الضحايا، وقد اختار د. برجر، التابع لإدارة الإس. إس. عـدداً من العينـات البشـرية (79 يهودياً ـ بولندیان ـ 4 آسيويين ـ 30 يهودية) تم إرسـالهم لمعسـكر أوشفيتس ثم قتلهم بناء على طلب عالم التشريح الأستاذ الـدكتور هيرت الذي أبدى رغبة علمية حقيقيـة في تكـوين مجموعـة كاملـة وممثلة من الهياكل العظمية اليهودية.. كما كان مهتماً بدراسـة أثـر الغازات الخانقـة على الإنسـان.. أمـا الـدكتور برجـر نفسـه فكـان مهتمـاً بالآسـيويين وجمـاجمهم، وكـان يحـاول أن يكـوِّن مجموعتـه الخاصة.

أذكر أنه ورد إلى علم البروفسور هاليروفوردن أنبـاء عن إبـادة بعض العناصر البشرية (التي لا تسـتحق الحيـاة)، فقـال للموظـف المسئول بشـكل تلقـائي: إن كنتم سـتقتلون كـل هـؤلاء، فلمـاذا لا تعطوننـا أمخـاخهم حـتى يمكن اسـتخدامها؟، فسـأله: كم تريـد؟ فأجـاب: عـدد لا يحصـى، كلمـا زاد العـدد كـان أفضـل. ويقـول البروفسـور المـذكور إنـه أعطـاهم بعـد ذلـك الأحمـاض اللازمـة والقوارير الخاصـة بحفـظ الأمخـاخ. وكم كـانت فرحـة البروفسـور حينما وجد أمخـاخ معـوقين عقلـيين (في غايـة الجمـال) و(أمخـاخ أطفال مصابة بأمراض الطفولـة أو تشـوهات خلقيـة)، وقـد لاحـظ أحد العاملين في مركز من مراكز البحوث أن عدد أمخاخ الأطفـال المتوفرة لإجراء التجارب أخذت تتزايد بشكل ملحوظ، ونتيجةً لهـذا تم الحصول على مواد مهمة تلقي الضوء على أمراض المخ.

وإلى جوار المادة البشرية الاستعمالية النافعة التي تُجرى عليها التجارب وتُدرس بعناية وموضوعية وحياد، كانت هناك المـادة الـتي لا يُرجى منها نفع أو ضر، وكان أمثال هؤلاء يُبادون ببساطة شديدة

من خلال عمليـات التصـفية الجسـدية السـريعة، الـتي تقـوم بهـا جماعـات خاصـة أو فـرق متنقلـة تقـف وراء خطـوط الجيـوش الألمانية.. وكانت طريقة الإبادة هذه سريعة وغـير مكلفـة إذ كـانت تُقام مقابر جماعية يُلقى فيها بالضحايا بعد أن يحفروها بأنفسـهم.. كما كانت الإبادة تتم أحياناً بواسطة سـيارات مجهـزة بحجـرة غـاز يتم التخلص فيها من الضحايا دون حاجة إلى نقلهم إلى معسكرات الإبادة، وقد تم التخلص بهذه الطريقة من جـرحى الحـرب الألمـان ممن لا يُرجى لهم شفاء أو ستتكلف عملية تمريضـهم الكثـير، كمـا تمت إبـادة أعـداد كبـيرة من أعضـاء النخبـة الثقافيـة البولنديـة، والفائض السكاني الروسي.

حتى بعد قرار الإبادة على طريقة التصفية الجسدية، كان ديدن النازيين دائماً هـو الحـرص الكامـل على ممتلكـات الدولـة وخدمـة مصالحها، ولذا كان يتم تجريد الضحايا من أية مواد نافعة حـتى من الحشوات الذهبية التي في أسنانهم، وقد سـاهم هـذا في تحسـين ميزان المدفوعات الألماني.

وقد كانت عملية التوظيف عميقـة إلى الحـد الـذي لا يتصـور و فقـد كـانت البقايـا البشـرية (مثـل الشـعر) تُسـتخدَم في حشـو المراتب، ويُقال إنها كانت مريحة للغاية وزهيدة الأسـعار، ولم يكن الرماد البشري يُستخدَم كشكل من أشكال السماد وحسب، وإنمـا كمادة عازلة أيضاً، وكـانت العظـام البشـرية تُطحن وتُسـتخدَم في أغراض صناعية مفيدة مختلفة. بل يُقـال إن بعض الأنـواع الفـاخرة من الصابون صُنعت من الشحومات البشرية.

قلنا: فما مدى صحة ما يشـاع من أن الإبـادة المنظمـة قضـت على ستة ملايين يهودي؟

قال: قد يكون ذلك صـحيحا.. وقـد لا يكـون صـحيحا.. فأنـا لم أحص العدد بالضبط، لأني كنت مهتما بشرب دماء القتلى من غـير اهتمام بأعراقهم ولا دياناتهم.. كانت الدماء متشـابهة بالنسـبة لي.. فلم أكن أميز بين يهودي وغير يهودي.

لكن الذي أعلمه أن عـدد ضـحايا الحـرب كـان مـا بين خمسـة وثلاثين مليوناً وخمسين مليـون، وأن الاتحـاد السـوفيتي خسـر في

الحرب العالمية الثانيـة مـا بين سـبعة عشـر وعشـرين مليونـاً بين مدنيين وعسكريين، وخسر البولنديون نحـو خمسـة ملايين بعضـهم من اليهود، وخسر الصينيون ما يزيد على عشرة ملايين ماتوا جوعاً أو قتلاً على يد الاحتلال الياباني.

والذي أعمله كذلك.. وهو مما يخص المنهج الذي ذكـر بـه ذلـك العـدد الضـخم.. هـو أن أهم معسـكرات الاعتقـال.. هـو معتقـل أوشفيتس.. والذي اشتهر بأن عدد ضحاياه هـو أربعـة ملايين، منهم مليون ونصف مليون يهودي، والباقون غير يهود.. لم يكن لـه سـند يمكن الوثوق به.

فالسـند الأساسـي لإبـادة هـذه الملايين في أوشـفيتس هي اعترافـات رودولـف هس أثنـاء محاكمـات نورمـبرج، وقـد ثبت أن كثيراً من أدلة الاتهامات في محاكمـات نورمـبرج هي في معظمهـا اعترافات يدين خلالها المتهمون أنفسهم، بعـد أن ظلـوا في الأسـر عامين أو يزيد تعرضوا فيها للتعذيب والامتهان.. وقـد اسـتُبعد عـدد كبير من الوثائق والشهادات التي كان من شأنها تحطيم الأسـاطير التي حاول الحلفاء نسجها.. وهنـاك من البحـوث مـا يشـير إلى أن العـدد الإجمـالي لا يمكن أن يزيـد على 1.6 مليـون، وأنهم قضـوا حتفهم لا من خلال أفـران الغـاز وإنمـا بسـبب الجـوع والمـرض، والموت أثناء التعذيب، والانتحار.. وفي عام 1994 تم تغيير اللافتـة الموضوعة على المعسكر، فبعد أن كانت اللافتـة القديمـة تتحـدث عن مقتـل أربعـة ملايين رجـل وامـرأة وطفـل أصـبحت اللافتـة الجديدة تتحدث عن مليون ونصف فقط.

قال ذلك، ثم فجأة صـار يضـحك ضـحكات هسـتيرية، ثم قـال: أتعلمون ما تختزنه خزائن المجرمين من أسلحة الإبادة؟

ثم أجاب نفسه قائلا: إنها أكثر.. أكثر... أكـثر بكثـير من مخـازن الخبز.. والماء.. والهواء..

إن البشـــر العاشـــق للـــدماء اليـــوم من القنابـــل الذريـــة والهيدروجينية ما يكفي لتدمير الأرض كلها (12) مرة ونصف!

وكـان في حـوزة الاتحـاد السـوفييتي عـام 1974م (1520) صاروخاً عابر القارات، و (270) صاروخاً نووياً خاصاً بالغواصـات، و

(700) صــاروخاً متوســطة المــدى، و (200) صــاروخاً قصــيرة المدى!!

أما أميركا فقد كان لديها (1054) صـاروخاً عـابر القـارات، و (544) صـــاروخاً خاصـــاً بالغواصـــات، و (1000) من الصـــواريخ المتوسطة المدى، و(1000) من الصواريخ القصيرة المدى.

وقـد ذكـر معهـد الدراسـات الاسـتراتيجية بلنـدن، في دراسـة نشرها عام 1972م: أن المخزون النووي لكـل شـخص على وجـه الأرض يبلغ خمسة عشـر طنـاً من مـادة (ت. ن. ت.) في حين أن مخزون المواد الغذائية لا يزيد عن نصف طن للشخص الواحد.

ويضــيف التقريــر: إن حجم الإنفاقــات العســكرية في العــالم يساوي الدخل القومي لدول العـالم الثـالث، وأن الـدول المتخلفـة تنفق ما بين 30 و 60 بالمائة من مزانيتها على السلاح.

والأغرب من كل ذلك هو هذا الاختراع الجديد: (قنبلة النيـترون) والتي لا تصيب العمارات والمصانع والآلات بأي سوء يـذكر، ولكنهـا تفني الإنسان والأحياء وتسلبهم الحياة في لحظات قصيرة.

وهنــاك ســلاح ســام رهيب كيمــاوي بيولــوجي، يســتخرج من جرثومة اسمها: Ghlostridium Botulinus، وهي تسبب عادة تسمماً غذائياً مميتاً، ويكفي ما مقـداره 8 أونس أي حـوالي (225) غرامـاً لقتـل كل سكان العالم.

أما مادة (ال - اس - دي L. S. D.) فيكفي أن نضع منها كيلوغراماً واحداً في خزان مياه لتعطيـل سـكان مدينـة بأسـرها بالتـأثير على الأجسام والعقول معاً.. يقول الدكتور (جـرودن تيلـور) البريطـاني: (لقد أوصى الجنرالات الأميركان باستعمال (ال - اس - دي L. S. D.) في الحرب، لأنها تـؤثر على عزيمـة وإرادة المقاومـة عنـد الأعـداء مدعين -أي الجنرالات الأميركان- أن هذا السلاح هو سلاح إنســاني لا يسبب إراقة الدماء)

وتقول بعض المصادر: (إن الولايـات المتحـدة الأميركيـة تملـك كميـة مخـزون من غـازات الأعصـاب القاتلـة تكفي لإبـادة سـكان العالم جميعاً.. حتى ولو كان عددهم أكثر مما هو الآن بثلاثين مــرة،

وأن روسيا تملك قدرة تفوق قـدرة العـالم الغـربي بسـبع أو ثمـان مرات في مجال الأسلحة الكيماوية والجرثومية)

الإرهاب:

قلنا: فما السادس؟

قال: الإرهاب(1)..

قلنا: ذلـك الـذي رمي بـه المسـلمون.. وذلـك الـذي نحن تحت أسره.

قال: أجل.. ولو أني أشـك في مـدى مصـداقية الإرهـاب على الإسلام أو على المسلمين..

قلنا: فهل كنت أرهابيا؟

قـال: أكـثر ممـا يمكن أن تتصـوروا.. ولم تكن تلـك النصـوص المقدسة وحدها هي السبب في تحويلي إلى إرهابي.. وإنمـا أخبـار تلك البطولات الكثيرة التي أخبرني بها الكاهن..

وأولها خبر شمشـون(2) العظيم.. والـذي خصـص لـه الكتـاب المقدس أربع سور كاملة في سفر القضاة تبدأ من التباشـير الـتي سبقت مولده، وتنتهي بوفاته.. لقد كانت قصته بالنسبة لي نموذجـا للبطولة التي يريدها الرب..

1() نقصد بالإرهاب ـ هنا ـ وهو ما صار يفهم بـه في الكثـير من المجـامع: هـو العنـف المستعمل تحت مظلة دين، أو القصد منه تبليغ فكرة أو نظام له علاقة بالدين.

2()شمشون Samson اسم عبري، وهو تصـغير لكلمـة (شـمس)، وهـو اسـم لشـخص يُشار إليه أحياناً بأنه آخر القضاة، فقد كان قاضياً من قبيلة دان مدة عشـرين سـنة، (لكن من الكتب ما يشير إلى صموئيل أيضاً باعتباره آخر القضاة)

وتشير قصته منذ البداية إلى اجتبائه، فأمه كانت عاقراً مثل سارة ثم جاء ملاك الـرب (كما في قصة إبراهيم أيضـاً)، فعـرف أبـواه قبـل ولادتـه أنـه سيصـبح من المنـذورين أي شخصاً يُكرس حياته للعبادة وينذرها للـرب، فيمتنـع عن شـرب الخمـر أو حلـق رأسـه أو لمس جلد ميت. وقد اشتهر شمشون بقوته الجسدية الخارقة.

وقد ذكرنا قصته بالتفصيل وما تحويه من الدلالات في رسالة (الكلمات المقدسـة) من هذه السلسلة.

بعدها أخبرني الكاهن عن تلك البطولات العظيمة التي قام بها حملة الصليب الذين ذهبوا إلى بلاد المسلمين ليطهروها من الرجس، ويملأوها ببركات المسيح.. لقد حدثني عما ذكره ستيفن رنسيمان في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية) عن أحداث اليوم الأول من دخول الصليبيين القدس، فقال : (وفي الصباح الباكر من اليوم التالي اقتحم باب المسجد ثلة من الصليبيين، فأجهزت على جميع اللاجئين إليه، وحينما توجه قائد القوة ريموند اجيل في الضحى لزيارة ساحة المعبد أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه وتركت مذبحة بيت المقدس أثرا عميقا في جميع العالم، وليس معروفا بالضبط عدد ضحاياها غير أنها أدت إلى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود بل إن كثير من المسيحيين اشتد جزعهم لما حدث)

ووصف لي بانفعال ما ذكره كثير من المؤرخين من أحداث المذبحة البطولية التي حدثت في القدس يوم دخول الصليبيين إليها، وكيف أنهم كانوا يزهون بانفسهم لأن ركب خيولهم كانت تخوض في دماء المسلمين التي سالت في الشوارع.. بل قد كان من وسائل الترفيه لدى الصليبيين أن يشووا أطفال المسلمين كما تشوى النعاج.

ووصف لي ما فعل ريتشارد قلب الأسد في الحملة الصليبية الثالثة عند احتلاله لعكا بأسرى المسلمين فقد ذبح 2700 أسير من أسرى المسلمين الذين كانوا في حامية عكا، وقد لقيت زوجات وأطفال الأسرى مصرعهم الى جوارهم.

وحدثني بما رواه ابن الاثير.. ذلك المؤرخ الإسلامي الثقة.. في تاريخه عن دخول الصليبين للقدس في الحروب الصليبية فقال: (ملك الفرنج القدس نهار يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان، وركب الناس السيف، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعا يقتلون فيه المسلمين، واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود، فاعتصموا به، وقاتلوا فيه ثلاثة أيام وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف)

وحدثني بما ذكره غوستاف لوبون في كتابه (الحضارة العربيـة) نقلا عن روايـات رهبـان ومـؤرخين رافقـوا الحملـة الصـليبية على القـدس مـا حـدث حين دخـول الصـليبيين للمدينـة المقدسـة من مجازر دموية:

ومن ذلك قول الراهب (روبرت)، وهو شـاهد عيـان لمـا حـدث في بيت المقـدس واصـفا سـلوك قومـه (كـان قومنـا يجوبـون الشـوارع والميـادين وسـطوح الـبيوت لـيرووا غليلهم من التقتيـل، وذلـك كـاللبؤات الـتي خطفت صـغارها ! كـانوا يـذبحون الأولاد والشباب ويقطعونهم إربا إربا، وكانوا يشنقون أناسا كثـيرين بحبـل واحـد بغيـة السـرعة، وكـان قومنـا يقبضـون كـل شـيء يجدونـه، فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعا ذهبية فيا للشـره وحب الذهب وكانت الدماء تسـيل كالأنهـار في طـرق المدينـة المغطـاة بالجثث)(1)

وحكى لي عن كاهن أبـوس (ريمونـد داجميـل) قولـه شـامتا: (حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنـا على أسـرار القدس وبروجها، فقد قطعت رؤوس بعضـهم فكـان هـذا أقـل مـا يمكن أن يصـيبهم وبقـرت بطـون بعضـهم فكـانوا يضـطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار وحرق بعضهم في النـار، فكـان ذلك بعد عذاب طويل، وكان لا يرى في شـوارع القـدس وميادينهـا سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم، فلا يمـر المـرء إلا على جثث قتلاهم، ولكن كل هذا لم يكن سـوى بعض مـا نـالوا) (2).

وقال واصفا مذبحة مسجد عمر:(لقد أفرط قومنـا في سـفك الدماء في هيكل سـليمان، وكـانت جثث القتلى تعـوم في السـاحة هنا وهناك، وكانت الأيدي المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها، فإذا اتصلت ذراع بجسم لم يعرف أصـلها.. ولم يكتـف الفرسان الصليبيون الأتقياء (!) بذلك، فعقدوا مـؤتمرا أجمعـوا فيـه على إبادة جميع سـكان القـدس من المسـلمين واليهـود و خـوارج

---

(1) الحضارة العربية، ص325.

(2) الحضارة العربية، ص326.

النصارى الذين كان عددهم ستين ألفا فأفنوهم على بكرة أبيهم في ثمانية أيام، ولم يستبقوا منهم امرأة و لا ولدا و لا شيخا)

يقول : (وعمل الصليبيون مثل ذلك في مدن المسلمين التي اجتاحوها ففي المعرة قتلوا جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين في الجوامع و المختبئين في السراديب فأهلكوا صبرا ما يزيد على مائة ألف إنسان في أكثر الروايات، وكانت المعرة من أعظم مدن الشام بعدد السكان بعد أن فر إليها الناس بعد سقوط أنطاكية وغيرها بيد الصليبيين)(1)

بعدها قدر الله لي أن ألتقي رجلا حدثني بتفصيل عن محاكم التفتيش.. وما رآه فيها من المشاهد مما تقشعر له الأبدان.

قلنا: ما محاكم التفتيش؟

قال: هي هيئات أنشأتها الكنيسة الرومانية الكاثوليكية للقبض على من تسميهم المهرطقين(2) المارقين، ومحاكمتهم(3).. وقد

1() الحضارة العربية، ص396.

2() الهرطقة مصطلح كنسي يشير إلى رأي، أو فكرة مبتدعة، تتعارض مع معتقدات الكنيسة، أو النظام المرتبط بها. وقد كانت الكنيسة في وقت من الأوقات تعاقب المهرطقين بالنفي والتعذيب أو حتى بالموت.. وتقوم الكنائس الآن أحيانًا بطرد المهرطقين. (الموسوعة العربية العالمية)

3() ومبرر هذه المحاكم هو أن تعاليم الكنيسة كانت تعد أساسًا للقانون والنظام ابتداءً من عهد حكم الإمبراطور الروماني قسطنطين، من عام 306م إلى عام 337م.. ولذلك كان الخروج على تعاليم الكنيسة جريمة ضد الدولة، وحاول الحكام المدنيون لمئات من السنين استئصال الهرطقة.

وخلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ثارت جماعات معينة من الرومان الكاثوليك ضد كنيستهم. وبعد أن رفض بعض الحكام المدنيين أو عجزوا عن معاقبة المهرطقين، تولت الكنيسة هذه المهمة.

في عام 1231م، أنشأ البابا جريجوري التاسع محكمة خاصة للتحقيق مع المتهمين، وإجبار المارقين على تغيير معتقداتهم. وفي عام 1542م، تولت لجنة الكرادلة التابعة للمكتب البابوي عملية التحقيق. وعمل رهبان من الدومينيكان والفرنسيسكان قضاة في تلك الهيئات.

وقد كثرت محاكم التفتيش في فرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، وأسبانيا. ونظرًا لأن المحققين كانوا يقومون بأعمالهم سرًا فكثيرًا ما أساءوا استخدام سلطاتهم وعُذِّب بعض المتهمين، وحُكم على المارقين الذين رفضوا تغيير معتقداتهم بالموت حرقًا. وفي القرن

أقيمت هـذه المحـاكم في كثـير من أجـزاء أوروبـا، لكن محكمـة التفتيش الأسبانية كانت هي الأكثر شهرة.

لقـد بـدأت هـذه المحـاكم الإسـبانية فى القـرن الثـالث عشـر لإرهـاب (الهراطقـة) الخـارجين عن الكنيسـة.. وقـد حصـل أشـنع فصولها بعد سـقوط غرناطـة ووقـوع المسـلمين فريسـة لمحتـال نقض كل العهود والمواثيق الـتى وقعت فى عـام 1491م بين أبى عبـد اللـه الصـغير وفردينانـد، والـتى اشـترط فيهـا المسـلمون أن

السادس عشر الميلادي حوّل قـادة الكاثوليـك نشـاط محـاكم التفـتيش لأنصـار المـذهب البروتستانتي.

يدين أتباع الكاثوليكية حاليًا محاكم التفتيش لأنها انتهكت قواعد العدالة الحديثـة. ولكن لم ينتقد إلا عدد قليل من الناس أساليب محاكم التفتيش أثنـاء فـترة القـرون الوسـطى. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

وقد ذكر الأسـتاذ الإمـام محمـد عبـده في كتـاب (الإسـلام والنصـرانية): أن الكنيسـة الأسبانية غضبت لانتشار فلسفة ابن رشـد وأفكـاره، وخصوصًـا بين اليهـود، فصـبت جـام غضبها على اليهود والمسلمين معًا، فحكمت بطرد كل يهودي لا يقبل المعمودية، وأباحت له أن يبيع من العقار والمنقول ما يشاء بشرط ألا يأخذ معـه ذهبًـا ولا فضـة، وإنمـا يأخـذ الأثمان عروضًا وحوالات. وهكذا خرج اليهود من أسبانيا تاركين أملاكهم لينجوا بـأرواحهم، وربما اغتالهم الجوع ومشقة السفر، مع العدم والفقر.

وحكمت الكنيسـة كـذلك سـنة 1052م على المسـلمين (أعـداء اللـه !) بطـردهم من إشبيلية وما حولها إذا لم يقبلوا المعموديـة، بشـرط ألا يـذهبوا في طريـق يـؤدي إلى بلاد إسلامية ومن خالف ذلك فجزاؤه القتل. (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنيـة ص36 - 37 -الطبعة الثامنة).

ولم يكن اضطهادها موجهًا إلى الوثنيين والمخالفين في الدين فحسب بـل موجهًـا إلى المسيحيين الذين لهم رأي أو مذهب يخالف مذهب الحكام، أو مذهب الكنيسـة المعتمـدة لديهم.

والذين قرأوا تاريخ المسيحية يعرفون مـاذا جـرى للعـالم المصـري (آريـوس) وأتباعـه الذين عارضوا القول بألوهية المسيح، في مجمع نيقية المشهور (325م) وكيف قرر هـذا المجمع ـ بعد أن طرد من أعضائه كل المعارضين ـ وهم الأكثرية ـ إدانة (آريوس) وإحراق كتاباته، وتحريم اقتنائها، وعزل أنصاره من كـل الوظـائف، ونفيهم، والحكم بالإعـدام على كل من أخفى شيئًا من كتابات (آريوس) ومن أيَّد مذهبه.

وباستمرار الاضطهاد للداعين إلى التوحيد اختفوا تمامًا من المجتمعات المسيحية، ولم يبق لدعوتهم أثر.

ولما ظهر مذهب البروتستانت في أوروبا ـ على يد (لـوثر) وغـيره ــ قـاومت الكنيسـة الكاثوليكية أتباع هذا المـذهب بكـل مـا أوتيت من قـوة، وعـرف تـاريخ الاضـطهاد مـذابح بشرية رهيبة، من أهمها مذبحة باريس (في 24 أغسطس عـام 1572م) الـتي دعـا فيهـا الكاثوليك البروتسـتانت ضـيوفًا عليهم في بـاريس للبحث في تسـوية تقـرب بين وجهـات النظر، فمـا كـان من المضـيفين إلا أن سـطوا على ضـيوفهم تحت جنح الليـل، فقتلـوهم

يوافق عليها البابا، ويقسم على ذلك، ولكن هيهات.. فهؤلاء لا عهد لهم ولا ذمة(1).

وكيف يكون لهم عهد أو ذمة، وهم تلاميذ تلك الحكايات الطويلة الممتلئة بالخيانات، والتي يعج بها وبأبطالها الكتاب المقدس؟

لقد هدفت تلك المحاكم المقدسة إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية، وبأبشع الوسائل، وبما أن المسلمين

خيانة وهم نيام ! فلما طلع الصباح على باريس كانت شوارعها تجري بدماء هؤلاء الضحايا ! وانهالت التهاني على (تشارلس التاسع) بغير حساب من البابا، ومن ملوك الكاثوليك وعظمائهم.

والعجيب أن البروتستانت لما قويت شوكتهم، قاموا بدور القسوة نفسه مع الكاثوليك، ولم يكونوا أقل وحشية منهم. (انظر (المسيحية) للدكتور أحمد شلبي ص51 - 52).

لقد قال (لوثر) لأتباعه: (من استطاع منكم فليقتل، فليخنق، فليذبح، سرًا أو علانية، اقتلوا واخنقوا، واذبحوا، ما طاب لكم، هؤلاء الفلاحين الثائرين) (الأيديولوجية الانقلابية ص710).

ويذكر (فيدهام) أن هذه الحروب كانت مليئة بالفظائع: لأن رجال اللاهوت (الطيبين) كانوا مستعدين دائمًا أن يضعوا الزيت على النار، وأن يحيوا وحشية الجنود عندما يساورهم أي تردد أو ضعف، فقد يكون الجنود قساة، ولكنهم كانوا يميلون في بعض الأحيان إلى الرحمة، أما رجال اللاهوت فاعتبروا الاعتدال والرحمة نوعًا من الخيانة! (الأيديولوجية الانقلابية ص716)

1()مما جاء فى المعاهدة:(.. تأمين الصغير والكبير فى النفس والأهل والمال إبقاء الناس فى أماكنهم ودورهم ورباعهم وإقامة شريعتهم على ما كانت، ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعتهم، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كما كانت، وألا يدخل نصرانى دار المسلم، ولا يغصبوا أحدا وألا يؤخذ أحد بذنب غيره، وألا يكره من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، ولا ينظر نصرانى على دور المسلمين، ولا يدخل مسجدا من مساجدهم، ويسير فى بلاد النصارى أمنا فى نفسه وماله، ولا يمنع مؤذن ولا مصلى ولا صائم ولا غيره فى أمور دينه)، ومع قسم فرديناند وإيزابيلا على كل هذا إلا أن الأيمان والعهود لم تكن عند ملكى النصارى سوى ستار للغدر والخيانة، وقد نقضت كل هذه الشروط ولم يتردد المؤرخ الغربى(بروسكوت) أن يصفها بأنها أفضل مادة لتقدير الغدر الإسبانى، فنقض الإسبان هذه المعاهدة بندا بندا، فمنعو المسلمين من النطق بالعربية فى الأندلس، وفرضوا إجلاء المسلمسن الموجودين فيها وحرق ما بقى منهم، وزاد الكردينال (أكزيمينيس) على ذلك، فأمر بجمع كل ما يستطيع من كتب المسلمين وفيها من العلوم ما لا يقدر بثمن بل هى خلاصة ما تبقى من الفكر الإنسانى وأحرقها، يقول غوستاف لوبون متحسرا على فعلة أكزيمينيس:(ظن رئيس الأساقفة أكزيمينيس أنه بحرقه مؤخرا ما قدر على جمعه من كتب أعدائه العرب (أى ثمانين ألف كتاب) محا ذكراهم من الأندلس إلى الأبد فما درى أن ما تركه العرب من الأثار التى تملأ بلاد اسبانية يكفى لتخليد اسمهم إلى الأبد)

لم يقبلوا التنصير، فقد بدأ القتل والتنكيل فيهم، فثاروا فى غرناطة وريفها، فمزقهم الإسبان بلا رحمة، وفى عام 1501م أصدر الملكان الصليبيان مرسوما خلاصته:(إنه لما كان الرب قد اختارهما لتطير غرناطة من الكفرة (يعنيان المسلمين)، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال)، فهاجرت جموع المسلمين إلى المغرب لينجوا بدينهم، ومن بقى من المسلمين أخفى إسلامه، وأظهر تنصره، فبدأت محاكم التفتيش نشاطها الوحشى المروع، فحين التبليغ عن مسلم يخفى إسلانه يزج به فى السجون، وكانت السجون وحشية رهيبة مظلمة عميقة تغص بالحشرات والجرذان ويصفد فيها المتهمون بالأغلال بعد مصادرة أموالهم لتدفع نفقات سجنهم.

قلنا: فحدثنا عما أخبرك الرجل من مشاهداته.

قال: لقد كان ذلك الرجل كولنيلا.. وسر معرفته لأسرار تلك المحاكم هو أنه عند احتلال نابليون إسبانيا بعد قيام الثروة الفرنسية حاول إلغاء محاكم التفتيش، لكن رهبان (الجزويت) أصحاب هذه المحاكم استمروا فى القتل والتعذيب، فشمل ذلك الجنود الفرنسيين المختطفيين.. فأرسل المريشال (سولت) الحاكم العسكرى المدنى صاحبي هذا امدريد الكولونيل (ليمونكى) مع ألف جندى وأربعمائة مدفع، وهاجم دير الديوان، وبعد تفتيش الدير لم يعثروا على شىء، فقرر الكولونيل فحص الأرض، وحينئذ نظر الرهبان إلى بعضهم البعض نظرات قلقة، وأمر الكولونيل جنده برفع الأيسطة فرفعوها، ثم أمر بأن يصبوا الماء فى كل غرفة على حدة، فإذا بالماء يتسرب إلى أسفل إحدى الغرف، فعرف أن هناك بابا يفتح بطريقة ماكرة بواسطة حلقة صغيرة وضعت بجوار رجل مكتب الرئيس.. فتح الباب، واصفرت وجوه الرهبان، وظهر سلم يؤدى إلى باطن الأرض.

لقد ذكر لي ذلك الكولونيل مشاهداته، فقال:(فإذا نحن فى غرفة كبيرة مربعة، وهى عندهم قاعة المجكمة، وفى وسطها عمود من رخام به حلقة حديدية ضخمة ربطت بسلاسل كانت الفرائس تربط بها رهن المحاكمة وأمام ذلك العمود عرش (الدينونة) وهو عبارة عن دكة يجلس عليها رئيس محكمة التفتيش،

وإلى جواره مقاعد أخرى أقل ارتفاعا لبقية القضاة، ثم توجهنا إلى آلات التعذيب وتمزيق الأجساد البشرية، وقد امتدت تلك الغرف مسافات كبيرة تحت الأرض، وقد رأيت بها ما يستفز نفسى ويدعونى إلى التقزز ما حييت، رأينا غرفا صغيرة فى حجم الإنسان، بعضها عمودى، وبعضها رأسى فيبقى سجين العمودية واقفا فيها على رجليه مدة سجنه حتى يقضى عليه، ويبقى سجين الأفقية ممددا بها حتى الموت، وتبقى الجثة بالسجن الضيق حتى تبلى ويتساقط اللحم عن العظم، ولتصريف الروائح الكريهة المنبثقة من الأجداث البالية تفتح كوة صغيرة إلى الخارج، وقد عثرنا على عدة هياكل بشرية لا زالت فى أغلالها سجينة، والسجناء كانوا رجال ونساء وأطفال وشيوخا ما بين الرابعة عشر إلى السبعين، وكان السجناء عراة زيادة فى النكاية بهم، وانتقلنا إلى الغرف الأخرى، فرأينا ما تقشعر لهوله الأبدان عثرنا على آلات لتكسير العظام وسحق الجسم، وعثرنا على صندوق فى حجم الرأس تماما يوضع فيه رأس المعذب بعد أن يربط بالسلاسل قى يديه وقدميه فلا يقوى على الحركة، فيقطر الماء البارد على رأسه من أعلى الصندوق نقطة نقطة، وقد جن الكثيرون من هذا اللون من العذاب، وعثرنا على آلة تسمى السيدة الجميلة، وهى عبارة عن تابوت تنام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة الإستعداد لعناق من ينام معها وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة وكانوا يطرحون الشاب المعذب فوق هذه الصورة ثم يطبقون عليه باب التابوت بسكاكينه وخناجره فإذا أغلق الباب مزق الشاب إربا، كما عثرنا على آلة لسل اللسان ولتمزيق أثداء النساء وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب فظيعة ومجالد من الحديد الشائك لضرب المعذبين العراة حتى يتناثر اللجم من العظم)

ومن أنواع التعذيب التي حدثني عنها هذا الكولنيل: ملأ البطن بالماء حتى الاختناق، وربط يدى المتهم وراء ظهره، وربطه بحبل حول راحتيه وبطنه ورفعه وخفضه معلقا سواء بمفرده أو مع أثقال تربط به، والأسياخ المحمية، وتمزيق الأرجل، وفسخ الفك، وكانت أغلب الأحكام بالإحراق، وهو الحكم الذى كان غالبا عند الأحبار الذين يشهدون تنفيذه مع الملكين الكاثوليكيين فى (حفلات الإحراق)

بعد قدر الله لي أن ألتقي ببعض الجنـود الـذين سـاروا إلى بلاد العالم الإسلامي.. وكان منهم جندي إيطالي، أخـبرني عن الأناشـيد العذبة التي كانوا يهزجون بها عند ذهابهم لاحتلال ليبيا.. وكان منها : (يا أماه صل صـلاتك ولا تبكى بـل اضـحكى وتـأملى ألا تعلمين أن إيطاليا تدعونى وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحا مسرورا لأبـذل دمى فى سبيل سحق الأمة الملعونة، ولأحارب الأمة الإسلامية، سـأقاتل لمحو القرآن، وإن لم أرجع فلا تبكى على ولـدك، وإن سـألك أحـد عن عدم حزنك على فأجيبيه إنه مات فى محاربة الإسلام)

بعدها حدثني هـذا الجنـدي الـذي شـهد هـذه الحـرب عن بعض مشـاهداته، فقـال:(شـنق الإيطـاليون في هـذه الحـرب أكـثر من عشرين ألفاً، وكان نحو من (1200) امرأة من نساء الأشراف قـد فررن إلى الصحراء قبل وصـول الجيش الإيطـالي، فأرسـلوا قـوة في أثـرهن وسـحبوهن إلى بلـدة (الكفـرة) حيث خلا بهن ضـباط الجيش الطليـاني، وأنزلـوا المعـرات بسـبعين أسـرة شـريفة من أشـراف (الكفـرة) اللـواتي كـانت الشـمس لا تـرى وجـوههن من الصـون والعفـاف، وقتـل قائـد الطليـان شـيوخ تلـك البلـدة الـذين احتجوا على هتك أعراض السيدات المذكورات، وقـال ذلـك القائـد الـذي أشـرف على تنفيـذ أمـر الإعـدام: (ليـأت محمـد هـذا نـبيكم البدوي، الذي أمركم بالجهاد، وينقذكم من أيدينا)

وحـدثني المراسـل النمسـاوي (هرمـان دنـول)، قـال: (قَتَـلَ الطليان في غير ميـدان الحـرب كـل عـربي زاد عمـره على (14) سنة، وأحرقوا في (26 أكتوبر سنة 1911م) حيـاً كـاملاًخلف بنـك روما، بعد أن ذبحوا أكثر سكانه، وكـان من بينهم النسـاء والشـيوخ والأطفال)

وقال لي آخر، وهو مدني كـان شـاهد عيـان: (رجـوت طبيـبين عسـكريين من أطبـاء المستشـفى أن ينقلـوا بعض المرضـى المصـابين المطـروحين على الأرض تحت حـرارة الشـمس فلم يفعلا، فلجأت إلى راهب من كبار جمعية الصليب الأحمر، وهو الأب (يوسف فيلاكو)، وعرضت عليه الأمر، وأخبرت شاباً فرنسـياً أيضـاً بذلك، لكن الأب حول نظره عني ونصح الشاب بأن لا يزعج نفسـه بشأن عربي في سكرات الموت وقال: (دعه يموت)

بعدها قدر الله أن ألتقي بـ (برتولومي دي لاس كازاس)(1) صاحب كتاب (وثائق إبادة هنود القارة الأمريكية على أيدي المسيحيين الأسبان)(2).. لعلكم تعرفونه.. إنه ذلك الكتاب المليء بالدماء.. وفيه رواية شاهد عيان لإبادة ملايين البشر في الأمريكتين.

لقد ذكر لي هذا الكاتب الناقم كيف كان المسيحيون الإسبان يسمون المجازر عقابا وتأديبا لبسط الهيبة وترويع الناس، وذكر لي أن أول ما كانوا يفعلونه عندما يدخلون قرية أو مدينة هو ارتكاب مجزرة مخيفة فيها.. مجزرة ترتجف منها أوصال هذه النعاج المرهفة.

وذكر لي أنه كثيرا ما كان يقف القاتل والمبشر في محل واحد.. أما القاتل، فهو يذبح ضحيته أو يحرقها أو يطعمها للكلاب.. أما المبشر الواقف أمامه فهو حريص على أن لا تلفظ الضحية أنفاسها قبل أن يتكرم عليها بالعماد، فيركض إليها لاهثا يجرجر أذيال جبته وغلاظته وثقل دمه لينصرها بعد أن نضج جسدها بالنار أو اغتسلت بدمها، أو التهمت الكلاب نصف أحشائها.

1()ولد (برتولومي دي لاس كازاس) عام 1474 م في قشتالة الأسبانية، من أسرة اشتهرت بالتجارة البحرية. وكان والده قد رافق كولومبوس في رحلته الثانية إلى العالم الجديد عام 1493 م أي في السنة التالية لسقوط غرناطة وسقوط الأقنعة عن وجوه الملوك الأسبان والكنيسة الغربية. ثم عاد أبوه مع كولومبوس بصحبة عبد هندي فتعرف برتولومي على هذا العبد القادم من بلاد الهند الجديدة. بذلك بدأت قصته مع بلاد الهند وأهلها وهو ما يزال صبيا في قشتاله يشاهد ما يرتكبه الأسبان من فضائع بالمسلمين وما يريقونه من دمهم وإنسانيتهم في العالم الجديد. لقد جرى كل الدمين بالخبر اليقين أمام عيني هذا الراهب الثائر على أخلاق أمته ورجال كنيستها، وبعثات تبشيرها : دم المسلمين ودم الهنود، سكان القارة الأمريكية.

2() هذا الكتاب من تأليف المطران برتولومي دي لاس كازاس. ترجمة سميرة عزمي الزين. من منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية.

ومما يدل على أهمية الكتاب ما قاله المؤرخ الفرنسي الشهير (مارسيل باتييون) عن مؤلف الكتاب (برتولومي دي لاس كازاس): إنه أهم شخصية في تاريخ القارة الأمريكية بعد مكتشفها (كر يستوف كولومبوس) وأنه ربما كان الشخصية التاريخية التي تستأهل الاهتمام في عصر اجتياح المسيحيين الأسبان لهذه البلاد.. ولولا هذا المطران الكاهن الثائر على مسيحية عصره وما ارتكبه من فظائع ومذابح في القارة الأمريكية لضاع جزء كبير من تاريخ البشرية.. فإذا كان كولومبوس قد اكتشف لنا القارة، فان برتولومي هو الشاهد الوحيد الباقي على أنه كانت في هذه القارة عشرات الملايين من البشر الذين أفناهم الغزاة بوحشية لا يستطيع أن يقف أمامها لا مستنكرا لها، شاكا في إنسانية البشر الذين ارتكبوها)

وذكر لي كيـف كـان المسـيحيون الإسـبان يتفننـون ويبتـدعون ويتسلون بعذاب البشر وقتلهم.. ذكر لي كانوا يجـرون الرضـيع من بين يدي أمه ويلوحون به في الهواء، ثم يخبطون رأسه بالصـخر أو بجذوع الشجر، أو يقذفون به إلى أبعد ما يستطيعون.. وإذا جـاعت كلابهم قطعـوا لهـا أطـراف أول طفـل هنـدي يلقونـه، ورمـوه إلى أشداقها ثم أتبعوها بباقي الجسد.. وكانوا يقتلون الطفـل ويشـوونه من أجـل أن يـأكلوا لحم كفيـه وقدميـه قـائلين: (إنهـا أشـهى لحم الإنسان)

وذكر لي أن أحدا لا يعلم كم عدد الهنود الذين أبـادهم الأسـبان المسيحيين، ثمة من يقول انه مائتـا مليـون، ومنهم من يقـول انهم أكثر.. أما لاس كازاس فيعتقد أنهم مليـار من البشـر، ومهمـا كـان الرقم فقد كانت تنبض بحياتهم قارة أكبر من أوروبـا بسـبعة عشـر مرة، وها قد صاروا الآن أثرا بعد عين.

وذكر لي كيف كـانوا يـدخلون على القـرى فلا يـتركون طفلا أو حاملا أو امرأة تلـد إلا ويبقـرون بطـونهم ويقطعـون أوصـالهم كمـا يقطعـون الخـراف في الحظـيرة، وكـانوا يراهنـون على من يشـق رجلا بطعنة سكين، أو يقطع رأسه أو يدلق أحشاءه بضربة سيف.

وذكر لي كيف كانوا ينتزعون الرضـع من أمهـاتهم ويمسـكونهم من أقــدامهم ويرطمــون رؤوســهم بالصــخور، أو يلقــون بهم في الأنهار ضاحكين ساخرين. وحين يسقط في المـاء يقولـون: (عجبـا إنه يختلج).. وكيف كانوا يسفدون الطفل وأمـه بالسـيف وينصـبون مشانق طويلة، ينظمونها مجموعـة مجموعـة، كـل مجموعـة ثلاث عشر مشنوقا، ثم يشعلون النار ويحرقونهم أحياء.. وهناك من كان يربط الأجساد بالقش اليابس ويشعل فيها النار.

وذكر لي أنه كان لديهم فنون كثـيرة للتعـذيب.. فبعضـهم كـان يلتقـط الأحيـاء فيقطـع أيـديهم قطعـا ناقصـا لتبـدو كأنهـا معلقـة بأجسادهم، ثم يقول لهم: (هيا احملـوا الرسـائل) أي : هيـا أذيعـوا الخــبر بين أولئـك الـذين هربـوا إلى الغابـات.. أمـا أسـياد الهنـود ونبلاؤهم فكانوا يقتلون بأن تصنع لهم مشواة من القضبان يضـعون فوقها المـذراة، ثم يربـط هـؤلاء المسـاكين بهـا، وتوقـد تحتهم نـار هادئة من أجل أن يحتضروا ببطء وسط العذاب والألم والأنين.

وذكر لي من مشاهداته أنه شاهد مرة أربعة من هؤلاء الأسـياد فـوق المشـواة، وبمـا أنهم كـانوا يصـرخون صـراخا شـديدا أزعج مفوض الشرطة الأسبانية الذي كان نائما، فقد وضعوا في حلوقهم قطعا من الخشب أخرستهم، ثم أضرموا النار الهادئة تحتهم.

قال لي يصـف تلـك المشـاهد الـتي رآهـا بنفسـه، والـتي أودع بعضها في كتابـه الـذي أشـرت إليـه :(رأيت ذلـك بنفسـي، ورأيت فظائع ارتكبها المسيحيون أبشع منها.. أما الذين هربوا إلى الغابات وذرى الجبـال بعيـدا عن هـذه الوحـوش الضـارية فقـد روض لهم المسـيحيون كلابـا سـلوقية شرسـة لحقت بهم، وكـانت كلمـا رأت واحدا منهم انقضت عليه ومزقته وافترسته كمـا تفـترس الخـنزير. وحين كـان الهنـود يقتلـون مسـيحيا دفاعـا عن أنفسـهم كـان المسيحيون يبيدون مائـة منهم لأنهم يعتقـدون أن حيـاة المسـيحي بحياة مائة هندي أحمر)

هذا بعض ما ذكره لي (برتولومي دي لاس كازاس).. وقد ذكـر لي غيره ــ وقـد أراني بعض الصـورة لمـا رافـق إكتشـاف جزيـرة هـايتى على يـد الإسـبان ــ وكـانت المـادة العلميـة تحتهـا مـا يلى: (وانشـغل ضـباط إسـبان (خلفـاء المستكشـف صـاحب الحملـة) باكتشاف جزيرة هاييتى وإحتلالها وكـانت مـا تـزال أرض مجهولـة، وقد تولى هذه المهمة كـل من دينغـو فلاسـكيز وبـانفليو دونـارفيز فأبديا من ضـروب الوحشـية مـا لم يسـبق لـه مثيـل متفنـيين فى تعذيب سكان الجزيرة بقطع أناملهم وفقوء عيـونهم وصـب الـزيت المغلى والرصـاص المـذاب فى جـراحهم أو بـإحراقهم أحيـاء على مرأى ومسمع من الأسرى ليعترفوا بمخـابىء الـذهب وليهتـدو إلى دين المحبة!!)

و قد حاول أحد الرهبان إقناع الزعيم (هايتهاى) باعتنـاق الـدين وكان مربوطا إلى المحرقة، فقال له إنه إذا تعمد يذهب إلى الجنة، فسأله الزعيم الهندى قائلا: وهـل فى الجنـة إسـبان؟ فأجابـه: نعم ماداموا يعبدون إله الحق!، فما كان من الزعيم الهندى إلا قال: أنـا لا أريـد أن أذهب إلى مكـان أصـادف فيـه أبنـاء هـذه الأمـة المتوحشة!!

ومن أمثلة ما فعله هؤلاء فى أطفال الإنكا والمايـا والأزتيـك أن

قابـل مسـيحيون هنديـة وكـانت تحمـل بين ذراعيهـا طفلا تقـوم بإرضاعه وبما أن الكلب الذى كان يرافقهم كان جائعا فقد انـتزعوا الطفل من بين ذراعى أمه ورمـوه للكلب الـذى أخـذ ينهشـه على مرأى من أمه.

وعندما كان بين السجناء بضع نساء وضعن حديثا، فإنهم مـا إن كان الاطفال الذين ولدوا حديثا يأخذون فى الصراخ يمسكونهم من سيقانهم ويصرعونهم فى الصخور.

وذكر لي أنه عند وصول الجنـود إلى القريـة بعـد الإفطـار على العشب راودت الإسبان فكرة جديدة، وهى التحقـق ممـا إذا كـانت سيوفهم قاطعة بالدرجة التى تبدو بها.. فجأة يستل الإسبانى سيفه وسرعان ما يحـذو المائـة الآخـرون حـذوه ويشـرعون فى تمزيـق أحشاء وذبح هذه الشياة من الرجال والنسـاء والأطفـال والشـيوخ الـذين كـانو جالسـين مطمئـنين يتفرجـون فى عجب على الجيـاد والإسـبان.. وفى ثـوان معـدودة لم يبـق أحـد من هـؤلاء على قيـد الحياة حتى سال الدم فى كل مكان كما لو أنه قد جرى ذبح قطيع كامل من الأبقار.

وقـد وصـل الحـد فى أمريكـا فى عهـد هجـرة الأيرلانـديين البرتستانت أن صدر قانون يجيز إبادة الهنود الحمر فى كـل مكـان يتواجـدوا فيـه، لأن أمريكـا كـانت هى أرض الميعـاد وفـق تفسـير البروتستانت للكتاب المقدس وقتها.

لم يكن هذا السلوك الإرهابي قاصرا على أمريكا.. لقـد مـارس الإنجليز إبادة شاملة كاملة فى حق السكان الأصليين لأستراليا..

لقد قـال لي القس فرانزغـريس: (إن االأمم النصـرانية وأكـثر من ذلك تاريخ الكنيسة بالذات مضرج بالدماء ة ملطخ، ولربما أكثر تضرخا ووحشة من أى شعب وثنى أخر في العالم القديم، إن أمما ذوات حضارات زاهيـة بـاهرة قـد أزيلت وأبيـدت ومحيت ببسـاطة وسهولة من الوجود، وكل ذلك بإسم النصرانية)

قلنا: الحمد للـه.. لقـد انتهى كـل ذلـك بظهـور هـذه الحضـارة الممتلئة بالسلام.

ضحك ضحكة عالية، وقال: هل تسمعون بالمدرسة العسكرية في نورث بينينج بجيورجيا؟

قلنا: لا.. ما بها؟

قال: لقد كنت أحد ضباط هذه المدرسة وأحد أساتذتها.. ونحن نقوم فيها بتدريب الضباط ورجال الشرطة في بلدان أمريكا اللاتينية المتحالفة مع الولايات المتحدة..

إن هدف هذه المدرسة الأوحد هو تدريب الضباط والشرطة على استخدام وسائل القمع.. وقد اعترفت وزارة الدفاع الأمريكية بأن الكتب الدراسية المقررة في هذه المدرسة، مازالت حتى بين عامي 1982 ـ 1991، توصي باستخدام التعذيب، والإعدامات بدون محاكمة، والشانتاج، وبشكل أكثر عمومية، استخدام كل أساليب العنف بغية الحصول على المعلومات من المعارضين وأعضاء الميليشيا السياسية، أو العاملين في صفوف حرب الغوار.

ووفقا للسلطات العسكرية، فقد أجرى تعديل على مناهج المدرسة منذ عام 1992 وبشكل سري، وكان على الرأي العام الأمريكي أن ينتظر حتى عام 1996، ليعرف حقيقة المناهج وحقيقة هذه المدرسة، وذلك بعد تحقيق أجراه الكونغرس عن دور المخابرات المركزية الأمريكية في غواتيمالا.

ولقد قامت هذه المدرسة منذ تأسيسها عام 1946، بتدريب 60 ألف طالب من اثني عشر بلدا، وكان مقر المدرسة في البداية في باناما ثم نقلت عام 1984 إلى نورث بينينج.. وقد بلغت المدرسة ذروة مجدها في أعوام الستينات، حيث كانت الولايات المتحدة منغمسة بعمق في دعم الانظمة المعادية للشيوعية في أمريكا اللاتينية، حيث واجهت مقاومة أحزاب سياسية أو ميليشيات مسلحة فجرت حروب الغوار، وقد أصبح عدد من هؤلاء الضباط بعد أن أصبحوا جلادين مشهورين، رؤساء دول، من بينهم نورييغا الجنرال البانامي، وقد شكلوا طبقتهم الخاصة، باعتبارهم تلقوا تعليمهم في منع العصيان والقدرة على انتزاع المعلومات من المتهمين.

وتتألف الكتب التعليمية المجرمة هذه، والتي أصبحت معروفة

بفضل البنتاغون والصحافة الأمريكية من سبعة كتب، مكتوبة باللغة الاسبانية.

بعض فصول هذه الكتب تحمل العناوين التالية :(معالجة مصادر المعلومات، التجسس المضاد، الارهاب وحرب العصابات في المدن)، في هذه الفصول يجري تنبيه الطلبة المتدربين على أن التعاون مع مخبر محتمل سوف يصبح أسهل بكثير فيما لو جرى احتجاز والديه أو أقربائه، واعتقاله، وتعذيبه، واقتلاع الخوف من قلبه، واغداق المكافآت عليه في سبيل القضاء على عدو، وتهديده بالسجن والاعدام، والتظاهر بتنفيذ ذلك أو استخدام ما يسمى سيروم الحقيقة.. كل هذه الاجراءات قد تؤدي إلى نفس النتيجة، ويجب أن لا يتردد الضابط الذي يعالج هذا الامر في تقديم الهدايا، مقابل المعلومات التي يقدمها المتعامل، والتي تقود إلى اعتقال أو أسر أو موت أعضاء حرب الغوار. الذين تطلق عليهم الحكومات دائما اسم المجرمين.

العولمة:

قلنا: فما السابع(1)؟

قال: العولمة(2)..

1()استفدنا الكثير من المعلومات الواردة في هذا المطلب من كتاب (العولمة) للدكتور: صالح الرقب- الجامعة الإسلامية، الطبعة الأولى:1423هـ-2003، بالإضافة إلى مصادر الأخرى..

2()العولمة: الكلمة بهذه الصيغة الصرفية لم ترد في كلام العرب، وهي تدل على تحويل الشيء إلى وضعية أخرى، ومعناها: وضع الشيء على مستوى العالم، وقد قرر مجمع اللغة العربية بالقاهرة إجازة استعمال العولمة بمعنى جعل الشيء عالمياً.

وهي في أصلها ترجمة لكلمةMondialisation الفرنسية، بمعنى جعل الشيء على مستوى عالمي، والكلمة الفرنسية المذكورة إنّما هي ترجمة) Globalisation الإنجليزية التي ظهرت أولاً في الولايات المتحدة الأمريكية، بمعنى تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل الكل. فهي إذا مصطلح يعني جعل العالم عالمًا واحدًا، موجهًا توجيهًا واحدًا في إطار حضارة واحدة، ولذلك قد تسمى الكونية أو الكوكبة.

ومن خلال المعنى اللغوي نعرف أن العولمة إذا صدرت من بلد أو جماعة فإنها تعني: تعميم نمط من الأنماط التي تخص ذلك البلد أو تلك الجماعة، وجعله يشمل الجميع أي العالم كله.

قلنا: أليست العولمة شيئا طيبا؟.. فكيف تجعله خبيثا؟

قال: هي طيبة عندما تصدر من الطيبين.. ولكنها تمتلئ بالخبث إن صدرت من الخبثاء.

قلنا: ما تعني؟

قال: العولمة هي توجيه العالم وجهة معينة تلغي كل الخصوصيات..

قلنا: وما الضرر في ذلك؟.. ما الضرر على من ملك زمام الحضارة أن يعممها على غيره؟

قال: عندما يتفق أهل العالم على البحث على السلام والجمال والنور والصفاء تمتلئ العولمة بكل هذه المعاني السامية.. ولكنه عندما يصبح زمام العالم بيد الحمير والأسود والخنافس، فإن البشر المسكين سيتحول في ظل هذا المسخ إلى حمير وأسود وخنافس.. بل يفرض عليه أن يصير حميرا وأسودا وخنافس.

قلنا: فحدثنا عنها..

وقد جاء في المعجم العالم الجديد ويبستر أنّ العولمة Globalisation هي: إكسابُ الشيء طابعَ العالمية،وبخاصة جعل نطاق الشيء، أو تطبيقه عالمياً.

وقد أطلق على العولمة بعض الكتاب والمفكرين النظام العالمي الجديد New World Order- وهذا المصطلح استخدمه الرئيس الأمريكي جورج بوش- الأب- في خطاب وجهه للأمة الأمريكية بمناسبة إرساله القوات الأمريكية إلى الخليج (بعد أسبوع واحد من نشوب الأزمة في أغسطس 1990م) وفي معرض حديثه عن هذا القرار، تحدّث عن فكرة :عصر جديد، وحقبة للحرية، وزمن للسلام لكل الشعوب. وبعد ذلك بأقل من شهر أشار إلى إقامة (نظام عالمي جديد) يكون متحرراً من الإرهاب، وأكثر أمنا في طلب السلام، عصر تستطيع فيه كل أمم العالم أن تنعم بالرخاء وتعيش في تناغم.

وربّما يوحي هذا الإطلاق- النظام العالمي الجديد- بأن اللفظة ذات مضامين سياسية بحتة، ولكن في الحقيقة تشمل مضامين سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية وتربوية، بمعنى آخر تشمل مضامين تتعلق بكل جوانب الحياة الإنسانية.

ومن أحسان تعاريف العولمة هو أنها (منظومة من المبادئ السياسية والاقتصادية، ومن المفاهيم الاجتماعية والثقافية، ومن الأنظمة الإعلامية والمعلوماتية، ومن أنماط السلوك ومناهج الحياة، يُراد بها إكراه العالم كلّه على الاندماج فيها، وتبنّيها، والعمل بها، والعيش في إطارها)

قال: هي قديمة قدم الإنسان.. لقد كانت كثير من الشعوب المتمردة الممتلئة بالصراع تحلم بأن تفرض نفسها على غيرها.. وتنعت غيرها بالبربرية والبدائية والتخلف.. ولكن الوسائل لم تكن تتيح لها هذا النوع من السيطرة.. فلذلك استبدلتها بالاستعمار والاسترقاق والإبادة..

لكن الظروف تهيأت في هذا العصر.. وخاصة بعد انتهاء الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية عام 1961م، ثم سقوط الاتحاد السوفيتي سياسياً واقتصادياً عام 1991م، وما أعقبه من انفراد الولايات المتحدة الأمريكية بالتربع على عرش الصدارة في العالم المعاصر وانفرادها بقيادته السياسية والاقتصادية والعسكرية(1).

قلنا: فقد صارت أمريكا إذن هي أستاذ العالم الذي يفرض عليه ما يريد؟

قال: ليتها قبلت بهذا الدور.. إذن لكانت من أهل السلام.

1() يذكر الباحثون أن هناك أربعة عناصر أساسية أدت إلى بروز العولمة.. أولها تحرير التجارة الدولية.. حيث حصل في هذا العصر.. وفي هذه الفترة بالذات تكامل الاقتصاديات المتقدمة والنامية في سوق عالمية واحدة، مفتوحة لكافة القوى الاقتصادية في العالم وخاضعة لمبدأ التنافس الحر.

وثانيها تدفق الاستثمارات الأجنبية المباشرة.. حيث حدثت تطورات هامة خلال السنوات الأخيرة تمثلت في ظهور أدوات ومنتجات مالية مستحدثة ومتعددة، إضافة إلى أنظمة الحاسب الآلي ووسائل الاتصال والتي كفلت سرعة انتشار هذه المنتجات،وتحوّلت أنشطة البنوك التقليدية إلى بنوك شاملة، تعتمد إلى حد كبير على إيراداتها من العمولات المكتسبة من الصفقات الاستثمارية من خارج موازنتها.

وثالثها الثورة المعرفية، وتتمثّل في التقدم العلمي والتكنولوجي،وهو ميزة بارزة للعصر الراهن،وهذا التقدم العلمي جعل العالم أكثر اندماجاً، كما سهّل حركة الأموال والسلع والخدمات،وإلى حد ما حركة الأفراد، ومن ثمّ برزت ظاهرة العولمة، والجدير بالذكر أنّ صناعة تقنية المعلومات تترّكز في عدد محدود، ومن الدول المتقدمة أو الصناعية دون غيرها.

ورابعها تعاظم دور الشركات متعددة الجنسيات: هذا العصر بأنّه عصر العولمة فمن الأصح وصفه بأنه عصر الشركات متعددة الجنسيات باعتبارها العامل الأهم لهذه العولمة.ويرجع تأثير هذه الشركات كقوة كبرى مؤثرة وراء التحولات في النشاط الاقتصادي العالمي.

.

قلنا: فما الذي عملت؟

قال: لقد راحت مع إخوانها وأخواتها ممن امتلأوا بالصراع يستعملون كل أنواع السياط ليفرضوا على العالم نمطا معينا من الحياة.. يجعل العالم كله عبيدا لسيد واحد هو عين ذلك السيد الذي لا تزال دماء عبيده تسيل على أرضه.

قلنا: دعنا من هذا التشاؤم.. لقد سمعنا بأن العولمة تبشر بالازدهار الاقتصادي والتنمية والرفاهية لكل الأمم والعيش الرغيد للناس كلهم، والانتعاش،ونشر التقنية الحديثة، وتسهيل الحصول على المعلومات والأفكار عبر الاستفادة من الثورة المعلوماتية الحديثة، وإيجاد فرص للانطلاق للأسواق الخارجية، وتدفق الاستثمارات الأجنبية التي تتمتع بكفاءة عالية، وبالتالي ينتعش الاقتصاد الوطني والقومي.

ضحك ضحكة عالية، وقال: ألا تعرفون قومنا؟.. ألم تدركوا بعد ما جبلوا عليه من التلاعب على الحقائق؟

لقد ذكرتم الازدهار الاقتصادي والتنمية.. وسأذكر لكم ما قامت به الشركات الجشعة لتحقق هذا الازدهار والتنمية..

لاشك أنكم تعرفون النمور الآسيوية.. كأندونيسيا وماليزيا.. إن هذه الدول لم تستطع تحقيق المصالح الاقتصادية المطلوبة لشعوبها بسبب بسيط هو أن الشركات المتعددة الجنسيات أرسلت أحد المستثمرين الأجانب.. وهو أحد رموز العولمة.. الملياردير (جورج سورش) ليتلاعب بالبورصة مما أدى إلى ضرب التجارة التنموية وإحباطها.

لقد أدلى جورج سوروش نفسه بشهادة لاذعة أمام الكونغرس الأميركي قال فيها:(بدلا من أن تتصرف أسواق المال مثل البندول، فإنها تصرفت مثل كرة التهديم المعدنية، وراحت تقوض دولة تلو الأخرى، وعليه فإنّ استخلاصنا الأخير بأن أسواق المال سوف تواصل تقريب العالم بعضه إلى بعض هو استخلاص مثير للجدل والخلاف)

إنّ هذه الشركات تعد الأرض كلها سوقًا كبيراً لها، بما فيها ومن

فيها، بحيث تتنافس في اقتسام هذه الأراضي دون أي اعتبــار لقيم أو أخلاق، وهي نادراً ما تدخل في شكل استثمارات مباشرة طويلة الأمد، وإنما تـدخل بمـا يعـرف بـالأموال الطـائرة، في اسـتثمارات قصيرة الأجل وسريعة الفوائد والتي تحقـق لهـا عوائـد هائلـة، دون أن يكون لذلك مـردود على التنميـة المحليـة.. وإن حـدث وقـدمت استثمارات مباشرة، فإنّها قبل ذلك تأخذ ما يكفيهـا من التسـهيلات والضــمانات السياســية والاقتصــادية الــتي لا تحظى بهــا رؤوس الأموال المحلية، وهو ما يعرقل الاقتصاد المحلي، زيادة على ذلـك، فـإن معظم أنشـطتها تقتصـر على السـلع الاسـتهلاكية ذات العائـد الأسرع نتيجة للنمط الاستهلاكي السائد.

لقد أدى تطور هـذه الشـركات وتضـخمها إلى تعميـق العولمـة اقتصـادياً، وتعـدد أنشـطتها في كـل المجـالات: الاسـتثمار والإنتـاج والنقل والتوزيع والمضاربة، ووصل الأمر إلى أنّها قـد صـارت تـؤثر في القرار السياسي والبعد الثقافي والمعرفي، وفي ظل العولمــة استطاعت هذه الشركات الاستفادة من فروق الأسعار، من نســبة الضرائب، من مستوى الأجـور لتركـيز الإنتـاج في المكـان الأرخص وبعد ذلك ينقل الإنتاج إلى المكان الذي يكون فيه مستوى الأسـعار أعلى ويتم تسويقه هناك.

أضيفوا إلى هذا أن هذه العولمة المجنونة ركزت الثروة المالية في يـد قلـة من النـاس أو قلـة من الـدول، فـ 358 مليـاردير في العالم يمتلكـون ثـروة تضـاهي مـا يملكـه أكـثر من نصـف سـكان العالم، و 20 بالمائة من دول العالم تسـتحوذ على 85 بالمائـة من الناتج العالمي الإجمـالي، وعلى 84 بالمائـة من التجـارة العالميـة، ويمتلك سكانها 85 بالمائة من المدخرات العالمية.. ونكتشــف من هــذا أنّ 5،19 بالمائــة من الاســتثمار المباشــر و08 بالمائــة من التجـارة الدوليـة تنحصـر في منطقـة من العـالم يعيش فيهـا 82 بالمائة فقط من سكان العالم.

أضــيفوا إلى هــذا ســيطرة الشــركات العملاقــة عمليــاً على الاقتصاد العـالمي.. إنّ خمس دول ــ الولايـات المتحـدة الأمريكيـة واليابان وفرنسا وألمانيا وبريطانيا ـ تتـوزع فيمـا بينهـا 172 شـركة من أصل مائتي شـركة من الشـركات العالميـة العملاقـة.. وهنـاك

350 شركة كبرى لتلك الدول تستأثر بما نسبته 40 بالمائة من التجارة الدولية.. وقد بلغت الحصة المئوية لأكبر عشر شركات في قطاع الاتصالات السلكية واللاسلكية 86 بالمائة من السوق العالمي، وبلغت هذه النسبة 85 بالمائة من قطاع المبيدات، وما يقرب من 70 بالمائة من قطاع الحاسبات و60 بالمائة في قطاع الأدوية البيطرية، و35 بالمائة من قطاع الأدوية الصيدلانية، و34 بالمائة في قطاع البذور التجارية.

أضيفوا إلى هذا تعميق التفاوت في توزيع الدخل والثروة بين الناس، بل بين المواطنين في الدولة الواحدة، واختزال طاقات شعوب العالم إلى طاقة دفع لماكينة الحياة البراجماتية الاستهلاكية للقوى الرأسمالية والسياسة الغربية المسيطرة.. لقد كان أولئك المدافعونالأغبياء عن العولمة يراهنون على أن العولمة ستؤدي إلى ارتفاع مستوى دخل الفرد على المستوى العالمي، وبالتالي تخف ظاهرة الفقر التي تعاني منها كثير من دول العالم، لكن الحقائق والأرقام، تكشفت عن واقع مؤلم مختلف، ففي الوقت الذي ازداد معدل دخل الفرد، فإنّه صاحب هذه الزيادة اتساع في الهوة الشاسعة بين مستوى الدخل في الدول الغنية والدول الفقيرة، فمازال دخل أكثر من مليارين إنسان لا يزيد على 60 دولاراً في الشهر، ما يعني أن خطر الفقر مازال يطل برأسه القبيح على دول كثيرة في العالم.

أضيفوا إلى هذا استئثار قلة من سكان الدولة الواحدة بالقسم الأكبر من الدخل الوطني والثروة المحلية، في الوقت الذي يعيش أغلبية السكان حياة القلة والشقاء ويوضح ذلك أن عشرين بالمائة من الفرنسيين يتصرفون فيما يقرب من سبعين بالمائة من الثروة الوطنية، وعشرين بالمائة من الفرنسيين لا ينالون من الدخل الوطني سوى نسبة ستة بالمائة.

أضيفوا إلى هذا النمو المطرد للبطالة، وانخفاض الأجور وما يرتبط بها من تقليص في قدرة المستهلكين واتساع دائرة المحرومين، وقد دلت الإحصائيات على حقائق خطيرة، ففي العالم (800) مليون شخص يعانون من البطالة وهذا الرقم في ازدياد، وفي السنوات العشرة الأخيرة عملت 500 شركة من أكبر

الشـــركات العالميـــة على تســـريح أربعمائـــة ألـــف عامـــل - في المتوسط- كل سنة، على الرغم من ارتفاع أربـاح هـذه الشـركات بصورة هائلة، فإحدى هذه الشركات منحت للمساهمين فيهـا مبلـغ خمسة مليون دولار لكـل منهم(60) والشـركات الأمريكيـة تسـرِّح مليونين من العمال.

ونتيجة لذلك ظهرت عدائية كثير من منظمات المجتمع المدني الغربية، وخاصة في الولايات المتحدة للعولمة، وخاصة المنظمـات العمالية، واتحادات الشغل التي تـراقب أثـر عولمـة الاقتصـاد على معدلات أجور العمال، وعلى نسبة البطالة في الغرب.

إنّ الفقـــر النـــاتج عن البطالـــة حتمـــا يقـــود إلى اتســـاع دائـــرة الجريمة فالعولمة تسمح وبيسر للعصابات بأنّ تشكل شبكة دوليـة عـبر (الإنـترنت) وتمكن المتهـربين من دفـع الضـرائب من نقـل أموالهم إلكترونيا إلى أمكنة أخرى، فمن روسـيا وحـدها وصـل إلى العالم الغربي منذ عام 1990م خمسون مليار دولار بطريقـة غـير شرعية، ويقدر خبراء الأمن أن ثروة منظمـات المافيـا في النمسـا وحدها تتجاوز تسعة عشر مليار دولار، كل هذا يجري على حســاب الدولة التي بدأت تئن تحت ضائقة الفقر لتقلص الضرائب وهروبها، وهذا يعني ضعف الخـدمات الاجتماعيـة والتعليميـة والصـحية الـتي تقـدمها الدولـة، وتتضـاعف حـدة مشـكلة الفقـر،وتصـبح أشـدّ خطورة،وبالنتيجة فـإنّ شـرعية هـذه الدولـة واسـتقرارها يصـبحان مهددان.

أضيفوا إلى هذا فـرض السياسـات الاقتصـادية والزراعيـة على دول العالم - وخاصة الناميـة - بهـدف تعطيـل التنميـة الاقتصـادية، وإبقائها سوقاً استهلاكية رائجة للمنتجات الغربيـة، وتسـليم إرادتهـا السياسية للقوى الحاكمة في أمريكا.. ففي بعض الدول انخفضـت معدلات النمو عام 98م بأكثر من 100 بالمائـة وارتفعت معـدلات البطالة بنسبة خطيرة أدت إلى حدوث مشكلات اجتماعيـة عديـدة من أهمها زيادة نسبة الفقر والأمية.

أضـيفوا إلى هـذا إضـعاف قـوة مـوارد الـثروة الماليـة العربيـة المتمثلـة في النفـط، حيث تم إضـعاف أهميتـه كسـلعة حينمـا تم استثناؤه من السـلع الـتي تخضـع لحريـة التجـارة الدوليـة - أسـوة

بتجــارة المعلومــات- من تخفيض الضــرائب والقيــود الجمركيــة المفروضة عليه من الدول المستهلكة، فما زالت هذه الدول وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية ترفض اعتبار النفط والمشـتقات البتروكيماوية من السلع التي يجب تحريرهـا من القيـود الجمركيـة والضرائب الباهضة التي تفرضها الدول المسـتهلكة، وبـذلك تجـني هذه الدول الأرباح الهائلـة من وراء ذلـك، وهي تعـادل ثلاثـة أمثـال العائــدات إلى الــدول المنتجــة في الــوقت الحاضــر، بــل أصــدر الكونجرس الأمريكي تشـريعاً يقضـي بفـرض العقوبـات على دول في منظمة أوبيك إذا شاركت في رفع أسعار النفط أو تثبيتها.

أضيفوا إلى هـذا ظهـور عمليـة الإغـراق الـتي ترتبـط بالسـعر، وذلك بأن تطرح في الأسواق سلع مستوردة بأسعار تقل كثيراً عن سعر المثيـل في السـوق المحلي، أو عن سـعر المثيـل في سـوق الدولة المنتجة لهذه السلعة وتصدرها، أو انخفـاض سـعر الـبيع عن سـعر تكلفـة الإنتـاج، ويتم تـداولها لفـترة زمنيـة، بهـدف اسـترداد نفقاتها وتحقيـق الـربح، تلـك هي الحـالات الثلاث الـتي تعتـبر فيهـا السلع المستوردة بمثابة سلع أو واردات إغراق.

وهـذه المشـكلة ظهـرت مـع دخـول العولمـة وإلغـاء التعرفـة الجمركية، أو الحد منها على بعض السلع، حيث كان قديماً لا يمكن حدوث ذلك لأن الدول كانت تتحكم في سعر السلعة بزيـادة سـعر الجمارك، مما يـؤدي إلى زيـادة سـعر المنتج المسـتورد عن المنتج المحلي أو على الأقـل يسـاويه في الثمن، ولكن مـع فتح الأسـواق أمام التجارة العالمية، فإننا سنشهد حـالات إغـراق كثـيرة، وكـذلك تجاوزات لا نضمن إلى أي مدى ستصل عواقبها.

سكت قليلا، ثم راح يخاطب نفسه، ويقول: لم نكتف بكل هذا.. أنت ـ يا نفسي ـ تعلمين جشعي وحرصي.. فلذلك لم أكتـف بأكـل كل تلك الأموال.. أنا لا تكفيني الأموال.. مثلما لا تكتفيني الدماء..

قلنا: فما فعلت.. أو ما فعل قومنا بعد كل هذا؟

قـال: لقـد رحنـا نفـرض سـيطرتنا السياسـية على الأنظمـة الحاكمة والشعوب التابعة لها، والتحكم في مركز القرار السياسـي وصـناعته في دول العـالم لخدمـة مصـالحنا على حسـاب مصـالح

الشعوب وثرواتها الوطنية والقومية وثقافتها ومعتقداتها الدينية.. لقد قال أحد زملائي في الإجرام (جون بوتنغ)، وقد كان رئيس المدراء التنفيذيين في بنك بنسلفانيا :(في العولمة نحن نقرر من الذي سيعيش ونحن نقرر من الذي سيموت)

لم نكتف بكل هذا، بل رحنا نخطط للتدخل العسكري وإعلان الحرب في أية بقعة من العالم تفكر بالخروج على سيطرتنا.. يقول صموئيل هنتنغتون في دراسته المسماة (المصالح الأمريكية ومتغيرات الأمن) :(إنّ الغرب بعد سقوط الاتحاد السوفيتي بحاجة ماسّة إلى عدو جديد يوحد دوله وشعوبه، وإن الحرب لن تتوقف، حتى لو سكت السلاح وأبرمت المعاهدات، ذلك أن حرباً حضاريةً قادمةً ستستمر بين المعسكر الغربي الذي تتزعمه أمريكا وطرف آخر، قد يكون عالم الإسلام أو الصين)

ولم نكتف بكل هذا.. بل رحنا نفرض ثقافتنا بكل تشوهاتها وصراعاتها على العالم أجمع.. إنّ ثقافتنا تريد من العالم أجمع أن يعتمد المعايير المادية النفعية الغربية،كأساس لتطوره، وكقيمة اجتماعية وأخلاقية، وبهذا فإنّ ما تبقى يجب أن يسقط، وما تبقى هنا هو ليست خصوصية قومية، بل مفهوم الخصوصية نفسه، وليس تاريخا بعينه بل فكرة التاريخ، وليس هوية بعينها وإنما كل الهويات،وليس منظومة قيمية بل فكرة القيمة وليس نوعا بشريا، وإنّما فكرة الإنسان المطلق نفسه.

لقد دعا دافايد روشكويف (أستاذ العلاقات الدولية بجامعة كولومبيا والمسئول السابق في حكومة الرئيس الأمريكي كلينتون) الولايات المتحدة إلى استغلال الثورة المعلوماتية الكونية للترويج للثقافة والقيم الأمريكية على حساب الثقافات الأخرى، لأنّ الأمريكان أكثر الأمم عدلاً وتسامحاً وهم النموذج الأفضل للمستقبل، والأقدر على قيادة العالم.

ويقول شتراوس هوب في كتابه(توازن الغد):(إنّ المهمة الأساسية لأمريكا توحيد الكرة الأرضية تحت قيادتها، واستمرار هيمنة الثقافة الغربية، وهذه المهمة التي لا بد من إنجازها بسرعة في مواجهة نمور آسيا وأيّ قوى أخرى لا تنتمي للحضارة الغربية)

يقول ناعوم تشومسكي: (إنّ العولمة الثقافية ليست سوى نقلة نوعية في تاريخ الإعلام، تعزز سيطرة المركز الأمريكي على الأطراف، أي على العالم كله)

ويقول بلقيزر: (العولمة ـ كما يدعي روادها ـ هي انتقال من مرحلة الثقافة الوطنية إلى ثقافة عليا جديدة عالمية، وهي في حقيقتها اغتصاب ثقافي وعدوان رمزي على سائر الثقافات الأخرى، وهي اختراق تقني يستخدم وسائل النقل والاتصال لهدر سيادة الثقافات الأخرى للشعوب، وفرض الثقافة الغربية)

قلنا: ولكن.. لا نرى لقومنا أي أسلحة ثقافية يوجهونها نحو شعوب العالم.

ضحك، وقال: لقد تطورت الأسلحة.. فلم تعد تجدي الأسلحة القديمة.. لقد صار الإعلام هو وسيلة هذا العصر.. الوسيلة التي تفرض بها ما تريد على من تريد.

وقد هيمنت شركاتنا على الإعلام في العالم أجمع.. فمعظم مواد وتجهيزات الصناعة التقليدية من الورق، والحبر، وآلات الطباعة، وآلات التصوير بيد الدول المصنعة، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية.

وجميع مواد وتجهيزات الاتصال الحديثة بيد المجموعة نفسها ويتحكم فيها كلياً مركز واحد للهيمنة، وجميع وسائل تجهيزات المعلومات والحاسوب، وغزو الفضاء.

وفوق ذلك كلهما تشاهدونه من التفوق الأمريكي في صناعة الأفلام والموسيقى، وتمتعها بسوق خارجية ضخمة في ظل انتشار التلفزيون، والأقمار الصناعة،وقنوات الفضاء التي أدخلت البث التلفزيوني إلى كل بيت في العالم.

تشير إحصاءات منظمة اليونسكو عن الوطن العربي إلي أنّ شبكات التليفزيون العربية تستورد ما بين ثلث إجمالي البث كما في سوريا ونصف هذا الإجمالي كما في تونس والجزائر، أما في لبنان فإن البرامج الأجنبية تزيد علي نصف إجمالي المواد المبثوثة إذ تبلغ 58,5 بالمائة وتبلغ البرامج الأجنبية في لبنان 69 بالمائة

من مجمـوع الـبرامج الثقافيـة، ولا تكتفي بـذلك، بـل وغـالب هـذه البرامج يبث من غير ترجمة، وثلثا برامج الأطفال تبث بلغـة أجنبيـة من غير ترجمة في معظمها.

قلنا: إن ما تذكره جميل.. فهو لا يـدل إلا على النشـاط العظيم التي تبديه شعوبنا في هذه المجالات.

قال: ولكنه نشاط مخرب.. إن عملاءنا الذين يروجون العولمة يحاولون جادين تعميم الفلسفة الماديـة والفكـر الغـربي العلمـاني ليصبح العالم جـزءاً من المنظومـة العلمانيـة العالميـة الـتي تتميّـز بخصائص معينة وتظهر بثقافة واحدة، تتجـاوز السـلام بكـل أبعـاده الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والخلقية.

إنّ العولمة تمجِّد ثقافة الاستهلاك التي اسـتخدمت كـأداة قويـة فاعلـة في إطلاق شـهوات الاسـتهلاك إلى أقصـى عنـان، ومن ثمَّ تشويه التقاليد والأعراف السائدة في العالم الإسلامي.

وهي تشيع ما يسمى بـأدب الجنس وثقافـة العنـف الـتي من شأنها تنشئة أجيال كاملة تؤمن بالعنف كأسلوب للحيـاة وكظـاهرة عادية وطبيعية، وما يترتّب على ذلك من انتشار الرذيلـة والجريمـة والعنف.

في دراسة أعدها مركز دراسات المرأة والطفل بالقاهرة على 1472 فتاه، وسـيدة مصـرية..تـبين أنّ الأفلام الـتي يشـاهدنها:85 بالمائة أفلاماً جنس، 75 بالمائـة بهـا مشـاهد جنسـية، 85 بالمائـة أفلام عنـف وحـروب،23 بالمائـة أفلام فضـاء، 68 بالمائـة أفلامـاً عاطفية قديمة وحديثة، 21 بالمائة أفلاما أخرى،6 بالمائة فقط من عينة البحث يشاهدن نشرات الأخبار وبـرامج ثقافيـة وترفيهيـة،ولم يذكرنّ الأفلام العلمية، لأنها لم تنل منهن أي اهتمام يذكر.

كمـا أثبتت الدراسـات الحديثـة أن شـبكة المعلومـات الدوليـة (الإنترنت) أكبر قوة دافعة للعولمة المدوية لصـناعة الجنس.ويـرى معهـد فوريسـتر للأبحـاث (كيمـبردج ماساشوسـيتس) أنّ صـناعة البورنو على شبكة المعلومات الدولية تبلغ نحـو مليـار دولار سـنويا من حيث القيمـة، وأنّهـا مرشـحة للتعـاظم.. فشـبكة المعلومـات الدولية تزيـل بضـربة واحـدة، أكـبر عقبـتين تعترضـان بيـع الصـور

والخدمات الجنسية: الخجل والجهل..فـالأمر لا يحتـاج أكـثر من أن يلقي نظرة على (دليل الجنس في العالم)، وهو موقع على شـبكة معلومات الدولية ليجد عروضاً مفصّلة عن المواخير ووكالات تأجير المرافقات والنوادي الليلية في مئات المدن الكـبرى حـول العـالم، وتتيح شبكة معلومات الدولية أيضا للنـاس تجـاوز الرقابـة المحليـة والحصول على صور يرغبونها من أي مكان في أرجاء المعمورة.

ليس ذلك فقط.. فمن آثار عولمة الثقافة انتشار نوعية ممـيزة من الثقافـة الماديـة والمعنويـة الأمريكيـة حيث سـيطرت الثقافـة الأمريكية الشـعبية على أذواق البشـر، فأصـبحت موسـيقى وغنـاء مايكـل جاكسـون، وتليفزيـون رامبـو، وسـينما دالاس هي الآليـات والنمــاذج السـائدة في مختلـف أنحـاء العـالم، وأصـبحت اللغـة الإنجليزية ذات اللكنة الأمريكية هي اللغة السائدة.

ليس ذلـك فقـط.. فمن آثـار العولمـة الثقافيـة انتشـار الأزيـاء والمنتجـات الأمريكيـة، لأنّ هـذه السـلع تحمـل في طياتهـا ثقافـة مغايرة تسحق ثقافات الأمم المستوردة لها.

السلام

بعد أن حـدثنا صـاحبنا الثـامن بمـا حـدثنا بـه من المآسـي ممـا ذكرت لك الكثير منه سألناه عن التقائه بمن وصفه بالنور والسـلام والصفاء، فابتسم ابتسامة هادئة امتلأت لها أسارير وجهـه إشـراقا، ثم قال: لا أزال أذكر ذلك اليـوم جيـدا.. إنـه يـوم ممـيز في حيـاتي وقفت فيـه على حافـة بين المـوت والحيـاة.. لم يكن بيـني وبين الموت حينها إلا كلمة واحدة، أو إشارة واحـدة، ولكن اللـه قـدر أن يمد في عمـري لأسـمع من الكلمـات، وأرى من الأنـوار، مـا جعـل لحياتي معـنى جديـدا لم أكن أراه، ولم أكن أشـعر بـه، بـل لم أكن أتصور أن له وجودا في هذه الحياة.

قلنا: فلم لم تتبع هذا النور والسلام والصفاء؟

قال: ذلك لشقائي.. لقد كـان أمـامي وبين يـدي.. ولكن جبـال الكبرياء التي سيطرت على كـل لطـائفي منعتـني من اتباعـه، بـل حرضتني على خلافه.

قلنا: ما اسم هذا الرحل الذي رضيت الموت من أجل لقائه؟

قـال: لقـد ذكـر لي أنـه أسـماء كثـيرة بـدأت بمحمـد، وانتهت بمرتضى مطهّري (1).

قلنا: فحدثنا عن حديثك معه.

قلنا: فأين هو الآن؟

قـال: لقـد قـدم إلى هـذه البلاد لـدرء الفتنـة الـتي تريـد أن تستأصلها.. وقد جئت على أثره أبحث عنـه.. ولكن اللـه قـدر أن لا ألقاه.. بل ألقى بدله الموت الذي أذقته للملايين.

قلنا: فحدثنا عن حديثك معه.

أشرق وجهه بابتسامة عذبه، ثم قال: في ذلك اليـوم قـدر اللـه أن أسـير إلى بعض بلاد المسـلمين في مهمـة من مهمـات الـدماء التي لم أكن أسير إلا من أجلها.

ولكني.. وأنا أمر في زقـاق من أزقـة المسـلمين.. رأيت جمعـا من النـاس ملتفـا حـول رجـل منهم.. كـان ذلـك الرجـل هـو النـور والسلام والصفاء..

لقد كان أول ما شـدني إليـه آيـة من القـرآن تقـول : يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (الحجرات:13)

سألته عنها، فذكر لي أن هذه الآية تذكر ركنا أساسيا من أركان العلاقات التي أمر الله أن تحكم العالم.

قلت لـه: لكن العلاقـات الـتي أراهـا تحكم العـالم هي علاقـات الكراهية والحروب والاستعمار والاستغلال والاستعباد والإبادة..

---

(1) مرتضى مطهّري (1920 ـ 1979) عالم وفيلسوف إسـلامي، العضـو المؤسـس في شورى الثورة الإسلامية في إيران إبان الأيام الأخيرة من سـقوط نظـام الشـاه، ومن المنظرين جمهورية الإسلامية الإيرانية.. صاحب المؤلفات التأصيلية والعقائدية والفلسفية الإسلامية، وأحد أبرز تلامذة المفسـر والفيلسـوف الإسـلامي محمـد حسـين الطباطبـائي وروح الله الخمينى.

قال: تلك علاقات الشياطين التي نفختها في أجواء بني آدم.. أما العلاقات التي أمر الله أن تقوم على الأرض، فيستحيل أن تفوح منها روائح الدماء..

لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال مخبرا عن خوف الملائكة من أن تسيل دماء بني آدم في غير حق : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلاَئِكَةِ إِنِي جَاعِلٌ فِي الأَرضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتجعَلُ فِيهَا مَن يُفسِدُ فِيهَا وَيَسفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحنُ نُسَبِحُ بِحَمدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِي أَعلَمُ مَا لاَ تَعلَمُونَ ﴾ (البقرة: 30)

وذكر قصة أول دم سال على الأرض، فقال :﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (31)﴾ (المائدة)

وقد عقب الله على هذه القصة بالتشديد في أمر الدماء.. ووضع الشرائع التي تحفظ الدماء أي دماء من كل من يتعرض لها.. قال تعالى :﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (32) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (33) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (34)﴾ (المائدة)

قلت: أعرف تلك القصة..

قاطعني، وقال: هي ليست مجرد قصة.. إنها مبادئ عظيمة

سار بها أهل الله في كل الأزمنة.. وفي كـل البلاد.. كلهم يصـيحون بما صاح به ابن آدم الأول..

لقد ذكر رسول الله ﷺ هذا المذهب، وحث على اتباعه، فقـال: (إنهـا سـتكون فتنـة يكـون المضـطجع فيهـا خـيراً من الجـالس، والجالس خيراً من القـائم، والقـائم خـيراً من الماشـي، والماشـي خيراً من الساعي) قال الراوي: يا رسـول اللـه مـا تـأمرني؟ قـال: (من كانت له إبلٌ فليحلق بإبله، ومن كانت له غنمُ فليحلق بغنمـه، ومن كانت له أرضٌ فليحلق بأرضه)، قيل : فمن لم يكن لـه شـيء من ذلك؟ قال : (فليعمد إلى سيفه فليضـرب بجـدِّه على حـرَّة، ثم لينجو ما استطاع النجاء)

قـال سـعد: قلت: يـا رسـول اللـه أرأيت إن دخـل عليَّ بيـتي وبسط يده ليقتلني! قال : فقـال رسـول اللـه ﷺ: (كن كـابن آدم) وتلا : لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ.. (المائدة:28)(1)

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ :(إن بين يدي الساعة فتناً كقطـع الليـل المظلم، يصـبح الرجـل فيهـا مؤمنـاً ويمسـي كـافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ؛ القاعد فيها خير من القائم، والماشي فيهـا خـير من السـاعي، فاكسـروا قسـيَّكم، واقطعـوا أوتـاركم، واضربوا سيوفكم بالحجـارة، فـإن دُخِـل ــ يعـني على أحـد منكم ـ فليكن كخير ابنيْ آدم)

وفي حديث آخر عن أبي ذر قال : قال رسول اللـه ﷺ:(يـا أبـا ذر!) قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك ــ وذكـر الحـديث ــ وقـال فيــه : (كيــف أنت إذا أصــاب النــاس مــوت يكــون الــبيت فيــه بالوصـيف؟) قلت : اللـه ورسـوله أعلم، أو قـال مـا خـار اللـه لي ورسوله، قال: (عليك بالصبر) ـ أو قال تصبر ـ ثم قال : (يا أبا ذر !) قلت : لبيك وسعديك، قال : (كيف أنت إذا رأيت أحجار الـزيت قد غرقت بالدم؟) قلت : ما خـار اللـه لي ورسـوله، قـال:(عليـك بمن أنت منه): قلت: يا رسول الله، أفلا آخـذ سـيفي فأضـعه على عاتقي ؟ قال : (شاركت القوم إذن)، قلت: فمـا تـأمرني ؟ قـال: (إن خشيت أ يبهرك شعاع السيف، فـألق ثوبـك على وجهـك يبـوء

(1) رواه البخاري ومسلم بألفاظ مختلفة.

بإثمك وإثمه)(2)

قلت: أرى كل هذه الأحاديث تـدل على مـذهب ابن آدم الأول.. فما مذهبه؟.. وما سر الاهتمام به؟

قال: أما مذهبه فهو السلام.. وأمـا سـر الاهتمـام بـه، فهـو أنـه يمثل الفطرة السليمة الأصلية التي فطـر اللـه خلقـه عليهـا.. لكن الشياطين ونفوسهم المدنس بدنس الأهواء أبت إلا أن تغرقهم في مستنقعات الدماء.

قلت: ولكـــني أرى من المســـلمين من يحمـــل أســـلحة ومتفجرات.. ويرميها على من يستحق ومن لا يستحق.

قال: هو كابن آدم الثاني.. لا كابن آدم الأول.

قلت: هو يزعم أنه أخذ هذه التعاليم من القرآن.

قال: من أي موضع؟.. لقد ذكر الله النماذج الكاملة التي انتصر فيها الإنسان، وانتصرت فيها الحقائق، فلم يذكر قطرة دم واحــدة، لقد قال الله تعالى يذكر هـؤلاء الرجـال الأفاضـل :﴿ أَلَمْ يَـأْتِكُمْ نَبَـأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَـاءَتْهُمْ رُسُـلُهُمْ بِالْبَيِّنَـاتِ فَـرَدُّوا أَيْـدِيَهُمْ فِي أَفْـوَاهِهِمْ وَقَـالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْـهِ مُـرِيبٍ(9)قَـالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَـدْعُوكُمْ لِيَغْفِـرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَـلٍ مُسَـمًّى قَـالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَـرٌ مِثْلُنَـا تُرِيـدُونَ أَنْ تَصُـدُّونَا عَمَّا كَـانَ يَعْبُـدُ آبَاؤُنَـا فَأْتُونَـا بِسُـلْطَانٍ مُبِينٍ(10)قَـالَتْ لَهُمْ رُسُـلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَـا أَنْ نَـأْتِيَكُمْ بِسُـلْطَانٍ إِلَّا بِـإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُـونَ(11)وَمَـا لَنَـا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَـدْ هَـدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَـا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُـونَ(12) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُـودُنَّ فِي مِلَّتِنَـا فَـــأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ(13)وَلَنُسْـــكِنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ(14)﴾ (إبراهيم)

انظر.. إن ما جاء به الرُّسل هو البينات.. وموقـف الأقـوام أنهم

(2) رواه ابن ماجة.

ردُّوا أيديهم في أفواههم، وقالوا : ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾

وكان جواب الرُّسل : ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأتِيَكُم بِسُلطَانٍ إِلاَّ بِإِذنِ اللهِ وَعَلى اللهِ فَليَتَوكَّلِ المُؤمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَد هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيتُمُونَا ﴾

فإك ردُّ الذين كفروا لرسلهم : ﴿ لَنُخرِجَنَّكُم مِن أَرضِنَا أَو لَتَعُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوحَى إِلَيهِم رَبُّهُم لَنُهلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾

انظر.. هل أسال هؤلاء الأفاضل قطرة دم واحدة، وهم يبلغون دين الله للبشرية.

لقد ذكر الله النماذج التفصيلية لهذا..

فذكر عن نوح ﷺ أنه كان صريحاً جداً في دعوته حين أعلن لقومه طريقته، قال تعالى:﴿ وَاتلُ عَلَيهِم نَبأَ نُوحٍ إِذ قَالَ لِقَومِهِ يَا قَومِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيكُم مَّقَامِي وَتَذكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلتُ فَأَجمِعُوا أَمرَكُم وَ شُرَكَاءَكُم ثُمَّ لاَ يَكُن أَمرُكُم عَلَيكُم غَمَّةً ثُمَّ اقضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ ﴾ (يونس: 71)

واضح هنا أن الذي كبر على قوم **نوح** لم يكن قيام نوح بعمل انقلابي أو عدواني، وإنما كان ذنبه هو مقامه وتذكيره بآيات الله. ولهذا قال : إن كان هذا العمل جريمة في نظركم فإني أتحمل تبعة عملي :﴿ فَأَجمِعُوا أَمرَكُم وَشُرَكَاءَكُم ثُمَّ لاَ يَكُن أَمرُكُم عَلَيكُم غَمَّةً ثُمَّ اقضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ ﴾ (يونس:71)

ومعنى هذا أن نوحاً ﷺ استمر في دعوته الطويلة استمراراً سلمياً بحيث أنه رفض قومه هذه الدعوة وحاولوا أن ينالوا منه لم يعزم على قتالهم إنما عزم على الصبر إلى أن يقتل هو.

ونفس هذا الأسلوب انتهجه **هود** ﷺ من بعده، قال تعالى : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (65) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (66) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (67) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ

نَاصِحٌ أَمِينٌ (68)﴾ (الأعراف)

انظر.. هناك عرَّض نوح نفسه للموت، أما هنا فإن هوداً ينصح ويبيِّن.. وهذا يعني أنه مازال يأمل بإيمان قومه.

ومن هذه المقارنة البسيطة، نعلم نجاح الدعوات لا يمكن أن يكون إلا عن طريق التبليغ الكامل لآيات الله، سواء أقبلها الناس أم لم يقبلوها، مادامت في مرحلة التكوين.. لأن الذي لا يقبل الرأي عن طريق الإقناع، قد تتمكن أن ترغمه على رأيك بالقوة، إلا أنه سينقض عليك حتماً متى سنحت له الفرصة ليثبت لك أنه لم يؤمن بفكرتك.

وهذا نفسه ما حصل مع **موسى** ﷺ قال تعالى :﴿ وَلَقَد أَرسَلنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (23) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (24) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (25) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (27)﴾ (غافر)

بعد هذه المحاورة يتدخل مؤمن من آل فرعون ليوضح أهداف موسى ﷺ ويجعل منها التهمة الموجهة إليه، ويثبت أن تلك التهمة لا يجوز أن تؤدي به إلى القتل :﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا.. (29)﴾ (غافر)

لقد وضَّح الرجل المؤمن أهداف موسى ﷺ ودافع عنها، واستطاع أن يؤكد للملأ المجتمعين أمام فرعون أن التهمة الموجهة لموسى ﷺ لا يجوز أن تكون تهمة ! لأنها دعوة واضحة وأهداف سامية يدعو الناس إليها، ثم وضَّح هذه الأهداف بأنها انتقال من عبادة فرعون إلى عبادة الله.

فلو أن لموسى ذنباً غير قوله (ربي الله)، لما دخل الرجل المؤمن الميدان ليدافع عن موسى أمام أعظم طاغية على وجه الأرض.

ولو نظرت في قوله تعالى على لسان فرعون :.. ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26) (غافر) لوجدت فيها معانٍ كثيرة ترشدنا إلى أهمية دعوة موسى السِّلميَّة، وترينا تأثيرها في نفوس الناس عامة، وفي نفس فرعون بصورة خاصة.. فلو أن فرعون استطاع أن يوجه تهمة القتل لموسى أو أنه استطاع أن يثبت أن لموسى ذنباً يدينه لما احتاج إلى أن يقول: (ذروني أقتل موسى)، أي أنه لما احتاج أن يلتمس رضا بطانته وموافقتها على تنفيذ حكم القتل على موسى.

ولكن موقف موسى عليه السلام البعيد عن كل التهم، دفع فرعون، مع غطرسته، أن يستشير بطانته في هذا الموضوع الذي أصبح خطيراً، لأنه واجه الضمير الإنساني ودخل إلى أعماقه على مشهد من فرعون وبطانته.

ففرعون، هذا الذي جُرِّد من كل مسوِّغ للقيام ضدِّ موسى لم يجد شيئاً يتَّهمه به، لذلك اضطر أن يواجه الحق بالباطل صراحة، فقد فُهِمَ من كلام فرعون على موسى أن آراء موسى وأفكاره خطيرة لأن مثل هذه الآراء قادرة على تغيير نظامه.

ومادام يبغي تغيير الأوضاع، فإن فرعون لا ينظر إليه بأنه يريد تغيير هذه الأوضاع بالقوة، وإنما ينظر لموسى بأنه قادر على تغيير هذه الأوضاع لأنه لا يجد في نظامه قوة تستطيع أن تواجه الأفكار التي يبيِّنها، وكذلك لا تستطيع مواجهة ضمائر الناس وعقولهم، التي كادت أن تقنع بأفكار موسى الربانية تاركة نظام فرعون الفاسد وراءها ظهرياً. لذا وجد فرعون أن استمرار هذه الأفكار يعني انهياراً لنظامه ودينه وبالتالي سقوطاً لحكمه، لذا طلب فرعون قتل موسى قبل أن يبلغ ذروة أهدافه.

إن الإحساس بقوة الحجة في نفوس الناس هو الذي حمل فرعون ويحمل كل الذين يخافون على نظمهم في كل مكان

وزمان من قوة الحجة أكثر من خوفهم من قـوة السـلاح، بـل إنهم يتمنون أن يحاربهم الدعاة ليبطشوا بهم دون تردد.

وإننا نرى أن كل الطواغيت عندما يريدون أن يحكمـوا على أي داعية يلجؤون إلى اتهامه بالإرهاب أو الاغتيال، فهم يفتشون دائمـاً في سجله التاريخي لعلهم يجدون فيه ما يدنيه.

وفرعون نفسه لم ينسَ أن يرجع إلى سجل موسـى التـاريخي علَّه يتمكن من العثور على شيء يدينه به، فلم ينس أن يلوح أمـام الناس بفعلة موسى حيث قال :﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَـكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَـافِرِينَ (19) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20)﴾ (الشعراء)

يريد بهذا أن القتل حدث من موسـى من الـوكز، أي أن القتـل حدث خطأ، وأن هـذا الأمـر ليس لـه علاقـة بالحـادث الجديـد وهـو الدَّعوة الجديدة التي هي موضع النزاع.

وهذا نفسه ما حصل مع **شعيب** ﵇.. قال تعالى يحكي قصـته مع من أرسل إليهم :﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَـالَ أَوَلَـوْ كُنَّا كَارِهِينَ (88) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْـدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَـا إِلَّا أَنْ يَشَـاءَ اللَّهُ رَبُّنَـا وَسِـعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَـا وَبَيْنَ قَوْمِنَـا بِـالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (89)﴾ (الأعراف)

انظر.. إن هذا التهديـد من الملأ المسـتكبرين من قـوم شـعيب لشعيب بالإخراج من قريتهم أو الرجـوع إلى ملّة قومـه، لم يكن إلا بسبب مفارقته لهذه الملـة أو إعلانـه لهـذه المفارقـة، ولهـذا كـان جواب شعيب حاسماً إذ قال بكـلِّ قـوة وجـرأة :﴿ قَـدِ افْتَرَيْنَـا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾

وهكذا كان **المسيح** ﵇.. قال تعـالى عنـه :﴿ وَيُعَلِّمُـهُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (48) وَرَسُـولًا إِلَى بَنِي إِسْـرَائِيلَ أَنِّي قَـدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـةً لَكُمْ إِنْ

كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ (49) وَمُصَـدِّقًا لِمَـا بَيْنَ يَـدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِـلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُـونِ (50) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُـدُوهُ هَـذَا صِـرَاطٌ مُسْـتَقِيمٌ (51) فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَـالَ مَنْ أَنْصَـارِي إِلَى اللَّهِ قَـالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَـارُ اللَّهِ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْـهَدْ بِأَنَّا مُسْـلِمُونَ (52) رَبَّنَـا آَمَنَّا بِمَـا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (53) (آل عمران)

هكذا كانت دعوة المسيح عليه السلام.. جـاء بالآيـة من ربـه وشـهد هـو والحواريـون بـأنهم مسـلمون ومؤمنـون بمـا أنـزل اللـه، فمكـر الكافرون، ومكر الله، والله خير الماكرين.

قلت: أنا لا يعنيني كل من ذكرت من الأنبيـاء.. أنـا لا يعنيـني إلا محمد.. ألا ترى أنه كان مختلفا عنهم؟

قال: لا.. ذلك يستحيل.. إن مجرد حكايـة القـرآن لتلـك الأخبـار كاف في تقرير الحقائق التي تحملها قصصهم.. لقد قال الله تعالى بعد ذكره للأنبياء ـ عليهم السلام ـ يخـاطب رسـوله صلى الله عليه وآله وسلم.. ويخـاطب جميـع هـذه الأمـة بخطابـه : أُولَئِكَ الَّذِينَ آَتَيْنَـاهُمُ الْكِتَـابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (89) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْـأَلُكُمْ عَلَيْـهِ أَجْـرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (90) (الأنعام)

بالإضافة إلى هذا.. فقد تجلى السلام في حياة رسول اللـه صلى الله عليه وآله وسلم، وفي علاقاته في منتهى كماله..

لقد عبر الله تعالى عن هذا.. فقال : فَإِن تَوَلَّيتُم فَـاعلَمُوا أَنَّمَـا عَلَى رَسُولِنَا البَلاغُ المُبِينُ (المائدة:92)

وقبل أن يتكون المجتمع الإسلامي المتميز لم يأمر رسول اللـه صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه بشيء من أعمال العنف بالقتال أو القتـل.. وإنمـا كـان ذلك حين تكـوَّن المجتمـع المسـتقبل المتمـيز الـذي خضـع لحكـام الإسلام وسيطر على المجتمع فنفَّذ أمر الله بهم وعليهم رعاية لمـا يقتضيه الحق والعدل.

سكت قليلا، فقلت: لقد ذكرت لي أن الآية تتحدث عن أسـاس من أسس العلاقات الدولية في الإسلام.. فهل وضع الإسـلام لهـذه

العلاقات أسسا غير ما وضعه قومنا.

قال: قومك وضعوا للعالم علاقات أهلكته وتريد أن تبيده..

قلت: والإسلام؟

قال: الإسلام هو الوحيد الذي وضع العلاقات التي تحفظ السلام في العالم.

قلت: على ما تتأسس هذه العلاقات؟

قال: على أربعة أسس: التعارف، والتدافع، والتعايش، والشهادة.

التعارف:

قلت: فحدثني عن الأساس الأول.

قال: لقد عبر القرآن الكريم عن هذا الأساس، فقال ـ وهو يقرر الأساس الذي تقوم عليه العلاقات الاجتماعية ـ :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات:13)

فهذه الآية الكريمة تقرر أن العلاقة التي ينبغي أن تربط البشر فيما بينهم هي علاقة التآلف المؤسسة على التعارف(1).. وانطلاقا من هذا، فإن الإسلام لم يعتبر المخالفة في العرق واللون بين البشر في أيّ شيء، فكلّ الناس عند الله عزّ وجلّ، وفي نظر نظام الإسلام وقانونه، سواسية، لا فرق بين عربي وأعجمي، وبين تركي وأوروبي، أو بين أسود وأبيض، وبين أصفر وأحمر، إلاّ بالتقوى التي هي العمل بطاعة الله سبحانه وتعالى، رجاء رحمته ورضوانه، ومخافة عصيانه وعقابه..

ولذلك، فإنّ التمييز العنصري القائم على العرق واللون مما حرّمه الإسلام، واعتبره عصبية جاهلية منتنة.. ففي الحديث قال رسول الله ﷺ :(ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من

(1) استفدنا الكثير من المادة العلمية في هذا المطلب من مقال مهم للسيد أحمد إدريس المشهداني بعنوان (مفهوم التسامح بين الإسلام والغرب)

قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية)(1).. وقـال ﷺ :(من قاتل تحت راية عمّيّة، يدعو عصبية، أو ينصر عصـبية، فَقِتْلَـةٌ جاهلية)(2)

بالإضافة إلى هذا، فـإن الإسـلام أمـر بحفـظ مـا أودع اللـه في البشـر من تنـوع.. فلـذلك لم يقم المسـلمون بـأي نـوع من أنـواع الإبادة.. بل لم يخطر لهم ذلك على بال.

التدافع:

قلنا: عرفنا الأساس الأول.. فما الأساس الثاني؟

قال: لقد ذكر لي صاحبي أنه (التدافع)(3)..

قلنا: ما التدافع؟.. وما علاقته بالعلاقات العالمية؟

قال: لقد سألته عنه فقال: لقد عـبر اللـه عنـه، فقـال : وَلَـوْلَا دَفْـعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَـهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَـدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْـلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251) (البقرة).. وعبر عنه في موضع آخر، فقال، وهو يبرر سر الإذن بالقتال : أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِـأَنَّهُمْ ظُلِمُـوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْـرِ حَـقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْـمُ اللَّهِ كَثِـيرًا وَلَيَنْصُـرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَـامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِـالْمَعْرُوفِ وَنَهَـوْا عَنِ الْمُنْكَـرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَـةُ الْأُمُورِ (41) (الحج)

قلت له: أليس التدافع هو نفسه (صراع الحضارات) الـذي جـاء به (صامويل فلبس هنتنجتون)(4)؟

1() رواه أبو داود.

2()رواه مسلم.

3() استفدنا هنا من مقال مهم بعنوان: العولمة والعالمية في ضوء سنن الله الكونية، إبراهيم شوقار، مجلة التجديـد / الجامعـة الإسـلامية العالميـة بماليزيـا، السـنة السـابعة / جمادى الآخرة 1424هـ العدد الرابع عشر.

قال: الإسلام لا يأتي بالصراع ولا يدعو إلى الصراع..

قلت: فما الفرق بينهما؟

قال: أخبرني أولا عن مرادهم بصراع الحضارات.

قلت: لقد عبر عنه (صاموبل فلبس هنتنجتون)، فقال:(إن شعور الانتماء إلى حضارة معينة سوف يكون له شأن متزايد في المستقبل، وسوف يصوغ العالم إلى حد كبير التفاعل بين حضارات ست أو سبع هي الحضارات التالية: الحضارة الغربية، والحضارة الكونفوشيوسية، والحضارة اليابانية، والحضارة الإسلامية، والحضارة الأرثوذكسية، والحضارة اللاتينية ــ الأمريكية، وربما الحضارة الأفريقية.. والصراعات المهمة القادمة سوف تقوم على طول الخطوط الثقافية التي تفصل بين هذه الحضارات)

وهو يرى انطلاقا من هذا أنَّ الفروق بين الحضارات هي فروق

4()هو صامويل فلبس هنتنجتون (Samuel Phillips Huntington) (ولد 18 أبريل 1927) أستاذ علوم سياسية اشتهر بتحليله للعلاقة بين العسكر والحكومة المدنية، وبحوثه في انقلابات الدول، ثم أطروحته بأن اللاعبين السياسيين المركزيين في القرن الحادي والعشرين سيكونوا الحضارات وليس الدول القومية. مؤخراً استحوذ على الانتباه لتحليله للمخاطر على الولايات المتحدة التي تشكلها الهجرة المعاصرة. وهو أستاذ بجامعة هارفارد. برز اسم هنتنجتون أول مرة في الستينات بنشره بحث بعنوان (النظام السياسي في مجتمعات متغيرة)، وهو العمل الذي تحدى النظرة التقليدية لمنظري التحديث والتي كانت تقول بأن التقدم الإقتصادي و الإجتماعي سيؤدوا إلى قيام ديمقراطيات مستقرة في المستعمرات حديثة الإستقلال.

في 1993، هنتنجتون أشعل نقاشاً مستعراً حول العالم في العلاقات الدولية بنشره في مجلة فورين أفيرز (العلاقات الخارجية) مقالاً شديد الأهمية والتأثير بعنوان (صراع الحضارات) وهذه المقالة تناقضت مع نظرية سياسية أخرى متعلقة بديناميكية السياسة الجغرافية بعد الحرب الباردة لصاحبها فرانسيس فوكوياما في كتابة (نهاية التاريخ) لاحقاً قام هنتنگتون بتوسيع مقالته إلى كتاب، صدر في 1996، بعنوان (صراع الحضارات وإعادة صياغة النظام العالمي). المقالة والكتاب عرضا وجهة نظره أن صراعات ما بعد الحرب الباردة ستحدث أكثر وأعنف مايكون على أسس ثقافية (غالباً حضارية، مثل الحضارات الغربية، الإسلامية، الصينية، الهندوكية..) بدلاً من الأسس العقائدية كما كان الحال خلال الحرب الباردة ومعظم القرن العشرين. هذا التصنيف الثقافي سيصف العالم بطريقة أفضل من النظرة التقليدية للدول المختلفة ذات السيادة.

وخلص إلى القول بأنه لكي نفهم النزاع في عصرنا وفي المستقبل، الخلافات الثقافية يجب أن تُفهم، والثقافة (بدلاً من الدولة) يجب أن يتم القبول بها كطرف وموقع للحروب.. لذلك فقد حذر أن الأمم الغربية قد تفقد زعامتها إذا فشلت في فهم الضبيعة غير القابلة للتوفيق للإحتقانات المتنامية حالياً (انظر: الموسوعة الحرة)

أساسـية تتلخص في التـاريخ واللغـة والثقافـة، وأهم الفـروق هـو الدين.. فالدين مركزي في العالم الحـديث، وربمـا كـان هـو القـوة المركزية التي تحـرك النـاس وتحشـدهم، وهـذه الفـروق الثقافيـة ليسـت قابلـة للتبـديل أو الحلـول الوسـط، ومـع تحديـد العلاقـات المختلطـة بمقيـاس ديـني أو إثـني فستنشـأ تحالفـات في صـورة متزايدة تستغل الدين المشترك والهوية الحضارية المشتركة، وبناءً على ذلك سيحدث صدام بين الحضارات.

ولما كان هناك صدام عسكري يمتـد عمـره قرونـاً بين الغـرب والإسلام فإنه ليس من المـرجح أن ينحسـر، وإذا أضـفنا إلى ذلـك التفاعل العنيف بين الحضـارة الغربيـة والحضـارة الكونفوشيوسـية فإنـــه من الممكن أن ينشـــأ تحـــالف بين الحضـــارتين الإســـلامية والكونفوشيوسـية يهـدد الحضـارة الغربيـة، ويبشـر بظهـور صـدام حضارات بين الغرب والبقية THE WEST AND THE REST على حد تعبيره، وبنـاءً على ذلـك فإنـه يخـاطب الساسـة الغربـيين محـذراً: (على الغــرب أن يحــد من توســيع القــوة العســكرية لحضــارات معادية محتملة، خصوصاً الكونفوشيوسية والإسلام)

التفت إلي، وقال: هذا هو صراع الحضارات.. فما التدافع؟

قال: اللص لا يتصـور النـاس إلا لصوصـا.. ولا يتعامـل معهم إلا بمنطق اللصوصية.

قلت: لم أفهم.. ما مرادك من هذا؟

قال: التدافع سنة إلهية كونية قامت عليها حكمة الوجود الثنائي في الخلائق.. فالموجودات كلها متقابلة مزدوجة، كما قال تعــالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الذاريات: 49)

وبما أن الأمر هكذا.. فإن منطق أهل السلام يستدعي التعامــل السلمي مع هذه الزوجية.

والتعامـــل الســـلمي يقتضـــي التعـــرف على أســـباب التـــدافع ومصادره.. وعلى صوره ومستوياته.. وعلى غاياته وأهدافه.

قلت: فحدثني عن **أسباب التدافع ومصادره**.

قال: يقوم التدافع أساساً على حكمة الله في اختلاف الناس كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (هود: 118)، حيث يبيّن القرآن أن الاختلاف بين البشر، وهو أهم عنصر به يتحقق الغرض من وجود الإنسان، ليس مناقضاً لطبيعته الإنسانية ولكنه معارض لوجوده في المجتمع مع ضرورته، لأنه يفضي إلى التنازع والتدافع، فيقتضي تهذيبه بالضوابط.

ويقرر القرآن أن مصدر التدافع هو الإنسان نفسه التي ألهمها الله فجورها وتقواها.. أي أنه مصدر داخلي، وليس خارجياً، لذلك يربط القرآن تدافع المجتمع بتدافع النفس ويجعل من ذلك سنة مطردة، فمتى تغيّر ما في النفس غيّر الله تعالى ما في المجتمع من حال قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ (الرعد: 11)

وهذا يدل على أن الإنسان نفسه هو المحرك لهذه السنة، ويكون فعل الله تعالى مطرداً مع فعله، الأمر الذي يقطع الحجة على الأمم في انحطاطها، ويدفعها إلى المشاركة الفاعلة في صياغة العولمة وتشكيلها وتفسيرها، لا أن تتخلف بحجة أن ذلك هو قضاء الله وقدره.

قلت: فحدثني عن **صور التدافع ومستوياته**.

قال: صور التدافع كثيرة.. ولكنها تتجلى في ثلاثة مستوياته رئيسة..

أما **أولها**، فهو التدافع في إطار النفس الإنسانية، وهذا هو الأساس والمصدر، وينشأ بسببه صراع داخلي في النفس بين نوازع الخير التي يباركها الله تعالى ونوازع الشر التي يولّدها الشيطان.. وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا الصراع بأساليب مختلفة وعرضه بصورة متعددة.. قال تعالى عن النفس الإنسانية: فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (الشمس: 8-10)

وينظم القرآن هذا المستوى من التدافع بمحاربة ما يسميه بـ (هوى النفس)، قال تعالى: وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ

 (ص:26)، وقــال : وَأَمَّا مَنْ خَــافَ مَقَــامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (النازعات: 40-41)

وأمـا **الثـاني**، فهـو التـدافع في ظـل المجتمـع الواحـد، وهـو مستوى تـابع للأول، وبـه ينشـأ صـراع بين النـاس ولـو كـانوا تحت مظلة الإيمان، ولذلك ينظمه الشرع ببيان الحقوق ووضع الحــدود.. وقد وضع القـرآن الكـريم مبـادئ مختلفـة حلاً لهـذا المسـتوى من التدافع، بوصفه مبدأً للشورى، ومبـدأ الأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكر.

وأجمع هذه المبادئ هو مبدأ تحقيق العـدل.. كمـا قـال تعـالى : إِنَّ اللّهَ يَـأْمُرُ بِالْعَــدْلِ وَالإِحْسَــانِ وَإِيتَـاءِ ذِي الْقُــرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (النحل: 90)

ومن أهم صوره: العدالة الاجتماعيّة في توزيع الـثروة والتـوازن بين الحقوق والواجبات، ودفع المظالم والطغيان.. أو كما عــبر عن ذلك ابن مسكويه بقولـه: (إن العدالـة موجـودة في ثلاثـة مواضـع: أحــدها قســمة الأمــوال والكرامــات، والثــاني قســمة المعــاملات الإرادية، كالبيع والشراء والمعاوضات، والثالث قسمة الأشياء الــتي وقع فيها ظلم وتعد)(1)

والعدل مطلوب في الإسلام، ولو مع الأعداء، كما يقـرره قولـه تعالى : وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَـوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْـدِلُواْ اعْـدِلُواْ هُـوَ أَقْـرَبُ لِلتَّقْوَى (المائدة: 8)

وأمـا **الثـالث**، فهـو التـدافع الحضـاري بين الأمم أو الشـعوب المختلفة، والذي يشار إليه بـ (الصراع) أو (صدام الحضارات)، وهو في الواقـع ليس صـداماً في جميـع الأحـوال، وإنمـا ينقلب صـراعاً وصداماً عنـدما يخـرج عن ضـوابط القـانون الشـرعي أو الفطـري الذي تتحاكم إليه الأمم لتنظيم العلاقات بينهم.

ويتخذ هذا المستوى من التـدافع صـوراً مختلفـة.. ولـه تجليـات متعددة مثل: الكفر والإيمـان، الحـق والباطـل، القـوي والضـعيف، العدل والظلم، الاستكبار والاستضعاف.. وهو تابع بصـورة أساسـية

1()تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق،ص125.

للمبدأ الأول من التدافع، أي اختلاف الناس الذي يشير إليه قوله تعالى :﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ (يونس: 99)

وهذا المستوى هو الأهم في هذه المستويات كلها في نظر القرآن، لأن به تتميز المواقع وتتحدد الدرجات في الدارين، وهي الغاية من قوله تعالى :﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء: 35)

والأصل في هذا النوع من التدافع كما يقرر الإسلام هو أن يكون بالحسنى، كما يشير إليه قوله تعالى :﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (فصلت: 34)، وقوله: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ (المؤمنون: 96)

وقد يكون التدافع بالمواجهة المسلحة لدفع الظلم والطغيان، ليحق الله الحق ويبطل الباطل، ويحصل النصر والتمكين، وهو ما يشير إليه قوله تعالى :﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج: 40)

ويرسم القرآن الكريم لتنظيم هذا المستوى من التدافع قواعد عامة، يمكن اعتبارها (أسس السلام في النظام الدولي)

منها تكريم الإنسان مطلقاً بصرف النظر عمّا يدين به من اعتقاد..

ومنها جعل التعارف الغاية من تفريق الناس إلى شعوب وقبائل..

ومنها تحريم البدء بالعدوان كما يقرره قوله تعالى :﴿ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة: 190)

ومنها الوفاء بالعهد، كما قال تعالى :﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (النحل: 91)

وغيرها من المبادئ التي تحفظ السلام العالمي.

قلت: فحدثني عن **الغاية من التدافع**.

قال: إن غاية التدافع في القرآن الكريم هو الاتّجاه نحو التوازن بإحداث التغيير، لذلك فهو تابع لسنة الحركة الشاملة للوجود كلـه.. فالكون كله خاضع لسـنة التغيـير بطريقـة أو أخـرى، قـال تعـالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ (القصص: 88)، وقـال تعـالى :﴿ كُـلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ (الـرحمن: 26-27)

فصـور التـدافع متعـددة ولكن غايتهـا واحـدة هي إيجـاد تـوازن بشـكل مـا، مثـل إظهـار الحـق الـذي هـو غايـة التـدافع بين الحـق والباطـل، ومثلـه التـدافع بين القـوة والضـعف، والغـنى والفقـر، والسالب والموجب.

وأهم ملحظ في مسألة التغيير الاجتماعي من الوجهة القرآنيــة هو أنه مهمة جماعية ترتبـط بهـا أسـباب رقي الأمم أو انحطاطهـا، وجعل الله كل ذلك موقوفاً على فعل الإنسـان وحركتـه، كمـا قـال تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِـهِمْ ﴾ (الرعـد: 11).. فالإنسـان هـو الـذي يبـدأ في التغيـير، وفعـل اللـه يطـرد وينعكس مع فعله.

التعايش:

قلنا: عرفنا الأساس الثاني.. فما الأساس الثالث؟

قال: لقد ذكر لي صاحبي أنه (التعايش)..

قلنا: ما التعايش؟.. وما علاقته بالعلاقات العالمية؟

قال: التعايش هو أن يعيش البشر جميعا ـ مهما كـانت ألـوانهم وأديانهم ـ في تآلف وأخوة ومودة..

لقد ذكـر اللـه ذلـك، فقـال :﴿ عَسَـى اللَّهُ أَنْ يَجْعَـلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَـدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (7) لَا يَنْهَـاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الـدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُـوكُمْ مِنْ دِيَـارِكُمْ أَنْ

تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9)﴾ (الممتحنة)

الشهادة:

قلنا: عرفنا الأساس الثالث.. فما الأساس الرابع؟

قال: لقد ذكر لي صاحبي أنه (الشهادة)(1)..

قلنا: ما الشهادة؟.. وما علاقته بالعلاقات العالمية؟

قال: لقد سألته عنه فقال: لقد عبر الله عنه، فقال :﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (الحج:78)، فهذه الآية تبين سر الشهادة وشروطها وكيفية تحقيقها.

قلت: فما **سر الشهادة**؟

قال: لقد كان الصالحون يذكرون أربع مراحل لسير السالكين: أولها السير من النفس إلى الله، وهي رحلة البحث عن الله.

وثانيها: سير الإنسان من الله في الله، بحثا عن معرفة الله.

وثالثها: سير الإنسان مع الله إلى خلق الله.

ورابعها: سير الإنسان مع الله بين خلق الله، لإنقاذ خلق الله.

قلت: فأي سير منها يحقق الشهادة التي هي وظيفة الأمة ووظيفة ساستها.

قال: هي المرحلة الأخيرة من سير السالكين.. وهي رحلتهم

1() تحدثنا عنها في محال مختلفة من رسائل السلام، وما نذكره هنا مختصر ملخص من رسالة (مفاتيح المدائن)

لإنقاذ خلق الله من عبودية الشيطان.

قلت: أهي الرحلة التي تسير فيها الجيوش التي تفتح أقطار الأرض، وتجعلها بأيدي المسلمين؟

قال: لا.. ليست هذه هي الشهادة.. الشهادة أخطر من هذا.. والأمة التي يحكمها الإسلام لا تبحث عن الاستيلاء على الأراضي، وإنما تبحث عن الاستيلاء على العقول والقلوب.

وقد نصت النصوص القطعية على حرية الاعتقاد والتعبد، فلكل ذي دين دينه ومذهبه، لا يُجبر على تركه إلى غيره، ولا يُضغط عليه ليتحول منه إلى الإسلام.

ولم تذكر النصوص المقدسة هذه الأحكام من باب التوجيه فقط، بل ورد في النصوص ما يحيلها أمرا عمليا سواء من الناحية النفسية أو من الناحية التشريعية.. فالإكراه لا يجوز مطلقا بأي صفة كانت، فقد ورد قوله تعالى:﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾(البقرة:272) في سياق ذكر الصدقات ونحوها من أنواع النفقات والصلات، وقد روى سعيد بن جبير مرسلا في سبب نزول هذه الآية أن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة فلما كثر فقراء المسلمين قال رسول الله ﷺ:) لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم(فنزلت هذه الآية مبيحة للصدقة على من ليس من دين الإسلام.

وروى ابن عباس أنه قال: كان ناس من الأنصار لهم قرابات من بني قريظة والنضير، وكانوا لا يتصدقون عليهم رغبة منهم في أن يسلموا إذا احتاجوا، فنزلت الآية بسبب أولئك.

وبما أن مثل هذا الأمر لا تكفي فيه التشريعات الدينية، بقدر ما تؤسسه القناعة الإيمانية والتوجيه التربوي، وردت النصوص القرآنية الكثيرة تخبر أن الإيمان نعمة من الله يهبه لمن شاء من عباده، وأن الإكراه لا ينتج المؤمنين، بل قد ينتج المنافقين.

فلهذا تعمق النصوص في نفوس المؤمنين أن إكراه الناس على الإيمان تدخل في المشيئة الإلهية التي شاءت هذا الاختلاف، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ

تُكْــرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُــوا مُــؤْمِنِينَ ﴾ (يــونس:99)، قـــال ابن عباس:كان النبي ﷺ حريصا على إيمان جميع الناس، فـأخبره اللـه تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت لـه السـعادة في الـذكر الأول، ولا يضل إلا من سبقت له الشقاوة في الذكر الأول(1).

وهي تخبرنا أن تبين الحق والضلال والرشد والغي كـاف وحـده للدلالة على الإيمان، فلا حاجة لوسيلة أخرى، قال تعالى: ﴿ لا إكراه في الدين، قـد تـبين الرشـد من الغي﴾(البقـرة: 256) وكـأن هـذه الآية تحث المؤمن على أن يكون نموذجا للرشد، فذلك وحده كاف للهداية إلى الحق.

وهي تخبر أن الهداية نعمة إلهيـة يهبهـا اللـه تعـالى لمن يشـاء من عباده، فهو الذي يشرح لها الصدور، قـال تعـالى ﴿ لَيْسَ عَلَيْـكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾(النسـاء:272)، وقـال تعـالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْــدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْــدِي مَنْ يَشَــاءُ وَهُــوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(الكهف:56)، وقال تعالى:﴿ وَمَا كَـانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُـؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾(يونس:100)

وهي تخــبر أن الهدايــة مصــلحة شخصــية، والضــلال مضــرة شخصية، ودور المؤمن هو الدعوة للمصلحة والتنفير من المضــرة، لا الإلزام بذلك، قال تعالى:﴿قُلْ يَاأَيُّهَـا النَّاسُ قَـدْ جَـاءَكُمْ الْحَـقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَـا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾(يونس:108)وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَـابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَـلَّ فَإِنَّمَـا يَضِـلُّ عَلَيْهَـا وَمَـا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾(الزمر:41)

وهي تخـبر أن دور المـؤمن هـو الـدعوة لا السيطرة على من يدعوه أو إكراهه، قال تعالى: ﴿ فَـذَكِّرْ إِنَّمَـا أَنْتَ مُـذَكِّرٌ لَسْـتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ (عبس:21)

وهي تخبر أن الإيمان والكفر حرية شخصية تتبع مشيئة صاحبها لا الإلزام الخارجي، قال تعـالى: ﴿ وَقُـلْ الْحَـقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَـاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْـتَغِيثُوا يُغَـاثُوا بِمَـاءٍ كَالْمُهْـلِ يَشْـوِي الْوُجُـوهَ بِئْسَ الشَّـرَابُ

(1) القرطبي:3/337.

وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾(الكهف:29)

قلت: عـرفت هـذا ووعيتـه.. ولكـني لا أزال أتسـاءل عن سـر الشهادة التي هي وظيفة هذه الأمة نحو سائر الأمم.

قال: الشهادة تتحقق بـأن تكـون الأمـة نموذجـا صـالحا تهتـدي بهديها الأمم، بل تحن لسلوك سبيلها.

قلت: فكيف تتحقق هذه الشهادة في منتهى كمالها؟

قال: بـأربع وظـائف كـبرى تشـترك الأمـة مـع أولي أمرهـا في تحقيقها.

قلت: فما أولها؟

قال: **القوة**.

قلت: تقصد امتلاك الأمة لأنواع أسلحة الدمار الشامل.

قال: أقصد امتلاك الأمة لأنواع ما يتطلبه السلام الشامل.

قلت: فما يتطلب السلام الشامل؟

قـال: يتطلب تحقـق الإنسـان والمجتمـع والأمـة بـأرفع مـراتب الكمال الممكن.

قلت: في أي مجال؟

قال: في كل المجالات: المعرفية، والخلقية، والمرافقية.

قلت: فما الوظيفة الثانية التي تتطلبها الشهادة؟

قال: **العدل**.

قلت: العدل مع الرعية؟

قال: لا.. العـدل مـع العـالم.. فالعـدل الحقيقي لا يعـرف تنـوع المكاييل، ولا يفرق بين الأمم.. قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَـنَآنُ قَـوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْـدِلُوا

اعْـدِلُوا هُـوَ أَقْـرَبُ لِلتَّقْـوَى وَاتَّقُـوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِـيرٌ بِمَـا تَعْمَلُـونَ﴾ (المائدة:8)، أي لا يحملنكم بُغْض قوم على ترك العـدل فيهم، بـل استعملوا العدل في كل أحد، صديقا كان أو عدوًا.

قلت: ولكن كيف تؤمرون بهذا، وأنتم تؤمرون في نفس الوقت ببغض الكافر؟

قال: لقد أمرنا ببغض كفره، لا ببغض لحمه ودمه وروحه.

قلت: فما الفرق بينهما؟

قـال: الفـرق بينهمـا عظيم.. هـو كـالفرق بين بغض الطـبيب لمريضه، وبغضه لمرضه.. فهل ترى من فرق بينهما؟

قلت: لا شـك في ذلـك.. فـالطبيب إن أبغض المـريض منعـه نصحه، بل لعله يحب استمرار المرض بـه.. أمـا إن أبغض مرضـه، فإنه يتوسل بكل ما لديه من صنوف العلاج ليريحه من علته.

قال: فكذلك أمرنـا أن نفعـل.. وبـذلك يكـون العـدل.. فالعـدل ينطلـق من منـابع النفس الطـاهرة، وليس مجـرد طلاء يتلاعب بـه القضاة والمحامون في محاكمكم.

لقد قال ﷺ يقرر هذا:(دعوة المظلوم ـ وإن كان كافرًا ـــ ليس دونها حجاب)(1)

قلت: فما الوظيفة الثالثـة الـتي تجعـل من هـذه الأمـة شـهودا عدولا على الأمم من حولنا؟

قال: **الرخاء**.

قلت: هل الإسلام يأمر بالترف؟

قال: الـترف رخـاء الطغـاة المتجـبرين.. والرخـاء تـرف العبيـد المتواضعين.

قلت: فكيف يكون وظيفة من وظائف الشهادة؟

1() رواه أحمد.

قال: كيف يستطيع مدرب النمور والأسود أن يتسلط على قوى السبعية في النمر والأسد ليوجهها إلى اللعب واللهو.. فيجعل من ذلك الذي يخافه الناس على نفوسهم وسيلة رزقه التي يحافظ بها على حياته؟

قلت: ما أسهل ذلك لقد عرف شهوات النمر والأسد، فراح يتلاعب به من خلالها.

قال: فكذلك من يحيط بكم من الأقوام، استعبدتهم الدنيا.. فلا يقادون بمثل نظرهم إليهم.. أو نظرهم لمن يملكها.

قلت: فما الوظيفة الرابعة من وظائف الشهادة؟

قال: **السماحة**.

قال: ما السماحة؟

قال: هي التطبيق الإيماني لقوله تعالى: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ(البقرة:256)

إن هذه الآية صريحة بأنه لا إكراه ولا قهر في اعتناق الدين، وإنما ذلك متروك لعقل الإنسان وتفكيره غير المأسور لتعصب أو هوى أو تقليد أو حظ نفس.. فمن شرح الله صدره للإسلام دخله، ومن ختم على سمعه وبصره، ترك وشأنه دون قسر على الدين.

ولهذا اعتبر الإكراه على الإسلام من الذنوب.. واعتبر المكره على الإسلام غير مسلم.. لأن الإسلام لا يكون إلا عن قناعة.

وقد روي في سبب نزول الآية السابقة أن المرأة التي كانت لا يعيش لها ولد تجعل على نفسها إن عاش أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير، كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا (أي لا ندعهم يعتنقون اليهودية)، فنزلت الآية تنهاهم عن ذلك(1).

انظر..

---

(1) رواه أبو داود والنسائي وابن أبي حاتم وابن حيان في صحيحه، وهكذا ذكر مجاهد وسعيد بن جبير والشعبي والحسن البصري وغيرهم أنها نزلت في ذلك، انظر: ابن كثير:1/310.

رغم أن محاولات الإكراه كانت من آباء يريـدون حمايـة أبنـائهم من التبعيـــة لأعـــدائهم المحـــاربين الـــذين يخـــالفونهم في دينهم وقـوميتهم، ورغم الظـروف الخاصـة الـتي دخـل بهـا الأبنـاء دين اليهودية وهم صغار، ورغم ما كـان يسـود العـالم كلـه حينـذاك من موجات الاضطهاد للمخالفين في المـذهب، فضـلاً عن الـدين، كمـا كـان في مـذهب الدولـة الرومانيـة الـتي خيَّرت رعاياهـا حينًـا بين التنصر والقتل، فلما تبنت المذهب الملكاني أقـامت المـذابح لكـل مَن لا يدين به من المسيحيين من اليعاقبة وغيرهم.

رغم كل هذا، رفض القرآن الإكراه (1)..

لقد قال القـرآن في آيـة أخـرى: ﴿ وَلَـوْ شَـاءَ رَبُّكَ لَآَمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْـرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُـوا مُـؤْمِنِينَ (99)﴾ (يونس)

ويذكر القرآن عن نوح، وهو نبي من الأنبياء العظام.. وقـد أمـر القرآن بالاقتداء بالأنبياء: ﴿ قَالَ يَا قَـوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَـةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَـانِي رَحْمَـةً مِنْ عِنْـدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَـا وَأَنْتُمْ لَهَـا كَارِهُونَ﴾ (هود:28)

وقال: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِـهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الزمر:41)

وقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَـا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الشورى:6)

وقال: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (قّ:45)

وقال: ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية:22)

وقال: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَـاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظـاً وَمَـا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الأنعام:107)

وقد قصرت الآيات دعوة الرسول والذين معه على البلاغ: ﴿ مَـا

1() غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، يوسف القرضاوي، بتصرف.

عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَـا تَكْتُمُـونَ (المائـدة: 99).. فَـإِنْ أَعْرَضُـوا فَمَـا أَرْسَـلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظـاً إِنْ عَلَيْـكَ إِلَّا الْبَلاغُ (الشورى: من الآية48)

ففي هذه الآيات تصريح بـأن دور محمـد والـذين معـه مقصـور على التبليغ لا أزيد من ذلك، وأنه أُرسل مبلغـاً، ولم يُرسـل حفيظـاً عليهم، مسؤولاً عن إيمانهم وطاعتهم، حتى يمنعهم عن الإعــراض، ويتعب نفسه لإقبالهم عليه.

وهذا الوعي يجعـل المسـلم يعامـل الآخـر بمـا تتطلبـه الأخلاق والقيم من غير أن يؤثر فيه مـا يـرى عليـه الآخـر من انحـراف عن منهجه.

***

بعد أن حدثنا صاحبنا عن أحاديث صاحبه.. سـألناه: فكيـف بـدا لك أن تفارقه؟

قال: لقد ذكرت لكم أنه سمع نبأ الفتنة التي تريد أن تستأصــل المسلمين.. فجاء لينقذ إخوانه منها.. ولم أجد بعد أن فارقني إلا أن أبحث عنه.. ولكن قدر الله أبى إلا أن يضعني في هذه الحفرة التي كنت حفرت مثلها كثيرا لكل من توهمتهم أعداء لي.

تاسعا ـ الكون

في اليوم التاسع، قام رجل منا، وقال: سأحدثكم اليوم أنا عن حديثي.. أنا رجل ولد حيث توجد أضخم غابة مدارية مطيرة في العالم.. غابات الأمازون(1).. وحيث يوجد نهر من أكبر أنهار العالم(2).. نهر الأمازون..

في تلك المياه.. وبين تلك النباتات المتنوعة.. والحيوانات الكثيرة(3).. ولدت ونشأت وتربيت..

وقد امتلأ قلبي بحب كل ما حولي حتى صرت لا أفرق بين الإنسان والمياه والأشجار والأزهار وأي حيوان أليف أو متوحش..

لقد ملأت طبيعة الأمازون الجميلة أركان قلبي.. فكنت أسبح فيها ربي من غير أن أشعر.. ربما كما تسبحه الطيور بتغاريدها.. والأزهار برحيقها.. والمياه بخريرها.. وذلك النسيم العليم بهبوبه كل حين حاملا روح الحياة إلى أنفاسنا وحياتنا.

كنت أحيانا أصعد قمم الأشجار العالية(4) التي كانت تملأ أرض الأمازون.. وأتأمل الطبيعة الجميلة التي اختلط فيها كل جميل وتناسق.. فأشعر بأن تلك الأرض بغاباتها ومياهها هي رئة الأرض

1() تعتبر غابة الأمازون المطيرة أكبر غابة استوائية مطيرة في العالم، تغطي نحو 5,2 مليون كم^2 من حوض نهر الأمازون في أمريكا الجنوبية. يقع ثلثا الغابة المطيرة تقريبًا في البرازيل. كما تحتل الغابة المطيرة أيضًا أجزاء من بوليفيا، وبيرو، وإكوادور، وكولومبيا، وفنزويلا، وغايانا، وسورينام وغيانا الفرنسية. يتراوح معدل المطر سنويًا بين 130 و445سم، ويبلغ معدل الحرارة حوالي 27°م..

2() يعتبر نهر الأمازون ثاني أطول أنهار العالم بعد نهر النيل، وأهم نهر في أمريكا الجنوبية. يبلغ طول نهر الأمازون 6,437كم ويحتوي على كمية من الماء أكثر من أي نهر آخر ـ أكثر من أنهار المسيسيبي والنيل ويانجتسي مجتمعة.

3() تضم غابة الأمازون المطيرة تشكيلة واسعة من النباتات والحيوانات أكثر من أي مكان في العالم، حيث تعيش فيها عشرات الآلاف من أنواع النباتات المختلفة هناك. يحتوي الهكتار الواحد من أرض الغابة المطيرة على 280 نوعًا أو أكثر من الأشجار المختلفة. ويوجد العديد من النباتات الاقتصادية المهمة في الغابة المطيرة. وهي تنتج الجوز البرازيلي والكاكاو، والكورار (عقّار مهم) والأناناس والمطاط. يستوطن أكثر من 1,500 نوع من الطيور الغابة المطيرة. كما تحتوي أنهار المنطقة على حوالي 3,000 نوع معروف من الأسماك، وبالإضافة إلى ذلك، يعتقد العلماء أن في الغابة ما يقرب من 30 مليونًا من الحشرات المختلفة..

التي منها تتنفس، وبها تحيا..

لم أكن أتصور في يوم من الأيـام أن من البشـر من يفكـر في أن يغـير على رئـة الأرض ليطعنهـا برماحــه.. ويقتــل الأرض من خلالها.. لكني رأيته.. وعشت معه معارك عنيفـة.. سـأحدثكم عنهـا اليوم.. وسأحدثكم كذلك عن ذلك الرجل الذي جئت من أجلــه إلى هذه البلاد.. والذي كان سبب إنقاذي من مـوت محتم كـان يـتربص بي.. وكان سبب ذلك في ملأ قلبي بالأمل في انتصار السـلام على الصراع.. وانتصار الخير على الشر.. وانتصار الحياة على الموت.

الصراع

في ذلــك اليــوم وصــلتنا أول جريــدة.. لســت أدري تاريخهــا بالضبط.. فقد كنا نعيش الطبيعة المحضة.. والطبيعة كانت تفـرض علينا أن نعيش من دون أن نعرف كم عشنا، وكم بقي لنا..

لم نكن حينها نعرف الجرائد مع أننا كنا نتقن القراءة والكتابــة.. فلذلك حملت تلك الجريدة إلى قمـة من قمم الأشـجار الـتي كنت أعشقها.. ورحت أقلب صفحاتها بلهفة وشوق..

لكـني مـا إن قلبت بعض صـفحاتها حـتى هـالتني أرقـام كثـيرة كادت تسقط بي من قمة تلك الشجرة العالية(1):

لقـد قـرأت أن إنتـاج الحبـوب انخفض في إفريقيـا لكـل فـرد بمعـدل 28 بالمائـة في السـنوات الخمس والعشـرين الماضـية.. وأن إثيوبيا فقدت 90 بالمائة من غاباتها منذ عـام 1900م، الأمـر الــذي مكن مليــار طن مــتري من التربــة الفوقيــة من الانجــراف سنويا.. وأن حيوانات استراليا الأصلية تواجـه الانقـراض، وكـان قـد انقرض 28 بالمائة من حيواناتها الأصيلة.. وأن الحيـاة البحريــة في الخليج العــربي تحتــاج 180 عامــا كي تتخلص من عشــرة ملايين

4() ترتفع بعض الأشـجار في الأمـازون، وتُـدعى الشـواهق فـوق بقيـة أشـجار الغابـة ويصل ارتفاعها إلى 50 مترًا، كما يرتفع الغطاء العلـوي للأشـجار إلى ارتفـاع يـتراوح بين 20 و50 مترًا.

1()هذه الإحصاءات ذكـرت في المـؤتمر العـالمي الثـاني للأمم المتحـدة حـول البيئـة والتنمية عام 1992م، والذي عقد في ريودي جانيرو في البرازيل، وقد اجتمع فيه ثلاثــون ألف مشارك بما فيهم مئة زعيم.

برميل من النفط التي انسكبت أثناء حرب الخليج.. وأن 10 بالمائة من الأنهـار المنتشـرة في أنحـاء العـالم تعـد ملوثـة، كمـا تلتقـط المحيطات 6.5 مليون طن من النفايات سنويا.

وفوق ذلك قرأت أن الدراسات تتوقع أنه بحلول عـام 2025 م ستنفث البلدان النامية في الهواء أربعة أضعاف كمية ثـاني أكسـيد الكربون التي تنفثهـا الـدول المتقدمـة اليـوم، كمـا يتوقـع أن تفقـد الأرض أكثر من 25 بالمائة من الأجناس الموجودة حاليا.

وقرأت بأن الإنسان في دول الشمال يستهلك من المياه ويولد من الملوثات بما يزيـد عن عشـرين ضـعفا عن المـواطن في دول الجنوب.. وأن التلوث الذي يسببه مواطن أمريكي واحد يزيـد على ذاك الذي يسببه مواطن عادي من دول العالم الثالث بعشرين إلى مائة مرة، ويماثل استهلاك الأمريكي الواحـد للطاقـة مـا يسـتهلكه ثلاثة يابانيين، أو ستة مكسيكيين، أو 13 صينيا أو 35 هنديا أو 153 بنغلادش أو 499 إثيوبيا.

وقرأت أن الإحصاءات تشير إلى أن العالم قـد خسـر في عـام واحد فقط، حوالي 36 نوعـا من الحيوانـات الثدييـة، 94 نوعـا من الطيور بالإضافة إلى تعرض 311 نوعـا آخـر للخطـر، أمـا الغابـات فهي في تناقص مستمر بمعدل 2 بالمائة سنويا نتيجـة الاسـتنزاف وتلوث الهواء المنتج للأمطار الحامضية، وكذلك التربة فإنها تتناقص باستمرار بمعدل 7 بالمائة من الطبقة العليا كل عقد، وذلك بسبب الانجراف والتآكل بشكل مستمر نتيجة الإنهاك المسـتمر بالزراعـة الكثيفة أو الري الكثيف، مما يؤدي إلى ملوحة التربة وتصحرها.

وقرأت أن استخدامات الميـاه السـيئة تـؤدي إلى نـدرة الميـاه ونضوبها، عدا عن الانخفاض الطبيعي الحاصل في منسـوب الميـاه في باطن الأرض، الأمر الذي يهدد البشرية بخطر حقيقي.

وقرأت(1) أنـه في عـام 1990 م عـثر على 30000 طن من النفايـات السـامة مكدسـة بـالقرب من مينـاء سـيهانو كفيـل في كمبوديا، ويلقي مجمع ماريتسا للطاقة في بلغاريا سنوياً 350 ألف طن من غازات ثاني أكسيد الكبريت الحمضية في نهر ماريتسا.

---

(1) من كتاب جينيس للأرقام القياسية / طبعة 2000 م.

وقرأت أن النفايات الزئبقية في بحـر اليابـان تسـببت مـا بين (1953 – 1967 م) في وفاة العديد من الأشخاص، وإصـابة 20 ألف شخص بأضرار صحية.

وقرأت أنـه في عـام 1986 م تـدفق 30 طن من الكيماويـات في نهر الراين بسويسرا، مما تسـبب في قتـل 500 ألـف سـمكة تقريبـاً، ومعــدل الصــيد في البحــر المتوسِّــط انخفض بنســبة 70 بالمائة، بسبب أن 85 بالمائـة من ميـاه المجـاري لمـا يقـرب من 120 مدينة ساحلية تصـب فيـه، دون معالجـة، إضـافة إلى نفايـات نحو 100 مليون سائح.

وقرأت أنـه في عـام 1984 م مـات أكـثر من 6300 شـخص بتأثير سحابة سامة من مصنع كاربايد للمبيدات الحشرية في بوبال بالهنـد. في عـام 1990 م تسـبب حريـق في مصـنع كيمـاوي في كازاخستان في إطلاق سحابة سـامة امتـدت إلى الصـين أكـثر من 300 كم.

وقرأت أن الجوّ يتلوث سـنوياً بــ (350) طن من أول أكسـيد الكربون المنبعث من عوادم السيارات، وهـو أخطـر الغـازات على الصحة، فإذا استنشق وتغلغل في الدم، عطل الأوعية الدموية مما يسبب الوفاة.

بعـد أن قـرأت تلـك الإحصـائيات.. امتلأت حزنـا.. ورحت أبحث عن كيفية مواجهة هؤلاء المجرمين الذي يريدون أن يخنقوا الأرض، ويقتلوا البراءة التي لم يجرؤ أحد على مدار التـاريخ على أن يفكـر في أن يفعلها..

***

ذهبت في أعمـاق تلـك الغابـات البريئـة.. حيث كـان لي فيهـا صديق عاش كعيشتي، وأحب الطبيعة كحبي لهـا.. وكـان مـع ذلـك حريصا عليها حرصا لا يقل عن حرصي عليهـا.. والفـرق بيننـا أنـني آثـرت أن أعيش الطبيعـة.. أمـا هـو فـآثر أن يقـوم بالـدفاع عنهـا.. ولذلك لم يكن يهدأ له بال.. ولا يستقر به جسم.. لقـد كـان يرحـل كل حين.. ولكل محل.. مبشرا ونذيرا.

في ذلـك اليـوم التقيتـه في أوج نشـاطه.. فقـد دعـا نفـرا من أصحابه من بلاد مختلفة كان لهم من الحرص على الطبيعة ما لـه.. وكلهم كان يرتـدي الأخضـر.. يرمـز بـه لحبـه للطبيعـة ونضـاله من أجلها.

عندما رآني صاحبي استقبلني، والتزمني، ثم عرفني بأصدقائه، وعرفهم بي..

وعلى ثرى تلك الغابة جلسنا مجلسـا ربمـا لم أجلس مثلـه في حياتي.. لكأنه كان مأتما.. لقد بلغـني في ذلـك المجلس من أخبـار الصراع التي يواجه بها الكون ما لم أسمع بمثله في حياتي.

بدأ أحدهم الحديث، وقـال: تعرفـون اهتمـامي بـالهواء، ولـذلك سـأحدثكم عنـه.. سـأحدثكم عن ذلـك الـركن الـركين من أركـان الأرض(1)..

أنتم تعلمون أن الهواء الذي فوق الأرض مكون من الأوكسجين والنتروجين والأرجون والنيون والكنسـيون والكريبتـون، وهويحتـوي بخار الماء، وثاني أو كسيد الكربـون بنسـبة 100/3 من 1 بالمائـة، أو نحوثلاثة أجزاء من 10000.

بالإضـافة إلى الغـازات النـادرة الـتي تظهـر نفسـها في شـكل الألــوان الحمــراء والزرقــاء والخضــراء بلافتــات الإعلان.. ويوجــد النتروجين بنسبة 78 بالمائة تقريباً في الهواء، في حين تحدد نسبة الأوكسجين عادة ب21 بالمائة.

وتعلمون أن الأوكسجين هو نسمة الحياة لكل الحيوانات الــتي فوق الأرض.. ومن رحمة الله أن هذا العنصر ذا النشاط البــالغ من الوجهــة الكيماويــة قــد أفلت من الاتحــاد مــع غــيره وتــرك في الجوبنفس النسبة تقريبـاً، اللازم لجميـع الكائنـات الحيـة.. فلوكـان الأوكسجين بنسبة 50 بالمائة مثلاً أو أكـثر من الهـواء بـدلاً من 21 بالمائة فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العـالم تصـبح عرضـة للاشتعال لدرجة أن أول شرارة من الـبرق تصـيب شـجرة لابـد أن

1() اقتبسنا بعض الحوار الوارد هنا من رسالة (رقية الجسـد) من سلسـلة (ابتسـامة الأنين)

تلهب الغابة حتى لتكاد تنفجر.

أنتم تعلمون كل هذا.. وأنا لم أرد أن أحدثكم عنه.. بل أردت أن أحدثكم عن المجرمين الذين يريدون أن يتلاعبوا بهذه الثروة الأرضية الضخمة.. إنهم يريدون بجشعهم وحرصهم أن يخنقوا الأرض، ويستلوا منها روح الحياة مقابل حضارة تافهة حقيرة مليئة بالشذوذ.

قلنا له: لقد أخفتنا.. ما الذي حصل؟

قال: حصلت المصيبة والطامة التي لو استمرت.. فإن الأرض لن يبقى لها هذا الوجود الحي الذي ترونه.

سأضرب لكم أمثلة ربما تقرب لكم الخطر الذي يهدد هواء الأرض.. هواء الأرض الذي صار لعبة بيد المجرمين:

أنتم تعرفون ثاني أكسيد الكربون.. ذلك الهواء الذي يدخل الجو من زفر الحيوانات والنباتات ومحاصيل الاحتراق؟

قلنا: نعرفه.. ماذا حصل له؟

قال: لقد عدلت هذه الحضارة المخربة من مقاديره تعديلا كبيرا، فزاد محتوى الجو من هذا الغاز بمعدل 25 بالمئة في القرن الأخير، وهو مستمر في الزيادة من جراء ما يقوم به الإنسان من حرق وقود المستحاثات، وقطع أشجار الغابات وأعشاب المروج، مما يزيد من إنتاجه، ويقلل من استهلاكه.

سكت قليلا، ثم قال: ليس هذا فقط.. الأوزون أيضا مسه التخريب.. لا شك أنكم تعرفون الأوزون..

قال أحدنا: أجل.. إنه ذلك الشكل من الأكسجين المؤلف من ثلاث ذرات (O_3)، وهو غاز عجيب، فهو في طبقات الجو الدنيا مادة مهيجة مخرشة للأغشية المخاطية، ولا سيما في جهاز التنفس، وهو في طبقات الجو العليا مادة حافظة واقية بسبب قدرته الامتصاصية القوية للأشعة فوق البنفسجية الآتية من الشمس ؛ فهو يستبعد معظم الإشعاع فوق البنفسجي الذي تقل أطول موجاته عن 310 نانومترات، وهو الإشعاع الذي يمكن أن

يخرب المادة الحية.

قال: والأوزون يتولد في طبقات الجو العليا عندما يتم امتصاص الأشعة الشمسية القصيرة الموجه من قبل الأكسجين الجزيئي، ولكنه يتحول ثانية إلى هذا الأكسجين الجزيئي في تلك الطبقات الجوية العليا نفسها بفعل التفاعلات الكيميائية الضوئية التي يحفزها عدد من الغازات ولا سيما النتريك (NO) وثاني أكسد النتروجين (NO2) والكلور (Cl) وأكسيد الكلور (ClO) وتزداد مقادير الحفازات النتروجينة بزيادة انطلاق الغازات من عوادم محركات الطائرات التي تحلق في الجو العلوي، وبزيادة استعمال الأسمدة الآزوتية، كما تزداد مقادير الحفازات الكلورية بزيادة استعمال الغازات المحتوية على الكلور ولا سيما الفلوروكربونيات CFCl3 وCF2 Cl3، وهي ثابتة في الطبقات الجوية السفلى، ولكنها سرعان ما تتفكك في الطبقات الجوية العليا بفعل الإشعاع فوق البنفسيجي مطلقة كلورها الفعال.

وهذا كله وغيره يعرض الأحياء جميعاً بما فيها الإنسان إلى الآثار المضرة للأشعة فوق البنفسجية.

قال السائل: ولكن الأوزون يوجد في الأصل في مستوى صعيد الأرض من جراء تسلله من الطبقات الجوية العليا.

قال: ولكن بتراكيز غير مؤذية (10 ــ 30 جزء بالبليون)، ولكن الحفازات النتروجينية التي تفككه في الجو العلوي تساعد على توليده في الجو السفلي، ولا سيما تلك الأكاسيد الآزوتية والهدروكربونيات التي تصدرها عوادم السيارت، فتبدأ آثاره الضاره بزيادة هجمات الربو(عندما يبلغ 150 جزءاً بالبليون) وتهييج الحنجرة (300 بالمليون) بالإضافة إلى تخريبه وتأخيره لنمو النبات.

قال السائل: هذا صحيح.. والبشرية تشكو في هذا العصر من كثرة هذه العلل.

قال: ليس هذا فقط.. لقد ذكرنا الأشعة فوق البنفسجية، فلنذكر نوعاً آخر من الإشعاع الشمسي ألا وهو الأشعة تحت الحمراء، وهي أشعة تسقط من الشمس على سطح الأرض،

فيمتصــها، ثم يعيــد إصــدارها إلى الأعلى، فيمتص معظمهــا ثــاني أكسيد الكربون وبخار الماء اللذان في الجو، ثم لا يلبثــان أن يعيــدا إصدارها في اتجاه الأرض وفي اتجاه الفضاء الخارجي.

وهكــذا يقــوم بخــار المــاء وثــاني أكســيد الكربــون بــدور ملاءة تحافظ على دفء سطح الأرض، وتعرف هذه الظاهرة إجمالاً بتأثير الدفيئة (البيت الزجاجي)

واحــتراق الفحم والنفــط والغــاز- ولاســيما في المــدن- يزيــد محتوى الهواء من ثاني أكسيد الكربون، فيرفع درجة حرارة الهــواء الموضعية، ويزيد من درجة حرارة العالم على وجه الإجمال، مخلاً بالميزان الحراري الذي يضمنه سقوط الأشــعة تحت الحمــراء، من الشمس وانعكاساتها المتكررة بين الأرض والجو.

قال السائل: فنسب الهواء في الجو معرضة لخطر شديد؟!

قــال: لا.. ليســت معرضــة فقــط.. بــل هي تعيش في خطــر شديد.. وإذا لم تنتبه البشرية، وظلت تجري لاهثــة وراء مــا تســميه حضارة، ستقوم الأرض بأعظم إضراب في تاريخها.

قال السائل: إضراب؟!

قال: أجل ستخلع الأرض هذا الغلاف الغازي لتذيقنا بعده الفناء.

سكت قليلا، ثم قال: ليس ذلك فقط.. بل إن الكثير من المدن الكبرى معرضة الآن لجو خــانق فظيــع، ســيرمي أهلهــا في بطــون المستشفيات أو بطون المقابر..

إن تلوث المدن ما زال في ازدياد مستمر، فوســائل النقــل من سيارات وشاحنات تنفث عوادمها أكثر من نصف (56 بالمائــة) مــا يــدنس الهــواء، ثم من طــائرات وقطــارات وبــواخر في أمــاكن وجودها..

ويلي وسائل النقل في الأهمية مصادر الاحتراق الأخرى الثابتــة مثــل محطــات توليــد الطاقــة الكهربائيــة وأجهــزة التســخين (22 بالمائة)، تليها المصانع المختلفــة (15 بالمائــة) ثم حرائــق الغابــات ومحاصيل المزارع (5 بالمائة) ثم محاصيل ترميد الفضلات الصــلبة

(2 بالمائة).

قال أحـد الحاضـرين: فمـا هـذه العناصـر الغريبـة الـتي تجتـاح مدننا ؟

قال: بكل أسـف.. هي كثـيرة.. ولكن أهمهـا سـتة: أول أكسـيد الكربــــون، والجســــيمات المعلقــــة، وأكاســــيد الكــــبريت، والهدروكربونيات الغازية، وأكاسيد النتروجين، والأوزون.

ويقدر ما ينطلق، في الهواء فوق الولايات المتحـدة وحـدها من هذه الأصناف بمئة وأربعة وتسعين مليون طن متري.. وثمة صـنف سابع من المدنسات يضم المواد السامة الخطـرة الـتي تنفثهـا في الهواء بعض المصانع لخاصة.

قال السائل: فما أول أكسيد الكربون؟.. وما مصدره؟

قال: هو ذلك الغاز السـام المشـهور، ومصـدره الرئيسـي هـو الاحتراق غير الكامل للوقود الكربوني، ولا سيما في السيارت.

قــال الســائل: فمــا الجسـيمات المعلقـة في الهــواء؟.. ومــا مصدرها؟

قال: هي جسيمات صلبة أو سائلة، يتراوح حجمها بين ما يمكن من دخان وسناج أو هباب، وبين ما لا يرى إلا بالمجهر الإلكـتروني.. وهـذه الجسـيمات الـدقاق يمكن أن تبقى معلقـة في الجـو مـدداً طويلة، وأن تحمل إلى مسافات بعيدة تذروها الرياح.

ومصـادرها الرئيسـية أجهـزة احـتراق الوقـود الثابتـة، كـأجهزة التدفئة وتوليد الطاقة، التي تنتج جل الجسيمات المرئيـة، كمـا تنتج جزءاً كبيراً من الغازات غـير المرئيـة الـتي لا تلبث أن تتحـول إلى ضبائب، وتنضم إلى ذلك ذريرات الرمل والحصى والأسـمنت، ممـا يبقى عالقاً، ويمكن أن يحمل إلى مسافات بعيدة، ويعيش أكثر من بليون نسمة في مناطق يتجاوز التلـوث بالجسـيمات فيهـا الحـدود التي تسمح بها منظمة الصحة العالمية.

قال السائل: فما الأكاسيد الكبريتية.. وما مصدرها؟

قال: أهمها ثاني أكسيد الكبريت، وحمض السلفوريك (الكبريتيك)، وسائر مركبات السلفات، وهي تصدر من الوقود الكربوني وجله ملوث بالكبريت، كما تصدر من بعض أنواع المصانع.

وتدل بعض المعلومات التي جمعتها منظمة الصحة العالمية وبرنامج البيئة العالمي عام سبعة وثمانين، على أن أكثر من ستمئة مليون إنسان، يعيشون في مناطق حضرية، معدل التلوث فيها بثاني أكسيد الكبريت يفوق المقادير التي تسمح بها المنظمة.

قال السائل: فما الهدروكربونيات الغازية.. وما مصدرها؟

قال: هي غازات غير سامة في حد ذاتها، وبالمقادير التي توجد بها، ولكنها تعتبر من أهم مدنسات الهواء لدورها في تشكيل الأوزون وسائر المؤكسدات.

وجل هذه الغازات ينطلق في المناطق الحضرية، حيث توجد مصانع تلميع المعادن، ومعامل الدهانات، والمطابع، ومحطات توزيع الغازولين والديزل، ومؤسسات التنظيف.

قال السائل: فما الأكاسيد النتروجيبية.. وما مصدرها؟

قال: هي تتشكل من اتحاد النتروجين بالأكسجين في الحرارات العالية التي يحترق بها الوقود.. وخطرها يتمثل في دورها في توليد الأوزون.

قلت: فهل هناك غازات أخرى؟

قال: كثيرة جدا.. وكل يوم تظهر غازات جديدة.. ومعها أمراض جديدة.. واقتراب جديد للأرض من حافة الهاوية.

قام رجل من الحاضرين كان يلبس بذلة عصرية، وقال: ألا ترى أنك تبالغ في التخويف.. إن هذه الغازات التي تذكرها ليس لها أي تأثير على صحة الإنسان.. إن لجسم الإنسان من الطاقة ما يستطيع به أن يتعامل معها.. فلذلك كف عن هذا التخويف.. وعد إلى الواقع.

غضب المحاضر غضبا شـديدا، وقـال: لا شـك أنـك لا تـذكر مـا حدث في لنـدن عـام 1952، يـوم أدى الـدخان القاتـل إلى مـوت أربعة آلاف نسمة.. ولا شك أنك لا تذكر ما حدث في دونـورا، تلـك المدينة الصناعية في غربي بنسـلفانيا، حيث مـرض نصـف سـكان المدينة، ومات عشرون منهم بعد دخان استمر خمسة أيــام، وبقي الأحياء منهم يعانون من اعتلال في الصحة.. ولا شـك أنـك لا تـذكر ما حدث في مدينة نيويـورك سـنة ثلاث وخمسـين حين مـات مئتـا نفس من جراء مستوى أكاسيد الكبريت والجسيمات المعلقة.

ولا يقل شأناً عن هذه الكوارث الصـارخة، تلـك الآثـار الطويلـة الأمد على سكان المدن من جراء تلوث الهـواء، من علـل تنفسـية مزمنة كالنفاخ الرئوي والتهاب القصبات (الشعب الهوائية) ...

ليس ذلــك فقــط.. فقــد نقصــت القــدرة على أداء التمــارين الجسمية في الأصحاء من الكبار والأطفال على السـواء.. وازدادت نسبة الوفيات من الأمراض الأخرى كالسـرطان وأمـراض القلب.. وازداد حدوث الربو وفرط التحسس وأمراض الجهاز التنفسـي في الأطفال.

وهم يقــدرون ضـريبة التلــوث الــتي يــدفعها سـكان الولايـات المتحدة كـل عـام بخمسـة عشـر ألـف وفـاة، وسـبعة ملايين يـوم مرض، وخمسة عشر مليون يوم ناقص الإنتاجية.

قال رجل من الجمع: فلم لم تنبهوا هـذه الـدول إلى المخـاطر التي يحملونها لشعوبهم وللأرض؟

ابتسـم، وقـال: من نخـاطب.. لقـد أعمى أهـل الأرض الجشـع والحــرص.. فصـاروا لا يعرفـون إلا الـثروات والأمـوال.. ولا يهمهم بعدها أي شيء.

أخرج ورقـة من محفظتـه، وقـال: سـأقرأ عليكم بعض جهودنـا في هذا المجال.. ثم كيف ووجهت.

نظـر في الورقـة وقـال: بعـد بحـوث دقيقـة علمنـا أن الـدول الصناعية المتقدمة، وبالأخص الولايات المتحدة الامريكيـة، تسـاهم بالنصيب الأكبر في تلوث البيئة الطبيعية، فهذه الدول التي يسـكنها

أقل من ربع سكان العالم تنتج ثلاثة أرباع فضلاته (2,5 مليـار طن سنويا) بمعدل 1,6 طن للفرد في السـنة أي عشـرة أضـعاف مـا يعود إلى الدول النامية. وبلغ استهلاك الولايات المتحدة من مصادر الطاقـة 26 بالمائـة من الاسـتهلاك العـالمي في 2000 ووصـل انبعاث غاز ثاني اوكسـيد الكـاربون فيهـا (24 بالمائـة من انبعـاث العالم) إلى 5,7 مليار طن وأوروبا 4 مليار طن في 2001.

ومع ذلك فإن هذه الـدول تتهـرب في المـؤتمرات الدوليـة من الالتزام بإجراءات فعالة للحد من التلـوث بـدعوى تـأثير ذلـك على رفاهية شعوبها، كما حدث في مؤتمر الأمم المتحدة المعني بالبيئـة والتنمية الذي عُقـد في ريـو دي جـانيرو في البرازيـل في حزيـران (يونيو) 1992.

وعلى الرغم من اتفاق مؤتمر تغير المناخ في كيوتو في اليابان في 1997 على خفض انبعاث الغـازات الضـارة المسـببة لظـاهرة الاحتبـاس الحـراري إلا أن العديـد من الـدول الصـناعية شـهدت ارتفاعـا في انبعـاث غـاز ثـاني اوكسـيد الكـاربون في عـام 2001 مقارنة بـ1990 وبنسـب مختلفـة كمـا في الولايـات المتحـدة (18 بالمائـة) واليابـان (11 بالمائـة) وكنـدا(21 بالمائـة) و إيطاليـا (6 بالمائة) واستراليا(42 بالمائة) والبرتغال (49 بالمائة) وبلجيكا (12 بالمائة) وهولندا(113 بالمائة) وغيرها.

وعُقد مؤتمر الأمم المتحدة للمنـاخ في لاهـاي في 13 تشـرين الثاني (نوفمبر) 2000 وحضره مندوبون من 180 دولـة. ونـوقش البروتوكول الذي أقر في كيوتو والقاضي بتخفيض الغازات الضـارة بأكثر من 5 بالمائة في الفترة 2008-2012 مقارنة مع مستوياتها في 1990. وكانت الأنظار متوجهة إلى منـدوب الولايـات المتحـدة الأمريكية للتجاوب مع الاتفاق إلا أن ذلك لم يحـدث، ونتيجـة لـذلك فشل المؤتمر في التوصل إلى اتفاق.

وفي آذار (مارس) 2001 أعلنت الولايات المتحدة تراجعها عن بروتوكول كيوتو مدعية أنه باهض التكلفة وظالم لأنه يفرض خفض الغازات المسببة لارتفاع حـرارة الأرض على الـدول الغنيـة فقـط! فيمـا أعلن الاتحـاد الأوروبي انتقـاده لهـذا الموقـف و تمسـكه بالبروتوكول وتصميمه على المصادقة عليه بحلول عام 2002 وهو

موعـد انعقـاد القمـة الثانيـة للأرض في جوهانسـبورغ في جنـوب أفريقيا.

وعقدت قمـة الأرض الثانيـة في الفـترة 26 آب (أغسـطس) إلى 4 أيلـول (سـبتمبر) 2002 في جوهانسـبورغ في جنـوب أفريقيا تحت شـعار (التنميـة المسـتديمة) ورغم الحضـور الواسـع للحكومات والمنظمـات غـير الحكوميـة إلا أن نتـائج القمـة جـاءت مخيبـة للآمـال لأسـباب عـدة أبرزهـا الضـغوط وسياسـة الـترهيب والترغيب التي مارستها الولايات المتحدة.حيث نجحت في تعطيـل وضع جـدول أعمـال لمشـروعات ووثـائق تقـود العـالم إلى حلـول عادلة لمشاكل المناخ والبيئة والتنمية في محاولة لإحبـاط موضـوع سخونة الأرض من أن يحظى بالأولوية التي يستحقها. لأن الولايات المتحـدة سـتحاكم عندئـذ على مسـؤوليتها الـتي تـتراوح 25-30 بالمائة من تلك السخونة، وعن انسحابها من بروتوكول كيوتو.

وقد أثارت النتائج الضـعيفة للقمـة غضـب المنظمـات العالميـة لحماية البيئـة وانسـحبت منهـا المنظمـات غـير الحكوميـة ونظمت تظاهرة احتجاجا على نتائج المفاوضـات الـتي اعتبرتهـا في خدمـة الشـركات المتعـددة الجنسـية. وقـد وصـفت منظمـة أوكسـفام الخيريـة الدوليـة الاتفـاق بأنـه (انتصـار للجشـع والمصـالح الذاتيـة، ومأساة تحل بالفقراء والبيئة)

وذكر تقرير لجنة البيئة التابعة للاتحاد الأوروبي الذي نشر في 2 –12-2003 أن انبعـاث الغـازات الدفيئـة في الاتحـاد الأوروبي سـينخفض فقـط نصـف في المائـة في عـام 2010 مقارنـة بعـام 1990 وهذا يخالف بروتوكول كيوتو الذي بموجبـة يجب أن تخفض دول الاتحـاد انبعـاث هـذه الغـازات بنسـبة 8 بالمائـة في العـام المذكور.

وفي نفس يوم إعلان التقرير أعلنت روسيا أن بروتوكول كيوتو في صـيغته الحاليـة لا يمكن المصـادقة عليـه، ولكن أعلن الـرئيس الروسـي بـوتين في 22-5-2004 بـأن روسـيا تريـد المصـادقة بسرعة على بروتوكول كيوتو جاء هذا الموقف بعد أن قدم الاتحـاد الأوروبي تنازلات كبيرة لروسيا بالموافقة على انضـمامها لمنظمـة التجارة العالمية.

وعزى التقرير هذا الوضع إلى نمـو قطـاع النقـل الـذي اعتـبره سببا مهما في زيادة انبعاث الغازات الدفيئة. إضافة لـذلك سـيكون انبعاث غاز ثاني اوكسيد الكاربون من هذا القطاع أعلى بنسبة 34 بالمائة في عام 2010 مقارنـة بعـام 1990. وطبقـا للتقريـر فـان خطة الاتحاد الأوروبي بالنسبة لانبعاث هذه الغازات لم تنجز.

***

بعد أن أنهى الأول حديثه، قام رجل ثان، وقـال: الأمـر بالنسـبة للماء لا يختلف عنه بالنسبة للهواء.. فالماء الـذي جعلـه اللـه سـببا للحياة وركنا من أركانها.. والماء الذي ملأ الله بـه أرضـه.. يتعـرض اليـوم لمخـاطر كثـيرة تجعلنـا نـدقس نـواقيس الخطـر.. فـالخطر المحدق بالماء محدق بالحياة نفسها.

وسأحدثكم الآن عن بعض هذه المخاطر لتدركوا الأخطار الــتي تنتظر الأرض من طرف هذه العصابات المجرمة الـتي لا تعـرف إلا الصراع.

هناك ثلاثة مصادر كبرى لتلوث الماء..

أما أولهـا.. وهي أقلهـا خطـرا.. فميـاه الصـرف الصـحي، وهي تتكون من فضلات الإنسان، والقمامـة، والمـاء الـذي اسـتخدِم في غسل الملابس أو الاستحمام.. وقد رأينا أنه بحلـول عـام 2020م، من المحتمـل أن تنتج الـدول الصـناعية كميـة من ميـاه الصـرف الصحي، قـد تبلـغ ضـعفي الكميـة الـتي كـانت تنتجهـا في عـــــام 1990م.

ويمر معظم مياه الصرف الصحي من خلال محطات المعالجـة التي تزيل الأجسام الصلبة، وتلك المـواد الذائبـة مثـل النيـتروجين، والفوسفور. ويمر بعضها خلال أحواض للتطهير قبـل ترشـيحها من خلال حقول الترشيح إلى الأرض، وتذهب البقية من ميـاه الصـرف الصحي دون معالجة مباشرة إلى مجاري المياه أو المحيط.

وأما الثاني.. فهي المواد الكيميائيـة والنفايـات الزراعيـة.. حيث يسري ماء المطر أو الجليـد المنصـهر من الأراضـي الزراعيـة إلى مجاري المياه حاملاً معه المخصـبات الكيميائيـة، ومبيـدات الآفـات

التي قد يستخدمها المزارعون على الأرض.

وأما الثالث.. وهو أخطرها جميعا.. فتلك النفايات الكثيرة التي تفرزها أنواع الصناعات في البلاد المتقدمة.. حيث تحتوي هذه النفايات على الكثير من المواد الكيميائية والسامة، وتُفرَّغ كميات كبيرة من هذه النفايات الكيميائية في أنظمة المياه مباشرة.

بالإضافة إلى ما ينتج عن حرق الفحم، والنفط وأنواع الوقود الأخرى، وفي محطات توليد الطاقة، والمصانع، والسيارات من أكسيد الكبريت والنيتروجين.

وربما تلوث بعض الصناعات الماء بطريقة أخرى عندما تستخدم كميات كبيرة من المياه لتبريد المعدات، حيث تجعل الحرارة الناتجة عن المعدات الماء ساخنا، وتستخدم محطات توليد الكهرباء غالبًا الماء لتكثيف البخار الذي يدير العنَفَات (التوربينات)، وحينما يُفرغ الماء الساخن في النهر أو البحيرة، ربما يسبب التلوث الحراري الذي يمكن أن يضر بحياة النبات والحيوان.

قال رجل من الجمع: فما الأخطار التي قد تنجم عن هذا النوع من التلوث؟

قال: كثيرة لا يمكن حصرها.. وسأقتصر لكم على واحد منها.. ربما سمعتم به.. وربما لم تسمعوا.. لأن هناك من يريد أن لا تسمعوا به..

إن المطر الآن.. وفي مناطق كثيرة ــ خاصة فى البيئات الصناعية ـ لم يعد ذلك المطر الطاهر النظيف الممتلئ بالصحة.. لقد صارت السماء تمطرنا مطراً حمضياً يهلك الحرث والنسل، فقد بلغ الأس الهيدروجيني للمطر فى بعض المناطق الصناعية درجة عالية تجعل مياه الأمطار عالية الحموضة محدثه أضرار كثيرة، فقد فقدت مئات من البحيرات فى أمريكا الشمالية وشمال غرب أوربا ـ نتيجة ارتفاع درجة حموضة مياهها بسبب المطر الحمضي ـ معظم ما بها من ثروات سمكية وأصبحت 90 بحيرة فى منطقة جبال أدرونداك فى ولاية نيويورك ـ مثلا ــ خالية تماماً من الأسماك تحت تأثير الحموضة المتزايدة لمياه البحيرات وهي حموضة قاتلة للأحياء.

ولا يقتصر تـأثير المطـر الحمضـي على الأضـرار بميـاه الأنهـار والبحيرات وإنما يمتد تأثيره إلي مخاطر كثيرة فقد أعلن فريق من الباحثين فى جامعـة نيوهـا مبشـير بالولايـات المتحـدة الامريكيـة (1985) أن المطــر الحمضــي يمنــع حاســة الشــم عنــد ســمك السالمون، ولهذا يفقد قدرته على إيجاد طريقة نحو مجاري الأنهـار العليا من أجل وضع بيضة وإتمام عمليـة الفقس، كمـا بـدأت تضـر الأمطار الحمضية بالمحاصيل الزراعيـة تحت تـأثير ترسـب كميـات كبــيرة من المــواد الحمضــية فى التربــة ممــا يغــير من تركيبهــا الكيمـاوي فى اتجـاه الحموضـية المتزايـدة الـتى تضـر بـل تقتـل النباتات إذ تعمـل الحموضـة الزائـدة فى التربـة على إفقـار التربـة نتيجة إزالة الكاثيونات " الأيونات الموجبة " منها التى تعتبر القاعدة الأساســية لتغذيــة النباتــات مثــل الكالســيوم والمغنيســيوم والبوتاسيوم.

كمـا يـؤدي المطـر الحمضـي إلى تـدمير الكثـير من الأشـجار والنباتـات حيث تصـاب بظـاهرة المـوت الـتراجعي Dieback حيث تمــوت الأشــجار واقفــه كمــا يقولــون إذ تتلــف الأوراق العلويــة المعرضة مباشرة للمطر الحمضي الذى يقتل المادة الخضراء فيها ثم ينتقل التأثير بعد ذلك الى الأوراق التحتية فقد أوضـح تقريـر من ألمانيا الاتحادية (1980) أن مساحة من الغابـات تقـدر بنحـو 560 ألف هكتار أي حـوالي 7ر7% من مجمـوع مسـاحات الغابـات في ألمانيا قد دمرت أو أتلفت بدرجات متفاوته نتيجة المطر الحمضـي والضباب الحمضي.

وعنـدما نتسـاءل عن سـبب هـذا الانحـراف في الحفـاظ على طهارة المياه، نجـده الجشـع والحـرص على الكسـب بغض النظـر عن المفاســد الحاصــلة، فعنــدما نســتخدم الأســمدة الكيماويــة والمبيدات الحشرية مثلاً بدرجـة كثافـة عاليـة، خوفـا من الجـوائح، وحرصا على الكسب، وسعيا إلى زيادة إنتاجية المحاصيل الزراعية نصل إلى إفساد البيئة والإنتاج معـاً، لأن الاسـتخدام المكثـف لهـذه الكيماويات تسرب كميات كبـيرة منهـا إلى الهـواء ومصـادر الميـاه وإفسادهما، فضلاً عن إنتاج محاصيل ملوثة كيمائيا.

وفي تقرير صادر عن دول مجموعة التعاون الاقتصادي الأوربي

(1988) حذر من تفاقم التلوث المائي الناجم عن تكثيف استخدام الأسمدة الكيماوية، ودعا التقرير إلى الحد من الاستخدام المكثف (الإسراف) لهذه الأسمدة الكيماوية لما لها من مخاطر كبيرة على الأحياء المائية.

لم يكتف البشر بكل هذا.. بل مدوا أيديهم الآثمة إلى البحار والمحيطات.. فقد أثبتت الدراسات الحديثة أن ماء البحار قد تلوث بنسبة(400 بالمائة) من بعض العناصر المعدنية السامة مثل عنصر الزئبق نتيجة ما تقذفه المصانع من مخلفاتها الصناعية في مياه البحار.

حتى الأسماك لم تسلم من التلوث،فقد سجلت أرقاما عاليه من العديد من الملوثات المعدنية مثل الزئبق والرصاص والزرنيخ.

بالإضافة إلى هذا كله.. فإن هناك خطرا عظيما نتج من الإسراف في استعمال الثروة المائية.. بسبب الجشع والحرص.. هذا الخطر هو ما يحصل الآن من استنزاف كمي ونوعي لكثير من الموارد الطبيعية من خلال الاستعمال المفرط لها وعدم كفاية إجراءات تجديدها.

فبالنسبة للمياه العذبة تحتوي الأرض على كميات منها، تبلغ نسبتها 2,5 بالمائة فقط من مجموع المياه وحوالي 0,5 بالمائة مياه جوفية متاحة أو مياه سطحية، وتتباين كميات الأمطار الساقطة تباينا كبيرا على مستوى العالم حيث تستلم المنطقة العربية في شمال أفريقيا وغرب آسيا كميات قليلة جدا منها.

وإذا استمر تلوث المياه عند المعدل الحالي مع زيادة المياه المستخدمة بمعدل أعلى من معدل نمو السكان في أجزاء عديدة من العالم(1).. فسيؤدي ذلك إلى استنزاف المياه العذبة في وقت قريب.

فعلى مستوى العالم تستهلك حاليا 54 بالمائة من المياه العذبة المتوفرة، وإذا بقي استهلاك الفرد ثابتا حتى عام 2025

1() تضاعف سكان العالم ثلاث مرات خلال السبعين سنة الماضية بينما تزايد استهلاك المياه ست مرات نتيجة النمو الصناعي وزيادة استخدام المياه في الري وارتفاع المستوى المعاشي.

فيمكن استهلاك 70 بالمائة منها نتيجة النمـو السـكاني وحـده، وإذ وصـل اسـتهلاك الفـرد إلى مسـتوى الـدول الأكـثر تقـدما فيمكن استهلاك 90 بالمائة في السنة المذكورة.

في عام 2000 كان هناك 508 مليون إنسان يعيشون في 31 بلدا يعاني من الضغط على المياه أو من شـحتها ويتوقـع في عـام 2025 أن يرتفع العدد إلى 3 مليـار إنسـان يعيشـون في 48 بلـدا يعاني من هذه الظروف، وسوف يتضاعف عـدد الأشـخاص الـذين يعانون من شحة المياه ويزداد وأولئك الـذين يعشـون في ظـروف الضغط على المياه ست مرات، وهناك 88 دولة نامية يقطن فيها 40 بالمائة من سكان العالم يعد النقص في المياه فيها معوقا جديا للتنمية الاجتماعية والاقتصادية.

***

قام آخر، وقال: حتى ذلك الجـو الهـادئ البسـيط الـذي عاشـه أسلافنا على هذه الأرض منذ عشرات الآلاف من السـنين يريـد أن يستل منا..

إن التلـوث الصـوتي يزاحمنـا في كـل محـل.. ففي كـل محـل تسمعون هدير محركات الطائرات، وصخب السيارات والقطـارات والسفن والمصانع والمستودعات.. فإذا دخلتم إلى الـبيوت وجـدتم أنفسكم محاصرين بأصوات البرادات والغسالات والرائي والمـذياع والموسيقى الصاخبة ببيوتكم أو بيوت الجيران من حولكم.

قام رجل من الجمع، وقال: لم نكن نحسب أن للصوت تلوثا.

قال: كل ما أخرج الأرض عن فطرتها التي فطرت عليها تلوث وصـراع.. لقـد حـذّرت منظمـة اليونسـكو، ومنـذ (1967) من أن الضجيج هو مصيبة العالم المعاصر.

وبعد مرور أكثر من 33 عامـاً من الـزمن أصـبح الصـخب أكـثر خطرا، وارتفعت قيمته في معظم المدن الكبرى في العالم بمعدل 12- 15د. ب، أمّا قيمة الضجيج الذاتية فارتفعت وبمعدل(3 - 4) مرات وانخفضت إنتاجية العمل بنسبة 15 -20 بالمائة.

قال آخر: ما المخاطر التي يسببها هذا التلوث الصوتي؟

قــال: لقــد وجــدنا من خلال البحث المســتقرئ للواقــع أن للضجبج تأثيرا خطيرا على صحة الإنسان، فهو يلعب دوراً هامـاً في ارتفاع نسبة أمراض القرحــة المعديــة، والجملـة العصـبية النفسـية وأمراض القلب الأوعية الدموية.

ففي المجتمعات الأوربيـة يعـاني وسـطياً كـل(4) رابـع رجـل وكل(3) ثالث امـرأة من العصـبية الناتجـة عن الضـجيج والصـخب المرتفعيين.

ووفقــاً للإحصــائيات، فــإن كــل خــامس مراجــع لمستشــفيات الأمراض النفسية يقصدها من جراء تعرضـه للضـجيج.. أمّـا حاسـة السمع فهي الأكـثر تضـرراً من الضـجيج.. ويُعتقـد أنـه من بين كـل مائة قروي يعـاني من20-30 شخصـاً من سـوء السـمع، أمّـا هـذا المعدل في المدن فيصل إلى (5) خمسة أضعافه في الريف.

وهذا يؤدي إلى انخفـاض نسـبة الاسـتيعاب الدراسـي ومـردود الراحـة أثنـاء النـوم وإلى الضـجر والقلـق خصوصـاً عنـد الأطفـال فتزداد عصبيتهم.

وقــد اخــترع الأطبــاء مصــطلح (المــرض الضــجيجي) لوصــف ودراسة التأثير الإجمالي للضجيج على الإنسان وذكــروا أن من أهم أعراضه الصداع، والقيئ والعصـبية والقلـق.. و في حـالات ليسـت نادرة نقص مؤقت لدرجة السمع.

وقد ازداد بشكل ملفت للانتباه عددا لأمراض المهنيـة، وبشـكل خاص خطر السكتات القلبية والدماغيــة المبكّـرة عنـد كبـار السـن وتسارع شيخوخة الجسم وكـل هـذا أدى لـتراجع نـوعي في جـودة الوسط الطبيعي المجاور ـ أي ظروف حياة الناس ـ ويعتقد الخبراء أن الصخب المرتفع في المدن العملاقة يقصّر عمر البشر نحو 8 - 12 سنة.

وفوق هذا، فقـد أثبت العلمـاء أن الضـجيج يـؤثر على الطبيعـة تأثيرا خطيرا، فهو يقلص من أعمار الأشجار في المدينــة الــتي هي أقصر عمراً مماً هي عليـه في الريـف، نظـراً لإرتفـاع كثافتـه، فلـو

عرضّنا النباتات إلى صخب كثافته تساوي -100 د.ب لمـا أسـتطاع البقاء حياً أكثر من عشرة أيام، حيث تبدأ الأزهـار والأوراق بالـذبول تحت وطأته و يلتجم نموها، أمّا الطيور فتجبر على هجرة أعشاشها وترك بيوضها، وتمتنـع عن رعايـة فراخهـا، بـل قـد يـؤدي الصـخب المرتفع الى تشقق البيوض وتخثرها.

أمّا عند فصيلة الثـديات فيتسـبب الضـجة بتغيـيرات في ضـغط الدم والضرر بالعضلات القلبيـة، وقـد تـؤدي إلى المـوت في نهايـة المطاف نتيجة للشلل القلـبي.. وتكـف بعض الفـئران عن التكـاثر، وقد يلتهم بعضها صغاره.. وتحت تـأثير الضـجيج تتعـرض الحوامـل من الثعالب في مرحلة ما قبل الولادة إلى الإجهاض أو الطريحة أو الولادة المبكّرة، وهذا ما قد يؤدي في حالة مزارع تربية الحيوانـات وإكثارها لخسائر إقتصادية.

بالإضــافة إلى ذلــك، فالضــجيج يقضــي على يرقــات بعض الحشـرات و(أمبريونـات) بعض الطيـور ويشـقّق قشـور بيوضـها، وتفقد بعض الحيوانات تحت تأثير الضجيج قـدرتها على التوجـة في الأفق والتقدير الصحيح لأماكن تواجدها.

***

قام آخر، وقال: أما أنـا، فقـد بحثت فيمـا تفعلـه هـذه المدنيـة بإخواننا على هذه الأرض من النباتـات.. فوجـدت العجب العجـاب.. لقد رأيت الغابات، وهي تتعرض للقطع بمعـدلات متصـاعدة.. حيث تم تـدمير 2,5 بالمائـة من غابـات العـالم خلال تسـعينات القـرن الماضي.. وفي الأربعين سـنة الأخـيرة انخفضـت حصـة الفـرد من أراضي الغابات أكـثر من 50 بالمائـة من 1,2 هكتـار إلى أقـل من 0,6 هكتــار، وهــذا يعــود إلى النقص في أراضــي الغابــات، وإلى الزيادة السكانية.

فمثلا فقــدت الغابــات المداريــة الرطبــة 75000 كم2 من مســاحتها في 1979 و 142000 كم2 في 1989 وبهـذا ارتفعت نسبة الفقد إلى 90 بالمائة.

إن هذه الغابـات الـتي يتلاعب بهـا تحتـوي على50 بالمائـة من التنوع البيولوجي الباقي في العالم.. وعند استمرار معدلات القطع

الحاليــة يمكن أن تختفي الغابــات المداريــة الأوليــة الباقيــة في غضون 50 سنة.. وما لم يتوقف أو يتباطأ بشـكل أساسـي معـدل الفقدان الجيـني للنباتـات في العـالم فـإن 60,000 صـنفا نباتيـا ــ يمثل حوالي ربع مجموع الأصناف في العالم ــ يمكن أن يفقـد في حلول 2025.

أذكر أني كنت أعيش في غابة من الغابات قبل أن تأتي الأيادي الملوثة بالصـراع لتـدمر الحيـاة الـتي كنـا نعيشـها مـع إخواننـا من النباتـات والحيوانـات.. لقـد صـحت فيهم، وهم يقطعـون الأشـجار، ويحرقونها: لم تفعلون هذا؟

قالوا: لأجل الحياة.

قلت: لأجل الحياة !؟.. إن النبات هو الحياة.. ولـو غـاب النبـات غـابت الحيـاة كلهـا.. ألا تعلمـون أن النبـات هـو المثبت الرئيسـي للطاقــة الشمســية.. فكــل نبــات من بلايين البلايين من النباتــات الأرضية عبارة عن مفاعل حيـوي لتثـبيت الطاقـة الشمسـية، وهـو لذلك مصدر الطاقة الرئيس على الأرض.

والنبات هو الصانع الرئيس للغذاء والدواء على الأرض، فالنبات يستغل الطاقة الضوئية، والماء، وثاني أكسـيد الكربـون ليكـون لنـا وللكائنات الحية غير ذاتية التغذية(1) الغذاء المتناسب مع حاجاتنــا المختلفة..

ابحثوا.. فستجدون أن جميع المواد الكربوهيدراتيـة على الأرض مصدرها الأصلي النبات، وجميع المـواد الدهنيـة والمـواد البروتينيـة والفيتامينــات مصــدرها الأصــلي النبــات.. وكــل البــترول والفحم والخشب والأوراق والمطاط مصدرها الأصلي النبات.

وفوق ذلك كله، فإن النبات يثبت نسبتا الأكسجين وثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي بمقداره الوحيـد الـذي لا تصـلح الأرض إلا به.

قال بعض الجمع: فبم أجابوك؟

1() أي غير القادرة على تصنيع غذاءها من خاماته الأولية كما يفعل النبات.

قـال: لقـد تبـادلوا ضـحكات سـاخرة.. ثم راحـوا يقطعـون ويحرقون..

قال الرجل: فماذا فعلت؟

قال: لقد خرجت من تلك الغابة.. ولم أعد إليها إلا بعد سـنين.. وقد هالني ما وجدت.. لقد وجدت غابتنا تحولت إلى صحراء.. فقـد غزتها الرمال، ولم تعد تصلح لشيء.

قال الرجل: هل يمكن هذا؟

قال: ألا تعلم.. ألا تعلمون جميعـا أن التصـحر يهلـك ــ حسـب بعض الإحصـائيات ـ 20 ألـف ميـل مربـع من الأراضـي الخضـراء سنوياً، فيحيلها إلى قفـار رمليـة جـدباء، كمـا – أنـه في كـل سـنة- يحاول اختراق مساحات أخرى، تقدر بحوالي 70 ألف ميـل مربـع، يتربص بها، متحيّناً الفرصة، فإذا غفلت أعين أصحابها عن حمايتهـا، ضربها الجدب وأغرقتها الرمال.

ليس التصحر وحده هو ما يهدد الأرض نتيجة قطـع أشـجارها.. هناك آثار أخرى لا تقل خطرا.. لقـد ورد في بعض الإحصـائيات أنـه يختفي من الوجـود كليـا بين 4000 إلى 6000 نـوع حيـواني كـل يوم، مما يـوفر جـوا من عـدم التـوازن البيـئي في تلـك المنـاطق، وسـيحرم خمس سـكان العـالم من المـاء اللازم لـرّي أراضـيهم وزراعة محاصيلهم بسبب ذلك.

***

قام آخر، وقال: أما أنـا، فقـد بحثت فيمـا تفعلـه هـذه المدنيـة بإخواننا على هذه الأرض من الحيوانات.. فوجدت العجب العجاب.. لقد رأيت أن معدل انقراض الحيوانـات البريـة وصـل إلى مسـتوى قياسي، فبعد أن كان ينقرض منها صنف واحد كـل عشـر سـنوات بين عامي 1600-1950، أصبح انقراض الأصناف البريـة أسـرع بـ 50-100 مرة من الانقراض الطبيعي، وهذا يهدد بحـدوث فجـوات كبيرة في شبكة الحياة.

فـالكثير من الحيوانـات الفقريـة اليـوم إمـا نـادرة أو مهـددا

بـــالانقراض.. بالإضـــافة إلى أن الـــثروة الســـمكية في البحـــار والمحيطات تتعرض اليوم إلى الاستنزاف ؛ إذ تصاد سـنويا كميـات كبـيرة منهـا، لـذا بـات ربـع الاحتيـاطي مسـتنزف أو في خطـر الاستنزاف و44 بالمائة يصاد على حساب حدوده البايولوجية.

سكت قليلا، ثم قال: ليت الأمر توقف عند حد الانقـراض.. لقـد وصــل الأمــر بهــذه المدنيــة إلى أن تتلاعب بــالفطرة الســليمة للحيوانات.. فراحت تطعمهـا السـموم لكي تكتـنز لحمـا وشـحما.. فكان عاقبـة ذلـك أن تمـردت الحيوانـات الـتي لم تتعـود التمـرد.. لعلكم سمعتم بجنون البقر.

قال أحدهم: سمعنا به.. ولكنا لا نعرف قصته بالضبط.

قال: قصـة هـذا الـداء بـدأت عنـدما ظهـرت في وقت سـابق أعراض غريبة على قطعان الخراف البريطانية، وعرف العلمـاء مـا أسـموه آنـذاك المـرض الأكَّال.. لأن الخـراف المصـابة بـه تقضـي الساعات الطوال، وهي تحك نفسها على أعمدة حظائرها، وجــرى البحث عن أسباب المرض، فاكتشف المحققون أن عظام الخراف وسقطها، تطحن وتقدم كمكملات بروتينية في علف الأبقار، وهكذا اشتبه في أن الجراثيم المسببة لمـرض الأكـال كـانت تنتقـل بهـذه الصورة إلى الأبقار.

وفي عام 1988م حظرت الحكومة البريطانية إضـافة نفايـات الخراف وسقطها وعظامها المسحوقة إلى علف الأبقار، ولكن هذا التدبير لم يتم احترامه، وهكذا تفاقمت الأمور واستشــرى المــرض بين الأبقار، وأصبح يهدد بالانتقال إلى الإنسان.

وفي مارس من عام 1996م اكتشف العلماء وجود علاقــة بين مـرض الجنـون البقـري ومـرض كروتـزفلت ــ جـاكوب أو التهـاب الدماغ الإسفنجي الذي يصيب الإنسان.

وفي يوليو 1996م صرح العلماء بوجـود احتمـال كبـير بانتقـال مرض جنون البقر إلى الأغنـام، واحتمـال انتقالـه إلى الإنسـان عن طريـق أكـل أنسـجة الـدماغ والحبـل الشـوكي والمصـران التابعـة للأغنام.. ومن القائلين بهذه النظرية البروفيسـور ريتشـارد لايسـي أخصائي علم الجراثيم في جامعة أيدز.

قال رجل من الجمع: إن ما تتحدث به عجيب.

قال: هناك ما أخطر من هـذا بكثـير.. إن المواشـي والـدواجن الآن تسمن بالنفايات المختلفة دون مراعاة للأضرار التي قـد تنجم عن ذلك.. فهي تسمن ـ مثلا ـ بفضلات الدجاج.. وهي ــ كمـا يـذكر المختصون ـ غالباً ما تتضمن نوعين من أنواع البكتيريا يتسببان في إصابة الإنسان ببعض الأمراض، كمـا يتسـببان في وجـود طفيليـات في معـدة الإنسـان، ويسـاعدان أيضـا على تجمـع الرواسـب الـتي تخلفها الأدوية البيطرية، فضـلاً عن وجـود ترسـبات معـادن تحتـوي على نسـبة عاليـة من المـواد السـامة مثـل الـزرنيخ والرصـاص والكادمسيوم والزئبق.

وتنتقل مثل هذه البكتيريا إلى المواشي بكل سـهولة، كمـا أنـه من الممكن أن تنتقل إلى جسم الإنسان عند تناولـه لحومـا ملوثـة بروث المواشي أثناء ذبحها في المسالخ.

ومن ناحية أخرى، فقد أفاد مركـز مكافحـة الأمـراض والوقايـة منها في ولايـة أتلانتـا بأنـه توجـد في الولايـات المتحـدة فقـط 80 مليون حالة مرضية ناجمة عن تناول المواد الغذائيـة، و9000حالـة وفاة ناجمة أيضا عن تنـاول بعض الأصـناف من الأغذيـة،و4 ملايين حالة مرضية ناجمة عن الإصابة ببكتيريـا سـالمونيلا حيث انتهت مـا بين 500 ـ 1000 حالة من هذه الحالات إلى وفـاة المـريض، كمـا تتسبب البكتيريا من النوع المنطوي في إصابة ما بين 4 ـ 6 ملايين شخص بالتهابات حادة في المعدة ويقتل 100 منهم سنويا.

أما البكتيريـا من نـوع إي كـولاي والـذي تم اكتشـافه في بعض اللحوم الملوثة، فإنها تودي بحياة 250 شخصاً سنويا فضلا عن أنها تتسبب في إصابة ما لا يقل عن 20 ألف شخص في أمريكا سـنويا بأمراض خطيرة، وهنـاك 17 مريضـاً على الأقـل ثبت أن مرضـهم ناجم عن تناولهم لحوما ملوثة من إنتاج شركة واحدة.

ليس ذلك فقـط، بـل قـد دأب مربـو المواشـي على اسـتخدام مخلفات المحاصيل الزراعية وقشارة الخضراوات وعلائق الحبـوب والمواد الداخلة في صناعة الخـبز والخمـر في تسـمين المواشـي، وذلك بالإضـافة إلى اسـتخدام حـوالي 40 مليـار رطـل سـنويا من

مخلفـات المســالخ مثـل الـدماء والعظـام والأمعـاء بالإضـافة إلى ملايين القطط والكلاب السقيمة الـتي يوصـي الأطبـاء الـبيطريون بأن يكون مآلها القتل الـرحيم أو الـتي يُسـلمها لهم القـائمون على ملاجئ الحيوانات، حيث تحوَّل لحوم هذه الحيوانات إلى علف ممــا يعتري سلوكيات المواشي والخنازير الـتي سـرعان مـا تتحـول من حيوانات آكلة للأعشاب إلى حيوانات آكلة للحوم.

وفوق ذلك كلـه.. فقـد وردتنـا الأخبـار بـأن المـزارعين، ومثلهم الشركات المنتجة للأعلاف بدأوا في استخدام أو محاولة اســتخدام فضــلات الأطعمــة الجافــة المســتخرجة من حاويــات القمامــة، ومخلفات المطاعم من الشحوم وزيت القلي والشحوم المتجمعـة في محـابس الشـحوم والغبـار المتصـاعد من مصـانع الإسـمنت.. وحتى أوراق الجرائد والورق المقوى المستخرج من النباتـات، كمـا أجـرى البـاحثون بعض التجـارب على سـماد المواشـي والخنـازير والرواسب الطينية.

ولا تتوافر في الوقت الراهن أي إحصـائيات دقيقـة حـول عـدد المزارعين الذين يطعمون مواشيهم بفضلات الدواجن، لكن يعتقــد بأن هذه الظاهرة قـد عمت في نصـف الولايـات المتحـدة أو ثلاثـة أرباعها، وبالرغم من الرائحة الكريهة المنبعثة من فضـلات الـدجاج والديك الرومي، فإنه يمكن اسـتخدامها كعلـف بعـد تكديسـها على نحو سـليم وإخضـاعها لمـدة تـتراوح مـا بين 4 ـ 8 أسـابيع لدرجـة حرارة تتراوح مـا بين 160 ـ 170 درجـة فهرينهـايت، وهي درجـة عاليــة تكفي لقتــل البكتيريــا، وقــد ذكــر بعض المــزارعين بــأنهم يقدمون لدواجنهم سماد المواشي الخام دون إخضاعها لأي تصنيع.

وقـد ازداد الاهتمـام بمكونـات أعلاف الحيوانـات في الولايـات المتحدة مـؤخراً في أعقـاب الضـجة الـتي قـد أثارهـا في بريطانيـا موضوع جنون البقر والمخاوف التي انتابت الشـعب الأمـريكي من أن تنتقـل العـدوى إليهم، وقـد لقي مئـات من البريطـانيين حتفهم نتيجة تناولهم لحوم الأبقار الملوثة.

وتفيـد الإحصـائيات بـأن 75 بالمائـة من رؤوس المواشـي في أمريكــا والبــالغ عــددها 90 مليــون رأس ظلت تأكــل مخلفــات المسـالخ، وأن الحظـر المفـروض على تقـديم المنتجـات الثانويـة

لمصانع اللحوم قد يدفع مربي المواشي ومصانع الأعلاف إلى اللجوء إلى مضافات مثل السماد ومخلفات أخرى مشكوك فيها.

***

قام آخر، وقال: أما أنا، فقد بحثت فيما تفعله هذه المدنية بالغذاء الذي جعله الله قوام حياتنا.. فوجدت العجب العجاب.. لقد رأيتهم يتفننون في التلاعب به وتلويثه بكل ما شاءت لهم نفوسهم من أنواع الملوثات..

سأضرب لكم أمثلة تؤكد لكم هذا.. لاشك أنكم تعرفون حلوى الأطفال كالشوكولاته والبسكويت ورقائق البطاطس الجاهزة وغيرها من المقرمشات..

قالوا: وكيف لا نسمع بها.. وهي من أهم ما أنتجته هذه الحضارة.. واعتبرته من علامات تقدمها على سائر الحضارات.

قال: لقد أثبتت الدراسات الكثيرة ما تختزنه تلك الحلويات من فنون السموم.. وآخر ما قرأت في هذا دراسة بريطانية قامت بها في مطلع هذا العام (جمعية الشراكة بين الأطباء والمرضى) على ثمانمائة طفل بريطاني، وكشفت هذه الدراسة أن 25 بالمائة من هؤلاء الأطفال يعيشون على الحلويات ورقائق البطاطس الجاهزة، و75 بالمائة منهم ليست لديهم أية فكرة حول كمية الفواكه والخضر التي تحتاجها أجسامهم، كما اعترف مائتان منهم أنهم أثناء ذهابهم إلى المدرسة لا يتناولون فطورا منزليا، بل يتناولون بدلا منه حلويات ورقائق بطاطس جاهزة.

كما أشارت دراسة بريطانية أخرى تمت على ألف وسبعمائة فتى وفتاة تتراوح أعمارهم بين الرابعة والثامنة عشرة كانت بعنوان (التغذية وأنظمة الطعام العامة) إلى أن حوالي 80 بالمائة منهم يتغذون على الأطعمة الجاهزة، مثل: رقائق البطاطس المقلية، والبسكويت، والشكولاته. كما أن مستوى الملح في أطعمتهم هو ضعف المستوى المقبول صحيا، بالإضافة إلى أن الأطفال يستهلكون كثيرا من الأملاح المعدنية المضافة.

وأوضحت الدراسة أن واحدا من بين كل خمسة من الذين شملهم البحث لم يتناولوا الفواكه على الإطلاق خلال فترة إجرائه التي استغرقت أسبوعا، وقد حذرت تلك الدراسة من أن تناول الصغار لمثل تلك الأطعمة قد يسبب لهم مشاكل صحية خطيرة في المستقبل؛ حيث إن الغذاء غير الصحي أحد أهم أسباب ارتفاع معدلات الإصابة بأمراض السرطان والقلب والشرايين.

وفي بحث أجرته هيئة المواد الغذائية ببريطانيا توصلت في نتائجه إلى أنه مقابل كل طعام صحي واحد يتناوله الأطفال من الأسواق، يوجد عشرة تصنف على أنها كوارث غذائية!!

ويعد هذا التقرير ضربة قوية لصناعة الأغذية؛ إذ يوجه اتهامات للشركات العاملة في هذا المجال بأنها تقوض النظام الغذائي للأطفال عن طريق قيامها بزيادة معدلات السكر والدهون والمواد المضافة ومكونات الملح في الأطعمة التي تنتجها.

وطبقا للتقرير، فإن هذه الشركات تقوم أيضا بمعالجة أو نزع المواد الغذائية والألياف من هذه الأغذية، وحذرت من أن المقرمشات والحلوى والمشروبات الغازية تحتوي على نسب عالية من السكر والدهون.

كما أو ضحت الدراسة أن 1 بالمائة فقط من العدد الإجمالي الذي شمله البحث للمنتجات الغذائية للأطفال قد زودت بمعلومات واضحة عن محتوياتها لتظهر أنها منخفضة الدهون والسكر والملح.

وإذا فحصنا مكونات أغذية الأطفال كالبسكويت والشوكولاته والحلويات وجدنا – في أكثر الأحيان – اسم ورقم المواد الحافظة أو النكهات أو المواد الملونة قد كتبت ضمن المكونات، وقد ثبت علميًّا أن معظمها تسبب أمراض الحساسية مهما كانت نسبتها ضئيلة!!، ومثال هذه الأرقام (ليسثين صويا E322).

وهذه المواد وبحسب تلك الأرقام إما أن تكون خطرة جدًّا على الصحة، أو تسبب آلاماً حادة في المعدة، أو ارتفاعاً في ضغط الدم أو أنها غير ضارة على الصحة.

قالوا: إن ما تقوله خطير..

قـال: ليس ذلـك فقـط.. إن صـراع هـذه الحضـارة امتـد لأساسيات الحياة.. لاشك أنكم سمعتم بما حصل للملح؟

قالوا: ما الذي حصل له؟

قال: أنتم تعلمـون أن الملح ضـروري لتنظيم جسـم الإنسـان، وهو يدخل في اتصـال الأعضـاء وبنـاء العضـلات.. كمـا يسـاعد في تنظيم نظـام المناعـة ويمنـع نمـو البكتيريـا الضـارة والفيروسـات والفطريات والطفيليات ويعمل على زيادة ثبات النظـام المعـوي.. وهو بذلك أحـد العناصـر المهمـة لحيـاة الإنسـان والحيـوان وحـتى النبات، فهو يعمل على موازنة كميـة المـاء بالجسـم والخلايـا الـتي يتكون منها أعضاء الجسم، وهـو مهم لعمليـة التمثيـل الغـذائي في الخلية.. لذا فإن تناول الملح وبكميات معتدلة ضـروري جـداً للبقـاء على قيد الحياة.

ولكن هذه المنافع لا تتحقق إلا في النافع منه.

قالوا: أهناك ملح ضار؟

قال: أجـل.. ففي الأسـواق اليـوم نوعـان من الأملاح: أحـدهما متواجد ومنتشر بكثرة، ومعلب بشكل أنيق وهوملح مكرر مضـاف إليه الإيودين.. والثاني قد لايكون معبأ بعلب أنيقة، وهوملح البحر.

قالوا: فما الفرق بينهما؟

قال: للإجابة على هذا السؤال لابد من معرفة مكونات كل نـوع من هذين النوعين:

أمـا النـوع الأول، وهـوالملح المكـرر الأنيـق، فإنـه يتكـون من 99،9 بالمائـــة من كلوريـــد الصـــوديوم و0.1 بالمائـــة إيـــودين البوتاسيوم أو الكالسيوم، وتضاف إليه مادة الإيـودين لتعزيـز نقص الإيـودين في هـذا النـوع من الملح، وهي في الحقيقـة مجـرد سـد نقص لهـذه المـادة في الملح المكـرر.. كمـا يضـاف إليـه مـادة سليكيت الأمونيـوم للمحافظـة على إنسـيابية الملح وعـدم تكتلـه، وممـا هـو معـروف أن مـادة سـيليكيت الأمونيـوم مـادة مضـرة بالصحة.

أما الملح البحري: فيتكون من95 بالمائة من كلوريد الصوديوم و5 بالمائـة معـادن أخـرى منهـا المنغنـيز والكالسـيوم والفوسـفور والإيودين (من مصدره الطبيعي)، إضافة الى أكـثر من 70 عنصـرا معدنيا آخر.

فمن الفرق بين هذه المكونات يتضـح لنـا الفـرق الشاسـع بين هذين النوعين من الملح، فـالملح المكـرر هـو ملح لا يحتـوي على أكثر من مادة واحدة هي كلوريد الصوديوم، وهو فقير من المعـادن الأخرى الضرورية لحياة الخلية، لذا نرى شـركات إنتـاج هـذا النـوع من الملح تحاول سد العجـز الكبـير للمعـادن بإضـافة الإيـودين بـه والدعايـة لهـذه الإضـافة وكأنهـا مـيزة إضـافية، وهي في الحقيقـة ليست أكثر من محاولة سد العجز الكبير بشيء صغير جداً.

وفي مقابـل ذلـك، فـإن الملح البحـري يحتـوي ــ إضـافة إلى الإيودين ـ على معادن كثيرة جداً، وبصورة متوازنة كما خلقهـا اللـه لنا في الطبيعة ومتوافقة مع حياة الإنسان.

وفي المقابل، فإن ملح البحر يحـوي إضـافة إلى الإيـودين على مايقارب 80 معدنا يحتاجها الجسم للحفـاظ على حيويتـه، ولإتمـام عملية التمثيـل الغـذائي بأفضـل أداء، ولوعلمنـا أن 27بالمائـة من الملح الموجود بالجسم في العظام وذلك لنقصـها في الـدم النـاتج عن عدم كفاية مانتناوله من ملح متكامل.

كما أن الشخص الذي ينتاول الملح المكرر عادة ما يحدث لـه شراهة في تناول الملح لأن الجسم لا يشعر بالكفايـة من المعـادن المحلية الأخرى، وبذلك يتراكم كلوريـد الصـوديوم بالجسـم مسـبباً مشاكل للكليتين.

فـالفرد البـالغ يحتـاج مـا بين 2-3 غ في اليـوم الواحـد، لكن معـدلات اسـتهلاكه تصـل إلى 18 غ يوميـاً، وهـذه الزيـادة تسـبب إرهاقا وتعبا للكلى، ويسبب تمادي ذلك ضعف كفائتها.

وتظهر أعراض زيادة الملح على شكل توترات عصبية وعضلية ونفسية وصداع مستمر وشعور بالقلق والكآبة والضيق والضـجر، وفي نفس الوقت يتفاقم نقص المعـادن الأخـرى بالجسـم مسـبباً مشاكل صحية في مناطق أخرى بالجسم.. وخاصة منها العظام.

سكت قليلا، ثم قال: لا شك أنكم تعرفون الخميرة؟

قالوا: ومن لا يعرفها.. هي الوسيط الـذي نسـتعمله في أغذيـة كثيرة.

قال: لقد نشر الكاتب رونالد كوتسيش في جريدة (East West) عام1984مقالة تساءل فيها:(لماذا تؤدي الخميرة المتعارف عليها إلى بعض الأمـراض؟)، ثم أجـاب:(من المعـروف عنـدما تخمـر الخميرة تتفجـر جزيئـات الخـبز، فـإن الجيزيئـات الـتي تنتج تكـون مماثلة للجزيئات المسببة للسرطان)

ورجوعـا إلى البـاحث الفرنسـي Jean Glaude Vincent وجـد أن الطاقة البيولوجية التي تصـدر من العجينـة المخمـرة مماثلـة للـتي تسبب الخلايا السرطانية.

وهناك باحثـان ألمـاني وفرنسـي وجـدا أن السـرعة في تخمـر العجينة ترسـل إشـارات إلكترونيـة إلى الجسـم لينبـه بحـدوث رد على هذه الإنفجارات وهو من مسببات السرطان.

ومن المؤسف أن الكثـير من أنـواع الخـبز يطلـق عليـه الخـبز الصـحي والأسـمر الكامـل والبيتـا ورقـائق الخـبز المـالح وجميعهـا تستخدم فيها الخميرة السريعة الصناعية.

سكت قليلا، ثم قال: ليس ذلـك فقـط.. لقـد امتـد جنـون هـذه الحضارة إلى الميـاه الـتي لا تسـتقيم الحيـاة إلا بهـا.. فقـد ذكـرت بعض الدارسات على أن حـوالى مليـون أمـريكي يشـربون الميـاه التي تحتوي على بعض المـواد الكيميائيـة المؤديـة إلى السـرطان، مثل مادة الزرنيخ (arsenic) و(radon) والـذي هـو عنصـر إشـعاعي غازي، ومادة الكلور(chorine)، لذلك يقترح وضع إعادة تصفية المـاء بطريقة الأسموزية (Osmosis)، أو الكربون (KDF) لتنظيف الماء.

وذلك لأن الاوساخ والصداء الموجـود في الانـابيب والسـخانات تذوب في الماء الذي يمر فيها، وقد أثبتت البحـوث والدراسـات أن المواد الكيمائية الموجـودة في البلاسـتيك تـذوب في القـوارير مـع الماء الموجودة فيها.

***

قام آخر، وقال: أما أنا، فقد بحثت فيما تفعله هذه المدنية بالأرض نفسها.. فوجدت العجب العجاب.. إن هذه المدنية الآثمة تتلاعب بالأرض.. ويوشك لو استمر بها الأمر هكذا أن يحصل للأرض ما حصل للبقر من الجنون.. وحينها لن تميز بين شمالها وجنوبها وشرقها وغربها.. ولن تميز بين الشمس والمريخ.. وحينها لن تبقى الحياة على الأرض.

قالوا: أخفتنا.. ما الذي يحصل؟

قال: لقد أثبتت الدراسات أنه بالإضافة إلى التلوث البيئي، الذي يخص البيئة الطبيعية والمراكز السكنية والصناعية والمستويات العالية من التلوث البايولوجي (الفضلات العضوية) ثمة أيضا زيادة حادة في التلوث الكيميائي والفيزيائي، إذ يشمل الإنتاج الصناعي على عشرات الآلاف من المواد الكيميائية، وتضاف إليها سنويا مئات أخرى جديدة من المواد الكيميائية التي يؤدي إنتاجها واستعمالها إلى اطراد زيادة حدة التلوث. كما أن هناك تأكيدات متزايدة على خطر التلوث الفيزيائي مثل ارتفاع الحرارة (من ادفأ سنوات المائة سنة الأخيرة :1980،ـ 1981، 1983،ـ 1987،1988،ـ 1990 حدثت هذه في 11 سنة فقط) والضوضاء والإشعاع والتلوث الكهرومغناطيسي.

وأثبتت الدراسات أن تغير المناخ سوف تكون له تأثيرات مهمة على البيئة، فهناك سيناريو يتوقع ارتفاع حرارة جو الأرض 5,8 درجة مئوية في القرن الحالي بسبب التلوث وهو معدل لم تصل إليه الأرض خلال 10,000 سنة الماضية، ويتوقع ارتفاع مستوى مياه البحار نصف متر في سنة 2100 نتيجة لذوبان المياه المتجمدة، وهو أكبر من الزيادة خلال القرن الماضي.

وقد حذر علماء سويسريون في دراسة نشرت في نهاية عام 2003 بأن التغير في المناخ يهدد مناطق التزحلق على الجليد في أوروبا وشمال أمريكا واستراليا وأن مستوى الثلوج في مناطق رياضة الشتاء في أوروبا سوف ينخفض بشكل حاد في الثلاثين أو الخمسين سنة القادمة. نتائج ارتفاع مستوى مياه البحار سوف

تتمثـل في زيـادة الفيضـانات وتعريـة السـواحل وارتفـاع ملوحـة الطبقـات الصـخرية المائيـة والأنهـار وفقـدان الأراضـي الزراعيـة الساحلية ونزوح السكان وغيرها.

بالإضافة إلى هذا، فإن التربة تتعرض للاسـتنزاف، فسـنويا، يتم فقدان 50000-70000 كم2 من الأراضـي الزراعيـة الجيـدة في العـالم نتيجـة النشـاطات الإنشـائية، والتعـدين والصـيانة والتصـحر والتملح، وسنويا يصاب 1,5 مليون هكتار في الغالب من الأراضــي الجيدة بالتملح ويخرج من نطاق الإنتاج في العالم.

السلام

بعد أن ملأ صاحبنا الأمازوني آذاننـا آلامـا بمـا ينتظـر الأرض من خـراب على يـد العصـابات المجرمـة الـتي لا تعـرف إلا الصـراع، سألناه: وماذا فعلت بعد انتهاء ذلك الملتقى.. وبعـد أن سـمعت مـا سمعت مما يمتلئ القلب له ألما.

قال: لا أسـتطيع أن أصـف لكم تلـك المشـاعر المؤلمـة الـتي أصابتني.. لقد شعرت أن الأرض تحتضر.. وأن المجرمين قد أنفذوا فيها سهامهم.. وأن سهامهم يوشك أن تفعـل مفعولهـا في الأرض، فتموت، ويموت كل ما عليها من حياة.

بتلـــك المشـــاعر المتشـــائمة عـــدت إلى غـــابتي.. ونهـــري.. وحيواناتي..وأجوائي.. وقد كانت المفاجأة عظيمة إذ رأيت شاحنات ضـخمة مـزودة بأحـدث الأجهـزة تقتحم تلـك الغابـات.. ثم تـنزل بجنودها المرتزقة، وتعمـل فيهـا قطعـا وتمزيقـا.. ورأيتهم يضـعون بدل الأشجار آلاتهم التي تنشر الخراب والسموم والدمار..

أسرعت إليهم.. وصحت فيهم بكـل قـوة، لكنهم لم يـأبهوا لي، ولم يصغوا لما أقول، بل إن أحد حرسهم أسرع إلي، ومن دون أن أدري ما يحصـل هـوى إلى رأسـي بمطرقتـه.. وقـد كـان يمكن أن يكون في ذلك حتفي لولا أن الله أرسل إلي صاحبي مع إخوانه من أحباب الطبيعة، وأنقذوني من بين أيديهم.

بقيت مدة في بيت صاحبي لا أكـاد أفيـق حـتى تعـود الآلام إلي من جديد.. وقد كان يزيد في ألمي تلـك الأصـوات المزعجـة الـتي

نسمعها من تلك الشركات التي اجتمعت جميعا لتدمر الحياة في غابتنا ونهرنا.

بعد أن تماثلت للشفاء، وذات يوم من الأيام رأيته يصلي على طريقة المسلمين في صلاتهم.. لم أكن أعرف حينها المسلمين.. ولا الإسلام..

فلذلك أسرعت إليه أسأله عما يفعل، فأجابني بأنه كان يصلي، وأخبرني أنه صار مسلما منذ فترة طويلة.. ولكنه كان يكتم إيمانه.. فسألته عن سر تركه لدينه واختياره الإسلام، فقال لي: أنت تعلم أنني لا أختلف عنك في حبك لما ملأ الله به هذه الأرض من خيرات.. وتعلم مدى حرصي عليها.. ولذلك اخترت الإسلام دينا أدين به.. لأني علمت أنه دين الله الذي اختاره الله لعباده.

قلت: الأديان كثيرة.. هناك الأديان الهندية.. والصينية.. وهناك المسيحية.. وهناك اليهودية.. وهناك الأديان البدائية.. فلم اخترت الإسلام من بينها جميعا.

قال: لقد انطلقت من حبي للكون.. ولما يسميه الناس الطبيعة.. وقلت لنفسي: لا يمكن أن يكون الدين الذي يختاره الله لعباده إلا متوافقا مع هذه الطبيعة ومع هذا الكون.. فالدين الذي هو أمر الله لا يمكن أن يتناقض أو يتصارع مع خلق الله.

وما إن وضعت هذا المقياس حتى رحت أبحث في الأديان.. وفي كتبها المقدسة.. وبين رجال دينها.. فبدأت بالمسيحية.. ثم بالبوذية.. ثم باليهودية.. ولم أجد عندها جميعا ما أبحث عنه..

قلت: والإسلام !؟

قال: أصدقك القول أني لم أكن أفكر أبدا في الإسلام.. فقد كنت أسمع عنه ما جعلني أنفر منه نفورا تاما، لكن الله قدر بأن يكون الدين الذي أنفر منه هو الدين الذي أختاره وأعيش من أجله وأجعله رسالتي الكبرى في الحياة.

قلت: كيف حصل ذلك؟

قال: بينما كنت ذات يوم أسير في غابة من الغابات العذراء

إذا بي أرى رجلا وقورا يقرأ بخشوع قوله تعالى :﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم:41).. ثم يرددها، ويبكي، فاقتربت منه، وقلت: ما تقرأ؟.. وما بالك تبكي؟

قال: أقرأ كلام ربي.. وأبكلي لأفعالنا.. لقد حذرنا ربنا من الفساد العظيم الذي يشمل البر والبحر إن استرسلنا مع نفوسنا الأمارة بالسوء.. وها نحن نرى ما حذر منه يحصل لنا.

قلت: أدينكم يهتم بالكون؟.. لم أر في الأديان هذا الاهتمام.

ابتسم، وقال: عجيب هذا.. إذا لم يهتم دين الله بأكوان الله، فبم يهتم؟

قلت: الدين يصف الطقوس التي يعبد بها الإله.

قال: إن أهم الطقوس عندنا هي أن نحافظ على فطرة الله التي فطر بها الأشياء.. نحافظ على فطرة الإنسان.. وفطرة الهواء.. وفطرة الماء.. وفطرة الأصوات.. وفطرة النبات.. وفطرة الحيوان.. وفطرة الغذاء.. وفطرة الأرض.. وفطرة كل شيء.

لأن تغيير الفطرة صراع.. والله لم يخلقنا لنصارع الأشياء.. وإنما خلقنا لنستفيد منها.. أو ليستفيد بعضنا من غير صراع..

لقد قال الله تعالى يذكر لنا هذا :﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (الروم:30)

وأخبرنا أن دور الشيطان الأكبر هو تغيير الفطرة وتحريفها لينشأ من تحريفها كل أنواع الصراع، قال تعالى مخبرا عن وعيد الشيطان ومحذرا منه :﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (117) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (118) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (119) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (120)﴾ (النساء)

انظر.. كيف هدد الشيطان بتضليل العباد ودعوتهم لتغيير خلــق الله.. وها هو ينفذ وعيده.. وها نحن ننسـاق وراءه لنحـول من جنـة الله الـتي استضـافنا فيهـا مسـتنقعا من المسـتنقعات ومزبلـة من المزابل.

كــان يتكلم بتــأثر عظيم، فقلت: ولكن.. أليس من قومــك من نشر مثل هذا الخراب؟

قال: ولذلك أنا أبكي.. لو كان الأمـر من غـيرهم فقـط لهـان.. فأولئـك ليس لهم من الـدين مـا ينهـاهم عن هـذه الجـرائم.. ولكن قومي يعلمون التحذيرات الألهية الخطيرة.. بل يعلمون تفاصــيلها.. ولكن مع ذلك انساقوا وراء الشياطين، وراحــوا يخربـون ويـدمرون ما أمر الله بحفظه.

قلت: أرى أن لدينك شأنا.. فهل تأذن لي في صـحبتك لأتعـرف عليه من خلالك.

قـال: أنـا أضـعف من أن أمثـل لـك ديـني.. أنـا بشـر مخطئ مقصر.. لكني سأدلك على قوم حرصوا على أن يعيشوا الإســلام.. سر إليهم.. فسترى من خلالهم الإسلام.. وتـرى من خلالهم جميعـا تلك الشمس العظيمة التي امتلأت سلاما.. وملأت الأرض سلاما.

***

سرت كمـا طلب مـني.. فوجـدت أرضـا.. وكأنهـا غـير الأرض.. ممتلئة جمالا ونظاما وصفاء وسلاما.. لقد خيل إلي أني في الجنــة، ولست على هذه الأرض.

كان أول ما لقيت فيها رجلا سمعته يحدث صاحبه، ويقول: هــل قمت هذا الصباح بقياسات الهواء؟

قال الثاني: أجل.. وقد وجدتها بحمد الله على حسب الفطــرة الأصلية التي خلقها اللـه.. فليس هنـاك أي زيـادة، ولا أي نقصـان.. ولم يطغ فيها شيء على شيء..

قال الأول: الحمد للـه.. هـذا فضـل من اللـه.. لقـد أمرنـا اللـه بإقامة الموازين.. فقال : وَالسَّـمَاءَ رَفَعَهَـا وَوَضَـعَ الْمِـيزَانَ (7) أَلَّا

تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِـيزَانَ (9) (الرحمن)

قال الثـاني: ولكـني سـمعت أن الغلاف المحيـط بـالأرض بـدأ يتسرب إليه الطغيان..

قال الأول: كيف.. لقد قال الله تعالى : وَجَعَلْنَا السَّـمَاءَ سَـقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُـونَ) (الانبيـاء:32).. إن ذلـك الغلاف يـؤدي وظـائف ضـرورية لاسـتمرار الحيـاة، فهـو يـدمر الكثـير من النيازك الكبيرة والصغيرة، ويمنعها من السقوط على سطح الأرض وإيذاء الكائنات الحية، ولولا وجـوده لسـقطت ملايين النيـازك على الأرض جاعلة منها مكاناً غـير قابـل للعيش، ولكن خاصـية الحمايـة التي يتمتع بها هذا الغلاف سمحت للكائنات بالبقـاء آمنـة على قيـد الحياة.

وهو يحمي الأرض من برد الفضاء المجمد الذي يصل إلى 270 درجة مئوية تحت الصفر.

وهو يصفي شـعاع الضـوء الآتي من الفضـاء المـؤذي للكائنـات الحية.

وفوق ذلك هو لا يسمح إلا للإشعاعات غير الضارة مثـل الضـوء المرئي والأشعة فوق البنفسجية، وموجات الراديوا بالمرور.. وكـل هذه الإشعاعات أساسية للحياة.

فالأشعة فوق البنفسجية الـتي يسـمح بمرورهـا بشـكل جـزئي فقط عبر الغلاف الجوي ضرورية جداً لعملية التمثيل في النباتـات، ولبقاء الكائنات الحية على قيد الحياة.

أما غالبية الإشعاعات فوق البنفسـجية المركـزة، فيتم تصـفيتها من خلال طبقــة الأوزون في الغلاف الجــوي، ولا تصــل إلا كميــة محدودة وضرورية من الطيف فوق البنفسجي إلى الأرض.

قـال الثـاني: لقـد قـام المجرمـون أصـحاب البطـون الكبـيرة بإرسال بعض الغازات التي أثرت في طبقــة الأوزون.. ويوشـك أن تقتل الحياة لو استمر الأمر هكذا.

قال الأول: فهيا بنا.. لابد أن نصرخ في العـالم حـتى يكـف عن جرائمه..

سارا.. وسرت خلفهما إلى أن غابا عني ولست أدري أين غابا..

***

سرت في تلك الأرض النظيفـة الجميلـة.. فـرأيت شـيخا كبـيرا كان يخاطب ابنـه، ويقـول: يـا بـني.. يوشـك أن يـأتيني أمـر اللـه.. وأغادر هذه الدنيا كما غادرها من قبلنا.. وأنا لا أوصـيك بشـيء كمـا أوصيك بهذه الميـاه الـتي رزقنـا اللـه.. حافـظ عليهـا.. واعبـد اللـه بحفظك لها..

فقد جعـل اللـه المـاء سـر حيـاة الأرض، ولهـذا يربـط القـرآن الكـريم بين المطـر وحيـاة الأرض، فيقـول: ﴿ وَمَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَـا مِنْ كُـلِّ دَابَّةٍ ﴾ (البقرة: من الآية164)، وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَنْـزَلَ مِنَ السَّـمَاءِ مَـاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ (النحـل: 65)، وقال: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِـهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَـا لَيَقُـولُنَّ اللَّهُ قُـلِ الْحَمْـدُ لِلَّهِ بَـلْ أَكْثَـرُهُمْ لا يَعْقِلُـونَ ﴾ (العنكبـوت:63)، وقـال: ﴿ وَمِنْ آيَاتِـهِ أَنَّكَ تَـرَى الْأَرْضَ خَاشِـعَةً فَـإِذَا أَنْزَلْنَـا عَلَيْهَـا الْمَـاءَ اهْتَـزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَـا لَمُحْيِي الْمَـوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فصلت:39)، وقال: ﴿ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَـارِ وَمَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّـمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَـا بِـهِ الْأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَـا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الجاثـية:5)

نظر إلى صفحة الماء العذبة أمامه، وقال: يا بني.. لقد من الله علينـا بـأن حفـظ لنـا طهـارة الميـاه وصـلاحها، فإيـاك أن تسـمع للشياطين التي تسعى لتـدميرها وتلويثهـا.. لقـد قـال اللـه تعـالى: ﴿ أَفَـرَأَيْتُمُ الْمَـاءَ الَّذِي تَشْـرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُـوهُ مِنَ الْمُـزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ(69) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَـوْلَا تَشْـكُرُونَ (70) ﴾ (سورة الواقعة)، وقـال: ﴿ وَهُـوَ الَّذِي أَرْسَـلَ الرِّيَـاحَ بُشْـراً بَيْنَ يَـدَيْ رَحْمَتِـهِ وَأَنْزَلْنَـا مِنَ السَّـمَاءِ مَـاءً طَهُـوراً ﴾ (الفرقـان:48)، وقـال: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً ﴾ (الفرقان: من الآية48)، وقال: ﴿ إِذْ يُغَشِّـيكُمُ النُّعَـاسَ أَمَنَـةً مِنْـهُ وَيُنَـزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّـمَاءِ مَـاءً

لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (لأنفال:11)

وكان ﷺ إِذَا شَرِبَ الْمَاء قَالَ:(الْحَمْد لِلَّهِ الَّذِي سَقَانَا عَذْبًا فُرَاتًا بِرَحْمَتِهِ وَلَمْ يَجْعَلهُ مِلْحًا أُجَاجًا بِذُنُوبِنَا)(1)

انظر كيف أرجع ﷺ تغير الماء إلى الذنوب.. وانظر إلى هذا العالم الذي أعماه الطمع.. فراح يصارع فطرة الله في الماء، فيجعل من سبب الحياة سببا للموت، ويجعل من ذلك الماء العذب الفرات سموما ومستنقعات.

اسمع للنبي ﷺ وهو ينهانا عن إيصال أي أذى للمياه.. لقد نهى ﷺ عن البول في الماء الراكد(2)، وقال:(لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه)(3) بل ورد الأمر مطلقا، فقال ﷺ:(لا يبولن أحدكم في الماء الراكد)(4)

ونهاها ﷺ عن النفخ في الشراب، فقال:(إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء، وإذا أتى الخلاء فلا يمس ذكره بيمينه ولا يتمسح بيمينه)(5)، وقال:(إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء، فإذا أراد أن يعود فلينح الإناء ثم ليعد إن كان يريده)(6)، وعندما قال له رجل معقبا على هذا النهي: القذاة أراها في الإناء قال له ﷺ:

1() ابن أبي حاتم.

2() والفائدة الصحية لهذا أن الماء الراكد يعتبر جوا ملائما لنمو الكثير من البكتريا كالكوليرا والسالمونيلا والشيجلا والليبتوسبايرا وغيرها.

زيادة على أن كثيرا من الديدان كالزحار الأميبي والديدان المستديرة والبلهارسيا تحتاج لإكمال دورة حياتها خارج جسم الإنسان، ويساعد التبول والتبرز على نمو هذه الديدان وسرعة تكاثرها وانتشارها.

3() البخاري ومسلم.

4() ابن ماجه.

5() البخاري والترمذي.

6() ابن ماجه.

(أهرقها)(1)

سكت قليلا، ثم قال: وإياك يا بني أن تغتر بكثرة ما رزقنا الله من المياه، فتعبث بها.. فإنه لا يضر النعمة شيء كما يضرها الإسراف.. لقد قال تعالى يحذرنا من الإسراف : يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) (لأعراف:31)

***

تركته ينصح ابنه، وسرت في تلك البلدة الجميلة.. وقد امتلأت إعجابا بذلك الهدوء الذي يعمها مع أنها كانت ممتلئة بكل معاني الحياة.. وبينما أنا أسير إذا بي أرى جمعا ملتفا حول رجل يقرأ قوله تعالى : وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هوناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً ﴾(الفرقان:63)

ثم رأيت شيخا وقورا يفسر الآية، وبعد أن فسرها، سأله بعضهم، وقال: ما سر هذا الاقتران الوارد في الآية بين المشية الهينة وخطاب السلام؟

قال الشيخ: أنتم تعلمون ما ورد في الشريعة من الشرائع الناهية عن كل تلوث صوتي مزعج.. وهذا من هذا الباب.. فللتلوث الصوتي مصدران: الأصوات والحركات، فالأصوات يمثلها الكلام، والحركات يمثلها المشي.. فلذلك جمعت الآية بينهما.

قال رجل من الحاضرين: صدقت فهناك من يمشي، فتندك الأرض من تحت قدميه، وهناك من يمشي خفيفا لينا لا تشعر به الأرض، ولا يتأذى به من حوله.

قال الشيخ: ولهذا وصف الله تعالى مشية الصالحين بالهون(2)والقصد(3)، وقد سمع النبي ﷺ جلبة خارج المسجد فقال:(ما شأنكم؟)، قالوا:(استعجلنا إلى الصلاة)، فقال:(لا

(1) الترمذي، وقال:حديث حسن صحيح

(2) أي بسكينة ووقار من غير تجبر ولا استكبار، كما قال رسول اللّه ﷺ:إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة فما أدركتم منها فصلوا وما فاتكم فأتموا »

تفعلوا، إذا أتيتم الصلاة فعليكم بالسكينة، فما أدركتم فصلوا، وما سبقكم فأتموا)(1)

قال السائل: عرفنا الأول.. فما الثاني، ولم ورد التعبير عنه بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً ﴾(الفرقان:63)؟

قال الشيخ:: لقد ذكر تعالى ــ بالنسبة للصوت ــ أمرين: أما الأول، فهو تسليم عباد الرحمن على الجاهلين وإعراضهم عنهم، وأما الثاني، فهو الأمر بغض الصوت.

وهذان هما مصدرا الضجيج في الأصوات، فالأول يسد ذرائع الصخب والخصام، لأن أساس الضجيج هو الخصام.

وأما الثاني، فتشير إليه كل النصوص التي تنهى عن رفع الصوت فوق ما يحتاج إليه، كقوله تعالى يذكر فضل غض الصوت : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أو لَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (الحجرات:3)

ويعيب على غيرهم من الغلاظ، فيقول:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾(الحجرات:4)

ولهذا نهى الشرع عن كل ما يسبب الضجة والصخب ورفع الصوت في كل أنواع العبادات في مجتمع الإسلام(2).. وعندما أراد رسول الله ﷺ اختيار طريقة لتبليغ الناس دخول وقت الصلاة استشار أصحابه في ذلك، ورفض اقتراحات بعضهم باستعمال الناقوس أو الطبول أو الأجراس، واختار الأذان بصوت الإنسان، لأنه أدعى إلى الهدوء والسكينة والبعد عن الصخب، وطلب تلقينه

3() وهو أن يمشي مقتصداً مشياً ليس بالبطيء المتثبط، ولا بالسريع المفرط بل عدلاً وسطاً بين بين.

1() البخاري.

2() ومن المراجع التي يمكن الاستفادة منها في هذا: د. محمد خالد سلطان: (الطب والشريعة) رسالة جامعية دمشق 1985، د. أحمد شوقي الفنجري: (الطب الوقائي في الإسلام) الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. محمد المصري وآخرون: مقالة (مخاطر التعرض للضجيج والأصوات العالية) المجلة الطبية العربية دمشق ع 137 كانون 1، 1997، الصيدلي عمر محمود عبد الله: (الطب الوقائي في الإسلام) الدوحة 1990. وبحث للدكتور محمد نزار الدقر.

بلالاً لأدائه لأنه أندى صوتاً!

وعند أداء المسلم لصلاته أمره الشارع ألا يرفع صوته بأكثر من المطلوب وفي حد متوسط مقبول، كما قال تعالى:﴿ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾(الاسراء: من الآية110)

وهذا يسري في كل شيء، فقد ورد النهي عن رفع الصوت أكثر من حاجة المستمعين، قال ﷺ:(يا أيها الناس: أربعوا(1)على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، إنكم تدعون سميعا قريبا، وهو معكم)(2)

وقد نهى النبي ﷺ عن رفع الصوت أثناء تلاوة القرآن في المساجد، لئلا يؤثر بعضهم على قراءة البعض الآخر، فقال ﷺ:(إن أحدكم إذا قام إلى الصلاة فإنه يناجي ربه فليعلم أحدكم ما يناجي ربه، ولا يجهر بعضكم على بعض في الصلاة)(3)، وقال ﷺ:(إذا كان أحدكم في صلاته فإنه يناجي ربه فلينظر أحدكم ما يقول في صلاته ولا ترفعوا أصواتكم فتؤذوا المؤمنين)(4)

***

تركت الشيخ، والجماعة الملتفة حوله، وسرت.. ولم أسر إلا قليلا حتى رأيت شيخا كبيرا قد أعيته الأيام، ومع ذلك رأيته يحمل فأسه، ثم يحفر حفرة، ثم يضع في محلها شجيرة بجهد وعناء، فاقتربت منه، وقلت: أفي هذا السن تحمل الفأس؟

قال: وما لي لا أحملها.. إني لا أريد أن ألقى الله إلا وفي يدي من آثار العمل ما يقربني إليه.

قلت: أليس لك من الولد من يقوم بدلك بهذا؟

1() اربعوا بهمزة الوصل في أوله وسكون الراء وفتح الباء ومعناه: ترك الشيء والمعنى هنا: ارفقوا بها.

2() البخاري ومسلم.

3() الطبراني وأحمد.

4() البغوي.

قال: وهل يستطيع ولدي أن يصلي بدلي؟

قلت: تلك الصلاة.. وهذا العمل؟

قال: كلاهما بالنسبة إلي صلاة.. بل إن هذا الذي أفعله إذا حسنت فيه النية، سيكون له من الأجور ما لا يمكن تصوره.. اسمع لما يقول رسول الله ﷺ.. لقد قال: (ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة)(1).. انظر ما يحمله هذا الحديث من ترغيب..

بل إنه ﷺ قال لنا: (إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا تقوم الساعة حتى يغرسها فليغرسها)(2)

وقال :(من نصب شجرة، فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر، فإن له في كل شيء يصاب من ثمرها صدقة عند الله عز وجل)(3)

لقد كانت هذه النصوص وغيرها كثير هي الحادي الذي جعل المؤمنين يتقربون إلى الله باستنبات النبات وعمارة الأرض بفضل.. لقد روى أن رجلاً مر بأبي الدرداء وهو يغرس جوزة، فقال: أتغرس هذه وأنت شيخ كبير وهي لا تثمر إلا في كذا وكذا عاما، فقال أبو الدرداء: (ما علي أن يكون لي أجرها ويأكل منها غيري؟)

ومع هذا كله، فإن نبينا ﷺ نهانا أن نقطع الأشجار إلا للضرورة الشديدة.. ففي الحديث:(من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار)(4)

قاطعته قائلا: أمن الضرورات الحروب.. ففي الحروب عندنا تحرق الغابات، وتقتل الحياة.

1() رواه البخاري.

2() رواه البخاري في الأدب المفرد وأحمد.

3()رواه أحمد.

4() رواه أبو داود.

قال: لا.. حتى في الحروب.. لقد كان ﷺ يوصي أصحابه أن لا يحاربوا إلا من حاربهم.. وبما أن الأشجار لا تحارب، فلا يحق لأحد أن يحاربها.. لقد كان ﷺ يوصي أصحابه في الحرب، ويقول لهم: (ولا تعقرن شجراً قد أثمر، ولا تحرقن نخلاً، ولا تقطعنّ كرماً)(1)

بل إن القرآن الكريم اعتبر إتلاف الحرث من الإفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ (البقرة:205)

***

تركت الشيخ مع فأسه وشجيراته وسرت، فوجدت رجلا يحمل على بهيمة بعض المتاع، ثم ينظر إليها كل حين، فاقتربت منه، وسألته عن سر تصرفه هذا، فقال: أنا أعرف دابتي.. وأعرف الطاقة التي تستطيع تحملها، فلذلك تعودت أن أنظر إلى وجهها لأرى مدى تحملها.

قلت: أنت رجل رقيق القلب.

قال: كل مسلم ينبغي كذلك.. وإلا فسينال من عذاب الله ما يعيد لقلبه رقته.

قلت: وما علاقة العذاب بهذا؟

قال: لقد حذرنا رسول الله ﷺ تحذيرا شديدا من تعذيب الحيوان أو إرهاقه.. بل إنه ﷺ علمنا كيفية وضع الحمل عليها، مما يكون عونًا لها على السير، وتخصيص كل دابة بما تطيقه، والمبادرة لحلِّ الرِّحال عن النزول عنها، وتقديم علفها على أكل صاحبها، وكذا المبادرة إلى سقيها، كل ذلك شفقة عليها وإبقاء لها(2)، ففي الحديث قال رسول الله ﷺ:(أَخِّروا الأحمال، فإنَّ اليدَ مُغْلقةٌ، والرِّجْلَ مُوثَقَة)(3)

---

(1) رواه محمد بن الحسن.

(2) انظر في هذا: تحرير الجواب عن ضرب الدَّواب، للشيخ العلامة محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي (831-902)

(3) رواه الطبراني والبزار وغيرهما.

وقال ﷺ:(إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منـابر، فـإن اللـه عـز وجل إنما سـخَّرها لكم لتُبْلغكم إلى بلـد لم تكونـوا بالغيـه إلا بشـق الأنفس، وجعـل لكم الأرض، فعليهـا فاقضـوا حـاجتكم)(1)، وفي روايــة قــال رســو ل اللــه ﷺ:(اركبــوا هــذه الــدواب ســالمة، وابتدعوها(2) سالمة، ولا تتخذوها كراسي)(3)

وفي روايـة أنـه ﷺ مـرَّ على دوابٍّ لهم ورواحـل، وهم وقـوف، فقال النبي ﷺ:(اركبوها سالمة، وانزلوا عنهـا سـالمة، ولا تتخـذوها كراسي لأحاديثكم ومجالسكم، فرُب مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكرًا لله عز وجل)(4)

ومما يدخل في هذا البـاب مـا ورد من النهي عن ركـوب ثلاثـة في آن واحد، ففي الحديث عن جابر قال:(نهى رسول اللـه ﷺ أن يركب ثلاثة على دابة)(5)، وفي رواية أبي سعيد:(لا يـركب الدابـة فوق اثنين)

وفي حديث آخر: أنه رأى ثلاثة على بغل، فقال: ليـنزل أحـدكم فإن رسول الله ﷺ لعن الثالث(6).

بل ورد مـا هـو أخطـر من ذلـك، ففي الحـديث: إذا رأيتم ثلاثـة على دابة فارجموهم حتى ينزل أحدهم)(7)

1() رواه أبو داود.

2() أي: اتركوهـا ورفهـوا عنهـا إذا لم تحتـاجوا إلى ركوبهـا. وهـو (افتعـل) من وَدُع – بالضم- وَدَاعة وَدَعة؛ أي: سكن وترفه، النهاية: 5/166.

3() رواه ابن خزيمة، والحاكم، وابن حبان، في «صحاحهم» وغيرهم.

4() رواه ابن خزيمة، وابن حبان وغيرهما، وهذا كلـه عنـد انتفـاء الحاجـة، أمـا عنـدها وللضرورة، فلا حـرج، وقـد ورد في حـديث جـابر في صـفة النـبي ﷺ:(ثم ركب ﷺ ناقتـه القصواء حتى أتى الموقف بعرفة، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل حَبْـلَ المشاة بين يديه، واستقبل البيت، فلم يزل يدعو حـتى غـربت الشـمس وذهبت الصـفرة قليلًا، ثم دفع رسول الله ص، وأردف أسامة خلفه)(رواه البخاري ومسلم)

5() رواه الطبراني في الأوسط.

6() رواه ابن أبي شيبة من مرسل زاذان.

قلت: ولكني لم أر في هذه النصوص أي تهديد بعذاب الله.

قال: إن الله أرسل رسوله لنا لنطيعه ونلتزم أوامره.. وإلا فإن العذاب الشديد لمن عصاه.. وقد ورد في الحديث:(عذبت امرأة في هرة لم تطعمها ولم تسقها، ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض)(1)

وصور ﷺ ذلك تصويرا مخيفا، فقال:(دنت مني النار حتى قلت: أي رب وأنا معهم، فإذا امرأة حسبت أنه قال: تخدشها هرة: قال ما شأن هذه؟ قالوا: حبستها حتى ماتت جوعا)(2)

ومثل ذلك من عذل الحيوان المثلة _ وهي قطع أطراف الحيوان _ ففي الحديث أن النبي ﷺ مرّ على حمار قد وسم في وجهه فقال:(لعن الله الذي وسمه)(3)، وفي رواية له:(نهى رسول الله ﷺ عن الضرب في الوجه وعن الوسم في الوجه)

وفي حديث آخر، قال ﷺ:(من قتل عصفورا عبثاً عجّ إلى الله يوم القيامة يقول: يا رب إن فلانا قتلني عبثاً ولم يقتلني منفعة)(4)

وقد روي عن عبد الله بن عمر أنه مرّ بفتيان من قريش طيرا

7() رواه الطبراني، وقد حمل الفقهاء هذه النصوص على ما إذا كانت الدابة غير مطيقة للثلاثة، فإن أطاقتهم جاز. قال ابن حجر في فتح الباري (12/520):(يحمل ما ورد في الزجر من ذلك على ما إذا كانت الدابة غير مطيقة كالحمار مثلا، وعكسه على عكسه كالناقة والبغلة)

وقال النووي في شرح مسلم (9/135):(مذهبنا ومذهب العلماء كافة جواز ركوب ثلاثة على دابة إذا كانت مطيقة)

وحكى القاضي عياض منعه عن بعضهم مطلقاً، وقال ابن حجر:(لم يصرح أحد بالجواز مع العجز)

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه البخاري.

3() رواه مسلم.

4() رواه النسائي وابن حبان في صحيحه.

ًأو دجاجـة يترامونهـا، وقـد جعلـوا لصـاحب الطـير كـل خاطئـة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقـال ابن عمـر: من فعـل هـذا؟ لعن الله من فعل هذا، إن رسول الله ﷺ لعن من اتخـذ شـيئا ًفيـه الروح غرضا(1).

قلت: أليس في دينكم إلا العـــذاب واللعن؟.. أليس هنـــاك في المقابل جزاء لمن أحسن إلى الحيوانات؟

قال: اعذرني.. لقد اكتفيت بجوابك.. ولم أذكر لك مـا ورد في فضل الرحمة بالكائنات.. لقد ورد في نصوصنا المقدسة ما يـرغب في الجزاء الذي أعد للتعامل المسالم مع الكائنات، وما يرهب في نفس الوقت من التعامل معها كما يتعامل معها المصارعون:

فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال:(إني أنـزع في حوضـي حتى إذا ملأته لأهلي ورد علي البعير لغيري فسـقيته، فهـل لي في ذلك من أجر، فقال رسول الله ﷺ:(في كـل ذات كبـد حـرى أجـر) (2)

وعن محمود بن الربيع أن سراقة بن جعثم قال: يـا رسـول إن الضالة ترد على حوضي فهل لي فيهـا من أجـر إن سـقيتها؟ قـال: (أسقها، فإن في كل ذات كبد حراء أجرا ً)(3)

وفي حـديث آخـر قـال رسـول اللـه ﷺ:(بينمـا رجـل يمشـي بطريق اشتد عليه الحر، فوجد بئرا ًفـنزل فيهـا فشـرب، ثم خـرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البـئر فملأ خفـه ماء، ثم أمسكه بفيـه حـتى رقي، فسـقى الكلب، فشـكر اللـه لـه، فغفرله، قالوا:يا رسول الله إن لنـا في البهـائم أجـرا ً؟ فقـال: في كل كبد رطبة أجر)(4)

وأخبر ﷺ أن الله تعالى غفر لامرأة مومسـة مـرت بكلب يلهث

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه أحمد.

3() رواه ابن حبان في صحيحه، ورواه ابن ماجة والبيهقي.

كاد يقتله العطش، فنزعت خفها، فأوثقته بخمارها، فنزعت لــه من الماء فغفر لها بذلك(1).

وفي حديث آخر، أن رسول الله ﷺ قال:(الخيل لثلاثـة: لرجـل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر. فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال في مـرج أو روضـة فمـا أصـابت في طلبهـا ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفا أو شرفين كانت أرواؤهـا وأثارهـا حسـنات لـه، ولـو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقيها كان ذلـك حسـنات له..)(2)

تركتـــه، وســـرت، فســـمعت رجلا يتحـــدث عن الحيوانـــات المنقرضة، وكأنه يبكيها ويندبها، ومما سمعته منـه قولـه في تعليـل تحـــريم الإســـلام لبعض أنـــواع الحيوانـــات(3) :.. ولـــذلك وردت النصوص بإباحة الحيوانـات الـتي يكـثر وجودهـا أو يسـهل تنميتهـا، بخلاف الحيوانات التي يندر وجودها.

وكأنها ـ من خلال هذا التسيير ـ تـدعو إلى الاستعاضـة بهـا عن الحيوانات المحرمة حفاظا على البيئة، بل إن القرآن الكريم يصف من محاسن الحيوانـات البحريـة مـا يـرغب في أكلهـا، قـال تعـالى ممتنا على عباده:﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْـرَ لِتَـأْكُلُوا مِنْـهُ لَحْمـاً طَرِيّـاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَـوَاخِرَ فِيـهِ وَلِتَبْتَغُـوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (النحل:14)

فالآية الكريم تصف لحم الحيوانات البحرية بكونه طريا، وكأنهـا بذلك تثير الشهية إلى طلبه والرغبة فيه.

وفي آية أخرى تخص صيد البحر بالإباحة، وفي ذلك إشارة أيضا

4() رواه مالك، والبخاري، ومسلم، وأبـو داود، وابن حبـان في صـحيحه إلا أنـه قـال: فشكر الله له فأدخله الجنة.

1() رواه مسلم.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() اقتبسنا هذا النص من رسالة (أكوان الله) من سلسلة (عيون الحقائق)

إلى الترغيب في التمتع بنعم الله في البحـر، ليحصـل التـوازن بين البر والبحر، ويحفظ التنوع في كليهما، قال تعالى: أُحِـلَّ لَكُمْ صَـيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُـرِّمَ عَلَيْكُمْ صَـيْدُ الْبَـرِّ مَـا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (المائدة:96)

***

أحسسـت ببعض الجـوع، فـذهبت إلى مطعم قـريب.. وطلبت طعامـا من أطعمـة هـذه الحضـارة، فـرأيت صـاحب المطعم لا يعرفـه.. طلبت آخـر.. فلم يعرفـه.. فسـألته متعجبـا: فلم فتحت المطعم إذن.. ما دمت لا تعرف هذه الأنواع من الأغذية؟

قال: فتحته لإطعام الناس مقابل ما يرزقـني اللـه بواسـطتهم من رزق.

قلت: مـا دمت قـد نـويت هـذه النيـة.. فلم لم تحضـر لهم من الطعـام الطيب مـا يجعلهم يرغبـون في ملء خزائنـك بالـذهب والفضة؟

قـال: الطعـام الطيب عنـدنا هـو الحلال الـذي لم يخـرج عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

قلت: أللطعام فطرة؟

قال: أجل.. لقد جعـل اللـه لكـل شـيء فطرتـه الخاصـة بـه.. ونحن نصـارعه إن أخرجنـاه عن فطرتـه.. لقـد قـال اللـه تعـالى : فَأَقِمْ وَجْهَـكَ لِلـدِّينِ حَنِيفـاً فِطْـرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَـرَ النَّاسَ عَلَيْهَـا لا تَبْـدِيلَ لِخَلْـقِ اللَّهِ ذَلِـكَ الـدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُـونَ) (الروم:30)

وقـد ذكـر اللـه الطعـام وطلب منـا أن نحافـظ على أصـالته، فقال : أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِـهَا قَـالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَـهُ قَـالَ كَمْ لَبِثْتَ قَـالَ لَبِثْتُ يَوْمـاً أَوْ بَعْضَ يَـوْمٍ قَـالَ بَـلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَـامٍ فَـانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُـرْ إِلَى حِمَـارِكَ وَلِنَجْعَلَـكَ آيَـةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمـاً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَـهُ قَـالَ

أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (البقرة:259)

قلت: هذه قصة.. فكيف اكتشفت منها ما اكتشفت؟

قال: ما دام الله قد حفظ للرجل طيلة تلك السنين الطوال ـ بمعجزة ـ طعامه.. فإن ذلك يعني أن الطعام لا يصح أكله إلا طيبا لم يتسنه.

قلت: ولكني لم أطلب منك أطعمة قد تسنهت؟

قال: إن الأطعمة التي تخرج عن فطرة الله تولد متسنهة.. فلذلك نحن لا ندخل بطوننا إلا الطعام الذي بقي على فطرته.

قلت: ألا تسمعون بالهندسة الوراثية؟

قال: نحن نسمع بهندسة كل شيء إلا الهندسة التي تغير فطرة الله في الأشياء.. فهذه لا نسمع بها.

قلت: فأعطني من الطعام الطيب الذي لم يتسنه ما أملأ به بطني.

قال: سأعطيك ما يكفيك ويمتعك.

***

بعد أن سددت جوعي بأطيب طعام ذقته في حياتي سمعت نداء الصلاة.. فرأيت الناس جميعا يهرعون إليها، فأسرعت حيث يهرعون.. ودخلت أول مرة في حياتي المسجد.. وهناك رأيت خطيبا يقف على المنبر يحدث الناس عن الأرض وعن حفظ الأرض، وعن السلام مع الأرض، وكان مما سمعته قوله :(انظروا ـ أيها المؤمنون ـ كيف قدم الله تعالى الإفساد في الأرض على سفك الدماء في هذه الآية الكريمة.. قال تعالى : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (البقرة:30)

انظروا كيف عاتب صالح قومه عندما تركوا ما جعل الله لهم من المساكن السهلة، وراحوا ينحتون الجبال التي ما خلقها الله

للسكن(1).. قال تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (145) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (150) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (152) (الشعراء)

وانظروا كيف عاتب شعيب قومه على إفسادهم في الأرض، قال تعالى : وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86)

وانظروا هذا الوعيد الشديد الذي أخبر الله بأنه كتبه في كتب بني إسرائيل، قال تعالى : مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (32) (الأعراف)

وانظروا هذه العقوبة الشديدة التي شرعها الله لأمة محمد ﷺ لمن يفسد منهم في الأرض، قال تعالى : إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (33) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (34) (الأعراف)

تدبروا كل هذه الآيات وتمعنوا فيها لتعلموا أن الله تعالى ائتمننا على هذه الأرض.. ائتمننا عليها لنحفظها ونحافظ عليها.

1() روي في التفسير أنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشرًا وبطرًا وعبثًا، من غير حاجة إلى سكناها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها.

هل يرضى أحدكم أن يدخل بعض الناس بيته، فيروح ذلك الضيف يفسد، ويخرب، ويحطم.. هل ترضون لبيوتكم أن تقلب رأسا على عقب..

قالوا جميعا: لا.. ولا كرامة لمن خرب وأفسد.

قال: فبيت الله هو هذه الأرض.. ونحن ضيوف فيها.. وليس على الضيف إلا أن يحفظ دار ضيفه.

ومن لم يحفظها، فلن يكون جزاؤه إلا ما أخبر الله عنه من نبأ الأمم السابقة..

لقد ذكر الله نبأ سبأ.. لاشك أنكم تعرفونها..

قال رجل من الجمع: أجل.. ومن لا تعرف حضارة سبأ.. فهي حضارة راقية، وقد كانت لها من الجنات ما تنبهر له الأبصار، كما قال تعالى يصفها : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ (سبأ:15)

قال الخطيب: ولكنهم بإعراضهم عن الله وانحرافهم عن سبيله أدركتهم سنة الله فيمن حاد عن الله، قال تعالى يبين الحال التي انتقلوا إليها، وسببها :﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ (سبأ:16)، فهذا الذي صار إليه أمر تينك الجنتين إليه بعد كفرهم وشركهم بالله وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل، فبعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة والظلال العميقة والأنهار الجارية تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل.

قال رجل من الجمع: إن قومنا الآن يتيهون.. ويعتبرون حضارة السبأيين بدائية بالنسبة لما وصلت إليه حضارتهم.

قال الخطيب: القرآن الكريم يعمم نموذج سبأ على كل القرى والحضارات والأمم التي انحرفت عن سبيل الله، قال تعالى يبين سنته في ذلك :﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ

مَسَـــاكِنُهُمْ لَمْ تُسْـــكَنْ مِنْ بَعْـــدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْـــوَارِثِينَ (القصص:58)، وقال : أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُـرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهَى (طه:128)، وقــال : وَعَــاداً وَثَمُــودَ وَقَــدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَــاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّــيْطَانُ أَعْمَــالَهُمْ فَصَــدَّهُمْ عَنِ السَّــبِيلِ وَكَـانُوا مُسْتَبْصِــرِينَ (العنكبـوت:38)، وقـال: أو لَمْ يَهْـدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَـا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُـونَ فِي مَسَـاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيـاتٍ أَفَلا يَسْـمَعُونَ (السجدة:26)

جلس الخطيب جلسـة خفيفـة، ثم قـام يقـول: فاحـذروا أيهـا المؤمنـون من أن تضيعوا أمانـة الأرض الـتي أمـر اللـه بحفظهـا.. وإياكم أن تدب إليكم أدواء الأمم من حولكم.. أولئك الذي يخربـون الأرض، ويقتلون الحياة، ويغيرون خلق الله، ويصارعون فطرة الله.

قال رجـل من الجمـع: ولكن الحضـارة قـد تسـتدعي بعض مـا ذكرت.

قال الخطيب: كل حضـارة خـربت الحيـاة وبـدلت الفطـرة داء وتخلف..

قال الرجل: لقد عشت في تلـك القـرى.. ورأيت أن الضـرورة تستدعي ما يتصرفون فيه.

قال الخطيب متوجها للسـائل: أفي إمكـان تلـك العقـول الـتي استطاعت أن توفر جميع المرافق وجميع أنـواع الرفـاه أن تخـترع للأرض ما يحفظ لها سلامها؟

قال الرجل: أجل.

قال الخطيب: فلم لم تفعل؟

قال الرجل: إن ذلك يستدعي مصاريف ضخمة وأموالا كثيرة.

قـال الخطيب: لقـد ذكـرت لـك أن أولئـك لا يفكـرون إلا في جيوبهم وخزائنهم، ولذلك لا يهمهم في سبيل دينار زائـد أن يخربـوا كـل شـيء.. إن أولئـك لا يختلفـون عن عـاد وعن ثمـود وعن كـل القرى التي ذكرها الله.

قال ذلك، ثم قام للصلاة، وقمت معهم، وكانت أول مرة أصلي فيها في حياتي.. ومنذ ذلك اليوم وأنا أحمد الله على نعمة الإســلام دين السلام.

***

قلنا: لقد حدثتنا عن إسلام صاحبك، فهل أسلمت أنت؟

قـال: لا.. وقـد كنت قريبـا من الإســلام.. لكن اللــه شـاء أن يفارقني صاحبي إلى هذه البلاد قبل أن أقتنع اقتناعا كليا بالإسلام.. فالدين ـ كما أرى ـ ليس من السهولة البت فيه.

قلنا: إلى أين ذهب صاحبك هذا؟

قال: لقد جاء إلى هذه البلاد.. وقد ذكر لي قبل مجيئه أن فتنـة تريد أن تقضي على الفئة التي يحفظ الله بها أرضه.. ولـذلك تـرك أشجاره وأنهاره وجاء إلى هذه البلاد.. وجئت على أثره أبحث عنـه، وقد شاء الله أن أموت دون لقائه.

عاشرا ـ الله

في اليوم العاشر، قام رجل منا، وقال: سأحدثكم اليوم أنـا عن حديثي.. ربما كان هو أهم الأحاديث وأشرفها وأولاها بإطالـة الكلام فيـه.. ولكـني مـع ذلـك لن أطيـل عليكم.. سـأترك لكم الـوقت الكافي.. وأترك لنفسي كذلك الوقت الكافي لنستقبل فيه المـوت الذي ينتظرنا في أي لحظة من لحظات هذا اليوم(1).

في البدايـة أذكـر لكم أني امـرؤ عـاش يحلم بـالتعرف على المبدع العظيم الذي أبدع هذا الكون.. فلم يكن يرتـاح لي بـال، ولا يهدأ لي خاطر إلا بالأحاديث عنه وفيه.

ولكني مع تلـك الهمـة كنت لا أقـع إلا في أيـدي قطـاع الطـرق الذين يملأون عقلي بالأوهام والخرافات والصراع.

وكنت ضعيفا مستسلما أمامهم.. فلا أجد في قلبي ولا عقلي إلا ما ينقشونه بفؤوسهم ومعاولهم..

وكنت أتعذب لذلك كثيرا.. بل وصل بي الأمر إلى ما وصل بكم من الإقدام على الانتحار.. ولولا أن قيض الله لي من النور والسلام والصفاء من أنقذني لكنت الآن في عداد المـوتى.. وقـد شـاء اللـه الذي لا راد لمشيئته أن يكون سبب حياتي هو نفسه سبب مـوتي.. وأنا راض بذلك مستلم له.. ولكني مع ذلك متألم لأن عقلي وقلـبي لم يصل إلى مراده بعد.

الصراع

قلنا: حدثنا عن أول شأنك.

الخرافة:

قال: في البداية كنت امرؤا ضمتني قبائل كثيرة من **القبائل البدائية**.. كلها لم تكن تلقنني إلا الخرافة..

---

(1) اختصرنا الكلام في هذا الفصل، لأن هناك رسـالة مطولـة خاصـة بهـذا الموضـوع هي رسالة (الباحثون عن الله) من هذه السلسلة.

وكنت بحكم طبيعتي المستسلمة التي ذكرتها لكم أسمع وأطيع.. وفوق ذلك كله ومعه أتعذب.. فلم يكن للخرافة أن تنشئ في نفسك ولا في عقلك سلاما.

قلنا: حدثنا عن هذه الفترة من حياتك.

ابتسم، وقال: هي فترة أقرب إلى الجنون منها إلى العقل.. ماذا سأحدثكم عنها؟

قال ذلك، ثم غرق في صمت عميق قطعه بقوله: في البداية كنت فردا من قبيلة متعددة الفروع كانت تستوطن أستراليا وأفريقية والأمريكتين وبعض أقطار القارة الآسيوية وجزائرها(1).

وكنا نتخذ لأنفسنا في تلك القبائل حيوانا نجعله طوطما، ونعتبره أبا لنا، أو نزعم أن أبانا الأعلي قد حل فيه، وقد يكون الطوطم في بعض الحالات نباتا أو حجرا نقدسه كتقديس الأنصاب.

وكان في عرفنا أن القبيلة إذا اتخذت طوطما لها حرمت قتله وأكله في أكثر الأحوال.. وحرمت الزواج بين الذكور والإناث الذين ينتمون إلي ذلك الطوطم ولو من بعيد.. وقد يكون للقبيلة الكبري بطون متفرقة تتعدد طواطمها، ويجوز الزواج بين المنتمين إليها، ولكنهم يحرمونه في الطوطم الكبير.

قلنا: فقد كانت لكم آلهة متعددة إذن؟

ابتسم، وقال: آلهة كثيرة جدا.. وكنا متشردين في وسطها لا نرضي أحدها إلا بسخط الآخر..

لقد كان من آلهتنا أرباب الطبيعة، أو الأرباب التي تتمثل فيها مشاهد الطبيعة وقواها كالرعد والبرق والمطر والفجر والظلام والينابيع والبحار والشمس والقمر والسماء والربيع.

1() استفدنا الكثير من المعلومات التاريخية المرتبطة بهذا من كتاب (الله) لعباس محمود العقاد.

وكان منها أرباب إنسانية، وهي الأرباب التي تقترن بأسماء الأبطال والقادة المحبوبين والمرهوبين، ممن نحسبهم من القادرين علي الخوارق والمعجزات.

وكان منها أرباب الأسرة، وهم الأسلاف الغابرون، يعبدهم أبناؤهم وأحفادهم ويحيون ذكراهم بالحفلات والمواسم المشهودة.

وكان منها أرباب المعاني، كرب العشق ورب الحرب ورب الصيد ورب العدل ورب الإحسان ورب السلام.

وكان منها أرباب البيت كرب الموقد ورب البئر ورب الطعام.

وكان منها أرباب النسل والخصب وهي علي الأغلب الأعم في صورة الإناث، وكنا نسميها بالأمهات الخالدات، وقد ترقت مع الزمن إلي واهبات الخلود بعد هبة الحياة.

وكان منها آلهة الخلق التي ننسب إليها خلق السماوات والأرض والإنسان والحيوان.

وكان منها الآلهة العليا، وهي آلهة الخلق التي تدين عبادتها بشرائع الخير وتحاسبهم عليها وتجمع المثل العليا للمحاسن والأخلاق، وتضمن السعادة الأبدية للأرواح في عالم البقاء.

قلنا: فهل انتهت رحلتك عند هذا الحد؟

قال: لقد بدأت رحلتي بهذا.. ولم تنته به.

قلنا: فحدثنا.

قال: قال: لقد قدر الله لي أن أرحل إلى بلاد **اليونان** في فترة كانت فيها ممتلئة بالأفكار المطعمة بالخرافات.

قلنا: فما رأيت؟

قال: لقد وجدتها في تلك العهود السحيقة ممتلئة بجميع أنواع

العقائـد البدائيـة قبـل أربـاب (الأوليمب) الـذين خلـدوا في أشـعار هومير وهزيود.. لقد عبدوا الأسلاف والطـواطم ومظـاهر الطبيعـة وأعضــاء التناســل ومزجــوا العبــادات جميعــا بطلاســم الســحر والشعوذة.. واستمدوا من جزيرة (كريت) عبـادة النيـازك وحجـارة الرواســب الــتي شـاعت بيت أهــل الجزيــرة من أقــدم عصــورها البركانيـة.. فرمـزوا بهـا إلي أربـاب الـبراكين والعـوالم السـلفية.. واتخذها بعضهم (طوطم) ينتسبون إليها انتساب الأبناء إلي الآباء.

لقد كان أرباب الأوليمب في مبدأ أمـرهم يقـترفون أقبح الآثـام ويستلمون لأغلـظ الشـهوات.. وقـد قتـل زيـوس أبـاه (كرونـوس) وضاجع ابنته، وهجر سماءه ليطارد عرائس العيون والبحار، ويغازل بنات الرعاة في الخلوات، وغار من ذرية الإنسان، فأضمر له الشر والهلاك، وضن عليه بسـر (النـار) فعـاقب المـارد برومـثيوس لأنـه قبس له النار من السماء.

ولم يتصوروه خالقا للـدنيا أو خالقـا للأربـاب الـتي تسـاكنه في جبل الأوليمب وتـركب معـه متن السـحاب، فهـو علي الأكـثر والـد لبعضها، ومنافس لأنـداده منهـا، وتعـوزه أحيانـا رحمـة الآبـاء ونبـل العداوة بين الأنداد.

ولم يـزل (زيـوس)إلي عصـر (هومـير) خاضـعا للقـدر مقيـدا بأوامره، عاجزا عن الفكاك من قضائه.

لقد صوره لنـا الشـاعر المتـدين علي مثـال أقـرب إلي خلائـق الرحمة والإنصاف، ومثال الكمال، ولكنه نسـب الخلـق إلي أربـاب أقدم منه ومن سائر المعبودات الأولمبية.. وهي (جيـا) ربـة الأرض و(كاوس) رب الفضاء و(أيـروس) رب التناسـل والمحبـة الزوجيـة، وجعل أيروس يجمع بين الأرض وزوجها الفضاء فتلد منـه الكائنـات السماوية والأرضية وآخرها أرباب الأوليمب، وعلي رأسهم (زيوس) الملقب بأبي الأرباب.

قلنا: فهـل ظللت طـول عمـرك في بلاد اليونـان، واكتفيت بمـا عندها من الآلهة؟

قال: لا.. لقـد زرت **الهند**، وبحثت في معابـدها ومخطوطاتهـا، والتقيت برجال دينهـا.. وقـد وجـدت أن الـديانات الهنديـة القديمـة

تعود إلى أزمنة أقدم من العصر الذي دونت فيه أسفارها المعروفة بالكتب الفيدية..

لقد رأيت من خلال البحث المستوعب المستقصي أن (الله) في الديانات الهندية القديمة لم يكن واحدا.. بل كان أنواعا شتي من الآلهة.. منها آلهة تمثل قوى الطبيعة وتنسب إليها.. فيذكرون المطر، ويشتقون منه اسم (الممطر).. ويعتبرونه الإله الذي يتوجهون إليه في طلب الغيث.. ومن هنا كان (أندر) هو إله السحاب، لأنه مشتق من كلمة (أندر) بمعني المطر، أو بمعني السحاب.

ويذكرون إلى جانب (أندر) إله النار.. وإله النور.. وإله الريح.. وإله البحار.. ويجمعونها جميعا في ديانة شمسية تلتقي بأنواع شتي من الديانات..

وأقدم الأسماء عندهم كان اسم (ديفا) Deva.. وهو يعني (المعطي).. لقد بقيت آثار من هذا الاسم في اللغات اليونانية واللاتينية وبعض اللغات الأوربية الحديثة.. فكلمة (ديو) الفرنسية Dieu وكلمة ديتي Deity الإنجليزية، وكلمة (زيوس) اليونانية القديمة مأخوذة من أصلها الهندي المتقدم.

بالإضافة إلى هذا، فقد رأيت البرهمية القديمة تشتمل علي عبادة الأسلاف.. كما تشتمل علي عبادة المظاهر الطبيعية.. ولذلك فإن تقديس الملك عندهم تقليد موروث من تقديس جد القبيلة.. وقد تحول إلي تقديس الرئيس الأكبر في الدولة بعد أن تحولت القبيلة إلي الأمة.

وقد وجدت أن عبادة (الطوطم) تعززت في الهند بعقيدتهم في وحدة الوجود وتناسخ الأرواح كما تعززت بعقيدة الحلول.. فلذلك عبدوا الحيوان علي اعتباره جدا حقيقيا أو رمزيا للأسرة ثم للقبيلة.. ثم تطوروا أكثر(1)، فآمنوا بأن الله يتجلى في كل موجود، أو يخص بعض الأحياء بالحلول فيه.. وآمنوا مع ذلك كله

(1) هذا ما عبر به العقاد.. ويعبر به علماء مقارنة الأديان عادة عند بحثهم في تاريخ الأديان.. ونحن نرى أن الأمر ليس خاضعا للتطور المتوهم.. وإنما هو خاضع لتأثير رسل الله والدعاة إليه، كما قال تعالى :﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر:24)

بتناسخ الأرواح.

ورأيت الطوطمية عاشت عندهم في أرقي العصور كما عاشت في عصور الهمجية لهـذا الامـتزاج بين الاعتقـاد الحـديث والاعتقـاد القديم.. لكنهم خلصـوا في الأخـير إلى الإيمـان بالإلـه الواحـد، وإن اختلفـوا في المنهج الـذي سـلكوه في التعـرف عليـه.. فلم يكن إيمانهم به علي الأساس الذي قـام عليـه إيمـان الشـعوب الأخـرى بالتوحيد.

قلنا: فإلى أين رحلت بعد الهند؟

قـال: بعـد الهنـد قصـدت **الصـين**.. وقـد كنت آمـل من خلال ضخامتها وكثرة شعوبها وترامي أطرافها أن أجد فيهـا جميـع أنـواع التصورات عن الإله..

لكني لم أجدهم ـ عبر تاريخهم الطويـل ــ يحبـون الخـوض في مباحث ما وراء الطبيعة.. ولهذا فإن التدين بينهم يكاد يكـون ضـربا من أصول المعاملة وأدب البيت والحضارة.

أما العبادات.. فأشيعها بينهم عبادة الأسلاف والأبطـال.. وأرواح أسلافهم مقدمة بالرعاية علي جملة الأرواح التي يعبدونها، ويمثلون بها عنصر الطبيعة أو مطالب المعيشة.. ولهذا، فإنه لا يقدر الصيني قربانا هو أغلي قيمة، وأحب إلي نفسه من قربانـه إلي روح سـلفه المعبود.. وهو يحتوي الأغذية والأشربة والأكسية والطيـوب، ومنهم من يحرق ورق النقد هبة للروح التي يعتقدون أنهـا تحتـاج إلي كـل شيء كانت تحتاج إليه، وهي في عالم الأجساد.

والخير والشر عندهم هو ما يرضي الأسـلاف أو يسـخطهم من أعمال أبنائهم.. فما أرضي السـلف فهـو خـير ومـا أسـخطهم فهـو شر.. وقد يختارون فردا من أفراد الأسرة ينوب عن جـده المعبـود فيطعمونه ويكسـونه ويزدلفـون إليـه ويحسـبون أن روح الجـد هي التي تتقبل هذه القرابين في شخص ذلك الحفيد.

وتتمشـي عبـادة العناصـر الطبيعيـة جنبـا إلي جنب مـع عبـادة الأسلاف والأبطـال.. فالسـماء والشـمس والقمـر والكـواكب آلهـة معبودة أكبرها إله السماء (شانج تي).. ويليه إله الشـمس.. فبقيـة

الأجرام السماوية.. فالعناصر الأرضية.

وهم يتقربون إلي (شانج تي) بالذبائح، ويبلغون صلواتهم بإشعال النار علي قمم الجبال، فيعلم الإله – مما أودعه الكاهن دواخينها- فحوي الرسالة التي يرفعها إليه عباده، ولا يحسنون الترجمة عنها كما يحسنها الكهان.

وإله السماء عندهم هو (الإله) الذي يصرف الأكوان، ويدبر الأمور، ويرسم لكل إنسان مجري حياته الذي لا محيد عنه.. وإنما يداول تركيب الوجود من عنصرين هما (ين) عنصر السكون و(يانج) عنصر الحركة.. وقد يفسر عنصر السكون بالراحة والنعيم وعنصر الحركة بالشقاء والعذاب.. فهما بهذه المثابة يقابلان عنصري الخير والشر وإلهي النور والظلام في الأديان الثنائية.

وقد امتزجت عبادة الأسلاف بعبادة العناصر الطبيعية في القرن العاشر حين تسمي عاهل الصين باسم (ابن السماء).. ويقال إنه استعار الفكرة من كاهن ياباني أراد أن يزدلف إليه فعلمه مراسم تأليه الميكاد في بلاده.. فنقلها العاهل إلي بلاد الصين.

وقد أراد الفيلسوف (شوهستي) في القرن الثاني عشر أن ينشيئ بوذية صينية توفق مذهب بوذا في أمور وتخالفه في أمور، فدعا إلي دين لا إله فيه ولا خلود للروح، ووضع (لي) موضع (كارما) الهندية أو القانون أو القضاء والقدر.

وسمي دولاب الزمن (تايشي) لأنه هو المحرك لجميع الكائنات، وجعل القانون والدولاب والمادة أو (ووشي) قوام العالم ظاهرة وخافية.. وإنما ينشأ الوعي أو الإدراك في الإنسان من قدح القانون للمادة كما ينقدح الحجر من الزناد، فيخرج الشرر ثم ينطفئ فيموت.. وتزول الأرواح كما تزول الأجساد متي (نضجت) كما تنضج الثمرة في أجلها المعلوم.. وقد يبطئ النضج فيطول بقاء الروح فهي إذن طيف أو شبح، كأنها الثرة في حالة العفن والإهمال.

ولما مات كنفشيوس (478 ق. م) أقاموا له الهياكل وعبدوه

علي سـنتهم في عبـادة أرواح الأسـلاف الصـالحين، وأوشـكوا أن يتخذوا عبادته عبادة رسمية علي عهد أسرة هان في القرن الثـاني قبل الميلاد، وأوجبوا تقديم القرابين والضحايا لذكراه في المدارس ومعاهد التعليم، وكـانت هياكلـه في الواقـع بمثابـة مـدارس يؤمهـا الناس لسماع الدروس كما يؤمونها لأداء الصلاة.. ولم تـزل عبادتـه قائمة إلي العصور المتأخرة بل إلي القرن العشرين.. فخصـوه في سنة 1906 بمراسم قربانية كمراسم الإله الأكـبر (شـانج تي) إلـه السماء لأنه في عرفهم (ند السماء) ومن لم يؤمن اليـوم بربوبيتـه من الصينيين المتعلمين فله في نفسه توقير يقرب من التأليه، وقد جعلوا يوم ميلاده – وهو السـابع والعشـرون من شـهر أغسـطس- عيـدا قوميـا يحجـون فيـه إلي مسـقط رأسـه، وينـوب عن الدولـة موظف كبير في محفل الصلاة أمام محرابه.

قلنا: لاشك أنك رحلت بعد الصين إلى **اليابان**!؟

قال: أجل.. وقد وجدت أن موقف اليابـان من الرسـالة الدينيـة كموقف الصين علي الإجمال.. فقد تشابهت عقائـدهم في أصـولها وعبدوا الأرواح والأسلاف والعناصر الطبيعية.. وإذا كان لأهل اليابان سمة خصوصـية في العبـادات فهي أنهم اختـاروا ربـة أنـثي لعبـادة السـلف الأعلي حين وحـدوا الأسـلاف في أكبرهـا وأعلاهـا.. وتلـك الربة هي (اميتراسوا-أموكامي) التي لا تزال معبودة إلي اليوم.

ويؤخذ من الأساطير اليابانية أنها كانت ربة الغزاة الذين أغـاروا فيما قبل التاريخ علي جزيـرة كيوشـو، وأخضـعوا أهلهـا وطـردوهم منهزمين إلي الجبال، وكأن أهل كيوشو الأولون يعبدون إلـه الـريح والمطر (سوسا- نـو- وو) فهبـط هـذا الإلـه بهـزيمتهم إلي المرتبـة التالية لمرتبة الربة السلفية.. ثم انعقدت الوئام بين الفـريقين بعـد تناسي الإحن والترات وامتزاج القبائل الغازية والممغـزوة، فأصـبح الإلهان أخوين وأصبحت (أميتراسو) هي كبري الأخوين.

ولا يعتقـد اليابـانيون أن هـذه الربـة خلقت الكـون أو خلقت الإنسان، لأنهم يعتقدون أن عهدها قـد سـبقته عهـود مديـدة تنـازع فيها الأمر عشرات الألوف من الأرباب.. وهـذه أربـاب عنـدهم هي بمثابـة الأرواح والملائكـة والجنـة والشـياطين من عناصـر الخـير والشر عند الأمم الكتابيـة.. ويسـمون الواحـد منهـا (كـامي).. وهي

كلمة تطلق علي كل رائع خارق للعادة بالغ في القـوة أو الجمـال.. ثم استسلمت هذه الأرباب بعد كفاح طويل وصار الأمـر إلي الربـة الكبري برضوان من خالق السماوات والأرضين.

أمـا الخلـق فهـو منسـوب عنـدهم إلي إلـه السـماء (أزانـاجي-نوميكوتو) وزوجته وأخته إلهـة الأرض (أزانـامي-نوميكوتـو).. فولـدا جزر اليابان وألقحاها ببذور الآلهة، وجاء أبنـاء اليابـان الآدميـون من سلالة الآلهـة.. فكلهم في النسـب الأعلي – وليس الميكـاد وحـده-إلهيون.

وفي إحدي الروايات الأسطورية أن ربـة الأرض احـترقت وهي تضع إله النار فجرد رب السماء سيفه وضرب به إله النار، فانبعثت من وميض سيفه ومن ضـرباته رهـط من أربـاب الزوابـع والـبروق والرعود.. ولم ترجع الأرض إلى خصبها إلا بعد شفاء ربتها وخروجها من هاوية الظلام لتلد الماء والطمي وعناصر الزرع والحياة.

وينسبون الخلـق في روايـة أخـري إلي (أزانـاجي) وحـده وهـو يبحث عن رفيقة صباه.. فمن عينه اليسـري خلقت الشـمس ومن عينه اليمني خلق القمر، ومن عطسته خلق (سوسـا- نـو- وو) رب الريـاح والأمطـار.. ولكنـه أعجب من بين أبنائـه بالشـمس دون شقيقيها فخلع عليها عقـدا يتلألأ بـالجواهر وبوأهـا أرفـع عـرش في السماء.

فالديانة اليابانية الأصلية شمسية سلفية جمعت معـني التوحيـد أولا في إله السماء حيث تصوره أبـا للخليقـة بمفـرده أو مشـاركة زوجه، ثم جمعتها في الربة الواحدة علي اعتبارها ربـة مختـارة بين أرباب.

التحريف:

قال رجل منـا: نـراك لم تقصـد إلا الـديانات الأرضـية الممتلئـة بالخرافـة.. فلم لم تقصـد مـا يسـمى بالـديانات السـماوية.. لم لم تقصد اليهودية مثلا، فهي أقدم الديانات السماوية كما يقال؟

تنفس الصعداء، ثم قـال: من الصـعب التحـدث عن الإلـه عنـد

اليهود بصفة علمية..

قلنا: لم؟

قال: لقد كان لكل عصر إلهه.. ولكل جماعة يهودية إلهها.. ومن الصعب أن يحصر هذا حاصر..

لكني مع ذلك سأذكر لكم بعض ما قال رجل خبير في اليهودية استفدت منه كثيرا.. إنه رجل من المسلمين التقيت به كان اسمه (عبد الوهاب المسيري)(1)

وقد حدثني هذا الرجل الخبير(2) أن الأصل في (الإله) الذي يؤمن به اليهود هو أنه إله واحد لا جسد له ولا شبيه.. لا تدركه الأبصار.. وتعتمد عليه المخلوقات كافة.. ولا يعتمد هو على أيٍّ منها، إذ هو يتجاوزها جميعاً ويسمو عليها.

وأن كل مظاهر الطبيعة والتاريخ ليست إلا تعبيراً عن قدرته.. فهو روح الكون غير المنظورة، السارية فيه، والتي تُمده بالحياة؛ وتسمو عليه وتلازمه في آن واحد.

وأخبرني أن التوحيد في اليهودية وصل إلى ذروته على يد بعض الأنبياء الذين خلَّصوا التصور اليهودي للإله من الشوائب الوثنية التي علقت به، فصار أكثر إنسانية وشمولاً وسمواً، وأقل عزلة وقومية وتعالياً.

---

(1) عبد الوهاب المسيري (1938-2008) مؤلف موسوعة اليهود و اليهودية والصهيونية، وهي أحد أهم الأعمال الموسوعية العربية في القرن العشرين.. استطاع من خلالها إعطاء نظرة جديدة موسوعية موضوعية علمية للظاهرة اليهودية بشكل خاص، و تجربة الحداثة الغربية بشكل عام، مستخدماً ما طوره أثناء حياته الأكاديمية من تطوير مفهوم النماذج التفسيرية.

ولد في مدينة دمنهور في مصر في أكتوبر عام 1938.. تخرج من كلية الآداب عام 1959، وحصل على الماجستير في الأدب الإنجليزي المقارن من جامعة كولومبيا بمدينة نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية عام 1964، وعلى الدكتوراه من جامعة رتجرز بنيوجيرزي عام 1969.. صدرت له عشرات الدراسات والمقالات عن إسرائيل والحركة الصهيونية، ويعتبر واحداً من أبرز المؤرخين العالميين المتخصصين في الحركة الصهيوينة.

(2) انظر مادة (إله) من موسوعة اليهودية، للمسيري.

وأخبرني أن هـذا التيـار التوحيـدي اسـتمر في مختلـف فـترات تاريخ اليهودية.. وتدل على بعض آثاره من الصلوات اليهوديـة دعـاء الشماع، أي شـهادة التوحيـد اليهوديـة وقصـائد مثـل (آني مـأمِّين) (إني مؤمن) و(يجدال) (تنزَّه الرب) التي تؤكد فكرة التوحيد.

وأخبرني أن التصور اليهودي للإله قـد تـراكم عليـه في فـترات التاريخ الطويلة ما انحرف به انحرافات كثيرة خطـيرة.. حـتى غـدا التوحيد مجرد طبقة واحدة ضمن طبقات مختلفة.. فالعهد القـديم، كما هـو من خلال مصـادره المتعـددة، يطـرح رؤى متناقضـة للإلـه تتضـمن درجـات مختلفـة من الحلـول بعضـها أبعـد مـا يكـون عن التوحيد.

وتتبدَّى الحلولية في الإشارات العديـدة إلى الإلـه، الـتي تصـفه ككائن يتصف بصفات البشر، فهو يأكـل ويشـرب ويتعب ويسـتريح ويضـحك ويبكي، غضـوب متعطش للـدماء، يحب ويبغض، متقلب الأطوار، يُلحق العذاب بكل من ارتكب ذنباً سواء ارتكبـه عن قصـد أو ارتكبه عن غير قصد، ويأخـذ الأبنـاء والأحفـاد بـذنوب الآبـاء، بـل يحس بالندم ووخز الضمير (خروج 32/10 ـ 14)، وينسـى ويتـذكر (خروج 2/23 ـ 24)، وهو ليس عالماً بكل شيء، ولـذا فهـو يطلب من أعضاء جماعة يسرائيل أن يرشدوه بأن يصبغوا أبـواب بيـوتهم بالدم حتى لا يهلكهم مع أعدائهم من المصريين عن طريـق الخطـأ (خروج 12/13 ـ 14)..

وهو إله متجرِّد، ولكنـه في الـوقت نفسـه يأخـذ أشـكالاً حسـية محددة، فهو يطلب إلى اليهـود (جماعـة يسـرائيل) أن يصـنعوا لـه مكاناً مقدَّساً ليسكن في وسطهم (خروج 25/8)، كما يسـير أمـام جماعة يسـرائيل على شـكل عمـود دخـان في النهـار كي يهـديهم الطريق، أما في الليل فكان يتحول إلى عمود نـار كي يضـيء لهم (خروج 13/21/22).

وهـو إلـه الحـروب (خـروج 15/3 ـ 4) يعلِّم يـدي داود القتـال (صمويل ثاني 22/30 ـ 35)، يأمر اليهود بقتل الذكور، بل الأطفال والنساء (عدد 31/1 ـ 12)، وهو إله قـوي الـذراع يـأمر شـعبه بـألا يرحم أحداً (تثنية 7/16 ـ 18)، وهو يعرف أن الأرض لا تُنال إلا بحد السيف. ولـذا، فهـو يـأمر شـعبه المختـار بقتـل جميـع الـذكور في

المــدن البعيــدة عن أرض الميعــاد، (أمــا ســكان الأرض نفســها فمصيرهم الإبادة ذكوراً كانوا أم إناثاً أم أطفالاً) (تثنية 20/10 ـ 18) وذلك لأسباب سكانية عملية مفهومة.

والمقــاييس الأخلاقيــة لهــذا الإلــه تختلــف بــاختلاف الزمــان والمكان، ولذا فهي تتغيَّر بتغير الاعتبارات العملية، فهو يأمر اليهــود (جماعــة يســرائيل) بالســرقة، ويطلب من كــل امــرأة يهوديــة في مصر أن تطلب من جارتها ومن نزيلــة بيتهــا (أمتعــة فضــة وأمتعــة ذهب وثيابــاً وتضــعونها على بــنيكم وبنــاتكم فتســلبون المصــريين) (خروج 3/22)

وهكذا، فإننا نجد منذ البداية، أن فكرة الإلــه الواحــد المتســامي تتعايش مع أفكار أخرى متناقضة معها، مثــل تشــبيه الإلــه بالبشــر، ومثــل فكــرة الشــعب المختــار، فهي أفكــار تتنــاقض مــع فكــرة الوحدانية التي تطرح فكرة الإله باعتباره إله كل البشر الذي يسمو على العالمين.

وفي إطار هذه الرؤية للإله ليس من الغريب أن يسقط أعضاء جماعة يسرائيل في عبادة العجل الــذهبي (ويتزعمهــا هــارون أخــو موسى)(1)، وأن يقبل العهــد القــديم عناصــر وثنيــة مثــل الــترافيم والإيفود (الأصنام)، وكلها تعبير عن رؤية حلولية مشــركة لا تختلــف كثيراً عما جاء في العهد القديم.. ولهــذا ليس من الغــريب أن نجــد شعائر تدل على الثنوية في العبادة اليسرائيلية.

ورغم أن الإله، حسب بعض نصوص العهــد القــديم، يفصــح عن نفسه في الطبيعــة والتــاريخ ويتجاوزهمــا، فهــو مصــدر النظــام في الطبيعة، وهو أيضاً الذي يجعل التاريخ في نظام الطبيعة وتناســقها، إلا أننــا نجــده يتحــول من كونــه حقيقــة مطلقــة تعلــو على المــادة (الكونية الطبيعية أو التاريخية) يصبح امتداداً لما هو نسبي، وامتداداً للشــعب اليهــودي على وجــه الخصــوص.. فيصــبح الخــالق امتــداداً لوعي الأمة بنفسها، فيظل إلهاً قومياً خاصاً مقصــوراً على الشــعب اليهودي وحده، بينما نجد أن للشعوب الأخرى آلهتهــا (خــروج 6/7) حتى تصبح وحدانية الإله من وحدانية الشعب.

---

(1) حسبما ينص الكتاب المقدس.. أما القرآن الكريم فهو يبرئ هارون ﵇، وينســب العبادة للسامري.

ولذا، نجد أن الشعب ككل، وليس الإنسان ذو الضمير الفـردي، يشهد على وحدانية الإله في صلاة الشماع، ويظهـر الاتجـاه نفسـه في أفكار دينيـة مثـل الاختيـار والوعـد الإلهي وأرض الميعـاد الـتي تصبح مقدَّسة ومختارة تمامـاً مثـل الشـعب (وتلاحُم الإلـه بـالأرض والشعب هو الثالوث الحلولي).

ولهذا، ظلت اليهودية دين الشعب اليهـودي (جماعـة يسـرائيل) وحده، ونجد أن الغرض الإلهي يتركز في هذا الشـعب دون سـواه، فقد اختير من بين جميع الشعوب ليكون المستودع الخاص لعطف يهوه.. كما أن مجرى الطبيعة أو تاريخ البشر يدور بإرادة الإله حول حيـاة ومصـير اليهـود.. ويتضـح هـذا في مفهـوم التـاريخ اليهـودي المقدَّس الذي لا يمكن فهم تاريخ الكون بدونه، كما يتبدَّى في رؤية آخـر الأيـام حيث ترتبـط صـورة الآخـرة والنشـور في كتب الـرؤى (أبوكاليبس)، وفي بعض أجزاء العهد القـديم، بسـيادة اليهـود على العالمين، ثم يتعمق الاتجاه الحلولي مـع ظهـور اليهوديـة التلموديـة الحاخامية.. ويزداد الحلـول الإلهي، فنجـد أن القداسـة تتعمـق في الحاخامـات من خلال مفهـوم الشـريعة الشـفوية، حيث يتسـاوى الـوحي الإلهي بالاجتهـاد البشـري، ويصـبح الحاخامـات ذوي إرادة مستقلة يقارعون الإله الحجة بالحجـة، وتُجمَـع آراؤهم في التلمـود الذي يصبح أكثر قداسة من التوراة (التي يفترض أنها معادلة للإلــه وتحوي سر الكون).

وقد بلغ الحلول الإلهي درجـة أن المشـناه (الـتي تضـم تفسـير الحاخامـات) شُـبِّهت بـاللوجوس في اللاهـوت المسـيحي، أي أنهـا كلمــة الإلــه المقدَّســة، كــانت موجــودة في عقلــه منــذ الأزل.. وتُستخدَم كلمة «ابن الله» للإشارة إلى الشـعب اليهـودي، أي أنـه هو أيضاً اللوجوس.

ويخلع التلمود على الإله صـفات بشـرية بشـكل عـام، ويهوديـة بشكل خاص، وبشكل أكثر تطرفاً من التوراة.

وقد جاء في التلمود أنه بعـد وصـول الماشـيَّح، سـيجلس الإلـه على عرشـه يقهقـه فرحـاً لعلـو شـأن شـعبه، وهزيمـة الشـعوب الأخرى التي تحـاول دون جـدوى أن يكـون لهـا نصـيب في عمليـة الخلاص، أي أن الشعب اليهودي والتاريخ اليهودي يـزدادان قداسـة

ومركزية في الدراما الكونية.. ويقضـي الإلـه وقتـه وهـو يلعب مـع حوت، ويبكي من أجل هدم الهيكل، ويندم على فعلتـه، وهـو يلبس العمائم، ويجلس على عرشه، ويدرس التوراة ثلاث مـرات يوميـاً.. وتنسب إلى الإله صفات الحقد والتنافس، وهو يستشير الحاخامات في كثير من الأمور.

ويصل الحلول إلى منتهاه، وإلى درجة وحدة الوجـود في تـراث القبَّالاه، فهو تراث يكاد يكون خالياً تماماً من أي توحيد أو تجـاوز أو علو للإله، وبحيث لا يصبح هناك فارق بين الجـوهر الإلهي والجـوهر اليهودي، ويصبح الفارق الأساسي هو بين الجوهر اليهودي المقدَّس وجـوهر بقيـة البشـر، ويصـبح الفـرق بين اليهـود والأغيـار فرقـاً ميتافيزيقياً، فاليهود قـد خُلقـوا من مـادة مقدَّسـة (حـل فيهـا الإلـه بروحه) مختلفة عن تلك المادة (الوضيعة العادية) التي خُلقت منهـا بقية البشر. ويكتسب الإله صفات بشرية، ولذا فهو يغازل الشـعب اليهودي (بنت صهيون) ويدخل معـه (أو معهـا) في علاقـة عاطفيـة قويـة ذات إيحـاءات جنسـية، وهي فكـرة أصـبحت أساسـية في التراث القبَّالي.

وتتضـح النزعـة نفسـها في قصـة الخلـق في الـتراث القبَّالي، فالإلـه لا يخلـق العـالم من العـدم، وإنمـا صـدرت عنـه التجليـات النورانية العشرة (سفيروت) التي تأخذ صورة آدم الأول أو القـديم (آدم قـدمون) أي أن صـورة الإلـه هي صـورة الإنسـان، وتسـتقل التجليات العشرة تماماً عن الخالق حتى أنه يتحـدث مـع الشـخيناه (التجلي العاشـر).. كمـا أن التجلي المـذكر للإلـه يطـارد التجلي المؤنث، وتصبح تلاوة الشماع، حسب الفكر القبَّالي، هي المحاولـة الـتي يبـذلها اليهـود ليتوحـد التجلي الـذكوري بـالتجلي الأنثـوي، ويجتمعان معاً بالمعنى الجنسي.

وفي داخـل الـتراث القبَّالي، يصـبح التجلي العاشـر (شـخيناه) الـذات الإلهيـة والتعبـير الأنثـوي عن الإلـه، وهـو نفسـه جماعـة يسرائيل، أي أن الزواج بين الخالق والشعب يصبح هنا توحداً كاملاً.

ويقوم هذا الشعب بتوزيع رحمة الإله على العـالمين، ثم تصـل الحلوليـة إلى ذروتهـا والشـرك إلى قمتـه، حين يصـبح الإنسـان اليهودي شريكاً للإله في عملية الخلق نفسها، ويزداد الإله اعتمـاداً

على الإنسان.

وبعد عمليـة السـقوط، وتَهشُّـم الأوعيـة في القبَّالاه اللوريانيـة، تتفتت الذات الإلهية نفسـها، وتتـوزع الشـرارات الإلهيـة، ولا يتـأتى للإله أن يستعيد كماله ويحقـق ذاتـه إلا من خلال شـعبه اليهـودي.. فاليهود، بآثـامهم، يـؤخرون عمليـة الخلاص الـتي تـؤدي إلى خلاص العالم وإلى اكتمال الإله، وهم، بأفعالهم الخيرة، يعجلون بها.. ولذا، فالأغيار والإله يعتمدون على أفعـال اليهـود الـذين يشـغلون مكانـة مركزية في العملية التاريخية والكونية للخلاص.

ويظهـر هـذا الـنزوع الحلـولي المتطـرف في أحـد التعليقـات القبَّالية في أحد كتب المدراش على إحدى فقرات سـفر أشـعياء (43/12)، حيث جاء فيها:(أنتم شـهودي، يقـول الـرب، وأنـا اللـه)، وهي فقرة تؤكد وحدانيـة الإلـه وتسـاميه. وهي وإن كـانت تتحـدث عن علاقـة خاصـة، فإنهـا مـع هـذا أبعـد مـا تكـون عن الحلوليـة أو الشرك. ولكن كاتب المدراش الحاخامي يفـرض الطبقـة الحلوليـة على الطبقـة التوحيديـة فرضـاً فيفسـرها بقولـه: (حينمـا تكونـون شهودي أكون أنا الإله، وحينمـا لا تكونـون شـهودي فكـأنني لسـت الإله)، وكأن كينونة الإله من كينونة الشعب وليس العكس.

بل إن كمال الإله يتوقف على الشعب، إذ قال أحد الحاخامات: (حينما ينفذ اليهود إرادة الإله، فإنهم يضيفون إلى الإله في الأعالي. وحينما يعصي اليهود إرادة الإلـه، فهم كمـا لـو أنهم يضـعفون قـوة الإله العظمى في الأعالي)

ورغم أن كاتب المـدراش يسـتخدم دائمـاً عبـارة (كمـا لـو أن) لتأكيد بعدها المجازي، فـإن تكرارهـا وارتباطهـا بالمفـاهيم الأخـرى ينقلها من عالم المجاز إلى عالم العقائد الحرفية المباشرة الـتي لا تحتاج أي تفسير.

وعلى أية حال، فإن التيار التوحيدي ظل لمدة طويلـة أساسـياً في النسق الديني اليهودي، بل كان يكتسب أحياناً قوة كمـا حـدث من خلال التفاعل مع الفكر الديني الإسلامي، كما هو الحال مع كلٍّ من سـعيد بن يوسـف الفيـومي وموسـى بن ميمـون.. وكثـيراً مـا حــاول الحاخامــات الوقــوف ضــد الاتجــاه الحلــولي الشــعبي

(الفلكلوري)، فحاولوا أن يفسروا الطبائع البشرية للإله بأنها مجـرد محاولة لتبسيط الأمور حتى يفهمهـا العامـة. بـل يُلاحَـظ أن عبـارة (كما لو أن) كانت تضـاف حـتى في التفسـيرات القبَّاليـة الحلوليـة الأولى لتأكيد الطابع المجـازي للخطـاب، ولكن هـذا التحفـظ تآكـل بالتدريج وتغلغلت القبَّالاه ذات الأصول الشعبية في صفوف العامـة ثم في صفوف المؤسسة الحاخامية نفسـها وسـيطر فكـر حلـولي حــرفي متطــرف. ومــع تغلغــل القبَّالاه ذات الأصــول الشــعبية والغنوصية والـتي اكتسـبت أبعـاداً مسـيحية، حـدثت عمليـة تنصـير لليهودية، حيث فقدت اليهودية هويتها واكتسبت هوية شبه مسيحية جديدة تستند إلى تشويه العقائد المسيحية.

ومع بدايات العصر الحديث، كـانت الحسـيدية أوسـع المـذاهب انتشاراً، وهي شكل من أشكال الحلولية المتطرفة بكل مـا تحمـل من شـرك وثنويـة. ويتضـح هـذا في الـدور الـذي يلعبـه التسـاديك فإرادته معادلة لإرادة الإله، فهو الوسيط بين اليهود والخـالق، وهـو محل القداسة، وهـو الإنسـان التقي صـاحب القـدرة الـذي يمكنـه النطق باسم الإله والتحكم فيه والتأثير في قراراته.

وقد تبنَّى الفيلسوف اليهودي مـارتن بـوبر رؤيـة حلوليـة للإلـه، فتحدث عن الحوار الدائر بين الشعب والإله باعتبـار أنهمـا طرفـان متساويان، وهذا تَصوُّر ممكن داخل إطار حلولي قـومي. كمـا نجـد فرقاً يهودية حديثـة مثـل اليهوديـة المحافظـة واليهوديـة التجديديـة تبنيان تصوراتهما الدينية على أساس فكرة الشـعب المقـدَّس، مـع إسقاط فكرة الإله تماماً (حلولية موت الإله)، أو وضعها في مرتبــة ثانوية (حلولية شحوب الإله).

ويصل الأمر إلى حد أن حاخاماً إصلاحياً مثـل إيـوجين بوروفيـتز يتحــدث عن حــرب عــام 1967 باعتبــار أنهــا لم تكن تهــدد دولــة إسرائيل فحسب، وإنما تهدد الإله نفسه باعتبار أن الإلــه والشــعب والأرض يُكوِّنان جوهراً واحـداً، فمن أصـاب جـزءاً من هـذا الجـوهر بسوء (أرض دولة إسرائيل على سبيل المثال)، فقد أصـاب الـذات الإلهية نفسها.

بل إن بعض المفكـرين الـدينيين اليهـود يتحـدثون عن (لاهـوت موت الإله)، وهي محاولة الوصول إلى نسق ديني خــال تمامــاً من

أي جوهر إلهي مفارق، فهي حلولية بدون إله. وقـد تفـرَّع من هـذا (لاهوت الإبادة) أو (لاهوت ما بعد أوشـفيتس) الـذي يـذهب دعاتـه إلى أن الإله شرير لأنه هجر الشعب اليهودي.. كما يـذهبون إلى أن المطلق أو الركيزة النهائية هـو الشـعب اليهـودي (دون الإلـه) وأن القيمة الأخلاقية المطلقـة هي البقـاء، وأن الآليـة الأساسـية لإنجـاز ذلك هي الدولـة الصـهيونية، فكـأن الدولـة الصـهيونية هي الإلـه أو اللوجوس في الحلولية الصهيونية بدون إله.

الضلال:

قال رجل منا: فهلا تركت اليهود إلى المسيحيين.

قال: لقد فعلت.. وقد كان أول مـا قصـدته الكتـاب المقـدس.. لكني وجدته بعهديه متضاربا في ذلك غاية التضارب..

فبينما قرأت هذا النص في (إشعياء: 46 /9): (اذكروا الأوليات منذ القديم لاني انا الله وليس آخر. الاله وليس مثلي)

وهذا النص في (هوشع 11 /9): (لا اجري حمو غضبي لا اعود اخـرب افـرايم لأني اللـه لا انسـان القـدوس في وسـطك فلا آتي بسخط)

وهذا النص في (إرميا 10 /6): (لا مثل لك يـا رب عظيم انت وعظيم اسمك في الجبروت)

وهذا النص في (إشعياء46 /5): (بمن تشـبهونني وتسـوونني وتمثلونني لنتشابه)

وهذا النص في (إشعياء 40 /25): (فبمن تشبهونني فأساويه يقول القدوس)

وهذا النص في (إشـعياء40 /18): (فبمن تشـبهون اللـه وأي شبه تعادلون به)

وهذا النص في (عدد 23 /19): (ليس الله انسانا فيكـذب.ولا ابن انسان فيندم.هل يقول ولا يفعل او يتكلم ولا يفي)

فهذه النصوص جميعا تدل على تقدس الله وتنزهه..

إلا أني قرأت معها الكثير من النصوص تصف اللـه بمـا لا يمكن أن يوصـف بـه إلـه.. ولـذلك لم يصـعب عليهم أن يرسـموه في الكنائس والمعابد بصورة رجل عجوز ذي لحية طويلة بيضاء يظهـر عليه الشيب والعجز والتعب..

لقد كان لهذه الصورة سندها من الكتاب المقدس..

ففي الكتاب المقدس النصوص التي تصف الله **بالعجز**.. ففي (تكوين32 /24-28) نبـأ مصـارعة يعقـوب للـه : (فبقي يعقـوب وحده.وصارعه انسان حتى طلوع الفجر.. وقـال اطلقـني لأنـه قـد طلع الفجر.فقال لا اطلقك ان لم تباركني)

هكـذا ينص الكتـاب المقـدس على أن يعقـوب حـارب الـرب وهزمه.. بل أوثقه.. بل إن الرب طلب منه أن يطلقه لأن الفجر قد طلع.. ولا أعلم ما علاقة طلوع الفجر برغبـة الـرب في الانصـراف ومحايلة يعقوب حتى يطلقه ؟

وفي (إنجيـل مـرقس 6 /5) أن الـرب ــ والمقصـود هنـا هـو يسوع ـ عجز عن صنع معجزة : (ولم يقدر ان يصنع هنـاك ولا قـوة واحدة غير انه وضع يديه على مرضى قليلين فشفاهم)

وفي سفر القضاة لم يستطع الـرب أن يطـرد سـكان الـوادي، لأن مركباتهم حديدية.. ففي (القضاة 1 /19): (

وكان الرب مع يهوذا فملك الجبل ولكن لم يطرد سكان الوادي لان لهم مركبات حديد)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **يسكر**.. ففي (المزمور 78 /65): (فاستيقظ الرب كنائم كجبار معّيط من الخمر)

وفي (مزمـور75 /8) : (لان في يـد الـرب كاسـا وخمرهـا مختمرة ملآنة شرابا ممزوجا وهو يسكب منهـا لكن عكرهـا يمصـه يشربه كل اشرار الارض)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **ينام**.. ففي (مزمور35

/22) : (قد رأيت يا رب لا تسكت يا سـيد لا تبتعـد عـني اسـتيقظ وانتبه الى حكمي يا الهي وسيدي الى دعواي)

وفي (مزمور78 /65): (فاستيقظ الرب كنائم كجبار معّيـط من الخمر)

وفي (مزمور44 /23): (استيقظ.لماذا تتغافى يا رب. انتبـه. لا ترفض الى الابد)

وفي (زكريا2 /13): (اسكتوا يا كل البشر قـدام الـرب لأنـه قد استيقظ من مسكن قدسه)

وفيه النصوص التي تـدل على أن الـرب الـرب **يمشي على عكاز**، ففي (قضـاة6 /20-23): (فقـال لـه ملاك اللـه خـذ اللحم والفطير وضعهما على تلك الصخرة واسكب المرق.ففعـل كـذلك. فمدّ ملاك الـرب طـرف العكـاز الـذي بيـده ومس اللحم والفطـير فصعدت نار من الصخرة واكلت اللحم والفطير.وذهب ملاك الرب عن عينيه. فرأى جدعون انه ملاك الرب فقال جدعون آه يا سيدي الرب لاني قد رأيت ملاك الرب وجها لوجه. فقال له الرب السـلام لك.لا تخف.لا تموت)

وفي (مزمور23 /4): (ايضا اذا سرت في وادي ظل الموت لا اخاف شرا لانك انت معي. عصاك وعكازك هما يعزيانني)

وفيه النصوص التي تدل على أن الـرب **جاهل**.. ففي (رسـالة بولس إلى أهل كرونثوس الأولى 1 /25) : (لان جهالة الله احكم من الناس. وضعف الله اقوى من الناس)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **عنده خزانة، وفيهـا آلات الرجز**.. ففي (إرميا50 /25(: (فتح الـرب خزانتـه واخـرج آلات رجزه لان للسيد رب الجنود عملا في ارض الكلدانيين)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **يسيئ**.. ففي (1ملوك 17 /20) : (وصـرخ الى الـرب وقـال ايهـا الـرب الهي أيضـا الى الارملة التي انا نازل عندها قد اسأت بإماتتك ابنها)

وفي (العدد 11 /ـ 11): (فقال موسى للرب لماذا اسـأت الى

عبدك ولماذا لم اجد نعمة في عينيك حتى انك وضعت ثقل جميع هذا الشعب عليّ)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **ينقض العهد**.. ففي (زكريا11 /10): (فاخذت عصاي نعمة وقصفتها لانقض عهدي الذي قطعته مع كل الاسباط فنقض في ذلك اليوم وهكذا علم اذل الغنم المنتظرون لي انها كلمة الرب)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **يصيح كالوالدة وينخر ويخرب**. ففي (إشعياء 42 /13-16): (الرب كالجبار يخرج.كرجل حروب ينهض غيرته.يهتف ويصرخ ويقوى على اعدائه قد صمت منذ الدهر سكت تجلدت.كالوالدة اصيح.انفخ وانخر معا اخرب الجبال والآكام واجفف كل عشبها واجعل الانهار يبسا وانشف الآجام واسير العمي في طريق لم يعرفوها.في مسالك لم يدروها امشيهم.اجعل الظلمة امامهم نورا والمعوجات مستقيمة هذه الامور افعلها ولا اتركهم)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **ينسى**.. ففي (مزمور 13 /1) : (الى متى يا رب تنساني كل النسيان.الى متى تحجب وجهك عني)

وفي (خروج2 / 24): (فسمع الله انينهم فتذّكر الله ميثاقه مع ابراهيم واسحق ويعقوب)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **يأكل الخرفان**.. ففي (العدد 28 /1-9): (وكلم الرب موسى قائلا. (2) اوص بني اسرائيل وقل لهم.قرباني طعامي مع وقائدي رائحة سروري تحرصون ان تقربوه لي في وقته. (3) وقل لهم.هذا هو الوقود الذي تقرّبون للرب خروفان حوليان صحيحان لكل يوم محرقة دائمة. (4) الخروف الواحد تعمله صباحا والخروف الثاني تعمله بين العشاءين. (05) وعشر الايفة من دقيق ملتوت بربع الهين من زيت الرض تقدمة. (6) محرقة دائمة.هي المعمولة في جبل سيناء.لرائحة سرور وقودا للرب. (7) وسكيبها ربع الهين للخروف الواحد.في القدس اسكب سكيب مسكر للرب. (8) والخروف الثاني تعمله بين العشاءين كتقدمة الصباح وكسكيبه تعمله وقود

رائحة سرور للرب (9) وفي يوم السبت خروفان حوليّان صحيحان وعشران من دقيق ملتوت بزيت تقدمة مع سكيبه)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **عمود سحاب نهارا وعمود نار ليلا**.. ففي (خروج:13 /21): (وكان الرب يسير امامهم نهارا في عمود سحاب ليهديهم في الطريق وليلا في عمود نار ليضيء لهم.لكي يمشوا نهارا وليلا)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **يصفر للذباب ويعمل حلاقاً ويصفق**.. ففي (إشعياء 7 /18-20): (ويكون في ذلك اليوم ان الرب يصفر للذباب الذي في اقصى ترع مصر وللنحل الذي في ارض اشور (19)فتأتي وتحل جميعها في الاودية الخربة وفي شقوق الصخور وفي كل غاب الشوك وفي كل المراعي. (20)في ذلك اليوم يحلق السيد بموسى مستأجرة في عبر النهر بملك اشور الراس وشعر الرجلين وتنزع اللحية ايضا)

وفي (إشعياء 5 /26): (فيرفع راية للامم من بعيد ويصفر لهم من اقصى الارض فاذا هم بالعجلة ياتون سريعا)

وفي (التكوين 6 /6): (فحزن الرب انه عمل الانسان في الارض.وتأسف في قلبه)

وفي (حزقيال 21 /17) : (وانا ايضا اصفّق كفّي على كفّي واسكن غضبي.انا الرب تكلمت)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **يأمر الناس بسب الأنبياء**.. ففي (صموئيل الثاني 16 /10) : (فقال الملك ما لي ولكم يا بني صروية.دعوه يسب لان الرب قال له سبّ داود ومن يقول لماذا تفعل هكذا. (11) وقال داود لابيشاي ولجميع عبيده هوذا ابني الذي خرج من احشائي يطلب نفسي فكم بالحري الآن بنياميني.دعوه يسب لان الرب قال له)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **يحتاج علامة ليتذكر بها**.. ففي (تكوين 9 /15-16): (اني اذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل نفس حيّة في كل جسد. فلا تكون ايضا المياه طوفانا لتهلك كل ذي جسد فمتى كانت القوس في السحاب

ابصرها لأذكر ميثاقا ابديا بين الله وبين كل نفس حيّة في كل جسد على الارض)

وفي (خروج 12 /13): (ويكون لكم الدم علامة على البيوت الـتي انتم فيهـا فـأرى الـدم واعـبر عنكم فلا يكـون عليكم ضـربة للهلاك حين اضرب ارض مصر)

وفيــه النصــوص الــتي تــدل على أن الــرب **يولـول ويبكي ويصـرخ ويصـوت**.. ففي (ميخا1 /8): (من اجـل ذلـك انـوح وأولول. امشي حافيا وعريانا. اصنع نحيبا كبنات آوى ونوحا كرعـال النعام)

وفي (إرميا 48 /30-32): (انا عرفت سخطه يقول الرب انه باطل. اكاذيبه فعلت باطلا. من اجل ذلك اولول على مــوآب وعلى موآب كله اصرخ.يـؤنّ على رجـال قـير حـارس. ابكي عليـك بكـاء يعزير يا جفنة سـبمة قـد عـبرت قضـبانك البحـر وصـلت الى بحـر يعزير وقع المهلك على جناك وعلى قطافك)

وفي (إرميا 48 /35-36): (وابطل من موآب يقول الرب من يصعد في مرتفعة ومن يبخر لآلهتـه. من اجـل ذلـك يصـوّت قلـبي لموآب كناي ويصوت قلبي لرجال قير حارس كناي لان الثروة التي اكتسبوها قد بادت)

الإلحاد:

قلنا: لاشك أنك قصدت الإسلام بعد أن يئست من المسيحية؟

قال: ليتني فعلت ذلك.. لو فعلت ذلك لكـانت ــ ربمـا ــ حيـاتي مختلفة تماما عما ترونه الآن.

قلنا: فمن قصدت إذن؟.. نراك قد جلت على جميع الأديان.

قال: بعد أن امتلأت بالصراع هربت من الله الذي نذرت حيـاتي كلها للبحث عنه..

قلنا: كيف؟

قال: في غمـرة تلـك الآلام لاقـاني رجـل كـان يقـال لـه (آرثـر شوبنهاور).. قال لي بلهجة حادة: إن الإله ليس شيئا سـوى صـنيعة من صنائع البشر، ابتكروها لتفسير ما هو مجهول لديهم من ظواهر طبيعيـة أو نفسـية أو اجتماعيـة، وكـان الغـرض منـه تنظيم حيـاة مجموعة من الناس حسب ما يراه مؤسس الـدين مناسـبا، وليس حسب الحاجات الحقيقية للناس الـذين عن جهـل قـرروا بـالالتزام بمجموعة من القيم البالية.

ثم أضاف يقول: من المستحيل أن تكون كل هذه الديانات من مصدر واحد.. فالاله الشـديد البطش الـذي أنـزل 12 مصـيبة على المصريين القدماء، وقتل كـل مولـود أول ليخـرج اليهـود من أرض مصر هو ليس نفس الالـه الـذي ينصـحك بـأن تعطي خـدك الآخـر ليتعرض للصفع دون ان تعمل شيئا.

قلت له بنفس اللهجة التي خـاطبني بهـا: فمـا تقـول في هـذه الحياة ومعجزاتها؟

ابتسم بخبث، وقال: لا شك أنك لا تعرف تشارلز داروين.

قلت: ما به؟

قال: لقد حل المشكلة.. فالحياة من صناعة الصـدفة والتطـور والارتقاء.

قلت: والإله؟

قال: لقد أعلن (فريدريك نيتشه) موته.. وأعلن أن الدين فكـرة عبثيـة، وجريمـة ضـد الحيـاة إذ أنـه من غـير المعقـول ان يعطيـك الخالق مجموعة من الغرائز و التطلعات، وفي نفس الوقت يصـدر تعـاليم بحرمانـك منهـا في الحيـاة ليعطيـك إياهـا مـرة أخـرى بعـد الموت.

قلت: ولكن الحياة لا تستقيم من دون إله؟

قال: لاشك أنك لا تعرف كارل ماركس!؟

قلت: ما به؟

قـال: لقـد اكتشـف ذلـك الفيلسـوف العظيم أن الـدين أفيـون الشعوب.. إنه يجعل الشعب كسولا و غير مؤمنا بقدراته في تغيـير الواقــع.. واكتشــف أن الــدين تم اســتغلاله من قبــل الطبقــة البورجوازية لسحق طبقة البسطاء.

قلت: ولكن النفس الإنسـانية تطلب إلهـا.. الفطـرة لا تسـتقيم من دون؟

قال: لا شك أنك لا تعرف (سيغموند فرويد)؟

قلت: ما به؟

قال: لقد اكتشـف هـذا العبقـري العلامـة أن الـدين وهم كـانت البشرية بحاجة اليه في بداياتها.. واكتشف أن فكرة وجود الاله هــو محاولة من اللاوعي للوصـول إلى الكمـال في شـخص مثـل أعلى بديل لشخصـية الأب إذ أن الأنسـان في طفولتـه ينظـر إلى والـده كشخص متكامل وخارق، ولكن بعد فتره يدرك أنه لا وجود للكمال فيحاول اللاوعي ايجاد حل لهذه الأزمة بخلق صورة وهميـة لشـيء اسمه الكمال.

***

ظللت مع (آرثر شـوبنهاور) وأصـحابه مـدة من الـزمن إلى أن امتلأت باليأس من وجود اللـه.. وهنـاك شـعرت بفـراغ عظيم.. لم أجد للحياة أي معنى أو طعم.. فلذلك رحت ألتمس المـوت وأبحث عنه.

وقد لاقاني في طريقي وأنـا أبحث عن المـوت رجـل يقـال لـه (هونج ينج شين) كان زعيما لكنيسة خلاص الله، وكان يعـرف لـدى أعضاء طائفته بالمعلم شين.

عندما رأيته، ورأيت الموت في عينيه قـال لي: إن اللـه سـيأتي إلى الأرض في طبق طائر في ضـاحية دالاس.. فتعـال لتنظـر إلى ذلك الحدث العظيم.

في اليوم الموعود ذهبت فلم أجد غـيره.. لم أجـد غـير (هـونج ينج شين)، فسألته، فقال لي: إن الله سـيظهر على شاشـة القنـاة

الثامنة عشرة وفي أجهـزة التلفـاز المنتشـرة في العـالم منتصـف يوم 24 مارس، وفي يوم 31 مارس الساعة العاشرة صباحاً.

انتظرت ذلك الوقت بلهفة فلم أجد غيره.. لم أجد غـير (هـونج ينج شين)، فسألته، فقال لي: لا يمكنـك أن تعـرف اللـه إلا بعـد أن تموت.

قلت: لم يحضر أجلي بعد.

قال: أجلك بيدك.. يمكنك أن تقربه، ويمكنك أن تبعده.

قلت: فكيف أقربه؟

أعطـاني قـارورة صـغيرة، وقـال: تنـاول من هـذه القـارورة، وسترى الموت الذي يقربك من الله.

أخذت القارورة من يده، وسرت بها إلى بعض الحدائق.. لكـني ما إن مددت بفمها إلي فمي حتى سمعت صوتا يردد بصوت جميل هذه الكلمات :﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (163) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْـكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّـمَاءِ مِنْ مَـاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَـا وَبَثَّ فِيهَـا مِنْ كُـلِّ دَابَّةٍ وَتَصْـرِيفِ الرِّيَـاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَـوْمٍ يَعْقِلُـونَ (164) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِـذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْـدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (165)﴾ (البقرة)

السلام

كان للصوت من القوة والدفء والحنـان مـا جعلـني أصـيح من حيث لا أشعر: هذا هو الإله الذي ظللت طول عمـري أبحث عنـه.. فدلوني عليه.

أقبل إلي الرجل القارئ، وقـال: هـا أنـذا بين يـديك.. مـا الـذي تطلبه مني؟

قلت بلهفة وحزن: أنا أبحث عن ربي.. لقد ظللت طول عمري

أبحث عنه.. ولكني لم أجد في بحثي إلا السراب.

قال لي: وأنا محمـد.. جئت من بلاد بعيـدة.. وليس لي من دور إلا التبشير بالإلـه الحقيقي الـذي حـاول قطـاع الطـرق أن يحجبـوا الخلق عنه.

قلت: فهلم دلــني عليــه.. فلا يمكن لــروحي أن تســمو.. ولا لنفســي أن تطمئن إلا بصـحبته.. وإيـاك وأحـاديث اللصـوص فقـد ملأوني أوهاما.

قال: جل جناب الحق أن يترك اللصوص وحدهم.. وجـل جنـاب الحق أن يترك الدنيا بلا هـاد يـدل عليـه.. إن كـرم الكـريم ورحمـة الرحيم ولطف اللطيف يأبى ذلك.

قلت: أراك تذكر أسماء كثيرة.. فلمن هي؟

قال: هي أسماء ربي.. لربي من الأسماء ما يـدل عليـه.. ونحن نتعرف عليه من خلالها، ونتعامل معه على أساسها.. فبمـا أن اللـه غـني، فنحن فقـراء إلى فضـله، قـال تعـالى :﴿ يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ أَنْتُمُ الفُقَـرَاءُ إِلَى اللـهِ وَاللـهُ هُـوَ الغَنِيُّ الحَمِيـدُ ﴾ (فـاطر:15)، وقـال تعـالى :﴿ وَرَبُّكَ الغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَـةِ إِنْ يَشَـأْ يُـذْهِبْكُمْ وَيَسْـتَخْلفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ (الأنعــام:123)، وقال :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَل مِنْ خَالقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلهَ إِلا هُوَ فَأَنَّي تُؤْفَكُونَ ﴾ (فاطر:3)

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه تَبَارَكَ وَتعالي :(يَـا عِبَـادِي إِنَّكُمْ لنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُـونِي، يَـا عِبَـادِي لـوْ أَنَّ أَوَّلكُمْ وَآخِـرَكُمْ وَإِنْسَـكُمْ وَجِنَّكُمْ كَـانُوا على أَتْقَي قَلبِ رَجُـلٍ وَاحِـدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلـكَ فِي مُلكِي شَـيْئًا، يَـا عِبَـادِي لـوْ أَنَّ أَوَّلكُمْ وَآخِـرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا علي أَفْجَرِ قَلبِ رَجُلٍ وَاحِـدٍ مَـا نَقَصَ ذَلـكَ مِنْ مُلكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لوْ أَنَّ أَوَّلكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُل إِنْسَانٍ مَسْأَلتَهُ مَا نَقَصَ ذَلـكَ مِمَّا عِنْـدِي إِلا كَمَـا يَنْقُصُ المِخْيَـطُ إِذَا أُدْخِـل البَحْـرَ، يَـا عِبَـادِي إِنَّمَـا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَـا فَمَنْ وَجَـدَ خَيْـرًا فَليَحْمَـدِ اللـهَ

وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَه)(1)

قلت: إن لحديث ربك حلاوة.. فدلني عليـه.. وعرفـني بأسـمائه الحسنى.. لعلي أحيط بمعرفته علما.

قـال: ربي أعظم من أن يحـاط بـه علمـا.. قـال تعـالى: وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً(طه: 110)

إن البشر الـذين عجـزوا عن معرفـة أبسـط أسـرار المكونـات كيف يطمعون في الإحاطة برب المكونات.

قلت: فسم لي أسماء ربك.. لعلي أعبر منها إلى ذاته.

قال: البشر جميعا بجميـع عقـولهم وطاقـاتهم أعظمـوا من أن يحصروا أسـماء ربهم.. لقـد قـال تعـالى : لِلَّهِ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُــوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيــدُ (26) وَلَــوْ أَنَّمَــا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِـدَتْ كَلِمَـاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (27) (لقمان)

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ:(مَا قَالَ عَبْـدٌ قَـطُّ، إِذَا أَصَـابَهُ هَمٌّ أَوْ حُزْنٌ : اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْـدِكَ ابْنُ أَمَتِـكَ، نَاصِـيَتِي بِيَـدِكَ، مَـاضٍ فِيَّ حُكْمُـكَ، عَـدْلٌ فِيَّ قَضَـاؤُكَ، أَسْـأَلُكَ بِكُـلِّ اسْـمٍ هُـوَ لَـكَ، سَمَّيتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَمْتَـهُ أَحَـداً مِنْ خَلْقِـكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُـورَ بَصَرِي، وَجِلاَءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلا أَذْهَبَ اللـهُ هَمَّهُ وَأَبْدَلَـهُ مَكَـانَ حُزْنِهِ فَرَحاً)(2)

قلت: فسم لي من أسمائه ما أطيق(3).

الواحد:

1() رواه مسلم.

2() رواه ابن حبان.

3() سنذكر هنا ملخصا مختصـرا لبعض الأسـماء الحسـنى وسـنرى التفاصـيل والأدلـة المرتبطة بها في رسالة (الباحثون عن الله) من هذه السلسلة.

قال: ربي **هو الواحد الأحد**.. وصف نفسه، فقال: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص: 1)، وقال : ﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (الرعد: 16)

قلت: من هو الواحد الأحد؟

قال: هو الذي تفرّد بكل كمال، ومجد وجلال، وجمال، وحمد، وحكمة، ورحمة، وغيرها من صفات الكمال، فليس له فيها مثيل ولا نظير، ولا مناسب بوجه من الوجوه، فهو الأحد في حياته، وقيوميته، وعلمه، وقدرته، وعظمته، وجلاله، وجماله، وحمده، وحكمته، ورحمته، وغيرها من صفاته.. وهو موصوف بغاية الكمال، ونهايته من كل صفة من هذه الصفات..

العلي:

قلت: إن ذلك حسن يدل عليه كل شيء.. فما غيره؟

قال: ربي هو **العلي الأعلى..** يقول في كتابه الكريم واصفا نفسه: ﴿ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (البقرة: 255)، وقال: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ (الأعلى: 1)

قلت: من العلي الأعلى؟

قال: هو الذي لا رتبة فوق رتبته وجميع المراتب منحطة عنه.. وهو الذي لا يقدر الخلائق كلهم أن يحيطوا ببعض معاني صفة واحدة من صفاته، قال تعالى: ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾(طه:110).. وهو ليس كمثله شيء في كل نعوته.. وهو الذي قهر بعزته وعلوه الخلق كلّهم، فنواصيهم بيده، وما شاء كان لا يمانعه فيه ممانع، وما لم يشأ لم يكن.. فلو اجتمع الخلق على إيجاد ما لم يشأه الله لم يقدروا، ولو اجتمعوا على منع ما حكمت به مشيئته لم يمنعوه.

الأول، والآخر، والظاهر، والباطن:

قلت: إن ذلك حسن تدل عليه كل الحقائق.. فما غيره؟

قال: ربي هو **الأول، والآخر، والظاهر، والباطن**.. قال تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1)

لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (2) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3)﴾ (الحديد)

قلت: إن هذا النص الذي تلوته يتناول القلوب، فيهزها هزاً، ويأخذها أخذاً..

قال: أجل.. إنه يجول بها في الوجود كله فلا تجد إلا الله، ولا ترى إلا الله، ولا تحس بغير الله، ولا تعلم لها مهرباً من قدرته ولا مخبأ من علمه، ولا مرجعاً إلا إليه، ولا متوجهاً إلا لوجهه الكريم.

قلت: فما معنى هذه الأسماء؟ :

قال: لقد فسرها النبي ﷺ فقال مخاطبا لربه: (أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء)(1)

قلت: ففسر لي ما قال؟

قال: إنه يعني أن الله هو الأول فليس قبله شيء.. وهو الآخر فليس بعده شيء.. وهو الظاهر فليس فوقه شيء.. وهو الباطن فليس دونه شيء..

هو الأول والآخر مستغرقاً كل حقيقة الزمان..والظاهر والباطن مستغرقاً كل حقيقة المكان.. وهما مطلقتان.

قلت: إن هذا يعني أن الله هو الموجود الوحيد في الكون.

قال: أجل.. إن الله هو صاحب الوجود الحقيقي في الكون.. وكل شيء يستمد وجوده منه..

قال ذلك، ثم أخذ ينشد بصوت عذب:

الله قل وذر الوجود وما حوى	إن كنت مرتاداً بلوغ كمال

---

(1) رواه مسلم.

فالكل دون الله أن حققته عدم على التفصيل والإجمال

واعلم بأنك والعوالم كلها لولاه في محو وفي اضمحلال

من لا وجود لذاته من ذاته فوجوده لولاه عين محال

والعارفون بربهم لم يشهدوا شيئاً سوى المتكبر المتعال

ورأوا سواه على الحقيقة هالكا في الحال والماضي والاستقبال

قلت: إن لما تقوله تأثيرا عظيما في النفس لا يمكن وصفه.

قال: أجل.. إن هذه الحقائق إذا استقرت في قلب، فما احتفاله بشيء في هذا الكون غير الله ؟ وكل شيء لا حقيقة له ولا وجود - حتى ذلك القلب ذاته - إلا ما يستمده من تلك الحقيقة الكبرى؟ وكل شيء وهم ذاهب، حيث لا يكون ولا يبقى إلا الله، المتفرد بكل مقومات الكينونة والبقاء(1)؟

وإن استقرار هذه الحقيقة في قلب ليحيله قطعة من هذه الحقيقة.

الخالق، البارئ، المصور:

قلت: فزدني من أسماء ربك.

قال: ربي هو **الخالق، البارئ، المصور..** قال تعالى :﴿ هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (الحشر:24)، وقال :

(1) في ظلال القرآن، سيد قطب.. وقد رددنا على الشبهات المرتبطة بهذا وأمثاله في رسالة (أكوان الله) من سلسلة (عيون الحقائق) من (رسائل السلام)

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾(الأنعام:102)، وقال :﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الزمر:62)، وقال :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ (فاطر:3)، وقال :﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل:17)، وقال :﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (النور:45)، وقال :﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (القصص:68)، وقال :﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ (الزخرف:16)، وقال :﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (الرعد:16)، وقال :﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ (غافر:62)

قلت: فما تعني هذه الأسماء؟

قال: إنها تجعلك ترى كل شيء من تصميم الله وصناعته وخلقه.. فلا شيء من الله.. ولا شيء إلا بالله..

القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، المانع، المعطي، الضار، النافع:

قلت: إن هذا جميل يملؤني بالسلام.. فما غيره؟

قال: إن ربي هو **القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، المانع، المعطي، الضار، النافع**.. قال تعالى:﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة:245)، وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً﴾ (الفرقان: 45-46)، وقال :﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ (الشورى: 27)، وقال :﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴾ (الإسراء:30)، وقال :﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الشورى:12)

وكان النبي ﷺ يدعو، فيقول :(اللَّهُمَّ لاَ قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ وَلاَ بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ وَلاَ هَادِىَ لِمَا أَضْلَلْتَ وَلاَ مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ وَلاَ

مُعْطِيَ لِمَـا مَنَعْتَ وَلاَ مَـانِعَ لِمَـا أَعْطَيْتَ وَلاَ مُقَـرِّبَ لِمَـا بَاعَـدْتَ وَلاَ مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ وأعوذ بك مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَـا وَشَـرِّ مَـا مَنَعْتَ منـا) (1)

وروي أن النَّاس قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ غَلاَ السِّعْرُ فَسَعِّرْ لَنَا، فَقَـالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:(إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسَـعِّرُ الْقَـابِضُ الْبَاسِـطُ الـرَّازِقُ وإني لأَرْجُـو أَنْ أَلْقَي اللَّهَ وَلَيْسَ أَحَـدٌ مِنْكُمْ يُطَـالِبُنِي بِمَظْلَمَـةٍ فِي دَمٍ وَلاَ مَالٍ)(2)

وقال ﷺ :(إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَـلَّ يَبْسُـطُ يَـدَهُ بِاللَّيْـلِ لِيَتُـوبَ مُسِـيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا)(3)

وقـال لأصـحابه حِينَ نَـامُوا عَنِ الصَّـلاَةِ:(إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ أَرْوَاحَكُمْ حِينَ شَاءَ، وَرَدَّهَا حِينَ شَاءَ)(4)

وقَالَ: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَرَادَ رَحْمَةَ أُمَّةٍ مِنْ عِبَادِهِ قَبَضَ نَبِيَّهَـا قَبْلَهَا فَجَعَلَهُ لَهَا فَرَطًا وَسَلَفًا بَيْنَ يَدَيْهَا وَإِذَا أَرَادَ هَلَكَةَ أُمَّةٍ عَذَّبَهَا وَنَبِيُّهَا حَيٌّ فَأَهْلَكَهَا وَهُوَ يَنْظُرُ فَأَقَرَّ عَيْنَهُ بِهَلَكَتِهَـا حِينَ كَـذَّبُوهُ وَعَصَـوْا أَمْـرَهُ) (5)

قلت: ما يعني كل هذا؟

قال: يعني أن ربي ورب الخلق جميعا هـو المتفـرد بكـل تـدبير يحصـل في الكـون.. فهـو الـذي يقبض الأرواح عن الأشـباح عنـد الممات.. وهو الذي يبسط الأرواح في الأجساد عنـد الحيـاة.. وهـو الـذي يقبض الصـدقات من الأغنيـاء.. وهـو الـذي يبسـط الأرزاق للضعفاء.. وهو الذي يبسط الرزق على الأغنياء حتى لا يبقي فاقة..

1() رواه أحمد.

2() رواه الترمذي وقال حسن صحيح، ورواه أبو داود وابن ماجه وأحمد.

3()رواه مسلم.

4()رواه البخاري.

5()رواه مسلم.

وهو الذي يقبضه عن الفقراء حتى لا يبقي طاقة.. وهو الذي يقبض القلوب فيضيقها بما يكشف لهـا من قلـة مبالاتـه وتعاليـه وجلالـه.. وهو الذي يبسطها بما يتقرب إليها من بره ولطفه وجماله.

وهو الذي يخفض الكفار بالإشقاء.. وهـو الـذي يرفـع المؤمـنين بالإسعاد.. وهو الـذي يرفـع أوليـاءه بـالتقريب.. وهـو الـذي يخفض أعداءه بالإبعاد.

وهو الذي يؤتي الملك من يشاء.. وهو الذي يسلبه ممن يشاء..

البر، الوهاب، الكريم:

قلت: إن تفرد ربك بكل هذا عظيم.. وهو يملؤني بالسلام.. فما غيره؟

قال: إن ربي هو **البر، الوهاب، الكـريم**.. قـال تعـالى : إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ(الطـور: 28)، وقـال: وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (النمل: 40)، وقال: وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَـةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (آل عمـران: 8)، وقال : وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ (النحل:53)

قلت: ما يعني هذا؟

قال: إن ربي هـو الـبر الوهـاب الكـريم الـذي شـمل الكائنـات بأسرها ببره، وهباته، وكرمه، فهو مولى الجميـل، ودائم الإحسـان، وواسـع المـواهب.. وصـفه الـبر.. وآثـار هـذا الوصـف جميـع النعم الظاهرة، والباطنة، فلا يستغني مخلـوق عن إحسـانه وبـره طرفـة عين.

الرحمن الرحيم:

قلت: إن هذا حسن.. وهو يملؤني بالأمل.. فما غيره؟

قال: إن ربي هو الرحمن الرحيم الذي وسع كـل شـيء رحمـة وعلما.. قال تعالى : رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً (غـافر:7)، وقال : وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْء (الأعراف:156)

وقد وردا مقترنين في مواضع من القرآن الكـريم للدلالـة على سـعة الرحمـة وشـمولها، كمـا قـال تعـالى: ﴿ بِسْـمِ اللَّهِ الـرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة: 1)، وقال تعالى: ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحـة: 3)، وقال تعـالى: ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِـدٌ لا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ الـرَّحْمَنُ الـرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: 163)، وقال تعالى: ﴿ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (فصـلت: 2)

بل إن الله تعالى جعل اسم الرحمن علمـا على الـذات الإلهيـة المقدسة، قال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَـدْعُوا فَلَـهُ الْأَسْـمَاءُ الْحُسْـنَى ﴾ (الاسـراء: من الآية110)، وقـال تعـالى: ﴿ وَلَقَـدْ قَـالَ لَهُمْ هَـارُونُ مِنْ قَبْـلُ يَا قَـوْمِ إِنَّمَـا فُتِنْتُمْ بِـهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ (طـه: 90)

ومما يدل على دلالته للذات أن الله تعالى نسـب الملـك للفـظ الجلالة الدال عل الذات، كما قـال تعـالى: ﴿ الْمُلْـكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (الحج: 56) ونسبه إلى الرحمن، كما قال تعالى: ﴿ الْمُلْـكُ يَوْمَئِذٍ الْحَـقُّ لِلـرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمـاً عَلَى الْكَـافِرِينَ عَسِـيراً ﴾ (الفرقـان: 26)، وقـال تعـالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّـفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَـهُ الـرَّحْمَنُ وَرَضِـيَ لَـهُ قَـوْلاً ﴾ (طـه: 109)، وقـال تعـالى: ﴿ يَـوْمَ يَقُـومُ الـرُّوحُ وَالْمَلائِكَـةُ صَـفّاً لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً ﴾ (النبأ: 38)

ولهذا ترد نسبة العباد إلى الرحمن سواء من البشـر، كمـا قـال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً ﴾ (الفرقـان: 63)، أو من الملائكـة، كمـا قـال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَـهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلونَ ﴾ (الزخرف:19)

ودلالته على الذات تعني شموليته لكل شيء، فكل شيء قـائم بالله، ولهذا يربط القرآن الكريم كل المظاهر برحمانية اللـه سـواء ما كان منها من باب الرحمة الخالصة، كقوله تعالى: ﴿ جَنَّاتِ عَـدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً ﴾ (مريم: 61)

أو من باب الرحمة الممزوجة بـالآلام على حسـب مـا تقتضـيه الأسـماء الحسـنى والحكمـة الإلهيـة، كمـا قـال تعـالى على لسـان

إبـراهيم ﷺ: ﴿ يَـا أَبَتِ إِنِّي أَخَـافُ أَنْ يَمَسَّـكَ عَـذَابٌ مِنَ الـرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ (مريم: 45)

فقـد ذكـر إبـراهيم ﷺ الـرحمن، ولم يقـل الجبـار ولا القهـار، للدلالة على أن العذاب لا يتنافى مع الرحمة الإلهية، كمـا لا يتنـافى الكي أو الحقنـة أو الـدواء المـر إذا وضـعت في مواضـعها الـتي تقتضيها حكمة الجسم مع رحمة الطبيب.

ولذلك قال تعالى: ﴿ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُـرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَـفَاعَتُهُمْ شَـيْئاً وَلا يُنْقِـذُونِ﴾ (يّـس:23)، فقـد نسـب إرادة الضـر إلى الـرحمن ليـدل على أن هـذا الضـرر في حقيقتـه رحمة، اقتضاه التدبير الإلهي.

ومثل ذلك قولـه تعـالى:﴿ ثُمَّ لَنَنْـزِعَنَّ مِنْ كُـلِّ شِـيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَـدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً﴾ (مـريم: 69)، وقـال تعـالى:﴿ قُـلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَـا يُوعَـدُونَ إِمَّا الْعَـذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً﴾ (مريم: 75)

وقـد وردت النصـوص الكثـيرة الـتي تقـرب لنـا حقيقـة هـذه الصـفات العظيمـة.. ففي الحـديث أن رسـول اللـه ﷺ رأى امـرأة تبحث عن ولدها، فجعلت كلما وجدت صبياً أخذته فألصقته بصدرها وهي تدور على ولدها، فلما وجدته ضمته إليه وألقمته ثديها، فقـال رسول اللّه ﷺ:(أتـرون هـذه طارحـة ولـدها في النـار وهي تقـدر على أن لا تطرحه؟)، قالوا:(لا يا رسـول اللّـه)، قـال:(فواللّـهِ، للّه أرحمُ بعباده من هذه بولدها) (1)

بل إن رسول الله ﷺ أخبرنا بأن هذه الرحمة التي وقفتها هـذه الأم ليست سوى تجل من تجليات رحمة الله، قال ﷺ:(جعـل اللّـه الرحمة مائة جزء فأمسك عنـده تسـعة وتسـعين جـزءاً وأنـزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك تـتراحم الخلائـق، حـتى ترفـع الدابـة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه) (2)

1() رواه البخاري.

2() رواه البخاري ومسلم.

وقد أخبر القـرآن الكـريم أن ﴿الـرَّحْمَنُ عَلَى الْعَـرْشِ اسْـتَوَى﴾ (طــه:5)، وفي ذلـك إشـارة إلى أن مملكـة هـذا الكـون الواسـعة مبنية على أساس الرحمة الإلهية ومنتهية إليها.

فالله تعالى في تلك الآية الكريمة لم يخـتر من أسـمائه إلا هـذا الاسم الجليل الذي يجمع بين الدلالـة على منتهى الرحمـة وكمالهـا والعلمية على الذات ليدل على هـذا المعـنى، فإنـه إذا قيـل:(حكم الملك الشجاع) دل ذلك على ان أكبر منجزات هذا الملك مؤسسة على شـجاعته، وإن قيـل:(حكم الملـك العـادل) دل ذلـك على أن أبرز ما يظهر في مملكته هو عدله، وهكذا.

الودود:

قلت: إن هذا لجميل يدل عليه كل شيء.. فما غيره؟

قال: إن ربي هو **الودود**.. قال تعالى :﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْـوَدُود ذُو الْعَـرْشِ الْمَجِيـدُ ﴾ (الـبروج:14-15)، وقـال:﴿ وَاسْـتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ (هود:90)، وقـال :﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُـوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96)﴾ (مريم)، وقــال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَـأْتِي اللَّهُ بِقَـوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِـدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَـاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (54)﴾ (المائدة)

ويحكي رسول اللــه ﷺ عن ربـه قولـه لعبـاده:(إذا تقـرب إلي العبد شبرا تقربت إليه ذراعا وإذا تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعـا وإذا أتـاني يمشـي أتيتـه هرولـة) (1)، وقولـه:(يـا ابن آدم قم إلي أمش إليك وامش إلي أهرول إليك) (2)

وفي الأثر الإلهي يقول الله تعـالى:(إني والجن والإنس في نبـإ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي)(3)

---

(1) رواه البخاري.

(2) رواه أحمد.

(3) رواه الحكيم والبيهقي.

وفي أثر آخر:(ابن آدم، ما أنصفتني، خيري إليك نازل، وشــرك إلي صــاعد، أتحبب إليــك بــالنعم وأنــا عنــك غــني، وتتبغض إلي بالمعاصي، وأنت فقير إلي)

وفي أثر آخر:(يا ابن آدم ما من يوم جديد إلا يأتيـك من عنـدي رزق جديد، وتأتي عنك الملائكة بعمل قبيح، تأكل رزقي وتعصــيني، وتدعوني فأستجيب لك، وتسألني فأعطيك، وأنا أدعوك إلى جنــتي فتأبى ذلك)

وفي أثر آخر:(يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفـرت لـك على ما كان منك ولا أبالي يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السـماء ثم استغفرتني غفرت لـك، يـا ابن آدم لـو أتيتـني بقرابـة الأرض - بضم القاف ويجوز كسـرها أي قـريب ملئهـا - خطايـا ثم لقيتـني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة) (1)

قلت: إن هذا جميل.. ولكن ألا ترى فيـه تشـجيعا للعصـاة على معاصيهم؟

قـال: لا.. إن اللـه تعـالى هـو الـذي وصـف نفسـه بـذلك، ومن الخطر أن نصف الله تعالى بغير ما وصف به نفسه..

فالله تعالى يخاطب المسـرفين على أنفسـهم بـألوان الـذنوب قائلا:﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر:53)، فالله تعالى عرف نفسـه لهـؤلاء المسـرفين بكونـه غفـورا رحيمـا، ومن الخطأ أن نعرفهم لهم بغير ما عرفهم به.

بل إن هذا التعريف هو الذي يحـرك القلـوب للسـير نحـو اللـه، ويكبح الغرائــز عن معارضــة الــرحيم الــودود، وقــد روي أن عليــاً الأسدي حارب، وأخاف السبيل، وأصاب الدم والمال، فطلبه الأئمة والعامة فامتنع، ولم يقدروا عليه حتى جاء تائبـاً، وسـبب توبتـه أنـه سـمع رجلاً يقـرأ هـذه الآيـة:﴿ قُـلْ يَـا عِبَـادِيَ الَّذِينَ أَسْـرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعـاً إِنَّهُ هُـوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر:53)، فوقف عليه، فقال:(يا عبد اللـه أعـد

(1) رواه الترمذي.

قراءتها فأعادها عليه، فغمد سيفه، ثم جاء تائباً.

ويروى من هذا أن مجوسياً استضاف إبراهيم الخليل ﵇، فقال: إن أسلمت أضفتك؛ فمرّ المجوسي، فأوحى الله تعالى إليه: يا إبراهيم لم تطعمه إلا بتغيير دينه ونحن من سبعين سنة نطعمه على كفره، فلو أضفته ليلة ماذا كان عليك؛ فمر إبراهيم يسعى خلف المجوسي فرده وأضافه؛ فقال له المجوسي: ما السبب فيما بدا لك؟ فذكر له؛ فقال له المجوسي: أهكذا يعاملني ثم قال: اعرض علي الإسلام فأسلم.

فهذه المعرفة بالله جعلت الأول يستهين بكل صعب في سبيل الله، ولذلك قال الغزالي:(اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف، لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له، والحب يغلب الرجاء، واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفاً من عقابه والآخر رجاء لثوابه) (1)

ولما يتضمنه القنوط من رحمة الله من مساوئ في الاعتقاد أو السلوك ورد النصوص بتحريمه، كما قال تعالى في الآية السابقة: لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)(الزمر: من الآية53)، فحرم أصل اليأس.

بل اعتبر اليأس من روح الله من صفات الكافرين، كما قال تعالى: إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (يوسف: من الآية87)

وأخبر تعالى أن كفر الكافرين وضلالهم ناتج عن سوء ظنهم بربهم، كما قال تعالى: وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (فصلت:23)، وقال تعالى: بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (الفتح:12)

وذلك لأن استشعار رحمة الله يحبب في لقاء الله، بخلاف اليأس من رحمته، فإن الإنسان يكره لقاء من لا يحبه، قال ﷺ:(إن شئتم أنبأتكم: ما أول ما يقول الله تعالى للمؤمنين يوم القيامة وما أول ما يقولون له؟ قلنا: نعم يا رسول الله. قال: إن الله تعالى

---

(1) الإحياء.

يقول للمؤمنين هل أحببتم لقائي؟ فيقولـون: نعم يـا ربنـا. فيقـول: لم؟ فيقولـون رجونـا عفـوك ومغفرتـك، فيقـول: قـد وجبت لكم مغفرتي) (1)

ولهذا ورد الأمر بحسن الظن بالله خاصة في موقف الاحتضـار، وقد سمع النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول:(لا يموتن أحـدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى) (2)

ودخل ﷺ على شاب وهو في الموت فقال: كيف تجدك؟ قـال: أرجو الله يا رسول الله، وإني أخاف ذنوبي، فقال ﷺ:(لا يجتمعـان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله مـا يرجـو وأمنـه مما يخاف) (3)

وقد أخبر ﷺ عن تأثير حسن الظن باللـه ــ والـذي يعتمـد على معرفة رحمة الله الواسعة ـ سواء في السلوك أو في تـنزل فضـل الله عليه:

فقال عن تأثيره السـلوكي:(حسـن الظن من حسـن العبـادة) (4)، وقال ﷺ:(إن أفضل العبادات حسن الظن بالله تعالى، يقـول الله لعباده أنا عند ظنك بي) (5)

وقال عن تأثيره في تنزل فضل الله عليه:(قال الله تعالى: أنـا عند ظن عبدي بي وأنا معـه حيث يـذكرني) (6)، وقـال ﷺ:(قـال الله جل وعلا: أنا عنـد ظن عبـدي بي إن ظن خـيرا فلـه، وإن ظن شرا فله) (7)

1() رواه أحمد الطبراني في الكبير وفيه عبيد الله بن زحر وهو ضعيف.

2() رواه أحمد ومسلم.

3() رواه الترمذي، وقال: غريب.

4() رواه أبو داود والحاكم.

5() رواه البغوي.

6() رواه البخاري.

وأخبر ﷺ عن تأثير حسن الظن بالله في الآخرة بقوله:(أمر الله تعالى بعبد إلى النار فلما وقف على شفيرها التفت فقال: أما والله يا رب إن كان ظني بك لحسنا، فقال الله تعالى ردوه، أنا عند ظن عبدي بي) (8)

ويروى في الأثر أن رجلين كانا من العابدين متساويين في العبادة، قال: فإذا أدخلا الجنة رفع أحدهما في الدرجات العلى على صاحبه، فيقول: يا رب ما كان هذا في الدنيا بأكثر مني عبادة فرفعته عليَّ في عليين، فيقول الله سبحانه: إنه كان يسألني في الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألني النجاة من النار، فأعطيت كل عبد سؤله.

وسر هذا أن القانط من رحمة الله يعتقد في الله ما لا يليق به مما ينزه عنه، بينما من أحسن ظنه بالله، وإن قصر في سلوكه، فإن ذلك التقصير لم يؤثر في حسن معرفته بربه، ولذلك قال علي لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه:(يا هذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك)

ولهذا ورد الأمر بتحبيب الله إلى عباده، وذلك لا يكون إلا بذكرفضله ورحمته، وقد أوحي الله تعالى إلى داود عليه السلام:(أحبني وأحب من يحبني وحببني إلى خلقي)، فقال:(يا رب، كيف أحببك إلى خلقك؟)، قال:(اذكرني بالحسن الجميل واذكر آلائي وإحساني وذكرهم ذلك فإنهم لا يعرفون مني إلا الجميل)

ويروى أنّ رجلاً من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدّد عليهم، فيقول الله تعالى يوم القيامة له:(اليوم أويسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها)

العفو، التواب، الغفور:

قلت: إن ما تذكره جميل.. فما غيره؟

قال: إن ربي هو العفو التواب الغفور.. قال تعالى : ﴿ فَأُوْلَئِكَ

7() رواه أحمد وفيه ابن لهيعة.

8() رواه البيهقي.

يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا (الفرقـان:71)، وقال : نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الـرَّحِيمُ (الحجـر:49)، وقـال : وَإِنَّ رَبَّكَ لَـــذُو مَغْفِـــرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَـــدِيدُ العِقَابِ (الرعد:6)، وقال : وَرَبُّكَ الغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ (الكهـف: 58)

وقال ﷺ :(قَالَ الله : يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَـا كَـانَ فِيـكَ وَلاَ أُبَـالِي، يَـا ابْنَ آدَمَ لَـوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُـكَ عَنَـانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي، يَـا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَـوْ أَتَيْتَنِي بِقُـرَابِ الأَرْضِ خَطَايَـا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْـرِكُ بِي شَـيْئًا لأَتَيْتُـكَ بِقُرَابِهَـا مَغْفِرَةً)(1)

وقال:(لله أفرح بتوبة العبـد من رجـل نـزل مـنزلا وبـه مهلكـة ومعـه راحلتـه، عليهـا طعامـه وشـرابه، فوضـع رأسـه فنـام نومـة فاستيقظ، وقـد ذهبت راحلتـه، فطلبهـا حـتى إذا اشـتد عليـه الحـر والعطش، قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أمـوت فرجع فنـام نومـة، ثم رفـع رأسـه فـإذا راحلتـه عنـده، عليهـا زاده وطعامه وشرابه، فاللـه أشـد فرحـا بتوبـة العبـد المـؤمن من هـذا براحلته وزاده) (2)

الحَفيظُ:

قلت: إن ما تذكره جميل يملؤنا بالأمل والقوة.. فما غيره؟

قال: إن ربي هو الحفيظ الذي يحفظ كل شيء. قال تعالى : وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (سبأ:21)، وقال: وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (الشـورى:6)، وقال على لسان هود: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِـلْتُ بِـهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ حَفِيظٌ هود:57)

الجليل، الجميل:

1() رواه الترمذي.

2() رواه البخاري ومسلم.

قلت: إن ما تذكره جميل يملؤنا بالطمأنينة والاستقرار.. فما غيره؟

قال: إن ربي هو الجليل الجميل، قال ﷺ :(إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَال)(1) .. فلا شيء أكمل من الله، ولا شيء أجمل من الله.. فكل كمال وجمال في المخلوق من آثار صنعته وكمال قدرته وبديع حكمته.. فلا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه، له الفضل كله على خلقه، وله النعمة السابغة والحجة البالغة، والسطوة الدامغة، ليس في أفعاله عبث، ولا في أوامره سفه، بل أفعاله كلها لا تخرج عن المصلحة والحكمة والفضل والرحمة، كلامه صدق، ووعده حق، وعدله ظاهر في سائر الخلق، إن أعطى فبفضله ورحمته، وكرمه ونعمته، وإن منع أو عاقب فبعدله وحكمته.

العليم، الخبير، اللطيف:

قلت: إن هذا جميل يملأ القلب محبة وتعظيما.. فما غيره؟

قال: إن ربي هو العليم الخبير اللطيف الذي أحاط بكل شيء علما.. قال تعالى : وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي البَرِّ وَالبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمّىً ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (الأنعام:59-60)، وقال : إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلا بِعِلمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (فصلت:47)، وقال : لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلمِهِ وَالمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّه شَهِيداً (النساء: 166)، وقال : وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ (الأنعام:13)، وقال : فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ (الأنعام:96)، وقال : يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ العَلِيمُ القَدِيرُ (الروم:54)، وقال : وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ

(1)رواه مسلم.

(الزخـرف:84)، وقـال : أَوَلَيْسَ الـذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَـادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُـقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُـوَ الخَلاقُ العَلِيمُ (يّس:81)، وقال : قُل يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالحَقِّ وَهُوَ الفَتَّاحُ العَلِيمُ (سبأ:26)

وقال في بيان سعة علمه: وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (الأنعام:80)، وقال تعالى: قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (لأعراف:89)، وقال تعالى: إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً (طه: 98)

السميع البصير:

قلت: إن هذا جميل يملأ القلب محبة وتعظيما.. فما غيره؟

قال: إن ربي هو السميع الذي لا يعزب عن إدراكه مسموع وإن خفي، فيسمع السر والنجوى، بل ما هو أدق من ذلك وأخفى، ويدرك دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.. يسمع حمد الحامدين فيجازيهم.. ويسمع دعاء الداعين فيستجيب لهم.. يسمع بغير أصمخة وآذان كما يفعل بغير جارحة ويتكلم بغير لسان وسمعه منزه عن أن يتطرق إليه الحدثان.. قال تعالى : وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (البقرة:127)، وقال : إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (آل عمران:35)، وقال عن دعاء زكريا : قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (آل عمران:38)

وقال رسول الله ﷺ :(وَإِذَا قَالَ : سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ فَقُولُوا : اللهمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، يَسْمَعِ الله لَكُمْ ؛ فَإِنَّ الله تَعَالَى قَالَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ : سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ)(1)

(1) رواه مسلم.

وهو البصير الـذي يشـاهد ويـرى حـتى لا يعـزب عنـه مـا تحت الثرى، وإبصاره منزه عن أن يكون بحدقـة وأجفـان، ومقـدس عن أن يرجع إلى انطباع الصور والألوان في ذاته كما ينطبع في حدقــة الإنسان، فإن ذلك من التغير والتأثر المقتضي للحدثان.

قال تعالى عن موسى ﷺ : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّـرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي هَـارُونَ أَخِي اشْـدُدْ بِـهِ أَزْرِي وَأَشْـرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَـبِّحَكَ كَثِيراً وَنَـذْكُرَكَ كَثِيراً إِنَّكَ كُنتَ بِنَـا بَصِـيراً قَـالَ قَـدْ أُوتِيتَ سُـؤْلَكَ يَـا مُوسَـى ﴾ (طـه:25-35)، وقـال على لسـان مـؤمن آل فرعـون : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُـوكُمْ إِلَى النَّجَـاةِ وَتَـدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَـدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِـهِ عِلْمٌ وَأَنَـا أَدْعُـوكُمْ إِلَى الْعَزِيـزِ الْغَفَّارِ لا جَـرَمَ أَنَّمَـا تَـدْعُونَنِي إِلَيْـهِ لَيْسَ لَـهُ دَعْـوَةٌ فِي الـدُّنْيَا وَلا فِي الآخِــرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَــا إِلَى اللـــهِ وَأَنَّ الْمُسْـــرِفِينَ هُمْ أَصْـحَابُ النَّارِ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (غــافر:41/44)، وقــال :﴿ وَقُــلِ اعْمَلُــوا فَسَــيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105) ﴾ (التوبة)

الحكيم:

قلت: إن هذا عظيم يملأ القلب مهابة.. فما غيره؟

قال: إن ربي هو الحكيم.. قال تعـالى :﴿ قَـالُوا سُـبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَـا عَلَّمْتَنَـا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (البقــرة:32)، وقـال على لسان نبيه إبراهيم ﷺ :﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُـولاً مِنْهُمْ يَتْلُـو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ وَيُـزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة:129)، وقال:﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام:18)، وقال:﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَـا إِبْـرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِـهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَـاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعـام:83)، وقـال:﴿ يُـؤْتِي الْحِكْمَـةَ مَنْ يَشَـاءُ وَمَنْ يُـؤْتَ الْحِكْمَـةَ فَقَـدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة:269)

الحكم، العدل:

قلت: إن هذا عظيم.. فما غيره؟

قال: إن ربي حكم عدل.. فهو الذي يحكم بين عباده في الدنيا والآخرة بعدله وقسطه فلايظلم مثقال ذرة، ولا يحمل أحداً وزر أحد، ولا يجازي العبد بأكثر من ذنبه، ويؤدي الحقوق إلى أهلها، فلا يدع صاحب حق إلا وصل إليه حقه.. وهو العدل في تدبيره، وتقديره :﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(هود: 56)

وقال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى: (يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِي أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ) (1)

الرزاق:

قلت: إن هذا عظيم.. فما غيره؟

قال: إن ربي هو الرزاق الذي رزق كل شيء.. قال تعالى : ﴿ أَلا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (النمل: 26)، وقال:﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ (الذريات:22)، وقال:﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ

---

(1) رواه مسلم.

الْعَلِيمُ) (العنكبوت:60)، وقال: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) (هود:6)

فالرزاق هو الذي يتولى تنفيذ الأرزاق لحظة بلحظة.. رزق الخلائق عليه فليس لهم اعتماد في الرزق إلا عليه، ضمن رزقهم وسيؤديه كما وعد، ودورهم فقط أن يعبدوه ولا يشركوا به أحدا، قال تعالى : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (الذاريات:57)، وقال: وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرا) (الطلاق:3)، وقال: لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (الشورى:12)

***

ما إن وصل محمد من حديثه إلى هذا الموضع حتى سمعنا صوتا يصرخ في البرية بأن أمة محمد مهددة بحرب داخلية مدمرة.. فما إن سمع محمد ذلك حتى تغير وجهه.. ثم قام مسرعا، وهو يصيح: لبيك ربي.. لبيك ربي.

تعجبت من قوله هذا.. فسألت بعض من مر بنا عنه.. فأخبروني بأنه رحل إلى هذه البلاد..

مكثت مدة أحاول أن أتسلى عن صحبته لكني لم أطق.. لقد صارت ذكراه ذكرا لربه.. لقد أشعل في قلبي من نيران الأشواق ما كامنا.. وقد جاءت بي الأشواق إلى هذه البلاد.. وها أنتم ترون ما حصل لنا.

وأنا لا آسف على شيء في حياتي كما آسف على فراقه..

الهداية

بعد أن انتهت الأيام العشرة، وانتهت أحاديث أصحابي العشرة، وفي الليلـة الـتي ينفـذ في صـباحها حكم إعـدامنا حصـلت أشـياء عجيبة.. سأقصها عليك باختصار:

لقد كان في حراستنا في ذلك الغار رجل صلب شـديد، لم نكن نعرف منه إلا الطعام البسيط الـذي كـان يحضـره لنـا في الصـباح والمساء.. وكان بينهما، وفي الوقت الذي نشتغل فيه بمـا قصصـته لك من الأحاديث يتصنت علينا باهتمام كبير، وكـان أحيانـا يهـتز لمـا يسمع، وكأننا نخاطبه به.

هذا الرجل الـذي لم نتشـرف بمعرفـة اسـمه، كـان هـو سـبب نجاتنا..

في تلك الليلة.. جاءنـا متخفيـا ملثمـا كعادتـه، ثم طلب منـا أن نسير خلفـه، وأن لا ننحـرف نحـو أي جهـة، كـل ذلـك وهـو مشـهر سلاحه نحونا.

ظننا في البـدء أن حكم الإعـدام سـينفذ علينـا في تلـك الليلـة، فسرنا، وقد ملأتنا مشاعر من وقف بين الموت والحياة..

في تلك اللحظات كدت أصيح من كل قلـبي، وبكـل مشـاعري (لا إله إلا الله محمد رسول الله).. ولكن جبـالا من الحديـد والزنـك والرصاص وقفت في حنجرتي، ومنعتني من أن أنطـق بمـا ظللت طول عمري أحلم بأن أنطق به.

سـرنا خلـف الحـارس.. وقـد تعجبنـا إذ أنـه سـلك بنـا مسـالك كثيرة.. كل ذلك، وهو يشهر سلاحه في وجوهنا، ويصـيح فينـا بكـل قوة بأن نسرع..

بعـد مسـيرة أكـثر من سـاعتين وجـدنا مغـارة لا تختلـف عن المغارة التي كنا فيه، فأشار إلينـا أن نـدخل إليهـا، فـدخلنا.. بعـدها نظر فيما حوله، ثم دخل خلفنا، وأمـاط اللثـام عن وجهـه، فـإذا بـه وجه لا يختلف عن وجوه قومنا لولا تلك اللحية الطويلـة الـتي تمـيز بها الكل في تلك الجبال.

ثم نطق بلغة إنجليزية فصيحة.. وكأنه من غير تلك البلاد، وقـال لنا: اسمحوا لي أن أعرفكم بنفسي.

قال أحدنا ـ مقاطعا له ـ : لا شك أنك من المخابرات الـ (..؟).. ولا شك أن قومنا قد أرسلوك لإنقاذنا.

قال الرجل: أما الأول.. فقد أصـبت فيـه.. فأنـا من المخـابرات التي ذكـرت.. بـل أنـا ذو منصـب مهم في تلـك المخـابرات.. وأمـا الثاني، فقد أخطأت فيه.

تعجبنا من جوابه هذا، وقلنا: فمـا الـذي جعلـك تخـرج من ذلـك المحل؟

قـال: نعم أنـا أردت أن أنقـذكم.. لكن لا تنفيـذا لمـا طلبت من المخابرات.. بل تنفيذ لما طلبـه مـني قلـبي وعقلي وروحي، وربي بعد ذلك كله وقبله..

قلنا: فأنت مسيحي متدين إذن.. لهذا جئت لتنقذنا؟

قـال: قبـل سـاعات كنت مسـيحيا.. لكـني الآن.. والآن فقـط أصرح بأعظم شهادة كتب الله لي أن أشهدها.

قلنا: أي شهادة؟

قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

قلنا: أأسلمت؟

قال: إن أحاديثكم التي تحدثتم بها هي التي جعلتني أسلم.

قلنا: كيف تسلم، وأنت ترى من المسلمين مـا تـرى.. إن حكم الإعدام كان سينفذ فينا هذا الصباح لولا أن أرسلك الله لنا؟

نظر إلى خارج المغـارة، وكأنـه يتهيب ممـا سـيذكره، ثم قـال: أتدرون من كان سينفذ فيكم حكم الإعدام؟

قلنا بصوت واحد: أولئك المسلمون.

قال: نعم.. أولئك المسلمون.. ولكن بوحي ممن؟

قلنا: بوحي من نفوسهم التي امتلأت بالصراع.

قال: النفوس وحدها لا تكفي لصناعة الشر.. كل شر يحتاج إلى ركنين: النفس والشيطان..

قلنا: نعرف الشيطان.. ولكنا لا نستطيع أن ننسب الأمر إليه.. فالشيطان غيب لا شهادة.

قال: لا أقصد شيطان الغيب.. بل أقصد شيطان الشهادة.

قلنا: وهل في الشهادة شياطين؟

قال: أنتم أدرى مني بهم.

قلنا: فمن هؤلاء الشياطين الذين أوحوا للمسلمين ما أوحوا؟

سقطت دموع حارة من عينيه، وقال: لقد كنت قبل ساعة أحدهم.

قلنا: أنت؟

قال: أجل.. ألم أذكر لكم أني من مخابرات (...؟)؟

قلنا: لا نعرف المخابرات إلا أنها الجهة التي تتنصت للأحداث لتتعرف من خلالها على صانعي الأحداث.

قال: أخطر المخابرات هي الجهة التي تصنع الأحداث.

قلنا: لم نفهم.

قال: لاشك أنكم لن تفهموا.. فمثل هذه الأسرار لا يعرفها إلا من وصل إلى الدرجات العليا في سلم المراتب الشيطانية.

قلنا: فقد كان لك حظ من هذه المراتب إذن.

قال: أجل.. ولذلك انتدبت مع أفراد كثيرين لهذه الرسالة..

قلنا: أي رسالة؟

أخرج كاميرا متطورة من جيبه، وقال: إن كل ما مر بكم من

أحداث مسجل هنا.

قلت: أسجلت كلامنا؟

قـال: لا.. سـجلت كـل مـا حصـل معكم من خطـف وعنـف ومحاكمة.

قلنا: لم؟

قال: لنشوه الشمس الـتي لا يمكن لأحـد في الـدنيا أن يطمـع في تشويهها.. لقد أرسلني قومي.. لأسجل كـل مـا يحصـل.. حـتى ساعة الإعدام نفسها.. ليعرض ذلك كلـه على العـالم كلـه.. لتمتلئ قلوب العالم أحقادا على محمد ودين محمد.

قلنا: أهان على قومنا أن تراق دمائنا في سبيل هذا؟

قـال: إنهم يريـدون أن يحولـوكم إلى قديسـين.. ثم يحولـوا بعدكم، وبسببكم، هذه الأرض إلى أطلال.

قلنا: لكن كيف استطعت أن تقنع أولئك الغلاظ بأنك أحدهم؟

قال: وهل يصعب على الراعي الخبير أن يقتاد قطيع ماشيته.

قلنا: ولكن الراعي منهم.. أفلم يكن له من العقل ما يمـيز بـه الماشية من الذئاب.

قال: بل الراعي منا.. إن القائد الأعلى لكل المجموعـات الـتي ترونها في هذه الجبال منا وبنا.. إنـه على وجـه التحديـد المسـؤول الأكبر الذي لست سوى ضابط من ضباط كتيبته.

قلنا: فهو الذي أرسلك إذن.

قال: أجل.. لقـد أرسـلني لـذلك القطيـع.. بعـد أن أمـرهم بـأن ينفذوا كل ما أطلبه.

قلنا: ولكنك خرجت بنا خائفـا.. كـان في إمكانـك أن تخـرج بنـا ونحن في غاية الأمن.

قـال: أنت لا تعـرف القائـد الكبـير.. إنـه لا يثـق في أحـد من

الناس.. فلذلك ينصب على كل خبير من المخـبرين مـا يضـمن بـه نجاح جميع مخططاته.. إنه لا يحب الفشل، ولا يرضى به.

قلنا: فسيعلم القائد الكبير بفرارنا إذن.

قال: أجل.. ولذلك جمعتكم هنا لأخبركم بهذا.

قلنا: فسيكافئونك على إنقاذك لنا إذن.

قال: سيكافئونني بالقتل.. سـيقتلونني قبـل أن يسـمع بي أحـد من الناس.. ثم يرتبوا سيناريو خاصا لينفذوا به خططهم.

قلنا: لم نفهم.

قال: في البـدء كـانت خطتهم.. والـتي وكلت مـع بعض النـاس لتنفيذها.. أن تعدموا.. ثم تنشر صور إعـدامكم إلى العـالم أجمـع.. ليصبح كل واحد منكم قديسا ومسيحا.. ثم يـرمى على المسـلمين الذين صلبوكم من اللعنات ما رمي على اليهود.

قلنا: لقد أفشلت هذه الخطة.. فما الخطة الأخرى؟

قال: سيقتلونني.. ثم يزعمون أنهم استطاعوا بقـوتهم وحيلتهم إنقاذكم.. وهنا أيضا سيظفرون بكل أنـواع الإكبـار.. ولكن مـع ذلـك دون ما كانوا يطلبون.

قلنا: فما الذي دعاك إلى هذه التضحية؟

قال: ما سمعته منكم هو الـذي دعـاني إلى هـذا.. أنـا الإنسـان الذي بلي بكل ما ابتليتم به.. ولم أجد منقذا، فهـرعت إلى الصـراع أبحث فيه عن المنقذ.. وقد دلني ما حدثتموني به عن المنقذ.

قلنا: ولكنك ستموت.

قال: لا يهمني أن أموت بعد أن عرفت المنقذ.. إنـني سـأموت مطمئنا بعد أن وضعت رجلي في الطريـق الصـحيح الـذي تبـدأ بـه ولادتي الثانية.

قلنا: ألا يمكن أن تفر بنفسك وتدعنا.. فلعل اللـه أن يقـدر لـك

النجاة؟

قال: ليت ذلـك كـان ممكنـا.. لا يمكن أن يخـرج أحـد من هـذه الجبال إلا من كان لـه من الخـبرة مـا ظللنـا طـول عمرنـا نتـدرب عليه.

قلنـا: فلم لا ترجـع إلى أصـحابك بعـد أن تنقـذنا، ثم تخـبرهم بفرارنا.. وأنك ظللت تلاحقنا.

قال: أنتم لا تعلمون قانون هذه الوظيفـة.. إن هـذه الوظيفـة لا تطلب من المخطئ أن يعتذر، وإنما تطلب منه أن يقدم رأسه.

قلنا: يعز علينا أن تموت بسببنا.

قال: ويعز علي أن أترك من كان سببا في حياتي يذوق الموت قبل أن يضع رجله في بلاد السلام التي وضعت رجلي فيها.

قال لنا ذلـك.. ثم أعطانـا خطـة الفـرار.. فسـرنا خلفـه نقطـع المسالك والمهالك إلى أن وصلنا إلى أرض عراء كـانت قريبـة من قاعدة من قواعد البلاد التي تنشر الصراع، وتحشـر أنفهـا في كـل شيء.

هناك.. قال لنا: اذهبوا الآن.. فلن تتعرضوا هنا لأي سوء..

فجأة.. رأينا جنودا كثيرين.. لسنا ندري هـل كـانوا من الإنس أم من الجن.. أحاطوا بنا، ثم طلبوا منا أن نرفع أيدينا.. ففعلنا.

تقدم قائدهم منا، وسألنا عنا، فأخبرنـاه، فقـال: من المفـروض أن تكونوا هذه الساعة في تلـك المغـارة، وأن ينفـذ فيكم الإعـدام في الصباح، فكيف جئتم؟

قلنا: لقد أنقذنا هذا الضابط الباسل.

اقترب منه، ثم نظر إليه مليا والحقد يبدو على عينيه، وقـال لـه بصـوت أقـرب إلى الهمس منـه إلى الجهـر: مـا الـذي فعلتـه أيهـا المجنون؟.. لقد أحبطت كل شيء..

قال ذلك، ثم أشار إلى بعض الجنـود إشـارة خفيـة بـأن يطلـق

عليه النار، ففعل، فصحنا: إن هذا هو الذي أنقذنا، فكيف تقتلونه؟

لم يلتفت إلينا.. بل أخذنا إلى داخل القاعدة، وهناك التقينا بمن عرفنا ماذا نفعل، وما ينبغي قوله، وأخبرنا في نفس الوقت بأن أي تجاوز منا لما طلب منا لن يعرضنا إلا للموت.

عندما صحنا: إن ما تفعلونه جريمة، قالوا لنا: إن الأمن القـومي يقتضي هذا.. وليس في الحرب أخلاق.. فإما أن تتعهدوا أمامنا بمـا طلبنا، وإما أن تقدموا رؤوسكم لمن يحصدها.

لم نجد إلا أن نخضع لهم..

في ذلـك المسـاء.. رأينـا على شاشـات التلفزيـون مشـاهد البطولة التي تم بها إنقاذنا من بين أسنان أكلة لحوم البشر.. ورأينا في نفس الوقت كيف يكرم ذلك القائد الذي أهاننا والذي قتـل من أنقذنا.

ورأينا بعد أيام جحافل الطائرات، وهي تدك تلك المغـارة، ومن كان يسكن تلك المغارة.

***

قلت: فما فعل أصحابك؟

قال: لقد قدر الله لي أن أزورهم جميعا.

قلت: فحدثني حديثهم.

قال: عمن تريد أن أحدثك؟

قلت: حدثني عن أولهم.. ذلك الذي راح يبحث عن (الأنا)

قال: لقد وجدته مـع أسـتاذه وصـديقه الـذي جعلـه اللـه سـببا لهدايتـه.. وجـدتهما معـا في مـرعى من المـراعي الطـاهرة.. كانـا يتناجيـان، وتشـرق بتناجيهمـا الشـموس، وتتفتح الأزهـار، وتقبـل الأغنام على مرعاها الخصيب.

قلنا: فهل تحدثت إليهما؟

قال: لقد اقتربت منهما، لأتحدث إليهما، لكني سمعتهما يتحدثان عن معان راقية وحقائق عالية ومواجيد رفيعة، فلم أشأ أن أقطع حديثهما.. اكتفيت بالسماع.. ثم اكتفيت بالانصراف، وأنا أحمل في قلبي غبطة عظيمة لذلك الذي استطاع أن يقهر جميع ما لقنه أساتذته، ويقهر جميع ذلك الجاه الذي تمتلئ به قاعات المحاضرات.. ثم يرضى بتلك المراعي.. وبصحبة ذلك الراعي.

قلت: حدثني عن ثانيهم.. ذلك الذي راح يبحث عن سلام (القلب)

قال: وجدته مع صديقه سمنون المحب.. وجدتهما يتحدثان في عوالم من الجمال لم يطق عقلي أن يفهمها.

قلت: حدثني عن ثالثهم.. ذلك الذي راح يبحث عن سلام (العقل)

قال: وجدته مع صديقه المدرسي.. وجدتهما يتحدثان في مدارك العقول.. وعلى حقائق كان لها من قوة الدليل وعظمة الحجة ما كان عقلي معقولا عن إدراكه.

قلت: حدثني عن رابعهم.. ذلك الذي راح يبحث عن سلام (النفس) وأسرار تهذيبها وترقيتها.

قال: وجدته مع صديقه المحاسبي.. وجدتهما يتحدثان في عوالم التطهير والترقي التي كنت قد حدثتك عن بعضها.. وسأحدثك عن الباقي في باقي رحلتي.

قلت: حدثني عن خامسهم.. ذلك الذي راح يبحث عن سلام (الأسرة)

قال: لقد التقيت به.. وقد رأيته كون أسرة صالحة ممتلئة بعطر الإيمان.

قلت: حدثني عن سادسهم.. ذلك الذي راح يبحث عن سلام (المجتمع)

قال: لقد التقيت به.. وقد رأيته يسعى مع إخوانه لتكوين

المجتمع الصالح بالمواصفات التي وضعها الإسلام.

قلت: حـدثني عن سـابعهم.. ذلـك الـذي راح يبحث عن سـلام (العالم)

قال: لقد التقيت بـه.. وقـد شـهدت في الأخـير تلـك اللحظـات الأليمة التي قتل فيها.

قلت: من قتله؟ ولم قتله؟

قال: لقد أفشى بعض الأسـرار الـتي نهينـا أن ننشـرها.. فقـدم دمه قربانا لها.

قلت: أتلك التي ذكرتها لي من قصة إنقاذكم؟

قال: لا.. لقد رأى صاحبي ما هو أخطر من ذلك.. لقد ذكره لي عند زيارتي له.

قلت: وما رأى؟

قال: في تلك القاعـدة شـد انتباهنـا صـورة لجبـال ومغـارات لا تختلف عن الجبال والمغارات التي كنا فيها..

قلت: وما سرها؟

قال: لقد بحث صاحبي هذا عن سرها، وكانت معرفتـه لسـرها سبب قتله.

قلت: فقد ذكر لك هذا السر؟

قال: أجل.. لقد رأى صـاحبي رجلا ذا لحيـة طويلـة يـتردد على تلك القاعدة ليرسـل كـل الحين من البيانـات السـرية مـا تتنـافس جميع أجهزة الإعلام على نشره.

قلت: أتقصد..!؟

قال: أجل..

قلت: لقد كنا ضحايا مؤامرة محكمة إذن؟

قال: ولا زلتم.. ولا زلتم.

قلت: فحدثني عن تاسعهم (الأمازوني) ذلك الذي عشق أكوان الله.

قـال: لقـد شـاء اللـه أن أذهب إلى غابـة الأمـازون.. وهنـاك التقيت به مع صاحبه.. ومعهما نفـر كثـير من النـاس.. وقـد رأيتهم يزمعون على تأسـيس جمعيـة كبـيرة تضـم أهـل السـلام من أهـل الملل والنحل ليحفظوا للأرض سلامها وحياتهـا.. ويحفظـوا لأكـوان الله ما أودعها الله من أسرار إبداعه وقدرته.

قلت: فحدثني عن عاشرهم.. ذلك الذي راح يبحث عن الله.

قال: لقد وجدته في صـحبة اللـه.. ممتلئـا بـأنوار من الإيمـان.. ملأته سكينة وسلاما.

قلت: فما أخبار الفتنة التي أرادت أن تستأصل المسلمين؟

قال: لقد أطفأ الله ظلماتها بنور الحكمة.

قلت: كيف كان ذلك؟

قال: لـذلك حكايـة طويلـة.. ستسـمعها من أهلهـا.. فلم أكلـف بحكاية حكايتها لك.

هذا الكتاب

تتناول هذه الرواية أعقـد مشـكلة في الواقـع بكـل جوانبـه النفسـية والاجتماعيـة والسياسـية والاقتصـادية وغيرهـا.. وهي مشكلة الصـراع الـذي تنفخ فيـه جميـع شـياطين الإنس والجن، ليعيش الإنسـان محجوبـا عن ربـه، وعن عـوالم الجمـال الـتي خلقها له ربه.

وهي - كما تصف الواقع بمرارته وآلامـه - تحـاول أن تضـع بين يدي القارئ أنوار السلام الجميل التي أنقـذ اللـه بهـا عبـاده عبر رسله الكرام، وأولياءه العظام.

فهي تصف – بحيادية تامة- واقـع الصـراع بآلامـه وهمومـه وأحزانه.. كما تصف واقع السلام بكل آماله وأفراحه وسعادته.

والسلام الذي تصفه هذه الروايـة هـو المنطلـق من الـدين الإلهي الحقيقي.. لا الــدين البشــري المزيــف الــذي تفننت الشياطين في صناعته، وحاولت أن تخلطه بدين الله..